العرب

انتصاراتهم وأمجاد الاسلام

تأليف

أنتونى نتنج

ترجمة

دكتور راشد البراوى

١٩٧٤

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

مقدمة المترجم

حظى تاريخ العرب والإسلام باهتمام كثير من جانب الكتاب الغربيين وخاصة منذ القرن التاسع عشر ، وأخرجت المطابع الغربية أعداداً كبيرة من الأبحاث والدراسات والمؤلفات التى تتناول هذا التاريخ فى صورته العامة ، أو تركز على ناحية منه أو أخرى . وإذا كان فريق منهم قد أعماه التعصب أو الحقد لأسباب دينية أو عنصرية ، فخرج على قواعد الحق فى العرض والتحليل والاستنباط ، فإن هناك كثيرين غيرهم إتصفوا بالنزاهة إلى حد غير قليل ، ومن هؤلاء الأخيرين أنتونى نتنج الذى نقدم كتابه الحالى إلى القارىء من أبناء الوطن العربى . ولقد زاد من قوة دافعنا على ترجمة هذا الكتاب أن مؤلفه كان له موقف خليق بالتسجيل ، حيث استقال من وزارة أنتونى إيدن إحتجاجاً على العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ .

اتبع المؤلف فى كتابه هذا منهجاً طريفاً وله مغزاه ، ذلك أنه اتخذ من بعض الشخصيات العربية والإسلامية محاور دارت حولها أحداث ضخمة مر بها العالم العربى ، كانت تشكل علامات بارزة على طريق التطور . ليس معنى هذا أنه يجعل الفرد هو صانع التاريخ فحسب ، ولكنه يبرز العوامل السياسية والاقتصادية والفكرية التى تفاعلت مع هذه الشخصيات وأسهمت فى صنع الأحداث .

وهنا ملاحظة ينبغى تسجيلها . كان كتاب التاريخ العربى طيلة القرون الأربعة عشر الماضية ، يزخر بصفحات مضيئة ومشرقة ، مليئة بالإنجازات والبطولات والأمجاد فى مختلف الميادين وشتى المجالات . فما من شك أولا وقبل كل شىء أن بعثة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، كانت نقطة تحول

بالغة الأهمية فى تاريخ البشرية ، وبداية مرحلة حضارية لها عقيدتها السامية ، ومبادؤها ، وقيمها ، وأخلاقياتها التقدمية المنبثقة عن الدين الجديد . فعلى أيدى الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من بنى أمية وبنى العباس ، أصبحت المثل العليا التى جاء بها الإسلام فى أمور السياسة ، والحكم ، والاقتصاد ، والاجتماع ، قاعدة أعيد عليها بناء مجتمعات عريضة وعريقة فى آسيا وأفريقية كانت قدهوت إلى درك التدهور والانحلال السياسى والاجتماعى . وبفضل جهود أولى الأمر المسلمين وتشجيعهم نقلت علوم الأقدمين إلى العربية ثم زاد عليها العلماء العرب وطوروها ، وهكذا أسهم العالم الإسلامى إسهاماً ضخماً وفعالا فى إرساء أسس حضارة الغرب .

ولكن ، إذا كنا نجد ـ مثلا ـ عمر بن الخطاب بسبب سياسته المستنيرة العادلة فى معاملة أهل الكتاب وفى حكم الأقاليم التى دخلت فى نطاق الدولة العربية الإسلامية ، ونقدر الدور الذى لعبه معاوية بن أبى سفيان ثم الوليد ابن عبد الملك فى مد رواق الحضارة الإسلامية حتى بلغت الهند شرقاً وأسبانيا غرباً ، ونعتز بأمثال صلاح الدين الذى وحد العرب وأوقف الاستعمار الصليبى الغربى وأجبره على أن يبدأ فى أن يحمل عصاه ويرحل ، وبيبيوس الذى صد الاعصار المغولى المدمر فأنقذ الحضارة فى الشرق والغرب على حد سواء ، إلا اننا لا ننكر ولا يمكن أن ننكر ، أن بعض الحكام أو عمالهم فى الأمصار لم يلتزموا تماماً بما أمر الله به أن يتبع ، وأن فرقاً عدة ظهرت من حين لآخر تخفى تحت شعار الدين أحقاداً شعوبية وأطماعاً سياسية ، فكانت من معاول الهدم أو أدوات التخريب . إن التاريخ لا يمكن أن يكون أبيض تماماً أو أسود تماماً . والتاريخ العربى لا يشذ عن هذه القاعدة .

وثمة ملاحظة ثانية لها أهميتها تتعلق بموقف الأجانب الذين كتبوا

عن العرب والإسلام . فهؤلاء مهما حرصوا على الموضوعية أو اتسموا بالنزاهة والإنصاف فى كتاباتهم . أو أبدوا الإعجاب بالمنجزات ، فعلينا أن ندرك فوق كل شىء أنهم ليسوا عرباً وليسوا مسلمين .

هذه الحقيقة تنطبق بطبيعة الحال على أنتونى نتنج . ما من شك أن الرجل أقر للعرب وللاسلام بالفضل فى أكثر من ناحية ، وتناول حياة الكثير من الشخصيات بالعرض والتحليل اللذين يمتازان بالدقة . ولكنه فى الوقت نفسه ينتمى إلى شعب أجنبى . وإلى بلد لعب دوراً كبيراً فى فرض سيطرته على الكثير من بلاد العرب والإسلام . وأهم من هذا كما قلنا إنه ليس مسلماً . ولهذا الجانب الدينى أهميته من نواح عدة ، فى مقدمتها أنه عندما يتحدث عن نبى الإسلام فهو يتحدث عنه باعتباره شخصية تاريخية بارزة أو بطلا تاريخيا إن شئنا التعبير وليس رسولا يوحى إليه ، بعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً.

هذه النظرة يمكن أن تفسر الكثير من الأفكار والملاحظات والتعبيرات التى تضمنها مثلا الفصل المعقود عن الرسول . لهذا فمن الطبيعى أن يذكر المؤلف اسم « محمد » غير مقرون بصيغة « صلى الله عليه وسلم » مثلا ، على نحو ما يفعل الكتاب المسلمون . كذلك يقول (ص ٣٠) إنه « إكراماً لليهود جعل النبى من بيت المقدس قبلة » ، بينما الواقع أن اختيار بيت المقدس ثم التحول عنها لم يكن « إكراماً » لفريق من أهل الكتاب دون فريق آخر ، وإنما كان ذلك أمراً إلهياً . عن ابن عمر رضى الله عنه أنه « بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ أتاهم آت فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه قرآن الليلة وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة » (مسند أحمد بن حنبل ، ج ٢ ، ص ١١٣) .

وعندما يؤكد المؤلف أن الرسول صلوات الله عليه التقى بجماعة من

حجاج يثرب « يقول أنهم » بعد أن عادوا إلى ديارهم اقنعوا يهود مدينتهم أن محمداً هو المسيح المنتظر » (ص ١٩/٣٨) . ويبدو أن المؤلف استنتج هذا من الرواية التى ذكرها ابن هشام عن رهط من الخزرج لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمهم وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن « وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم .. فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : أن نبياً مبعوث الآن ، قد أظل زمانه » (السيرة النبوية ، طبعة الحلبى ، المجلد الأول ص ٤٢٨/٤٢٩) . أما الإشارة إلى محمد بأنه المسيح المنتظر ، فراجعة إلى ما كان اليهود يتوقعونه .

ومن الأخطاء التى وقع فيها المؤلف قوله مثلا (ص ٣٨) : « ان إصرار محمد على فضائل الإحسان والكرم ليبين كم استعار نبى الإسلام من المسيحية » . المعروف أن الأديان السماوية تتضمن أصولا أو مبادىء أساسية بعضها خاص بالعبادات والبعض الآخر يتعلق بالمعاملات ، ومن ثم لا معنى للزعم بأن الإسلام استعار هذا الشىء أو ذاك من المسيحية ، أو أن المسيحية نفسها استعارته من اليهودية . ذلك أن من الطبيعى أن تحض الأديان جميعاً على فضائل الإحسان والكرم ، وبعبارة أخرى نقول إن أمثال هذه الفضائل مشتركة لأن مصدرها واحد هو الله عز وجل .

ونظرة المؤلف التى أشرنا إليها ، تلون بعض تعليقاته . ومع كل ، يحدثنا عبد الله بن عباس (مسند ابن حنبل ، ج ١ ، ص ٢٨٧) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشىء . ومنه أيضاً (شرحه ص ٢٩١) أنه لما قدم الرسول المدينة رأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال ما هذا اليوم الذى تصومون فقالوا هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم قالوا فصامه موسى قال رسول الله أنا

أحق بموسى منكم ، قال فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصومه.
وهذه النظرة أيضاً تلون بعض ملاحظاته، فيقول مثلا إن الرسول صلى الله عليه وسلم «عقد زيجتين سياسيتين» : أولاهما بخالة خالد ، والأخرى بابنة عدوه الأكبر أبي سفيان (ص٣٦/٣٧) . وهذا رأى غريب فالرسول لم يقصد من وراء هذا أن يحصل على أية ميزة كانت ، سياسية أو اجتماعية مثلا ، فظروف اعتناق خالد الإسلام معروفة ولا علاقة لها إطلاقا بهذه الزيجة ، كما أن أبا سفيان ظل خصماً لدوداً للرسول إلى أن تم فتح مكة. إن النبي تزوج بأم حبيبة بنت أبي سفيان حيث تنصر زوجها بالحبشة وأصبحت وحيدة ، وأبوها وأخوها مشركان . وبرغم المصاهرة التي قد يحاول الكتاب الغربيون أن يخرجوها من إطارها العادى وأن يكسبوها حجماً أكبر من حجمها الحقيقى ، فما كان محمد ـ المبعوث من قبل الله ـ ليعتمد فى نجاح رسالته السماوية على شخص معين أو على مصاهرة مع بيت معين من بيوت قريش . وعلينا أن نتذكر أنه « لم يكن بطن من قريش إلا لرسول الله فيه قرابة »[1] .

وفى محاولة لنفى العصمة عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وفى وضع التأكيد على أنه بشر ، يستخدم المؤلف تعبيرات قد يتجاوز عنها القارىء الغربى ويراها مؤدية الغرض المتوخى ، ومن قبيل هذا قوله عن النبي أنه « لم يخجل من الاعتراف بنقاط ضعفه بل ومن كشفها علانية » (ص ٤٤) . ربما كان التعبير الأصح أو الأدق هو أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يجد غضاضة أو حرجاً بدلا من « لم يخجل » .

إن النبي لم يقل أبداً أنه معصوم ، ومصداق هذا مثلا قول الله عز وجل « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » . ولكن الذى تشير إليه هذه الآية أو

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ، ج ١ ، ص ٢٢٩ .

غيرها شيء ، والكلام عن « نقاط ضعفه » شيء آخر إذ يمكن أن يسيء ذوو النية السيئة فهم هذا التعبير .

وعندما يقول الكاتب : « كان نفوذه على قلوب العرب وعقولهم شخصيا » (ص ٤٣) ، فهذا أمر طبيعي ومفهوم ، وإن كان هذا النفوذ الشخصي مستمد من الرسالة السماوية التي كان يبشر بها باعتباره رسول الله .

هناك نظريات عدة في تفسير التاريخ . فالنظرية القديمة كانت ترى أن الفرد هو صانع التاريخ . وثمت مؤلفون وضعوا التأكيد كله أو معظمه على العوامل الروحية ، بينما يجعل آخرون الأولوية للعامل المادي أو العامل الإقتصادي بعبارة أخرى . أما الإسلام فنظرته أوسع وأشمل ، إذ يجعل لكل من العوامل الروحية والاقتصادية والسياسية والشخصية دورها . وهنا نسأل : ماموقف المؤلف من هذه الاتجاهات ؟ يقول (ص ٦٩) : « كان الجانب الأكبر من الجيوش العربية يتكون من قبائل لم تكن العقيدة الإسلامية قد تغلغلت في أعماقها ، ولم تكن بالتأكيد لتحرج من أراضيها التقليدية لمجرد الخروج وإنقاذ أرواح أبناء عمومتهم العرب من أسارى الشرك والكفر . . . الذي أخرج القبائل ودفع الجيوش العربية إلى غزو أراض تتجاوز حدود بلادهم ، كان الحاجة إلى مجال حيوي ، أو بعبارة أدق ، الحاجة إلى مجال للعيش » . من هذا يتضح أن المؤلف يأخذ بالتفسير المادي للتاريخ وهو يحاول بيان العوامل الكامنة وراء الفتوح الإسلامية . لقد كانت الرغبة في نشر الدين العامل الرئيسي ولكنه يرى أن هذا العامل لم تكن له الغلبة أو الأولوية ، إذ يعتقد أنه لم يكن قد انقضى وقت كاف على اعتناق القبائل العربية للاسلام ، ومن ثم فمن رأيه أن البحث عن مجال للعيش كان أقوى الدوافع على عمليات الفتح . قد نختلف مع الكاتب ولكن التفسير الاقتصادي للتاريخ يمثل مدرسة فكرية

واسعة الإنتشار وتلقى التقدير الكبير ؛ كما أن تركيز الكاتب عليه فى تفسير الفتوح ، لايمس الإسلام أو العرب على الاطلاق أو ينتقص منهم .

ومن أسباب الأخطاء التى وقع فيها الكاتب وغالباً مايكون هذا بحسن نية أو على الأقل بغير نية سيئة ، افتقاره إلى المعرفة الكافية بالشريعة الإسلامية، ومن هنا نراه يقول (ص ١٣٧) : « ربما لأن الشريعة الاسلامية أباحت تعدد الزوجات ولم تجعل الطلاق ممكنا فحسب ولكن سهلت الحصول عليه » . لو كان المؤلف على علم دقيق لماساير مؤلفين غيره فى هذه الفكرة ، فالإسلام إنما نظم الزواج ، وإذا كان قد أباح تعدد الزوجات لاعتبارات تتصل بمصالح المجتمع بل واصالح نظام الأسرة نفسه ، فهو فى الوقت ذاته أحاط هذا الأمر بقيد شديد هو العدل بأوسع معانيه ، كما أحاط الطلاق بالقيود التى تجعل الحصول عليه عسيراً أو تجعله أبغض الأشياء إلى الله — فإذا أساء البعض استخدام هذه الرخصة فالعيب فيهم وليس الإسلام بمسئول عن هذا .

ويقول المؤلف (ص ١٨٤) : « فبسبب ما قضى النبى من أن النساء اللائى يؤسرن من الكفار يصبحن ملك يمين فان الألوف من النساء والفتيات جرى استيرادهن ليملأن حريم الأجيال المتعاقبة من الفاتحين العرب » . هذا الرأى أو الحكم لاسند له من الكتاب أو السنة . إن السبى لم يكن من خلق الإسلام ولكن كان موجوداً من أقدم العصور وكانت تمارسه مختلف المجتمعات بوصفه من غنائم الحروب. ومع كل فإننا نرى الكاتب يقول عن الشريعة الإسلامية. « وأباحت للرجل أن يقتنى أى عدد من الأماء والجوارى بشرط أن يحسن معاملتهن ويرعاهن كأنهن من أهل بيته » ولعل الكاتب استخلص رأيه هذا من الحكم الذى أصدره سعد بن عبادة ، بشأن يهود بنى قريظة وكان مما قضى به « أن تسبى الذرارى والنساء » جزاء لهم على خيانتهم

وغدرهم ابن هشام (، السيرة ، المجلد الثانى ، ص ٢٤٠) ونزلوا على الحكم مما يدل على أنه كان أسلوبا مألوفا فى العالم قبل مجىء الإسلام .

وثمة ألفاظ أو تعبيرات قد لا تألفها أذن القارىء العربى . فالكاتب مثلا يتحدث عن « جوارى » الرسول بدلا من « الصحابة » ولكن المعنى واحد تقريبا ، ويؤثر عنه صلى الله عليه وسلم قوله أن لكل نبى حوارى وأن حواريه هو الزبير بن العوام .

ومن هذه التعبيرات أيضاً ما جاء فى صفحة ٤٩ عن عمر بن الخطاب « حماسه المتعصب »، والواضح أنه لا يقصد التعصب بالمعنى المرذول وإنما يصف هذا الحماس بأنه شديد لا هوادة فيه ، ولعل الوصف الذى استخدمه المؤلف أدق . كذلك يدخل فى هذا النطاق قوله (ص ٥٥) : « ما اتصف به خالد من البرود » والبرود هنا معناه الثبات وهدوء الأعصاب . وكثيراً مايردد الكاتب كلمة « الغزاة » المسلمين (ص ٥٨ مثلا) والمراد بها الفاتحون . ومما هو غير مألوف كذلك تعبير « المدارس الكنسية » (ص ٦٦) ويعنى بها المدارس الدينية أو الكتاتيب كما عرفت فى عصور متأخرة ، ولا شك أن الكاتب متأثر بما كان موجوداً فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى من هذا النوع من المؤسسات .

نعلم أن عمال عمر بن عبدالعزيز فى الأمصار شكوا إليه من أن الإيرادات لا تكفى لتسيير أمور الدولة نظراً لكثرة حالات الدخول فى الإسلام ، وهنا يقول الكاتب (ص ٧٠) : « أما فى الأقاليم الشمالية فكانت عملية التحويل إلى الإسلام يسيرة نسبياً فى أوائل مراحل الفتوح العربية ويبدو كما لو كان الخلفاء تعمدوا تشجيع الكفار على البقاء على كفرهم حتى يتسنى جباية الضرائب منهم لبيت المال » . وهنا يجب أن نلاحظ أن الإسلام لم يدع أبداً

إلى استخدام القوة أو القسر لحمل الناس على اعتناقه ، إذن لم يتعمد الخلفاء ابقاء الكبار على كفرهم وإنما استرشدوا فى سياستهم بتعاليم دينهم السمحاء . وفضلا عن هذا ، فإن أهل الأقاليم الشمالية كانوا من أهل الكتاب ولم يكونوا من الكفار . أما أن عمر بن الخطاب أمر باخراج جميع اليهود والنصارى من شبه الجزيرة العربية فإن النبي نفسه أوصى بألا يكون فيها دينان. عن سعد بن أبى وقاص : آخر ما تكلم به النبى أخرجوا يهود الحجاز ، وأهل نجران من جزيرة العرب (ابن حنبل ، ج ١ ص ١٩٥) . وفضلا عن هذا ، ما كان غدر اليهود إبان حياة الرسول لينساه المسلمون ، وفى استمرار وجودهم قدر من الخطر فى بلد حديث العهد بالدين الجديد .

من هذا يتضح أن إجلاء اليهود والنصارى من شبه الجزيرة العربية كان لضرورة عليا يقدرها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومات قبل أن ينفذه ، فكان لزاماً على خلفائه أن يعملوا بما أوصى به . وإذن لا معنى للحديث عن « التفرقة العنصرية » التى هى أبغض الأشياء إلى الإسلام ، وها هو ذا النبى يعلن أنه لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .

ويعود الكاتب إلى هذه الفكرة فيحدثنا (ص ٧٣) أن سيلا من المهاجرين العرب راح يتدفق على البلاد المفتوحة ويشترك مع الجيوش العربية فى الاستيلاء على أراضى الفلاحين من أهلها . ثم يقول « .. تحول مبدأ العنصرية الذى يقوم عليه دستور عمر إلى عبودية .. إن فكرة عمر الأساسية عن تفوق المسلمين والعرب .. »

نلاحظ أولا : انه إذا كان بعض العرب قد تملكوا أرضاً فى البلاد المفتوحة ، فهذه كانت الأرض التى مات عنها أهلها أو هجروها فآلت إلى بيت المال ، ومن ثم لم تنتزع من أيدى أصحابها .

وثانياً ، فإذا استثنينا الجزية فإن أهل البلاد المفتوحة كانوا يعتبرون مواطنين من الدرجة الأولى ولم يكن ثمت فرق بينهم وبين العرب المسلمين . وإذن فدستور عمر لا يفرض أية تفرقة عنصرية ، ولم يقم على فكرة وجود تفوق حتمى ، ذلك أن الإسلام يضع معايير للتفاوت ليس من بينها الجنس أو اللون أو ما أشبه هذا من الإعتبارات .

ربما كان المؤلف شديداً نوعاً فى أحكامه على عثمان بن عفان ، فوصفه مرة بأنه كان « محدث نعمة ومسنا» (٨١٩) ثم قال فى موضع آخر « كانت الخمر والنساء والشعر طابع عهد عثمان » وإن كانت العبارة الأخيرة لا تمس الخليفة شخصياً . ومع كل ، فالكاتب يعتبر أخف بكثير فى أحكامه مما كان خصوم عثمان يوجهونه إليه وما كانوا يأخذونه عليه فى سياسته وتصرفاته .

ويبدو أيضاً أن الكاتب ليس ممن يؤمنون بالحلول الوسط وإنما يفضل الحسم فى اتخاذ القرارات ، ومن هنا نراه يعزو ما أصاب على بن أبى طالب ، إلى التراخى والتهاون (ص ٨٩) . قد يكون فى هذا الرأى قدر من المبالغة فى التصوير والتفسير ، ولكنه وجهة نظر بناها الكاتب على الظروف والأحداث والتصرفات التى أدت إلى النهاية المفجعة التى ختمت بها حياة رابع الخلفاء الراشدين . ولعل المؤلف اعتمد على موقف الجماعة الذين اشتبك معهم على رضى الله عنه فى وقعة الجمل ، وعلى عدم تمسكه برأيه عندما طلب منه بعض رجاله الاستجابة إلى ما طلبه رجال معاوية أثناء وقعة صفين من تحكيم القرآن .

قد يتراءى للبعض أن الكاتب متحامل على الحسن بن على ، إذ يقول : « من تنازل (أى الحسن) على الفور لمعاوية الذى بعث إليه بصحيفة بيضاء وكتب إليه أن اشترط فى هذه الصحيفة التى ختمت أسفلها ما شئت فهولك .

لم يخجل الحسن من أن يطلب ويشترط فى رده أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف درهم ، وعندئذ وقد وضع فى جيبه مكاسب لا يستحقها » . ان قصة الصحيفة صحيحة أوردها المؤرخون العرب ، ولكنها فى الواقع نوع من الترضية ، كما أن المبلغ جنب العالم الإسلامى المزيد من الحرب والفتنة .

ويلاحظ أن معاوية هو الذى تقدم بالعرض ، ومن ثم لا معنى للقول بأن الحسن ، « لم يخجل » أو أنه « وضع فى جيبه مكاسب لا يستحقها » .

ومن العبارات التى تكررت عبارة « الزندقة الشيعية » (ص ٢٢١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، مثلا) . التعبير ليس غريبا أو متعسفا لأننا نلقاه فى مؤلفات كتب أهل السنة فى تلك العصور ، فالشهرستانى فى « الملل والنحل » والبغدادى فى « الفرق بين الفرق » والأشعرى فى « مقالات الإسلاميين » وابن النديم فى « الفهرست » يتحدثون عن فرق من قبيل الشيعة والخوارج الخ باعتبارهم من أصحاب الضلالات أو من الزنادقة .

ويقول المؤلف « وهكذا انسحب العرب إلى الصحراء وهم على استعداد لأن يسيروا وراء أى خارج على القانون » يناشد حبهم الفطرى للسلب والتمرد والغزو. (ص ٢٠٦) » . من المؤكد أنه لا يقصد « العرب » بالمعنى العلمى، وإنما يقصد « الأعراب » الذين وصفهم القرآن بأنهم أشد كفراً ونفاقا . ولعل الكاتب متأثر فى هذا ببعض ما كتبه ابن خلدون فى هذا الشأن .

وينبغى ان نلاحظ أنه عندما يكتب المؤلف « لجاز أن يفقد الإسلام روحه الحربية » (ص ٢٣٥) فهو يعنى « العالم الإسلامى » . وعند ما يشبه « السيدة سكينة بنت الحسين الذى مات شهيداً » بالسيدات اللاتى اشتهرن فى بلاط لويس الخامس عشر ملك فرنسا (ص ١٣٢) ، فيخيل إلينا أن هذه الملاحظة العابرة من جانب كاتب غربى لا يقصد بها الانتقاص من السيدة

سكينة وإنما هو يريد أن يصفها بالذكاء والفراهة والمواهب والنفوذ وهي الصفات التي كانت تتميز بها نساء ممتازات في بلاط الملك الفرنسي .

كما أنه يريد أن يصفها أيضاً بالليبرالية وعدم التزمت برغم أنها كانت بنت « الحسين الذي مات شهيداً » .

وعندما يذكر الكاتب ان صلاح الدين كان مصمما على قتل شاور (ص ٢٤٦) وأنه قتل حاكم الكرك الصليبي (٢٥٨) فلسنا نجد في هذا إلا عرضا موجزاً لعقاب هو أقل مما كان يستحقه هذان الغادران اللذان أسهب الكاتب في بيان تصرفاتهما وخاصة جرائم الثاني منهما ، وهذه حوادث فردية تافهة إذا قيست بما ذكره المؤلف عن تصرفات صلاح الدين الأخرى الإنسانية. وإذا كان زنكي استولى على بعلبك حيث أعدم الحامية بعد أن أمنهم على حياتهم (ص ٢٤٠) ، أو أن بيبرس قتل حامية صفد بعد استسلامها (٢٧٤) فلكي نكون منصفين ينبغي ألا ننسى أنه كانت هناك الاعتبارات الاستراتيجية في وقت كان الصليبيون يحتلون فيه أرضاً إسلامية . وعلينا أن نذكر في الوقت نفسه ما كتبه المؤلف أو ما نقله عن مصادر أخرى ، عن الفظائع الرهيبة التي ارتكبها الصليبيون والمغول ، ووصفها ودمغها بما تستحقه من تنديد واستنكار .

أما ان بيبرس كان يدعو إلى كراهية المسيحيين بسبب تحالفهم غير المقدس مع هولاكو (ص ٢٥٧) فيجب أن يؤخذ هذا في إطار الحديث كله ، وعلى أنه يشير إلى تعاون حكام أرمينية المسيحيين مع هولاكو الوثني . وأشار المؤلف إلى رسالة بيبرس (٢٧٥) وهو في هـــذا يستند إلى مراجع تاريخية ومع كل فظايع المبالغة واضح لأن بيبرس لم يفعل شيئاً مما ورد في

رسالته المزعومة ، ولكن كلامه هذا كان نوعا من حرب الأعصاب وهذا أسلوب مقبول فى ظروف الحرب فى كافة العصور .

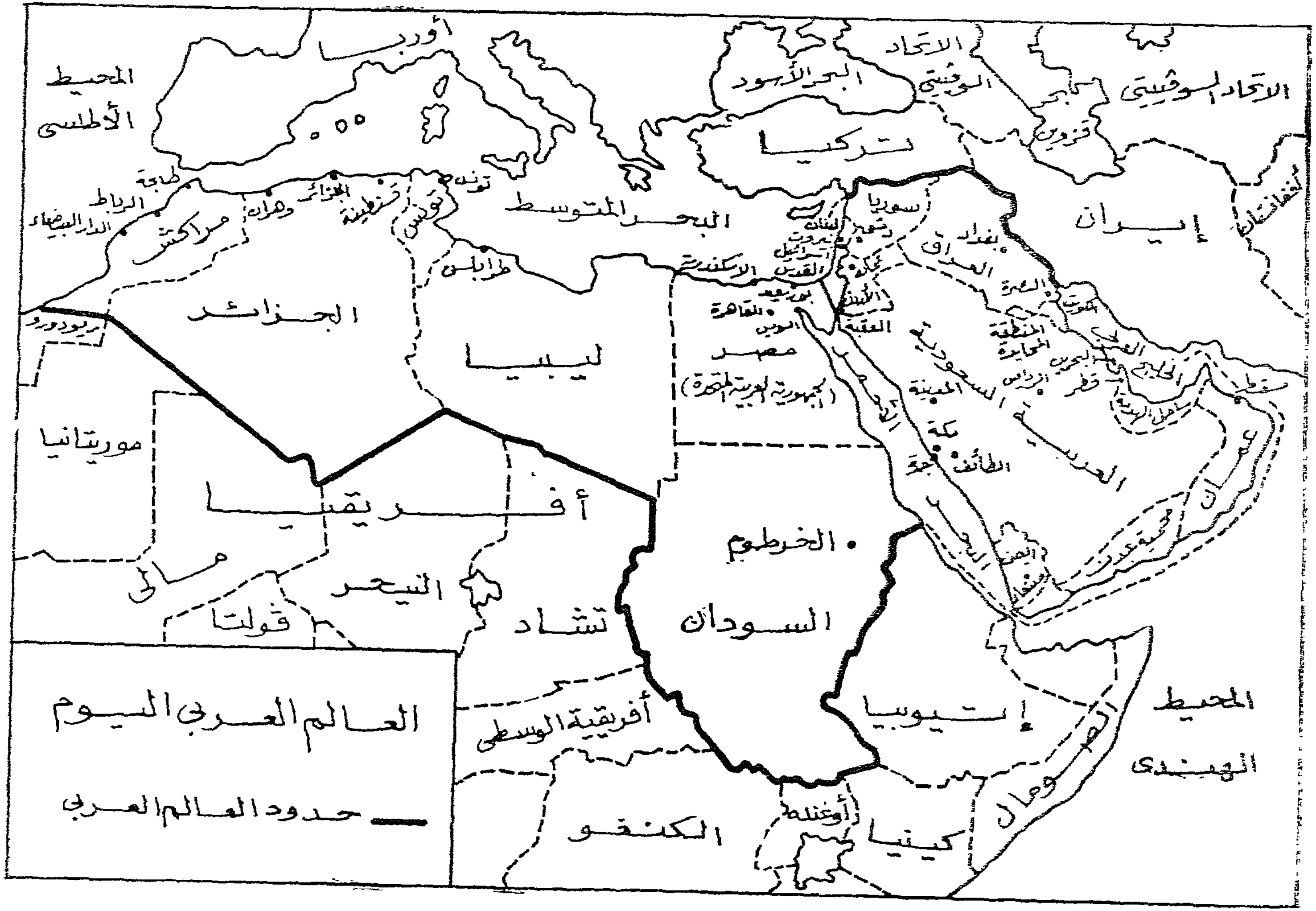
وفى دهشة من السرعة التى تمت بها الثورة العباسية وهى سرعة ربما تفوق مثيلاتها فى القرن العشرين حيث البرق والراديو يساعدان سرعة المواصلات يقول الكاتب إننا الآن « أصبحنا متعودين على انقلابات خاطفة فى العالم العربى يستولى فيها الثوار على محطة الإذاعة ويعلنون أن الثورة تمت حتى قبل أن تبدأ » . وليس هذا بالأمر الغريب وأمامنا ماحدث على أيدى حسنى الزعيم والحناوى وعبد الكريم قاسم ، وهو غير مقصور على العالم العربى بل نجد له أمثلة عديدة فى أمريكا اللاتينية وأفريقية . وهذه الانقلابات تختلف عن الثورات التى تنشب بسبب تراكم عوامل سياسية واقتصادية ويكون لها أهداف ومضامين اجتماعية .

هذه ملاحظات على بعض مآخذ قد نأخذها على كتاب اتتونى نتنج تضاف إلى غيرها مما أوردناه فى الحواشى كلما وجدنا هذا ضروريا . إذا كانت الأمانة فى الترجمة تفرض نقل النص الأصلى دون تحريف ، فالأمانة بالنسبة إلى التاريخ والحقيقة تفرض أيضاً التعقيب ومناقشة أفكار الكاتب وآرائه . ومع كل ، فهذه المآخذ كما ندعوها لاتقلل على الإطلاق من نزاهة الكاتب ومن عرضه الرائع للاحداث التى شهدها العالم العربى منذ مقدم الإسلام ، كما أنها لا تنتقص أبداً من قيمة الكتاب الذى يسرنا أن نقدمه إلى إخواننا وأبنائنا فى العالم العربى والإسلامى ؛ فالواقع أنه من المؤلفات القلائل التى تظهر تاريخنا فى ضوئه الحقيقى ، ويثبت فى وضوح وجلاء أن هناك كتابا ليسوا عربا ولا من المسلمين ولكنهم يعترفون فى صراحة بانجازات وأمجاد العرب والمسلمين .

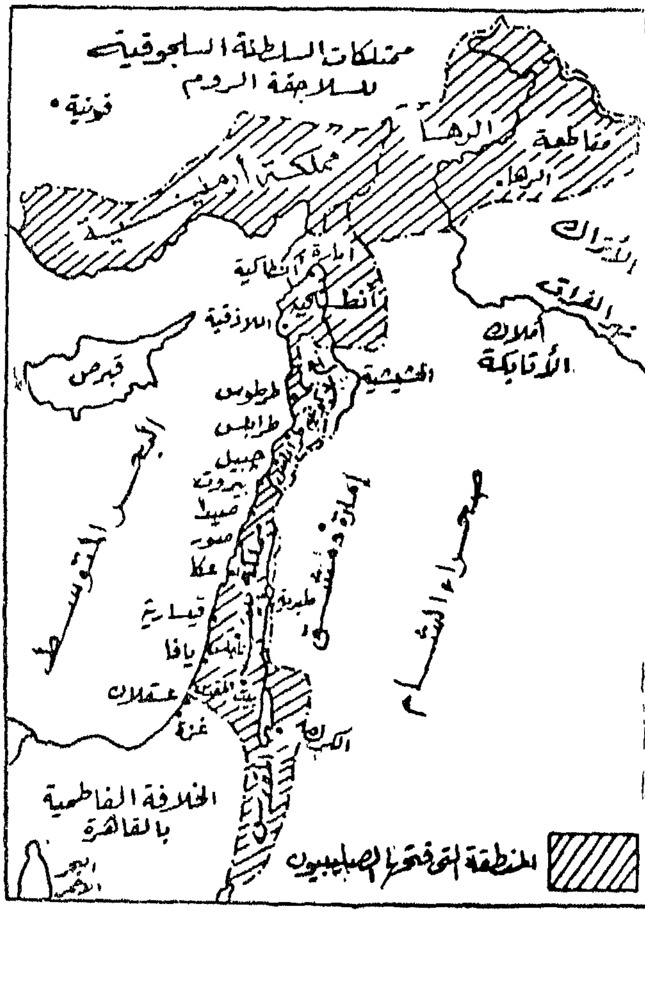
ونحن إذ نقدم هذه القصة أو الملحمة العربيةالإسلامية فى ثوبها العربى ، نسأل الله التوفيق فى خدمة وطننا العربى والإسلامى الذى نعتز به ونثق أنه سوف يستعيد حتما ما كان له من دور مؤثر على امتداد أربعة عشر قرنا .

القاهرة فى أكتوبر ١٩٧٤

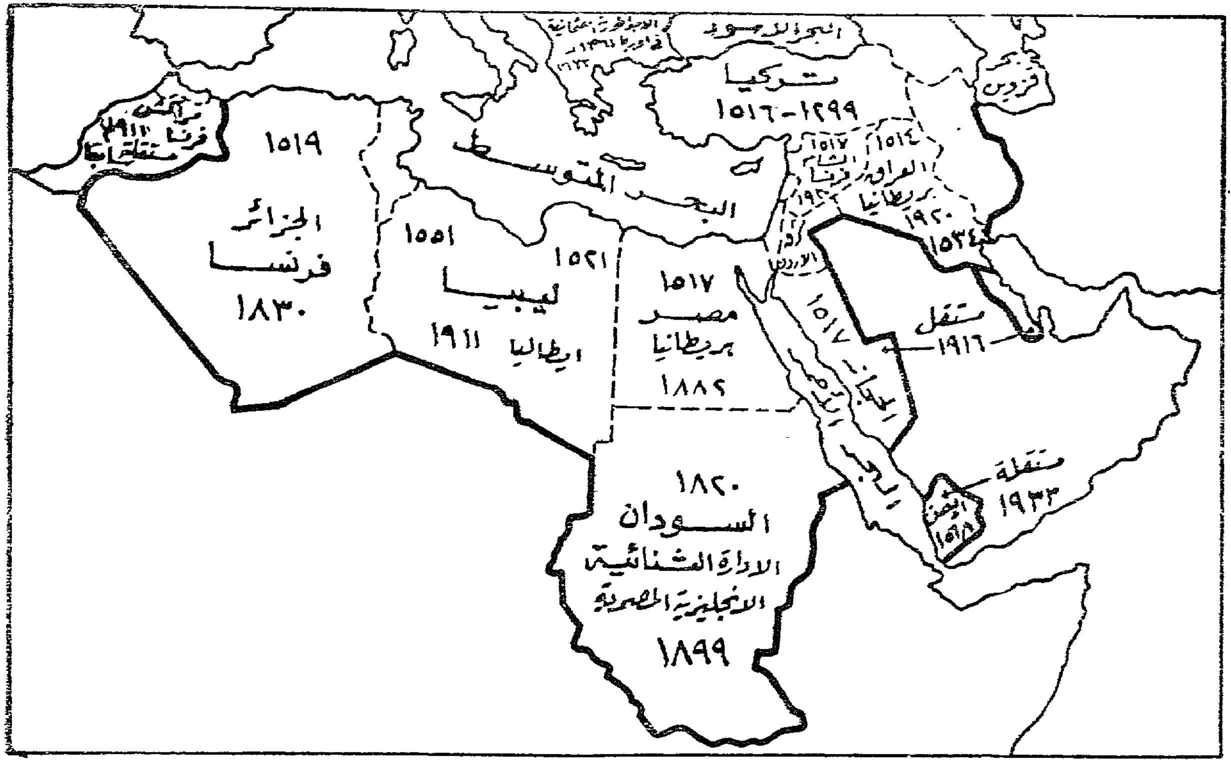
راشد البراوى


العالم العربي اليوم
حدود العالم العربي
المحيط الأطلسي
أوربا
البحر المتوسط
البحر الأسود
تركيا
الاتحاد السوفيتي
إيران
الجزائر
ليبيا
مصر
(الجمهورية العربية المتحدة)
القاهرة
الإسكندرية
السودان
الخرطوم
موريتانيا
أفريقيا
مالي
النيجر
تشاد
فولتا
أفريقية الوسطى
الكنغو
أوغندة
كينيا
إثيوبيا
الصومال
المحيط الهندي
العراق
بغداد
سوريا
لبنان
الكويت
العربية السعودية
المدينة
مكة
الطائف
جدة
الرياض
قطر
البحرين
عمان
مسقط
اليمن
صنعاء
محمية عدن
تونس
مراكش
الرباط
الدار البيضاء
طنجة
الجزائر
وهران
طرابلس
العقبة
السويس
بور سعيد
البحر الأحمر
الخليج العربي

الغزوات الصليبيـــة فى القرنين
الحادى عشر والثانى عشر

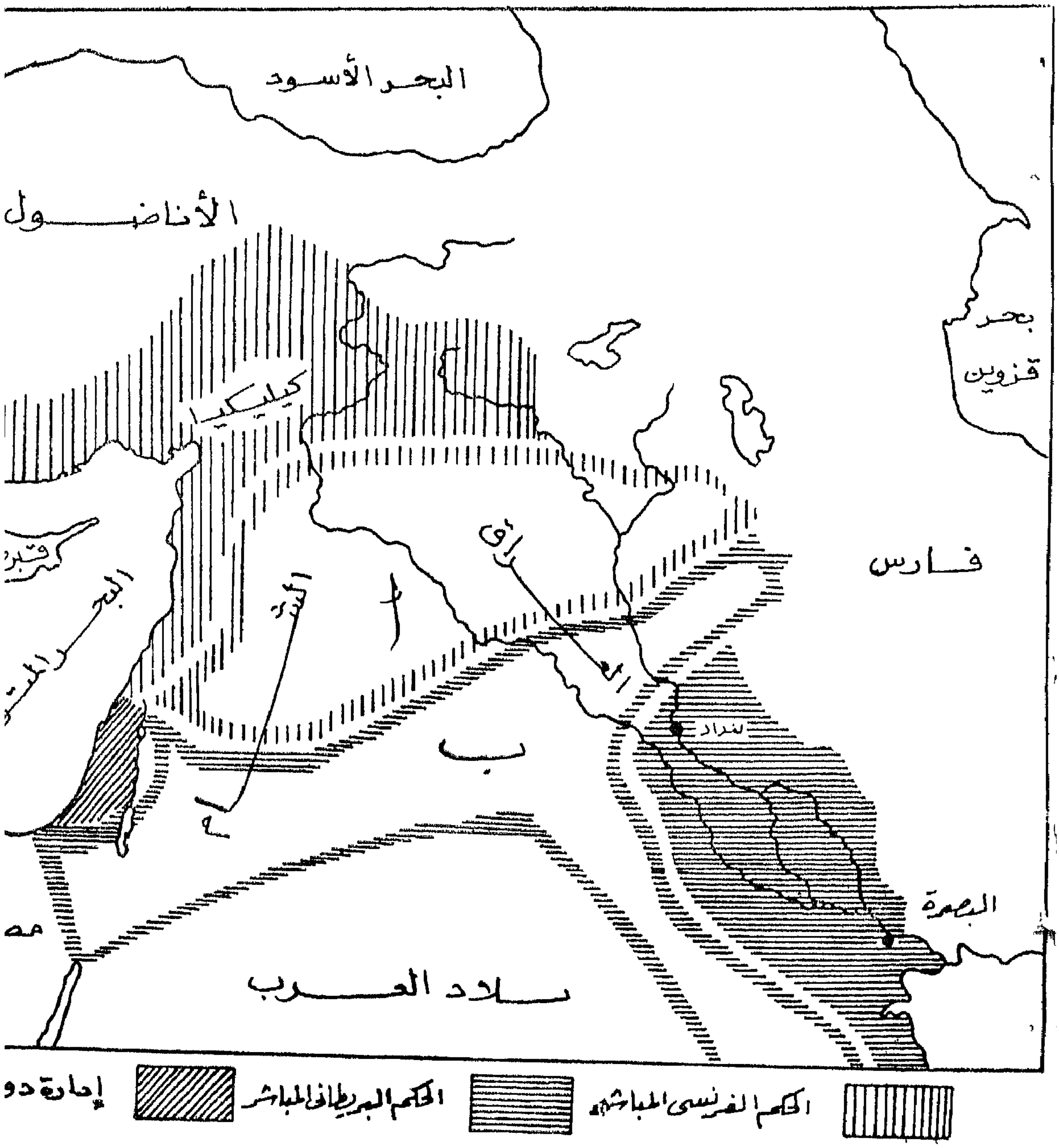


الإمبراطورية العثمانية . قيامها وسقوطها ، وتبين عدوان
القوى الأوروبيـــة فيما بين عامى ١٨٠٠ و ١٩٢٠

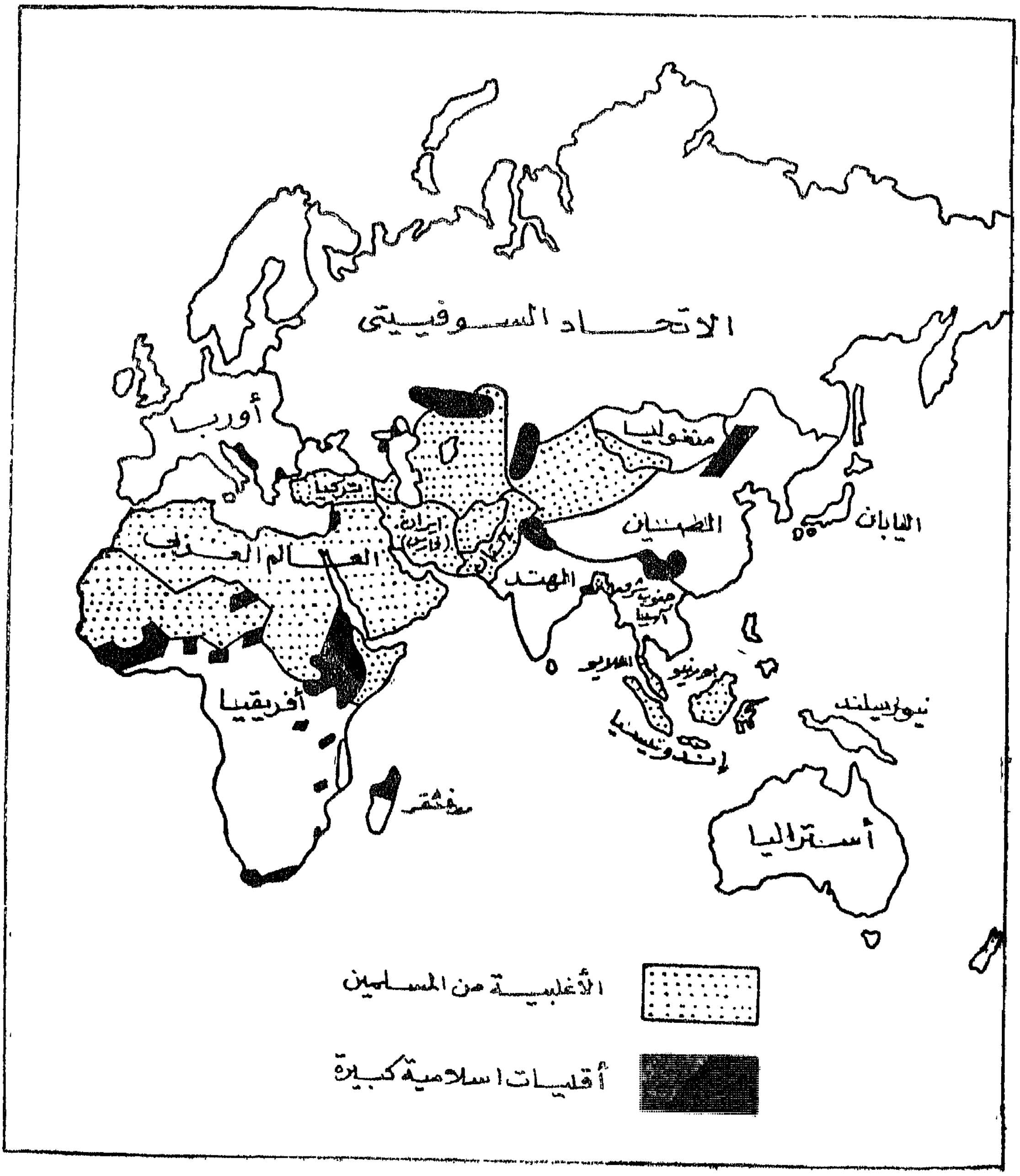


تقسيم العراق وسوريا طبقا

لإتفاق سايكس — بيكو



العالم الإسلامى اليـــــوم



الجزء الأول

عصر الفتــــوح

الفصل الأول

العالم العربى قبل الاسلام

يصنع الناس التاريخ بأكثر مما يصنع التاريخ الناس . ولكن لا يمكن أن يكون هناك جنس أو شعب تاريخه أكثر ارتباطا بالأشخاص من تاريخ العرب . فعلى امتداد أربعة عشر قرناً تقريباً منذ مقدم النبى محمد تتكشف قصة العالم العربى كسلسلة جبلية طويلة ، تحلق فيها قمم من الغزو والقوة تمثل الشخصيات التاريخية العظيمة — من أمثال خالد بن الوليد وصلاح الدين وعبد الرحمن وبيبرس ومحمد على وناصر — ونلقى بين القمم أخاديد وأودية شديدة الانحدار تبين التدهور الشديد المفاجىء بعد أن تكون كل شخصية عظيمة قد غادرت المسرح . لقد تعاقبت على حكم العالم العربى ، على مر القرون وبصورة جزئية أو كلية، أسرات مختلفة — الأمويون والعباسيون والفاطميون والأيوبيون والمماليك والعثمانيون وأسرة محمد على، ثم كان الهاشميون أحدثهم عهداً . وفى انتظام كامل كان مؤسس كل أسرة يقتطع لنفسه امبراطورية يفقدها ورثته وخلفاؤه عاجلا أو آجلا ، ثم يأتى بعد ذلك زعيم جديد أو بيت جديد ليكرر العملية .

هذا النمط من الانجاز العظيم والانحلال الشديد استمر فى العالم العربى منذ أتاح قيام الإسلام لأتباع محمد عقيدة نضالية يخرجون بها من بلاد العرب فى القرن السابع الميلادى ويفتحون فلسطين ومصر والشام والعراق . فى أول الأمر ، وبعد أن أخفق بنو أمية المحاربون فى خنق الإسلام ولما يزل فى المهد، دخلوا فى الدين الجديد وانتزعوا السلطة من خلفاء محمد . وبعد أن نقلوا الخلافة

من مكة إلى دمشق اجتاحوا آسيا وأفريقية وأوربا ليبنوا أكبر امبراطورية فى تاريخ العالم ، تمتد من منغوليا إلى مراكش ،ومن عدن إلى جبال البرانس. وفجأة انتقل مركز القوة إلى العراق لما أنزل بنو العباس من آل محمد انتقامهم الرهيب بالأمويين وكادوا أن يمحوهم من الوجود . ولكن ،بعد أن انصرف العباسيون عن بناء الامبراطوريات ليخلقوا فى بغداد مركزاً للثقافة والفخامة لم يكن له منافس فى ذلك العصر ، لانت طباع العرب بفعل الترف والغنى ولم يعودوا أنداداً للفاطميين الذين خلفوهم فى مصر ، وكانوا أقل من ند للصليبيين الذين فتحوا فلسطين، أو لجحافل المغول بقيادة هولاكو وتيمورلنك الذين سحقوهم فى فارس والعراق والشام .

وحطم صلاح الدين وأسرته الأيوبية بدورهم الفاطميين وحرروا فلسطين والشام من الصليبيين الغزاة . ولكن حتى امبراطورية صلاح الدين الكبيرة تمزقت بفعل المنازعات بين خلفائه وسقطت فى أيدى المماليك .

كانت مصر قد أصبحت الآن المركز الجديد للنفوذ والعلم العربيين ولكن هذا لم يكن كافيا لصد التيار التالى من الغزو عندما انقض الأتراك العثمانيون من الأناضول وبسطوا سلطانهم على العرب من دجلة إلى النيل وما وراءه . وترك لمحمد على الضابط فى فرقة ألبانية بالجيش العثمانى ، أن يرفع راية الثورة ضد السيطرة التركية، كما ترك لمجموعة من العرب المسيحيين بالشام أن يوقظوا من جديد العالم العربى من رقاده الطويل فى ظل الحكم العثمانى . وخلال الحرب العالميــــة الأولى انتزع البيت الهاشمى الذى أسسه الحسين شريف مكة ، الاستقلال من الامبراطورية التركية المتداعية . ولكن بعد أن كانت بداية هذه الأسرة تبشر بالآمال وقعت ضحيــــة للمؤامرات الانجليزية — الفرنسية ولأطماع قوة حديثة النشأة هى الملك ابن سعود صاحب نجد الواقعة فى وسط

شبه الجزيرة العربية . من الأسرة الهاشمية المتكبرة يتبقى ملك شاب وحيد فى الأردن يستمد إلى حد كبير قوته من الانقسامات فى صفوف منافسيه وجيرانه، بينما قومية عربية ثورية جديدة نادى بها نبى سياسى جديد هو جمال عبد الناصر، تتغلغل بقوة كالنار فى مشاعر الجيش العربى . إن الفصول التالية لا تحاول تفسير هذا التاريخ الطويل والحماسى بالتفصيل ، بقدر ما تحاول أن ترسم الشخصيات الطيبة والرديئة ، والشهيرة والمشينة ، التى ساعدت على صنعه . هذه الفصول ليست سجلا للأحداث بقدر ماهى متحف يضم صور الشخصيات التى جعلت الأحداث شيئاً محتوماً .

نظراً لعدم وجود كتابات مدعومة بالمستندات قبل أن أنتج الرومان نبات البردى فى مصر ، اقتصر التاريخ العربى فى أوائل عهده على الروايات والأمثال والقصائد التى تناقلتها الألسنة شفاهاً ولم تسجل على الورق ، وذلك طيلة مئات السنين بعد الأحداث التى كانت هذه الأشياء تشير إليها . ولكن المحاولات الناجحة فى القرن التاسع عشر فى فك رموز الكتابات التى تعود إلى العصر السابق على ظهور المسيحية ، كشفت عن تشابه بين لغــات البابليين والأشوريين والآراميين والكلدانيين والفينيقيين والعموريين والعبرانيين والعرب والأحباش ، وهو تشابه ملفت للنظر بحيث يوحى بأن هؤلاء الناس جميعاً لا بد وأنهم ينبثقون من نفس الأصول . ومن هذا ثبت أن أسلافهم المشتركين كانوا العرب الأصليين — أو الساميين من قبيلة سام — إذ أن اسم « عربى » هو التعبير السامى عن ساكن الصحراء — وأن أول استيطان للعرب على نطاق شامل إنما كان فى اليمن على عهد مملكة يأرب وهى الجيل الخامس من نسل سام . ثم ، وعند ما ضاق هذا الركن من شبه الجزيرة العربية عن أن يضم شعباً يسير فى طريق الازدياد ، بدأت حوالى عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد أول هجرة عربية على طول الساحل الغربى لبلاد العرب ، وعن طريق الحجاز

وسيناء ، إلى مصر حيث اختلط الساميون بالحاميين ليخرج منهـا المصريون الذين عرفهم التاريخ واستوعبوا تلك العناصر من العلم والثقافة وهى العناصر التى تقوم عليها حضارتنا .

وحدثت هجرة أخرى على الشواطىء الشرقية لبلاد العرب انتهى بها المطاف فى وادى نهرى دجلة والفرات حيث اختلط الساميون بالسومريين غير الساميين ليخرج منهم البابليون ؛ وعلى غرار أشباههم فى مصر واءموا بين ما وجدوه هناك من ثقافة وتقاليد وأساليب عامية وبين حاجاتهم . وبعد ذلك بألف عام حدثت عمليات امتزاج جديدة بين أهل الشام وفلسطين أنتجت العموريين والفينيقيين.

وبعد ألف سنة وفيما بين عامى ١٥٠٠ و ١٢٠٠ قبل الميـــلاد وصل العبرانيون الرحل إلى فلسطين وأسسوا أول ديانة فى العالم تدعو إلى التوحيد، أصبحت بدورها أساس العقيدة المسيحية والإسلامية(١) .

وفى الوقت ذاته انتقل الآراميون إلى الشام وأقاموا عاصمتهم فى دمشق التى يتحدث عنها العرف بأنها أقدم مدينة لاتزال قائمة فى العصر الحديث . ولكن فى القرن التاسع قبل الميلاد سقط الآراميون أمام سلالة بابليـــة هم الأشوريون الذين قدموا من نينوى وأسسوا إمبراطورية امتدت من بابل (جنوب العراق) إلى أرمينية فى الشمال وفينيقيا (أو لبنان كما تعرف اليوم) فى الغرب، ونافست إمبراطورية بابل نفسها وإن لم تبزهـا . وإلى الشرق بسط الميديون سلطانهم على جميع فارس الحديثة وجزء كبير من باكستان الحاليـة ، وإلى الجنوب ظلت الصحارى الشاسعة فى بلاد العرب قلعة لعرب الصحراء لا يمكن اختراقها والنفاذ إليها .

وخلال فترة قصيرة حكم الكلدانيون الشام وبلاد الجزيرة وجنوب تركيا ،

---

(١) جميع الديانات المنزلة تدعو الى التوحيد ، وما اليهودية الا ديانة سبقت من حيث الزمن ، المسيحية والاسلام — المترجم .

خلفا للأشوريين . ولكن هجوم البارثيين أسلاف أهل فارس اليوم ، فى القرن السادس قبل الميلاد ، وضع نهاية لاستقلال هذه الامبراطويات عندما انطلقوا من معاقلهم جنوبى بحر قزوين واستولوا على إمبراطورية الميديين فى الشرق ووسعوا رقعة ممتلكاتهم بحيث شملت آسيا الصغرى بل وجزءاً من اليونان ، بالإضافة إلى مصر وليبيا وفلسطين والشام والعراق . هذا الموقف قلبه الاغريق بقيادة الاسكندر الأكبر وحلوا محل الفرس ولكن لينتزع مكانهم الرومان . وبحلول القرن الثانى الميلادى كانت روما قد استولت على الامبراطورية اليونانية كلها من ليبيا حتى العراق ، ولكنها أوقفت عند حدود بارثيا وصحارى الأرض العربية الممتدة نحو الجنوب. ثم ، وكما حدث فى التاريخ الحديث ، ركزت الامبراطوريات الكبرى فى أوربا إهتماماتها على الأراضى العربية الخصيبة الكائنة فى الشمال والغرب ، وتركت المساحات الصحراوية القاحلة فى شبه جزيرة العرب وشأنها .

كانت علاقات جميع سلالات المهاجرين العرب الأصليين بحكامهم من الأعاجم واليونان والرومان علاقات سلمية يسودها التجانس،فقد وفر الحكام الثلاثة فرصا طيبة للتجارة .ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية تحول الكثيرون من رعاياها فى الشام وفلسطين ومصر إلى الدين الجديد . ولكن خلال الاحتلال الرومانى فإن أروع التطورات فى مجال التجارة وقعت أولا فى جنوب بلاد العرب .

عندما حل ذلك الوقت كانت المملكة الأصلية باليمن قد أخلت مكانها لمجموعة من الدول والممالك الصغيرة ، كانت مملكة سبأ من بينها القوة المسيطرة فيما بين عامى ٧٥٠ ، ١١٥ قبل الميلاد . كان « فينيقيو » الجنوب وهم أهل سبأ ، يمارسون نشاطاً مربحاً إلى حد كبير ، تمثل فى إعادة تصدير ونقل اللبان

والقماش والحرير من الصين ، واللآلىء من الخليج الفارسى[1] ، ومنسوجات الهند . فضلا عن إنتاجهم من التوابل والعطور التى كان عليها طلب من جانب الرومان المترفين . هذا الاحتكار من جانبهم لهذه التجارة التى كانت تنقل بالإبل على إمتداد ساحل البحر الأحمر عن طريق مكة إلى مصر والبحر المتوسط ، دام قرونا عدة إلى أن وجد الرومان الأسعار باهظة . كان بطليموس الثانى حاكم مصر ، شديد الرغبة فى أن يضع بلاده هو على الخريطة وأن يقتسم تجارة النقل مع روما ، ولذلك قام حوالى عام ٢٥٠ ق . م بإعادة فتح قناة بطل إستعمالها وكانت قبل ذلك بستة عشر قرنا تصل النيل بالبحر الأحمر . بعد ذلك راحت السفن التجارية ، من رومانية ومصرية ، تشق طريقها مباشرة إلى الشرق لتعود محملة بمواد الترف التى ظل التجار العرب مئات السنين يقنعون العالم الغربى بأنه لا يمكن الحصول عليها إلا فى بلاد العرب . وانهار رخاء سبأ وتداعت قوتها .

كانت البتراء وهى مملكة النبطيين ، الدولة العربية التالية فى الوصول إلى مركز التفوق التجارى ، وامتدت من العقبة فى الجنوب إلى دمشق فى الشمال ، فى القرن الأول الميلادى . كان النبطيون ، نسبة إلى نبيوت بن إسماعيل ، قبائل رحالة وفدوا من الأردن حوالى سنة ٦٠٠ ق . م حيث اجتذبتهم البتراء بمياهها الصافية الرائقة ، وحلوا محل أهلها الأيدوميين . وفى عام ٣١٢ ق . م صدوا غزواً يونانيا قام به خليفة الاسكندر فى الشام ، ولكنهم صاروا بعد ذلك بقرنين مستعمرة تتبع الامبراطور الرومانى تراجان . وبعد ذلك بثلاثمائة عام تعاون النبطيون والرومان فى محاولة لغزو جنوب بلاد العرب والاستيلاء على اليمن . ولكن الحملة فقدت معظم أفرادها وعادت إلى مصر

(١) الخليج العربى (المترجم) .

ملطخة بالعار . وعلى غرار سبأ كانت البتراء تحصل على دخلها من القوافل التى تحتاز أخوارها ذات اللون الوردى الأحمر ، وتجد الملجأ وإبلاً جديدة وحماية كى تواصل رحلتها . ولكن ، إذ طور الرومان الطرق البحرية الخاصة بهم إلى الشرق متجاوزين شبه الجزيرة العربية، أخلت البتراء مكانها لبصرى كمركز لطرق القوافل الآتية من بلاد العرب .

حتى نهاية القرن الأول الميلادى حافظت بصرى على حياد مضطرب بين إمبراطوريتى روما وفارس المتنافستين. ولكن بسبب موقع المدينة الاستراتيجى على الطريق البرى بين الخليج الفارسى (العربى) والبحر المتوسط عبر الشام ، نمت ثروتها بحيث أصبحت من أغنى مدن الشرق الأوسط ؛ وفى عام ٢٦٠ م أخرج حاكمها أذينة الفرس من الشام وطاردهم حتى أسوار عاصمتهم طيسفون القائمة على نهر دجلة . وهكذا فى شهور قلائل راحت بصرى تحكم آسيا الصغرى والشام ومصر باسم روما . ولكن مجدها كان قصير الأمد . فاغتيل أذينة فى عام ٢٦٦ بسبب خيانة الرومان على حد قول البعض . وتلت ذلك لحظة قصيرة من النصر عندما انقلبت أرملته الجميلة والطموحة الزباء على روما ، فألقت بالرومان خارج الشام واحتلت الأسكندرية ونادت بابنها ملكا على مصر وبنفسها ملكة على الشرق . ولكن روما لم تكن لتهزم بمثل هذه السهولة ، وبعد هجوم مضاد مصمم أسرت الزباء وسيقت إلى روما مقيدة بسلاسل من ذهب وراء عربة الذى أسرها .

فى هذه الأثناء كان السبئيون فى جنوب بلاد العرب قد خلفهم الحميريون عام ١١٥ ق . م وهم قبيلة نزلت من المرتفعات الكائنة فى الجنوب الغربى ، وأسسوا مملكة عاشت ستة قرون حتى الغزو الحبشى فى عام ٥٢٥ الميلادية .

وإذ انحط شأن التجارة كثيراً عاد الحميريون وغيرهم من القبائل فى جنوب بلاد العرب إلى أسلوب حياتهم البدائى . هؤلاء البسطاء الذين لم يكونوا قد تأثروا بعد باليهودية أو المسيحية،مارسوا العبادة التى تتفق مع حياتهم البسيطة. فعلى خلاف الفرس الذين علمهم زرادشت أن يعبدوا الشمس بوصفها مقر الكائن الأعلى وأن يقرنوا الخير بالنور والنار وأن يقرنوا الشر بالظلام ، كان عرب تلك الأيام بوجه عام يعبدون القمر . بالنسبة إلى الفارسى الذى عاش فى أرض جبلية مرتفعة كان يمكن أن تكون حرارة الشمس موضع ترحيب ، ولكن بالنسبة إلى العربى المقيم فى سهول البادية كانت الشمس نوعا من قاتل وكان القمر يأتى بالندى والظلام بعد الحرارة المحرقة ونور النهار الذى يغشى الأبصار . كان الحجر الأسود فى الكعبة بمكة موضع التقديس قبل الإسلام وقت طويل ، واعتقدت الأساطير الوثنية أن هُبل إله القمر قد ألقى به من السماء . هذا الحجر عبده الحجاج والسفار ممن اتخذوا من القمر إلها . وبسبب الحنين إلى الخصب والظل راحت قبائل عربية أخرى تعبد الآبار والكهوف والأشجار . وحفرت بوجه خاص بئر زمزم الشهيرة الواقعة على مقربة من مكة ، إذ قيل إنها أنقذت هاجر وإسماعيل من الموت عطشا فى البرية .

كانت حياة العرب الاجتماعية ، شأنها شأن ديانتهم ، مرتبطة بمطالب وجود خشن وغالباً ما كان خطراً وخاصة بالنسبة إلى البدو (وهو لفظ مشتق من البادية يطلق على من يحيون حياة الترحال) . وكانت القواعد والعادات السائدة لدى القبائل والتى لا تزال إلى حد كبير لم يطرأ عليها التغيير حتى اليوم وحتى فى مناطق البترول حيث حلت السيارة الكاديلاك محل الجمل كوسيلة إنتقال عند الشيوخ ، هذه القواعد والعادات كانت مصممة بحيث تتغلب على أخطار حياة الصحراء ومشاقها وكما يوضح فيليب حِتّى فى كتابه **تاريخ العرب**

« ليس البدوى نوعا من الغجر يتجول دون هدف ومن أجل التجوال . إنه يمثل أفضل تكييف للحياة البشرية كى تتلاءم مع ظروف الصحراء . فحيثما توجد الأرض المخضرة فهو يتوجه إليها سعياً وراء الكلأ . إن نظام البداوة أسلوب علمى للعيش فى النفود (المنطقة الصحراوية الوسطى فى شبه الجزيرة العربية) يمثل ما يكون النظام الصناعى بالنسبة إلى دترويت أو منشستر » ،

طبقا لدورة من الحياة لم تتغير ولم تكن لتقبل التغيير منذ العصور السابقة على الإسلام ، كان البدوى الرحالة الذى عاش منذ خمسة عشر قرنا خلت ، يعيش وينام ويسافر ويتاجر تماما كما يفعل سلالته اليوم . فى تلك الأزمان ، وكما هو الحال الآن ، كان غذاؤه الرئيسى يتكون من التمر والدقيق ولبن الناقة أو العنزة — وكان فى العادة يحتفظ بالماء لشرب الإبل والماعز والأغنام. وكانت ملابسه ولاتزال ، قميصاً يصل إلى ركبتيه ، فوقه جلباب يمتد حتى رسغيه ، وشال مربوط بحبل ويلتف حول عنقه ووجهه ليقيه الشمس ويبعد الغبار عن أنفه وفمه .

وكان مسكنه بالمثل يوفر له حداً أدنى متقشفاً من الراحة ، ويتكون من خباء طويل منخفض من وبر أسود أو بنى قاتم مصنوع من جلود الإبل والماعز وكانت وسائل عيشه تتكون من تربية (أو سرقة) الاغنام والماعز والإبل وأحيانا الخيل ، وكان يقايض منتجاتها بالغذاء والموارد الأخرى مما هو أساسى بالنسبة إلى بقائه على قيد الحياة .

كان الجمل أهم ما يملك ؛ فلم يكن يزوده فقط بوسيلة للنقل وتتطلب حداً أدنى من وسائل العيش ، إذ فى استطاعته أن يسير أربعة وعشرين يوما فى الشتاء وخمسة أيام فى الصيف بدون ماء ، بل كان لبنه يمد العربى بغذائه السائل الرئيسى ، وكان روثه يزوده بوقود يستخدم فى الطهى ، وعندما

تنتهى أيامه كدابة حمـــل كان يأكل لحمه ويستخدم جلده لصنع خيامه أو إصلاحها .

كانت الزراعة أو أية صورة من العمل تقيد حرية البـدوى فى الحركة ، نشاطاً لا يتفق مع كرامته . فمثل هذا العمل كان محتفظاً به لأهل الحيـــاة المستقرة فى القرى والمدن؛ أى للفلاحين والتجار وأرباب الحرف ، ممن يكدحون فى الحقول أو أمام مناطق العمل أو يعيشون عن طريق قوافل الإبل التى تشق طريقها عبر الحجاز وبصرى أو فلسطين . هؤلاء الناس من أهل القرى والمدن والذين يعرفون باسم « الحضر » كانوا يقيمون فى بيوت من الحجـارة أو الطين ، وتفصلهم فجوة اجتماعية واسعة عن أهل البادية الرحل الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر رجولة ونبلا وأسمى مرتبة من الناحية الاجتماعيـة . وبهذا ، فعندما كانت المحافظة على النفس تفرض مطالبها ، وعندما كان البدوى الرحالة يفتقر إلى المواد التى يتجرها فى سبيل الحصول على الغذاء ولم يكن فى إمكانه أن يكسبها عن طريق شن الغارات على جيرانه فى البادية ، كان يرى أنه حر تماما فى أن ينهب الفلاح أو ساكن المدينة حتى يحصل على متطلباته. مثل هذه القرصنة كان حتما أن تثير أعمق مشاعر السخط فى صفوف العرب المستقرين ، ولم تعمل سوى أن وسعت وعمقت الفجوة التى تفصل بينهم وبين اخوانهم الرحل .

وإلى يومنا هذا ، وبرغم أن العرب المستقرين يتمتعون بحماية قوة بوليسية حديثة ، واضطر بدوى الصحراء إلى أن يصبح شخصاً يلتزم بالقانون إلى حد معقول ، فلا يزال موجوداً بعض النفور القديم بين الحضرى البدوى الرحالة ، وينظر الأخير فى قرارة نفسه نظرة ازدراء إلى الأول باعتباره شخصاً يحيا حياة ناعمة ودون أهل البادية الذين يمتازون بالصلابة والذين هو من نسلهم .

ذلك أن بدوى اليوم لا يزال يعد نفسه أرستقراطيـاً بالطبيعة وأنه أنبل الخلق جميعاً .

ولـكن إذا كان شن الغارات على جار أو نهب فلاح يعتبر مباراة عادلة فى تلك الأيام ، كان أهل القبيلة الواحدة تحـكمهم طائفة من قواعد مختلفة تماما . فما كان يعتبر قرصنة مشروعة خارج حدود القبيلة كان يعد جريمـة إذا ارتـكب فى داخلها . ذلك أن القبيلة كانت الأساس الذى يقوم عليـه المجتمع البدوى . كانت بالنسبة إلى العربى من أبنـاء الصحراء هى أسرته ونقابته العمالية وناديه — أجل كانت هى دائرته الاجتماعية بأسرها . فهى التى توفر له الحماية والعمل ،والمركز الاجتماعى وسبيل العيش . وبدونها يكون خارجا على القانون وإليه تشير يد كل إنسان . فى داخلها يستطيع أن يحيا حياة كاملة وآمنة بقدر ما تسمح البيئه الصحراوية التى تحيط به ؛ ومنها يتخذ لنفسه أزواجا ورفاق قتال ، ويحصل على تدريب بدائى ولـكنه عملى،فى فنون الحرب والصيد والقنص وشن الغارات والفروسية مما كان يلزم لبقائه .

وعلى ذلك فإن عبارة « الـكل من أجل الواحد ، والواحـد من أجل الـكل » كانت شعاره والقاعدة المطلقة التى تحـكم حياته . كانت العصبية أو التضامن القبلى ، تعلو من حيث القيمة كل شىء سواها ، لأن عربى الصحراء الذى يفتقر إلى أى إحساس قومى بالمعنى الذى نعرفه اليوم ، كان يمنح حياته وولاءه لقبيلته .

ومن ثم كانت العصبية عنده تعادل ما ندعوه الوطنيـة اليوم، ومن يخرج على تعاليمها أو يعجز عن الالتزام بها فى كل فعل من أفعاله ، يلقى عقابا صارما . فلو اتخذ لنفسه زوجة من قبيلة هى دون قبيلته مكانة اجتماعيـة ، جاز لأقربائه أن يقتلوه على أساس أنه لوث دم قبيلته . وبالمثل كانت أسرة الزوجة تقتله إذ

تزوج فتاة تعلوه فى المستوى الاجتماعى . (حدث فى عام ١٩٣٢ أن آمر بغداد وقد اتخذ لنفسه زوجة من أسرة نبيلة ، أطلق عليه أقاربها الرصاص فخر صريعاً) . أما إذا ارتكب المرء جريمة سرقة أو قتل فى داخل القبيلة فإنه كان يعاقب على الفور فتقطع يده أو رأسه طبقاً لنوع الجريمة . وإذا هرب أصبح طريد القانون ولا قبيلة له تحميه ، ويمتنع الجميع عن منحه الملجأ والحماية ويموت موتاً بطيئاً من العطش والجوع ، هو أشد قسوة وإيلاماً من ضربة حادة ومفاجئة من سيف الجلاد .

وفى حالة وقوع الجريمة خارج نطاق القبيلة فعندئذ يتقرر الأخذ بالثأر ، ولأقارب الضحية بعد جلسة أمام شيوخ القبيلة، أن يقرروا ما إذا كان القصاص ينبغى أن يتم بإعدام القاتل وبنفس الطريقة التى استخدمها فى قتل ضحيته (مثلا بإطلاق سهم أو الطعن بخنجر أو بالسم) أو بأداء دية يُتفق على مبلغها .

وكان التمثيل والتشويه أو إحداث جرح ، يخضع بالمثل لنفس القاعدة الأساسية : « العين بالعين ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » . فإذا اختار أهل الضحية الموت بدل المال فإن أى فرد من أفراد القبيلة يمكن أن يدفع ثمن الجريمة بدمه هو . وإذا حاول أقارب القاتل من أبناء القبيلة أن يمنعوا تنفيذ القصاص فان الثأر يدوم إلى مالا نهاية .

وفى الأزمنة الحديثة وفى الأجزاء الأكثر تقدما بالعالم العربى يجرى فى العادة قبول الدية ، ولكن عند القبائل الأشد فقراً فإن إعدام المجرم أو أحد أقاربه لا يزال هو القاعدة العامة على نحو ما كان سائداً منذ ألف وخمسمائة سنة خلت . فى تلك الأيام الخوالى لم يكن من غير المألوف أن يستمر السعى إلى الأخذ بالثأر أربعين سنة أو أكثر يعيش خلالها أقارب القاتل الأصلى فى خوف دائم على حياتهم من أقرب الناس صلة إلى الضحية .

والتغيير الذى طرأ على تنظيم القبائل على امتداد القرون ، تغيير يسير ، على غرار مثيله فى قواعدها وعاداتها . كانت كل قبيلة ولا تزال ، تنقسم إلى بطون يتفاوت عدد أفرادها حسب الحجم والمكانة الاجتماعية ، وكقاعدة عامة كانت القبائل الأعلى منزلة أو الشريفة التى تدعى أنها من سلالة النبى إسماعيل والتى تضمنت جماعات مشهورة مثل بنى تميم فى إقليم الحسا على إمتداد الخليج العربى ، نقول إن هذه القبائل غالباً ما كان حجمها يزيد عشر مرات على حجم أخوانهم الأدنى مرتبة مثل بنى عجيل فى العراق والذين يشتغلون بتجارة الإبل . وكان لكل قبيلة إقليمها أو مجالها القبلى المعروف باسم الدرة . وكانت تتجول فصلا بعد آخر بانتظام عقارب الساعة بحثا عن الكلأ ، وتدعى ملكية جميع الآبار فى داخله وحقوق الملكية فى كل الرعى . ولكنها لم تكن تتنقل بوصفها كتلة صلدة واحدة ، وكانت بطونها تسير فى طرقها الخاصة بها فى داخل الحدود العامة للدرة . وكان عدد الخيام أو الأسر فى كل عشيرة يتفاوت من خمسين إلى ألف .

وفى حالة العشائر الأكبر حجما كانت الأسرات تنقسم إلى أقسام لتسهيل التنقل حتى يتسنى تفادى الازدحام فى كل مرحلة من مراحل البحث عن مراع جديدة . وحتى فى فصل الشتاء حين تخضر الأرض نسبياً كانت قلة من المراعى هى التى تسمح بالرعى لفترة تزيد على عشرة أيام ثم تستنفد ويصبح من الواجب الانتقال إلى أرض جديدة .

ولكن أياً كان عدد الأقسام والأقسام الفرعية فى كل عشيرة ، فقد كان أفرادها جميعا يعتبرون أنفسهم من دم واحد ، يدينون بالولاء للقبيلة الأم التى يستخدم كل فرد من القبيلة صيحتها فى الحروب عندما يشتبك فى قتال . إن أهمية صلة الرحم هذه ربما يوضحها بأعظم قدر من التأكيد أن أعضاء كل

قبيلة كانوا منذ العصور الموغلة فى القدم يعتبرون أنفسهم أبنـــاء لقبيلتهم (« بنو » فى اللغة العربية) ومن هنا بنو غسان فى فلسطين القديمة وبنو صقر فى الأردن فى الأزمنة الحديثة. وبالمثل كان كل فرد من القبيلة يشير إلى رفاقه بأنهم « بنو عم » ومعناها الحرفى أبناء شقيق أبيهم ، وعلى ذلك فهم أبناء عمومته .

و ممتلـكات عربى الصحراء قليلة مثل غـذائه اليومى كان يملك خيمته وقليلا من قطع الأثاث كالسجاجيد وجلود الغنم وإناء لعمل القهوة . ولـكن بوجه عام كانت الحيوانات ، أى الأغنام والماعز والإبل ، التى عليها تعيش قبيلته وتتنقل ، ملـكا للجماعة ، وكانت كافة حقوق الرعى والآبار ملـكا للقبيلة ولا يجوز التنازل عنها . كان من الحتمى فى أرض يندر فيها الـكلأ والماء للغاية دائماً ، أن تنشب المنازعات بين القبائل حول حقوق رعى حيواناتها واستخدام آبارها . وكما كانت القبائل تنظر إلى العلاقات بينها على أنها مباراة عادلة فى سلب الإبل والأغنام والماعز، كذلك كانت تتقاتل حول الحق فى رعى حيواناتها وسقيها .

ولـكن برغم أن البدو الرحل غالباً ما كانت تدفعهم الضرورة القاسية ويدفعهم الجشع أحيانا بل وإحساس باللهو والشقاوة ، إلى حيـاة من القرصنة والى أن ينتزعوا لأنفسهم كل ما يقدرون عليه ، إلا أنهم لم يخلوا من شرائع دقيقة للسلوك فى خارج قبائلهم وفى داخلها أيضاً . فمثلا كانت القاعدة تقضى بأنه لا ينبغى فى حالة الإغارة على جار إراقة الدم إلا فى حالة الضرورة المطلقة . وثمة قاعدة أخرى وهى أن القبيلة غالباً ما كانت توفر الحماية لقبيلة أضعف منها ضد الغارات من جانب أطراف ثالثة وإن لم تفعل ذلك دون أداء مدفوعات

عينية لقاء حمايتها . وأهم من هذا كله أن قانون قرى الغريب كان قاعدة مطلقة. كانت الضيافة مبدأ جوهريا من مبادىء السلوك البدوى ، وأن الأهمية التى كانوا يعلقونها عليها يوضحها بيت من الشعر العربى القديم غالباً ما كان يستخدم فى تحية الضيف .

كان إغلاق الباب دون ضيف جاء يسعى وراء المأكل والمأوى، أو إيذاؤه بعد استضافته ، جريمة ضد الشرف العربى . بل كان تناول القهوة مع رب الدار يخول الضيف الحق فى الأمان من الهجوم . وبالمثل كان من عادة رؤساء القبائل أن يوفروا فرق حراسة أو يؤمنون المرور للسفار الأصدقاء من أهل الصحراء إذا مروا بديارهم ، وأى عدوان على مثل هذا المسافر موضع الحماية ، كان يمس شرف القبيلة كلها . ما من أحد كان يعرف خيراً من البدو الرحل مخاطر الحياة والأسفار فى الصحراء ، وآلام العطش وعذاب الشمس المحرقة وخطر هجوم اللصوص — وفى الحقيقة كون الموت قريباً على الدوام من جميع من كانوا يقامرون باقتحام خلاء الصحراء المعادى . وما من أحد يمكن أن يكون متأكداً عندما يأتى عليه الدور فى طلب المأوى والظل والعيش خلال رحلة يقوم بها بمفرده وتكتنفها الأخطار ، عبر بحار الرمل اللامتناهية فى بلاد العرب .

ربما كان أغرب مظهر من مظاهر حياة العرب القبلية ، العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، إذ كانت مزيجاً متناقضاً من الاقطاع والديموقراطية . كان الراعى يقابل الشيخ على قدم المساواة ويخاطبه باسمه الأول دون أية ألقاب شرفية . ولم يكن لقب الملوكية أى لم يكن اصطلاح « ملك » يستخدم أبداً إلا عند الإشارة إلى الأجانب من قبيل حكام الرومان أو اليونان والفرس .

وبرغم أن الشياخة كانت ولاتزال محصورة دائماً فى الأسرة الحاكمة إلا

أنه ما من زعيم قبلى كان يتوقع أن يصبح حاكماً لمجرد أن أباه كان يشغل المنصب قبله، وكان عليه أن يبرهن على أنه يملك الشجاعة الواجبة وقوى الزعامة والحظ الحسن. إن شعباً يمثل هـــذا التعرض لأخطار الطبيعة ، مثل البدو البدائيين ، كان حتماً أن يكون على درجة عالية من التعلق بالخرافات ، وكان الإعتقاد فى الحظ الطيب والسيء يلعب دوراً كبيراً فى حياتهم وخاصة عند اختيارهم شيخ القبيلة . ذلك أنه سواء فى السعى السامى وراء المراعى الخضراء، أو فى شن الحروب عـــلى الجيران ، كان الزعيم الذى يلازمه الحظ ذا أهمية بالغة .

وبمجرد اختيار الشيخ تقع على عاتقه مسئولية مخيفة ، إذ كان العرف يجعل منه أبا لشعبه . كان عليه أن يفتح بابه وأن يقرى الضيف بما فى ذلك إقامة الولائم من وقت لآخر للجائعين من أفراد القبيلة وهم الذين لم يـكونوا يذوقون اللحم إلا فى أمثال هذه الولائم التى يقيمها . وكان عليه أن يعرف المشكلات العائلية التى يعانيها كل واحد من أفراد القبيلة ، وأن يكون مستعداً بصورة دائمة لفض المنازعات وأن يصدر الأحكام فى الحالات الجنائية . كانت كلمته قانونا ، وكان يمارس سلطة الحياة والموت على رجال قبيلته . ولـكنه لم يكن بالتأكيد دكتاتورا مطلق السلطة . فبحكم التقاليد التى ترجع إلى ماض بعيد ، كانت القبيلة وخاصة كبار السن من أبنائها ، تتوقع أن تستشار بصدد القرارات التى تمسهـا كـكل . فـكانت سلطة إعلان الحرب على جار والاستراتيجية التى تتبع فى شنها من الأعمال التى تتطلب مثل هذه المشاورة المسبقة . ولـكن بعد أن يعطى مجلس القبيلة الموافقة ، فإن الشيخ يضطلع بالسلطات الـكاملة لتولى القيادة ويجب حتما أن تطاع أوامره .

ليس ثمـة حاجة إلى القول أنه فى ظل تلك الظروف الموحشة بالصحراء حيث تتركز جهود كل إنسان على مشكلة البقاء ، كان التعليم بدائياً ومكرساً

للمسائل العملية البحتة من قبيل تعليم الصبيان الصيد والقتال وركوب الخيل وتدريب البنات على الطهى ورعاية الأطفال . فى المدن وكذلك فى القرى كان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة قليلا ، وبمجرد أن يصبح الأولاد قادرين على المشى فإنهم يتعلمون مهنة أو حرفة القبيلة . ولكن هذا لم يكن يعنى أن كل عربى قبل الإسلام كان أمياً تماماً . إذ كان فى كل منطقة بها حياة مستقرة كتبة وشعراء كانوا موضع الاحترام والتوقير لا بسبب جمال أسلوبهم فحسب ولكن بسبب الظن أنهم يملكون قدرات خاصة على إلحاق الأذى بعدو وعلى تشجيع محاربيهم على تحقيق النصر . فى تلك الأيام ، وكما هو الحال اليوم ، كانت اللغة العربية بنغمها وإيقاعها تستطيع أن تفتن الجماهير بل وكان فى إمكان البدوى الأمى أن يمضى ساعات فراغه يردد على مسامع إخوانه من أبناء القبيلة أو يستمع إليهم وهم يرددون أبياتا من الشعر أو يروون ويعيدون رواية القصص والخرافات عن حياة الصحراء والتى وصلت إليهم من الأجيال الماضية .

فى عالم خشن وعملى حرم من أية ثقافة خلاف ثراء اللغة العربية ، كان الرجل الكامل هو من يجمع بين قدرات ثلاث : البلاغة ورمى السهام والفروسية، وأعظم الثلاث البلاغة .

هكذا كان أسلوب الحياة عند قبائل الصحراء فى وسط بلاد العرب وجنوبها، والتى لم تكن حتى ذلك الحين قد مستها المؤثرات الروحية والثقافية من جانب امبراطوريتى بيزنطه وفارس اللتين بسطتا سلطانهما على الشام وفلسطين والعراق. إلا أن الأقاليم الشمالية تروى لنا قصة مختلفة . فالثقافات الرومانية واليونانية لم تقف عند حد أنها ضربت بجذورها فى تربة مدن مثل دمشق وبيت المقدس، ولكن ما أن حل القرن الخامس الميلادى حتى كانت الديانة المسيحية قد

قامت بغزوات بعيدة وعميقة فى صفوف العرب من الحضر والبدو ، من أهل الشام وفلسطين ، وكذلك بين سكان العراق عند ماراح مد القتال يتنقل ذهابا وجيئة بين الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية . لم تكن بعض قبائل الشمال قد تأثرت بعد بديانة وثقافة اليونان وفارس ، ولكن قبائل أخرى مثل بنى غسان فى الشام وفلسطين تنصرت بل وساعدت الإمبراطور الرومانى جستنيان فى غزو العراق الفارسى وإنزال الهزيمة باللخميين حكام الحيرة فى دلتا الدجلة والفرات الذين تنصروا فيما بعد .

وعلى سبيل المكافأة عما بذلوا من جهود كان رؤساء بنى غسان يعينون ولاة على الشام بالنيابة عن الأباطرة ، وكانوا يستقبلون ويحتفى بهم فى بلاط كل من جستنيان وتيبريوس فى القسطنطينية . كذلك ابتدع بنو غسان حضارة على درجة عالية من النمو مبنية على الثقافة اليونانية والرومانية . وبرغم أنه لم تبق اليوم آثار تدل على إنجازاتهم ، إلا أنهم شيدوا لأنفسهم قصوراً وبيوتا وحمامات عامة وكنائس ومجارى ماء فوق القناطر ومسارح .

كثير بالطبع أن نتوقع من البيزنطيين بعد نجاحاتهم فى تحويل أعداد كبيرة من العرب الوثنيين فى الشمال إلى المسيحية ، أن يتركوا الأعراب البسطاء من سكان جنوب بلاد العرب ووسطها يواصلون حياتهم القبلية وعبادة الأوثان إلى غير ما نهاية . ومن المحقق أن نجاشى الحبشة المسيحى وهى المخفر الأمامى الأفريقى لبيزنطه ، غزا اليمن فى عام ٣٤٠ واحتلها قرابة أربعين عاما . وأعقب ذلك بعثة مسيحية من قبل الإمبراطور البيزنطى ، وبنيت الكنائس فى عدن . وعند ماخرج الأحباش من اليمن استمر التوغل المسيحى وتحويل الناس إلى النصرانية . ولكن نجاح اليهود كان أكبر ، فبابتداء القرن السادس كانوا قد كسبوا ذا نواس حاكم حمير إلى عقيدتهم . وسرعان ماتحول

التنافس بين اليهود و النصارى إلى عداء سافر ، وإلى ماهو أسوأ من هذا عندما عمد ذو نواس الذى ربط بين النصارى وذكريات الإحتلال الحبشى، فأمر بمذبحة فى عام ٥٢٣ . والتمس من بقى على قيد الحياة من النصارى حماية القسطنطينية ، وإذ رأى الامبراطور البيزنطى فى هذا فرصته للاستيلاء على جنوب بلاد العرب واستخدامها لمنع انتشار النفوذ الفارسى، دعا النجاشى مرة أخرى إلى التدخل، واستجاب الأحباش وغزوا اليمن بسبعين ألف رجل وعزلوا الحميريين وحولوا بلادهم إلى مستعمرة .

وظلت الحال على هذا النحو طيلة السنوات الخمسين التالية إلى أن استعان الحميريون بالفرس على طرد المستعمرين الأحباش. واستجاب الامبراطور الفارسى وفى عام ٥٧٥ انتقل السلطان فى اليمن إلى أيديه . ولكن على نحو ما كان من شأن الأحباش ، ظل الفرس فى اليمن خمسين عاما بعد « التحرير » إلى أن كان عام ٦٢٨ عندما اعتنق الوالى الفارسى على اليمن الإسلام فلم يعد هذا المهد للجنس العربى تحكمه قوة أجنبية .

وهكذا إذ يدنو القرن السادس من نهايته وجد العالم العربى نفسه قطعة شطرنج فى أيدى الامبراطوريات المتنافسة بيزنطه وفارس فى الشمال ، وفارس والحبشة فى الجنوب . كان التدهور الإقتصادى قد جلب الخراب السياسى والخضوع على الدول العربيـة التى سبق أن كانت تعتز بنفسها . وحيث لم يسد الإحتلال الأجنبى فإن الحياة القومية المنظمة أخلت مكانها للفوضى. كانت بلاد العرب وهى الآن فراغ روحى فضلا عن سياسى ، على استعداد لأن يقوم فيها زعيم عظيم يمنحها عقيدة جديدة وقوة جديدة ووحدة جديدة .

الفصل الثانى

مقـــدم النبى

عندما ولد محمد فى عام ٥٧١ كان جنوب بلادالعرب وخاصة الحجاز، بؤرة فساد ووثنية. كانت مكة وهى المدينة الرئيسية بالحجاز والتى اشتق إسمها من كلمة « محراب » بلغة أهل سبأ ، قد نمت من ناحية الثراء بوصفها محطة للقوافل على الطريق البرى من جنوب بلاد العرب ، ومركزاً للحج يؤمه كل نوع من عبدة الأصنام . وكانت الكعبة تضم ما لا يقل عن ثلاثمائة وثن ترضى كل ذوق . وكثيراً ما كانت القرارات التى تتعلق بالحياة أو الموت ، تتخذ عن طريق ضرب أقداح ذات سهام طقسية قائمة بجانب تمثال إله العمر . وشاعت الخرافات ، وكانت الشياطين والجن موضع الخوف إلى حد كبير . وحتى حب العرب للشعر تعرض للفساد ، ذلك أن سوق عكاظ بالحجاز حيث يجتمع الشعراء كل عام ، هوت إلى مادعاه أحد رواة الأخبار العرب ملتقى للرذيلة لا يمكن وصفه . كانت مظاهر الاسفاف فى تعاطى الخمر والفجور هى الحالة السائدة، إذ كان الحجيج وسائقو القوافل يتجمعون بصورة تتنافى مع الحفل المقدس ، ولكنها تجتذب السياح والسفار المحليين بحيث كانت تهدد تجارة أهل اليمن بخسارة جسيمة . ولقد حدث فى إحدى المناسبات أن حاول حكام اليمن الأحباش غزو الحجاز كى يضعوا حداً لأعمال اللهو الوثنية هذه ، ولكن أوقفت جيوشهم نتيجة انتشار وباء الجدرى .

كل هذا الفساد كانت تسيطر عليه قريش التى دان لها الأمر منذ عام ٤٤٠ تحت زعامة من يقال له قصى وهو من نسل إبراهيم واسماعيل ، بوصفها البطن

الحاكم ومن ثم كانت صاحبة القوامة القانونية على المدينة . لسنا نعلم سوى القليل عما قام به قصي من أعمال تستحق الذكر ، ولكن ترجع أهميته إلى أن من سلالته كان النبي محمد وكل خليفة مسلم طيلة ستمائة عام بعد وفاة محمد . ومن أحفاده المتأخرين معاوية الذى ينسب إليه الأمويون ، وهاشم وهو جد للعباس الذى كان الخلفاء العباسيون من سلالته . وعن طريق محمد كان هاشم أيضاً سلفاً للعلويين وللهاشميين الموجودين اليوم ؛ فحسين ملك الأردن وأهل بيته ينتسبون مباشرة إلى هذا الحفيد من أحفاد قصي .

عند ختام القرن السادس كانت مختلف وظائف الدولة موزعة على أساس وراثى دقيق بين شيعتين رئيسيتين من قبيلة قريش : الهاشميون والأمويون . كان حارس بئر زمزم هو العباس عم محمد من بنى هاشم ، وكان يتولى القضاء أبو بكر الذى سيصبح فيما بعد والد زوج محمد وهاشمياً عن طريق هذا الزواج ؛ وكان وزير الخارجيـــة عمر بن الخطاب وهو أموى ؛ وكانت امارة اللواء معقودة لأبى سفيان رئيس بنى أمية وحفيد مؤسسها ؛ وكان حارس الأقداح صفوان وهو أخ لأبى سفيان ؛ وكانت رياسة الندوة لخالد بن الوليد وهو أموى أصبح فيما بعد أول فاتح عربى عظيم ؛ وأخيراً كان يتولى جباية ضريبة الفقراء أبو طالب وهو عم هاشمى آخر لمحمد .

قبل مولد محمد بشهور قليـلة مات أبوه عبد الله ، وبسبب ما أصاب أمه نتيجة لذلك من فقر ومرض ، وبدافع من التقليـــد القبلى من جهة أخرى ، عهدت بتربية إبنها عند ولادته إلى زوجة راع من البدو ، وهكذا قضى محمـد الشهور الستة الأولى من حياته فى الصحراء . ثم أعيد إلى أمه التى توفيت بعد قليل فكفله جده ومن بعده عمه أبو طالب . كان أبو طالب يجمع فى شخصه بين دور التاجر من ناحية وواجباته فى جباية ضريبة الفقراء من جهة أخرى .

ولما بلغ محمد الثانيـة عشرة من العمر اصطحبه معه فى إحدى رحلات قوافله السنوية إلى الشام . وتوقفت القافلة عند دير بالشام ، حيث تحدثنا الروايات الإسلامية أنه التقى براهب نصرانى يدعى بحيرا قدر له أن يغير حياته بأكملها. وبرغم أن محمداً كان أمياً فقد كان على درجة رفيعة من الذكاء وحب البحث والاستطلاع والميل إلى التأمل . وكان قد بدأ ينفر من الحياة السائدة فى مكة تلك الحياة القائمة على عبادة الأصنام وعلى الرذيلة . والمرجح أن العم كان يعطف على أفكار ابن أخيه ، ولـكنه التزم الصمت وكتم أمره باعتباره من أعضاء المؤسسة القرشية من جهة وتاجراً من جهة أخرى يدرك أن طرائق الحياة فى مكة تلائم أهلها وتجتذب نشاطا تجارياً كبيراً . وظل الحال كذلك إلى أن التقى محمد ببحيرا فوجد فيه روحاً قريبة إلى نفسه يمكن أن يطمئن إليها تحدثنا الأسطورة الإسلامية بالطبع أن محمداً هو الذى أثر فى بحيرا وأن الراهب تعرف فيه على سمة نبى هى حسنة فى كتف محمد . والحقيقة أن الأكثر احتمالا بكثير هو أن بحيرا ترك انطباعاً فى محمد كرجل قريب إلى نفسه وكان أول من أطلعه على فكرة الاعتقاد فى إله واحد[1] . واضح أنه فى هذا اللقاء الأول كان محمد هو الذى يوجه الأسئلة وبحيرا يرد عليهـا . وثمة أدلة على أن محمداً عاد أكثر من مرة مع قافلة عمه ليستطلع آراء ناصحه النصرانى وليلح عليه بالأسئلة التى سعى بها إلى معرفة المزيد عن ديانته[2] . وقد نعجب كيف كاد محمد أن

---

(١) هذا غريب حقا فقد كان هناك ، نصارى فى بلاد العرب ومن المؤكد أن محمد كان يعلم ذلك ويعرف أيضا الـكثير عن دياناتهم ومن ثم لم يـكن بحاجة الى بحيرا لـكى يطلعه على فـكرة الاعتقاد فى إله واحد وأكثر من هذا فان محمد وسوف يبعثه الله برسالته لم يكن بحاجة الى من يطلعه على فـكرة التوحيد . ونحن نعلم عن الأثر أنه كان قبل بعثته ينفر من عبادة الأوثان (المترجم)

(٢) سافر الرسول بالتجارة الى الشام أكثر من مرة ، فذهب به عمه أبوطالب الى بصرى وهناك لمحه فيه راهب اسمه بحيرا علامات النبوة بعد أن سأل عن أمور فى نومه ويقظته، ورأى فى يديه علامات النبوة على ماجاء فى كتب النصارى (حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، الجزء الأول ، ص ٧٥ ، حاشية رقم ٢) — المترجم .

يصبح نصرانياً فى سن التكوين هذه[1]، وما إذا كان عمه وهو رجل ذو نزعة عملية أكبر قد أشار عليه بأن يستقر فى مكة لمزاولة التجارة .

ولما أدرك محمد الخامسة والعشرين من العمر كانت رجولته قد اكتملت . لكنه كان ذا طاقة فائقة الحد ومظهر ملفت للنظر ، ورأسه أكبر من أن تتناسب مع جسمه، وله جبهة عريضة وعينان سوداوان ولحية كثة سوداء تخفى فماً كبيراً وبشرة أقرب نوعاً إلى الصفرة . وكانت تشيع فى ابتسامته روح العطف والبر ، ولكن نادراً ما كان يضحك بصوت عال ، وكانت عيناه تبرقان إذا استثير. هذه الملامح بالإضافة إلى السمعة التى اكتسبها كتاجر أمين ، راقت فى عينى أرملة ثرية إسمها خديجة كانت تشتغل أيضاً بالتجارة . وهذا أدى إلى أن تعرض الزواج من التاجر الشاب الذى كان كثير الأسفار من أجل التجارة .

ولكن بينما كان السلام يسود حياة محمد الزوجية والتجارية كانت روحه على خلاف ذلك . فإذ راح يباشر عمله وعمل زوجته ظل يستعيد أحاديثه مع بحيرا . أصبحت تتسلط عليه الحاجة إلى إله واحد وإلى قيام شخص يعلن أنه نبى الله . وكانت أمثال هذه الأفكار تضايقه بحيث بدأت تراوده أحلام غريبة ، كثيراً ما كانت مصحوبة باضطراب نفسى. وعكف على التأمل وحيداً فى غار قريب من مكة . وفى إحدى زياراته فى عام ٦١٠ سمع صوت جبريل يناديه بأنه رسول الله ويأمره أن يقرأ وأن يقرأ باسم ربه[2] .

وبعد زيارات عديدة أخرى إلى الغار حيث كان يسمع فى كل مرة نفس

---

(١) تخريج غريب وخيال مسرف ، . — المترجم

(٢) ورد هذا فى الآيات ١ — ٥ من سورة العلق : « اقرأ باسم ربك الذى خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم » ، وهذه الآيات هى أول ما نزل من القرآن — المترجم .

النداء الذى يدعوه إلى الاضطلاع بمهمة النبوة[١] ، استشار خديجة . وإيماناً منها بصدقه انطلقت به إلى حكيم نصرانى كان صديقاً قديماً ومعلماً لمحمد ، لم يجد سبباً يدعوه إلى تكذيب القصة[٢] . امتلأ محمد زهواً برأى الحكيم ، لكن الخوف من ردود فعل قريش الوثنية جعله يقصر دعوته خلال العامين التاليين على أسرته وعدد قليل من الأصدقاء . آمنت خديجة كما آمن على ابن أبى طالب الذى كان قد تزوج من ابنته فاطمة . ومن أوائل القلة من أنصاره أبو بكر أقرب الأصدقاء إليه ؛ وعثمان بن عفان وهو ابن عم لأبى سفيان وتزوج فيما بعد إحدى بنات محمد . ولكن موقف أعمامه تراوح من الحياد المشوب بالعطف فى حالة أبى طالب إلى العداء العنيف من جانب أبى لهب .

وفى عام ٦١٢ تلقى محمد النداء من جبريل بأن يدعو الناس جميعاً وخاصة قريش . وعلى ذلك إذ سمى دينه الإسلام من الكلمة العربية التسليم لله ، ودعا أتباعه باسم المسلمين ، أعلن لأهل مكة أن الله واحد وأنه الخالق القادر للكون وأن يوم الحساب لاريب فيه، يوم يهلك الكفار فى نار جهنم وينعم المؤمنون بالجنة خالدين فيها . وضحك الناس منه ساخرين ، وكان رد فعل الدهماء قولهم أن طالبوه بمعجزات كما فعل موسى وعيسى ، وقوبل رده بأن كلمة الله كافية فى ذاتها ، بالاستهزاء البالغ .

وبرغم ذلك فإن ظهور محمد لأول مرة أكسبه نواة صغيرة من الأتباع ،

---

(١) « ياأيها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر » (سورة المدثر ، والآيات ١ — ٧) ، وهذه بداية دعوة الرسول — المترجم

(٢) هو ابن عمها ورقة بن نوفل وكان شيخا متقدما فى السن يحفظ الانجيل ، ولما أخبره محمد بما رأى قال له : هذا الناموس الذى نزل على موسى . ومعنى الناموس ملك الوحى . — المترجم

وأدرك بنو أمية أن هاهنا خطراً محتملاً يهددهم هم وأسلوب حياتهم . كذلك أحس زعيمهم أبو سفيان بغيرة مرة من الهاشميين ورأى فى « زندقة » محمد تحدياً لمصالح الأمويين . لكن الخوف من إشعال روح الثأر جعل بنى أمية لا يجرأون على قتله ، وبدلا من ذلك حاولوا أسلوب الرشوة فلما أخفق حاولوا تهديد أبى طالب وغيره من أهل بيته ، وأخيراً عمدوا إلى مضايقته وإهانته فى كل مكان ، بفض ندواته وتعذيب أتباعه . انطلق محمد إلى الطائف ولكن الأمويين تعقبوه ورجموه وأخرجوه من البلدة . وفى عام ٦١٥ اضطر أن يبعث بأتباعه وعدتهم المائة أو نحو ذلك لالتماس الملجأ عند نجاشى الحبشة المسيحى(١) ، ثم يخرج ليختبىء هو نفسه فى قلعة بالصحراء فى الحجاز يملكها أبو طالب .

ولما أخفق الأمويون فى حمل الحبشة على إخراج أتباع محمد انقلبوا على بنى هاشم فى الحجاز وفرضوا عليهم مقاطعة اجتماعية واقتصادية حتى يجبروهم على تسليم النبى . مرت ثلاث سنوات لم يستطع خلالها هاشمى أن يبتاع أو يُبتاع منه ، ولكن الشيعة ظلت صامدة برغم أنها كادت أن تهلك جوعاً ، وأخيراً أقر أبو سفيان بعجزه . كان أبو لهب الوحيد من آل محمد الذى اتخذ جانب بنى أمية ، وراح يلعن ابن أخيه وأمر ابنه بتطليق رقية بنت محمد التى سرعان ما تزوجت واحداً من الأمويين القلائل الذين اعتنقوا الإسلام ، وهو عثمان ابن عفان الذى قدر له فيما بعد أن يصبح أحد الخلفاء الأول بعد النبى .

---

(١) يلاحظ من ناحية الترتيب الزمنى أن الهجرة إلى الحبشة كانت سابقة على خروج النبى إلى الطائف . — المترجم

فى هذه الأثناء تعرض محمد لمأساة وهو فى مخبئه بالصحراء ، كما حقق نصراً . ففى عام ٦١٧ توفيت خديجة وسرعان ما لحق بها أبو طالب . وفى الوقت نفسه دخل فى الإسلام أحد زعماء بنى أمية وهو عمر بن الخطاب . ربما بسبب الفرحة الشديدة لهذا الفتح الهام ، تراءت لمحمد أروع رؤيا وأوفرها جزاء حتى ذلك التاريخ ، عندما جاء جبريل يدعوه إلى بيت المقدس حيث يحمله حصان أبيض له جناحان ويطير به عبر السموات السبع إلى عرش الرب : فى البيت المقدس الذى قال انه يشبه الكعبة فى مكة . ولما صعد السموات التقى بجميع من تقدمه من الأنبياء — آدم ونوح وهارون وموسى وابراهيم وعيسى — وعلمه الله شعائر الدين التى يتعين على المسلمين الالتزام بها . كانت هذه تشتمل فى أول الأمر على خمسين صلاة ، ولكن أحس محمد وهو نبى عملى وبشرى ، أن مطالبة أتباعه بهذا شىء كثير ونجح فى خفض العدد إلى خمس وذلك بمساعدة موسى الذى راح يؤازره وهو يذكر عدم انصياع بنى اسرائيل لأى من هذه الفرائض الصارمة .

لم تعد قصة هذه الرحلة الليلية بالكثير من النفع على قضية محمد إذ لم يصدقها آنذاك حتى أقرب صحابته ، ولما راحت عائشة بنت أبى بكر وهى التى تزوجها حديثاً ، تؤكد أن محمداً كان ينام إلى جانبها نوماً عميقاً الليل بطوله ، اعتبر هذا التأكيد دليلا على كذبه . وخلال السنوات الثلاث التالية لم يقابل أينما ذهب بغير السخرية والاستهزاء ولكن عند هذه النقطة التقى به فى سوق عكاظ جماعة من حجاج يثرب الواقعة على مسافة نحو ٢٧٠ ميلا شمالى مكة وتأثروا كثيراً بما حدثهم به . وبعد أن عادوا إلى ديارهم أقنعوا يهود مدينتهم

أن محمداً هو المسيح المنتظر ، وبعد وقت توجه وفد يدعو النبي كى يتخذ من يثرب وطناً وقاعدة له ، فكان هذا انطلاقة كبرى . قبل محمد العرض بلهفة وبعث بأمين سره مصعب[1] مع ١٥٠ من الأتباع لتمهيد الأرض . وعندما لحق بهم محمد بعد ذلك بقليل علم بنو أمية برحيله ، عن طريق عيونهم وبعثوا بالعسس يقفون أثره ، ولكن المطاردين أضلتهم على ما تقول الرواية آثار كاذبة وضعتها العناية الإلهية فى طريقهم[2] .

هذه هى قصة الهجرة أو الهروب كما أطلق على رحلة النبي . ولقد لقيت أهميتها الاعتراف بها كنقطة تحول فى مولد الإسلام وذلك عندما قرر عمر ابن الخطاب بعد ذلك بسبع عشرة سنة اعتبار عام ٦٢٢ عام الهجرة والبداية الرسمية للعصر الإسلامى .

أقام محمد فى أول الأمر مع أتباعه الذين دعاهم الآن « الأنصار » أى المعاونين ، فى إحدى ضواحى يثرب حيث بنى أول مسجد . ثم انتقل إلى المدينة ذاتها فى أحد أيام الجمعة وهو اليوم الذى قرر فيما بعد أن يكون يوماً مقدساً عند المسلمين ، وفى البقعة التى بركت فيها ناقته وراء أبواب المدينة بنى الجامع النبوى وأقام مسكناً بجواره . ما من شىء كان أوضح فى بيان بساطة ذوقه ونفوره من الترف، من هذا المبنى البدائى الذى استخدم طيلة ما تبقى له من سنوات على ظهر الدنيا ، مكاناً يتعبد فيه الناس ويعلم الناس فيه ثم صار مثواه الأخير .

---

(١) هو مصعب بن عمير . — المترجم .

(٢) إلى هذا يشير القرآن فى سورة التوبة (الآية ٤) : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » — المترجم .

وكان أثاث المساكن الملحقة به قطعة حصير خشنة من الجريد ، تصلح فراشاً للنوم ، وإناء من الفخار . ونظراً لعدم وجود منبر كان النبى يخطب مستنداً إلى جذع نخلة . كان يتكلم ببطء ولكن بمعنى مقصود ، وعيناه تتطلعان إلى أعلى كما لو كان يقرأ النص من السماء نفسها . وعندما لم يكن يعظ الناس أو لم يكن يحارب كما حدث بعدئذ ، كان يقضى وقته فى داره يصلح نعله ويشترى حاجاته من السوق . كذلك عاش الأنصار فى بساطة شديدة وتآخوا مع المهاجرين الأولين من مكة وعدتهم خمسون ، فأخذوهم إلى دورهم وقدموا لهم نصف ما لهم — وهى عادة إجتماعية لا تزال موجــــودة اليوم فى المدينة المقدسة .

طرأ الآن تغيير أساسى على حياة محمد. لم يعد مجرد مرشد روحى يتجول فى البادية ، ولكن أصبح الآن حاكماً زمنياً تطلع إليه اليهود والقبائل المتحاربة فى يثرب — وهم الأوس والخزرج — كى يوفر لهم العدل والحكم الصالح . واستجابة لهذه المهام الجديدة عقد حلفاً مع اليهود تعهدوا والمسلمون بمقتضاه ألا يضايق أى من الفريقين الآخر، وأن يدافعوا عن المدينة ضد أى معتد . وإكراماً لليهود جعل النبى من بيت المقدس قبلة يتجه نحوها المسلمون فى صلواتهم. وقرر اعتبار إراقة الدم جريمة ضد الله وجعل من نفسه محكمة الاستئناف الأخيرة بالنسبة إلى كافة المنازعات . كذلك غير اسم يثرب إلى مدينة نبى الله . وأمر جميع المسلمين الصادقين بالصيام من غروب الشمس حتى مطلع الفجر شهراً واحداً فى السنة — وهو شهر رمضان — ، وأن يجتنبوا الميسر والخمر ، وأن يحطموا كافة الصور المنحوتة ، وأن يصلوا خمس مرات فى اليوم ، وأن يرجعوا إلى كتاب الله إذا تملكهم شك وألا يلجأوا إلى أساليب العرافين من قبيل القداح وغيرها من الأشياء التى صنعها الإنسان .

ولـكن السلام الذى حققه مع اليهود وبين القبائل العربية بالمدينة لم يستمر طويلا . ذلك أن بعض اليهود سرعان ما انتابتهم الهواجس من ناحيـة هذا الدخيل الذى تنطوى مبادؤه الداعية إلى المساواة ، على تهديد لثرواتهم وان ظل كثيرون منهم يرون من الحـكمة أن يتظاهروا بالولاء . وتملـكت الغيرة قلب رئيس الخزرج عبد الله بن أبى بسبب ازدياد نفوذ محمد على المدينة . وبدأ الفريقان يتآمران مع الأمويين الـكفار فى مكة — وعندئذ نزل الوحى على محمد مرتين فى تعاقب سريع . فى المرة الأولى أمره الله بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الـكعبة فى مكة ؛ وكان واضحاً أن هذا الإجراء يستهدف فصـل المؤمنين الصادقين فى صفوف اليهود عمن كانوا يتظاهرون وحسب بالإسلام بينما هم فى صلاتهم يولون وجوههم نحو بيت المقدس، العاصمة القديمة لليهودية . وأمره الله فى المرة الثانية « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونـكم »(١) .

بقاعدة يستند إليها أصبح محمد الآن رجل دين محارباً ، صمم على أن ينقل الحرب إلى عقر دار عدوه وأن يحطم الذين تآمروا ضده . وكما سبق له أن برر شعائره الدينية الصارمة بأن أبان أن الأديان التى بشر بهـا الأنبياء الأقدمون فسدت بسبب الرغبات الوثنية التى أثارتها الحياة المادية ؛ كذلك أخذ يؤكد أن رأفة موسى أو تقوى المسيح لم يكونا كافيين لفرض الإيمان . وعلى ذلك أعلن أنه بوصفه خاتم النبيين قد بعث ليقود المؤمنين من أجل القضاء على جميع من يرفضون الدخول فى شريعة الإسلام فقال : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » .

---

(١) سورة البقرة — المترجم

هكذا عمل محمد على أن يطلب أن تكون للايمان الأولوية على متاع الدنيا، بأن وعد المؤمنين بأن لهم النعيم الأبدى فى الحياة الأخرى . وبعدذلك ، ولكى يحارب روح الهزيمة فى صفوف رجاله ، أعلن مذهب القضاء والقدر . سوف يأتى الموت إليه وإلى أتباعه فى الأجل المقدر ، سواء كانوا فى الفراش أو فى المعركة . وعلى ذلك فلهم أن يقاتلوا فى سبيل دينهم وأن يستعدوا للجنة إذا ماخروا قتلى فى المعركة .

بمثل هذه النداءات المؤثرة يخاطب بها العقل والقلب ، تهيأ محمد لقتال قريش . فبدأ بمهاجمة قوافلها ، ولكن عندما لحقت سرية تابعة له بقافلة ثمينة بنوع خاص يملكها أبو سفيان وتحتوى على خمسين ألف قطعة ذهبية ، دق جرس الإنذار فى مكة وخرج ألف من قريش للقتال . لم يتجاوز جيش محمد ثلاثمائة محارب عندما التقت القوى المتحاربة فى بدر القريبة من المدينة . طبقاً للتقاليد بدأت المعركة بمبارزة فردية اختار لها كل طرف ثلاثة من المحاربين . كانت هـــذه المناوشات الأولية فى صالح المسلمين ، وعندما سقط المحاربون الأمويون الثلاثة أصبحت المعركة عامة . وبصيحات التشجيع من جانب النساء ألقى العدو بنفسه على جيش محمد الصغير المكون من الأنصار ، بينما كان النبى يصلى فى كوخ قريب . ولكن الأنصار كانت لهم ميزة الأرض المرتفعة ، وإذ ضعفت هجمات العدو المتوالية ، انتظروا الأمر بالهجوم . وجاء الامر عندما التقط محمد بعد أن فرغ من صلاته ، حفنة من التراب وألقاها فى اتجاه العدو وهو ينادى فى الانصار بصوت عال « . . لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » .

دحرت قريش ولكن هزيمتها إنما زادت من جنون أبى سفيان وغضبه

وفى العام التالى ٦٢٥ كانت المعركة سجالا بين الطرفين فى أُحُد. كانت قريش تقاتل بثلاثة آلاف رجل وخدعوا المسلمين غير المدربين ، وبعد أن انسحب عبدالله بن أبى (بن سلول) ومعه ثلاثمائة مقاتل ، استدرجتهم من مواقعهم الدفاعية عن طريق التظاهر بالتقهقر ، ثم مزقتهم حيث التف خالد ابن الوليد ليضربهم من الخلف ، وخالد هذا هو الذى سوف يدخل فى الإسلام فيما بعد ويصبح أول فاتح عظيم فى تاريخه .

كان لهذه النكسة أثر عميق على القبائل المحلية وخاصة على اليهود فى داخل مكة وفى خارجها . وسارت المؤامرات قدما ضد محمد وأبى بكر وعلى وعمر . كانوا يتصيدون أتباع محمد إذ يسيرون فى جماعات تضم الواحدة إثنين أو ثلاثة ، ثم يسلمونهم إلى قريش لتعدمهم أو يقتلونهم على الفور . وواصل عبدالله بن عقبة إثارة المتاعب ، بل أنه انحدر إلى درجة الافتراء على عائشة ورميها بالفاحشة (١) . استشاط محمد غضبا إزاء هذه الاساءات والإهانات ، ولكن نكبة أحد كانت قد علمته الحذر وجعلته يتجنب المخاطرة بمعركة أخرى مكشوفة مع قريش ، وقصر انتقامه على شن غارات تأديبية قليلة ، قصيرة وشديدة ، ضد القبائل .

(١) هذه هى حادثة الإفك المشهورة التى أذاعها دعاة السوء حين رأوا صفوان بن المعطل يقود بعير السيدة عائشة فى المدينة عند عودتها من غزوة بنى المصطلق . فقد باتوا فى مكان ثم أذن الرسول بالرحيل فارتحل الناس . وخرجت هى لبعض حاجتها وفى عنقها عقد لها ، فلما فرغت انسل من عنقها دون أن تدرى ، فلما رجعت إلى الرحل وذهبت تلتمسه فى عنقها فلم تجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل فرجعت إلى مكانها الذى ذهبت إليه ، فالتمسته حتى وجدته . وجاء القوم فساقوا البعير الذى فوقه هودجها وهم يعتقدون أنها فيه . فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس ، فتلففت بجلبابها ثم اضطجعت فى مكانها . فمر بها صفوان بن المعطل عرضا فعرفها ، ثم قرب البعير واستأخر عنها حتى ركبت وسار بالبعير سريعا يلتمس الناس . وقد برأها الله إذ قال فى سورة النور « ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم . لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم » — المترجم .

إن التكتيك الذى اتبعه وهو الاحتفاظ بقوته فى داخل المدينة ، ثبتت حكمته عندما زحف أبو سفيان على المدينة بعد ذلك بعامين على رأس عشرة آلاف محارب ، فى محاولة للقضاء عليه نهائياً . ولكن بناء على مشورة من عبد فارسى سابق كان النبى قد دعم وسائل الدفاع عن المدينة بأن حفر حولها خندقا عميقاً ، واضطر أبو سفيان إلى أن يفرض حصاراً طويلا .

وسرعان ما خبا حماس القائمين بالحصار ، بسبب جو قارس إلى درجة بالغة ، ونتيجة ريح صرصر عاتية وبفضل بعض دعاية ذكية من جانب عملاء المسلمين أحدثت الانقسام فى صفوف العدو ، انهارت معنوية قريش وعادت إلى ديارها . ولم يكن فى وسع أبى سفيان أن يفعل شيئاً سوى أن يبعث بكتاب إلى محمد يتهمه بأنه تصرف بطريقة تتسم بالجبن إذ احتمى وراء خندق . ورد محمد متحديا بأنه سوف يحطم أصنام قريش .

فى هذه الأثناء لم يكن الحصار بغير أثر على المدافعين الذين كادوا يهلكون جوعا عندما رفع . وزادت الأمور سوءاً عندما رفض يهود بنى قريظة فى المدينة مد يد العون إلى المسلمين ، ناكثين بذلك حلفهم مع النبى ؛ كما قدمت بعض القبائل اليهودية خارج المدينة مساعدة نشيطة إلى قريش . صمم محمد على الثأر ، وعندما رفع الحصار انقض على معقل بنى قريظة . وبعد مقاومة استمرت خمسة وعشرين يوما استسلم اليهود على أن يبت فى مصيرهم الزعيم العربى سعد ابن معاذ الذى كان معروفا بأنه يعطف عليهم . ولكن سعداً الذى جرح فى حصار المدينة ، وجد غدرهم مما لا يمكن التجاوز عنه ، وقضى بقتل الرجال وسبى النساء والأطفال . وهكذا نفذ حكم الإعدام فى ستمائة يهودى .

كان تأثير هذا الإنتقام على قبائل الحجاز ، والذى جاء فى أعقاب فشل

قريش فى الاستيلاء على المدينة ، سريعاً وشديداً كتيار الكهرباء .

أصبح محمد أسطورة حية . صار لمس ثوبه وعداً بالجنة — بل وكانت أظافره تجمع بعد قصها — ، وذاعت الروايات عن بسالته وقوته اللتين تفوقان مايملك البشر . من الآن فصاعداً انتقلت المبادرة إلى أيدى محمد وأتباعه . أما وقد دخلت القبائل فى الإسلام ، فقد انتهى عهد التكتيكات الدفاعية . كان الهدف التالى مكة .

فى أول الأمر كانت خطة محمد أن يستولى على المدينة بخدعة بأن يتخفى جيشه فى ملابس الإحرام . ولكن عندما أرسلت قريش خالد بن الوليد على رأس قوة كبيرة لصده عن غايته ، عمد إلى الدبلوماسية وبعث بعثمان زوج ابنته لمفاوضة أبى سفيان . وكانت النتيجة هدنة تسمح للمسلمين بأن يدخلوا مكة ولكن ليس قبل العام التالى ، ولمدة ثلاثة ايام وعلى ان لا يحملوا معهم سلاحا . وفضلا عن ذلك كان يتعين رد كل قرشى ينحاز إلى المسلمين ، بينما تحتفظ قريش بمن يأتى إليها من عند المسلمين . ولما كانت الهدنة تسرى لمدة عشر سنوات ، لم يكن من غير الطبيعى ان ينظر أتباع محمد إلى ما حدث على انه ترتيب من طرف واحد . ولكن النبى الذى يعلم ان الهدنة أتاحت موطأ قدم بالغ الأهمية فى الباب ، هدأ من احتجاجاتهم مؤكداً ان الله يراها نصراً .

وحتى يحافظ محمد على روح جيشه المعنوية بينما ينتظر التطورات على جبهة مكة ، قضى فترة الهدنة فى مهاجمة القبائل التى لا تؤدى الجزية . فمن بين مواضع اخرى ، أغير على مستوطنة يهودية على حدود نجد وتم الاستيلاء على كنوزها وتقسيمها وفق القاعدة التى جاء بها محمد وهى ان تكون أربعة أخماس الغنيمة

للمحاربين والخمس لبيت المال . ولكن هذه المغامرة كادت تؤدى إلى موته ، إذ فى اثناء الوليمة التى اقيمت احتفالا بالنصر ، نجحت يهودية فى ان تدس له السم فى طعامه . وبرغم انه عوفى بعد مرض دام اياما قلائل ، فقد اساء السم إلى صحته طيلة ما بقى له من العمر .

وفى الوقت نفسه ، وبإيماءة تنم عن جرأة رائعة إذ لم يكن قد استولى على مكة بعد ، بل ولم يتوغل إلى ما وراء الحجاز ، طلب محمد خضوع أمراء الشام واليمن العرب ، والإمبراطور البيزنطى هرقل وعامله فى مصر ، وكسرى امبراطور فارس . فى فورة هياج مزق كسرى كتاب محمد وبعث إليه باجزائه عن طريق رسول ، ورد النبى غاضباً أن سيأتى اليوم الذى تمزق فيه بلاد فارس بالمثل . ولكن إذا لم يكن أحد من هؤلاء الرجال العظام قد استجاب إلى دعوة محمد لهم بالدخول فى دينه ، إلا أنه حقق نجاحا عندما دخل أحد قادة قريش فى الإسلام . ذلك أن خالدا بن الوليد انحاز إليه فبعث به على الفور على رأس جيش من المسلمين إلى فلسطين ليثأر لمقتل أحد رسله على أيدى داورية بيزنطية.مرة أخرى برهنت هذه المغامرة على أن عبقرية محمد لم تكن فى الشئون العسكرية . فقد قتل ابن عمه الأول وعبد سابق عزيز على نفسه كانا قد توليه قيادة القوة ولكنهما التقيا بجيش رومى كبير بصورة لم تكن متوقعة ، ولولا مهارة خالد وجرأته لما أمكن خلاص جنود النبى بغير اندحار .

فى هذه الأثناء وأمام مكة كان محمد يستخدم مهاراته السياسية على نحو أفضل ويمهد الطريق إلى خضوعها النهائى . فاستغل الفرصة للظهور فيها أمام جماهير انتابتها الحيرة وإن لم تكن قد فتنت به بعد ؛ وفى الوقت نفسه عقد زيجتين سياسيتين : أولاهما بخالة خالد ، والأخرى بابنة عدوه الأكبر أبى

سفيان ، وبذا وصل عدد أزواجه منذ خديجة إلى إحدى عشرة زوجـــة.
وهكذا عندما نقضت بعض القبائل المتحالفة مع الأمويين الهدنة بمهاجمة قبيلة متعاطفة مع المسلمين وخرج النبى إلى مكة فى يناير من عام ٦٣٠ طلباً للقصاص من المعتدى ، أحس الزعيم الأموى أن الأرض تميد تحت قدميه . كان محمد أوفر منه ذكاء بكثير ، ولم يكن فى وسعه أن يعتمد على ولاء المكيين الذين بدأوا ينظرون بغيرة متزايدة إلى قيام « المدينة » كمركز يحج إليه الألوف من قبائل الحجاز ممن دخلوا حديثا فى الإسلام،وكان انحياز خالد ضربة أليمة ، ولم يعد هنالك سوى معلومات سرية إضافية تذكر أن جيش محمد صار الآن يضم عشرة آلاف رجل ، ليجعل أبا سفيان يلتمس الصلح .

وبروح من الولاء الشديد لمولاه طالب عمر برأس الزعيم الأموى باعتباره عدوا لدودا للاسلام والمضطهد الرئيسى لمحمد . ولـكن النبى لم يـكن ليبدد أفضل فرصة أتيحت له للظفر بمـكة دون إراقة دماء ، فعفا عن أبى سفيان ، وعرض شروطا رحيمة على أهل مكة شريطة أن يعترفوا أن «لا إله إلا الله». ولقى العرض قبولا عن رضى ، ودخل محمد مكة دون مقاومة .

والتزاما بوعده عفا عمن كانوا يضطهدونه ، وسارع سادة قريش إلى إعلان الخضوع الذليل لنبى الا له الواحد . كان محمد يعلم وهوالسياسى البارع، أن الانتقام يولد مزيدا من الإنتقام ، بينما تأتى الرحمة بالألوف ينضوون تحت لوائه . هذه البراعة لم يـكن من دليل عليها هو أشد وضوحا من الأوامر التى أصدرها بشأن الـكعبة والحج . فبينما نفذ بالحرف الواحد النبوءة القديمة بأن واحدا من نسل إبراهيم سوف يقوم يوما فيطهر بيت الله فى مـكة بأن يحطم أو يزيل جميع أصنام قريش ويحـــرم أية صور أو تماثيل على هيئة البشر باعتبارها عادات وثنية ، نقول إنه برغم هذا أدخل أقل ما يمـكن من التغيير

على أساليب التعبد القديمة .فبقيت الكعبة نفسها المركز الذى يفد إليه الحجاج، وبقى الطواف سبع مرات حول الحجر الأسود الكبير ، على نحو ما كان عليه الحال فى عهد الوثنية . كذلك بقيت عادة الاستسقاء من بئر زمزم المقدسة ، وبقى السعى سبع مرات عبر المنطقة التى كانت تهيم فيها هاجر بحثا عن الماء لاسماعيل .

وبالمثل بقى زيارة الجبل المقدس فى عرفات ، ورمى إحـــدى وعشرين حصاة على الاعمدة التى تمثل الارواح الشريرة ، وتقديم الأضاحى من الابل .

ولكن كان هناك فارق كبير الى درجة عالية فى فلسفة الدين الجديد الاساسية بالمقارنة مع ما كان سائدا من قبل . فقد أعلن أن الإحسان هو أعظم الفضائل جميعاً . « الصلاة نصف الطريق الى الله ، والصوم يؤدى الى عتبته ، والإحسان يؤدى الى حضرته ». وكما كان الحال مع المسيح قال محمد : مبارك هم الفقراء . كان التأثير المبكر للراهب النصرانى بحيرى لا يزال قويا ، وان إصرار محمد على فضائل الاحسان والكرم ليبين كم استعار نبى الإسلام من المسيحية . فقد اعترف محمد بأن المسيح كلمة الله وكان يبشر بدين ابراهيم وإن أحس أن المسيحيين المتأخرين شأنهم شأن اليهود من قبلهم ، قد أفسدوا الدين الصحيح الذى دعا الله محمدا الى استعادته . ولعل فكرته عن صيام رمضان كان المراد منها أن يبين للناس كيف كان الفقراء يعيشون وأن من واجب المؤمنين أن يساعدوا الضعفاء ، أكثر مما كان — أى الصيام — مجرد فرض شعيرة من أجل الشعيرة وحدها . وبنفس المعنى دافع عن حقوق المرأة باعتبار أنها الجنس الأضعف . فلم يسمح بغير أربع زوجات وذلك فقط

اذا عدل الرجل بينهن[١]؛ وخول للمرأة حق الطلاق مثلها مثل الرجل، وأصبح وأد البنات جريمة وهو ما كان العرف الجارى فى عالم جعل الرجال أعلى منزلة من جميع المخلوقات . كذلك سمح بافناء العبيد والجوارى ولكن بشرط أن يعاملوا كأفراد الاسرة وأن يأكلوا من نفس الطعام[٢] .

واذ تحققت السيطرة الكاملة على مكة والمدينة أخذت صفوف الاسلام تزداد بالآلاف وأصبح فى مقدور محمد أن يستوعب كل من وفد اليه . وأنزلت الهزيمة بهجوم مضاد شنه ثلاثون ألفا من الاعراب وفر الباقون منهم على الحياة الى الطائف التى سلموها الى الإسلام مقابل الوعد باعادة إبلهم والغنائم الاخرى التى أخذت منهم . وبنهاية عام ٦٣٠ كان الراغبون فى اعتناق الإسلام يتوافدون من أقصى البلاد كاليمن وعمان والبحرين ، وكانت معظم قبائل الحجاز تؤدى الجزية . وفى أول حج رسمى فى العام التالى كان الإسلام من القوة اقتصادياً وروحياً بحيث أعلن علىّ باسم النبى بأنه من الآن فصاعداً يحرم دخول مكة على غير المسلمين ، وأن جميع المعاهدات أو العقود مع « الكفار » باطلة ولاغية .

ولكن فى الوقت الذى كان فيه الإسلام يستعرض عضلاته التى قويت حديثاً ، بدأ النبى يحس بالمرض — من آثار الطعام المسموم الذى تناوله قبل ذلك بعامين على مايقول البعض برغم أن الأعراض توحى بأنه كان يعانى من التهاب رئوى . وفى عام ٦٣٢ توجه الى مكة ، وباحساس واضح بدنو منتيته قال لأتباعه « اللهم هل بلغت ؟ اللهم فاشهد » .

---

(١) « فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » (سورة النساء ، الآية ٣) — المترجم .

(٢) كان هذا النظام موجودا فى العالم كله قبل الاسلام ، فجاء الدين الجديد يحث على العتق ويجعله من وسائل التفكير ، بحيث نقول أن ما وضع بهذا الشأن من قواعد وتعاليم ، هو دعوة بطريق غير مباشر أى الغاء الرق . — المترجم .

وعند عودته الى المدينة مرض وقبض بعد أيام قلائل بين ذراعى زوجه المفضلة عائشة . لم يصدق الناس الخبر ، وهدد عمر بأن يضرب بسيفه كل من يؤكد أن النبي قد مات . ولكن أبا بكر حدث الناس الذين لم يصدقوا الخبر فقال : « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لايموت »،ثم تلا الآية « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »(١) .

وأقنعهم كلام أبى بكر ، وبعد فترة الحداد المعتادة وهى ثلاثة أيام ، دفن النبى فى قبر تحت الفراش الذى مات فوقه .

ان كتاب سيرة محمد من المسلمين قد غلفوا حياته بالكثير من الأساطير التى طمست التفسير الصحيح لتأثيره . ونحن اذ نجردها من الغيبيات ومن المعجزات التى سعت الأساطير أن تفسر بها نجاحاته ، فان قصة محمد تثير السؤال الآتى : كيف استطاع رجل واحد أن يقود مثل هذا العدد الكبير من أتباعه إلى أن ينكروا الحياة الوثنية واللهو التى ألفوها وأن يمشوا فى الطريق الصعب والصخرى الذى رسمه لهم الدين الصحيح ؟ من المؤكد أن هذا لايرجع إلى نبل مولده فقد كان الكثيرون من معسكر قريش المضاد مثله من ناحية نبالة المحتد وفى أيديهم سلطة زمنية أكبر فى حكومة مكة والحجاز . كذلك لم تكن هالة النجاح بالتى سارت به فى طريق النصر ، ذلك أنه حتى ابتداء الأعوام الثمانية الأخيرة من حياته لم يلق سوى الهزيمة والاستهزاء . وحتى بعد أن ضمن قاعدته الأولى فى المدينة فإن طريقه كان أبعد من أن يكون طريق النصر المتصل . الجواب على السؤال مزدوج . أولا ، أن الإسلام باعلانه

---

(١) أوردنا نص الآية رقم ١٤٤ وهى من سورة آل عمران . المترجم .

الصريح ارادة الله،قداجتذب العرب البسطاء العمليين ، بينما المذهب العقلى اليونانى الدقيق الذى تطور فى التعاليم المسيحية فى القرن السابع بعد موت المسيح ، لم يكن يلقى منهم القبول . وثانياً،وكما هو الحال مع كل ثورى ناجح ، مس محمد الأعصاب الخام للجماهير فى الحجاز التى لم يكن لها امتياز المشاركة فى ملذات الحياة . وإذ كانت رسالته الروحية تنطوى على دعوة إلى الثورة الاجتماعية ، وهى دعوة واضحة ،كذلك استطاع محمد أن يرفع العرب وأن يكسب المواطنين االمهضوم حقوقهم والذين تلقوا نداءه ، كرامة جديدة فى أن يكونوا عربا .

وهكذا ، على خلاف الرسالة التى نشرها أتباع المسيح فى حوض البحر المتوسط قبل ذلك بستة قرون ، استخدم دين محمد أداة سياسية أكثر منها دعوة روحية بحتة ، وفى الفتوح العربية التى أعقبت وفاة النبى أصبح الإسلام أداة لتوحيد الفاتحين أكثر منه دعوة إلى أهل البلاد المفتوحة ليعتنقوا الإسلام. ولكن محمداً ، على خلاف المسيح ، لم يكن إذن نبياً فحسب وإنما كان أيضاً حاكماً زمنياً جمع فى يديه بين وظائف رئيس الدولة وقائد عام الجيوش إلى جانب منصبه الروحى. لقد رأى وهو المتفوق فى الاستراتيجية السياسية أنه إذا لم يخضع العرب لمذهب روحى خاص بهم فسوف ينتهى الأمر بهم إلى الخضوع لدين وسلطان أجنبيين على نحو ما أصاب أبناء عمومتهم فى الأقاليم البيزنطية والفارسية فى الشمال . فإذا كان هذا قد حدث فى اليمن عندما خضعت للاحتلال الحبشى والفارسى فى القرون الرابع والخامس والسادس،فانه يمكن أن يتكرر فى القرن السابع

فى الحجاز أو نجد أو فى مناطق الخليج الفارسى[1] الواقعة ناحية الشرق . ولن تكون مجموعة من رجال القبائل العربية يعوزها النظام والتنسيق نداً للجيوش ذات الإعداد الحسن التى كانت لدى الإمبراطورية البيزنطية أو الفارسية أو كليهما .

ما من أحد كان أكثر من محمد فهما لنواحى ضعف أبناء الصحراء العربية وتقلبهم . وما من أحد أكثر منه معرفة بمدى صلابة العرب فى القتال إذا تراءى لهم النصر ، وكم يسارعون إلى الكف عن النضال عندما تواجههم الهزيمة . وما من أحد كان أوفر إدراكاً لقدرة القبائل العربية على تبديد قوتها البشرية ونشاطها فى المنازعات الداخلية المريرة .

ولما لم تكن هناك قوة على الأرض تستطيع أن تبدل هذا النمط من السلوك، فقد عرف أن عليه أن يستعين بقوة عليا كى يفرض الوحدة والنظام وكلاهما جوهرى ، من أجل استمرار بقاء العرب كجنس مستقل . فبدعوة الناس إلى الخضوع الكلى لإرادة إله واحد ، وبالتبشير بالجنة بعد الموت لمن انتصروا لقضيته ، استطاع أن يقضى على الانقسامات الناشئة من المعتقدات والعادات الكثيرة التى اتسمت بها الوثنية ، ومن المنافسات والخرافات التى تميزت بها الحياة القبلية منذ عهود طويلة .

وعلى ذلك كان الهدف الأول هو بناء الإسلام على أساس راسخ ، وكان الهدف الثانى إدخال شبه جزيرة العرب كلها فى حظيرة الدين الجديد الواقية .

وبرغم أن محمداً انغمس فى عدد قليل من حالات التظاهر بالعظمة ومن

(١) العربى . — المترجم .

قبول هذا دعوته أباطرة بيزنطه وأكاسرة فارس إلى الدخول فى الإسلام[1]، إلا أنه ركز طاقاته وكرس حياته لهذين الهدفين . إن عظمته تكمن فى أنه أمام كافة الظروف المضادة وفى فترة لاتتجاوز عقداً زمنياً فحسب ، حقق الهدف الأول ، وكان فى سبيله إلى تحقيق الهدف الثانى عند ما وافاه الأجل . وبرغم أنه من ناحية المساحة الجغرافية لايمكن أن تقاس بالفتوح التى تمت بعد وفاته، فان ثورة محمد الروحية والاجتماعية غيرت بلاد العرب وحولت العرب فى جزء كبير من شبه الجزيرة إلى شعب موحد نسبيا ، يلتزم بالنظام ، وقادر على الدفاع عن وطنه وعلى مد حدوده إلى أقصى أركان المعمورة. على مادلت عليه الأحداث فيما بعد . وعن طريق الشعائر الدينية التى تضمنتها عقيدته أعطى للطبقات الحاكمة فى الحجاز احساساً جـــديداً بالمسئولية إزاء رعاياهم ، وأعطى الجماهير المهضومة ميثاقاً جديداً للعدل الاجتماعى .

ناحية واحدة فقط قصر إنجاز محمد فيها عن الكمال . فكما نرى فى الفصل التالى ، كان نفوذه على قلوب العرب وعقولهم شخصياً ، وكان الوقت المتاح لتغلغل هذا النفوذ قصيراً بحيث أن الحواريين الذى طغى عليهم ظله خلال سنوات انتصاره العشر تعرضوا للمعاناة عندما حاولوا منع القبائل العربية من الارتداد إلى أساليبهم الوثنية فور وفاته .

فلو أنه أحس بعد فتح مكة بدنو أجله فاربما عهد ببعض السلطات إلى من كانوا محل ثقته من صحابته أمثال أبى بكر وعلى وعمر . كان محمد زعيماسياسياً هو من البراعة بحيث يدرك أن عشر سنوات وحسب من الدعوة ومن فتح جزء من بلاد العرب لن تكون كافية لأحداث تغيير دائم فى أسلوب حياة عربى ظل قائماً آلاف السنين، أيا كانت روعة تلك السنوات العشر فى الأجل القصير .

---

(١) لم يكن هذا تظاهرا على الاطلاق ولكنه تنفيذ لجوهر رسالته اذ بعث للخلق كافة وكان دعوته لهؤلاء الحكام تمهيدا لما سوف يحدث فيما بعد ، وقد تحقق بالفعل . — المترجم

إن عدم توقعه أنه لن يظل على قيد البقاء أكثر من عامين بعد انتصار قضيته لا يكاد يؤخذ حجة ضده . ولكن من الإنصاف فحسب أن نسجل أن السبب الرئيسي الذى من أجله لم يمت الإسلام فى المهد عندما مات نبيه والمبشر به ، هو إخلاص وشجاعة أولئك الحواريين المؤمنين — أبو بكر وعمر وخالدبن الوليد — الذين أبقوا الشعلة الروحية متقدة وأعادوا القبائل المرتدة فى جميع أرجاء شبه الجزيرة إلى الحظيرة . إن عبقرية محمد السياسية هى التى بدأت فتصورت فى بلاد العرب قاعدة دينه الوطنية،ولكن تلاميذه هم الذين أخرجوا هذه الفكرة إلى وجود دائم وضمنوا شبه الجزيرة بإعتبارها قلعة الإسلام المنيعة طيلة بقية حياته .

إذا كانت مهارة محمد كاستراتيجى سياسى تعتبر أبرز مظاهر حياته فى نظر الذين يدرسون التاريخ العربى من غير المسلمين ، فالأمر الذى لا يرقى إليه الريب أن أروع وأحب ناحية فى طبيعته كانت إنسانيته . فمن بين أنبياء الأديان كافة كان هو أكثرهم إنسانية . وكان أكثرهم فهما لعناصر الضعف فى الآخرين إذ لم يخجل من الاعتراف بنقاط ضعفه بل ومن كشفها علانية . كان يتوق إلى أن يكون له ابن ، ولكن برغم أنه ولد له اثنان فإن أيا منهما لم يمتد به العمر إلا سنوات قليلة . وكان حزنه لموتهما من الشدة بحيث بكى بصوت عال وطويلا متحدياً القاعدة التى وضعها هو نفسه بتحريم بكاء المسلمين ونحيبهم على موتاهم الذين انتقلوا إلى النعيم الأبدى على ما بشر به الدين ، ومن ثم ينبغى أن يكون موتهم موضع الفرحة وليس الدموع .

وكانت متعته الوحيدة هى الشعر والعطر . فكان فى إمكان شاعر هجاه وسخر منه فى الأيام التى كان فيها موضع الاضطهاد ، أن يعتمد دائمًا على رأفة

النبي بعد الأسر ، لمجرد كونه شاعراً . بل لقد كوفىء البعض من هؤلاء الشعراء. أما عن نفسه هو فلم يحتفظ بشيء له قيمة مادية ، وعندما مات ترك من بعده درعا وقميصا وعمامة وثوبا مرقعا وإناء من الجلد وحشية من جريد النخل . وكان كل نصيبه من الغنائم المستولى عليها فى القتال وقدره الخمس ، ينفق فى خدمة قضية الإسلام .

إن بعض المؤرخين من غير العرب أتهموا محمداً بأنه أصبح بعد انتقاله إلى المدينة شخصاً تملكه جنون العظمة وأفاقا كاغير القواعد لتناسب أطماعه . هذا رأى أبعد ما يكون عن الإنصاف . فإلى أن ظفر بقاعدة آمنة يدير منها عملياته كان من العبث أن يحلم بالغزو . أما أنه كان منذ البداية يخطط كى يكسب بلاد العرب إلى دين الإسلام فأمر محقق . قد يكون من الإسراف فى الظن أن نعتقد أن جميع الرؤى التى بدت له كانت صادقة ، أما أنه كان يؤمن أنه ينفذ مشيئة الله فأمر لا يرقى إليه الشك . وإذا كان قد تخلى بعد انتقاله إلى المدينة عن وداعته وسلبيته السابقتين واتخذ موقفاً عدوانيا وقاسياً ازاء الذين قاوموه أو خانوه ، فهو إنما كان يستغل بحسب قوة كسبها لنفسه ضد مزايا طاغية توافرت لخصومه . وحتى لو كان فى قرارة نفسه من طراز مهاتما غاندى ، فان مجرد المقاومة السلبية ما كانت تفيده بشيء إزاء عدو لا يرحم مثل أبى سفيان ، أما أن يكون رحيما بعدو مهزوم فقد تجلى هذا جيداً فى مكة والطائف عندما أقرت قريش بهزيمتها وأصبحت أخوة له فى الدين .

هكذا كان محمد — الرجل البسيط الذى أصبح خارقا للمألوف ، والتاجر المكى الذى أحس أنه مدعو لتغيير العالم الشرير الذى كان يعيش فيه ، والغلام الذى وقع تحت تأثير راهب نصرانى[1] ثم بلغ مرحلة الرجولة وكله تصميم على

(١) هذا اسراف فى الخيال فما كان لقاء عابر فى رحلة للتجارة ليكون له أى تأثير على شاب حتى وهو لم يكن هو نبي المستقبل . — المترجم.

توحيد العرب فى ظل إيمان بإله واحد لا يقبل التجزئة . قد تساق حجج على أن دينه لم يكن خلقا أصيلا ، واستعار من المسيحية واليهودية بل ومن التقاليد الوثنية وذلك فى رسم قواعد الإسلام وطقوسه ، ولكن ما من أحد كان أكثر منه فهما لأخوانه من البشر ، وهذا المهم هو الذى مكنه من التغلب على الأنانية والخرافة ومن خلق عقيدة جديدة قدر لها فى النهاية أن تستحوذ على قلوب ثمن أفراد الجنس البشرى .

الفصل الثالث

بدايات الإمبراطورية

بوفاة محمد عادت القوى القديمة المؤدية إلى التفكك والممثلة فى الحياة العربية والإستقلال القبلى واستياء غيور من أية سيطرة ذات صبغة مركزية . خلال السنوات القلائل التى عاشها النبى بعد فتح مكة كان العرب بما جبلوا عليه من احترام النجاح ، على استعداد كاف لتقبل أحكامه وأداء الجزية التى فرضت عليهم . ولكن القبائل لم تكن بالتأكيد متحمسة للنظم التى سعى بها إلى تغيير النظام الإجتماعى واعتبرتها تدخلا ليس له مايبرره فى تحريم الإسلام القاطع للحرب بين المسلمين ، وهو التحريم الذى هدد لعبتهم التى درجوا على ممارستها طويلا وهى لعبة القتال بين القبائل . ومن ثم عندما لم يعد هناك محمد ليفرض رسالته بقوة شخصيته هو ، بدأت القبائل فى وسط بلاد العرب وشرقها تطرح عنها نير الإسلام وتطرد العمال الذين كان قد بعث بهم للتأكد من دفع الجزية المقررة .

وفى الوقت نفسه قام فى البحرين والشمال الشرقى من يزعمون أنهم خلفاء النبى الشرعيون . وأراد أهل المدينة أن يجعلوا أحد مواطنيهم — وهو خزرجى من نسل عبدالله بن أبى — خلفا لمحمد أى خليفة بدلا من أن يحكمهم قرشى من مكة وبنوا مطالبهم على حقيقة أنهم هم الذين آووا محمدا عندهم وأعطوه قاعدة آمنة لولاها لهلكت قضيته . ومقابل هذا أقام المكيون الذين كانوا أول من اعتنق الإسلام ، الحجة على أن لهم وقد أيدوا محمدا منذ البداية ، الحق المسبق فى تعيين الخليفة .

وأخيرا كان هناك فريق من المتمسكين بالشرعية وهؤلاء راحوا يحاجون بأن النبى سبق أن اختار فى الحقيقة عليا زوج أبنته ، وأن علياً على أى حال هو الوريث الشرعى الوحيد بحكم قرابته الوثيقة .

ربما كان يمكن تفادى الكثير من هذه المتاعب لو أن محمداً ترك وريثاً ذكراً أو أشار بوضوح قبل موته إلى من يختاره خلفا له . وبرغم أن نظام الوراثة العربى كان بحكم التقاليد انتخابياً أكثر منه وراثيا ، إلا أن من المحتمل أن الخليفة الذى يختاره النبى كان سيلقى القبول فى مكة والمدينة . ولكن بسبب عدم وجود دلالة من محمد عمن يكون موضع إيثاره وتفضيله ، اضطر المكيون إلى اللجوء إلى نظام الإنتخاب . وهنا واجههم النبى بورطة حيث لم يمين مجمعا إنتخابياً لاختيار الخليفة . كان خلال حياته قد هدم النظام القرشى القديم للحكم ، وهو إذ ركز فى يديه جميع السلطة الزمنية فضلا عن الروحية ، جمع فى شخصه وظائف المشرّع وقاضى القضاة وقائد الجيش ورئيس الدولة والرآسة الدينية . وهكذا فعند ما مات لم يكن هناك جهاز دستورى معد يمكن أن يعهد إليه بمهمة إختيار خليفته .

وعلى ذلك ترك لمجموعة مؤقتة من الصحابة على رأسهم أبو بكر وعمر ، إختيار شخص يملأ الفراغ ويتولى مقاليد الحكم فى الدولة الإسلامية الوليدة. كان أول تحرك لهم تفنيد دعوى المتمسكين بالشرعية أن محمدا كان قد عين عليا . ثم عملوا على أن يضموا أنصار المدينة الى صفهم ، محتجين بأن الأوس لن يقبلوا أبدا خليفة من الخزرج ، وعلى ذلك فان مثل هذا التعيين سوف يقسم المدينة على نفسها ، ويخل عنك إبعادها عن مكة . أما اختيارها كمين :

قرشى لمكة وخزرجى للمدينة ، فلن يعمل إلا على إضعاف الإسلام والعرب فى لحظة حرجة من نموهم .

هكذا كانت سمعة أبى بكر فى التعامل المنصف والخالى من المصلحة الذاتية بحيث أنه عندما اقتنع الناس بهذه الحجج بايعوه هو نفسه أول خليفة للنبى . لم يشترك على فى أى من هذه الإجراءات ، ذلك أن استياءه بسبب عدم تعيينه خليفة من قبل محمد ، زادمن حدته غضب زوجته فاطمة عندما أنكر عليها أبو بكر حقها فى أراض معينة كانت ملكا لأبيها . الواقع ، أن الألم الذى أحس به على جعله ينسحب تماما من النضال طيلة السنوات العشرين التالية وترك غيره يحسن استخدام السيف الذى سبق أن شحذه فى مقدمة جيش النبى .

قبل أبو بكر وهو شخص رقيق وكريم أحنت السنون ظهره الى حد ما ، المنصب على غير رضاء ذاتى وتحدث فى تواضع بالغ عن عدم أهليته لحمل المهمة. كان يفضل أن تكون الخلافة لعمر بجسمه الضخم وشخصيته المسيطرة وحماسه المتعصب ، ولذا ليس مما يثير الدهشة أنه عندما مات بعد ذلك بعامين عين خليفة له هذا الذى كان أول من دخل فى الإسلام من الأمويين .

ومع ذلك ، وبرغم كل رقة أبى بكر ، كان من البراعة بحيث يدرك أو بحيث يقنعه عمر ، أن أساليب قفاز الحرير لن تكون كافية لإعادة القبائل المرتدة الى حظيرة الإسلام أو لالحاق الهزيمة بأدعياء النبوة فى الشرق . هذه القوى الداعية إلى التفكك كانت تتطلب اجراءات أكثر شدة للسيطرة عليها . وعلى ذلك تحول أبو بكر إلى الجندى الذى كان قد ترك أعظم الانطباعات فى نفوس المسلمين ، وهو خالد بن الوليد ، وبعث به ليعالج أمر هؤلاء الأدعياء .

كان خالد وكما سبق أن أظهر ، قائداً عظيما للرجال ورجل تكتيك بارعاً ، يتصف بشجاعة غير هيابة وبرأى هادىء وواضح فى أشد المعارك ضراوة . وبعدم اهتمام بالحياة البشرية غير معتاد عند العربى . كان خالد يقتل خصومه بلا هوادة ولم يتردد فى أن يتزوج أرملة عدوه فى ساحة قتال خضبت بدماء قومها[١] . وأى أسير عرف عنه أنه قتل مسلماً ، كان يقتل بالطريقة ذاتها التى استخدمها فى إزهاق روح خصمه ، ومن ثم كان يدفن حياً أو يرجم حتى الموت أو يلقى به من فوق جرف عالٍ أو يرمى بالسهام .

ولكن خالداً كان يفرق بفرقة واضحة بين معاملته للكفار الذين يعتنقون الإسلام عند وقوعهم فى الأسر وبين المرتدين الذين كانوا قد خرجوا على العقيدة . كان يعفو عن الأولين ويأمر بقتل الأخيرين .

شكل أبو بكر جيش خالد من زهرة رجال مكة والمدينة ، ولم تمض ستة أشهر حتى كان قائده قد هزم اثنين من المتنبئين فى شرقى بلاد العرب وأرغم حلفاءهما المتمردين على الركوع . وقاومت قبيلتان بوحشية . فقد انقض بنو حنيفة على المسلمين وأعملوا فيهم القتل . ولكن خالداً بهدوئه المعروف عنه ، جمع رجاله وقسمهم إلى جماعتين : أهل البدو وأهل الحضر ، كى يثير روح التنافس فى هجومهم المضاد . ثم راح هو ورجاله يمزقون العدو إربا ، وسالت الدماء بغزارة بحيث أطلق على المعركة فيما بعد اسم « حديقة الموت » . وقتل مسيلمة زعيم بنى حنيفة وأحد مدعى النبوة ، وبلغت خسائر بنى حنيفة الآلاف وقتل من رجال خالد ألف ومائتان ، ولكن المنتصر الذى لم يخجل لفقده ربع قوته ، تزوج ابنة مسيلمة فوق أرض المعركة .

---

(١) أنظر تأنيب أبى بكر له فى ص ٥١ — المترجم .

هذه القسوة كانت موضع تأنيب قاسٍ من جانب أبى بكر الذى كتب إليه يقول: « لعمرى يابن أم خالد أنك لفارغ! تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتى رجل من المسلمين »[1] . ولكن خالداً اقتصر على هز كتفيه وعزا التأنيب إلى تأثير عمر الذى سبق أن طالب بعزل خالد بسبب ذنب مماثل ورماه فى وجهه بأنه قاتل وفاجر ومنافق . كان أبو بكر قد رفض أن يطرد أفضل قادته قائلا أنه لا يستطيع الآن أن يغمد « سيف الله » وهو اللقب الذى أطلق على خالد رمزاً لانتصاراته . وإذ ثبت خالد فى مركز القيادة واصل الانتقال من نصر إلى نصر . وصلت أخبار انتصاراته بالبحرين ونجد إلى كل جزء من جنوب بلاد العرب ، ولم تكن إعادة عمان وعدن وحضرموت إلى الحظيرة لتحتاج إلى أكثر من اقتراب حملة تأديبية أخرى من المسلمين .

كمل الآن الفتح الإسلامى لشبه الجزيرة العربية ، واذ أصبح للعرب قاعدة آمنة خلفهم كانوا فى موقف ينطلقون منه إلى ميادين جديدة ، وبدت الشام وفلسطين والعراق أسهل الآمال وأقربها . كانت جميع البلاد الثلاثة على أقصى درجة من الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية ، ومن يملكها يتحكم فى الأبواب المؤدية إلى آسيا الصغرى ومصر وفارس ، ووجد بدو الصحراء فى المدن الجميلة والمراعى الغزيرة بهذه البلاد قوة إغراء لا يمكن مقاومتها .

وفضلا عن هذا فإن الامبراطوريتين المتسلطتين على هذه الأراضى — وهما بيزنطة وفارس — لم يكفا عن الاقتتال فيما بينهما إلا منذ وقت قريب فى حروب دامت ستا وعشرين سنة وكانت تمثل الجولة النهائية فى النضال الطويل بين هذين الغريمين . كانت نتيجة الجولة الأولى فى صالح فارس عند ما انتزعت بيت المقدس فى عام ٦١٤ من إمبراطور القسطنطينية البيزنطى . ولكن ما أن

(١) النص كما أورده الطبرى — المترجم .

حل عام ٦٢٨ حتى كان البيزنطيون قـــد أخرجوا الفرس من فلسطين والشام ، وحصروهم وراء نهر الفرات فى العراق (أو كالديا كما كان يطلق عليه آنذاك) .

كان الجهد قد استنفد قوى كل من المنتصر والمهزوم . فقد أفلست بيزنطة ، وفى سبيل تدبير الإتفاق أضطرت إلى انتهاج تلك السياسة الكريهة ، سياسة تقديم الإعانات من الولايات الواقعة عند الحدود . وسادت فى فارس حالة من الفوضى إذ كان من مخلفات الهزيمة أن قتل كسرى وذكور الأسرة المالكة بيد أحد أبنائه . وبعد اغتيال القاتل نفسه استولى على العرش مطالبون مختلفون ليقتلوا أو يُعزلوا بدورهم ، وكان آخر من نُصب أميراً فى الخامسة عشرة من العمر يدعى يزدجرد ، كان قد نجا على نحو ما من تلك المذبحة البشرية . يضاف إلى هذا أن حكام بيزنطة وفارس كانوا قد اشتبكوا فى نزاع مع الغساسنة واللخميين لأسباب دينية وأثاروا عاصفة من العداء فى الشام والعراق بالغائهم هذه الأسر المالكة العربية المحلية وفرض حكمهم المباشر . (كان بنو غسان قد اعتنقوا زندقة الكنيسة القبطية التى كانت تصر على أن للمسيح طبيعة واحدة — هى الآلهية — وذلك على نقيض اعتقاد الكنيسة الأرثوذكسية فى طبيعة المسيح الآلهية والبشرية) . وهكذا ، وقد كان للعرب الكثير الذى يكسبونه من تملك هذه الأراضى ، كان من المحتوم وقد خرجوا منتصرين فى بلاد العرب ، أن يتابعوا الميزة التى حققوها وذلك بأن يهاجموا هاتين الامبراطوريتين اللتين أصابهما الضعف والواقعتين إلى الشمال .

منذ بدء النضال ضد الفرس والروم تمتع العرب بنوع الميزة الذى تملكه فى العصور الحديثة الشعوب التى لها سيادة البحار . فى هذه الحالة كان البحر

هو الصحراء ، وبينما تمتع العرب بحرية التحرك والتنقل الكاملة فى هذا ، أى بعنصرهم الممثل فى وطنهم ، لم يكن فى إمكان الفرس والروم التحرك فى الصحراء على الإطلاق . فمن ناحية ، كان العرب يستخدمون الابل بينما كان خصومهم يركبون الخيل التى يقل كثيراً احتمالها لظروف الصحراء . ومن جهة أخرى فإن إلغاء الأسر الحاكمة العربية فى الشام والعراق كلف الروم والفرس معظم فرقهم الصحراوية عندما سحبت القبائل تعاونها احتجاجاً على القضاء على هذه المظاهر الدالة على استقلال العرب الذاتى .

من المؤكد أنه ما من شىء آخر يمكن أن يفسر الإنتصارات الخارقة المألوف التى قدر للجيوش العربية أن تحرزها على أعظم امبراطوريتين فى تلك الأيام. صحيح أن الروم والفرس كانوا يعانون من الإعياء المتولد من الحروب ومن الفوضى ، وأن الفرق التى شكلوها من الأرمن ومن العرب النصارى وحاولوا بها سد الثغرات التى خلفتها فى صفوفهم حروب الثأر التى سبق أن دارت بينهم ، نقول إن هذه الفرق كانت تخدمهم بفعل الخوف من الانتقام العربى أكثر منه نتيجة الحماس لحكامهم . ولكن العرب كانوا دون خصومهم إلى حد كبير من ناحية التدريب والمعدات . كان تدريبهم يكاد أن يكون معدوما ؛ فبمجرد أن يتطوع المجندون الجدد للخدمة كان يبعث بهم إلى الحملات التأديبية . وكان تعيين القواد يتم بطريقة عشوائية ؛ ففى إحدى الحالات نجد شخصاً كان أول من استجاب لدعوة الخليفة قد عين قائداً لمجرد أنه كان أول من تطوع . وأسلوبهم فى القتال وكان مبنيا على فن الحرب القبلية ويعكس نزعة البدوى الفردية البدائية ، هذا الأسلوب كان عبارة عن هجمات مفاجئة يشنها فدائيون من الفرسان ، فإذا فشل العرب فى إحراز النصر فإنهم يختفون فى الصحراء فجأة بمثل ماظهروا .

كان التحام المشاة غير معروف لهم ، كما كان يتعارض مع فلسفتهم فى المعارك حيث يبارز الرجل الرجل . أما عن المعدات فهم لم يكونوا أقل من خصومهم من ناحية الدروع فحسب بل كانوا يفتقرون إلى الأسلحة الثقيلة المساعدة التى تماثل ما عند الخصوم ، وعلى ذلك كانوا مضطرين إلى الاعتماد على إطلاق السهام بكثرة لتكون ناراً تغطى هجومهم . إلا أنه برغم نواحى النقص هذه استطاعت جيوش المسلمين أن تحطم روح الروم والفرس المعنوية وتلقى فى قلوبهم الرعب فيسلمون مدنهم المحصنة ، من صغيرة وكبيرة . وهكذا أظهروا للعالم ما يمكن أن تفعله الشجاعة والمفاجأة ضد قوات تفوقهم .

وبرغم ان الهجوم العربى الرئيسى كان سيوجه ضد الشام وفلسطين ، إلا أنه وقع الاختيار على العراق ليكون أول هدف لجيوش الخليفة ؛ من جهة بسبب قربه الشديد من أرض المسلمين ، ومن جهة أخرى لأن الحالة السائدة من الفوضى فى ممتلكات الامبراطور الفارسى جعلته يبدو فى نظر العرب خصماً أضعف من نظيره البيزنطى . عين خالد على رأس الحملة التى خرجت فى مارس ٦٣٣ متجهة إلى العراق . وعند اقترابه من الأراضى الفارسية تلقى أول بشير بالنجاح الذى سوف يلازمه ، وذلك لما لحقت به قبيلة بنى بكر بقيادة زعيمها المحارب المغوار المثنى ابن حارثة ، وذلك على مقربة مما يشكل الآن الحد الفاصل بين العراق والكويت . فبرغم أن فريقا من بنى بكر كان قد تنصر ، إلا أنهم كانوا فى حالة من التمرد السافر على الفرس منذ الغاء الأسرة الحاكمة اللخمية فى العراق ، فسارعوا الآن إلى الدخول فى دين الغزاة المسلمين .

بهذا الحدث الذى ساقه القدر زادت القوة التى تحت أمرة خالد إلى ثلاثة أمثالها . وإذ زحف المسلمون نحو وادى الفرات طلب إلى هرمز والى دلتا دجلة والفرات أن يعتنق الإسلام أو يواجه الهزيمة والموت . وإذ ارتكب هرمز خطأ خطيراً بأن قلل من شأن جيش المسلمين باعتبارهم شراذم من رجال القبائل غير المدربين ، تقدم لملاقاتهم . وجريا على العرف دعا خالداً إلى منازلته قبل بدء المعركة العامة . ولكن خالداً فرغ منه بسرعة ، ودحرجيشه الفرس الذين اعترتهم الدهشة وطاردهم حتى نفس أسوار عاصمتهم .

قرر الفرس الآن أن يقاوموا العرب بالعرب . فتقدم جيش من الفرس ومن فرق من العرب المسيحيين لطرد الغزاة ، ولكن القائد المسلم غلبهم بتفوقه فى القيادة والمناورة . جمعوا شملهم لشن هجوم جديد وكادوا يحرزون النصر ، وفى هذه المرة تخلى عن خالد ما اتصف به من البرود فى الأزمات فأقسم أنه إذا منحه الله النصر النهائى فسوف يحول دماء عدوه إلى نهر قرمزى اللون . ولما تحطم الفرس فى النهاية وبراً بقسمه ، جمع أسراه وأمر بقطع رؤوس جماعات منهم والقائهم فى قعر قناة جافة .

بعد ذلك استأنف خالد زحفه على العراق . وأخذ بمشورة معاونه ومساعده الرئيسى المثنى بن حارثة وهو أن يقاتل العدو فى الصحراء حيث يظفر بالنصر ، فاذا ما هزم كانت الصحراء التى يألفها ويعرفها وراء ظهره . وتطبيقا للمشورة أعد قواته على هيئة أسطول من أساطيل القراصنة يطوف على مقربة من البر على امتداد ساحل العدو ، ثم ينقض على الداخل عندما يشاء وبسرعة وحركة البرق.

كانت الحيرة هدفه التالى ، وبعد حصار قصير اتفق مع أهلها ومعظمهم من العرب ، على تسليمها . ومقابل أداء الجزية سمح لهم بحرية العبادة ، وتعهد المسلمون بحماية المدينة . هذه الرأفة غير المعتادة من جانب خالد يمكن تفسيرها بأن الحيرة كانت محصنة تحصيناً جيداً وقادرة على المقاومة العنيدة ، وأنه كان يحتاج إليها ليتخذ منها قاعدة لجيشه الذى لم يكن فى داخل أرض العدو فحسب بل وكان أيضاً يبعد ألف ميل عن وطنه ولا يفصلها عن الحجاز سوى الصحراء. وفور الإستيلاء على الحيرة تجلت مخاطر خط المواصلات الطويل ، عندما توجه جيش عربى ثان لمساعدة خالد فتعرض لضرب شديد من بعض القبائل العربية عند دخول العراق ولم يخلصه سوى الذين جاء لتدعيمهم .

ولما رجع خالد إلى الحيرة بعد هذا الحادث غير المتوقع وجد أن الفرس قد تجمعوا وتهيأوا للقتال من جديد بأعداد أكبر من ذى قبل بالتعاون مع حلفائهم العرب النصارى . فقرر أن يستخدم إستراتيجية جديدة ويهاجم عدوه ليلا ، ففر الفرس وقد تملكهم الرعب بعد أن أخذوا على غرة . والآن أصبح فى إمكان خالد أن يستأنف الزحف سعياً وراء فتوح جديدة تاركا قاعدته فى رعاية الجيش العربى الثانى . وزحف على طول وادى الفرات فوصل إلى فيراد التى تبعد ثلاثمائة ميل عن الحيرة ، قبل أن يلقى مقاومة جدية فى ذلك الوقت كان النهر عند هذه النقطة يشكل الحد الفاصل بين الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية، وفى هذه المرة تعاون هذان الغريمان عندما راحت حاميات الحدود من الروم والفرس سويا تتحدى خالداً أن يعبر النهر ويهاجمهم . تحداهم خالد أن يعبروا لمهاجمته ، ولما عبرت القوات المتحدة الفرات ظفر بنصر جديد واستعمله على العراق بسبب إنجازاته ، خليفة دخل السرور على قلبه ويعترف بالجميل .

فى هذه الأثناء كانت الاستعدادت تجرى على قدم وساق فى العراق لغزو فلسطين التى كانت من ناحية التقسيم الإدارى جزءاً من سوريا الكبرى وتشكل أقصى مقاطعاتها فى الجنوب . ثم تجنيد أربعة وعشرين ألف رجل وضعوا تحت إمرة أبى عبيدة الذى كان فى مقدمة الذين أيدوا خلافة أبى بكر بعد وفاة محمد . وقسمت القوة إلى أربعة ألوية ، أولها بقيادة عمرو بن العاص وعليه أن يغزو فلسطين عن طريق العقبة . كان عمرو محاربا شابا يتقد حمية ، وعلى غرار خالد كان قد خدم أبا سفيان فى النضال ضد محمد ، وكان من بين وفد قريش الذى طلب فى عام ٦١٥ من نجاشى الحبشة إخراج أتباع النبى . وكان على اللواء الثانى بقيادة يزيد بن أبى سفيان حاكم نجد والحجاز أن يزحف على دمشق ، بينما يبقى اللواءان الآخران كاحتياطى . وكان كل لواء يتشكون من محاربين أشداء على جانب كبير من الدربة ، وهم من أهل المدينة ومكة ، ومنهم مائة ممن بقوا على قيد الحياة من الثلاثمائة « صحابى » المشهورين الذين سبق أن هزموا أبا سفيان فى غزوة بدر ، وبهذا لم يكن ثمة شك فى كفاءتهم أو شجاعتهم . ولكن خشية أن يغلب حماسهم على حكمتهم لقنهم أبو بكر درسا شديداً قبل خروجهم . فذكرهم بمسئوليتهم كحملة راية الإسلام فى أراضى الأجانب والكفار ، وأوصاهم باحترام النساء والأطفال والشيوخ ، وألا يسلبوا المحاصيل أو الماشية أو الإبل إلا إذا كانت بهم حاجة حقيقية ، وألا يغشوا أو يخونوا أو يسرقوا أحداً ، وأن يعدوا بالحكم الصالح ويقيموه للشعوب التى يفتحونها .

وكما كان الحال فى العراق فالغزو الإسلامى لفلسطين ساعده السخط السائد فى صفوف القبائل ضد حكامها . سار كل شىء سيراً طيباً فى أول الأمر ، وباستخدام تكتيك « اضرب واهرب » الذى طبقه خالد بنجاح ضد الفرس

انتصر عمرو فى اشتباكين سريعين ضد الروم على مقربة من العقبة وغزة ، ولكن عندما راح هو ويزيد يواصلان الزحف شمالا اشتدت مقاومة الروم ووجدا أنفسهما عاجزين عن التقدم وأنهما فى خطر من قطع خط الرجعة وذلك عندما أعلن حاكم دومة العربى الخروج على الإسلام ، وكانت دومة هذه موضعا يقع فى مؤخرة الجيوش العربية وفى منتصف الطريق بين فلسطين والعراق . فلما سمع الخليفة بما هما فيه من محنة أمر « سيف الله » أن يسرع إلى نجدتهما . وعلى رأس قوة من تسعة آلاف رجل شق خالد طريقه عنوة مسافة ألف ميل عبر الفيافى الجافة وغير المطروقة فى صحراء الشام الكبرى ، وسحق شيخ دومة المرتد ، ثم انضم إلى قوات عمرو عند أجنادين القريبة من بيت المقدس فى يوليه ٦٣٤ وأوقع الهزيمة بقوة مشتركة من الروم ورجال القبائل المسيحية ، قيل إنها كانت من ١٠٠٫٠٠٠ رجل .

كانت فلسطين كلها مفتوحة الآن أمام الغزاة المسلمين ، ولكن إلى الشرق منها كانت جيوش الإسلام تحت ضغط شديد . فنظراً لأن أبا بكر نهى عن تجنيد القبائل التى ثارت على الإسلام بعد موت النبى . أصبح نقص القوات مشكلة وخاصة فى العراق حيث كان خالد قد سحب منه زهرة الجيش ليعزز عمرو فى فلسطين . استغل الأعاجم هذا الموقف ودبروا هجوماً مضاداً ، وفى أكتوبر من عام ٦٣٤ ، وباستخدام الفيلة لبث الذعر فى قلوب العرب ، تغلب القائد الفارسى رستم على القائد المسلم المثنى بن حارثة وأخرج جيشه من وادى الفرات بعد مذبحة رهيبة مات فيها أربعة آلاف من المسلمين . وعلى الفور رفع الخليفة الحظر على تجنيد القبائل المرتدة ، وبفضل التعزيزات القوية التى بدأت تتحرك الآن من الحجاز ، ثأر المثنى لنفسه فى

العام الثانى عند البويب على مقربة من الحيرة ، ومرة أخرى دفع بالفرس أمامه حتى أبواب طيسون .

فى هذه الأثناء كان خالد يوالى الضغط من أجل الوصول إلى « ملكة المدائن » — دمشق — التى كانت تقع فى سهل خصيب دعاه عرب نجد والحجاز « جنة الدنيا » . كانت دمشق التى ظلت أكثر من ألف عام عاصمة للشام ، من بين أغنى وأجمل مدن الإمبراطورية البيزنطية ، وفيها مذاق حقيقى بما تشتمل عليه الجنة ، وكان الاستيلاء عليها يمثل فى نظر جيوش المسلمين جائزة تلهب الخيال . وبضم الألوية التى قدم بها أبو عبيدة من فلسطين وصل خالد إلى هدفه فى مارس ٦٣٥ . وبعد حصار استمر ستة أشهر ، وبفضل ألوان الاستياء فى صفوف الحامية المسيحية ، فتحت دمشق أبوابها واستسلم الحاكم البيزنطى .

وتمشيا مع تعليمات أبى بكر للقوات عند خروجها ، كانت شروط التسليم التى سوف تصبح نموذجا يطبق على ما سيستولى عليه المسلمون فيما بعد ، شروطا لينة للغاية بالنسبة إلى الأهلين . فأعلنت فى عبارة موجزة ولكنها حاسمة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها ، أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم ، لا يُهدم ولا يُسكن شىء من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين ، لا يُعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية[1] » .

---

(١) هذا النص من كتاب « فتوح البلدان » تأليف أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذرى ، القسم الأول ، طبعة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٤ — المترجم .

كان مجهوداً ماهراً لإقرار السلام ، يشدد على جميع المزايا والإعفاءات التى كان على الاحتلال الإسلامى أن يقدمها مقابل أداء الضرائب ، وحرص على استبعاد أية إشارة إلى أن غير العرب وغير المسلمين سوف يعاملون باعتبارهم مواطنين من «الدرجة الثانية» .هذا الإعلان لم يلجأ إلى الحيلة ويسلم دمشق للغزاة المسلمين ، ولكن ما أظهره من اللين والتسامح كان له أثره فى نفوس القبائل المسيحية بالشام بحيث وجدت الجيوش العربية أصدقاء جدداً فى كل مكان بالإقليم . هذه الصداقة قدرلها أن تؤتى ثماراً هامة بأسرع مما كان خالد يتوقع . فبعد أن واصل السير واستولى على حمص وبعلبك تدفق من الأناضول جيش جديد من الروم يضم ما بين ١٠٠٫٠٠٠ ، ٢٠٠٫٠٠٠ ودفع جيوش الخليفة أمامه حتى بلغت نهر اليرموك فى فلسطين . ورغبة فى بيان حسن النية أعاد خالد وأبو عبيدة الضرائب إلى أهل المدن التى جلا الرجلان عنها لأن قواتهما لم تعد قادرة على الوفاء بعهدها وحماية السكان . وهكذا عندما تقهقر المسلمون وجدوا القبائل فى كل مكان على استعداد لتزويدهم بالمؤن ومصممة بالمثل على حبس المعونة عن الروم .

وفى أغسطس ٦٣٦ توقف خالد فى الموضع الذى يدخل فيه اليرموك الأردن . وقبل أن تبدأ المعركة عرض تيودور قائد الروم أن يتحدث إلى المسلمين. قبل خالد ، ويرجع هذا إلى حد كبير إلى أنه أراد أن يطلب إطلاق سراح أبى سفيان وأربعة من ضباط أسرهم الروم أثناء زيارة تفتيشية للجيوش العربية . وبما اتصف به من التفاخر سحب سيفه أمام القائد البيزنطى وهدد بقتله على الفور إذا لم يطلق سراح رفاقه فى التو . هذا المظهر أخذ تيودور على غرة تماما فأمر باطلاق سراحهم فوراً وحصل مقابل هذا على خيمة رائعة ذات لون قرمزى :

أظهرت المعركة التى تلت ذلك أفضل صفات خالد كرجل تكتيك : فقد استغل بالكامل عاصفة ترابية عنيفة وألقى بقواته القليلة عدداً على العدو الذى أعمتـــه العاصفة وأشاع فى صفوفه الفزع ثم الاضطراب وأخيراً الذعر ، وكان ينادى قواته فى ذروة المعركة بقوله إن الجنة أمامهم والشيطان والجحيم وراءهم ؛ إذا قاتلوا ظفروا بالأولى وإذا فروا وقعوا فى الثانية. وراحت النساء يشجعن بالغناء ، والصياح على عادة القبائل ، وحارب المسلمون بمثل مالم يحاربوا من قبل أبداً . داعت المعركة المستميتة ثلاثة أيام إلى أن أبيدت الجيوش المسيحية تماما وقتل قائدها. أما هرقل الذى كان قد جاء إلى انطاكية من أجل المعركة التى يعلم أنها ستقرر مصير الشام على نحو أو آخر ، فلم يعد أمامه من خيار إلا ان ينسحب إلى القسطنطينية .

وكان الاسلام قد خرج الآن من حصنه الصحراوى . وأتم العرب فتح العراق وفلسطين والشام ، وأصبحت دمشق وبيروت وحمص وأنطاكية وحلب رصيدا تحكم الآن باسم الخليفة فى مكة . ولكن أيام مجد البطل الذى جعل كل هذا فى حيز الامكان ، كانت معدودة . كان راعيه وحاميه الرئيسى أبو بكر قد مات فى عام ٦٣٤ ، وخلفه عمر ، العدو الذى لا يلين لخالد . وبحكم الضروره العسكرية فى العامين الأخيرين اضطر هذا العدو إلى أن يترك قيادة الجيوش العربية بالشام فى أيدى أنجح قواده ، ولكن إذ لم يبق من مكان يفتح فى فلسطين سوى بيت المقدس ، فقد أصبح فى إمكان عمر أن يستغنى عن خدماته .

استدعى خالد إلى المدينة بعد أن استرجع دمشق ، وعين أبو عبيدة واليا على الشام ، وعهد إلى عمرو بن العاص من جديد بمهمة الاستيلاء على بيت المقدس وكانت قد أصبحت الآن ثمرة ناضجة سقطت دون قتال بعد أسابيع

قايلة فى يناير ٦٣٧ ، وكانت شروط التسليم شبيهة بشروط تسليم دمشق . مرة أخرى لم يكن المسيحيون ليتعرضوا للمضايقة ، ونص على حماية كنائسهم وصلبانهم . واستجابة لرجاء من بطرق الروم سفرونيوس حضر عمر بشخصه للتوقيع على المعاهدة ، وعلم ذلك الحشد من القواد والأساقفة النصارى الذين كانوا فى انتظاره عند أبوابهم المزركشة ، درسا فى التواضـــع بأن قبل استقبالهم وهو يرتدى ثوبا مرقعا ومهلهلا ويجلس فوق حمار .

بعد ذلك بعامين انتقم عمر من خالد . استدعى القائد لاستجوابه بشأن إتهامات تتعلق بعدم الصلاح وبسوء التصرف فى أموال الدولة . فاتهم بأنه كان يمزج الخمر بالماء الذى يستحم به[1] ، وبأنه أعطى ألف دينار من مال الجيش إلى شاعر يدعى الأشعث كان ينظم الشعر فى مدحه . إعترف خالد بالتهمة الأولى وعبر عن الندم على الخطيئة التى ارتكبها ضد تعاليم القرآن ، ولكن لم يفه بكلمة بشأن التهمة الثانية . وعندئذ عقله المؤذن بعمامته علامة على أنه مذنب . كان هذا كثيراً جداً على خالد الذى انفجر يعلن أن الألف دينار كانت من ماله ، ففك المؤذن وثاقه[2] .

---

(١) بلغ عمر أن خالدا دخل الحمام ، فتدلك بعد النورة بثخين عصفر معجون بخمر ، فكتب إليه : بلغنى أنك تدلكت بخمر ؛ وأن الله قد حرم ظاهر الخمر و باطنه ... وقد حرم مس الخمر الاأن تغسل كما حرم شربها ، فلا تمسوها أجسادكم فانها نجس . فكتب اليه خالد : إنا قتلناها فعادت غسولا غير خمر . (الطبرى ، ج ٤ ، ص ٦٦) — المترجم .

(٢) يلاحظ نوع من الاضطراب على ما ذكره المؤلف ، ولذا نوردهنا حقيقة الأمر كما أوردها الطبرى فى تاريخه (ج ٤ ، ص ٦٧) . قالوا : ولما قفل خالد ، وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائفة انتجعه رجال ، فانتجع خالدا رجال من أهل الآفاق ، فكان الأشعث بن قيس ممن أنتجع خالدا بقنسرين ، فاجازه بعشرة آلاف . وكان عمر لايخفى عليه شىء فى عمله ، فدعا البريد ، وكتب معه إلى أبى عبيدة أن يقيم خالدا ويعقله بعمامته ، وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين اجازة الأشعث ، أمن ماله أم من إصابة أصابها ؟ فان زعم أنها إصابة أصابها فقد أقر بخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف، واعزله على كل حال . ═

ولكن أباعبيدة الذى كان يرأس المحاكمة لم يكن يعتقد فى براءته ، ذلك أن الإسراف فى استخدام اموال الدولة كان معروفا عن خالد ، وأحال —أى أبو عبيدة— القضية إلى عمر. وعجزت كافة احتجاجات خالد عن أن تؤثر فى الخليفة الشديد التمسك بتعاليم الدين . وطرد خالد من القيادات التى كان يتولاها ، وصودر ربع ثروته[1] .

وبرغم أن هذا ترك له مالا وفيراً يعيش عليه بعد عزله ، إلا أنه كان باسط اليد وينفق على العديد من التابعين — من زوجات وجوار وعبيد وأطفال — بحيث مات معدما بعد ذلك بعامين .

هكذا كانت نهاية البطل الذى يعتبر أول العرب من طراز الأسكندر . إذا أخذنا فى الاعتبار الفتوح المثيرة للدهشة التى قام بها خالد ، فان اضطهاد عمر له ومعاقبته يبدوان أمراً غير كريم . فلولا عبقريته العسكرية وقيادته لربما

= كتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه ، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر، فقام البريد فقال: ياخالد ، أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة ؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه وأبو عبيدة ساكت لايقول شيئا ، فقام بلال اليه، فقال : إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ، ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته وقال أمن مالك أم من إصابة ؟ قال : لا بل من مالى ، فاطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ، ثم قال : نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا.— المترجم .

(١) خرج خالد إلى المدينة حتى قدم على عمر ، فشكاه وقال : لقد شكوتك إلى المسلمين ؟ وبالله أنك فى أمرى غير مجمل ياعمر ، فقال عمر : من أين هذا الثراء ؟ قال : من الأنفال والسهمان ، مازاد على الستين ألفا فلك فقوم عمر عروضه فخرجت إليه عشرون ألفا ، فأدخلها بيت المال . ثم قال ياخالد ، والله انك على لكريم ، وانك إلى لحبيب ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء . (تاريخ الطبرى ، . ح ٤ ، ص ٦٨) . ومن هذه الرواية يتضح أن خالدا هو الذى عرض ردأية زيادة إذا أسفر عنها التقويم ، بينما رواية المؤلف مقتضبة ويمكن أن توحى بغير ما حدث فعلا وذلك فى قوله « وصودر ربع ثروته » — المترجم .

لم تكن هناك إمبراطورية عربية ولربما اقتصر الاسلام اليوم على الصحراء التي خرج منها . إلا أنه ينبغي أن نتذكر أنه برغم مااتصف به خالد من بسالة كجندي ، إلا أنه يكاد أن لا يعتبر مثالا للورع[١] . وفضلا عن هذا ، لم تكن جذور الاسلام قد تعمقت بعد ، وخشي الخليفة أن أهل مكة والأقاليم المفتوحة قد يعزون نجاح جيش الاسلام إلى خالد أكثر من أن يعزوه إلى الله[٢] . فلو حدث هذا لكان من السهل أن يصبح هذا البطل الشعبي تهديداً للحركة الروحية التي أنشأها محمد وكان عمر متفانيا في خدمتها . فحيث كان أبو بكر متساهلا ويميل إلى أن يغفر نقاط الضعف البشري وأن يغفر حتى ما يرتكب من تجاوز للحدود في قضية عادلة ، كان عمر هو المؤدب الذي لا يلين ولا يتسامح ، والذي يجعل أحكامه متفقة بالمعنى الدقيق مع القواعد التي أرساها النبي . فقد أعلن : إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده . وأما أنا فورب الكعبة لأحملهم على الطريق »[٣] ، ولقد فعل ماتوعد به .

---

(١) يظهر أن المؤلف يبني رأيه هذا على مافعله خالد اثر مقتل مسيلمة ، وعلى اتهامه بمزج الخمر بماء الاستحمام ؛ ولقد سبق أن عرضنا الامرين ورأينا كيف أن أبابكر أنبه في الحالة الأولى ، كما ثبت بطلان الأمر الثاني — المترجم .

(٢) يقول الطبري (. ج ٤ ، ص ٦٨) : كتب عمر إلى الأمصار : اني لم أعزل خالدا عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ، فخفت أن يوكلوا اليه ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكون بعرض فتنة . — المترجم .

(٣) لما ولي عمر الخلافة صعد المنبر وكانت تلك العبارات مما قاله — المترجم .

ذلك أن عمرا هو الذى دون القواعد التى سمى النبى عن طريقها إلى أن يحكم أتباعه . فهو إذ لاحظ فور وفاة محمد أن القراء قد استحر بهم القتل ويتناقص عددهم بسرعة ، أمر زيدا بن ثابت كاتب النبى ، أن يجمع كل ماأنزل على مولاه على لسان جبريل . وجمع هذا كله ونسخ فى الأديم فى المصحف وهو القرآن، بالترتيب الذى كان يتلوه به النبى باعتباره كلام الله . وهكذا ، فنص القرآن يعكس قصة مولد الاسلام وانتصاره على كفار قريش ، كما يعكس إلى جانبها ما جاء به نبى الله من رسالة لم تجعل النصر فى حيز الامكان فحسب ولكن جعلته أيضاً شيئاً محتوما . وإذ يتكون القرآن من قسمين ، فإنه يبدأ بالسور المكية التى نزلت فى فترة النضال ، بأسلوب موجز ونارى ، تعلن وحدانية الله وتشدد على واجبات المؤمنين وعلى العذاب الذى ينتظر الكافرين . بعد ذلك تأتى السور المدنية التى ترجع إلى فترة الانتصار . هنا تصبح اللغة أغنى والكلمات أوفر ، وتعكس تحول محمد من نبى ينادى ويدعو فى البرية، إلى حاكم روحى وزمنى يضطلع بمسئوليات تشريعية وإدارية. هذا القسم يضع القواعد والنظم المتعلقة بالصلاة والصيام والحج ، ويتضمن تحريم الخمر ولحم الخنزير والميسر . وعلى أساس هذه السور ، إلى جانب أقوال النبى وأفعاله مما يعرف باسم « الحديث » أو السنة ، تقوم الشريعة او القانون الاجتماعى الإسلامى الذى ينظم جميع الحياة الإسلامية ويتناول من بين أشياء أخرى ، مسائل الجريمة والطلاق والزنا والميراث .

ويشتمل القرآن على الكثير مما جاء فى العهد القديم من الكتاب المقدس ، فكثيرا مايرد ذكر شخصيات مثل آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل وموسى وسليمان ويعقوب . ويشار إلى إبراهيم وهو الجد الأعلى للنبى ، على أنه السلف الروحى للاسلام . وتمشيا مع الإعتراف الفطن من جانب محمد بالقديسين

والأنبياء فى الديانات اليهودية والمسيحية ، نلقى الإعتراف بيسوع (أو عيسى باللغة العربية) ومريم ويوحنا المعمدان . وتشغل قصة خلق آدم وخروجه من الجنة مكانا بارزا ، وكذلك تشغله قصة الطوفان الذى قال عنه محمد إنه مثال عن غضب الله وانتقامه من العالم بسبب عدم الانصياع لأوامره . وعلى النقيض من هذا يكال الثناء لعجائب الطبيعة — النجوم ، الشمس ، القمر ، المطر الذى يهب الحياة ، وثمار الأرض — باعتبارها آيات على وجود الله وعلى آلائه على البشر أجمعين .

وبرغم أن عمرا عهد بالتدوين الأصلى للقرآن إلى كاتب النبى إلا أن يد زيد لم تكن الوحيدة التى اضطلعت بالمهمة . فبعد وفاة عمر تداولت عدة نسخ أخرى ، وكان على خلفه عثمان أن يدون نسخة رسمية واحدة . وفى سنة ٦٥١ عين زيد لمباشرة عملية المراجعة ، وعن طريق النص المحفوظ عند إحدى أزواج النبى(١) ، جمع النص الرسمى الذى عاش عبر القرون وليس فقط باعتباره إنجيل الإسلام وتجسيد كل ماينطوى عليه من علم وحكمة ، ولكن أيضاً باعتباره نموذجا لبلاغة وابداع النثر الذى هو لغة العرب .

كل هذا العمل كانت له نتيجة مباشرة وعملية هى إرساء الأساس الذى يقوم عليه نظام للتعليم . فقد كان أول المعلمين فى العصر الإسلامى القراء الذين بعث بهم عمر إلى جميع أرجاء بلاد العرب ، وكانت أول مدارس ما أنشأها هؤلاء فى المسجد حيث يجتمع الشباب والشيوخ على السواء يوم الجمعة من كل أسبوع بأمر من الخليفة ليستمعوا إلى تلاوة القرآن . سوف يقتصر نظام التعليم هذا على هذه « المدارس » الكنسية » خلال المائة سنة

---

(١) هى حفصة بنت عمر : المترجم

أو أكثر التالية. ذلك أنه باستثناءات قليلة لم تكن الطبقات الحاكمة فى هذه الفترة تتميز برعاية العلوم وكانت تنظر إلى الصحراء التى يبعثون إليها بأبنائهم للتعلم على أنها أفضل الأكاديميات. هناك يتعلم الشاب كل مايفيده — اللغة العربية الخالصة التى تتحدث بها القبائل، إلى جانب صفات الرجولة من أمثال الفروسية والسياحة والصيد. وفى زمن الخليفة عبد الملك جىء بمعلمين أجانب، غالبا ما كانوا من النصارى، لتعليم قواعد اللغة العربية. وقام عدد قليل من الأطباء بإجراء البحوث فى علوم الكيمياء والطب بالإعتماد على المصادر اليونانية والفارسية. ولكنهم لم يلقوا غير القليل من التشجيع من قبل السلطات التى كانت ترى أن واجب المسلم ينحصر فى تطبيق قواعد الإسلام وليس فى ممارسة مهنة الطب.

هكذا ظل القرآن والمسجد أساس التعليم العربى الى أن استهل الخلفاء العباسيون عصر العلوم العظيم فى القرن التاسع بما أقاموه من أكاديميات للتعليم العالى والعلم. كان التعليم بالنسبة الى الصغار والكبار من المؤمنين، مقصورا على المبادىء الأولية فى القراءة والكتابة والنحو والشعر والحساب البسيط. لم يكن فى إمكان أحد أن يتعلم مايزيد على هذا، وكانت رغبة الخليفة — وكان أمره — أن لا يتعلم أحد ما دون ذلك.

(٤)

فتح فارس ومصر

ماذا كانت بالضبط القوى الكامنة وراء التوسع العربى ؟ هل الذى حرك هذه القفزة إلى الأمام حافز دينى أم شىء أكثر دنيوية وأقل اتصالا بالروحانية؟ فى رأى السير توماس أرنولد وهو من كبار المتخصصين فى عصرنا فى تاريخ العرب ، أن توسع الإسلام فى النصف الثانى من القرن السابع لم يكن نتيجة حركة دينية كبرى ولكنه بالأحرى كان نتيجة نزوح شعب دفعه الجوع والعوز إلى اجتياح أراضى جيرانه الأوفر خصبا وثراء . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يعتقد الجنرال جلوب فى كتابه « الفتوح العربية الكبرى » أن « ضغط السكان والضرورة الاقتصادية لا يمكن أن يولدا وحدهما مثل هذا الانفجار البركانى . كانت هناك حاجة إلى نار عاطفية ومثالية ما كى تحدث انفجاراً بمثل هذا العنف » . أما المؤرخون العرب فيفسرون هذه الأحداث على أنها تسلسل أوحى به الحماس والفرض الدينى .

ولكن حتى نفهم هذه المشكلة فهما صحيحا ، يتعين علينا التفرقة بين غزو بلاد العرب على أيدى محمد وأبى بكر من جهة ، والفتح الذى أعقب هذا من جهة أخرى ودفع العرب بعيداً إلى ما وراء شبه الجزيرة العربية . وواضح أن غزو بلاد العرب كان الغرض منه إقامة قاعدة محلية للاسلام وحمايتها . وليس من شك كثير فى أن الضرورة الاقتصادية كانت الحافز الحاسم الذى ساق الجيوش العربية إلى غزو أراضى جيرانهم الروم والفرس واحتلالها .

صحيح أن النار المتقدة فى قلوب جند الخليفة أشعلتها العقيدة الإسلامية .

وصحيح أيضاً أن الإسلام وفر النظام والوحدة اللذين لولاهما لكانت الجيوش العربية طغمة قبلية صعبة المراس تفتقر إلى أى نظام من القيادة المركزية ولا تطيع سوى ما تمليه المصلحة الذاتية ولا تحارب إلا لتحقيق مكاسب شخصية أو قبلية .

ومن المرجح أن الكثير مما أظهر رجال خالد وعمرو من شجاعة وجلد فى مواجهة جيوش الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية الجيدة الإعداد والعدة وإنزال الهزائم بها ، كان منبثقا من إيمانهم ومن الاعتقاد فى القضاء والقدر مما غرسه فيهم محمد وأتباعه . ولكن كان لابد من شيء أكثر من الغرض الدينى كى يحمل العرب عبر آلاف الأميال من الصحراء غير المطروقة ليواجهوا أخطاراً مجهولة ولا يمكن حسابها . فبفضل ما زود به الإسلام العرب من الوحدة والقوة ، لم تعد فارس وبيزنطة تشكلان أى تهديد حقيقى لحدودهم . ومن جهة أخرى كان الجانب الأكبر من الجيوش العربية يتكون من قبائل لم تكن العقيدة الإسلامية قد تغلغلت فى أعماقها ، ولم تكن بالتأكيد لتخرج من أراضيها التقليدية لمجرد الخروج وانقاذ أرواح أبناء عمومتهم العرب من أسارى الشرك والكفر .

الذى أخرج القبائل ودفع الجيوش العربية إلى غزو أراض تتجاوز حدود بلادهم ، كان الحاجة إلى مجال حيوى أو بعبارة أدق الحاجة إلى مجال للعيش . فنحن اذ ننظر إلى فتوح خالد وعمرو فى الهلال الخصيب بالعراق ، وفى الشام وفلسطين ، نجد أنها كانت الهجرات العربية الكبرى . فكما كان الحال فى الألفين الثانية والثالثة قبل العصر المسيحى ، كذلك بعد مولد الإسلام كانت الضرورة الاقتصادية هى التى أخرجت العرب ليقيموا فى الشمال الخصيب حيث الغذاء لأسراتهم والماء لقطعانهم ، ذلك أنه فى الوقت الذى مات فيه

محمد كان بيت مال المسلمين خاويا والسكان فى ازدياد . لم يكن سوى جواب واحد على هذه المشكلة : توسيع نطاق ممتلكات الخليفة إلى خارج المنطقة التى تؤدى الجزية نقداً وعينا إلى خزائن مكة .

ومن هنا الأمر القرآنى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »[١] . ومن هنا شروط تسليم دمشق وبيت المقدس حيث سمح للنصارى واليهود بممارسة شعائر أديانهم بشرط أداء الجزية إلى الفاتحين . فمنذ البداية الأولى كان الخلفاء الأوائل يفرقون بشدة بين شبه الجزيرة العربية وبين ما يفتحونه من الأراضى الواقعة وراءها . كان لابد أن تظل شبه الجزيرة خالصة للاسلام ، ليس فقط من أجل تحقيق ما أمر به النبى عند وفاته وهو إلا يكون فيها سوى الإسلام ، ولكن أيضاً لحماية قاعدة الإسلام المحلية فى مكة والمدينة من نوع التهديدات التى تشكلها القبائل المرتدة ومن ادعوا النبوة فى الجزء الشرقى من بلاد العرب ، بعد وفاة النبى مباشرة . أما فى الأقاليم الشمالية فكانت عملية التحويل إلى الإسلام يسيرة نسبياً فى أوائل مراحل الفتوح العربية ويبدو كما لو كان الخلفاء تعمدوا تشجيع الكفار على البقاء على كفرهم حتى يتسنى جباية الضرائب منهم لبيت المال .

من المحقق أن عمراً كان يسترشد بهذا المبدأ الاقتصادى وهو يرسم أول دستور للامبراطورية الجديدة ، تضمن الهدف المزدوج : إبقاء المؤمنين على إيمانهم ، وحمل الكفار على الدفع .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة التوبة . . المترجم .

فمن جهة ، وبالاصرار على شكل من « التفرقة العنصرية » المعروفة فى العصور الوسطى ويكون العرب فيها هم الجنس السيد ، أعلن أن شبه الجزيرة العربية هى للمسلمين فقط وأمر بإخراج جميع اليهود والنصارى الذين لجأوا على الفور إلى فلسطين والشام . وكان الجيش وقد اقتصر رجاله بالمثل على العرب ، منظما ليكون أرستقراطية عسكرية تخضع لها كافة الطبقات والجماعات الأخرى. فقد عوملت البلاد المفتوحة على أنها مستعمرات ، واقتصر الفاتحون العرب على المعسكرات الحربية ومنعوا من التآخى مع أهل البلاد أو أن يسلكوا بأى حال مسلك المستوطنين . بل وقرر عمر أن لا يتملك المسلمون العرب أراضى خارج شبه الجزيرة العربية .

ومن جهة أخرى أعفى جميع المسلمين من الضرائب . وكانت الإيرادات التى تؤول من الضرائب التى يدفعها رعاياهم غير المسلمين توزع كاعانة بين المؤمنين بعد تغطية تكاليف الإدارة والجيش. وقام التوزيع على أساس متدرج بحيث تكون لأهل بيت النبى والمؤيدين الأصليين من مكة والأنصار من المدينة الأسبقية على من عداهم . وكانت مخصصات القبائل ويشترك فيها النساء وحتى الأطفال ، تحسب طبقاً لإسهامها الحربى ومعرفتها بالقرآن .

وفى الوقت نفسه وفرت الحماية لجميع الشعوب التى فتحت بلادهم ممن أعفوا من أداء أية واجبات عسكرية ، وسمح لهم بممارسة أعمالهم وظلوا خاضعين لقضاء قوانينهم يطبقها قادتهم الدينيون بشرط أن يدفعوا الجزية وأن يدفعوا الخراج حيث كان مطبقا . لقد حرم القرآن إرغام الناس على اعتناق الإسلام ، وعلى ذلك يجب أن يكون اليهود والنصارى أحراراً فى الاحتفاظ بدياناتهم. ولكن الحرمان من حماية القانون أو الموت كان ينتظر كل من يسب القرآن أو محمدا ، أو يؤذى مسلماً أو يسرقه . وبالمثل كان من المحرمات زواج كافر من مسلمة ،

أو محاولة إخراج مسلم عن دينه . كان مسموحاً للعرب الذين اعتنقوا الإسلام أن يلتحقوا بالجيش وأن يتمتعوا بما هو مقرر للمسلمين الآخرين من معاشات ومزايا ، أما غير العرب ، حتى وإن قبلوا فى حظيرة الإيمان ، فكانوا ممنوعين من الالتحاق بالجيش واستمروا يؤدون الجزية ولا يشغلون سوى المراكز الثانوية فى المجتمع[1] .

وبخلاف هذه النواميس الجديدة لم يفعل سوى القليل لتغيير النظم البيزنطية والفارسية السابقة للادارة فى البلاد التى فتحت . فأبقى الفاتحون المسلمون على ما سبق أن عمله الرومان والروم من تقسيم الشام إلى أربع مناطق عسكرية وهى : دمشق وحمص والأردن وفلسطين . وفى الممتلكات الفارسية السابقة لم تحدث تغييرات عنيفة فى جهاز الحكم . كان بعض السبب فى هذا أن أبناء الصحراء الذين فتحوا هذه الاقاليم كانوا يفتقرون حتما إلى الخبرة فى الإدارة ويسعدهم أن يجدوا فى كل مستعمرة جديدة أداة جاهزة للحكم . ومن جهة أخرى كان عمر يسير على سياسة النبى نفسه من حيث الإقلال بقدر الإمكان من إحداث أى اضطراب فى حياة الذين تفتح بلادهم .

لو كان خلفاء عمر استمسكوا بدستوره بدقة لربما اختلف تاريخ الامبراطورية العربية . فبرغم أنه أعلن تفوق العرب العنصرى إلا أنه منح العدل والحماية للشعوب التى أخضعت . وبوجه خاص حمى غير العرب وغير المسلمين من أهل المستعمرات من الاستغلال ومن انتزاع ممتلكاتهم على أيدى المستوطنين الوافدين من بلاد العرب وبهم جوع إلى الأرض . ولكن إذ

(١) هذا يتعارض مع ما يذكره المؤلف فى مواضع أخرى حيث كان الذميون يتولون الوظائف الادارية والمالية إلى أن بدأ عبد الملك بن مروان يختط سياسة جديدة — المترجم .

واصلت الامبراطورية التوسع كان كثيراً أن نتوقع من مسلمى بلاد العرب أن يقنعوا إلى الأبد بالعيش فى فيافى شبه الجزيرة وأن يتخلوا عن المكاسب الوفيرة والفرص للافادة مما كانت تتيحه لهم الفتوح المتزايدةعلى أيدى جيوشهم. وعلى ذلك كان حتما أن ينفجر السد بعد موت عمر ، وبالمباركة من جانب خلفه بدأ سيل من المهاجرين العرب يتدفق على البلاد المفتوحة ويشترك مع الجيوش العربية فى الاستيلاء على أراضى الفلاحين من أهلها . أما وقد زالت الحماية الممنوحة لغير العرب وغير المسلمين تحول مبدأ العنصرية الذى يقوم عليه دستور عمر إلى عبودية دون أن يحصل الذين فرض عليهم الدستور على تعويض عن هذا التحول ، وإذا كانوا حصلوا فقد كان تعويضاً يسيرا . وفى الوقت نفسه وبرغم أن بعض الخلفاء المتأخرين كمعاوية أشركوا النصارى واليهود فى الإدارة فإن فكرة عمر الأساسية عن تفوق المسلمين والعرب ظلت طابع الحكم فى الامبراطورية طيلة السنوات المائة التالية . وهكذا اشتعلت لهب الاستياء فى صفوف الشعوب الخاضعة ، وتحولت فى النهاية إلى حريق كبير وأدت بعد مائتى عام إلى القضاء على النفوذ العربى واستبداله بمؤثرات فارسية وتركية .

لكن ما من أحد أسهم بشكل مباشر أكثر مما أسهم عمر فى تحقيق نفس الفتوح التى سوف تلغى جوانب دستوره القائمة على إنكار الذات وتغرى القبائل على العدوان على حقوق أبناء البلاد فى الأراضى الشمالية الغنية والخصيبة . فلم يكد يتم اجتياح الشام وفلسطين حتى كان يصدر الأوامر بشن هجوم جديد على الفرس فى العراق . وفى عام ٦٣٧ ، وبعد أن مات المثنى من أثر الجراح التى أصيب بها فى موقعة البويب ، بعث عمر بأحد «الصحابة» ممن شهدوا بدرا وهو سعد بن أبى وقاص على رأس جيش يزيد على الثلاثين

ألفاً ويضم فرقا من أهل القبائل ، لمهاجمة العاصمة الفارسية والاستيلاء عليها .

كان الامبراطور الفارسى يزدجرد شابا حاد الطبع اثار غضبه وفد من العرب فى ملابس خشنة بعث بهم سعد يدعونه إلى الإسلام ، فتجاهل نصيحة رستم الحذرة وأمر جيشه بمهاجمة المسلمين وهم يقتربون ، وكما كان يعلم قواده الأوفر منه حكمة ، فإن ما فعله أوقعه فى براثن العرب . فبدلا من المخاطرة بقواته فى الصحراء المكشوفة كان ينبغى له أن يحشدهم وراء التحصينات الصلبة فى عاصمته ويستدرج العرب من الصحراء التى يعرفونها . ولكن تغلبت حدة طبع الامبراطور الشاب ، وفى مارس ٦٣٧ راح الجيش الفارسى يعترض المسلمين عند القادسية الواقعة على مسافة أميال قليلة إلى الغرب من الحيرة فى وادى الفرات . ومن فوق عرش موشى بالذهب على ظهر فيل ، أخذ رستم يدير العمليات عندما انقض جيشه الذى تجاوز ١٠٠٠٠٠ مقاتل على ما يقال ، على الغزاة . ويحدثوننا ان سعدا كان يتولى الدفاع وهو مطروح فوق محفة بسبب اصابته بخراج منعه من ركوب جواده ، بينما كانت زوجته وهى أرملة المثنى تتأوه وتقول : وا آسفاه ، ليس هناك مثنى الآن ، إلى أن اضطر إلى اسكاتها بأن لطمها على وجهها .

استمرت المعركة أربعة أيام ؛ وفى أول الأمر كان ضغط الجموع الفارسية على العرب شديدا . ولكن عندما بدأ الرماة فى جيش سعد يطلقون سهامهم على فيلة العدو فتصيبها فى عيونها ، راحت الحيوانات التى اعمتها السهام تطأ صفوف العدو بأقدامها : وقتل رستم عندما شدد العرب من ضغطهم مستغلين ميزتهم المفاجئة ، وتحطم الفرس ولاذوا بالفرار تاركين فى ارض المعركة غنائم

كانت كافية لتزويد كل واحد من المنتصرين بستة آلاف قطعة ذهبية. وكانت الجوهرات التي انتزعت من جثة رستم تساوى وحدها سبعين ألف قطعة.

إن الجيش الفارسي المتكبر الذي استطاع قبل ذلك بسنوات قلائل أن يطارد القوات البيزنطية ويجبرها على التقهقر صوب القسطنطينية، هذا الجيش هزمه الآن رجال القبائل من بلاد العرب. أصبح العراق كله الآن تحت أقدام جيوش الإسلام، ونتيجة لاحتلال الشام حتى جبال طوروس، دق اسفين بين الامبراطوريتين الكبيرتين. فريزدجرد من طيسفون، ولما انحازت القبائل المسيحية فى الشمال زرافات إلى جانب المسلمين، استولى سعد على العاصمة الفارسية هنا كان السلب والترف الذى حيا الفاتحين يفوق أى شىء سبق أن رأوه. لم يسبق لهم أبداً أن حدقوا فى أمثال هذه القصور الفسيحة الفخمة، وأمثال هذه الأقبية الجميلة وهذا الأثاث الفاخر. حصل كل جندى عربى على اثنتى عشرة ألف قطعة ذهبية أو ما يعادل ١٧٠٠ دولار بأسعار اليوم، وقدرت القيمة كلها بنحو ٢١٠ مليون دولار.

كانت امبراطورية فارس تتداعى الآن؛ ولكن برغم أن سعدا أراد مواصلة الزحف على خراسان عبر جبال زاجروس، طلب منه عمر أن يتوقف مؤقتاً. فمن جهة، خشى الخليفة أن يتجاوز العرب حدود قوتهم ويخسروا كل ما كسبوه حتى الآن. ومن جهة ثانية، كان يحس بالقلق، وهو ما قد حدث فيما بعد، من أن أمثال هذه الغنائم الكثيرة قد تفسد جيوشه بأن تغرس فيهم روح الجشع والحسد. وعلى ذلك عمد سعد إلى تدعيم موقفه بتنظيم العمليات؛ وأهم من ذلك — وكايماءة سياسية — أمر بمصادرة أراضى القبائل التى كانت قد قاومت الزحف الإسلامى بينما أعاد ممتلكات المستوطنين الفلاحين الذين

أظهروا موقفاً ودياً أو حتى محايداً . وأنشئت قواعد عسكرية جديدة عام ٦٣٨ فى البصرة والكوفة فى وادى الفرات . وبناء على أمر من الخليفة أصبحت الكوفة عاصمة للعراق .

غير أنه بعد ذلك بثلاث سنوات أصبح عمر على اقتناع بأنه إذا لم يبدأ بتوجيه الضربة فسوف يعود يزدجرد بجيش أكبر لطرد العرب . ومرة أخرى أطلقت الفرق العربية من عقالها . فاستولت على الموصل فى عام ٦٤١ ، وعندئذ انحرفت الجيوش العربية نحو الغرب بعد أن عبرت جبال زاجروس ، ثم هزمت فى نهاوند على حدود اذربيجان جيشاً فارسياً أكبر بكثير وخسر ثلاثين الفا فى المعركة ثم ثلاثين ألفاً آخرين عند ما طارد العرب فلوله نحو الشرق . ولم يأت عام ٦٤٤ حتى كان جيش الإسلام وهو الجيش المنتصر على طول الخط ، قد اجتاح ثلاثة أرباع أراضى فارس الحديثة وأقام حكمة فى مقاطعات « فارس » **Fars** فى الجنوب الغربى ، وخراسان فى الشمال الشرقى واذربيجان فى الشمال الغربى . هذه الفتوح الجديدة أعقبها دخول الناس أفواجاً فى الإسلام . فالأعاجم من عبدة النار إذ لم يسمح لهم بنفس التسامح الذى منح اليهود والنصارى فى فلسطين والشام ، نبذوا معتقدات زرادشت وهرعوا إلى حظيرة الإسلام .

فى هذه الأثناء كانت جيوش الإسلام تحول اهتمامها نحو الغرب .

فالأسباب الاقتصادية والاستراتيجية اجتذبت العرب إلى مصر بمثل ما اجتذبتهم إلى الشام والعراق . كانت مصر من الممتلكات الثمينة التى تضمها الامبراطورية البيزنطية؛ والواقع أنها كانت مخزن غلال الروم فى ذلك الوقت . من الناحية الاستراتيجية كان من الحيوى انتزاع مصر من الروم

بسبب قوبها غير المريح من الحجاز ، كما أن أسطول الروم يستطيع من ميناء الإسكندرية وهو أحد قواعده الرئيسية ، أن يهدد فتوح الإسلام الجديدة فى فلسطين والشام . وبالعكس يوفر تملك دلتا النيل قاعدة ينتشر منها العرب إلى الأراضى التى يحتلها الروم على امتداد شاطىء أفريقيا الشمالى .

وعلى ذلك كان من المحتوم ، على الأقل لحماية ما كسبه العرب ، وبمجرد ما يصبح فى الإمكان الاستغناء عن قوات من الشام وفلسطين ، أن يكون التحرك التالى للعرب هو إلى مصر : وبرغم هذا كان عمر عزوفا فى أول الأمر عن الموافقة على إرسال حملة خشية قطع مواصلات جيوشه .

وذلك يمثل الخوف الذى ساوره فى حالة سعد . وكانت النتيجة أن فاتح بيت المقدس بُعث به فى ديسمبر من العام ٦٣٩ على رأس جيش صغير من أربعة آلاف فارس — زيد فيما بعد إلى عشرة آلاف — ليدخل مصر فى حظيرة الإسلام .

وكما حدث لخالد فى العراق لقى عمرو ترحيباً حاراً من القبائل المحلية بمجرد وصوله إلى أرض مصر . بل أن الأقباط أظهروا عطفهم على الغزاة المسلمين . هؤلاء المسيحيون المصريون كانوا قد تعرضوا لأقصى أنواع القمع على يد بطرق الروم المقوقس لأنهم رفضوا التخلى عن مذهب طبيعة المسيح الواحدة واعتناق مذهب الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية .

كان الرهبان الأقباط يجلدون ويعذبون بسبب معارضتهم ، وألقى بالبطرق القبطى فى البحر داخل زكيبة مثقلة بالأحجار . بعد هذه المعاملة الشيطانية من جانب اخوانهم فى الدين أحس الأقباط أن المسلمين بما اشتهروا به من تسامح

مع الأديان الأخرى ، يمكن أن يشكلوا تحسينا بالنسبة إلى الوضع الذى كانوا فيه .

كان الهدف الأول لعمرو هو الحصن البيزنطى الكبير بابليون الذى كان قائما فى موقع القاهرة الحديثة . وإذ كان يقترب على طول الشاطىء من غزه ثم يتوغل فى الداخل على طول حافة دلتا النيل ، انضمت إليه التعزيزات الآتية من المدينة ، وخلال الفترة الممتدة بين أبريل ويوليه من عام ٦٤٠ قاتل الروم فى عدد من الاشتباكات الناجحة عن طريق استدراجهم إلى الصحراء . ولكن فى كل مرة كانت قوات الروم تفلت لتحتمى فى قاعدتها ، وفى نهاية العام بدا لعمرو أنه لن يتمكن من اقتلاعهم من حصن بابليون المنيع. ولكن فى مارس ٦٤١ عندما بلغ الحامية البيزنطية خبر موت الامبراطور هرقل فى القسطنطينية تخلى المدافعون فجأة عن النضال ، ومقابل تسليم بابليون بجميع مخازنه سمح للحامية بالانسحاب تحت راية هدنة . بعد ذلك بأربعة أشهر كان عمرو قد تقدم فى داخل الدلتا وراح يدق أبواب الإسكندرية ، وبعد أربعة أشهر أى فى نوفمبر ٦٤١ التمس المقوقس الصلح . الآن وقد أدرك نائب الملك فى مصر البيزنطية المعروف بعجرفته ، أن أعمال القمع التى ارتكبها ، بالإضافة إلى المد الإسلامى الذى لا يمكن مقاومته ، قد حولت البلد بكامله ضده ، وإذ كان يتفاوض مع عمرو لم يكن يسعه إلا أن يقول : أراد الرب أن يعطى أرض مصر للعرب .

ثم سلمت الاسكندرية وفقا للشروط المعتادة —وهى توفير الحماية للمسيحيين واليهود مقابل أداء الجزية والضرائب — وسمح للجيش البيزنطى بالانسحاب بحراً إلى القسطنطينية فى ذلك الوقت كانت عاصمة مصر وهى الاسكندرية ، شأنها شأن دمشق ، تلى القسطنطينية جمالا وثراء . فقد استمدت روعتها وفخامتها

من امبراطوريتى روما وبيزنطه ، وقبل ذلك من الفاتح اليونانى الكبير الذى أنشأها ؛ فكان خط سمائها المتلألأ الذى يحلق فوقها يتضمن الفنار الشهير الذى يلمع بأشعة الشمس نهارا وبناره هو ليلا ، كما يتضمن المسلتين المصنوعتين من الجرانيت (وتعزوان خطأ إلى كليو باترا) اللتين تقومان الآن فى سنترال بارك بنيويورك سيتى وعلى رصيف نهر التيمس فى لندن ، وكذلك المعبد (الذى ينسب بحق إلى نفس السيدة الأسطورية) الذى بنته تكريما ليوليوس قيصر .

لاعجب أن كتب عمرو إلى الخليفة أنه استولى على مدينة سوف يمتنع عن وصفها ، ويكفى أن يقول أنه استولى فيها على أربع آلاف فيلا فيها أربعة آلاف حمام ، وأربعين ألفا من اليهود تفرض عليهم الجزية ، وأربعمائة مكان للهو . وعلى سبيل المفارقة أمر عمر حامل خطاب عمرو وكاد ينتشى من الفرح ، أن يجلس على الأرض ويقاسمه طعامه من الخبز والتمر .

احتل المسلمون الآن مصر كلها حتى حدود النوبة ، ودخلت ليبيا بما فيها عاصمتها البيزنطية طرابلس ، فى المنطقة التى تؤدى الجزية . وأثبت عمرو أنه إدارى محبوب عند ما أخذ يدعم مكاسبه ؛ فبنى عاصمة جديدة دعاها الفسطاط (تعرف الآن باسم مصر القديمة) وتقع إلى جوار بابليون، حيث كانت القناة الفرعونية القديمة تربط النيل بالبحر الأحمر . ولكن باعتباره جابيا للضرائب فإنه قصر عن إرضاء متطلبات عمر الذى عين على إيرادات مصر عبد الله بن أبى سرح وهو أخ لعثمان بالرضاعة . بقى عمرو كحاكم عسكرى ، ولكن بعد ثلاث سنوات فقد منصبه عندما انتهى عهد عمر الذى استمر عشر سنوات ، على أيدى عبد فارسى طعنه طعنة الموت وهو يدخل مسجد المدينة ، اعتقاداً منه

أن الخليفة أصدر حكما غير منصف بصدد نزاع حول مسألة مالية[١] .

وخلفه عثمان زوج بنت محمد ، انتخبه مجلس من شيوخ القوم عينهم عمر وهو على فراش الموت . ولكن عثمان صار شخصاً متحيزا لأقاربه وصحابته . وكان فى مقدمة أعماله أن استدعى عمراً من مصر واستعمل مكانه عبد الله أخاه بالرضاعة . وفى الوقت نفسه عزل سعد من العراق وخلفه أخ غير شقيق للخليفة الجديد وكان مدمنا على الخمر سرعان ماجلب العارعلى نفسه عندما صلى بالناس وهو سكران . ثم فى عام ٦٤٥ استرجع الروم الأسكندرية وذبحوا الحامية العربية . فسارع عثمان إلى ارسال عمرو ليستولى على المدينة من جديد، ولما استردها دعاه إلى البقاء فى قيادة الجيش وأن يظل عبد الله على بيت المال. فأبى عمرو الذى استشاط غضباً أن يكون الشخص الذى يمسك البقرة بقرنيها بينما يحلبها شخص آخر ، وعندئذ ثبت عثمان عبدالله بن أبى سرح واليا على مصر .

فى مقارنة عمر بعثمان ليس من غير العدل تماماً أن نقول إنه بعد الزحف المبدئى الذى قام به خالد بن الوليد ، واصلت الامبراطورية العربية توسعها طيلة السنوات العشرين التالية بسبب تفانى عمر وبرغم ضعف عثمان . وكان عثمان محدث نعمة ، مسنا وضعيفا ، يفكر فى اثراء ورعاية اقربائه من بنى أمية

---

(١) شكا أبو لؤلؤة غلام المغيرة من شعبة ارتفاع الخراج الذى ضربه عليه مولاه ، وطلب إليه تخفيفه . ويقال أن عمراً سأله : كم خراجك ؟ فقال : درهمان فى كل يوم . قال : وأيش صناعتك ؟ قال : نجار نقاش حداد . قال : فما أرى خراجك بكثير ، فتوعده الغلام وأصمر على قتله .

أكثر مما يفكر فى الاهتمام برعاياه . وتحت تأثير أبى سفيان الذى كانت تتقدم به السن وتشيع المرارة فى نفسه ، عين عثمان أقاربه من بنى أمية فى جميع المناصب الرئيسية بالحكومة والجيش .

مثل هذه المحاباة للأقارب إلى جانب سوء الحكم كان حتما أن يولدا المتاعب والاستياء . فانفجرت من جديد الغيرة القديمة بين الحضر والبدو . وزاد سخط البدو على تسلط قريش عندما سرى الفساد إلى جميع فروع الحكم. وكما سبق أن تنبأ عمر ، فإن وفرة الغنائم من الفتوح التى قامت بها الجيوش الإسلامية ، بدأت تقوض الأسس التى قامت عليها حياة التقشف والنظام . راحت الأيام التى كان فيها عمر يتجول فى الشوارع وفى يده سوطه ويعاقب بنفسه السكارى أو غيرهم ممن ينتهكون حرمة القرآن . كانت الخمر والنساء والشعر طابع عهد عثمان . أصبح البذخ فضيلة ، وكان الذين يعيشون على آلاء الخليفة يمتدحون كرمه وسخاءه .

ولكن بالنسبة إلى عدد متزايد من الناس ، كان اطراد الفساد فى الحكم ينذر بالتدهور والخطر . وسرعان ما انتشر السخط فى الأقاليم التى فتحت حديثاً . ففى البصرة والكوفة والعراق كان الولاة يعينون ويسرحون باستمرار لا يبقى أحد منهم أكثر من بضعة شهور . وكل منهم أسوأ ممن تقدمه . وعلاوة على هذا ، نزح الكثيرون من أشراف قريش إلى الشمال الخصيب ليمتلكوا الاقطاعيات التى منحها لهم ابن عمهم الخليفة وبذا أثاروا غضب المستوطنين الشديد الذين سبق أن ظفروا بالأرض عن طريق القتال من أجله . وحتى يظهروا قلة احترامهم للشعور المحلى أطلق أعيان قريش عبارة « جنة قريش » على الكوفة .

لم تمض عشر سنوات على تولى عثمان الخلافة حتى كان نقد اسرافه فى الانفاق وحياة البذخ التى يعيشها ، على كل لسان باستثناء أقاربه بطبيعة الحال. وحتى قراراته المعقولة القايلة كانت تعتبر زندقة . وعندما أراد أن تكون النسخة المعتمدة من القرآن هى النسخة المحفوظة عند حفصة بنت عمر وإحدى أزواج محمد ، وأن تحرق جميع النسخ الأخرى ، اتهم بأنه يحاول تدمير القواعد والنصوص التى لا ترزق له . وإذ واجه عثمان هذا السخط المتزايد قام بعمل أبعد ما يكون عن الحكمة بأن وقف على المنبر فى المسجد يقول شاكيا(١) :

« ألا فقد والله عبتم على بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم ، ولنت لكم وأوطأت لكم كتفى ، وكففت يدى ولسانى عنكم ، فاجترأتم على »

ولكن هذا الكلام لم يكن له من أثر سوى أن حول الكراهية الشعبية إلى ازدراء شعبى .

وإذ تملك عثمان اليأس الآن طلب المشورة من على الذى كان يعيش بعيدا عن الأضواء منذ اختيرأبو بكر ليشغل المنصب الذى كان يرى — أى على — أنه عرشه الشرعى . ولكن لم يكن لدى على سوى تأنيب عثمان ولم يكن فى وسعه إلا أن يقترح أن يعمل عثمان على ترتيب بيته وبذلك يستل سلاح ناقديه . عندئذ دعا الخليفة المسكين إلى مؤتمر من عماله فى الأقاليم ، ولكن اقتراحهم الوحيد كان أن يلجأ إلى الشام ليحتمى بها . وأجاب عثمان بشجاعة أنه لن يهرب مهما حدث ، وكان قد تجاوز الثمانين من العمر ولم يدع لنفسه من بديل سوى أن يتقبل مصيره فى الثورة التى جعلها امرأ محتوما .

---

(١) أوردنا النص كاملا كما جاء فى الطبرى (ج ٤ ، ص ٣٣٨) . — المترجم .

بعد ذلك بأشهر قلائـــــل بدات تسمع فى الـكوفة الهمسات الأولى عن التمرد .

وبتشجيع من على دبر الـكوفيون ثورة لـكنها أخمدت . ولـكن روح الثورة إنتقلت بسرعة إلى مصر حيث كان المتمردون بزعامة محمد بن أبى بكر أوفر نجاحا وعزلوا عبدالله بن أبى سرح . ثم فى عام ٦٥٦ وبعد أن اعترض محمد خطابا من عثمان إلى واليه السابق عبدالله يطلب إليه فيه ان يقضى على المغتصبين ، زحف على المدينة مع أخيه الزبير وخمسمائة من الأتباع .

هنا لقيه علىّ ، ولما طالب محمد من الخليفة أن يعتزل ، وبخـه على خيانته ولـكن وافق فوراً على ترتيب لقاء مع عثمان . عندئذ أعاد محمد وفى وجه الخليفة مطلبه بأن يعتزل ليحل محله علىّ ، ولـكن المطالب رفض بشدة . انصرف علىّ من الاجتماع ، وبرغم أنه بعث بولديه الحسن والحسين لحراسة دار الخليفة ، لم يبذل أية محاولة أخرى لمنع أيدى الثوار من أن تمتد اليه .

يبدو أنه فى ذلك الوقت لم تـكن هناك حامية فى المدينة ، وكان معظم الأمويين قد فروا من الحجاز عند اقتراب القوة الصغيرة بقيادة محمد ، وهكذا ، وبوقوف أغلبية الدهماء إلى جانبهم ، تمـكن الثوار من أن يحاصروا الخليفة فى داره بل وأن يمنعوا المـاء عمن فى داخله ، ويوجهوا الإهانات علناً للخليفة التعس عندما يخرج لأداء الصلاة .

كان أملهم هو إذلاله بحيث يتنازل عن الخلافة وبذلك يتجنبون إراقة الدماء ، ولـكن عندما سمعوا أن قوات من الشام قد استدعيت لمساعدة عثمان ، قرروا أن يسددوا ضربتهم على الفور . فتسلق محمد واثنان من شركائه حائط الدار وطعنوا الخليفة حتى مات ، وذلك أمام زوجه التى حاولت فى شجاعة أن تدفع ضربات القتلة عن زوجها وأصيبت بضربة سيف قطعت ثلاثة

من أصابعها . وبعد ذلك بثلاثة أيام دفنت جثـة عثمان دون غسلها وهى فى الملابس المخضبة بالدم التى قتل وهو يرتديها ، وتم الدفن دون تشييع[1] .

هكذا مات أول خليفة يقتل على أيدى مسلم آخر . وارتعشت بلاد العرب كلها توقعاً للثأر الذى سوف يطلقه موته من عقاله .

(١) خرج جماعة ومعهم عائشة بنت عثمان ، معها مصباح فى حق ، حتى إذا أتوا به حش كوكب وهى موضع بالمدينة ، حفروا له حفرة ، ثم قاموا يصلون عليه ، ثم دلوه فى حفرته ، فدفنوه ولم يلحدوه بلبن ، وحثوا عليه التراب حثوا . (من كتاب « الامامة والسياسة » ، طبعة مؤسسة الحلبي بالقاهرة ، ج ١ ، ص ٣٦) . — المترجم .

(٥) الحرب الأهلية

بينما الثورة ضـــد عثمان تفور فى العراق ومصر ، كانت دعائم الإمبراطوريتين اليونانية والفارسية تهتز تحت وطأة زحف الجيوش العربية الذى لا يلين . فى كل جبهة كانت المبادرة فى يد الإسلام ، وبدا العدو المنهار معنوياً عاجزاً عن الصمود أمام القوات الأموية التى زاد من حماسها إيمانها بأن النصر سوف يأتى بالغنائم لمن يبقى على قيد الحياة ، وبالجنة لمن استشهد فى سبيل العقيدة . ففى الغرب وصل العرب إلى تونس وهزموا جيشاً كبيراً من الروم أمام قرطاجة عاصمة الشمال الافريقى البيزنطى . وفى الشمال استولوا على قبرص ، وغزوا آسيا الصغرى ، وحطموا الأسطول البيزنطى على مقربة من ساحل الأناضول . وزحفاً على أرمينية توغلوا حتى بلغوا البحر الأسود ، ثم انحرفوا غرباً بحيث أصبحوا على بعد أميال قليلة من القسطنطينية . وفى الشرق وبعد أن أزاحوا الجيوش الفارسية من الطريق، اندفعوا عبر خراسان ليبسطوا سلطانهم على أفغانستان وتركستان . ولما قتل العاهل يزدجرد على أيدى قومه فى عام ٦٥١ انتهت الإمبراطورية الفارسية التى ظلت مزدهرة طيلة ألف ومائتى عام .

ولـكن بمقتل عثمان فى المدينة توقفت قوة التوسع الإسلامى ، فالضغينة التقليدية بين الأمويين والهاشميين أصبحت ثأراً دموياً ، وتحول العرب من مقاتلة أعدائهم إلى محاربة بعضهم بعضاً . عن طريق عائشة كان محمد والزبير إبنا أبى بكر صهرين للنبى . وعلى ذلك كان قريب هاشمى هو الذى أهدر دماً أموياً ، وأصبح علىّ زوج بنت النبى المستفيد الرئيسى بلا منازع من موت عثمان عند ما بايعه شيوخ المدينة بالخلافة بعد ذلك بستة أيام سواء كان متواطئاً

أو غير متواطىء مع الثوار . كان الدم يطلب الدم ، وطالب بنو أميـة بالثأر من على ووجدوا نصيرهم فى معاوية بن أبى سفيان الذى استطاع عن طريق ولايته على الشام وقيادته للقوات فيها خلال السنوات الخمس عشر الأخيرة ، أن يكسب قلوب أهل الشام بفعل إدارته الحكيمة والمستنيرة . كان أول عمل من أعمال التحدى للخليفة الجديد أن علق معاوية قميص عثمان المخضب بالدماء وأصابع أرملته الثلاث المقطوعة ، فى المسجد بدمشق ليثير روحا من الانتقام . وعندما كتب إليه على يطالبه بالدخول فى الطاعة ، رد بصحيفة بيضاء[١] ؛ ولاحظ الرسول الذى سلم الرد إلى الخليفة : « وتركت ستين ألف شيخ يبكى تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم ، قد ألبسوه منبر دمشق[٢] » .

كان على الذى فتر نشاطه وزاد بدانة فاقت المعتاد ، نتيجة طول غيابه عن ساحة القتال ، مترددا بشأن كيفية معالجة هذا التحدى . فعندما سأله الزبير عن خطوته التالية أشار بالصبر انتظاراً لما يقضى به الله . ولكن فى موقف متوتر كهذا كان مثل هذا التردد قاتلا : فقـد زاد جموح قبائل البادية إذ تراءت لهم من جديد فرصة للخلاص من نير حكم قريش ، وكذلك سرت روح التمرد فى نفوس العدد الكبير من عبدان المدينة من أسارى الحرب . ولم يبق موالياً فى هدوء لنظام الحكم الجديد سوى العراق الذى نشأت فيه الثورة ضد عثمان . ولكن رد الفعل الوحيد من جانب على كان تغيير العمال فى البصرة واليمن ومصر . بل وأصيبت أسرة الخليفة نفسه بروح متزايدة من

---

(١) رد عليه بكتاب عنوانه : من معاوية إلى على ؟ وداخله : بسم الله الرحمن الرحيم ، ولاغير . (المترجم) .

(٢) فيما يلى النص الوارد فى « تاريخ الطبرى » (ج ٤ ؟ ص ٤٤٤) : قال : ورائى أنى تركت قوما لا يرضون إلا بالقود ، قال : ممن ؟ قال : من خيط نفسك ، وتركت ستين ألف شيخ يبكى تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم ، قد ألبسوه منبر دمشق . فقال : منى يطلبون دم عثمان ! ألست موتورا كترة عثمان ! اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان » ـ (المترجم) .

التمرد . فقد كانت عائشة زوج محمد المحبوبة ، تكنّ منذ وقت طويل نقمة على عليّ لأنه صدق شائعات عن طهارتها أطلقها أعداء النبي عندما توجه إلى المدينة لأول مرة . والآن تظاهرت بغضب شديد مفاجىء بسبب مقتل عثمان ، وأقنعت الزبير الذى أصيب بخيبة أمل إذ لم يخلف عثمان ، بأن ينضم إليها فى ثورة سافرة ضد على . وحتى يضربوا المصدر الرئيسى لقوة على ، زحفت عائشة والزبير على العراق بجيش من أهـــل مكة واستولوا على البصرة فى أكتوبر من عام ٦٥٦ وأسروا عاملها الجديد المعين من قبل على .

وأخيراً تحرك على وأسرع إلى الكوفة يجمع أعوانه . وانحاز إليه بنو بكر ، وكسب ود الكوفيين بأن وعدهم باتخاذ مدينتهم عاصمة للخلافة بدلا من المدينة ، فأمدوه بعشرة آلاف لسحق الثورة . ولكن بسبب التقدم فى السن والبدانة من جهة ، وخشية إثارة دورة أخرى من حروب الثأر ، عزف علىّ عن مواجهة عائشة قبل أن يحاول أولاً أن يكسبها إلى جانبه عن طريق المفاوضة . وبرغم أن الزبير كان مستعـداً للتفاهم تغلبت عائشة على شريكها فى الثورة وخرجت إلى القتال راكبة فى هودج جمل . انتصر على وسميت المعركة بعد ذلك وقعة الجمل . وقتل الزبير وهو يحاول الهرب،وأعيدت عائشة إلى المـــــدينة حيث توفيت بعد أربعة عشر عاماً وقد أدركت السادسة والستين .

بويع على بالخلافة فى العراق بلا منازع ، أما فى الشام فكان لا يزال عليه أن يعمل حساباً لمعاوية الذى راح تحت راية قميص عثمان المخضب بالدماء يجمع جيشاً متزايداً من أنصاره الأمويين . وأمام جميع المحاولات التى بذلها على ليكسب طاعته كان رد زعيم بنى أمية الجديد على لسان رسل يتقدمهم حبيب بن مسلمة الفهرى : « .. فان عثمان بن عفان رضى الله عنه كان خليفة

مهدياً ، يعمل بكتاب الله عز وجل ، وينيب إلى أمر الله تعالى ، فاستثقلتم حياته ، واستبطأتم وفاته ، فعدوتم عليه فقتلتموه ؛ فادفع إلينا قتلة عثمان — إن زعمت أنك لم تقتله — نقتلهم به ، ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم ، يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم[(١)] » . وأخيراً قرر علىّ الزحف على الشام ؛ وفى أبريل ٦٥٧ تقابل على رأس جيش من خمسين ألفاً مع أهل الشام من رجال معاوية ، فى صفين على نهر الفرات . كان أهل العراق على وشك الانتصار عندما لجأ عمرو فاتح مصر والذى يلى الآن معاوية فى القيادة ، إلى خدعة رفع المصاحف على أسنة رماح قواته . أوقف رجال علىّ القتال على الفور وفسروا الحركة كما كان يراد منهم أن يفسروها ، على أنها دعوة إلى تحكيم القرآن . واضطر على إلى الموافقة على أن تحل المشكلة وفقاً لما يقضى به كتاب الله .

أما كيف سمح علىّ لنفسه بأن يخدعه معاوية عندما بدأ الحكمان اللذان وقع عليهما الاختيار ، يؤديان مهمتهما بعد ذلك بستة أشهر ، نقول إن هذا ما لم يفسره أحد تماماً أبداً . ولكن يبدو أن الحكَم الممثل لعلىّ وكان شخصاً سليم الطوية متقدماً فى السن وغير متمرس بالدبلوماسية ، وافق مع عمرو الداهية ، على أن يخلع كل منهما صاحبه من الخلافة ، وهى حيلة من الواضح أن الخاسر فيها علىّ ، ذلك أن معاوية لم يكن يشغل خلافة حتى يتنازل عنها . سادت الآن حالة من الهدنة المسلحة بين الغريمين ، وفيها كان معاوية مسيطراً على الشام وكان لعلىّ الطاعة فى العراق وفارس . ولكن قضية علىّ كان قد أصابها ضرر جسيم ، فبرغم أنه ظل حتى يوم وفاته يلعن معاوية فى صلاة

---

(١) آ النص الوارد فى تاريخ الطبرى (ح ٥ ، ص ٧) — المترجم .

الجماعة فى الكوفة ، فإن خلافته ضعفت بصورة قاتلة بسبب تراخيه وتهاونه وهو ما سارع معاوية إلى استغلاله كى يرفع من مكانته .

وإذ بويع معاوية فى الشام بسبب تحديه المصمم للقتلة من بنى هاشم ، راح يعمل الآن على إخراج ولايات أخرى من الطاعة . وبدءاً بمصر التى خشى هو وعمرو أن يستخدمها على لمهاجمة دمشق ، دق إسفيناً بين الخليفة وعامله قيس . كان رد الفعل من جانب على أن عزل قيساً وولى مكانه محمد بن أبى بكر زعيم الثورة المصرية التى وضعته على العرش . ولكن اضطهاد محمد لذلك النفر من المصريين الذين كانوا يشكون فى أحقية على بالخلافة ، سبب الكثير من المشاعر السيئة . وإذ زاد الشعور المعادى للهاشميين بعث بعمرو مرة أخرى إلى مصر على رأس قوة أموية ونصب نفسه والياً لحساب معاوية ، مما سبب راحة شديدة لأغلبية كبيرة من الأهلين . أما وقد ضمن معاوية مصر ، إنقض على بلاد العرب وتقاضى جزية من القبائل ، بينما مرة أخرى وقفت جيوش الخليفةموقفاً سلبياً . بعد ذلك زحف على عرين الأسد نفسه وغزا العراق . ولكن الأسد كان نائماً واستطاع معاوية فى مناعة ، أن يدفع بأهل البصرة إلى الثورة عند عتبة باب على نفسها ، كذلك بعث بسرية من ثلاثة آلاف رجل إلى مكة والمدينة حيث صعد زعيمهم فوق المنبر وتوعد بالموت كل من لا يدخل فى طاعة معاوية . وواصلت السرية نفسها الزحف إلى اليمن حيث ذبحوا الكثيرين من قرابة على وأصدقائه وعادوا إلى الشام لم يتعرض لهم أحد .

وبحلول عام ٦٦٠ كانت الغزوات الأموية قد قصرت ممتلكات على على فارس وركن صغير من العراق مركزه الكوفة ، وكان معاوية قد نادى بنفسه خليفة فى بيت المقدس . أخذ أنصار على ينفضون من حوله بسرعة ،

وانحاز بعضهم إلى معاوية بينما هرب آخرون وعمدوا إلى الإختفاء . عند هذه النقطة تكونت فى العراق فرقة جديدة من المنشقين تعرف باسم الخوارج . أبى الخوارج أن يعترفوا بخلافة على أو معاوية ، وأعلنوا أن الله وحده هو الذى يمكن أن يختار الحاكم الروحى للاسلام ، وأقسموا أن يقتلوا فى وقت واحد: الخليفة فى الكوفة ومعاوية فى دمشق وعمراً فى مصر . تحرك على ليقضى على هذا التهديد فى مهده بأن هاجم معسكر الخوارج فى النهروان . ولكن برغم أن الخوارج منوا بهزيمة ساحقة إلا أنهم رفضوا الاستسلام . وفى يناير من عام ٦٦١ وثب أحـــدهم على الخليفة وقتله بسيف مسموم على مقربة من المسجد بالكوفة. وحاول آخر قتل معاوية فى دمشق؛ وفى مصر أخطأ القاتل الثالث صاحبه فقتل شخصاً آخر[١] . عاش معاوية بعد الاعتداء الذى وقع عليه ، أما على فمات فى اليوم التالى . وتقول الأسطورة إن قاتله كان قد أقسم أن يعطى خطيبته الخارجية التى قتل أبوها يوم النهر ، رأس الخليفة كجزء من مهرها[٢] .

مسكين على ؛ لا يسع المرء إلا أن يشعر بالأسف لانحلال أمره وسقوطه غير العاديين . كان فى شبابه فى مقدمة المعارك دائماً ، يشق طريقه فى وجه أعداد ساحقة ليسجل نصراً بعد آخر تحت لواء النبى . وكان أحب الصحابة

---

(١) كان عمرو يشتكى بطنه فلم يخرج تلك الليلة وأمر خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته ، فخرج ليصلى فشد عليه القاتل المتربص به وهو يرى أنه عمرو فضربه فقتله (المترجم).

(٢) رأى ابن ملجم المرادى أصحابا من تيم الرباب فذكروا قتلاهم يوم النهر ، ولقى من يومه ذلك امرأة من تيم الرباب يقال لها : قطام ابنة الشجنة — وقد قتل (على) أباها وأخاها يوم النهر ، وكانت فائقة الجمال — فخطبها فقالت : لا أتزوجك حتى تشفى لى قال : وما يشفيك ؟ قالت : ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على بن أبى طالب ، قال هو مهر لك . . . فوالله ماجاء بى الى هذا المصر الا قتل على ، فلك ماسألت . (المترجم ، ملخصة من رواية الطبرى ، . ج ٥ ، ص ١٤٤) .

إلى نفس النبى بسبب بسالته ضد الكفار من بنى أمية ، ولزواجه من فاطمة ابنته المحببة ، ولأنه كان أحد أول ثلاثة اعتنقوا الإسلام . ولكنهم تخطوه عندما توفى النبى . وكان من أثر سنوات الخمول المشوب بالمرارة خلال خلافة كل من أبى بكر وعمر وعثمان أن ضعف نشاطه وتآكلت همته وهو يمضى الوقت مع آل بيته أو فى عد نصيبه من الغنائم التى تتدفق على المدينة من الشام والعراق وفارس ومصر . وعلى ذلك عندما دقت الفرصة بابه المرة الثانية لم يكن فى الحقيقة مستعداً لها ، ومن المحقق أنه لم يكن نداً من الناحيتين الجسمية والذهنية ، لما جاءت به من تحدى الحرب الأهلية المباشر والساحق . وبرغم أنه ظل حتى النهاية قادراً على التآمر بالأفضل والأسوأ ، وعلى أن يكون قادراً أيضاً على الإنتقام عندما يتطلب القليل من الجهد ، إلا أنه كان فى أساسه معتدلا ومتسامحاً وكسولا ورفيق القلب وخاصة بالنسبة إلى أطفاله ، ولم يكن عنده ما يفضل اللهو ساعات مع ابنته الصغيرة . كانت حالات فشله راجعة إلى تفضيله الحلول الوسط وإلى التراخى والتهاون ، مما أتاح لمعاوية فرصة لم يغفل إبداً استغلالها خـــلال السنوات الخمس المفجعة التى دامت فيها خلافة على .

ولكن التاريخ والتقاليد الإسلامى كانا رفيقين بعلى حيث لم تكن الظروف كذلك . إذ يعتبر اليوم هو وابنه الحسين من القديسين فى نظر تلك الفرق المعروفة فى العراق وفارس باسم « الشيعة » أى أنصار على أو المتشيعين له ، بينما يشغل معاوية مركزه فحسب بين أشهر الخلفاء وأمراء المؤمنين عند أهل السنة أو الخلافة الصحيحة . لكن الذى لاشك فيه فى نظر الدارس غير المتحيز للتاريخ العربى ، أنه لو كانت الأقدار قد عكست قرارها وجعلت علياً يعيش بعد طعنة سيف القاتل الخارجى بينما قضت بموت معاوية ، لما حققت الامبراطورية

العربية أبداً ما وصلت إليه من توسع فى ظل القيادة الحاسمة لمعاوية وغيره من خلفاء بنى أمية فى دمشق .

فى الوقت الذى شاء فيه القدر زوال على على يد قاتله الخارجى كان معاوية الحاكم بغير منازع على الشام ومصر وبلاد العرب ويطبق الخناق على العراق . لم يتخلف عن طاعته سوى الكوفة والامبراطورية الشرقية ، ولكن هذا الموقف لم يستمر طويلا . فمن باب الاحترام لذكرى على بايع أهل الكوفة الحسن بالخلافة عند وفاة أبيه . وإذ كان الحسن يؤثر العافية ويحب السلم ، ويفضل أمن العاصمة الفارسية القديمة وترفها على أخطار ساحة الحرب وشدائدها وقد ظفر بكنية المطلاق الكبير من زيجاته الكثيرة التى يقول البعض إنها بلغت المائة ، لم يقم إلا بحركة واحدة لإنقاذ عرشه فوجه جيشا من الكوفة ضد معاوية ، ولكن لما بلغت المدائن الشائعات عن انهزام جيوشه تنازل على الفور لمعاوية الذى بعث إليه بصحيفة بيضاء وكتب إليه أن اشترط فى هذه الصحيفة التى ختمت أسفلها ماشئت فهو لك . لم يخجل الحسن من أن يطلب ويشترط فى رده أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف درهم (٧٠٠ر٠٠٠ دولار) وعندئذ ، وقد وضع فى جيبه مكاسب لا يستحقها ، انصرف إلى المدينة حيث توفى بعد سنوات ثمان مسموما على يد إحدى زوجاته(١) .

نقلت عاصمة الخلافة الآن رسميا إلى دمشق حيث بقيت فيها طيلة السنوات التسع والثمانين التالية . وأدخل معاوية أيضا اصلاحات إدارية معينة أراد بها إدارة شئون الحكومة الامبراطورية . حتى ذلك الحين كانت الامبراطورية

---

(١) اختلف المؤرخون فى سبب موت الحسن ، فزعم قوم أن زبج ظهر للدمة فى الطواف بزج مسموم؛ وقال آخرون: إن معاوية دس الى جعدة بنت الأشعث بن قيس بأن تسمم الحسن ويزوجها يزيد ، فسمته وقتلته . (حسن إبراهيم حسن : زعماء الاسلام ، القاهرة ١٩٦٦ م ، ص ١٩٦) . — المترجم .

تنقسم إلى وحـــدات إدارية أو محافظات تطابق بوجه عام تقسيمات الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية . كانت هناك ولايات مستقلة للشام ، وفلسطين ، والعراق ، وغرب ووسط فارس ، والبحرين ، وعمـان ، وشرق فارس ، والحجاز ، وأرمينيا ، ومصر ، وشمال أفريقيا ، وأخيراً اليمن وجنوب بلاد العرب . فأدمج بعض هذه التقسيمات المربكة لتكوين ولايات خمس . فوضعت إدارة العراق والشام كلها وشرق بلاد العرب فى يد والٍ واحد عاصمته الكوفة ؛ وبالمثل تم إدماج الحجاز واليمن وجنوب بلاد العرب ؛ ووسع نطاق ولاية أرمينية لتشمل منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات ؛ وأدمجت مصر وشمال أفريقية ، وكذلك غرب وشرق فارس .

كذلك كان معاوية أول خليفة يفوض السلطة . لم تعد وظائف الحكم الثلاث — الإدارة السياسية وجباية الضرائب والإمامة — مركزة فى أيدى الخليفة ولكنه عهد بكل منها إلى وزير مختلف . وكان الولاة أحراراً فى أن يعينوا نواباً عنهم فى داخل ولاياتهم دون الرجوع إلى دمشق . وبدلا من أن يتولى القضاء بشخصه كما فعل الخلفاء الأوائل ، عين معاوية قضاة مستقلين فى جميع أرجاء الامبراطورية . وأنشأ أيضاً جهازاً إدارياً ، وبريداً ، وديواناً للمكاتبات ليتمشى مع ازدياد حجم المراسلات ولضمان حفظ الوثائق الرسمية . بهذه الإصلاحات وغيرها التى أريد بها مراعاة توسع الخلافة السريع ، أصبح معاوية أول حاكم للامبراطورية العربية يخرج على النظام القبلى القديم للحكم ويرسى أسس إدارة سياسية حديثة .

وفى الوقت ذاته راح يعمل على إخضاع آخر معقل لقوة العلويين فى الشرق . فاستدعى إلى دمشق زياداً بن أبيه عامل على فى فارس ، وهناك أغدقت عليه ضروب المداهنة الشديدة مقابل خروجه على مولاه ، بما فى ذلك

عرض ولاية الإمبراطوريه الشرقية بأسرها عليه . ووقع زياد وهو ابن غير شرعى لأبى سفيان من بغى في الطائف ، تحت إغراء هذه المعاملة وخاصة عندما استلحق معاوية نسب زياد بأبيه . واذ عاد زياد إلى ممتلكاته التى اتسعت رقعتها أنشأ أول قوة للشرطة فى الإمبراطورية العربية واستخدمها فى مطاردة الشيعة أنصار الحسين وهو الابن الأصغر لعلى وكان لايزال على قيد البقاء . وبرغم أن العراق وفارس سوف يعرفان فى المستقبل غير البعيد صنوفاً من القمع أشد سوءاً ، إلا أن حكم زياد الذى لايرحم كان فيه ما يربو على ثمن ماقدم إليه معاوية من إحسان وأفضال ، إذ ألزم الأقاليم الشرقية بالدخول فى الحظيرة الأموية .

أما وقد ضمن معاوية قاعدته الداخلية على هذا النحو سير الجيوش العربية مرة أخرى فى جميع الاتجاهات . فعلى الجبهة الرومية استغل العرب سيطرتهم على البحار منذ الاستيلاء على القواعد البحرية البيزنطية فى الأسكندرية وقبرص وتدمير الأسطول البيزنطى ، وأغاروا على صقلية ورودس وضربوا شمالا فى البحر عبر الدردنيل ليهاجموا القسطنطينية ذاتها برغم ماوضح بعدئذ من أن هذا لم يؤثر على الاطلاق فى هذا الحصن المنيع . وفى الشرق عبروا نهر جيحون إلى أزبكستان وأغاروا على بخارى وأدخلوا مدن بلخ وهراة القديمة بأفغانستان فى حظيرة الاسلام وثبتوا الحكم الاسلامى على شاطئى نهر السند . وفى أفريقية صدرت التعليمات إلى عقبة بن نافع وهو ابن أخ لعمرو بأن يدعم حدود الإمبراطوريه حتى أبعد مكان فى الغرب حتى ذلك الوقت وبسبب الإفتقار إلى قاعدة أقرب من الفسطاط بمصر — وهو مايعنى خط مواصلات طوله ١٥٠٠ ميل ويتعرض باستمرار المضايقة من جانب العدو ، فإن الجيوش العربية التى زحفت أية مسافة على ساحل أفريقية الشمالى كانت تجبر على الانسحاب . وعلى

ذلك أنشأ عقبة فى عام ٦٧٠ العاصمة العسكرية الحصينة وهى القيروان فى تونس وتقع فى منتصف الطريق بين مصر والطرف الغربى الأقصى للامبراطورية البيزنطية بشمال أفريقية فى مراكش . ومن القيروان أنشئت سلسلة من التحصينات تمتد شرقاً وغرباً لتحول دون هجمات الجيوش البيزنطية من قرطاجة وغارات قبائل البربر الجبلية فى الظهير الجبلى الذى لم يفتحه العرب . وإذ استبعد عقبة خطر تونس بهذه الطريقة واصل الزحف فى عام ٦٨٣ إلى مراكش حيث استولى على طنجة واحتل ساحل الأطلسى حتى أغادير جنوباً . ولكن على غرار العرب السابقين الذين فتحوا طرابلس وتونس ، وجد نفسه الآن على بعد نحو ١٥٠٠ ميل من قاعدته . وبرغم أنه لقى مقاومة قليلة فى أثناء زحفه ، فإن خط مواصلاته الطويل الذى تعوزه الحماية جعل من الخير له أن ينسحب إلى القيروان . وإذ كان يتوقع أن يلقى فى عودته مقاومة يسيرة كالتى لقيها خلال رحلته الخارجية ، قسم قوته إلى عدة ألوية صغيرة بقصد إخضاع وتهدئة أكبر ما يمكن من المناطق الواقعة إلى الغرب من تونس . ولكنه هنا ارتكب خطأ مميتاً ، فعند بسكرة فى شرقى الجزائر وقع هو ولواءه فى كمين نصبته قوة كبيرة من البربر ، وقتلوا عن آخرهم . وخلال السنوات الخمس والعشرين التالية لم يعرف شمال أفريقية من طنجة حتى طرابلس سوى حكم قبائل البربر الوحشى ، باستثناء جيوب منعزلة قليلة يغلب عليها النفوذ البيزنطى من قرطاجة .

وبينما المعركة من أجل التوسع ثائرة على جميع هذه الجبهات كان معاوية فى دمشق يرسم خططاً دقيقة يضمن بها استقرار الإمبراطورية بعد وفاته . وإذ كان مصمماً ألا تتكرر الحرب الأهلية التى أعقبت مقتل عثمان وبالكاد حالت دون تمزق الإمبراطورية الوليدة ، عزم على الخروج نهائياً على مبدأ

الانتخاب وأن يجعل الخلافة تتعاقب فى أسرته ، بأن يستخلف ابنه يزيداً . قبل أهل الشام الاقتراح على نحو ما كانوا يفعلون بالنسبة إلى كل ما كان يعرضه عليهم معاوية ، ولم يعترض العراق الذى يسيطر عليه زياد . ولكن لما عرضت القضية على المدينة ومكة نجد أن الحسين الإبن الأصغر لعلى ، وليبين أن العداء بين الأمويين والهاشميين لم ينته بموت أبيه وتنازل أخيه ، اعترض بشدة على ما وصفه بأنه محاكاة غير ديموقراطية للأسلوب اليونانى والرومانى. بالطبع كان فى إمكان الحسين بوصفه حفيد النبى أن يعتمد على تأييد شعبى كبير فى الحجاز . وعلى ذلك قرر معاوية أن يتجاهل بدلا من أن يقمع هذا المعترض الذى هو موضع التقدير ، ومن ثم أعلن البيعة ليزيد .

هنا ربما ارتكب معاوية واحداً من أخطائه التكتيكية النادرة . كان هدفه أن يتفادى حرباً أهلية أخرى بعد وفاته ، ولكن القوم فى مكة والمدينة فسروا فشله فى حمل الحسين على الموافقة بأنه ضعف . ولكن معاوية كان فى ذلك الوقت قد تجاوز السبعين من العمر وفضل عدم استخدام القوة إذ ظن أن الأساليب الأخرى سوف تحقق أغراضه . وفضلا عن هذا كان بطبيعته ميالا إلى الوفاق أكثر مما كان محارباً . وإذ كان بطيئاً فى الغضب وذا قدرة غير عادية على ضبط النفس ، كان — حسب قوله — لا يستخدم سيفه حيث يكفى سوطه ، ولا يستخدم سوطه حيث يكفى لسانه ، « ولو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها » .

هكذا كان خلق هذا السياسى العربى الرائع الذى أسس أسرة قدر لها أن تحكم الإمبراطورية فى أيام أعظم مجدها وأوسع حدودها الجغرافية . وكشخص ديموقراطى إقطاعى يتبع التقليد القبلى كان باب معاوية مفتوحاً

دائما أمام أدنى رعاياه مرتبة . فالفقراء ، وذوو الحاجة ، والنساء ، والأطفال ، أو بعض أهل البادية القدامى ممن لديهم مظلمة يريدون التعبير عنها — هؤلاء جميعاً كان فى إمكانهم أن يعرضوا عليه شخصيا متاعبهم وكل منهم يحظى باهتمامه غير المجزأ . فبينما دافع عن عثمان وانتقم لمقتله من قبيل الولاء لشخص تربطه به صلة الرحم ، كان معـــاوية على خلاف الشخص المنحل الذى يتحيز لأهله . كان يعين وزراءه وعماله حسب مزاياهم ، ولما كان يدرك عدم توافر العدد الكافى من العرب الذين يؤهلهم تعليمهم أو خبرتهم لإدارة إمبراطوريته الآخذة فى التوسع السريع ، استخدم النصارى واليهود والقبط والروم والأعاجم فى أرفع المراكز بالدولة . فمن بين آخرين كان صاحب بيت المال وشاعر القصر وطبيبه الخاص بل وزوجته،من النصارى . كذلك لم يكن معاوية من التقوى بحيث يبتعد عن الترف والدعة . والواقع أن المؤرخين المسلمين انتقدوه بسبب أنه كان يلقى خطبة الجمعة وهو جالس ، وأنه أقام فى القصر الخليفى عرشاً ملكيا مما جعل منه على حد إصرار نقاده ، أول ملك فى الإسلام بدلا من أن يكون خامس الخلفاء.ولعل معاوية ما كان لينكر الاتهام ذلك أنه كما يحـدثنا فيليب حتّى « لم يكن أول الملوك العرب وحسب ولـكن كان من خيرهم أيضاً » . وكان فى وسعه أن يدعى أنه ترك المملـكة أغنى وأكبر وأكثر أمناً مما وجدها .

أدرك معاوية وهو على فراش الموت فى عام ٦٨٠ أن تـكتيك تجاهل خصومه من بنى هاشم لم يثمر . وحـذر وريثه يزيد من أن الحسين سوف يحاول الاستيلاء على الملك ، ولـكنه نصحه برغم ذلك بالترفق به فقال « فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقا عظيما وقرابة من

محمد صلى الله عليه وسلم » . وحذر يزيداً أيضاً من عبدالله بن الزبير وهو عدو لدود لبني أمية ، كان أبوه الزبير ومحمد بن أبي بكر على رأس الثورة ضد عثمان . قال معاوية : « وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً[1] » . ولم يكد معاوية ينطق بتحذيراته حتى نادى ابن الزبير بنفسه خليفة في مكة ، وخرج الحسين من مكة متوجهاً إلى الكوفة في صحبة سبعين من الشيعة يحرسونه ، كي يشعل الثورة في العراق وينتزع الخلافة من يزيد . ولكن التصرف الذي أقدم عليه في الوقت المناسب ، عامل الكوفة عبيد الله بن زياد ، حال دون وصوله إلى مقصده ، وهنا عـــدل الحسين إلى كربلاء على مسافة نحو خمسين ميلا إلى الشمال ، ليفكر في خطوته التالية . وبعث إليه عبيد الله برسول يدعوه إلى الاستسلام . عمد الحسين إلى الأناة أملا في كسب وقت يجمع خلاله القبائل تحت لوائه . ولكن عبيد الله وكان على بينة من نواياه ، أمر بتطويق معسكره . لقد بالغت الأسطورة الشيعية في قصة المعركة التي نشبت بعد ذلك بحيث يستحيل فصل الحقيقة عن الخرافة . ولكن يبدو من الواضح بدرجـــة طيبة أن قوة الحسين الضئيلة ظلت ساعات عديدة تتحدى القوات الكافية التي كانت تفوقها عدداً بنسبة خمسين إلى واحد . وعندما استنفد الحسين الحيل وكل وسيلة أخرى للدفاع وخر جميع أتباعه صرعى ، واجه أعداءه بمفرده . وإذ اندفع يهاجم أهل الكوفة الذين

---

(١) النص كما أورده الطبري في تاريخه ، ج ٥ ، ص ٣٢٢ — ٣٢٣ . وفيما يلي النص كما ورد في كتاب « العقد الفريد » (ج ٣ ، ص ١٣١ — ١٣٢) : لست أخاف عليك إلا ثلاثة : الحسين بن علي ، وعبدالله بن الزبير ، وعبدالله بن عمر . فأما الحسين بن علي فأرجو أن يكفيكه الله فإنه قتل أباه وخذل أخاه . وأما ابن الزبير فإنه خب ضب ، فإن ظفرت به فقطعه إربا إربا — المترجم .

اعترتهم الدهشة، شق طريقه عبر صفوفهم في شجاعة اليأس إلى أن سقط وقد أصيب بضربة سيف فى العنق . وفصلت رأسه عن جسده ، وبنــــاء على أمر من عبيد الله وطأوا جثته بالأقدام ومثلوا بها لمنع التعرف عليها بأنها جثة حفيد النبي ، وتركت طعاماً للجوارح . ويقال إن الرأس تم الاحتفاظ بها وفى النهاية دفنت فى قبر بكربلاء أصبح فيما بعد ضريح الحسين . وتعتبر كربلاء حتى اليوم المدينة المقدسة بالعراق ، وهى مع النجف حيث دفن علىّ ، مكان يحج إليه الشيعة وهو عندهم أكثر قداسة من الكعبة فى مكة أو قبر الرسول فى المدينة. إن موت الحسين البطولى مضافاً إليه الشعور الواسع الانتشار الذى أحاط بذكرى علىّ ، كان هو كل مايحتاج إليه البيت العلوى لتثبيت حقه فى ضروب المحبة والولاء فى العراق وهو حق ظل قائماً طيلة ثلاثة عشر قرناً .

(٦)

الإرهاب والفتح فى الشرق

قضى يزيد على الحسين ولـكن جعل منه شهيداً وهو ما كان أبوه يخشاه. كان عليه الآن أن يتحمل العواقب المتفجرة لإنتـ اره بالعراق ؛ وكان عليه فضلا عن هذا أن يعالج أمر عبدالله بن الزبير فى مكة . ولم يفعل أى من الأمرين بطريقة فعالة جداً ، ذلك أن يزيداً لم يـكن من طراز معاوية . فبرغم أنه كان كوالده يؤثر التفاوض على القتال إلا أن إيثاره كان يوحى به ميل إلى إغفال شئون الدولة .فإذ كان إبناً لأم مسيحية كانت شاعرة موهوبة،فقد كان يزيد شاباً رقيق الحاشية يملك طاقة هائلة على أن يمتع نفسه ، ومدمنا فى قوة على السخرية وقرض الشعر .

فى هذه الأثناء كانت روح الإنتقام التى أثارها استشهاد الحسين تفور بصورة خطرة تقرب من نقطة الغليان . وفى الحجاز إرتفعت مـكانة عبدالله بصبه اللعنات على الأمويين . والآن ، وخوفاً من استخدام المزيد من القوة ، تجاهل يزيد مشورة أبيه وحاول معالجة أمر عبدالله باللين . فبدلا من أن يبعث بالقوات لتمزق عدوه « إرباً إرباً » دعاه إلى بلاطه فى دمشق . وحتى عندما رد عبدالله بزج رسول يزيد فى السجن ، ظل الأخـير متردداً فى توجيه الضربة الأولى ، ولم يتحرك بحزم إلا بعد عامين عندما انحازت المدينة إلى ثورة مكة وعزل الخليفة المضاد عامل يزيد وقبض على ألف من الأمويين . فسير يزيد حملة تأديبية من الشام كان من الغريب أن تضم كثيراً من العرب المسيحيين (كيف لابد أن عمر كان يتلوى فى قبره !) . سارت الأمور سيراً حسناً فى أول الأمر ،

فاستولى أهل الشام على المدينة وزحفوا على مكة حيث أمطر رجال المدفعية المسيحيون المسجد الحرام الذى احتمى به ابن الزبير ، بالحجارة من مجانيقهم وخلال الحصار اشتعلت النار فى الكعبة وتكسر الحجر الأسود إلى ثلاثة أجزاء . ولكن بعد ذلك بشهرين علم المهاجمون بموت خليفتهم وقائدهم الأعلى فانسحبوا .

أصبح عبدالله بن الزبير الآن حاكم الحجاز بلا منازع ، وعندما وضح أن ابن يزيد وخليفته معاوية الثانى صبى مريض ، لم يبطىء الخليفة المضاد فى أن يستغل ميزته فى أماكن أخرى فى الإمبراطورية . وإذ لم يلق مقاومة أموية توقفه حصل على البيعة فى العراق حيث بعث بأخيه مصعب ممثلا له ، وفى مصر وجنوب بلاد العرب وحتى فى أجزاء من الشام . تخلى عبيد الله عن الكوفة لمصعب ، وارتعش الأمويون أمام تقدم الهاشميين المنتقمين . ولكن لم يضع كل شيء . فقد تنازل الآن معاوية الثانى عن العرش إذ كان من الأمانة بحيث يعترف بأنه لن يستطيع أن يشغل المنصب بجدارة ؛ وأظهر بنو أمية مرونتهم بالتحول إلى فرع آخر من هذا البيت الوفير بالكفاءات ، وبايعوا مروان بن الحكم بالخلافة . كان مروان وزيراً لعثمان ، وكان الآن رجلا تقدمت به السن. وبرغم أنه لم يعش سوى تسعة أشهر فسرعان ما أظهر ابنه وخليفته عبدالملك أن الأمويين قد وجدوا مرة أخرى البطل الصحيح فى لحظة أزمـــــة خطيرة تعرض لها بيتهم .

على غرار معاوية بدأ عبد الملك فى تعويض خسائر أسرته بفضل نشاطه هو وباستخدام عامل لا يعرف الرحمة ليثبت سلطانه على أهل العراق المتمردين المتقلبين . اختار عبد الملك رجلا من طراز زياد هو الحجاج بن يوسف ، كان فى الأصل معلماً فى الطائف ومن بنى قيس من وادى الفرات . فعبدالملك

كان يشعر بالمتعة من الحرب ، وكذلك كان الحجاج . وعندما بعث بالحجاج ليستأنف حصار مكة وكان لا يزال فى أواخر العشرينات من العمر ، استخدم الأخير مجانيقه بطريقة أشد وحشية وأكثر فعالية مما استخدمها رماة يزيد المسيحيون .

سقطت مكة بعد ستة أشهر وقتل عبدالله بن الزبير وهو يقاتل حتى النهاية بشجاعة الأسد التى كان ينسبها إليه معاوية . وتمشياً مع التقليد أرسلت رأسه إلى الخليفة .

فى هذه الأثناء كان العراق يغرق فى حمام صغير من الدم . لقد قتل عبيدالله وهو يحاول استرجاع الكوفة . أما ذلك النفر من رجاله ممن عرفت مسئوليتهم عن قتل الحسين فقد أعدموا بالطريقة التى يقضى بها القانون القبلى . وهناك جندى زعموا أنه هو الذى نزع جلد الحسين ففعلوا به الشىء نفسه ثم قتلوه رمياً بالسهام حتى برزت من لحمه كأنها أشواك القنفذ .

ولكن أما وقد مات ابن الزبير بدأ الهاشميون يتعاركون فيما بينهم ؛ وسارع عبد الملك إلى أخذ المبادرة فى يده . وفى محاولة بارعة لصرف الحجاج المسلمين عن المعقل الهاشمى بنى المسجد الرائع فى القدس والمسمى قبة الصخرة . وإذ قارب هذا البناء العظيم التمام اتبعه بحملة وجهها إلى الكوفة المتمردة . وعن طريق الدعاية الذكية ، وتقديم العروض بالعفو عن كافة أنصار الخليفة المضاد إذا انحازوا إليه، أغرى الكثيرين من قوات مصعب بالانفضاض عنه . وعندما بدأت المعركة فى عام ٦٩١ أوقع الهزيمة بالعامل الهاشمى بسهولة .

انتهت الآن الحرب الأهلية الثانية ؛ لقد انتصر البيت الأموى وتوقفت شبه الجزيرة العربية إلى الأبد عن أن تكون مركز قوة العالم العربى . وعمل

عبد الملك الآن على دعم سيادة دمشق . فإذ كان من المتحمسين للسيادة العربية أحدث الكثير من التغييرات الجذرية فى نظام الحكم الذى سبق أن ابتدعه معاوية ، وكان المقصود منها جميعاً وضع العرب فى مراكز السيطرة والتقليل من نفوذ الروم والأعاجم فى إدارة شئون الخلافة . كان أول إصلاحاته وأبرزها إحلال العربية محل اليونانية والفارسية كاللغة الرسمية فى الشام والعراق، وكانت النتيجة التى استهدفها الخليفة أن تولى الموظفون العرب بالتدريج مجالا واسعاً من الوظائف الحكومية كان يشغلها الروم والفرس من قبل . عند بدء الفتوح العربية لم يكن أبناء البادية على دراية بدقائق شئون الضرائب والمالية والإدارة ووقعت المسئولية عن هذه المسائل فى أيدى الموظفين الروم والفرس ممن استولى الفاتحون العرب على بلادهم . ولكن أصر عبدالملك على أنه بانقضاء جيلين فقد حان الوقت الذى يتعين فيه على العرب أن يبدأوا فى تحمل مسئوليات حكومتهم . وفضلا عن هذا أصبح الخليفة الجديد أول من ضرب عملة عربية تحل محل العملات الرومانية والفارسية التى ظلت حتى ذلك الحين وسيلة التبادل. ففى عام ٦٩٥ أمر بنقش الدرهم الفضى والدينار الذهبى ويساويان حوالى عشرة بنسات ومائة بنس (١١٧ر٠ ، ١٦٧ر١ دولار) على التوالى ، فى دمشق أولا .

عزم عبدالملك على أن يسحق الإضطرابات الشيعية فى الإمبراطورية الشرقية مرة واحدة وإلى الأبد . ولهذا الغرض اتجه نحو الحجاج الذى نجح فى القضاء على العلويين فى الحجاز خلال عامى ولايته على بلاد العرب ، وهذا النجاح زكاه باعتبار الرجل الذى يحكم الشرق باليد الحديدية اللازمة . ومنذ أن وصل الحجاج إلى الكوفة أظهر لرعاياه ما ينتظرهم . فتوجه إلى المسجد مباشرة

وصعد المنبر ونزع عمامته عن رأسه وخطب الجمع مبتدأ بهـــذا البيت من الشعر القديم :

أنا ابن جـــلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

ثم واصل الحديث بلغته فقال :(١)

« أما والله إنى لأحمل الشر محمله ، وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله ، وأنى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى... وأنى والله يا أهل العراق ما أغمز كتغماز التين ولا يقعقع لى بالشنان ولقد فررت عن ذكاء ، وجريت إلى الغاية القصوى . إن أمير المؤمنين ، عبدالملك نثر كنانته ثم عجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا ، ، وأصلبها مكسرا ، فوجهنى إليكم ؛ فإنكم طالما أوضعتم فى الفتن ، وسننتم سنن الغى . أما والله لألحونكم لحو القود ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل . إنى والله لا أعد إلا وفيت ، ولا أحلق إلا فريت. فأياى وهذه الجماعات وقيلا وقالا ، ومايقول ، فيم أنتم وذاك ؟ والله لتستقيمن على سبل الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده . من وجدت بعـــد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه ، وأنهبت ماله » .

كان لهذا التحذير الوحشى أثره وخاصة عندما اتبعه بإخماد تمرد بالبصرة ، بأقصى درجات الوحشية . من الآن فصاعداً قدر للامبراطورية الشرقية أن تتحمل عهداً من الإرهاب لامثيل له . كان الناس يعدمون أو يزج بهم فى السجون لأقل اشتباه بأن لهم عواطف علوية أويعارضون نظام الحكم الأموى.

---

(١) هذا هو النص كاملا كما أورده الطبرى (ج ٦ ، ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤) ، واستبعدنا ما تمثل به بعد ذلك من الشعر (المترجم) .

ويقال إنه خلال ولاية الحجاج على العراق وفارس والتى أمتدت إثنين وعشرين عاماً ، أعدم ما لا يقل عن ١٢٠ر٠٠٠ شخص ، وأنه عندما مات كان هناك ٨٠ر٠٠٠ فى السجون .

وكان الحجاج أيضاً إدارياً مسرفاً وجابى ضرائب لا يرحم . فلكى يمول التنمية الزراعية ومشروعات الرى زيد الخراج إلى الحد الذى ألجأ الفلاحين إلى النزوح بالألوف إلى المدن ليلتحقوا بالجيش حيث كانوا لا يعفون من الضرائب فحسب ، بل وكانوا يتقاضون إعانة خاصة . فأعادهم الحجاج إلى مزارعهم ، وفى بعض الحالات العنيدة بوجه خاص أمر بأن تختم أسماء ملكياتهم على أيديهم وأذرعهم لتسهيل التعرف عليهم إذا ما حاولوا الفرار ثانية . ولضمان سرعة تحرك القوات فى حال نشوء متاعب مع العلويين ، أنشأ الحجاج قاعدة عسكرية فى واسط الكائنة فى منتصف الطريق بين مراتع الشيعة فى الكوفة والبصرة . وجىء بألوية من الفرق الشامية لتكون حاميات بالقاعدة وبغيرها من المواقع فى كافة أرجاء العراق .

ولكن وجود هؤلاء المحتلين « الأجانب » إنما زاد من كراهة العراقيين لسادتهم الشاميين ، ومن حنينهم إلى عودة العلويين . وفى عام ٧٠١ وجد العلويون زعيماً فى شخص عبدالرحمن بن الأشعث وهو من قواد جيش علىّ السابقين ، وكان يحيا حياة متواضعة فى خراسان منذ انتزع معاوية السلطة من مولاه . زحف ابن الأشعث على العراق وعبر نهر دجلة على رأس قوة كبيرة أطلق عليها اسم « جيش الطـــــاووس » بسبب فخامة ملابس أفرادها . ففتحت له البصرة أبوابها مرحبة به كمحرر من طغيان الحجاج . ولكن انتصار العلويين كان قصير الأمد ، إذ سرعان ما تم استرداد البصرة بفضل

تعزيزات من الشام ، ويقال إن أحد عشر ألفاً من أهلها دفعوا بحياتهم ثمن مساعدتهم للثوار . بعد ذلك عاد جيش الطاووس إلى التجمع خارج البصرة ، ولكن الشاميين كانوا أقوى منهم . وتلت ذلك مجزرة رهيبة وفر ابن الأشعث بصعوبة إلى خراسان ناجياً بحياته . وعندئذ راح قتيبة بن مسلم الذى استعمله الحجاج ، يطارد أتباع ابن الأشعث ويقتلهم بلا رحمة .

كان قتيبة عاملا نشيطاً فى خدمة الحجاج بمثل ما كان الأخير بالنسبة إلى عبد الملك . فبرغم قسوة هذا المحارب القبلى وفساده كان قائداً لامعاً بشكل لاسبيل إلى إنكاره . وكان الحجاج الذى لم يقل طموحه عن وحشيته ،بحاجة إلى قائد لامع يوسع ولاية الشرقية بحيث تضم الوديان والبساتين الخضراء النضرة والمدن الجميلة التى ذكرت الأساطير أنها واقعة وراء نهر جيحون . وهكذا فى عام ٧٠٥ وبعد أن تمت تهدئة العراق وفارس أطلق الحجاج العنان لقتيبة ليسير شرقا على رأس جيش يزيد على خمسين ألف رجل . وخلال السنوات العشر التالية لم يكد ينقضى عام دون أن تمتد حدود الإمبراطورية العربية إلى ماوراء فارس وأفغانستان إلى ما يشكل الآن جمهوريات جنوب آسيا التابعة للاتحاد السوفييتى . بل أن جهود خالدبن الوليد وعمرو بن العاص لتتضاءل أمام فتوح قتيبة الذى كان جنوده الذين يلبسون الدروع ، يطلقون العرادات والكباش والمجانيق ـ وهى الصورة المعروفة فى العصور الوسطى للصواريخ الحديثة ـ على مدن تركستان وأزبكستان . أخذت بخارى، ونهبت سمرقند . وإذ زحف العرب شرقا مكتسحين كل شىء أمامهم استولوا على فرغانة وخوارزم التى تــــدعى خيوه الآن ، وأخيرا بلغوا حدود الصين عند كشغر .

وعلى الجناح الجنوبى لقتيبة لم يكن محمد بن القاسم زوج إحدى بنات

الحجاج ، أقل نجاحاً عندما غزا فى عام ٧١٠ ما يعرف الآن باسم باكستان واستولى على ديبول عاصمة السند بعد أن خدمه الحظ إذ أصابت إحدى القذائف تمثال بوذا وحطمته ودفعت المدافعين ممن يعتقدون فى الخرافات إلى الفرار ، وقد تملكهم الرعب . وتم الاستيلاء على الملتان وكانت مدينة يؤمها الحجاج من عبدة الأصنام ، وعلى غنائم تقدر قيمتها بمبلغ ٨٫٤٠٠٫٠٠٠ دولار الآن سقطت باكستان الحديثة بما فيها البنجاب فى أيدى العرب المنتصرين وراحت بمرور الوقت تدخل فى دين الإسلام. من ناحية واحدة فقط لم يتحقق طموح الحجاج . لقد وعد بأن يستعمل على الصين أياً من قائديه قتيبة وابن القاسم تطأ أقدامه أرضها قبل الآخر ، فلم ينجح أى منهما فى ذلك ووقفت الحدود الشرقية للامبراطورية العربية عند كشغر وطشقند .

ولكن إذا كانت للحجاج أطماع فخيمة فقد كان يستطيع أن يظهر غيرة شيطانية وتافهة إزاء الولايات الأخرى والولاة إذا كان نجاحهم ينتقص بأى حال من سمعته . ومن الأمثلة على هذا معاملته لخلفه فى الحجاز . هذا الوالى وهو ابن أخ للخليفة ، قام بعمله على نحو ممتاز . فحفر الآبار وبنى الطرق وأقام النافورات فى المدن المقدسة . والحق ، لقد أضفى على الحجاز برغم مناخه القاسى وتربته الصخرية الجافة ، جواً أكثر جاذبية وأوفر حرية من مراعى العراق حيث كانت دماء ضحايا الحجاج تنساب بغزارة شأنها شأن مياه النهرين الكبيرين . وكان حتماً أن يهرع الكثيرون ممن استوطنوا العراق إلى الحجاز وقد جذبتهم الروايات عن حكم عمر السمح . كان هذا كثيراً على الحجاج الذى طالب بعزل عمر وتم له ذلك ، ثم حمل خلفه بالتهديدات عن طرد مماثل ، على إخراج المستوطنين وإعادتهم إلى العراق ، حيث زج بالكثيرين منهم فى السجون ، بل وأعدم البعض بسبب هجرتهم .

ومع كل ، فبرغم ما اتصف به الحجاج من وحشية وغيرة ، فإنه أسهم فى توسيع الإمبراطورية العربية فى اتجاه الشرق بأكثر مما أسهم به أى والٍ أموى آخر . صحيح بالطبع أن عصر إرهابه عمل كثيراً على زيادة أعداد جيوش الخليفة بأن دفع الألوف من أهل المدن والبدو على الانخراط فى الجيش باعتبار أن هذا أفضل وسيلة للنجاة من القمع والاضطهاد فى دولة بوليسية. ولكن هذا لا يغير من الحقيقة وهى أنه لولا أن الحجاج فرض سيطرة قوية على العراق ، وأكثر من هذا على فارس ، لما أمكن أن تكون هنالك قفزة إلى الأمام فى باكستان وتركستان وأزبكستان وفرغانة ، وبدلا من أن تتوغل الجيوش العربية حتى حدود الصين كانت تجلس عند عتبة دارها تقوم بدور الحاميات وتدافع عن نفسها ضد التحدى المستمر من جانب العلويين .

لكن مثل هذا الحكم الذى فرضه الحجاج على العراق والإمبراطورية الشرقية يتقاضى حتماً ثمنه مما يولده من المرارة فى النفوس . وكان من ترفق القدر به أنه لم يعش ليدفع هذا الثمن حيث توفى عام ٧١٤ بسرطان المعدة بينما كان الأمويون لا يزالون متسلطين على الخلافة . ولكن برغم أن حكاماً آخرين كانوا سيعانون ماسوف يأتى به المستقبل من غضب وانتقام رهيب ، كان الحجاج هو الذى خلق ذلك الرصيد الهائل من كراهية للحكم الشامى راحت تقل بعد موته . كان غير العرب فى العراق وجيرانهم الأعاجم ، وبرغم تحولهم إلى الإسلام ، يشعرون منذ وقت طويل بالسخط إذ يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية أى كموالى . ولكن القضاء على العلويين فى العراق وفارس على أيدى زياد عامل معاوية ، أوجد رابطة مشتركة بينهم وبين الموالى ؛ وهيأ الموالى بدورهم تربة خصيبة تنمو فيها الشيعة العلوية .

وفى الوقت الذى عين فيه الحجاج والياً على الإمبراطورية الشرقية أصبح

الشيعة هم الناطق بلسان جميع الطبقات المضطهدة فى العراق وفارس سواء أكانوا عربا يضطهدون لأنهم يريدون علويا على العرش ، أم غير عرب ليست لهم امتيازات كاملة بسبب أصولهم العنصرية . لقد كمم الحجاج أفواه الحركة الشيعية بأقسى مما فعل أى والٍ سبقه أو جاء بعده، ولكنه بهذا عمل على تعميق الكراهية لحكم أهل الشام وبنى أمية إلى الحد الذى جعل وقوع انفجار أمراً لا مناص منه فى النهاية .

(٧)

ذروة الصيف وأوائل الخريف

بالنسبة إلى الأمويين

بالقياس إلى العباسيين لقى الأمويون معاملة يسيرة وأقل من منصفة نوعاً من جانب المؤرخين العرب . ويرجع بعض السبب فى هذا إلى ما كان للروائع الفارسية فى بلاط هارون الرشيد من تأثير أشبه بالتنويم المغناطيسى ، كما يرجع أيضاً إلى تعمـــد الثورة العباسية المنتقمة فى عام ٧٥٠ القضاء على كل أثر للأمويين الشاميين بما فى ذلك تواريخ فتوحهم . لكن برغم كل أخطاء الأمويين ، وأسوأها بغير شك وأشدها تدميراً للذات ، الميـــل إلى جعل غايات الفتوح تبرر أساليب الإرهاب ، فإن لهم الحق فى فصل يسجل لهم مجداً لم تبزهم فيه أية إمبراطورية أخرى فى تاريخ الإنسان . ففى ذروة القوة الأموية فى عام ٧١٥ كانت الإمبراطورية العربية تمتد من حدود الصين إلى المحيط الأطلسى ، ومن فرنسا إلى حدود الهند الحديثة ، ومن بحر الخزر حتى النوبة . وكانت تضم أسبانيا وجميع الساحل الأفريقى الشمالى ، وشبه الجزيرة العربية ، والشام وفلسطين ، ونصف الأناضول ، والعراق ، وفارس وأفغانستان ، وباكستان ، وما يشكل الآن أراضى التركمان وأزبكستان والقرغيز بالاتحاد السوفييتى . ما من امبراطورية تقرب من هذه الأبعاد ، تم الظفر بها فى زمن قصير كهذا . فرجال القبائل العربية الذين كانوا محل ازدراء القوى الكبرى فى ذلك العصر ، باعتبارهم سكان مستعمرات حفاة الأقدام ، هؤلاء الناس فتحوا فيما بين عامى ٦٣٢ ، ٧١٥ ما يربو على أربعة ملايين ونصف المليون

من الأميال المربعة ، بمعدل تقدم بلغ ١٥٠ ميلا مربعاً فى اليوم لمدة ثلاث وثمانين سنة . بل ومما له أهمية ومغزى أكبر أن هذه الفتوحات العربية غيرت وجه العالم إذ أخرجت المؤثرات اليونانية والمسيحية من الشمال الأفريقى والمشرق، فضلا عن أنها حولت الامبراطورية الفارسية السابقة إلى الإسلام . وبذلك حولوا ما كان طيلة قرون مستعمرات لروما واليونان حول شواطىء البحر المتوسط ، من أسلوب غربى للعيش إلى أسلوب شرقى ، وما من بيت عربى آخر يستطيع أن يبارى البيت الأموى فى المساحة والسرعة . وبزوال الأمويين فى الشام بدأت الامبراطورية فى التقلص والتمزق . وبعد ذلك لم تتمكن من التوسع والازدهار إلا فى الغرب الأقصى حيث لم تتمكن سيوف الجلادين من بنى العباس من الوصول للقضاء على القلة الأموية التى ظلت على قيد البقاء .

وأكثر من هـذا أنشأ الأمويون آثاراً تبارى انتصاراتهم . فهم الذين أقاموا أعظم وأروع مبان ثلاثة فى الامبراطورية : قبة الصخرة فى بيت المقدس ، والمسجد الأموى الكبير فى دمشق ، ومسجد عبد الرحمن الثالث فى قرطبة . كان عبد الملك كلفاً بالبناء بمثل ما كان مولعاً بالقتال . ففى سنة ٦٩٤ أكمل العمل فى قبة الصخرة التى بنيت على ما تقول الأسطورة ، حول الصخرة التى وقف عندها إبراهيم وهو يستعد لذبح ابنه اسحاق ، وحيث بدأ محمد صعوده إلى السموات السبع . فبالسقف المصنوع من النحاس الأصفر والذهب ، وبالأعمـــدة الشامخة من الرخام المعرق والفسيفساء الذهب حول الجدران والتى حلت محلها منذ القرن السادس عشر فسيفساء زرقاء وخضراء وصفراء ، كان المراد بهذا الأثر الأول الذى خلفته امبراطورية بنى أمية أن ينافس أماكن العبادة والحج التى أقامها الخليفة المنافس له فى مكة والمدينة،

وأن يكون مزاراً أشد إثارة للنفس مما أنشأته المسيحية أو اليهودية فى المدينة المقدسة المثلثة .

وتفوق الوليد الأول وهو ابن عبد الملك وخليفته منذ سنة ٧٠٥ ، حتى على أبيه فى البناء . فوسع المسجد فى مكة ، وعمر ووسع مسجد النبى فى المدينة بحيث يضم قبر محمد وحجرات أزواج الرسول . وإلى جانب قبة الصخرة التى أقامها أبوه ، بنى المسجد الأقصى وهو أكبر منها ، وأدخل المأذنة التى ينادى منها المؤذن على المؤمنين للصلاة . وأنشأ مدارس عديدة ، فضلا عن مؤسسات للمصابين بالصرع والعمى والبرص . وكان كذلك أول حاكم فى العصور الوسطى يبنى البيمارستانات والمستشفيات للمصابين بأمراض مزمنة ، وكان الكثير من المستشفيات التى أقيمت فيما بعد يحاكى ما أنشأه الوليد منها . وأعظم منشئاته المعمارية هو بالطبع المسجد الأموى بدمشق الذى بنى فوق موقع كنيسة يوحنا المعمدان البيزنطية التى تضم قبر القديس . وكان أقدس حرم فى الإسلام بعد جامعى مكة والمدينة وقبة الصخرة ، هو المسجد الأموى الذى ما يزال من أرحب وأروع أماكن العبادة فى العالم وربما يكون من بين الآثار التى خلفها الأمويون أشدها دلالة على خلقهم . وإذ تولى بناءه وتزيينه جيش من أصحاب الحرف البيزنطيين والعمال من الفرس والهنود والمصريين ، فقد أنفق على عمارته ما يعادل خراج الشام سبع سنوات . لم يبخلوا على إقامته بشىء أو يغفلوه . ولكن برغم أن عظمته لم يبزها شىء ـ بصحنه الفسيح المصنوع من الحجارة ، وبالفسيفساء البراقة التى تصور حياة القرن الثامن فى دمشق ، وبالأرضية الرخامية الشاسعة والسقف المنحوت على نحو بالغ الجمال ومنه تتدلى ستمائة قنديل بالسلاسل الذهبية ـ كان ولا يزال فيه صفاء غير عادى يصور بشكل قاطع وبأكثر مما تصور الكلمات أى كتاب أو عظة ،

المعنى الباطنى للاسلام وهو خضوع الروح الكلى لمشيئة الرحمن وأفعاله .

كان هذا من كل ناحية ، ذكرى تليق بخليفة أموى عظيم هو اليوم وعلى خلاف أبيه العنيف والعدوانى ، محل الاحترام والتوقير باعتباره واحداً من أعظم المحسنين بالشام وحارسا أشد يقظة على مصالح شعبه . فإلى جانب إنشاء المساجد والمستشفيات المرضى وللبتامى ، كان الوليد أيضاً يرعى المسنين والعجزة ، ويراجع بدقة تكاليف المعيشة حيث كان يقوم شخصياً بزيارة الأسواق فى الشام وينزل العقاب السريع والشديد بكل من يحاول تحقيق أرباح فاحشة . وعلى غرار معاوية كان بابه مفتوحاً أمام رعاياه ، وتحمل مشاق لانهاية لها من أجل توفير العدل ورفع المظالم وفض المنازعات بطريق التحكيم . ولكن يظهر أن سماحته لم تتجاوز الحدود الشرقية للشام ، إذ احتفظ طيلة عهده بالحجاج والياً على الإمبراطورية الشرقية وأطلق يده فى ارتكاب أعمال قمع فى العراق وفارس ما كان هو نفسه ليوقعها بألد أعدائه فى الشام .

مامن شىء كان يسبب أى قلق للوليد طالما زاد من رفاهية شعب الشام أو أنمى ووسع ممتلكات الخلافة فى الخارج . وليس من قبيل الصدفة وحسب أن وصلت هذه الممتلكات فى عهده إلى أبعد حدودها . فبينما كان قتيبة وابن القاسم يجتاحان آسيا الوسطى ، كان جيش عربى آخر يتجمع ليدفع حدود الإسلام فى اتجاه الغرب .

فبعد سنوات ثلاث من تولى الوليد الخلافة عام ٧٠٥ قام عمه وعامله على مصر بتعيين موسى بن نصير والياً على الأقاليم الغربية ؛ وكان والد موسى نصرانيا من أصل يمنى أسر بالعراق فى أحد أديرة النساطرة كان خالد بن الوليد قد استولى عليه . بعد موت عقبـــة فى الجزائر سنة ٦٨٣ عاد البربر فسيطروا على شمال أفريقية من طرابلس إلى مراكش أواضطر العرب إلى الجلاء عن القيروان ، عاصمتهم الغربية الجديدة . كان البربر يغيرون حسبما يشاءون

على السهول من مخابئهم الجبلية حيث لم يكن فى إمكان العرب تعقبهم ؛ وتحدت قبيلة محلية أخرى تدعو زناتة أحيانا جميع الجهود المبذولة لإفنائهم إذ كانوا يستخفون فى الكهوف والمغارات بل وفى الجحور فى الأرض . (لانزال حتى اليوم نجد سلالاتهم فى كهوف فى التلال الساحلية على امتداد الشاطىء الأفريقى الشمالى) . وبانتهاء القرن السابع تحول المد قليلا ونجح العرب فى تهدئة الأقاليم الساحلية حتى تونس واستردوا القيروان . ولكنهم لم يجسروا قبل وصول موسى ، على السير غربا صوب المناطق التى شهدت هزيمة عقبة وموته .

قر رأى موسى على أن يضع حداً للتهديد البربرى مرة واحدة وإلى الأبد. وبفضل سلسلة من عمليات زحف فى اتجاه الغرب لم يكن فى الإمكان صدها ، اكتسح كل مقاومة ومد سلطانه غرباً حتى طنجه. كان موسى يخير أوفر أسراه ذكاء ونباهة بين الخدمة فى جيشه بعد اعتناق الإسلام وبين بيعهم رقيقاً لمن يدفع أعلى ثمن ، وهذا الأسلوب أثبت فعاليته ونفعه . والحقيقة أنه لما عاد إلى عاصمته القيروان عين أحد هؤلاء الأسرى من البربر وهو طارق بن زياد ، عاملا له فى طنجه .

لم يخطر ببال موسى وهو يشق طريق العودة على طول الساحل الأفريقى ، أن نوايا نائبه تتجاوز المكث هناك ودعم الحكم العربى فى الأقاليم المفتوحة حديثاً . وبرغم أن العرب كانوا قد انتزعوا سيادة البحار من أعدائهم فى شرق البحر المتوسط إلا أنهم كانوا حذرين نوعاً فى استخدامها ؛ فلم يحاولوا القيام بفتوح فيما وراء البحار ، باستثناء المحاولة الفاشلة ضد القسطنطينية. والاستيلاء على قبرص . كان عمر قد رفض منح الإذن بالهجوم على قبرص معلناً فى حزم أن الله جعل البحر حاجزاً واقيا وأن محاولة ركوبه تعتبر دنساً ، ولم يمنحه عثمان إلا عن كره منه . ولكن طارقاً لم يكن من الخوف أو التقوى بحيث

يسمح لشقة من البحر أن تردعه . وفى سنة ٧١١ أقدم على الخطوة البالغة الأهمية والخطورة بأن عبر المضايق بقوة من سبعة آلاف من البربر والعرب ، وأقام لنفسه رأس جسر عند سفح صخرة الأسد التى حملت اسمه فسميت « جبل طارق » .

تقدم طارق واستولى على الجزيرة الخضراء . ولكن عند هذه النقطة فإن موسى الذى استشعر القلق خشية أن يؤول الفضل فى هذه الفتوحات إلى نائبه ، خرج من معقله فى تونس وأمر طارقاً أن ينتظره قبل مواصلة الزحف فى شبه جزيرة إيبيريا. كانت أسبانيا فى الوقت يحكمها الملك رذريق أو لذريق (كما يسميه العرب) من القوط الغربيين ، الذى اشتبك فى نزاع مع أحد نبلائه وهو الكونت يوليان الذى نفى إلى سبتة . وإذ رأى يوليان فرصة لاسترداد أراضيه انضم إلى العرب؛ فلم يقف عند حد تزويدهم بالمعلومات عن المنطقة وإنما حمل الكثيرين من أفراد الجيش القوطى على الانحراف عنه قبل أول لقاء مع عرب طارق . تلا ذلك مصرع لذريق واستسلام بقية جنده . وعندئذ تجاهل طارق أوامر رئيسه وانقض على الأندلس حيث استولى على مالقه وقرطبة وغرناطة .

فى هذا الوقت (يونيه ٧١٢) وصل موسى أيضاً إلى أسبانيا بجيش من عشرة آلاف رجل . وبعد أن استولى على اشبيلية بجهود قليل وكانت مقدمة الجيش العربى قد تجاوزتها ، لحق بنائبه عند طليطلة وهنا نشب نزاع عنيف بينه وبين طارق وضربه بسوط وزجه مصفدا إلى ظلام السجن أطلق سراح طارق فيما بعد ولكن بعد أن أجبر على التنازل لرئيسه عن معظم الغنائم التى كان قد استولى عليها بما فى ذلك مائدة مرصعة بالجواهر غنمت من كاتدرائية طليطلة وقيل إنها كانت للملك سليمان فى بيت المقدس .

استمر الزحف العربى وسقطت سالامنكا ثم سرقسطه وفالنسيا وأرغونة

وبرشلونة وجيرونا . وبحلول خريف عام ٧١٣ كانت جميع أسبانيا فى أيدى العرب باستثناء نافار والأستوريا . عندئذ استدعى موسى إلى دمشق ليشرح السبب الذى من أجله غادر موقعه فى القيروان بدون إذن . استخلف موسى ابنه عبد العزيز على أسبانيا وتوجه إلى الشام ليواجه الخليفة الذى كان قد مرض الآن ولكنه لم يذهب نادما مستغفراً ؛ بل بالعكس لم يحدث أبداً أن كان مثل موكب النصر هذا وعلى رأسه هذا اليمنى المتكبر ، على طول ساحل شمال إفريقية . كان يسير وراءه أربعمائة أسير من أمراء وأشراف القوط ، يرتدون تيجانهم وأحزمتهم الذهبية وفى أثرهم ثلاثون ألفـــا من العذارى الأسبانيات وفيض لا نهاية له من العبيد والأسرى وقد أنحنت ظهورهم تحت ثقل ما كانوا يحملون من غنائم تكفى لفداء عدد من الخلفاء .

كان حتما أن يسير الموكب بطيئا ، وعندما اقترب موسى من نهاية رحلته كان الوليد يحتضر ، وأصدر أخوه وولى عهـــده سليمان أمره إلى موسى بإرجاء الوصول فى دمشق أملا فى أن يكون اعتلاؤه الخلافة مكرما بوصول المنتصرين . ولكن موسى تجاهل الأمر ووصل إلى عاصمة الإمبراطورية فى فبراير ٧١٥ قبل وفاة الوليد بأسابيع قلائل . أقيم الاستقبال الرسمى فى صحن الجامع الأموى . وفى ملابسه الفخمة المتدلية ، وجالساً القرفصاء على عرش الخلافة وسط وسائد موشاة ومطرزة ، تقبل الوليد لأول مرة فى التاريخ العربى خضوع المئـــات من الأسرى الأوربيين من ذوى الدم النبيل . وإلى يمينه وقف أقاربه من ناحية الأب وقد اصطفوا حسب السن ، وإلى يساره أقاربه من ناحية الأم ، ووراءه رجال البلاط والشعراء وكبار موظفى الدولة . ورغبة من موسى بغير شك فى تحسين العلاقات مع مولاه أهدى إلى الوليد نفائس الفتح الاسبانى بما فيها مائدة سليمان المرصعة بالجواهر . ولا يسعنا إلا أن نتخيل الرعب الذى لاحظ به فى هذه اللحظة الحرجة أن احـــدى قوائم

المائدة مفقودة ، وأن نتخيل ما تملكه من مزيج الارتباك والغضب الشديد وهو يراقب طارقا الماكر يتقدم إلى الأمام ويسلم القائمة الناقصة إلى الخليفة شارحاً أنه كان قد احتفظ بها ليبرهن على دوره فى الاستيلاء عليها .

ولكن بالنسبة إلى موسى بن نصير كانت هذه الدراما الكبيرة من درامات العصور الوسطى دلالة على بدء النهاية . كان الوليد قد غفر له عصيانه، ولكن لما مات بعد ذلك بوقت قصير خلفه سليمان طبقا لوصية عبدالملك الاخيرة فجرد موسى من قياداته وصادر أمواله . فالخليفة الجديد لم يغفر له رفضه إرجاء دخوله فى دمشق دخول المنتصرين إلى ما بعد وفاة الوليد ، وأذل أخا القائد علنا بأن جعله يقف تحت الشمس المحرقة حتى خر مغشيا عليه من الإعياء . واذ لم يكن لموسى ما يعوله من مال أو مكانة مات معدما يستجدى الناس فى قرية نائية فى الحجاز . لم يقنع سليمان باظهار غيرته على هذه الصورة الوحشية كأنما كان يحاول فى استماتة أن يمحو ذكرى الحكم العظيم الذى تولاه أخوه الأكبر ، فأمر بأن يقتل بالسم عبد العزيز الذى لم يكن فقط يحكم أسبانيا وفق تعليمات موسى وإنما أضاف أيضاً ميورقة وغيرها من جزر البليــار إلى الإمبراطورية . واستدعى محمد بن القاسم من الشرق وأمر بإعدامه . ولم يكن مصير قتيبة بن مسلم خيراً إذ قبض عليه وأعدم بعد محاولة فاشلة لرفع راية الثورة .

بخلاف هذه الأعمال الانتقامية الوحشية ضد أنجح قواد الوليد كان سليمان شهوانياً وشرها ، يحيا حياة خمول ، مفضلا حريمه على ساحة القتال . كان نهما فى الأكل وبدينا ، يحب الحراير النفيسة ، ويقال إنه كان يحتفظ فى أكمامه بلحم أو دجاج سمين فى أثناء الاجتماعات الرسمية . وترك أمور الدولة فى أيدى مستشاريه ومنهم يزيد بن المهلب وكان من المقربين . عُين يزيد مكان قتيبة على خراسان حيث أقسم أنه سوف يبز سلفه فى الفتوح . أما أنه

بزه فى القسوة فأمر لا يرقى إليه الريب . ولكنه أخفق فى أن يضيف شبراً واحداً إلى حدود الإمبراطورية . ولم تتقدم جيوش الخليفة بصورة لها شأنها إلا على الجبهة البيزنطية حيث عبرت الأناضول لتحاصر القسطنطينية من البر والبحر . ولكن هذه المغامرة الجريئة تحطمت بسبب وباء الطاعون . وربما كان هذا الوباء هو الذى قضى على سليمان لأنه مات سنة ٧١٧ خلال زيارة إلى قواته على الجبهة البيزنطية . ولما لم يكن له ولد خلفه ابن عمه الأول وهو عمر وكان ابن أخ لعبد الملك .

كان عمر يختلف اختلافاً تاماً عن سلفه . كان أكثر ورعاً وصلاحاً من سميه عمر الأول . ولقد ضربته دابة فى جبهته وهو غلام ، وكان أصلع ونحيل الجسم بصورة ألمية . وكره الملابس الفاخرة التى أحبها سليمان . وكان يطوف بشوارع دمشق فى ملابس رثة ومرقعة بحيث غالباً ما كان يمشى وسط الزحام لا يعرفه أحداً . وبالمثل كان ينفر من متاع الدنيا ويعزف عن الاقتناء الخاص ولذا باع الأسطبل الكبير لخيول السباق والذى كان يملكه الخليفة السابق ، ودفع بثمنه إلى بيت المال ، وكان هذا أيضاً مصير حلى زوجته .

كان أنبل جهد بذله عمر أنه أعاد وحدة الإمبراطورية . فنهى عن لعن على من فوق المنابر[1] فى الصلاة الجامعة وهى العادة التى كان معاوية أدخلها ؛ وسلم إلى نسل على الضياع التى احتفظ بها محمد للاحسان ، ثم راح يطبق مبدأ رفع الجزية عن المسلم سواء كان من العرب أو الموالى ، وهى التى كانت تجبى من رعايا الخليفة « الأجانب » . بل وسار خطوة أبعد فأدخل تغييراً جذرياً فى مفهوم السياسة الإسلامية الذى كان سائداً منذ الأيام

---

(١) وجعل مكانه قوله تعالى « أن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » — المترجم .

الأولى . حتى ذلك الحين وطبقا للدستور الذى استنه عمر الأول كانت هناك تفرقة واضحة بين شبه الجزيرة العربية والبلاد المفتوحة وبين العرب المسلمين والبـــاقين بما فيهم الموالى . فعلى اعتبار أن شبه الجزيرة هى قلعة الإسلام ، لهذا كان الحماس فى تحويل أهلها إلى الإسلام ، وكان الحرص الشديد على أن يُحتفظ بها ، وانطوى العرب المسلمون على أنفسهم بوصفهم حماتها ليبقوا على نقاء دينهم ودمهم . وبالعكس كانت الاقاليم المفتوحة معفاة من ضرورة اعتناق الإسلام ، وسمح لرعايا الخليفة من النصارى واليهود بأن يحتفظوا بدينهم وأرضهم شريطة أداء نصيبهم من الجزية . وحتى بعد نقل مقر السلطة الزمنية من مكة إلى دمشق ، ظل هذا الربط والتزاوج بين الإسلام والعرب نافذاً . كانت التعديلات الجوهرية الوحيدة التى أدخلت على سياسة عمر الأول فى « التفرقة » ـ أى حظر استيطان العرب فى الأراضى المفتوحة ، وفرض الضرائب على الموالى الذين اعتنقوا الإسلام وبنفس سعرها الكامل بالنسبة إلى الكفار « الأجانب » ـ نقول إن هذه التعديلات عملت فحسب على إضافة عنصر جديد من التفرقة العنصرية لصالح العرب إلى النظام القائم على التفرقة الدينية، لم يشجع غير العرب على اعتناق الإسلام[1]، ومن ثم لم يكن عدد الأجانب الذين تحولوا إلى الإسلام ذا علاقة بحجم الفتوح الهائل التى تمت على يد الجيوش العربية .

كان عمر الثانى من الطموح إلى إعلاء شأن الدين بحيث لا يسمح بإهدار الفرص . وعلى ذلك ، وعملا على إخراج الإسلام من تقوقعه ، بدل السياسة

---

(١) هذا الذى يقوله المؤلف هو أبعد مايكون عن مفهوم التفرقة ، بل أنه منبثق من مبدأ الاسلام وهو أنه لا اكراه فى الدين ، ومن هنا كان التسامح ازاء أهل الكتاب وعدم اجبارهم على الاسلام . والاسلام أيضاً يقول أنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى . — المترجم (راجع ما كتبناه فى هذا الصدد بكتابنا « التفسير القرآنى للتاريخ ..) .

الرسمية وبدأ حملة من أجل تحويل الأقاليم المفتوحة إلى الإسلام بالجملة . وبسبب أن الامتيازات الضريبية الليبرالية تساند حججه الداعية إلى تحويل الناس إلى الإسلام ، فإن السياسة الجديدة تسفر عن نتائج فورية ودرامية . فأقبل على الدين الجديد عشرات الألوف من كافة أرجاء الامبراطورية وخاصة فى الشرق إلى ماوراء نهرى جيحون والسند حيث المبادىء المجوسية والبوذية بل وعبادة الأوثان ، لم تكن تموت إلا ببطء بسبب أساليب التفرقة العنصرية التى انطوت عليها السياسة الأموية . والآن نجد قصة مختلفة ذلك أن حالات الدخول فى الإسلام صارت من الكثرة بحيث شكا عمال عمر فى الأمصار من أن الإيرادات لا تكفى لتسيير أمور الامبراطورية . وبرد يعكس طبيعة عمر ، أجاب « ... فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً »(١) .

على أن أعظم نتيجة أسفرت عنها سياسة عمر فى تقرير المساواة بالنسبة إلى المسلمين كافة ، الهدنة التى أوجدتها فى العراق وبلاد فارس . نسى العلويون والهاشميون مؤقتاً أحقادهم ضد الأمويين ، بل إن الخوارج العدميين أوقفوا إطلاق نيرانهم خلال السنوات الثلاث التى كرمت فيها هذه الشخصية القديسة العرش . ولكن إذا كان بلاط عمر أكثر طهارة ونقاء إذا امتلأ بأهل الورع والزهد بدلا من الشعراء والخطباء ممن كان يحبهم أسلافه ، فإن إدارته فقدت الكثير من فعاليتها عندما عجل بالعملية التى بدأها عبدالملك وهى إحلال المسلمين محل الموظفين النصارى واليهود فى إدارة الدولة . ولما كان الذين حلوا محل الأخيرين لم يعتادوا التصرف فى الثروات الهائلة التى جاءت بها فتوحهم حيث الكثير منهم من سلالة أهل البادية البسطاء ، لهذا كانوا يجهلون المسائل المالية وينفقون فى استهتار كل مايصل إلى أيديهم . وكان حتما أن يؤدى هذا إلى الفساد والرشوة إذ كان عمال الامصار والنواحى لا يحتفظون بحسابات ويستأثرون بمبالغ كبيرة لإستعمالهم الخاص .

(١) كان هذا رده المشهور على أيوب بن شرحبيل الأصبحى والى مصر . — المترجم .

لكن ، ومهما جانب التوفيق النتيجة المترتبة على تعيينهم ، فإن إصلاحات عمر الإدارية فى الإمبراطورية كان عليها على الأقل تصميم على وضع أفضل مسلم فى الوظيفة وليس وضع من يدعى أن له حقاً فيها بحكم صلة عائلية أو قبلية بالخليفة. وكان لامفر من أن يكون يزيد بن المهلب أول من يعانى من هذه السياسة الجديدة. فعندما استدعى ليفسر ما بعث به إلى سليمان من التقارير المبالغ فيها عن الغنائم التى استولت عليها الجماعات المغيرة لم يكن فى وسعه إلا أن يقدم الاعتذار الأعوج بأنه كان يبالغ فى ضروب نجاحه من أجل أغراض دعائية . وعندئذ نفى وسجن فى جزيرة بالبحر الأحمر . ولكن يزيداً لم يكن قد انتهى بعد . فلما توفى عمر سنة ٧٢٠ فر من السجن وجمع جيشاً من أنصاره واستولى على البصرة وقتل عاملها وسرق محتويات بيت المال . هذا العمل اليائس عجل به العلم بأن خليفة عمر وهو أخ آخر للوليد ، قد استدعى يزيداً أيضاً وسوف يقتله على وجه التأكيد إذا ظل فى السجن . ذلك أنه عندما كان ابن المهلب والياً على خراسان صادر الثروة الفارسية التى كانت تملكها زوجة الخليفة الجديد على أساس أنها بنت أخت للحجاج عدو مولاه سليمان اللدود . فى ذلك الوقت أقسم زوجها علنا أنه سوف يقطع مضطهد زوجه إرباً . وإذ صار خليفة كرر التهديد وأمر القوات التى بعث بها إلى البصرة ، ألا يدعوا أحداً من أصدقاء سليمان وخصوم الحجاج حيا . وحقق انتقامه بالفعل عندما أنزل جيش عدته ثمانون ألفاً من الشاميين الهزيمة بابن المهلب على مقربة من الكوفة وقتلوه وجميع أقاربه .

لم تكد هذه الثورة تسحق حتى نشبت ثورات أخرى فى مناطق بحر الخزر الجبلية وامتدت شرقا حتى فرغانه . لقد تلقى رعايا الخلافة « الأجانب » الرسالة من خليفة عمر الذى بدأ يعيد تطبيق التفرقة العنصرية . مرة أخرى اتحد العلويون والموالى فى قضية واحدة . وعندما توفى يزيد الثانى فى عام ٧٢٤ —

ويزعمون أنه مات كمداً بعد اختناق جاريته الأثيرة بسبب حبة عنب ألقاها إليها حبيبها الملكى — تقول إن زيد ابن علىّ حفيد الحسين الذى مات شهيداً، شن أولى الثورات التى سوف تبلغ الذروة فى الإطاحة ببنى أمية . وأمر هشام وهو الخليفة الجديد وآخر من تولى العرش من أبناء عبدالملك ، بالقضاء على زيد بدون رحمة ، واختار للمهمة قريباً للحجاج يدعى يوسف بن عمر وكان عاملا على اليمن .

ولما كان يوسف متكبراً ولا يصفح ، استخدم قوة الخليفة بصورة خالية من الرحمة ، للقضاء على زيد وأتباعه . ولكن الشبكة كانت تطبق على الأمويين ، ووجد هشام نفسه وقد أحاط به الأعداء فى كل جبهة . وعندما سحب عمر الثانى فى عام ٧١٧ الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية نبه الروم فجأة إلى إمكانية أن تكون الامبراطورية العربية فى طريق الانحلال . وفى الوقت الذى ولى فيه هشام كانوا يتدفقون عبر الأناضول ويهددون المعاقل الشمالية للامبراطورية . وكان نشاط العلويين والخوارج يُبقى العراق وفارس فى حالة اختمار . وفى آسيا الوسطى ثارت القبائل المحلية وانتزعت سمرقند من العرب وهددت بخارى التى لم تنقذ إلا بعد أن خسر العرب ثمانين ألفاً . وانتقلت العدوى إلى أرمينيا . وفى شمال أفريقية ثار ٣٠٠٠٠٠ من البربر احتجاجا على إعادة فرض الخراج عليهم بعد موت عمر الثانى برغم تحولهم إلى الإسلام . ودارت معركة دامية على مقربة من القيروان فى عام ٧٣٥ قبل أن أمكن إخضاع الثوار . وبعد ست سنوات أثارت دعاية الخوارج ثورة أخرى قام بها البربر فى مراكش .

بدا حكم هشام كأنه حصار طويل واحد . ولم تكن هناك أية انتصارات تخفف من القتامة والكآبة إلا فى الجبهة الأسبانية . فمنذ موت عبد العزيز الصغير قاد عبد الرحمن بن عبدالله والى أسبانيا ، قواته عبر جبال البرانس

واستولى على ناربون حيث أقام مركز قيادته ، بهدف الزحف شمالا إلى باريس وشرقا إلى إيطاليا . ولكن حظه لم يستمر طويلا . ففي عام ٧٣٢ التقى بالفرنجة بقيادة شارل مارتل المعروف باسم «المطرقة» ، قريباً من بواتييه ، وإذ سبق للقائد العربي أن تعقب الفرنجة بسهولة من الدوردوني إلى اللوار ، أصبح مسرفا في الثقة بالنفس وعجز عن أن يدرك أن شارل مارتل كان يقوم بانسحاب استراتيجي من الأرض المكشوفة حيث للعرب ميزة طبيعية ، إلى أراضي الغابات حيث يكونون في موقف ليس في صالحهم . وفي جـــو ساده البرد القارس لم تكن قوات عبدالرحمن مستعدة له تماماً ، أمرهم بالهجوم وكاد يكسر بهجمته الأولى المربع الصلب الذى يتكون من العدو . ولكن الفرنجة المدربين تدريباً جيداً صمدوا وشقوا طريقهم حول مؤخرة العرب ليهجموا على العربات المحملة بالغنائم التى استولوا عليها فى زحفهم السابق . فلما رأى العرب هذا التهديد الموجه إلى ما غنموه اندفعوا للذود عن عربات الكنوز فخففوا الضغط على جيش الفرنجة الرئيسى . حاول عبدالرحمن أن يجمع رجاله لشن هجوم آخر ولكن قتل بضربة رمح وهنا انفرط عقد العرب وفروا .

هذه المعركة التى دارت بعد موت محمد بمائة عام بالضبط كانت نقطة التحول فى توغل العرب فى أملاك الفرنجة . نشب الشقاق ودبت الغيرة بين العناصر العربية والبربرية من جيش الخليفة . وبرغم أن حملات أخرى شنت على وادى الرون وأدت إلى الاستيلاء على أفنيون وفالنس وهددت باريس من جديد ، فقد كانت أوربا متنبهة الآن للخطر الذى يهددها . وبحلول عام ٧٥٩ وبفضل تعزيزات من لمبارديا وغسقونيا وبلاد الباسك طرد شارل مارتل العرب من فرنسا وحصرهم بصفة دائمة وراء جبال البرانس .

بعد ذروة صيف الإنجاز الأموى فى عهد الوليد حل خريف مبكر ينذر بالخطر . ففى ظل إخوته الأقل منه شأناً وهمة ، بدأت أوراق الفتح الخضراء يتحول لونها ، وسرعان ماقدر للشجرة العارية تقريباً التى غرسها البيت الأموى ذو الكبرياء ، أن تسقط تحت فأس انتقام الثورة العباسية .

(٨)

الثورة العباسية

بموت هشام فى سنة ٧٤٣ من التهاب فى اللوزتين انتهى دور أبناء عبدالملك وانتهى البيت الأموى بالفعل. فبرغم أنه اتهم بالعمل كالسائر فى نومه خلال الحصار الطويل الذى ميز عهده، وبالانصراف إلى حفر القنوات وإنشاء المتنزهات وترتيب حفلات السباق التى تجرى فيها خيوله البالغ عددها أربعة آلاف، بدلا من الدفاع عن المملكة، كان هشام من أصحاب البسالة والفضيلة إذا قيس بالخلفاء الذين جاءوا من بعده، بل أن سليمان ويزيداً الثانى ممن عرفا بالانهماك فى اللذات كانا كلاهما حاكمين أقل خلاعة ومجوناً وأشد فعالية من ابن أخ هشام وخلفه الوليد الثانى.

إن موت هشام وهو يصطاد أثار أباه وجعله يقول فى مرارة، إنه رباه للخلافة فطارد ثعلباً. ولكن الوليد الثانى لم يكن أفضل حالا. فبرغم وسامته وذكائه لم يكن يهتم إلا بالخيل والنساء والشعر والموسيقى، وملأ بلاطه بالشعراء والمغنين والراقصات. وكان يحتسى الخمر بكميات كبيرة؛ ويقال إنه مزق المصحف بالسهام عندما بلغ الآية التى تهدد بالدمار كل جبار عنيد: وبعد أربعة عشر شهراً من الدنس، تجاوز الحد فى النهاية عند ما عين أبناءه من محظية من إمائه ورثة له. فثار عليه ابن عمه يزيد الثالث ابن الوليد العظيم من أم فارسية من سلالة الامبراطور يزدجرد. وصرح علنا أنه سوف يحطم هذا الذى يعتبر أشد الأمويين فجوراً. وانحاز الدمشقيون كافة إلى يزيد

واقتحموا حصن الخليفة فى الصحراء ، وطافوا شوارع العاصمة وهم يحملون رأسه بعد أن حزوها وفصلوها عن جسده .

ثم نادى يزيد الثالث بنفسه خليفـــة ، وراح ينظم مالية الدولة ووسائل الدفاع . أما أنه كان فى إمكانه أن يوقف المصير الذى سوف يلحق ببنى أمية فأمر لم يوضع موضع الاختبار لأنه مات بطريقة غامضة بعد ستة أشهر قضاها فى الحكم . وخلفه أخوه إبراهيم ، ولكن قبل أن يمكن هذا الشاب التعس الأمر لنفسه استولى مروان وهو ابن أخ لعبدالملك ، على العرش . كان مروان الثانى فى الستين من العمر وأحد أبطال الحملات ضد الدولة البيزنطية فى أرمينية والأناضول . واعتقاداً بأنه لن ينقذ البيت الأموى سوى إجراءات قوية ، وتيقناً بأن هذا لن يصدر عن جيل الشباب المحب للهو ، ذهب مروان إلى دمشق وفر إبراهيم إلى المنفى .

لم يكد مروان يستولى على الخلافة حتى شبت الثورات فى كل جزء من الإمبراطورية بما فيها الشام نفسها حيث ثار أنصار يزيد الثالث احتجاجاً على المغتصب . وكان حتماً أن يضيف الخوارج فى العراق وفارس إسهامهم فى تلك الموجة من الثورات ، وقام فى العراق علوى يطالب بالخلافة وكان رد فعل مروان الذى كان جندياً أكثر منه رجل دولة ، أن أدخل كتائب عسكرية جديدة وأشد فعالية .

كان هذا ثالث تغيير أساسى فى تنظيم الجيوش العربية منذ بدء العصر الإسلامى . ففى أيام عثمان تكون جيش من نوع الميليشيا وفيه كان كل رجل يؤدى الخدمة العسكرية مرة كل أربع سنوات . وبرغم عدم توافر الأرقام الكافية فالمعروف أن جيش الكوفة الذى فتح فارس وأخضعها ، كان يضم أربعين ألفا بصفة دائمة . وبعد أن تولى معاوية الخلافة عدلوا عن النظم القبلية القديمة ونظام الميليشيا فى سبيل إنشاء جيش دائم محترف على نسق جيش

بيزنطه،من ناحية الملابس والسلاح — الدروع والسيوف والرماح والكباش. ومن ناحية تكويناته الكبيرة هناك خمس مجموعات تشكل القلب فى الوسط والجناحين وهما الميمنة والميسرة ، ومقدمة ومؤخرة . وإذ وجد مروان أن هذا التنظيم غير عملى فى معالجة أمر الثورات التى واجهته ، قسم الجيش إلى مجموعات من فيالق أصغر حجما وأخف حركة وكل منها مستقل بذاته ، وهى تعادل بوجه عام الفرق أو الأورط الحديثة . بهذه السرعة فى الحركة استطاع أن يباغت فرق الثوار ويهزمهم بدون صعوبة كبيرة . ولكن بعد أن عالج أمر الخوارج وأرغم المطالب العلوى بالخلافة على الفرار إلى المنفى ، أخطأ بأن أدار ظهره للامبراطورية الشرقية وانسحب إلى دمشق تاركا نصر بن سيار واليا على خراسان بقوات غير كافية تماماً .

ولما لم تكن لمروان خبرة بالولايات الشرقية المثيرة للقلاقل لهذا كان على جهل تام بالنار الكامنة فى فارس والعراق . هنا شىء أخطر بصورة غير متناهية من الثورات ذات الطابع المحلى التى سحقها خلال العامين الأولين من حكمه. فلم يقف العلويون الشيعيون عندحد التعاون مع الموالى وجميع الطبقات المقهورة بالإمبراطورية الشرقية ، بل كانت القبائل أيضاًتتحد وتربط مصيرها بالثوار. نُسيت الصراعات القديمة بين عرب الشمال وعرب الجنوب، بل وبرغم العداوات المتوارثة اتحدت القبائل من أجل الاطاحة بحكامهم الشاميين كان العباسيون الذين ينتسبون إلى العباس عم محمد والذى حقق النصر للنبى فى غزوة حنين ، تربطهم صلات رحم وثيقة بنسل علىّ . لم يشارك العباسيون ضلالات العلويين الشيعية لأنهم كانوا يفضلون حقهم هم فى الخلافة على حق آل علىّ ؛ ولكن شاركوهم كراهيتهم لبنى أمية . وإذ أخفوا أمرهم بمهارة ، على خلاف العلويين الذين كانوا يكشفون عن أهدافهم مما عرضهم لضحايا لاحصر لها

على أيدى الأمويين ، لهذا كان العباسيون أوفر عدداً من سلالة علىّ. وهكذا كانت اضافة وزن أعدادهم إلى قضية الثوار أداة فى خلق القوة التى لا تقاوم والتى سوف تزيل الشيء الثابت — وهو بنو أمية .

بدأت الحركة العباسية بعد خلافة هاشم بوقت ، على أيدى أحد سلالة العباس وهو ابراهيم بن محمد زعيم جماعة العباسيين فى ذلك الحين . وكان ابراهيم يدير عملياته من مخبأ ناءٍ قريب من البحر الميت مستخدما كمبعوثه الرئيسى إلى العلويين والخوارج وغيرهم من الثوار المحتملين فى الإمبراطورية الشرقية ، عبداً فارسياً سابقاً اسمه أبو مسلم . وأبو مسلم سروجى من أهل خراسان أسرته الجيوش الأموية وبيع فى سوق مكة إلى والد ابراهيم . وكان متآمرا بطبعه ويكن كراهية لاحد لها للحكم الشامى . وكان قادراً على اشعال الحماس فى قلوب الناس كما كان بالمثل مستعداً لأن يتبنى دعاوى أهل بيت علىّ حين يتحدث إلى أنصارهم الشيعيين ، وإلى أن يذكر العلويين عندما يتحدث إلى أهل السنة ؛ ولهذا كان داعية مؤثراً وإن يكن مخادعاً ، للثورة العباسية. ومن المسلم به أن مما سهل مهمته أن الكثيرين من المستوطنين العرب فى الشرق كانوا قد تزوجوا من الأسر الفارسية واتخذوا الفارسية لغة لهم وأحسوا أنهم بعيدون عن دمشق بعد أى فارسى أصلى عنها . ولكن يرجع إلى سرعة بديهة أبى مسلم وحديثه أكثر منه إلى أى شيء آخر ، أن سوت القبائل ما بينها من خلافات ، وذلك فى سبيل القضية الأعظم ، قضية القضاء الكلى على الأمويين .

ما أن حل مايو من عام ٧٤٧ حتى كان فى إمكان أبى مسلم أن يبلغ ابراهيم استعداده لتوجيه الضربة الأولى حين يعطيه مولاه الاشارة . رد ابراهيم بالإيجاب ، وفى الشهر التالى رفع أبو مسلم العلم الأسود الذى كان

فى الاصل لواء النبى ثم اتخذه العباسيون رمزاً لهم ، وزحف على العاصمة الخرسانية مرو . كان عملاء مروان قد اعترضوا هذه الرسائل المنطوية على الخيانة ، ولكن بخلاف القبض على ابراهيم الذى مات فيما بعد فى السجن ، لم يقم مروان بأى عمل يستبق به الثورة العباسية فى فارس . سقطت مرو وكتب نصر بن سيار إلى الخليفة من خراسان المحصورة يقول : « أأيقاظ أمية أم نيام ؟ » (١)

ما أن وصل هذا النحيب الى مروان حتى تدفق جيش أبى مسلم من رجال القبائل العربية والفلاحين الاعاجم فى خراسان ، وعبر حدود العراق . رفرفت أعلام العباسيين السود من قلاع نهاوند ومن قصر عامل الكوفة الأموى حيث تم فى اكتوبر ٧٤٩ مبايعة أبى عباس شقيق ابراهيم ، أول خليفة عباسى . تحرك مروان بعد فوات الأوان ، ولكن كل شىء كان الآن ضده . رحب العراق بالعباسيين بوصفهم محررين ، وعندما وصل جيش مروان فى يناير ٧٥٠ إلى نهر الزاب الذى كان فى فصل فيضانه هو وروافد دجله ، تحطم الشاميون وعمدوا إلى الفرار . فمنذ حكم يزيد الثالث القصير الأمد أنكر الناس الإيمان بالقدر الذى أبقى على شجاعة الجيوش الاسلامية منذ أيام محمد بحيث أنه لما واجهتهم جموع أبى مسلم الذين سبقتهم شهرتهم فى القتل الذى لا يعرف الرحمة ، لم يفكر جند بنى أمية إلا فى النجاة بأنفسهم . قطع ضباط مروان الجسور المقامة على النهر لمنعهم من الفرار ولكن بدون نجاح ، وكان مصير الذين لم

---

(١) كتب نصر :

أرى بين الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام ؟

يقتلوا فوق أرض المعركة الغرق فى التيار الجارف ، فى محاولاتهم المجنونة من أجل الفرار

كان الطريق إلى الشام مفتوحاً الآن . وتم الاستيلاء على دمشق بعد حصار قصير وراح العباسيون يطاردون مروان الذى كان قد هرب إلى مصر . وهناك غدر به بعض رجاله ثمنا لحياتهم، وأرسلت رأس آخر حاكم أموى فى الشام إلى أبى العباس مع شارات الخلافة .

بدأ العهد الجديد مهمة إزالة كل أثر للعهد البائد ، فتعقب من كان حيا من بنى أمية وقتلهم . ودعى جماعة منهم إلى وليمة أقامها لهم عبدالله بن على عم الخليفة وقتلوا وهم يتناولون الطعام . رجل واحد من أهل ذلك البيت الذى حكم الشام معظم السنوات المائة الأخيرة ، وهو عبدالرحمن حفيد الخليفة هشام، تمكن من الفرار وشق طريقه إلى أسبانيا حيث يبنى مجداً جديداً للأمويين ويخلق منافساً فى الفخامة والثقافة لبلاط هارون الرشيد الشهير . وحتى الموتى لم يتركوا فى سلام . فنبشت قبور الخلفاء للتمثيل بجثثهم وإحراقها ودنست ، فأحرقت جثة سليمان وعوملت جثة هشام بالمثل بعد أن ضربت بالسياط ثمانين جلدة . أجل ، بدا أن الخليفة الجديد الذى كنى نفسه السفاح فى أول خطبة له ، وعمه عبدالله يتنافسان فى القسوة والإنتقام . والآن ، ولأول مرة فى تاريخ الإسلام ، كان أثاث قاعة العرش يشتمل على حصير من الجلد يستخدم بساطاً للجلاد الذى يقف دائماً على استعداد بجانب عرش مولاه . وبينما كان عبد الله يخدع أمراء بنى أمية بدعوتهم إلى العشاء عنده ، كان أبو العباس يقول عن أعدائه المدحورين : لو أنهم شربوا من دمى ما رووا ظمأهم ، كذلك انتقامى لن يبزه انتقامهم .

مثل هذه القسوة الدموية التى أنزلها العباسيون بالأمويين لم تكن بالطبع مخالفة للمعتاد فى العصور الوسطى ، كما لم تكن أسوأ بأى حال من صنوف

الوحشية التى ترتكبها ما يُدعى الشعوب المتحضرة فى القرن العشرين . ومع ذلك ، لابد من تفسير لقائمة المذابح والمذابح المضادة التى يزخر بها تاريخ الإمبراطورية العربية ابتداء من عصر الحجاج بن يوسف فصاعداً . قد يقال عادة عن العربى فى تلك الأيام إنه قادر على التصرف بقسوة رهيبة إذا فار دمه ولكنه يميل إلى الرأفة إذا كان هادىء النفس . ولكن المسألة على ما رأينا ، ليست بمثل هذه البساطة . كانت الشريعة القرآنية تفرق تفرقة واضحة بين أن يقتل مؤمن كافراً أو أن يقتله كافر ، فذلك يضمن الجنة فى الآخرة ، وبين أن يقتل مسلماً أو أن يقتله مسلم ، وهذا كان موضع التحريم القاطع . ولكن الشريعة الجديدة لم تحل تماما فى الوقت نفسه محل القواعد القبلية القديمة ، وحيث كانت هناك . فقد جرت العادة بتقاضى الثأر بالدم . وبالمثل ، وحتى فى حالة القتال ضد الكفار فقد كان لا يزال من المعتاد الالتزام باحترام الحياة البشرية وهو الاحترام الذى كان من أقدم القواعد الراسخة فى الحرب القبلية . وهكذا ، فبرغم تعاليم القرآن فغالباً ما نجد العرب المسلمين يذبح بعضهم بعضا من قبيل الثأر على نحو مافعل العباسيون بالأمويين ، ولكنهم كانوا يمنون بالحياة على حامية بيزنطية أو فارسية عرضت تسليم مدينتها وفقا لشروط يتفق عليها . والحقيقة ، يبدو أن الضرورة العسكرية بدلا من القانون الدينى ، هى التى كانت تملى على الخليفة وقواده سلوكهم إزاء مواليهم سواء كانوا من الكفار أو الموالى أو العرب المسلمين .

كان للهدوء والتعاون بين المحكومين جزاءها . ولكن لما لم يكن لدى العرب قوات كثيرة لدعم جيوش الاحتلال لهذا واجهوا مشكلة مستمرة هى فرض الهدوء على أقاليمهم الشاسعة وإبقاء خطوط مواصلاتهم الطويلة مفتوحة ؛ وربما كان عمال الخليفة يحافظون على الأمن فى أقاليمهم عن طريق التهديد

بالانتقام الرهيب من أية مقاومة أو بتنفيذ هـذا الإنتقام . ومن المؤكد أن السرعة التى تداعى بها الحـكم الأموى فى فارس والعراق عندما كان مروان نائما على حد قول عامله على خراسان ، أظهرت كم كان من السهل على ثورة أحسن إعدادها ، أن تستغل نواحى الضعف والقصور هذه .

فى القرن العشرين حيث البرق والراديو يساعدان سرعة المواصلات فيه ، أصبحنا متعودين على انقلابات خاطفة فى العالم العربى يستولى فيها الثوار على محطة الإذاعة ويعلنون أن الثورة تمت حتى قبل أن تبدأ ، ويقفز الناس فوق عرباتها يهتفون للزعيم الجديد قبل أن يعرفوا اسمه تقريباً . ولـكن السرعة التى تخلص بها العباسيون من الأمويين منذ ألف ومائتى سنة خلت، وبدون أى من هذه العوامل العلمية المساعدة، سرعة مدهشة حقاً . فبرغم الحماس العسكرى الذى امتلأ به جيش أبى مسلم والاستجابة الحماسية من جانب جماهير فارس والعراق للثورة العباسية، فإن مثل هذا الإنجاز ما كان يمكن أن يكون فى حيز الإمكان لو لم يكن الأمويون قد حطموا أنفسهم إلى حد كبير قبل أن تنشر الأعلام السوداء. كان العفن قد حل عند ما ولى الخلافة ذلك النهم البدين سليمان بعد الوليد العظيم . منذ ذلك الوقت فصاعداً ، وباستثناء الفترة التى تولى فيها ذلك الرجل الورع عمر ، فإن المادية والجشع فتتا روح الخلافة واستنزفا قوتها . فالغنائم والمال إذ اندفعت من كل مكان تخلى الأمويون عن أساليب آبائهم الصحراوية الخشنة ونسوا التعاليم الروحية التى وضعها محمد وانغمسوا انغماساً كاملا فى الشهوات . كان تعاطى الخمر والميسر اللذين يحرمهما القرآن ، وسباق الخيل والصيد بالـكلاب السلوقية والفهود الهندية وكلاهما ينظر إليه المسلمون المتشددون بعين الاستياء ، والزنا وإن كانت عقوبته الموت — كل هذه كانت أموراً عادية فى الشام وفى الحجاز ، وأصبحت مكة والمدينة نوعا من لاس فيجاس ومونت كارلو ولـكن فى العصور الوسطى، وذلك عندما توجه

إليهما أولئك الذين جمعوا الثروات من الفتوح لينفقوا الثروة الجديدة بعيداً عن التآمر والاضطراب السياسى فى الشام والعراق . كثرت بيوت القمار التى تقدم ألعاب الزهر والنرد والشطرنج لروادها من الأغنياء الجدد . وكانت المواخير تشكل تجارة رائجة وتقدم الجوارى من كل دين ولون — من الروم والعجم والأتراك والأفريقيين والأسبان ، من أسرى حروب الفتح . وازدهر شعر الغزل كما كان فى ذروة العصر الجاهلى ؛ والمزهر الفارسى الذى استنكره النبى على أنه « مؤذن الشيطان » عاد ليصاحب المغنيات الروميات .

كان شرب الخمر فى اعتدال أمراً مألوفا عند العديد من الخلفاء قبل الوليد ؛ ولكن معظم الذين جاءوا من بعده أفرطوا فى الشراب، ويقال إن الوليد الثانى كان يستحم بانتظام فى حوض من الخمر . وحتى القواعد التى كانت تحكم سلوك النساء خفت وتراخت حوالى نهاية العصر الأموى . أصبح الحجاب وعزل النساء، عن الرجال أمراً غير مستحب فى المجتمع الراقى ، ووجدنا النسوة المحظوظات ممن أوتين الذكاء والجمال وسمو المركز ، يتصرفن بما يشبه كثيراً السيدات اللائى اشتهرن فى بلاط لويس الخامس عشر ملك فرنسا . ومن أمثلتهن السيدة سكينة بنت الحسين الذى مات شهيداً . لقد عاشت فى المدينة واستغلت جمالها وسحرها ونبل محتدها استغلالا ليس بالقليل . ولقد تزوجت ثمانى مرات واشترطت فى العقد مع أكثر من زوج أن تكون حرة فى حياتها . وكان صالونها منتدى أعاظم الشعراء والأدباء الذين كثيرا ما كانت تمارس معهم ميلها الشديد إلى الملح . وثمة مثال آخر هو سيدة من الطائف تسمى عائشة[1] وهى سمية زوجة محمد الأثيرة وبنت أخ لها . وكانت عائشة تنافس سكينة فى تحديها للعرف . وعندما طلب منها

(١) عائشة بنت طلحة . — المترجم .

زوجها[1] أن تستر وجهها أجابت فى غضب « إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم فما كنت لأستره ، والله مافى وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد[2] . وهناك سيدة أخرى مشهورة وقوية فى تلك الازمنة هى المغنية جميـــلة وكانت فى الاصل جارية توجت حياتها الرائعة بالحج إلى مكة وصحبها موكب فخم من المغنين والمغنيات والشعراء والعازفين والمعجبين ، وكلهم فى ملابس فاخرة ويمتطون الجياد المطهمة .

ولـكن لم تـكن حياة الترف والمجون التى عاشها الأمويون هى التى ذهبت بإرادتهم فى المقاومة وسهلت الأمور بالنسبة إلى العباسيين . فقد بدا أن كل شىء تقريبا عملوه بعد الوليد والحجاج قـــد ترك المسرح ليستغله أعداؤهم. فباستثناء عمر الثانى حاول كل خليفة بعده أن يحـكم عن طريق إثارة عرب الشمال ضد عرب الجنوب . وحتى الوليد لم يـكن بريئا من سياسة فرق تسد هذه ، وبالطبع لم يتقاعس بنو العباس فى أن يبينوا للقبائل كيف كانت تستخدم بغرض إدامة السلطان الشامى .

مرة أخرى كان بنو أمية قصار النظر للغاية فى الإبقاء على بنيان طبقى جامد جعل من المسلمين العرب طبقة أرستقراطية حاكمة وهبط بالموالى إلى مرتبة طبقة ثانية بصفة دائمة . إن المرارة التى تولدت على هذا النحو لم تقف عند حد أنها جعلت من موالى العراق وفارس مجندين جاهزين لأية حركة ثورية ، ولـكن هذا الـكبت الاجبارى لقوم كان سابق تعرضهم للحكم البيزنطى والفارسى قد جعلهم أكثر تحضراً من العرب الذين لم يـكونوا قد تهذبوا بعد ،

---

(١) مصعب ابن الزبير . — المترجم .

(٢) الأغانى ، ج ١ ، ص ٥٤ — المترجم .

هذا الكبت حفزهم على أن يبزوا حكامهم فى الإنجاز العقلى . ولم يكن هذا بالمهمة الصعبة جداً فى وقت كان مايزال فيه كل أمير أموى يرسل إلى الصحراء للتعلم بدلا من أن يبعث به إلى المدرسة ، وكانت الرجولة بالنسبة إلى معظم العرب تعلو على الانجاز العقلى . (أمر عبد الملك مؤدب أبنائه أن يعلمهم السباحة ويعودهم على النوم القليل) . هذا التفوق الذى حققه الموالى نتيجة لذلك جعل فى إمكان قادتهم ومنهم أبو مسلم أن يشنوا أذكى وأنجح دعاية سياسية منذ قيام الاسلام نفسه .

كذلك ساعد تفوق الموالى فى المصرين الجديدين بالعراق وهما الكوفة والبصرة على أن يصبحا المركزين الرئيسيين للنشاط العقلى فى الخلافة حيث كان من المتناقضات أن أول قاموس عربى وأول كتاب عن الأجرومية العربية كانا من تأليف علماء من البصريين والفرس. لقد أصر عبدالملك على أن تحل العربية محل الفارسية واليونانية كاللغة الرسمية فى العراق وفارس والشام ، ولكن بعد سنوات قلائل كان الأعاجم ممن يشكلون الطبقة الثانية ، يعلمون سادتهم العرب اللغة العربية . وكان حتما أن يولد هذا التفوق العقلى الازدراء ، وأن يولد بذوراً لثورة كلما أصبح الخلفاء أقل يقظة .

كان إتمام انهيار الخلافة الأموية لا يتطلب سوى غلطة واحدة أخرى . وهذه الغلطة ارتكبها يزيد الثالث عندما أعلن فى عام ٧٤٤ أنه من الآن فصاعداً ينبغى أن يخلى الاعتقاد فى القدر مكانه لمذهب عقلى جديد عن حرية الارادة . هذه المدرسة العقلية للفكر تدين بالكثير إلى تأثير مسيحى شامى يعرف اليوم باسم يوحنا الدمشقى ، كان جده يشغل منصب المدير المالى للروم فى دمشق فى وقت استيلاء العرب عليها . ونظراً لافتقار العرب إلى الموهبة الادارية فإن يوحنا ورث المنصب أخيراً عن طريق أبيه ؛ وقبل أن يدخل الدير أقنع يزيداً

باعتناق تفكيره العقلى وبأن يتخلى عن الاعتقاد القرآنى بأن عمر الإنسان مقدر من عند الله . وبرغم أن مذهب حرية الارادة كان المراد منه مقاومة الحول السائد إلا أنه فى الحقيقة ساعد على ازالة آخر آثار النظام الأموى الذى بدونه أصبحت الخلافة فريسة سهلة أمام الثورة التى لا تقاوم لجيوش أبى مسلم عندما تنقض من خراسان .

من الممكن فحسب أنه لو قدر لعمر الثانى المؤمن التقى بوحدة الاسلام والمتمسك بالتعاليم القرآنية، أن يشغل الخلافة فى هذه السنوات الثلاثين الأخيرة، لربما أبقى على نسيج العلاقات بين العرب والفرس ، ذلك النسيج الذى فرقه الحجاج وغيره . وبالمقابل ، لو كان الذين خلفوا الوليد فى يقظة الحجاج لربما أمكن حصر الثورة إلى أجل غير مسمى . ولكن بدون رجل كعمر يوحد الامبراطورية فى الأخوة ، أو كالحجاج يبقيها مقيدة بالسلاسل ، كان لابد أن ينفجر شىء . وعند ما انفجر وبدأت عربة العباسيين تزداد سرعة سيرها لم يكن هناك من شىء يمنع الملايين من أهل فارس والعراق من أن يركبوا فوقها ، أولئك الملايين الذين كانوا يحسون بالمهانة .

غالباً ما تكون للثورات طريقتها فى التهام الذين دبروها وبدأوها ، وهذا ما سرعان أن اكتشفه أبو مسلم ومثيرو المتاعب التعساء ، والخوارج والعلويون . وأول من عانى من هذا هم الخوارج الذين أدى بهم اعتقادهم بأن الخلافة يجب أن تتكون من مجلس منتخب وليس طاغية بالتعيين ، إلى الثورة على نظام الحكم الجديد بمثل ماسبق أن ثاروا ضد القديم . وقاد أبو مسلم الذى عين حديثاً والياً على خراسان جيشه ضدهم ، ويقال إنه قتل منهم خمسين ألفاً قبل أن تمكن من فرض الهدوء على الاقليم . ولكن أمثال هذه القصص

المرعبة عن مسلك أبى مسلم بدأت تتداول وتنتشر بحيث أنه حتى أبو العباس المتعطش للدماء، وجد من سداد الرأى أن يبعث بأخيه أبى جعفر للتحقيق. وأيد التحقيق الكثير من ضروب القسوة التى اتهم بها أبو مسلم، وكشف أيضاً أن السروجى الفارسى السابق بدأت تساوره بعض أطماع خطيرة. فهو إذ زعم انتسابه إلى آل النبى وجدوا أنه كثيراً ما كان يضع اسمه قبل اسم الخليفة فى المراسيم التى يصدرها الوالى، بل وتجاسر على أن يطلب يد عمة أبى العباس. وإذ انزعج أبو جعفر تماماً أوصى أخاه بعزل أبى مسلم وبالقضاء عليه إذا أمكن. ولكن برغم أن الخليفة كان ميالا إلى الموافقة على هذه النصيحة، إلا أنه كان خائفاً جداً من ردود الفعل التى يمكن أن تقع فى خراسان إذا عمل بالنصيحة.

عند هذه النقطة راح حظ أبى مسلم يخونه، إذ لم تمض أشهر قلائل حتى مات أبو العباس وبويع أبو جعفر بالخلافة واتخذ لنفسه اللقب الفخم وهو «المنصور». حاول أبو مسلم جاهداً أن يستعيد مكانته فى أعين سيده الجديد وعندما ادعى عبد الله عم أبى جعفر أنه الأحق الخلافة، أخرجه أبو مسلم من خراسان دفاعاً عن الوراثة الشرعية. كان من المحتوم أن ينتصر أبو مسلم ولكنه أخفق فى أن يؤجل انزال العقاب به. ففى طريق عودته إلى خراسان دعى إلى زيارة بلاط أبى جعفر فقبل الدعوة فى لهفة ظناً بأنها تبشر بمكافأة له على ما عمل. ولكنه كان مخدوعاً إذ عند وصوله شرع أبو جعفر فى تقريعه(١)

---

(١) ذكروا أن المنصور قال يعاتبه: أخبرنى عن كتابك الى أبى العباس تنهاه عن الموات، أردت أن تعلمنا الدين! ... قال فاخبرنى عن تقدمك اياى فى الطريق ... فقوالله حين أتاك الخبر بموت أبى العباس ان أشار عليك أن تنصرف الى: نقدم فنرى من رأينا؟ ومضيت فلا أنت أقمت حتى ألحقك ولا أنت رجعت الى.. فجاريه عبدالله بن على أردت أن تاخذها؟.. فمرا غمتك وخروجك الى خراسان؟ .. والمال الذى حمته بحران؟ (تاريخ الطبرى، ج ٧، ص ٤٩٠، — المترجم.

على ما اقترف من جرائم وما أبدى من دعاوى ، وكل منها عقوبتها الموت . ثم عند إشارة معلومة[١] انقض حرس الخليفة على السجين وقطعوه إرباً وألقوا بجثته المتناثرة فى نهر دجلة.

ثم جاء دور العلويين الذين كان أبو مسلم قد نجح بدعايته البليغة فى اقناعهم بأن العباسيين إنما يقاتلون من أجلهم . فلما انقضت عشر سنوات دون أن يعترف نظام الحكم الجديد بأى من الدعاوى العلوية نشبت الثورة فى العراق والحجاز احتجاجاً على ما رأى العلويون الآن أنه اغتصاب سياسى . وكان رد فعل أبى جعفر قاسياً لا يرحم ؛ فأخمدت الثورة وأعدم قادة العلويين جزاء خيانتهم .

كان المظنون أنه بالقضاء على الأمويين والخوارج ، وعلى أبى مسلم والعلويين فى وقت أحدث جداً بعد ذلك ، أن يقضى أبو جعفر سنوات حكمه الاحدى والعشرين دون خوف من منافس. ولكن يبدو أنه كان لا يزال لا يثق بأن العرب وهم ذوو قرباه ، يمكن أن يخدموه ونظامه . ومن ثم حرص هو وخلفاؤه المباشرون على إحلال المؤثرات الفارسية فى داخل الخلافة محل العربية . فنقل مقر الخلافة من الشام إلى العراق ، وأدخلت الثقافة والتعليم والعادات الاجتماعية الفارسية ، ولم يعد حرس الخليفة وجماعة الضباط فى الجيش يجندون من مصادر عربية ولكن من خراسان ثم من قبائل التركمان الواقعين إلى الشرق ، وهو مركز ممتاز استغله الاخيرون فى النهاية على غرار مافعل الحرس البريتورى فى روما القديمة ليجعلوا من الخلفاء العباسيين تبعاً لهم .

---

(١) قال لهم جعفر : إذا ضربت بيدى احداهما على الأخرى ، فاضربوا عدو الله . (المصدر السابق) — المترجم .

هذه التغييرات الثورية كان لها تأثير مرير على قطاعات معينة من السكان العرب الذين أصبحوا الآن ومن حيث الواقع وإن لم يكونوا من الناحية القانونية، مواطنين من الدرجة الثانية فى إمبراطوريتهم. لكن لم تكن هناك مقاومة وقبل العرب الوضع الجديد لأنه أعطاهم مجتمعا اسلامياً برغم أنغامه الأجنبية، أو انسحبوا إلى خيامهم منقسمين ومهزومين، مفضلين تسجيل مظلمة على التمسك بحق، وهذا الذى فعلوه لم يكن الأول فى تاريخهم ولن يكون الأخير.

غير أن هذا كان يمثل بالنسبة إلى الموالى فى فارس والعراق فجر عصر جديد ومجيد. فقد كسب المدافعون عنهم، أى العباسيون، نصراً رائعا ومكانا تحت الشمس للقسم الشرقى من الإمبراطورية الذى كان موضع الكبت؛ وبمجرد أن انتهى حمام الدم المبدئى راح النظام الجديد يعمل على اثراء تراثه بالبهاء الفارسى الحقيقى. وكان أبو جعفر الرجل الصحيح بمعنى الكلمة ليتولى القيادة فى هذه المهمة. فبحكم اختلافه كلية عن أخيه وسلفه أبى العباس كان امبراطوراً ولم يكن طاغية. وكان من أول أفعاله أن بدأ العمل فى انشاء حاضرة جديدة. كان أهل الكوفة متقلبين بأكثر مما يجب ومثقلين بالمشاعر العلوية والشيعية بحيث لايوفرون مقراً مناسبا للحكم؛ وكان أهل البصرة قد قدموا مساعدة فعالة للثورة العلوية الأخيرة[1]. وفى عام ٧٦٢ اختار أبو جعفر موضعاً على دجلة يدعى بغداد، بعيداً عن مواقع الشيعة ويلى العاصمة الفارسية القديمة طيسفون التى استخدمت خرائبها كمحجر يزود مواد البناء للعاصمة. وأخذت أبواب دمشق الكوفة وواسط وهى معقل الحجاج

(١) فى تفسير بناء بغداد يقول الطبرى (ج ٧، ص ٦١٤): لما ثارت الراوندية بابى جعفر فى مدينته التى تسمى الهاشمية كره سكناها لاضطراب من اضطرب أمره عليه من الراوندية، مع قرب جواره من الكوفة، ولم يأمن أهلها على نفسه فاراد أن يبعد عن جوارهم — المترجم.

العسكرى ، وتم تركيبها فى المدينة الجديدة . ومن طيسفون نقل كل شىء ستثناء القوس العملاق بقصر الإمبراطور الفارسى وهو القوس الذى تحدى جميع الجهود التى بذلت لهدمه .

وباستخدام ١٠٠٫٠٠٠ من أرباب الحرف جىء بهم من جميع أنحاء الإمبراطورية تم بناء عاصمة أبى جعفر الجديدة فى أربع سنوات . وبرغم أنه دعاها فى الاصل « مدينة السلام » ودعا قصره داخلها « قصر الخلد » ، فإن مظاهر عدة من البناء تنم عن قلق مستمر على أمن نظام حكمه . فقد بنيت على الشاطىء الغربى لدجلة كحصن دائرى بأسوار مزدوجة من الطوب وخندق يحيط بسور ثالث ارتفاعه ثلاثون ذراعاً ، بينما وفرت معسكرات حربية كبيرة على الشاطىء الشرقى حماية إضافية . لم يغفــل أبو جعفر أبداً عن إمكانية هجوم يشن من خراسان إنتقاماً لمقتل أبى مسلم ، ولما كان يذكر مصير الأمويين النيام ، كان كثيراً ما يحذر ابنه ألا ينام لأن أباه لم ينم أبداً منذ ولى الخلافة .

وبفضل جميع هذه الإحتياطات أصبحت « مدينة السلام » فى سنوات قليلة مركزاً للتجارة وعاصمة سياسية لها مكانة دولية . ويقول فيليب حتى « كما لو كانت ظهرت إلى الوجود بفعل عصا ساحر ، فإن مدينة المنصور هذه ورثت قوة ومكانة طيسفون وبابل ونينوى وأور وغيرها من عواصم المشرق القديم [و] بلغت درجة من الشهرة والروعة ربما لم يكن ينافسها فى العصور الوسطى سوى القسطنطينية ... وفتح الموقع الجديد الطريق أمام أفكار من الشرق ... رضخ الإسلام العربى للتأثير الفارسى ، وأصبحت الخلافة بعثاً للاستبداد الإيرانى أكثر منها مشيخة عربية . وبالتدريج ، إنتصرت الألقاب الفارسية ، والأنبذة والزيجات الفارسية ، والمحظيات الفارسيات ، والأغانى الفارسية ، فضلا عن الآراء والأفكار الفارسية ... ومهدت الطريق إلى عصر جديد يتميز بالاهتمام بالعلم والأعمال العلمية » .

هذا التعميم لم يكن فى أى موضع أشـــد وضوحاً منه فى التغييرات الدستورية التى أدخلها بنو العباس . فمبدأ تفويض السلطة الذى كان معاوية أول من أخذ به ، سار خطوة أبعد عندما أدخل لأول مرة فى تاريخ الإسلام ، منصب الوزير الفارسى كنوع من رئيس للوزراء ذى مسئوليات واسعة المدى . وبهذا التفويض للسلطة الزمنية فى الخلافة ، وبرغم أن الناحيتين الدينية والسياسية ظلت تتولاهما من الناحية النظرية ، سلطة عليا واحدة ، فإن الخليفة غالباً ما كان لا يزيد على كونه الرئيس الروحى الأعلى للإسلام بينما يتولى رئيس الحكومة شئون الدولة . لم يكن الوزير يتولى بيت المال فحسب ولكن كان له أيضاً سلطة تنصيب وعزل عمال الأقاليم والقضاة ، بل ومصادرة أموال موظفين حكوميين لم يعودوا موضع الرضاء[١] » . وكان مجلس الدولة الذى يتطابق تقريباً مع مجلس الوزراء الحديث ويتكون من جميع رؤساء الدواوين يرأسه الوزير وليس الخليفة . وكان ديوان الخراج يخضع لإشرافه المباشر . وعندما نذكر أن الإيرادات الضريبية السنوية التى تؤول إلى الدولة من الأقاليم كانت تصل إلى أكثر من ٤٠ مليون دولار ،أمكن أن ندرك كيف أن ذلك الرجل الذى فى يده خزائن المال وإن يكن من الناحية النظارية ممثلا للخليفة ، قد أصبح أشد قوة كلما أصبح الخلفاء أشد ضعفاً وقل اهتمامهم بأمور الحكم . خمسة فقط ممن خلفوا أبا جعفر كانوا ســـادة فى بيتهم ، ثم ومع استثناءات قليلة ، أثبت كل خليفة جاء بعد ذلك أنه أضعف من سلفه . وهكذا إذ حاول أبو جعفر خلق نظام للحكم أكثر كفاءة عن طريق تفويض السلطة خلق دون أن يدرى ، الجهاز الذى سوف تستخدمه المؤثرات الأجنبية — الفارسية أولا ثم التركية بعدئذ — لاغتصاب سلطة الخليفة وإقامة دكتاتورية عسكرية فيها حاكم هو ألعوبة بحتة .

(١) استوزر الرشيد يحيى بن خالد وقال له . « قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنق اليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت . وامض الامور على ماترى » . — المترجم .

كان أول من ولى منصب الوزير ، خالد بن برمك وكان أبوه يشغل وظيفة سادن بيت النار فى بلخ فى شرقى خراسان . ولقد ورثه أبو جعفر عن أخيه أبى العباس الذى كان معه على علاقات وثيقة بحيث كانت زوجاتهما ترضع كل منهما أطفال الأخرى . وكما كان الحال مع العباس كذلك مع أبى جعفر إذ أصبح البرمكى الذى تحول إلى الإسلام ، صديقاً وناصحاً لا يمكن الاستغناء عنه . والحقيقة ، أن تأثير خالد برمك هو الذى شجع على دراسة وتطوير الفنون والعلوم اليونانية والفارسية مما سيجعل من بغداد فى النهاية واحداً من أعظم مراكز الثقافة فى العصور الوسطى . وبالمثل أضاف إلى العاصمة الجديدة طابعاً من الأبهة والترف الفارسيين .

لم يكن أبو جعفر بطبيعته مثقفاً ولا ألعوبة . كان زاهداً متقشفاً حافظ على صلابة ونحافة جسمه بالعمل ساعات طويلة فى إدارة حكومته التى كانت الشيء الذى يستأثر بكل حماسه . فبينما كان رعاياه يتمتعون بالمهرجانات المائية والاستعراضات الشيقة ، وبالراقصات والشعر والموسيقى ، كان هذا الشخص الشبيه بالصقر ، يمعن النظر فى حساباته ، لا يختلط بحريمه إلا نادراً ، ولم يتناول قطرة من الخمر . ولما كان مؤمناً متعصباً بتوازن الميزانية ، فإنه جعل الشعب يدفع ثمن هذه المتع ففرض الضرائب على الأغنياء والفقراء على السواء . ومن هنا كان يكنى « أبا الدوانيق »[(١)] .

ولكن أباجعفر لم يكن مجرد مراجع حسابات، فقد كان أيضاً دبلوماسياً ورجل دولة ممتازاً ، أعظم ما وهبه للخلافة سلام دام أكثر ثلاثين عاماً . فبحماسه الذى لا يكل لفن تصريف شئون الدولة استطاع أن يقمع كل تهديد نشيط لسلامة المملكة بل وأن يوسع حدود الإمبراطورية فى الشرق بضم

---

(١) الدانق أقل من سدس الدرهم . وكان يكنى أيضا المنصور الدوانيقى . المترجم .

طبرستان وهى إقليم جبلى جنوبى بحر الخزر ، وضم قندهار على حدود الهند . وبفضل يقظته ونشاطه تمكنت الخلافة العباسية من النمو من الآن حتى ارتفاع حفيده هارون الرشيد إلى ذرى أسطورية من المجد والعظمة لم يصبها سرطان الحرب الأهلية . قد يكون اسم هارون الرشيد عنوان ألمع فصل فى كتاب التاريخ العباسى ، ولكن أبا جعفر هو الذى كتب المقدمة .

والأكثر من هذا أنه كان من الحكمة بحيث يعرف حدود إمكانياته . ونظراً لأن أبا العباس لم يعمل شيئاً لفرض الحكم العباسى فى أسبانيا عندما ترك القضاء على الأمويين فراغاً مؤقتاً فى الإمبراطورية العربية ، فإن أبا جعفر واجهه فور اعتلائه الخلافة استيلاء عبد الرحمن على إمارة أسبانيا ، وكان عبد الرحمن حفيداً لهشام والأموى الوحيد المعروف أنه نجـــا من المذبحة العباسية . وجه الخليفة ضربة واحدة إلى هذا الأمير القوى ، فلما أخفقت أوقفت المطاردة وتقبل انفصال الولاية الأسبانية .

هذا الحاكم البارع المخلص لم يكن بالذى يبدد طاقات الإمبراطورية فى مغامرات عديمة الجدوى . بالعكس كان أبو جعفر يعرف أين تكمن مصادر قوته ، وكان ماهراً فى المحافظة عليها . كان أول حاكم عباسى ويكاد أن كان الأخير ، أدرك أن من يسيطر على خراسان يسيطر على الخلافة . فهذه الولاية الجبلية الوعرة لم تكن فقط مهد الثورة التى أجلست بيته على العرش ولكن اسم رجال القبائل الخراسانية كان له فعــل السحر فى جميع أرجاء الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية حيث اكتسبوا شهرة بالشجاعة والنظام فى المعارك لا نظير لها . وقبل أن يموت أوصى ابنــه أن يعمل على الاستفادة من أهل خراسان . ليت جميع خلفائه المباشرين من بنى العباس قد عملوا بنصيحته ! عندئذ كان يمكن أن يحكموا بدلا من أن يملكوا فحسب طيلة السنوات الأربعمائة التى عاشها بيتهم بعد عصره الذهبى .

إن الساعات الطويلة التى كان أبو جعفر يقضيها فى العمل لم تدع له إلا القليل من الوقت يتفرغ فيه لاسرته ، ولـكنه كان أبعد ما يـكون عن الافتقار إلى الاهتمام بمستقبلهم . كان كمعاوية شديد الرغبة فى تأسيس أسرة مالـكة ، واستخدم أقسى الأساليب لمنح الخلافة إلى ابنه محمد . كان أبو العباس قد جعل الأمر بعد موت أبى جعفر ، لعيسى بن موسى وهو ابن أخ له . حاول أبو جعفر فى أول الامر أن يتخلص من عيسى بدس السم له ، فلما أخفق جاء بشهود يحلفون أنه لم يـكن هناك عقد بين أبى العباس وابن خيه . ولـكن عيسى لم يـكن ليقبل الأمر وجاء بشهود أكثر ليشهدوابه بالعـكس . فلما تملك الخليفة اليأس أمر بإحضار ابن عيسى حيث قيدوه بالأغلال فى حضرة أبيه وحملوه على الركوع فوق حصيرة الجلاد . وبينما كان السياف واقفاً عند رأس ضحيته أعطى أبو جعفر لهذا المطالب الالحوح بالخلافة آخر فرصة لسحب دعواه وإنقاذ ابنه . ونجحت خدعة التهديد الوحشى (١) ، وانصرف عيسى وابنه إلى ضيعـــة بالقرب من الـكوفة مع مال كثير من بيت المال (٢) . ولما مات أبو جعفر فى عام ٧٧٥ فى أثناء الحج إلى مكة ، خلفه محمد . لقد أسس أسرة وفقاً لما كان يطمع فيه . وسواء للخير أو الشر ، قدر لخمسة وثلاثين خليفة أن يحـكموا بعده فى الإمبراطورية العباسية لما يقرب من خمسمائة سنة إلى أن خربت بغداد على أيدى جحافل هولاكو خان الرهة ، وكان كل واحد منهم من سلالة أبى جعفر المنصور مباشرة .

(١) هذه الرواية لم ترد فى الطبرى أو الفخرى . وتضاربت الروايات فى السبب ، فقيل انه سقاه بعض مايباعه فمرض مرة ثم أفاق (أنظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٢ ، ص ٣٠) — المترجم .

(٢) ذكر أنه قال : بعث نصيبى من تقدمة ولاية العهد من عبد الله أمير المؤمنين لابنه المهدى بعشرة آلاف ألف درهم وثلاثمائة الف بين ولدى فلان وفلان وفلان — سماهم — وسبعمائة ألف لعلامة أمرأة من نسائه — سماها . وقيل ، وكسا الخليفة عيسى وأبنه وغيره من ولده كسوة بقيمة ألف ألف درهم ونيف ومائة ألف درهم (تاريخ الطبرى ، ج ٨ ص ٢٥) .

(٩)

البعث الأموى فى أسبانيا

بينما كان أبو جعفر يشرف بمثل هذه الدقة البارعة على دعم الخلافة العباسية فى الشرق ، كان يجرى تحول رائع فى أسبانيا فى ظل عبد الرحمن أول أمير على قرطبة فى السنوات الأخيرة من حكم الأمويين الشاميين تعرضت الجيوش الإسلامية فى الغرب لانتكاسات خطيرة . فبعد أن تخطوا حدود قوتهم فى فرنسا طوردوا خارجها نحو أسبانيا حيث لم تكن سيطرتهم تتعدى النصف الجنوبى من شبه الجزيرة . وتمزقت حيوياتهم بفعل الشقاق الداخلى . كان الخلاف القديم بين عرب الشمال وعرب الجنوب قد أنتقل إلى أسبانيا . وفى محاولة لمعالجة الإنقسام اتفق على أن تتناوب الولاية بين أهل الشام وأهل اليمن على فترات سنوية . ولكن هذا الترتيب إنما أدى إلى اضطراب مزمن ،وعندما تعاقب ثلاثة وعشرون واليا فى عدد كثير من السنين نجد شاميا من نسل عقبة ابن نافع إسمه يوسف الفهرى يرفض التنازل عن الولاية عند إنتهاء سنته وتجدد النضال بين الفريقين .

وبالإضافة إلى الصراع الداخلى كانت هناك متاعب مع البربر . فإذ كان البربر جموحين وقلقين كما كان شأنهم دائما فى تحالفهم مع العرب والذى كانوا يعاملون فيه كمواطنين من الدرجة الثانية ، لهذا ثاروا الآن إذ حُصروا فى المناطق القاحلة الجرداء داخل أسبانيا بينما اختص العرب بالمقاطعات النضرة والتربة الحمراء الغنية بالأندلس بأنهارها الدائمة الجريان لرى المحاصيل وبما يحيط بها من تلال مغطاة بالغابات لوقاية التربة من التفتت . ومما زاد من عناصر قلق

الأقلية الحاكمة من العرب والتى كانت ماتزال صغيرة ، منح برير مراكش تأييداً قوياً لإخوانهم فى أسبانيا .

ولم ينقذ المستوطنين العرب من الفناء إلا التدخل الكبير من جانب جيش من سبعة وعشرين ألف رجل أرسلوا على عجل من الشام ليسحقوا ثورة البربر. وبقى هؤلاء الشوام كمستوطنين عسكريين وينتشرون بين أشبيلية وجايين والجزائر والفيرا . ولكن برغم وجودهم كانت تسمع أصوات التذمر المثيرة للفتنة بعد أن ارتفعت رايات العباسيين السود فوق أنقاض الخلافة الأموية . عندئذ وبينما يوسف الفهرى منهمك فى إخماد ثورة أخرى فى شمال الأقاليم التابعة له جاءت الأخبار محدثة أن أميراً أموياً شاباً هو عبدالرحمن بن معاوية قد نزل بالقرب من غرناطة بغية الاستيلاء على الإمارة .

إن قصة رحلة عبد الرحمن من دمشق إلى أسبانيا تعد فى حد ذاتها من أروع ماروى من قصص الهروب. فإذ كان فى العشرين من عمره عندما قضى العباسيون على أسرته ، احتمى مع أخيه الأصغر منه سناً فى معسكر بدوى على نهر الفرات ولكن العباسيين اكتشفوا مخبأه وفاجأوا المعسكر . قفز الصبيان فى النهر ولكن الأصغر ولم يكن يتقن السباحة ، عاد إلى البر لما أمّنه مطاردوه على حياته ولكنهم قتلوه غيلة وهو يجر نفسه من الماء . أما عبد الرحمن فواصل السباحة ونجح بشق الأنفس فى الهرب ، ثم بدأ رحلته المحفوفة بالأخطار عبر فلسطين وعلى طول ساحل أفريقية الشمالى حيث نجا بصعوبة من القتل على أيدى عامل القيروان وكان من أقارب يوسف الفهرى .

راح عبد الرحمن يدلف من قبيلة إلى أخرى مع مولاه المخلص بدر الذى كان قد انضم إليه فى فلسطين . كان منظره يدعو إلى الشفقة حيث الكل يقفون

ضده ، ويستجدى الطعام والمأوى فى كل مرحلة من مراحل رحلته المليئة بالآلام. وأخيراً ، وبعد تجوال خمس سنوات ، بلغ سبتة فى سنة ٧٥٥ فآواه بعض البربر من أقارب أمه(١) .

وعلى الفور ، فهذا الشاب الطويل القامة والنحيل ، وذو الشعر الأحمر والعيون الزرقاء الواسعة والابتسامة الجذابة ، يبدأ فى تخطيط حملته لكسب أسبانيا للقضية الأموية . فبعث ببدر ليتفاوض سراً مع المستوطنين — الجنود الشاميين فى الفيرا وجايين ، ورجع الأخير إلى سيده ليخبره أنه أياً كانت المشكلات التى تقسم عرب أسبانيا فإنهم جميعاً متحدون فى الرغبة فى الخلاص من يوسف وأنهم سوف يسيرون فى سرور تحت لواء عبدالرحمن . لم يكن بدر مبالغاً فيما نقل من أنباء ، وما أن نزل عبد الرحمن إلى البر الأسبانى حتى جعلوا يوسف يدرك قوة هذا المدعى الشاب المحبوب . حاول يوسف فى أول الأمر أن يشتريه بالرشا والوعود بما فيها وعد بتزويجه من ابنته . ولكن عبد الرحمن رفض عروضه وزحف ليقابل بالترحيب كمحرر ، فى أشبيلية وأرشيدونا وسيدونا . كان على يوسف الآن إما أن يقاتل أو يهرب ، فقرر أن يقاتل وخرج من عاصمته فى قرطبة وتقابل مع جيش عبدالرحمن على شواطىء نهر الوادى الكبير فى صباح ١٤ مايو ٧٥٦ . كان معظم أفراد الجيشين المتحاربين يمتطون الجياد ، ولكن عبدالرحمن وقد أحس أن بعض أتباعه يخشون أنه قد يتخلى عنهم فى هذه المعركة الحاسمة الأولى التى يشتبك فيها كقائد لهم ، تحول فامتطى بغلة هزيلة ليكون الهروب عليها مستحيلا . هذه الحركة أعطت جيشه ما كان يحتاج إليه من إحساس بالنصر . ففر يوسف من الميدان ودخل عبدالرحمن قرطبة منتصراً .

---

(١) كانت من البربر وادعى راخ من بنى نفزة وهم من بربر طرابلس . — المترجم .

هنا أظهر الأمير الشاب أنه سياسى وذو روح إنسانيـة إلى جانب كونه جنديا ، بأن أصدر عفواً عاماً ، وحرم أعمال النهب والسلب ، ووضع فى حمايته حريم يوسف اللائى سيطر عليهن الرعب . ولـكن السيطرة على قرطبة لم تجعل منه حاكما بلا منازع على أسبانيا الإسلامية كلها . فمن جهة ظل يوسف يسبب له المتاعب من طليطلة نحو ثمانى سنوات إلى أن قتل فى النهاية وتم الاستيلاء عليها سنة ٧٦٤ .

ومن جهة أخرى ، فبرغم التزام البربر موقف السلبية فى مبدأ الأمر ، سرعان ما عادوا إلى مظالمهم القديمة بشأن توزيع الأرض وقاوموا الحكم العربى لفترة عشر سنوات أخرى . ثم كانت المحاولة الوحيدة التى أقدم عليها أبو جعفر لانتزاع أسبانيا للعباسيين ، تلك المحاولة التى انتهت بمقتل مبعوثه التعس الذى أرسلت رأسه إلى بغداد محفوظة فى الملح والكافور وملفوفة فى راية سوداء . وأخيراً ، فى سنة ٧٧٧ تحالف شرلمان إمبراطور الفرنجة مع زوج إحدى بنات يوسف ومع بعض الرؤساء العرب المنشقين فى منطقة برشلونه ، وتقدم لمهاجمة عبدالرحمن فى قرطبة . لم يتجاوز شرلمان سرقسطه حيث وجد نفسه موضع الهجوم من جميع الجهات عندما أغلقت المدينة أبوابها واستعدت لمقاومته . كان عبدالرحمن قد قدم من الجنوب ، وراح جناحا جيش شرلمان يتعرضان المضايقة من جانب جيش من ثوار الباسك الذين قاست أسراتهم الأمرّين فى ظل حكم الفرنجة والقوط . انسحبت قوات الفرنجة شمالا عبر جبال البرانس حيث خلفوا وراءهم فى ممرات وأخاديد هذا البلد الجبلى المغاور ، ألوفاً من القتلى بما فيهم زعيمهم المشهور رولان الذى خلد الأدب الفرنسى موته البطولى وهـــو يحارب عند باب شزروا ، وذلك فى الملحمة المعروفة باسم « أغنية رولان » .

بهذا النصر استطاع الأمير الأموى أخيراً أن يحول طاقاته من القتال إلى إصلاح حكومة أسبانيا الإسلامية وإلى توحيد الشيع المتحاربة من العرب والبربر دون أن يخشى هجوماً من داخل إمارته أو من خارجها . لقد تحدى أعظم قوتين على ظهر الأرض « وأثبت » على مايلاحظ فيليب حتى « أنه ندّ لأقوى سلطان فى الغرب كما أثبت أنه ندّ لأعظم حاكم فى الشرق » . وهو إذ برهن على أنه كذلك ، فإنه جلب السلام والنظام والاستقلال إلى أسبانيا . فهو لم ينجح فقط فى تهدئة البربر من أهل شمال أفريقية وأسبانيا ، ولكنه وضع نظاماً للأرزاق السخية والامتيازات خلق من هؤلاء الذين كانوا من قبل متمردين ، جيشاً عاملا حسن التدريب والنظام ، من أربعين ألف رجل .

إلا أنه برغم كل هذه الإنجازات التى حققها لم يعمل أبداً على أن يتخذ لقب « الخليفة » . وبدلا من ذلك كان معروفاً على امتداد عهده باسم أمير أسبانيا ؛ وخلال مايقرب من قرن ونصف قرن بعد وفاته أطلق خلفاؤه على أنفسهم اللقب الأدنى منزلة . لم يصل إلينا أى تفسير لهذا التصرف الغريب من إنكار الذات . ولكن أياً كان السبب فكان عبد الرحمن فى التاريخ لايرجع إلى لقبه ولكن يرجع إلى تلك التركة من الجمال والصنعة التى خلفها بعده فى أسبانيا ، مما لم ينافس فقط المباهج الفارسية التى تميزت بها الخلافة العباسية ولكن قدر له أن يبقى مثالا عن الفن العربى والعمارة العربية طيلة مئات من السنين بعد القضاء على أمجاد بغداد ونسيانها ، وطيلة قرون عدة قبل أن بدأت أوربا تبتدع تراثاً ثقافياً خاصاً بها .

أما وأسبانيا فى سلام وأمان من الغزو ، عمل عبدالرحمن على تطوير مواردها بما أثر عن الوليد من نشاط ونظرة إلى الجمال . فبنيت القنوات فوق القناطر

لتزويد مدن الإمارة بالماء النقي ، واتسع نطاق المناطق المروية ، وأدخلت نباتات وفواكه من الشام مثل الخوخ والرمان . وفي عام ٧٨٦ وقبل وفاته بعامين أسس الجامع الكبير في قرطبة كمنافس لبيت المقدس ومكة . ومنذ القرن السادس عشر كان هذا الجامع يضم في داخله كاتدرائية كاثوليكية . إلا أنه برغم هذا ، وبرغم أن كل أثر للشعائر الدينية الإسلامية قد محى في أسبانيا لما يقرب من أربعمائة سنة ، إلى أنه لايزال يشار إليه على لوحات الإعلانات بالمدينة وفي كتب الدليل الرسمية بأنه « المسجد » .

بل أن أعظم الزوار المسيحيين حماساً لايزال يحس هناك الجو الغالب الذى أوجده الإسلام . ذلك أنه بينما ممارسة العبادة الدينية مقصورة اليوم على الكاندرائية الكاثوليكية ، فالمسجد يعيش ويتنفس كمعبد من معابد الإسلام ويكاد المرء يتوقع أن يطل الخليفة بمظهر العظمة والروعة من الباب الكبير المؤدى من الحديقة ذات الرائحة الزكية والواقعة في الخارج ، إلى السياج المحيط بالمحراب الذى هو القبلة التي تشير إلى مكة . ويقال إنه لما شاهد شارل الخامس ملك أسبانيا الكنيسة التامة الصنع داخل المسجد صرخ في ألم في وجه الذين بنوها : « لقد حطمتم شيئاً لا وجود له في أى مكان لتخلقوا شيئاً يمكن أن يوجد في كل مكان » . لكن في الحقيقة فإن الكنيسة ضائعة وسط غابة المسجد المتحجرة والمكونة من أعمدة نخمة بسيطة نحتت من كل لون من ألوان اليشب والجرانيت والرخام الأخضر والبنفسجي والقرنفلي والذهبي — وتعلوها أقواس رشيقة وقباب على هيئة خلايا النحل من الحجر ذى اللون البرتقالي والأبيض . وحتى المباهج المذهبة التي يتميز بها مذبح الكاتدرائية ، تغشى عليها النقوش المشبكة الفخمة التي تحيط بالمحراب ذى الشكل المثمن الجوانب والزوايا كأنه أرق نسيج مطرز من الدنتلا .

بل وحاول عبدالرحمن ماهو أكثر من تجميل المدن وبناء المساجد . فإذ كان رجلا عادلا إلى درجة رفيعة ، وكان على غرار عظماء البيت الأموى عنيفاً فى إيمانه بالتقليد العربى عن الديموقراطية العربية ، صمم على أن يعطى أهل إمارته قانوناً جديداً للعدالة . قبل الفتح العربى كان للأشراف ورجال الدين من القوط الغربيين كل السلطة وكافة الامتيازات ، وكان الفلاحون يعيشون حسب أهواء حكامهم . هذه المظالم ألغاها عبد الرحمن وأعطى الفلاحين الأسبان قانوناً للحقوق وفر لهم حماية ، مما لم يعرفوه من قبل أبداً . لا غرو أن اضطر المؤرخون المسيحيون مثل راينهارت دوزى إلى الإعتراف بأن « الفتح العربى كان حتى ذا نفع لأسبانيا » .

وحاول أيضاً أن يخلق مجتمعاً سياسياً واحداً من تلك المجموعات المتنافرة من الأجناس والعقائد ممن كان يحكمهم — العرب والبربر والقوط ومزيج أوربى — أفريقى عرف باسم العرب الأسبان . ولكنه أخفق هنا . لو أنه فرض الإسلام على جميع رعاياه وحرّم جميع الأديان الأخرى على نحو مافعل الفاتحون المسيحيون بعد ذلك بخمسة قرون ، لربما خلق قالباً قومياً . ولكنه فى قرارة نفسه كان رجلا متسامحاً ، وتمشياً مع التقليد الذى رسمه معاوية ، فضل أن يسمح للمسيحيين واليهود بممارسة ديانتهم دون مضايقة طالما لا يطعنون فى الإسلام ويدفعون ضرائبهم بانتظام حسب مواردهم المالية .

من سوء حظ أسبانيا والعرب أن العمر لم يمتد بعبد الرحمن بعد الثامنة والخمسين ليواصل المنافع الليبرالية التى تميز بها حكمه . فالذين أعقبوه خلال السنوات المائة التالية كانوا بالنسبة إليه جماعة ضعيفة لا همّ لهم سوى الصيد والحريم . وإذ أخذت جهود عبدالرحمن تؤتى ثمارها وبدأ الاقتصاد الأسبانى

فى الازدهار والتوسع ، زاد خلفاؤه ثراء وخمولا . فجىء بالأساليب والعادات الفارسية من بلاط هارون الرشيد ، وحل نفس النوع من الشغف القاتل بالترف ذلك الشغف الذى سبق أن ساعد على القضاء على البيت الأموى الأصلى فى الشام . ومرة أخرى عاد البربر إلى جموحهم وحاولوا الاستيلاء على الإمارة ؛ واستغل مسيحيون معينون الضعف العام للحكومة فبدأوا يطعنون فى الإسلام. ولم تعمل أساليب الثأر القاسية إلا على أن تجعل الثوار شهداء مما شجع غيرهم على أن يحذوا حذوهم . ولما انتشرت روح الثورة بدأت الأقاليم تنفصل عن قرطبة وتعلن استقلالها .

كان العرب فى أسبانيا مخلصين لتقاليدهم . فتحت قيادة عبدالرحمن ارتفعوا إلى قمة الشهرة والقوة . وتحت قيادة أبنائه أخذوا ينحدرون بسرعة نحو الهاوية .

(١٠)

ألف ليلة وليلة

فيما يزيد قليلا عن عشر سنوات بعـــد موت أبى جعفر قفزت الخلافة العباسية من الربيع المغطى بالخضرة إلى الصيف الذهبى . كان هارون الرشيد حفيد أبى جعفر قد أصبح الخليفة ، فبدأ عصر « ألف ليلة وليلة » . إذا كان الخطو أسرع مما ينبغى ، وكانت حرارة الشمس تنذر بما سوف يهب من العواصف الرعدية ، فإن أحداً فى ذلك الحين لم يلاحظ هذا الأمر أو يهتم به . نسى الناس دروس الإمبراطورية الرومانية أو لم يتعلموها . فغرقت بغداد فى البهاء والترف ، غير عابئة بالغد .

جُمعت الثروات ، وأنفق المال على نطاق ينافس إنفاق آل روتشيلد وروكفلر فى العالم الحديث — فقد منح الخليفة أخاه إبراهيم وكان مغنياً محترفاً ، أكثر من مليونى دولار . ويقال إن أحد صاغة بغداد مات ثرياً جداً برغم مصادرة ما قيمته أكثر من ملايين كثيرة من الدولارات من ممتلكاته بسبب مخالفات شتى . وغالباً ما كان تجار البصرة يجنون ربحاً سنوياً يعادل ١٠٠ر٠٠٠ دولار . وجمع البرامكة — الذين توارثوا الوزارة فى عهد كل من أبى جعفر وهارون ثروة خيالية يقال إنها أربت على ٣٠ مليون دولار ، وهذا بخلاف ما كانوا يملكون من قصور ومزارع .

وكان أفراد الفريق الهاشمى من قريش يحصلون على أرزاق كبيرة بانتظام من بيت المال بسبب مولدهم وحسب . ويقال إن أم هارون حصلت على ما يزيد عن ١١ر٢٠٠ر٠٠٠ دولار صرفتها على زينتها وقصورها . وأصبحت زوجته

الحسناء زبيدة أسطورة من ناحيـــة الإنفاق ، شأنها شأن الخليفة نفسه . ففى القصور الخليفية التى كانت تشغل ثلث المدينة المدوّرة ، أصرت على أن لا يشرب ضيوفها إلا من أكواب من الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ؛ بل وكانت أحذيتها مرصعة بالجواهر . والمشهور أنها أنفقت خلال حجة قامت بها إلى مكة ، مايربو على ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار . وكان لأخت زوجها التى تنافسها فى الجمال ، نفس الشغف بالأحجار الكريمة ؛ ولكى تخفى أثر جرح صغير فوق جبينها صممت عصابة للرأس مرصعة بالجواهر ، وهـــذه فكرة اقتبستها النساء المترفات فى جميع أنحاء العالم .

وعلى غرار ما كان فى أواخر أيام بنى أمية ، تمتع النساء بقدر بالغ من الخروج على التقاليد ، وناظر نساء الطبقة الراقية الرجال فى التدخل فى شئون الدولة وفى إثراء المجتمع بحديثهن الشيق الفكه وبمواهبهن الموسيقية . ولكن فى الطرف الآخر من السلم الاجتماعى أصبحت المغنيات والراقصات والإماء والمحظيات من الكثرة خلال الفتوح المبكرة بحيث هبط مركزهن إلى أحط مستوى يمكن تصوره . كان الخليفة يقتنى الآن الألوف من الجوارى كان الكثير منهن يرسلن إليه كهدايا من قواده المنتصرين[1] كى ينالوا الحظوة عند سيدهم ، وكان يملك عدداً مماثلا من الخصيان والعبيد .

لا عجب إذا حكمنا بما ندعوه المستويات المسيحية للأخلاق أن تدهورت الأخلاق الجنسية وحلت صنوف الإنحراف والشـــذوذ . أصبح الغلمان الأوربيون ومعظمهم من الروم أو الأرمن ، مصدراً مألوفاً للعلاقات اللوطية ؛

(١) لم يكن بيع الجوارى مظهرا من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المعروف ، بل أن كثيرا من الاماء كن يأتين سوق النخاسة مختارات ليتمتعن بحياة الترف والنعيم فى بيوت الخلفاء والأمراء (حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، طبعة القاهرة ، ج ٢ ، ص ٤٣٣) — المترجم .

وفى بيت أى موظف ثرى ، وخل عنك فى قصر الخليفة ، كانوا يوجدون وقد تعطروا وتزينوا ببذلات ثمينة وجميلة وهم ينتظرون أن يشبعوا شهوة سيدهم . كان قانون الأخلاق الإسلامى يسمح دائما بدرجة من الإباحة الجنسية أكبر مما تبيحه مستويات الغرب المسيحى(١) ، وإن كان من الانصاف فى الوقت نفسه أن نذكر أن التعاليم الإسلامية فى العصرين الوسيط والحديث ، كانت موضع تمسك شديد وكامل بها يفوق مثيله فى حالة الوصايا العشر . ربما لأن الشريعة الإسلامية أباحت تعدد الزوجات حتى أربع للرجل ، ولم تجعل الطلاق ممكناً فحسب ولكن سهّلت الحصول عليه ، وأباحت للرجل أن يقتنى أى عدد من الإماء والجوارى بشرط أن يحسن معاملتهن ويرعاهن كأنهن من أهل بيته ، لم يكن اللواط جريمة بالنسبة إلى المسلمين(٢) ، كما لم يعتبر مخنثاً إذ كثيراً ما كان يمارسه أكثر الرجال رجولة . والحقيقة يمكن القول بأنه كان نوعاً من اللهو أكثر منه انحرافاً وشذوذاً ، فى وقت توافر فيه مثل هذه الأعداد الكبيرة من كل جنس ولون .

وساد الترف بيوت الأغنياء إلى حد غير معروف فى الأزمنة الحديثة ،

---

(١) هذا الذى يقوله المؤلف عن الغرب المسيحى ينقضه التاريخ ، ويشهد ضده الواقع المعاصر . ويكفى أن نذكر الاباحة الجنسية فى المجتمعات الغربية ، وانتشار عادة اللواط كما فى السويد بوجه خاص بحيث أفردت دراسات لبحث هذه الظاهرة . وأكثر من هذا فقد سنت بريطانيا قانونا يبيح اللواط ، وإن اشترط الرضا وسنا معينة للمفعول به . أما فى العصور الوسطى وفى أوائل العصر الحديث فالتاريخ زاخر بمظاهر انحلال الأخلاقيات الجنسية فى الغرب . — المترجم .

(٢) فى هذا الرأى الذى يبديه المؤلف قدر بالغ وواضح من التجنى ، فقد أورد « جامع الأصول من أحاديث الرسول » للامام أبى السعادات مبارك بن محمد بن الأثير الجزرى (ح ٤) أحاديث عدد تخالف ماذهب إليه المؤلف . عن ابن العباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول » (ص ٣٠٥) . وعنه أيضا أن عليا أحرقهما ، وأبا بكر هدم عليهما حائطا (ص ٣٠٦) . وعنه وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ملعون من عمل عمل قوم لوط » . — المترجم .

حتى فى البلاد العربية الإقطاعية الغنية بالبترول[١]. كان يجرى تبريد البيوت بالثلج ، وكانت أدوات المائدة لا تقل عن الفضة ، بينما كانت كل قطعة من الأثاث مطعمة بالأبنوس ومرصعة باللؤلؤ . وكان للأمين وهو ابن هارون الرشيد ثلاثة زوارق على صورة أسد ودلفين ونسر[٢] ، تكلف كل منهما أكثر من ٢٨٠٫٠٠٠ دولار ، وبنيت لأغراض حفلاته النهرية . وكانت أطباق الطعام الفارسى بما فى ذلك الحلويات ، تقدم فى الولائم ؛ وكانت الخمر تعاقر علانية كما كانت تنشد الأغانى والقصائد فى امتداح تعاطيها فى حجرات تفوح منها الرائحة القوية المنبعثة من العنبر المحترق .

بل ربما كانت فارس والعراق فى ذلك الحين أوفر شهرة منهما اليوم بثروتهما من أنواع الأثاث والمنسوجات . ففى إقليم فارس Fars كانت تصنع الأقمشة الحريرية الموشاة بخيوط الذهب لنساء البلاط وكانت التفتا التى تنتج فى بلاد فارس واسعة الانتشار وتصدر بمقادير كبيرة إلى أوربا ، وكذلك كان شأن القماش المعروف باسم « العتابى » نسبة إلى حى عتاب فى بغداد ، حيث كان يصنع ، وهو مادة مخططة . ومن بخارى إلى دمشق كان يصنع كل شكل من أثاث البيوت وأدواتها ، من الأرائك إلى المقصات ، ومن الدمقس إلى الأقداح من الزنك . وكانت صناعة الزجاج بالشام ومصانع الورق فى سمرقند أول من صدر هذه السلع إلى العالم الخارجى ؛ وكان الزجاج الملون الذى نقله الصليبيون لأول مرة إلى أوربا ، تقليداً للأنواع المطلية بالميناء المصنوعة فى الشام . أما عن الثروة المعدنية فإن موارد دار الخلافة منها كانت

---

(١) هذا دون مايفعله أصحاب الملايين فى أوربا والولايات المتحدة ، من بذخ واسراف يصل إلى حد الاستهتار . — المترجم .

(١) أمر بعمل خمس حراقات فى دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق فى عملها مالا عظيماً (الطبرى ، تاريخ ، طبعة القاهرة ، ج٨ ، ص٥٠٩) — المترجم .

لا حصر لها . كانت كل جوهرة تزين النساء المترفات العباسيات يمكن وجودها فى كل جزء داخل أراضى الخلافة — الذهب والفضة من خراسان ، واللؤلؤ من البحرين ، والياقوت وحجر اللازورد من وراء بـــلاد النهر ، والفيروز من نيسابور . وكانت إصفهان تضم الأنتيمون ، وأنتجت الشام الرخام والكبريت ، وقدمت فرغانة الزفت والقار والزئبق

وكان الشطرنج المستورد من الهند هو والنرد من الألعاب الأثيرة فى داخل بيوت الأغنياء ، كما كان البولو الوارد من فارس ، والرماية بالسهام ، وسباق الخيل ، والصيد من ألعابهم المحبوبة خارج البيوت . وكانت المراهنات فى حفلات السباق شديدة ويجرى تداول المبالغ الكبيرة من المال . وبالنسبة إلى الصيد جيء بالتصقر من فارس ، وهو عادة لاتزال موجودة اليوم فى الأردن والمملكة العربية السعودية والخليج الفارسى (العربى) .

وراء كل هذا الترف والثراء تجارة وصناعة مزدهرتان . فعلى طول أرصفة موانى بغداد والبصرة النهرية ترسو مئات السفن من كل ركن من أركان الإمبراطورية الشرقية ، من الصين إلى أفريقية ، محملة بالحراير والعطور والصينى والصبغات والتوابل والياقوت وحجر اللازورد والغراء والعاج والرقيق للبيع فى أسواق العاصمة ، حيث تتجمع الدكاكين حسب نوع التجارة أو الحرفة — فمحال الصباغة فى شارع والحاكة فى شارع آخر — على نحو ما تلقاه اليوم .

وبالمقابل كان التجار العرب ومنهم الأسطورى السندباد البحرى يحملون إلى الشرق الأوسط وإلى أوربا حيث يتجهون شمالا حتى الروسيا ، الأرز والحبوب ، والكتان والحراير ، والعطـــور واللآلىء ، والزجاج والمعادن ، والسكر والفواكه والخضر ، وهى منتجات مصر والشام والعراق والخليج الفارسى ، والأودية الغنية الخضراء بين بخارى وسمرقند . وغالباً ما كان هؤلاء

التجار يحملون أيضاً رسالة الإسلام التى أصبحت مغروسة فى جنوب شرق آسيا وبوجه أخص فى الجزر التى تتكون منها اليوم دولة إندونيسيا .

وكان فى الإمبراطورية العباسية أيضاً مستوى رفيع بصورة تلفت النظر ، من الخدمة الاجتماعية والصحة العامة . فكانت العاصمة وحدها تفخر بأنها تضم نحواً من سبعة وعشرين ألفاً من الحمامات العامة وهى أسلاف مايقال لها حمامات البخار « التركية » الموجودة اليوم . وتقدم الطب والصيدلة بسرعة ، وأدخل نظام من الإمتحانات لاختيار الأطباء والكيميائيين لمنع استغلال الدجالين للجماهير . ويقال إن ثمانية آلاف طبيب إجتازوا هذه الإمتحانات فى العاصمة وحدها . وفى أوائل القرن التاسع أدخل تشريح الحيوانات لأغراض البحث الطبى ، وظهر طب العيون لأول مرة فى كتاب مدرسى عن علاج أمراض العيون التى كانت ، شأنها الآن ، مبعث أوسع الشكاوى انتشاراً فى الشرق الأوسط . وأنشئت خدمة طبية حكومية ، وحتى السجون كان الأطباء يزورونها يومياً : وأنشأ هارون أول مستشفى بالعراق ليعقبها بعد وقت قصير أكثر من عشرين من نوعها فى أجزاء مختلفة من دار الخلافة ، وكانت كل مستشفى مزودة بصيدلية ، وفى بعض الحالات بمكتبات طبيـــة وتسهيلات للدرس لطلبة الطب .

وكان رجال الطب المسئولون بصفة رئيسية عن هذا التقدم فى الطب والسيمياء جابر بن حيان وأبو بكر الرازى . وأطلق على جابر الذى هبط من الكوفة فى العراق ، اسم « أبو السيمياء » العربية . وإذ كان متحمساً لإجراء التجارب فإنه طور النظريات الطبية اليونانية والمصرية وخاصة نظريات أرسطو ، عن العناصر وتحويل المعادن الخسيسة . وبسبب أبحاثه تحقق تقدم كثير فى عمليات

مثل التكلس والتبخر والذوبان والتبلور . أما مؤلفاته التى نملك منها اليوم ما يزيد على العشرين ، فترجمت إلى اللاتينية . وكان لها تأثير طاغ فى معامل أوربا فضلا عن آسيا ، طيلة قرون عدة بعد وفاته ؛ بل وكان الرازى وهو فارسى من أهل الرى القريبة من طهران الحديثة ، أعظم تأثيراً ووصف بأنه أكثر الأطباء المسلمين أصالة ومن أغزرهم تأليفاً . ومن أعماله التى تجاوزت المائة ، كتب عدة عن السيميا ترجمت إلى اللاتينية وكان لها موضع الصدارة كمصدر المعرفة الكيمياوية فى أوربا خلال السنوات الخمسمائة التالية . وبالمثل كانت تقاريره عن الجدرى ومرض الحصبة هى الأولى أيضاً فى ميدانها ، وعندما ترجمت إلى اللاتينية كانت مراجع يعتمد عليها الأطباء الأوربيون . وأهم من هذه كلها موسوعته الشاملة فى علم الطب التى اعتمدت على المعرفة التى وصلت إلى العالم العربى من المصادر اليونانية والفارسية والهندية فضلا عن أبحاثه هو ، فأصبحت من أروع الملخصات الطبية التى صنفت وقدر لها أن توجه وتؤثر فى الفكر والبحث الطبى فى الغرب لقرون تالية .

وبتقدم التأثير الفارسى بدأت تزدهر الزراعة التى أصابها الركود إلى حد كبير فى ظل العرب الذين اعتبروا أن مثل هذا العمل مما يحط من كرامتهم . فجففت دلتا دجلة والفرات ، ووفر لها الرى عن طريق شبكة من القنوات ، وأنبتت محاصيل وفيرة من الشعير والقمح والأرز والتمر فاستحقت شهرتها بأنها كانت الموقع الأصلى لجنة عدن . وكانت الشام ومصر وخراسان والأودية الخضراء حول بخارى وسمرقند، تنافس العراق فى الخصب والإنتاج . كان العديد من منتجاتها قد جلبه الفاتحون الأوائل من الهند وآسيا الغربية وإذا استثنينا الواردات الحديثة نسبياً مثل الطماطم والمانجو ، فقد كانت الإمبراطورية توفر كل فاكهة وخضر نأكلها اليوم من البرتقال إلى قصب السكر ومن الزيتون إلى البطيخ .

وعلى قمة الرخاء والثراء البالغين كان يجلس الخليفة هارون الرشيد الذى كان يحتل مكاناً يعلو فى النفوذ والمكانة فوق مكان الحكام الآخرين جميعاً فى الشرق والغرب ، باستثناء شرلمان . بل كان شرلمان على إدراك كاف بقوة خليفة بغداد بحيث تبادل معه البعثات وألمح إلى تحالف يمكن أن يخدم مصلحتهما بتهديد البيزنطيين والأمويين الأسبان وكلاهما منافس له ولبنى العباس على التوالى .
كان نجم هارون قد لمع فى سن العشرين خلال حكم والده محمد ، عندما شن العباسيون أول هجوم لهم على جيرانهم الروم أملاً فى الاستفادة من السلام والانسجام فى داخل الإمبراطورية ليتخلصوا من التهديد البيزنطى فى آسيا الصغرى . وسار هارون مصحوباً بخالد بن برمك المخلص على رأس مقدمة جيش الخليفة الذى راح يتوغل حتى بلغ البسفور . وهناك أرغم الوصية على العرش وهى الملكة إيرين ، على توقيع معاهدة وأداء جزية إلى جيوش الخليفة. وكانت هـــذه رابع وآخر مرة يقف فيهـا جيش عربى أمام أسوار القسطنطينية .

عاد هارون بغنائم ضخمة لترحب به بغداد بوصفه بطلا ، وكافأه أبوه الذى كان يحبه حتى العبادة بأن أطلق عليه لقب « الرشيد » . ويبدو أن مثل هذا القدر الكبير من النجاح والملق أدار رأسه بحيث طلب الآن من أخيه الأكبر موسى أن يتنازل عن حقه فى وراثة العرش. رفض موسى ، ولما توفى محمد بعد ذلك بوقت قصير ، وافق هارون على عدم التشدد فى التمسك بدعواه . ولكن أمهما وكانت أصلا أمَة فارسية أعتقها محمد وتزوجها ليضفى الشرعية على ولديه ، نقول إنها كانت أشد طموحاً بالنسبة إلى ابنها الأثير لديها هارون منه بالنسبة إليها . ولما استجاب موسى إلى إنكار الذات من جانب أخيه بأن عين ابنه خلفاً له ، حسمت الأم المشكلة بأن قتلت موسى بالسم . ولم يجد

هارون الذى كان ما يزال فى الرابعة والعشرين من العمر ، صعوبة كبيرة فى إقناع ابن موسى بالتنازل له ، وفى سنة ٧٨٦ بدأ حكم أشهر خليفة فى الإسلام.

كلما درسنا حياة هارون الرشيد ومسلكه بدا أن له تأثيراً على المؤرخين المحدثين يكاد أن يشبه تأثير التنويم المغناطيسى . ما من شك أنه كان حاكماً نشيطاً وإن كان قاسياً وغيوراً . ولكنه لم يكن بارزاً بالتأكيد . فبفضل إخلاص أبى جعفر الذى لا يكل ، ورث إمبراطورية يسودها السلام ، وورث معها تقليـــداً ثقافياً وأدبياً كان بصدد أن يصبح موضع الحسد من الشرق والغرب ، ورأس هذا التراث بما يتفق معه من العظمة والأبهة . ولكن من الصعب أن نجد شيئاً عمله لإثراء إمبراطوريته أو دعم تقاليدها . إن كان قد عمل أى شىء فإن ممتلكات الإمبراطورية عند وفاته كانت دونها لما تولى الخلافة ، وارتدت حملاته الأخيرة ضد البيزنطيين إلى صدره على نحو سىء ، وكان ما ورثه من السلام والهدوء يتمزق فى أوائل عهـده بفعل سلسلة من الثورات الدموية . ولما كان لا يحتمل المؤثرات الغربية ويرتاب فيها أعاد فرض الكثير من القيود القـديمة على النصارى واليهود ، فأجبرهم على ارتداء لباس يميزهم ، ومنعهم من تولى المناصب العامة ، وقرر عـدم قبول شهادتهم فى أية قضية قانونية ضد شهادة مسلم . أما عن علاقاته الشخصية فغالباً ما كانت تسيطر عليه الغيرة الصغيرة ويشك فى أقرب الأصدقاء إليه بل وفى أهل بيتـه وهى صفات يندر أن تبرر شهرته الأسطورية .

إن معاملته للبرامكة وهم أشد خـــدام أجيال ثلاثة من الخلفاء ، ولاء وإخلاصاً ، لا يمكن أن توصف إلا بأنها وليدة مرض العظمة الكاذبة . كان وزيره هو يحيى بن خالد بن برمك الوزير المخلص لأبى جعفر ، ذلك أن هارون كان فى إدارة شئون حكومته ، يعتمد مثل جده على الأعاجم بوجه عام وعلى البيت البرمكى بوجه خاص . ما من خليفة كان لديه نصير أشد تفانياً فى خدمته

من هذا الإبن من أبناء خالد ، الذى قاوم بعناد خطة موسى فى تعيين ابنه مكان هارون وألقى به فى السجن بسبب تحديه . كما أن دَيْن الخليفة للبرامكة لم يقف عند هذا الحد ، فقد كان الفضل وهو أحد أبناء يحيى ، أداة فى القضاء على محاولة علوية لانتزاع طبرستان من الإمبراطورية . وابن آخر هو جعفر كان شاباً ذا وسامة رائعة ، وله عينان سوداوان كبيرتان وعنق طويل ورشيق ، هذا الإبن كان من أكثر أصدقاء هارون قرباً إليه حتى أن أباه شك فى وجود علاقة جنسية بينهما . كان جعفر والخليفة لا يفترقان ، فيقضيان كل ساعة من وقت فراغهما سوياً ، يتجولان يداً فى يد فى حدائق القصر أو يستمعان إلى رواية الشعر . ولما تقدمت بيحيى السن بحيث لم تعد تسمح له بتولى الوزارة ، لم يكن تعيين جعفر لشغل المنصب أمراً يبعث على الدهشة . هذا القرب الجديد المترتب على التعيين إنما زاد من عمق ولع الخليفة بهذا الشخص العزيز على نفسه .

أراد هارون الآن أن يكون جعفر معه كل الوقت . ولكن هذا أثار مشكلات . كان جعفر قد أغدق عليه مولاه ضروب التكريم والمال بحيث تفشى فى العاصمة القال والقيل الشائن عن هذه العلاقة . وعلى ذلك قرر هارون أن يخمد الشائعات فزوج أخته العباسة من جعفر ، ولكنه أصر فى السر على يكون الزواج بالإسم فقط وألا يخلو الزوجان ببعضهما أبداً . كان جعفر مستعداً للنزول على هذا الإتفاق ولكن زوجته لم تكن لتقبل هذا الحرمان من حقوقها الزوجية بمثل هذه السهولة . فذات ليلة تخفت بالنقاب المعتاد ، بوصفها من خادمات القصر وحملت زوجها على مضاجعتها . نجحت الحيلة ثم حملت بعد أن تكرر الأمر مرات عدة ومع ذلك نجحت فى تجنب لقاء أخيها إلى أن ولد الطفل ، وبُعث به سراً إلى مرضعة فى مكة .

لم يعرف هارون أو جعفر شيئاً عن هذا الحادث إلا بعد سنوات عدة

عندما علم الثرثارون بما حدث . وسرعان ما وصلت القصة إلى آذان الخليفة ؛ وفى زيارته الثالثة إلى مكة أمر بإحضار الطفل . كان الشبه بجعفر من الوضوح بحيث لا يمكن أن يكون وليد الصدفة ؛ وفى نوبة من الهياج أمر هارون بخنق الطفل ثم عاد إلى بغداد ليعاقب الوالدين . قتلت العباسة أولاً ، خنقها أغا أسود ضخم الجثة من أغوات القصر وألقيت جثتها فى حفرة فى أرضية حجراتها ، ثم أعدم الذين حفروها لضمان سكوتهم . بعد ذلك جاء دور جعفر . إن التغيير المفاجىء والعميق الذى طرأ على أحوال الخليفة وأسلوبه فى الحديث ، كان قد نبه جعفر للخطر . ولكن عندما استدعاه هارون أطاع الأمر دون أن ينبس بشفة إلى أن وجد نفسه وحيداً مع الجلاد فى حجرة الإنتظار الخاصة بالخليفة . ارتمى عند أقدام الأغا ووعده بذهب لا يعد ولا يحصى إذا لم يقتله ولكن دون جدوى . وسقط السيف على العنق الطويلة والرشيقة ، وبعد لحظة طرحت الرأس الوسيمة عند قدمى الخليفة .

فى هذه اللحظة بدأ هارون يصرح كحيوان مفترس وقع فى شرك وإذ راح تارة يلعن الرأس الراقدة تحت قدميه بسبب خيانة الجسد الذى كانت جزءاً منه ، وتارة أخرى ينتحب ويبكى خسارة صديقه ، أقسم أن يهلكم جميعاً وبالفعل أهلكهم . فزج بيحيى المسن وابنه الفضل فى السجن وصودرت ضياعهما . ولكن حتى هذا لم يقنع الخليفة الذى تملكته حالة هستيرية ، فأمر بجلد الفضل إلى أن يكشف عن كنز معين لم يكن مقيداً فى قوائم جرد ضياع الأسرة . ومات كل من يحيى والفضل فى السجن ، وبموتهما انتهت تلك السلالة الرائعة من أولئك الذين تفانوا فى خدمة بنى العباس [١] .

---

(١) يستبعد الكثيرون من المؤرخين والكتاب هذه القصة عن العباسة التى هى كما يقول ابن خلدون « قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين ، البعيدة عن عوائد الترف ومواقع الفواحش . فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدوا من بيتها ؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى =

يندر أن كتب فصل أقل بهاء وبدوافع أقل نبلاً فى قصة هارون الرشيد الشهير . حقيقة يقال إن الندم تملكه بسبب هذا التصرف النذل المتولد عن الغيرة اللوطية ، بحيث غادر بغداد فيما بعد بذكرياتها عن صديقه المحبوب ، وخلال السنوات الست التالية حكم الإمبراطورية من قصره الصيفى حيث عاش فى نوبة ذهول من الشقاء الأسود . ولكن ندمه لم يفعل شيئاً فى تلطيف طبيعته . فأصبح فى وحدته التى خلقها بنفسه أشد قوة وأكثر ارتياباً حتى أن المحيطين به ، بما فيهم ولداه ، راحوا يتآمرون ضده .

ربما يزعم هارون أنه إنما كان فى هذه السنوات الأخيرة من خلافته ، يتبع مشورة جده أبى جعفر عن « عدم النوم أبداً » ولكن بدا من الشك فى أن أقرب أصدقائه وأقاربه يتآمرون ضده ، أن كان خيراً له لو أخذ بمشورة أبى جعفر البارع بالمثل عن الاستفادة من أهل خراسان . ونظراً لأنه لم يفعل هذا ، واجهته فى أواخر عهده ثورة خطيرة فى الإقليم . وفى عام ٨٠٨ وكان يعانى من داء السرطان ، توجه على رأس جيش كبير لمحاربة الثوار بزعامة أحد أحفاد نصر بن سيار آخر عمال بنى أمية فى خراسان ، وهو رافع بن الليث .

= العجم ؟ » (مقدمة ، ص١٤) . ثم يتابع المؤرخ الكبير تفسير نكبة البرامكة فيقول « وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجانهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه ؛ فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم . . . وانصرفت عنهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، وتمدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات ، واستولوا على القرى والضياع ، من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك » (شرحه) ؛

ورمى البغدادى (الفرق بين الفرق ، ص٢٧٠) البرامكة بالزندقة ، ويقول انهم زينوا الرشيد أن يتخذ فى جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبدا فعلم الرشيد أنهم أرادوا أن تصير الكعبة بيت نار ، فكان ذلك أحد أسباب قبضه عليهم ، فعبادة النار من ديانة المجوس . ويقول ابن النديم أيضا (الفهرست ، ص ٤٧٣) أن الأسرة بأسرها — الا محمد ابن خالد بن برمك — كانت زنادقة . — المترجم .

كان رافع قد اتهم فى الأصل بارتكاب معصية بزواجة من امرأة كانت قد تخلصت من زوج سابق بأن ارتدت عن الإسلام [(١)] . فلما صدر الأمر بسجنه هرب ورفع راية الثورة واستولى على سمرقند وأعلن استقلاله بها عن بغداد . كان هذا أكثر مما يطيق هارون . وكانت الإمبراطورية قد أصيبت بخسائر خطيرة فى أفريقية وآسيا الصغرى . فخلال عهد أبيه خرجت مراكش على الخلافة بزعامة إدريس وهو أحد الباقين على قيد الحياة ، من الرجال الذين اشتركوا فى ثورة ابراهيم بالبصرة سنة ٧٦٢ . ثم فى عهده أعلن عمال القيروان الحليون استقلالهم ؛ وأخيراً فإن امبراطور الروم الذى كان هارون يعامله باحتقار بحيث يبدأ رسائله إليه بعبارة « إلى نقفور كلب الروم » ، هذا الإمبراطور قلب الموقف وطرد الجيوش العربية من الأناضول ؛ وضياع جزء من الإمبراطورية الشرقية كان أكثر مما يستطيع احتماله .

أخمدت ثورة رافع وأسر الأمير الخاطىء . وفى هذا الوقت كان هارون فى طريقه إلى الموت [(٢)] ، ولكنه أصر برغم هذا على أن يؤتى بالمتمرد أمامه ليلقى جزاءه وفيما هو راقد فى خيمته ، وحياته تقترب من النهاية ، استسلم لنوبة أخيرة من نوبات الغضب الشيطانية ، فقال لرافع إنه سوف يدفع الثمن إذ جاء به (أى

---

(١) يحدثنا الطبرى (تاريخ ، ج ٨ ، ص ٣١٩) أن يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائى تزوج ابنة لعمه أبى النعمان ، وكانت ذات يسار ، فاقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند ، فلما طال مقامه بها ، وبلغها أنه اتخذ أمهات أولاد ، التمست سببا للتخلص منه ، فعى عليها ، وبلغ رافعا خبرها ، فطمع فيها وفى مالها ، فدس اليها من قال لها : إنه لا سبيل الى التخلص من صاحبها ، إلا أن تشرك بالله ، وتحضر لذلك قوما عدولا ، وتكشف شعرها بين أيديهم ، ثم تتوب فتحل للأزواج ، ففعلت ذلك وتزوجها رافع .

وفى هذا يقول حسن ابراهيم حسن عن رافع أنه قاد امرأة من أهل اليسار الى الكفر تخلصا من زوجها الذى طالت غيبته ورغبة فى الزواج منها (تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٢ ، ص ٥٣) . — المترجم .

(٢) حين خرج الرشيد الى خراسان صحبه الصباح . وتوقف الرشيد عند شجرة وأوما الى خدامه الخاصة فتنحوا ؟ ثم كشف عن بطنه ، فاذا عصابة من حرير حوالى =

بالرشيد) هذه المسافة البعيدة . وهنا قطع رافع إربا [1] ، وألقيت أشلاؤه ، الواحد بعد الآخر ، عند أقدام الخليفة . وبعد ساعات قلائل مات هارون نفسه ، وكان هناك الكثيرون فى الإمبراطورية بما فيهم أقرب الناس إلى العرش ، تنفسوا الصعداء عن رحيله .

= بطنه ، فقال للصباح : هذه علة أكتمها الناس كلهم ، ولكل واحد من ولدى على رقيب ؛ فمسرور رقيب المأمون ، وجبريل بن بختيشوع رقيب الأمين ، وما منهم أحد إلا وهو يحصى أنفاسى ، ويعد أيامى ، ويستطيل عمرى . (الطبرى ، تاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩) . — المترجم .

(١) الذى قتل هو بشير بن الليث أخ رافع (الطبرى ، تاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٤٢) — المترجم .

(١١)

عصر العباسيين الذهبى

إن أية آمال بأن موت هذا الطاغية الغيور سوف يأتى بعصر جديد من السلام ، هـذه الآمال سرعان ما تبددت بعنف . ففى ظرف ثلاث سنوات كانت الخلافة فى شقاق بفعل صراع مرير ودام بين ولدىّ هارون : محمد الأمين وعبدالله المأمون . خلف الأمين أباه لا لسبب سوى أنه كان الوحيد من أبناء هارون الذى ولد لإحدى المهائر[١] ، أما الآخرون فـكانوا من أمهات أولاد[٢] فـكانت أم المأمون[٣] إحدى عشر جوار وهبتهن إلى هارون زوجته زبيدة لتبعده عن مغنية كان الخليفة قد كلف بها . وكان الأمين طرازاً جسمانياً نخماً ، طويل القامة جداً وذا جسم ضخم[٤] وكانت قوته الرائعة مصحوبة بشجاعة جسدية كبيرة ؛ وتذكر الأسطورة أنه قتل ذات مرة بمفرده وبخنجره ، أسداً أحضر إليه لمعاينته فأفلت من قيده وانقض عليه وهو يشرب خمراً .

ولـكن شجاعة الأمير الجسدية لم تعادلها حنـكة سياسية ذكية ، ويبدو أنه ورث أيضاً عن أبيه نزعة الشك ؛ وكان يرتاب بصفة خاصة فى أخيه المأمون الذى كان قد عين قبل موت هارون سنة ٨٠٩ والياً على خراسان .

وأقره الأمين فى منصبه ، ويرجع هذا إلى حد كبير ، إلى الرغبة فى إبعاده عن العاصمة . ولـكن حتى على هذا البعد الـكبير فإنه لم يشعر بالأمن تماماً ،

---

(١) الزوجة الحرة الغالية المهر . — المترجم .

(٢) أى من الإماء — المترجم .

(٣) أمه أم ولد تدعى مراجل . — المترجم .

(٤) كان سبطاً أنزع أبيض ، صغير العينين أقنى ، جميلا ، عظيم الـكراديس بعيد ما بين المنـكبين (الطبرى ، تاريخ ، ج ٨ ، ص ٤٩٩) . — المترجم .

ذلك أنه لم تمض أسابيع قلائل حتى أمر المأمون بأن يعيد جيوشه إلى العراق . رفض المأمون أن يُترك بغير دفاع ؛ ولما كان يشك بدوره فى أن الأمين يهدف إلى أن يسلبه نصيبه فى وصيـــة أبيهما ، لجأ إلى الخراسانيين يطلب نصرتهم له .

وكان أصل أمه الفارسى فى صالحه عندما عزله الأمين من منصبه وأشخص جيشاً من أربعين ألف رجل[1] للقضاء عليه وعلى أنصاره . ولكن حملة الأمين أبيدت عند الري القريبة من طهران على يد قوة خراسانية لاتزيد عن عشرها عدداً ، بقيادة طاهر بن الحسين قائد المأمون ونصيره الرئيسى .

غلا الآن دم المأمون . لقد طلب أخوه الحرب وسوف يعطيه إياها . وفضلا عن هذا ، كان واضحاً الآن أنه إذا لم يقض على الأمين فإن الأخير سوف يقضى عليه . وعلى ذلك أمر طاهر بالزحف على بغداد مع جيش آخر يقوده هرثمة الذى كان قائداً سابقاً من قواد العباسيين فى شمال أفريقية .

فى هذه الأثناء كاد الأمين أن يفقد عرشه عندما تمكن ضابط شامى حديث النعمة ، وبمساعدة بعض المنشقين من حرس القصر ، من شق طريقه إلى حجرات الخليفة . قبض على الخليفة وسيق فى الشوارع عندما تعرف عليه مجموعة من رعاياه المخلصين وأنقذوه . ولكن مثل هذا الولاء كان سلعة نادرة فى بغداد فى تلك الأيام ؛ فلما وصل المحاربون من رجال طاهر أمام بغداد فى عام ٨١٢ ، بايع العراق كله ، من البصرة إلى الموصل ، المأمون بالخلافة .

أصبح الأمين محصوراً وراء وسائل الدفاع عن بغداد ، وبدأ جنده يخرجون عليه وينضمون إلى الغزاة . أما الذين بقوا للذود عن خليفتهم فكان حافزهم الوحيد هو المال الذى أغدقه عليهم الأمين من خزائن الدولة . ما من شىء كان يمكن أن يبقيهم لو صدقت الصورة التى رسمها المؤرخ أبو الحسن المسعودى

(١) بقيادة على بن عيسى بن ماهان الذى قتل أيضا — المترجم .

لحالهم أثناء الحصار الذى تلا ذلك . كان الضباط والأجناد نصف عراة ويتضورون جوعاً . ولم تكن هناك خوذات أو دروع صحيحة ولكن كانت هناك فقط معدات كاذبة مصنوعة من أوراق النخيل . ومع ذلك واصل هؤلاء الرجال القتال أربعة عشر شهراً ، بينما راح الطاهر وهرثمة يدقان الأسوار الكبيرة للمدينة المدورة بمجانيقهم ويهدمونها فى بطء وفى ألم . وعندما استولى عليها المحاصرون عنوة فى النهاية ، كانت بغداد قد أصبحت خراباً ، تتناثر فى شوارعها الجثث ، ومساجدها مغلقة ، ويكاد أفراد الحامية والأهلون أن يموتوا من الإعياء ونقص الطعام . صمد الأمين ثلاثة أيام فى داخل القلعة ، ثم عرض التسليم — ولكن لهرثمة فقط ، إذ كان يعرف أن الطاهر القاسى مصمم على أن يقتله بيديه . قُبِل العرض ؛ ولكن بينما كان هرثمة يعبر دجلة وفى صحبته الأمين ، هجم رجال طاهر على الزورق ، وقتلوا الخليفة ، وحزّوا رأسه وبعثوا بها إلى المأمون[1] .

هكذا حدث أن أعظم عصر فى تاريخ بغداد وهو عصر المأمون ، بدأ والمدينة تكاد أن تكون قد دمرت تماماً : نصف أهلها تقريباً ماتوا ، وخزائن الخلافة خاوية . هكذا كانت الفوضى والدمار فى العاصمة بحيث كان حكم الإمبراطورية من بغداد مسألةً خارج الموضوع ، وعاد المأمون غير آسف ، إلى خراسان الصديقة حيث حكم كخليفة من مرو .

لو أنه قصد أن يكون هذا إجراء مؤقتاً بينما يعاد بناء بغداد لكان من الراجح أن يسير كل شىء سيراً حسناً ولكنه لم يفعل هذا . وهنا ارتكب خطأً جسيماً فى الرأى . إن الاستفادة من أهل خراسان شىء ولكن الأمر

(١) تقول رواية أوردها الطبرى أن الأمين قرر أن يسلم نفسه إلى هرثمة ، ونزل معه فى زورق ، فهاجمه أصحاب طاهر وحاولوا إغراقه ، ولكنه عبر النهر سباحة حيث قتل وأرسلت رأسه إلى المأمون (تاريخ ، ج ٨ ، ص ٤٨٢ وما بعدها) . — المترجم .

بالنسبة إليه سار أبعد مما ينبغي عندما اتخذ من مرو مقراً دائماً له وعامل العراق والشام كأنهما ولايات بعيدة .

ومن ثم لا ندهش أن يبدأ أهل الشام يتذمرون . وبرغم أنهم أجبروا على التزام الصمت طيلة السنوات الستين السابقة ، فهم لم ينسوا المذابح الرهيبة التى ارتكبتها جحافل أبى مسلم الفارسية . واشتدجموح القبائل عندمارأت الخلافة تزداد الآن خضوعاً للسيطرة الفارسية .

واختيار المأمون خراسان قاعدة له ، عرّضه أيضاً للتأثير القبيح من جانب رجل من المجوس إعتنق الإسلام ، هو أبو الفضل بن سهل . كان المأمون قد خلّف الفضل وراءه ليحكم خراسان حيث قام بعمل محمود جداً إذ مزج بين العنصرين الفارسى والتركى من السكان ليخلق مجموعة متجانسة ، وكان جزاؤه أن استوزره الخليفة الجديد لدى عودته إلى مرو ، كما استعمل أخاه الحسن على بغداد. ولكن بينما كان الفضل يعرف كيف يتعامل مع الفرس والأتراك ، كان يكن كراهية فارسية حقيقية للعرب ؛ وعندما عين عمالا من الفرس والأتراك على الكور التى تضم مستوطنين عرباً وحرم الأخيرين من أى استقلال ذاتى ، فإنه بذلك أظهر للعرب بشكل واضح كيف سيجعل الخليفة يعامل الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية . وفضلا عن هذا ، كان يشعر بغيرة متعصبة من قواد الخليفة ، طاهر وهرثمة ، وعند أول فرصة سنحت له أقنع المأمون بإبعادهما عن خراسان بقدر الإمكان ، فبعث الأخير بالطاهر إلى الشام ليعالج الشغب الذى أحدثته القبائل ، وعين هرثمة والياً على بلاد العرب . قبل الظاهر المهمة دون أن يتململ وشخص إلى الشام وفى عينيه بريق المعركة . ولكن قبل أن يخرج هرثمة إلى منصبه الجديد ، حذر مولاه من أن الإمبراطورية كلها غربى جبال زاجروس ، سوف تفلت من يده إذا لم يعجل بالرجوع إلى العراق ، ولكن كانت للفضل الكلمة الأخيرة والمسمومة فى أذن الخليفة . فقبض على

هرثمة وسيق إلى السجن حيث مات بعد قليل ، ولعله مات مقتولا على أيدي الوزير الفظيع[1] .

ولكن سرعان ما تحقق تحذيره . ففي عام ٨١٦ أضطر الحسن إلى الإنسحاب من بغداد ، فقد ثارت العاصمة والكثير من المنطقة المجاورة لها ضد مستشاري المأمون من الفرس ، على ماسبق أن تنبأ هرثمة . أن تحكم العراق مؤثرات فارسية في داخله شيء ، أما أن يحكم من فارس فشيء آخر لا يمكن أن يطيقه كبرياء العراق . وظل العراقيون في حالة من الفوضى شهوراً عدة إلى أن أرسل الخليفة أحد أعمامه من خراسان ليعيد السلام بأن وعد بالعفو عن الثوار .

ربما يُظن أن المأمون تعلم من هذا الدرس أنه لا يمكنه أن يتجاهل مشاعر العراق ويفلت من العقاب . ولكن الخليفة كان قد أدار ظهره للجانب العربي من أسلافه وراح يصبح أكثر عداء لأهل السنة وأكثر فارسية في كل نفس يردده . وفي السنة التالية نفسها وكما لو كان يسعى عامداً إلى استثارة العراقيين إلى درجة تفوق الاحتمال ، جعل الإمام الشيعي علياً بن موسى وهو من نسل علي بن أبي طالب ، ولي عهد المسلمين وخليفتهم من بعده . وفي الوقت نفسه أمر بطرح السواد وهو اللون العباسي الرسمي ، وبلبس ثياب الخضرة الشيعية . وحتى يظهر ازدراءه للرأي العام السني سمى وريثه « علي الرضا » [من آل محمد صلى الله عليه وسلم] .

أما من ذا الذي أشار بهذا التعيين الغريب الذي لابد أن كان موضع القبول من أهل العراق والشام السنيين بمثل ما كان مارتن لوثر موضع الرضاء

(١) عن مصير هرثمة بن أعين كتب الطبري (تاريخ ، ج ٨ ، ص ٥٤٣) : « وأمر [أي الخليفة] به فوجيء على أنفه ، وديس بطنه ، وسحب من بين يديه . وقد تقدم الفضل ابن سهل إلى الأعوان بالإغلاظ عليه والتشديد حتى حبس ، فمكث في الحبس أياماً ، ثم دسوا عليه فقتلوه وقالوا له : إنه مات » .

والقبول من بابا روما ، نقول إنه لم يثبت أبداً من الذى أشار بالتعيين وإن كانت أصابع الإتهام تشير حتماً إلى الفضل . كان على الرضا لفترة من الوقت، رفيقاً لا يفترق عن المأمون الذى وجد فى ورع الإمام ولمعان فكره وشخصيته المؤثرة ، صفات لا يمكن مقاومتها بحيث زوجه ابنته[1] . ولكن من الأسرار الخفية السؤال عن كيف كان بمثل هذا الافتقار إلى الرأى والبصر السياسى بحيث يعتقد أنه بعد كل ما حدث ليشيع المرارة فى العلاقات بين الأغلبية السنية والأقلية الشيعية فى الإمبراطورية ، يمكن أن يرضى الأولون بأن يحكمهم واحد من الأخيرين . وكانت النتيجة المباشرة لهذا التعيين نشوب شغب فى بغداد حيث رمى أهل العاصمة المأمون بالزندقة وأعلنوا خلعه لصالح عمه إبراهيم . وسرعان ما كان العراق كله فى حالة اختمار . وبرغم أن الاقلية الشيعية فرحت بالاعتراف بإمامها وبالأمل فى عودة العلويين إلى الحكم ، فإن الجزء الضخم من الرأى العام الذى سبق أن بايع المأمون ، تحـــول الآن ضده بشكل عنيف .

وأخيراً استيقظ المأمون ليدرك الخطر البالغ المحدق بمركزه ، والحاجة إلى عمل مستميت لإنقاذ عرشه . ومن الغريب بالدرجة الكافية أن علياً الرضا هو الذى أحدث معظم اليقظة ودفع صديقه ومولاه إلى السير فى الطريق الصحيح؛ وبناء على مشورته عزل المأمون الفضل ، وأمر بالرحيل إلى بغــداد بنفسه وإحضار الطاهر من الشام ليكون والياً على الإمبراطورية الشرقية . وإذ كان المأمون الآن على بينة تماماً من نقائص وزيره أصبح وقد تملكه الغضب الشديد بحيث أن عصبة من ذوى النوايا الطيبة ويكنون حقداً دفيناً للفضل ، قرروا - كما فعل فرسان الملك هنرى ببتوماس بيكيت - أن يخلصوا خليفتهم من مستشار السوء ، إلى الأبد . وبعد لحظة وُجد الوزير السابق مقتولا فى الحمام ؛

(١) أم حبيب : — المترجم .

ولكن بينما أنكر المأمون أنه تستر على القتل ، فيبدو أنه لم يستشعر أياً من الندم الذى ساور الملك هنرى .

كان رد فعل المأمون مختلفاً تماماً عندما مرض صديقه علىّ وهو فى طريقه إلى بغداد ومات . يقول البعض إنه مات مسموماً ، بل وهناك من يتهم المأمون بإزاحته من الطريق . صحيح يكاد ألا يكون الإمام الشيعى رفيقاً مناسباً للخليفة فى هذه الحملة من أجل استرداد نفوذ العرش . ومع ذلك يجب بالتأكيد تبرئة المأمون من أى غدر بصديقه[1] ، فقد كان حزنه على موته شديداً تماماً ، وأمر على الفور ببناء ضريح كبير لتخليد ذكرى الشاب الولىّ الذى كان بالنسبة إليه أخاً ـ وربما أكثر من أخ ـ منذ قدم لأول مرة من خراسان . وأطلق اسم « مشهد » على موقع الضريح الذى ضم رفات على الرضا وهارون الرشيد ، وحتى اليوم يمثل فى نظر الفرس الشيعيين ثانى أقدس مكان فى العالم بعد كربلاء التى شهدت استشهاد الحسين .

قبل أن تتحدى ثورة بغداد المركز الشخصى للمأمون كان يعطى الانطباع بأنه شخص عابر تقريباً لا يهتم بأمور الحكم فيما يتجاوز حدود خراسان ، ويقنع بالجلوس فوق ما عنده من أكاليل الغار . ولكنه أصبح من الآن فصاعداً رجلا يحركه غرض جديد وتصميم جديد . فبأهل خراسان يسندون ظهره ؛ وبنبأ موت علىّ ليهدىء من ضروب القلق الذى انتاب العراقيين من أهل السنة ، فرغ بسرعة من المعارضة المفككة التى كانت تحول بينه وبين بغداد . فعفا عن عمه إبراهيم ، ومنح عفواً للمدينة المتمردة . . وبحركة أخرى لإصلاح حماقاته الماضية أخذ بنصيحة الطاهر وأعاد اللباس الرسمى إلى

---

(١) ذكر ان المأمون شخص من سرخس حتى صار إلى طوس ، فلما صار بها أقام عند قبر أبيه أياما . ثم ان على بن موسى أكل عنبا فاكثر منه فمات فجاة (الطبرى ، تاريخ ، ج ٨ ، ص ٥٦٨) . — المترجم .

السواد . أجل بدا الآن أنه يعتزم تعويض العراقيين عن تجاهله إياهم طيلة السنوات الست الأخيرة . وتوج عودته بذلك النوع من المهرجان الفخم الذي كان البغداديون يحبونه كثيراً ، وذلك عند ما بُنى بابنة الوالى المعزول الحسن[1] وسط مشهد من الأبهة والترف . ونثرت على عروس الخليفة وهى جالسة مع عريسها ألف درة كانت فى صينية من ذهب ، وكوفىء الذين حضروا وليمة الزفاف ببنادق مِسْك فى كل منها رقعة باسم ضيعة وحصان سباق أو جارية جميلة . وكان المال ينثر كالورق الرفيع الذى ينشر فى الحفلات ، حتى كاد الناس المبهوتون والسكارى أن يتعبوا من حشو جيوبهم .

من المؤكد أن المأمون عرف بخلفيته الفارسية كيف يبدو فى مظهر جديد حافظ عليه حتى نهاية عهده بعد ذلك بأربعة عشر عاما . كان فخماً حقاً — وليس فحسب كصاحب السيرك الذى عاد الآن إلى بغداد . فبعد أن تحول من متفرج على الأحداث إلى صانع لها ، راح الآن يحول العاصمة العباسية إلى مركز للثقافة والعلم ، يفوق ماعداه فى عالم يومه . فبحب عميق للفنون والعلوم ، أصبح المأمون أعظم الخلفاء رعاية للشعر وعلوم الدين والفلسفة والتنجيم والفلك . كان يشجع ويستورد رجال العلم بغض النظر عن أجناسهم أو دياناتهم ، فالنصارى والروم واليهود والمجوس — بل والصائبة الكفار ممن كان يُظن أن عبادتهم النجوم تجعل منهم خبراء فى الفلك ، هؤلاء جميعاً كانوا موضع الرعاية ومقربين حتى يعملوا على إثراء الخلافة بمعارفهم وقدرتهم الخلاقة . إن مجرى الثقافة الذى سبق أن صب فى اليونان من منابعه القديمة فى مصر وبابل وفينيقية وأرض الميعاد ، عاد الآن ليصب فى مناطق منابعه الأصلية ليعيد إليها الخصب والنماء .

---

(١) هى بوران بنت الحسن بن سهل الذى اتخذه المأمون وزيراً بعد استقرار الأمر له فى بغداد . ووصف « المعزول » يشير إلى ماحدث من قبل عند ما أرغمه الشعب فى بغداد على الخروج منها . — المترجم .

وجرى تنقيح نظام التعليم العام بأسره وتحديثه . وكان حتى ذلك الحين قائماً كلية على المدارس الدينية فى المساجد وحولها ، ومقصوراً إلى حد كبير على منهج أولى بالمعنى الدقيق يتكون من حفظ القرآن والكتابة وقليل من الحساب البسيط ؛ وكان الرواد الأوائل من العرب فى علوم الطب والسيمياء العربيين يتلقون معونة يسيرة من الدولة أو لا يحصلون على شى منها . كل ذلك تغير الآن ، ولم يعد الدين يوفر النظام الوحيد لتعليم رعايا الخليفة . فأنشئت أكاديميات التعليم العالى ، وأسست مدرسة للشريعة والفقه ، وبنيت قاعة للعلم مزودة بمكتبة ومعمل ، وقدمت الأموال العامة إلى الكليات . وبذل مجهود ضخم لرفع المكانة الأدبية للخلافة . وجرى التنقيب فى كل مكان عن مؤلفات الفلاسفة والرياضيين اليونان ، وعن المؤلفات الفارسية فى الشعر والتاريخ ، ثم ترجمت هذه وغيرها من الكتب بالفارسية والسنسكريتية والسريانية إلى اللغة العربية على أيدى مجموعة من المترجمين أسكنوا « بيت الحكمة » وكانت عبارة عن دار للكتب وأكاديمية ومكتب ترجمة ، ويشرف عليها « شيخ المترجمين » وكان عربياً نصرانياً يدعى حنين بن اسحاق الذى ترجم بنفسه « جمهورية أفلاطون ، وكتابى « المقولات » و « الطبيعة » لأرسطو ، ومؤلفات إقليدس ؛ وكوفىء بما يعادل وزن مترجماته ذهباً .

أما عن الأدب العربى فلم يقتصر الأمر على تشجيع الشعراء والمؤرخين والفقهاء على كتابة مجلدات طويلة ومتضلعة فى العلم ، بل وصُنفت مؤلفات فى موضوعات خفية وغريبة كالتنويم المغناطيسى وابتلاع السيوف ومضغ الزجاج . وبالنسبة إلى النثر العربى الذى كان فى الأصل يمتاز باحكام السبك ودقة العبارة بما يناسب رجال الصحراء ، فإنه اكتسب الآن طابعاً من الجزالة الفارسية والأسلوب الرفيع والتعبير المزوق ؛ لم يفقده أبداً منذ ذلك الحين .

كان هذا هو العصر الذهبى للاسلام ، لا من ناحية الحياة المترفة فحسب ،

ولكن أيضاً من حيث الإنجاز والتفوق الثقافى ، ذلك العصر الذى سوف يبنى العالم الإسلامى ويحافظ على تأثير فائق على الفكر العلمى والأدبى الغربى . ذلك أن الفلاسفة والأطباء وعلماء السيمياء والفلك والرياضيين والجغرافيين من أبناء الشرق العباسى وأسبانيا العربية ، هم الذين طوروا تراث مصر وفارس والهند الفلسفى والعلمى ووفقوا بينه وبين التعاليم الدينية لعالم يخضع لسلطان واحد ، وبذلك خلقوا الصلة بين تعاليم أرسطو وجالينوس وإقليدس وأفلاطون من جهة وتفكير الأوربيين المحدثين من جهة أخرى . وإنه لمن المحزن القول بأن أقلية صغيرة من رعايا الخليفة العرب كانوا مزودين بالتعليم والمزاج بما يجعلهم يتولون القيادة فى عمل البحث والتفسير والترجمة ، الذى أحدث هذا الإنفجار الفكرى الهائل والذى اضطلع به إلى حـــد كبير مسلمون من فارس ومن الأطراف النائية الشرقية والغربية للإمبراطورية . ولكن هكذا كان تصميم الموالى منذ سنى الحكم الأموى ، على أن يتشربوا وينشروا المعرفة بحيث لما بزغ عصر التحرير العباسى كانت عيون خزانات الماء كما لو أنها فتحت فجأة لتطلق سراح طوفان من التفكير الجديد والعلم الجديد ، على الحقول التى كانت تعانى من الجفاف العقلى فى الإمبراطورية .

ويعلق فيليب حتى فيقول إن « من المجد الخالد للإسلام فى العصور الوسطى أنه نجح لأول مرة فى تاريخ الفكر الإنسانى ، فى التنسيق والتوفيق بين الوحدانية التى هى أعظم إنجاز حققه العالم السامى القديم وبين الفلسفة اليونانية التى هى أعظم ما أنجز العالم الهندى / الأوربى القديم ، وبذلك قاد أوربا المسيحية نحو وجهة النظر الحديثة » . ويضيف حتى فى موضع لاحق « بالنسبة إلى المفكرين الإسلاميين كان أرسطو هو الحق ، وكان أفلاطون هو الحق ، وكان القرآن هو الحق ، ولكن الحق يجب أن يكون واحداً . ومن هنا نشأت الحاجة إلى التوفيق بين الثلاثة ، وأكبوا على أداء هذه المهمة » .

كان أبو على الحسين بن سينا أعظم هؤلاء المنسقين جميعاً وواحداً من أعظم الفلاسفة ذوى المواهب المتنوعة فى عصر العباسيين الذهبى . كان ابن سينا فارسيا من أهل بخارى ، ظفر لنفسه بلقب « شيخ الحكماء » . وكان عالماً وافر التحصيل فى شبابه ، وبدأ حياته العملية فى نهاية القرن العاشر بأن شفى سلطان بخارى الذى منح طبيبه الشاب حرية استخدام مكتبته المليئة بالمؤلفات ، اعترافا بالخدمة التى أداها . ولما بلغ ابن سينا الحادية والعشرين من عمره كان قد قرأ جميع كتب مولاه وبدأ يكتب لنفسه . وقبل وفاته فى أواخر الخمسينات من عمره كان قد أكمل ما يقرب من مائة مؤلف شملت موضوعات متنوعة مثل : الفلسفة ، والطب ، والفن ، والشعر ، والهندسة ، والفلك ، والموسيقى وعلوم الدين . فتحت تأثير أفلاطون وأرسطو كتب بصورة مستمرة تقريباً ، موسوعات فى الفلسفة والعلم . وجمع ونسق تفكير اليونان والعرب الطبى وأبحاثهم ، وابتدع نظريات جديدة لعلاج أمراض معدية عديدة . وعلى غرار كتب جابر والرازى ترجمت هذه المؤلفات إلى اللاتينية ، وظلت حتى القرن السابع عشر المرشد الرئيسى لعلماء الطب فى الغرب . وكما كتب السير وليم أوزلر فى كتابه « تطور الطب الحديث » ظلت أبحاث ابن سينا إنجيلا طبياً لفترة أطول من أى مؤلف آخر . أما عن إسهامه فى عالم العباسيين العربى والفارسى فيمكن القول بحق أنه عمل أكثر من أى فيلسوف أو كاتب آخر فى التاريخ ، من أجل تفسير معارف وعلم اليونان لعالم الإسلام . والحقيقة أن العمل الذى قام به ابن سينا يشكل قوس قنطرة العبور التى بناها المسلمون لتربط ثقافات اليونان القديمة وأوربا الحديثة .

ولكن إذا كان ابن سينا أعظم الفلاسفة الذين ساعدوا على التنسيق بين أرسطو وأفلاطون والقرآن ، فهو لم يكن الوحيد ، وبالتأكيد لم يكن الأول . فقبله بقرن ولد يعقوب بن اسحاق الكندى من أصل عربى بحت فى الكوفة ،

وعلى غرار ابن سينا برهن على أنه أكثر من فيلسوف . فإذ راح ينقب فى علوم التنجيم والهندسة والسيمياء وطب العيون والموسيقى ، كتب أكثر من مائتين وخمسين كتاباً ترجم الكثير منها إلى اللاتينية . وكان لنظرياته الهندسية المبنية على المناهج الرياضية اليونانية ، تأثيرها على روجر بيكون ، ومؤلفاته فى الموسيقى وهى تبين أيضاً مؤثرات يونانية ؛ ارتادت ميدانا جديداً . ومن معاصريه القريبى العهد منه محمد بن طرخان الفارابى من بلاد ماوراء النهر ، الذى طور نظريات أفلاطون وأرسطو السياسية والفلسفية وطبقها على الحياة العربية. كان الفارابى متنوع المواهب مثل الكندى ، وصنف كتباً فى الطب والموسيقى والرياضيات . وكان عازفاً ممتازاً على العود الذى قيل إنه كان يستطيع به أن يبعث الدمع فى عيون المستمعين أو أن يجعلهم ينفجرون من الضحك أو ينومهم .

وامتازت خلافة المأمون إلى حد كبير أيضاً بالتقدم فى الرياضة . والحق ، لعل أبقى وأهم ما أسهم به العرب فى العلم الغربى كان إدخال الأرقام والأعداد الإفرنجية الشائعة الآن ، وكان ذلك على أيدى محمد بن موسى الخوارزمى أعظم الرياضيين المعاصرين ، فضلا عن كونه عالماً نابهاً فى الفلك . ولد الخوارزمى كما يدل اسمه فى خوارزم فى وادى نهر جيحون عام ٧٨٠ ، وإليه ينسب أقدم مؤلفات معروفة عن علمى الحساب والجبر . وكانت هذه المؤلفات تستخدم مراجع نمطية فى مجالها ، فى أوربا حتى القرن السادس عشر ، وعن طريقها حصلت الأخيرة على نظام الأرقام والأعداد الافرنجية الشائعة الآن ، وهو النظام المقتبس فى الأصل من النظم الحسابية الهندية كما حصلت على علم الجبر من المسلم به أن التحول إلى الأرقام الافرنجية ، كان عملية بطيئة ؛ فحتى القرن الثالث عشر كان علماء الرياضيات الأوربيون ما يزالون يستخدمون الأرقام الرومانية القديمة المعقدة . ولكن بمجرد إدخال الأرقام الافرنجية على يد

الإيطالى ليوناردو فيبوناتشى الذى درس فى شمال أفريقية على معلم مسلم ، تعلقوا بالنظام الافرنجى. وحدث التقدم فى الحساب الرياضى الذى لو ظلت الأرقام والأعداد الرومانية سائدة ، لكان مستحيلا . (يكفى أن تفكر فى ضرب Mdclxxll فى Gdcclxlx !) وممن تأثروا بالخوارزمى نذكر عمر الخيام الذى تكمن شهرته فى الشعر ، ولكنه كان أيضاً رياضياً على درجة عالية من التفوق .

وحقق علم الفلك البعض من أهم خطواته فى القرن التاسع ، تحت رعاية العباسيين ، كما حدث الشىء ذاته فى علم الجغرافيا . هنا أيضاً كانت المؤثرات اليونانية بارزة ، وكانت المعدات النمطية بما فيها الأسطرلاب ، مبنية على النماذج اليونانية . وأجريت حسابات دقيقة بصورة رائعة ، لحجم وقطر الكرة الأرضية التى أصر الفلكيون المسلمون على أنها مستديرة . هذا وغيره من الأعمال العربية ترجم فى الوقت المناسب إلى اللاتينية على أيدى أديلارد الباثى الذى ترجم أيضاً مؤلف الخوارزمى عن الطريقة الهندية فى الحساب ونظام الأرقام والأعداد الهندية .

ويعزو علم الجغرافيا تقدمه إلى الإهتمام بالأراضى الأجنبية الذى أثاره التجار والملاحون العرب ، وإلى عظم مساحة الإمبراطورية العربية نفسها . كان هناك طلب كبير على مؤلفات بطليموس ، وترجمها الكندى وغيره إلى العربية فى القرن التاسع . واستخدم الخوارزمى هذه المادة لإجراء أبحاثه ، وأخرج بدوره مؤلفه الجغرافى « وجه الأرض » الذى أفاد كأساس قامت عليه الأبحاث فيما بعد . وبخلاف هذه الخرائط والكتب المبكرة كانت المعرفة الجغرافية مقصورة فى أول الأمر ، وإلى حد كبير ، على أوصاف وتوضيحات لمناطق وأشياء قريبة الشبه نوعا بكتب الدليل السياحية الحديثة . ولكن بمرور الوقت تقدمت الجغرافية الأدبية ، وبابتداء القرن الثالث عشر كان فى إمكان العباسيين

أن يلحظوا أنهم أخرجوا واحداً من أعظم الجغرافيين فى كافة العصور ، هو ياقوت بن عبدالله الحموى ، وأصله رومى بدأ حياته عبداً بالشام ، وكان معجمه الجغرافى الذى أتمه فى عام ١٢٢٨ أعظم الموسوعات فى كافة العصور . شق ياقوت ميداناً جديداً بهذا المؤلف الذى لم يتضمن جميع المعرفة الجغرافية الموجودة فحسب، ولكنه أضاف معلومات جديدة عن تاريخ البلاد التى غطاها وعن أصولها السلالية .

وقدر للخلافة العباسية أيضاً أن تبدأ تقدماً ملفتاً للنظر فى فن كتابة التاريخ. فبدءاً بالقرن التاسع بأبى جعفر الطبرى ، تكون جيل عظيم من المؤرخين الإسلاميين استمر سبعمائة عام حتى الفتح العثمانى فى القرن السادس عشر . إن الطبرى الذى يجعل منه التقليد أعظم هؤلاء المؤرخين جميعاً ، ولد عام ٨٣٨ فى طبرستان الواقعة جنوبى بحر الخزر . وإليه يرجع الفضل فى وضع أول تاريخ شامل عام فى اللغة العربية ، وهو « تاريخ الرسل والملوك » الذى بدأ بخلق العالم واستمر حتى عام ٩١٥ . ويقال إن الطبرى وهو عالم غزير الإنتاج ، متفان فى العمل ، كان يكتب أربعين فرخاً من الورق فى اليوم طيلة الأربعين عاماً التى استغرقها إتمام هذا العمل الضخم ، وإنه باع أكمام قميصه ليشترى الطعام لرحلاته التى قام بها بحثاً عن المصادر التى يستمد منها مادته ، وهى رحلات سارت به إلى أبعد أركان العراق وفارس والشام ومصر (١) .

وتلاه من حيث الترتيب الزمنى أبو الحسن المسعودى من مواطنى بغداد وكانوا يطلقون عليه اسم «هيرودوت العرب» . كان مؤلف المسعودى الذى أخرجه فى القرن العاشر بعنوان « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ينقب فى التاريخ الإسلامى واليهودى والرومانى والهندى ، وأكد الزعم الهام عن

---

(١) راجع الفصل الذى عقدناه عن الطبرى فى كتابنا « قادة الفكر الاسلامى فى ضوء الفكر الحديث » ، طبعة القاهرة — المترجم .

أنه عند الخليقة كان البحر يابسة وكانت اليابسة بحراً . كذلك اتخذ المسعودى تيكتيكاً جديداً لكتابة التاريخ ، خاصاً بسير الأشخاص . فبدلا من تسجيل الأحداث حسب الترتيب الزمنى على نحو مافعل الطبرى ، جمع هذه الأحداث حول الأسرة الحاكمة والشخصيات . وبعد ذلك بقرنين جاء عز الدين بن الأثير الذى لخص فى كتابه الشهير « الكامل فى التاريخ » المؤلف التاريخى الكبير الذى وضعه الطبرى ثم سار بالأحداث لتغطى فترة الحروب الصليبية . وفى القرن الثالث عشر أصبح أحمد بن محمد بن خلكان ، وهو من سلالة يحيى البرمكى وزير هارون الرشيد ، أول مسلم يؤلف معجماً يضم تراجم الشخصيات القومية [١] وأعقبه بعد سقوط الخلافة العباسية أبو الفداء الذى ينتمى إلى أسرة صلاح الدين ، فلخص بدوره تاريخ ابن الأثير ثم سار به حتى وقت وفاته فى عام ١٣٣٢ وكما لو أن الأمر كان من قبيل توافق الظروف ، شهد العام نفسه فى تونس مولد آخر المؤرخين العرب العظام وهو عبـــد الرحمن ابن خلدون . [٢]

كان ابن خلدون إبناً لأسرة عربية أسبانية هاجرت فى الأصل فى القرن التاسع ، من اليمن إلى أسبانيا ؛ وبدأ حياته موظفاً حكومياً فى عهد سلطان غرناطه فى سنة ١٣٦١ بعد القضاء على الخلافة الأموية فى أسبانيا بأكثر من ثلاثمائة عام . ولكن عندما أثارت صداقته مع السلطان غيرة الوزير القوى الذى لايرعى الضمير ، انسحب إلى الجزائر حيث بدأ فى إعداد تاريخ فلسفى للعرب والفرس والبربر ، وهو مؤلف من مجلدات ثلاثة أشهرها الأول وهو « المقدمة » . في هذا العمل الكبير شق ابن خلدون أرضاً جديدة تماماً بأن

---

(١) « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان المولود فى سنة ٦٠٨ ، والمتوفى فى سنة ٦٨١ من الهجرة . — المترجم .

(٢) راجع ما كتبناه عنه فى كتابنا « قادة الفكر الاسلامى » ، مصدر سابق . — المترجم .

قام بدراسة سوسيولوجية للتطورات التاريخية ، ربطت مؤثرات من قبيل المناخ والجغرافية وكذلك الدين والسياسة ، بسلوك وردود أفعال العرب وبنمو إمبراطوريتهم واضمحلالها .

كان ابن خلدون ، شأنه شأن الطبرى ، رحالة نشيطاً . وفى عام ١٣٨٢ ، وفى سبيل البحث عن مادة لمؤلفه الضخم ، شخص إلى مصر حيث أصبح أولا مدرساً فى الأزهر ثم عينه السلطان المملوكى قاضى قضاة القاهرة . وبعد سنوات قلائل صحب الجيش المملوكى الذى خرج إلى الشام لقتال المغول ، ويقال إن الزعيم المغولى تيمور لنك ، استقبله باعتباره رسولا من قبل المماليك . هذا اللقاء الغريب لم يكن بالنسبة إلى ابن خلدون سوى تجربة أخرى عن العلاقات البشرية يختم بها دراسته السوسيولوجية الكبرى التى لاتزال بلا منافس حتى اليوم ، كمرشد فلسفى ، وكرسالة عن طبيعة الجنس العربى وخلقه ومزاجه .

هكذا كانت معالم العصر الإسلامى البارزة وهو العصر الذى بدأ فى أوائل العصر العباسى ، وكان مبعث الإلهام للثورة العلمية بأوربا القرن السابع عشر . وما من حاكم عربى فعل أكثر من الخليفة المأمون لتشجيع وتنمية نواحى التقدم الثقافى هذه . وكإسهام شخصى من جانب هذا الإبن من أبناء هارون الرشيد ، فإنه استهل فى بلاطه عصراً من النقاش المستنير لم يُشهد أو يسمح به أبداً من قبل . ذلك أن المأمون كان ليبراليا فى الفكر بمثل ما كان كريماً فى الإنفاق ، ولم يكن ليحب شيئاً أكثر من أن يجادل العلماء علناً حول أقدس وأدق المسائل الخلافية فى الدين فى بلاطه فى قصر جعفر السابق . هذه المناقشات التى أجريت عمداً مع الفقهاء وعلماء الدين من جميع المدارس الفكرية من أشدها تطرفاً فى السنية إلى الزندقة تماماً ، قادته إلى الاعتقاد بخلق القرآن وذلك على خلاف التعليم التقليدى . أما أن الله « أوحى » به وأنزله فهذا

ما سلم به بسهولة ، ولكنه لم يستطع ولم يكن ليسهم فى الفكرة الخفية التى تذهب إلى أن القرآن كان كلمة الله «غير المخلوقة» أنزلت من السماء عن طريق رئيس الملائكة جبريل . وانطلاقاً من هذا أعلن المأمون المذهب الضال بالمثل الذى عن طريقه خفف أواخر خلفاء بنى أمية وبصورة قاتلة من قبضتهم التنظيمية على جيوشهم : هذا المذهب هو أن الحياة ليست مقدرة من قبل وأن الإنسان وهب إرادة حرة ويباح له أمام الله أن يفعل ما يشاء ، وأخيراً أكد أنه ليس هناك قوانين لا تتبدل تحكم العالم ، وأن كل شيء وحتى القرآن نفســـه يخضع للتغيير .

فى أول الأمر طبق المأمون ما بشر به بصدد الحرية الدينية ولكن سرعان ما أصبح الأكثر سنية من رعاياه ، من العنف فى معارضتهم ضلالاته بحيث اضطر إلى مقابلة العنف بالعنف ، وإلى أن يفرض مذهبه المتحرر على الخلافة ، بأن هدد الذين يقاومونه ، بالحرمان من المناصب أو الممتلكات أو حتى من الحياة . وإذ كان السلفيون يطاردون ويؤتى بهم قسراً أمام محكمة تفتيش الخليفة ، وبنفس الحماس المتقد الذى كان يستخدم من قبل ضد أهل الكفر ، فسرعان ما أدرك المأمون الحقيقة الساخرة التى اضطر إلى مواجهتها الكثير من «المحررين» فى الأزمنة الحديثة ، وهى أن التحرير غالباً ما يحتوى بذور طغيانه هو . وإن الخطاب الذى ألقاه عند ما تحداه بعض مشايخ أهل السنة أن يقرر ما إذا كان قد جلس على العرش عن طريق الرضا من جانب المؤمنين الصادقين أو أنه تولى العرش بطريق العنف ، هذا الخطاب يحمل نغمة حديثة مألوفة ، وفيه تحداهم بأنه فى اللحظة التى ينتخبون فيها سواه فسوف يتنازل على العرش .

لم ينتخبوا رئيساً . ولم يتنازل المأمون عن الخلافة . وحين مات فى سن الثامنة والأربعين ، بحمى التيفود ، كان قد سحق الثورات فى مصر وكردستان ، وأمّن حدود الإمبراطورية مع بيزنطة ، وعموماً قضى على جميع أعدائه وأعاد

نعم السلام والرخاء . ولكن بينما أثبت أنه ليس بالإدارى الضعيف ، وقام بنصيبه فى حفر الترع وتجفيف المستنقعات ورى الصحراء ، فالشيء الذى سوف يذكر به هو أنه راعى الفنون والعلوم المتفوق بين العرب . فهو الذى أشرف على أضخم يقظة فكرية فى تاريخ الاسلام ووجّهها ، وعلى واحدة من أهم اليقظات الفكرية فى التاريخ كله . قد يذكر الناس هارون الرشيد بسبب روعة وأبهة « ألف ليلة وليلة » . ولكن يحدثنا الثعالبى أن عصر التفوق العباسى استهله أبو جعفر ، ونضج وأثمر تماماً فى عهد المأمون. إلى هذا المزيج الرائع من الدم العربى والفارسى يجب أن يذهب الفضل الرئيسى فى تحويل بغداد من كوم من الأنقاض إلى مركز للثقافة والعلم فضلا عن الترف ، فى العالم فى وقت لم يكن فى استطاعة زعماء أوروبا حتى أن يكتبوا أسماءهم . ومن المفجع أنه لم يمر على موت المأمون أقل من سبعين سنة ، حتى كان تفوق العباسيين السياسى قد انتهى ، وراحت الخلافة تسير مرة أخرى فى طريق الإنحلال .

القسم الثالث

التفكك والإنحلال

(١٢)

مصر تنفصل عن الخلافة

من أخطر الأخطاء المميتة التى ارتكبها العباسيون ، تخفيف قبضتهم على أطراف الإمبراطورية . فعلى خلاف بنى أمية كانوا أكثر اهتماماً بإثراء مركز الخلافة وتجميله منهم بفرض حكمهم فى كافة أرجائها ، وهو اتجاه من التفكير كان لابد أن يشجع الولايات البعيدة على طرح نيرهم ولعل أباجعفر كان مصيباً إذ لم يدخل فى معارك كثيرة جداً مع الأمويين فى أسبانيا ؛ ولكن كما أظهر الأدارسة فى مراكش فسرعان ما أعطى تحدى عبد الرحمن لبغداد ، ولاة الأقاليم الآخرين بعض الأفكار الخطرة . ففى عام ٨٠١ حذت تونس فى ظل عاملها إبراهيم بن الأغلب حذو أسبانيا . كان ابن الأغلب قد عينه هارون الرشيد فى العام السابق ، فأسس على الفور إمارة مستقلة هناك ، وبإحساس تام بأنه فى مأمن من أى عقاب ، أغفل أوامر مولاه عند ما كان ذلك يناسب أغراضه . فضرب عملة خاصة به وحرص على عدم وضع اسم الخليفة عليها . وخلال السنوات المائة التالية فرض خلفاؤه حكمهم كاملا من عاصمتهم القيروان حيث فى موضع المسجد الأصلى الذى أقامه عقبة بن نافع أول من فتح شمال أفريقية من العرب ومؤسس القيروان ، بنوا المسجد الكبير الذى لا يزال حتى اليوم شاهداً على من كانوا أول من جعل تونس أمة مستقلة ، وأعطوا القيروان حقها فى أن تكون بالنسبة إلى المسلمين الغربيين رابع مدينة مقدسة فى الإسلام ، بعد مكة والمدينة وبيت المقدس . ولقد بلغ من تفوق وتسلط نفوذ الأغالبة فى القرن التاسع أن تمكنوا من أن يجتثوا من

أفريقية كل ما تبقى من آثار اللغة اللاتينية والديانة المسيحية ، وأحلوا مكانها العقيدة الإسلامية التى بقيت لا يتحداها سوى الزنادقة المارقون .

وإذ لم يقنع الأغالبة بتأكيد استقلالهم عن بغداد وبالقضاء على النفوذ اللاتينى فى شمال أفريقية ، عبروا البحر المتوسط وغـــزوا صقلية عام ٨٢٧ وكانت من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية . فكان هذا أول تأكيد كبير لقوة العرب البحرية التى كانت تعظم بإطراد منذ فتح مصر وما تلا من تدمير أسطول الروم . إن ضروب النجاح الأخرى المماثلة من قبيل الإستيلاء على قبرص ، وغزو أسبانيا ، واحتلال جزر البليار ، بالإضافة إلى الغارات التى كان يشنها القرصان العرب والبربر من وقت لآخر على صقلية وكورسيكا وسردينيا ، هذه النجاحات ساعدت العرب فى التغلب على خوفهم من البحر ، وراح الأغالبة فى جسارة ، يبنون أسطولا مسلحاً تسليحاً جيداً ليمدوا سلطانهم إلى أوربا . وهكذا عندما وصلت دعوة فى عام ٨٢٧ من بعض الثوار فى صقلية يطلبون المساعدة ضد التسلط الرومى ، استجاب الأمير الأغلبى وبعث بأسطول من سبعين سفينة وجيش من عشرة آلاف مقاتل نزلوا على البر الغربى من الجزيرة . وفى عام ٨٣١ كان قد تم الاستيلاء على بالرمو ، وسقطت مسّينا بعد ذلك باثنتى عشرة سنة . وبينما كان الغزو العربى ينتشر ببطء عبر الجزيرة أغار الأغالبة على سواحل إيطاليا واستولوا على بارى وهددوا نابلى وروما ، بحيث أنه لفترة عامين أحس البابا بالفعل أنه مضطر إلى أداء الجزية . وفى عام ٨٦٩ استولى الأغالبة على مالطة ، ثم أتموا فى عام ٩٠٢ فتح صقلية التى أصبحت جزءاً من العـــالم العربى طيلة مائة وتسع وثمانين سنة بعد ذلك .

لم يكن للمرة الأولى أن تحاول أسرة من المنشقين توسيع حدود الإمبراطورية العربية فى وقت كانت السيطرة فى المركز آخذة فى الضعف .

ولكن بينما انفصل الأمويون فى أسبانيا عند ما كان العباسيون يبدأون عصرهم الذهبى ، كانت الخلافة قد أخذت فى الواقع تتفكك من الداخل عندما ابتلع الأغالبة صقلية . ومن المفارقات أن السبب فى هذا الإنهيار الداخلى كان هو نفس العامل الذى سبق أن قدم أكبر إسهام فى قيام العصر الذهبى العباسى — غلبة المؤثرات الخارجية على الفكر والعمل العربى ، ونبذ التفوق العنصرى العربى الذى حاول عمر الإبقاء عليه . كانت عملية المزج العنصرى هذه تسير فى طريقها منذ الفتوح الكبرى فى العصر الأموى . فبسبب ما قضى النبي من أن النساء اللاتى يؤسرن من الكفار ، يصبحن ملك يمين ، فإن الألوف من النساء والفتيات من الشرق والغرب — من القوقاز حتى جبال أطلس ، ومن جبال هندوكوش إلى البرانس — جرى استيرادهن ليملأن حريم الأجيال المتعاقبة من الفاتحين العرب . وأى من هؤلاء النسوة يلدن ذكوراً لسادتهن فإنهن يرتفعن إلى مرتبة النساء الأحرار ويُقبل أبناؤهن كعرب أصليين . ومن هنا كانت كلمات الحزن التى ندب فيها الشاعر العربى تلوث الدم العربى الصرف ، حيث أبدى الأسف لكثرة عدد المحظيات ودعا الله أن يهدى خطاه إلى أرض لا يرى فيها أولاد الجرام .

وهكذا ، حتى فى أزمنة الأمويين ، كانت فكرة وجود أرستقراطية عسكرية عربية ، قد تضاءل بالتدريج كونها حقيقة . طُرحت جانباً الآن جميع المزاعم عن وجود تفوق عربى . وحتى فى مسألة وراثة الخلافة لم يعبأ العباسيون بالدم العربى . فلم يقف الأمر عند حد أن هارون والمأمون كانا نصف فارسيين بل إن من السبعة والثلاثين الذين جاءوا بعد العباس ، كان أربعة وثلاثون أولاد جوارٍ من الأعاجم أو الأتراك ، ولم يولد من أصل عربى شرعى سوى أبو العباس نفسه والد هارون وكذلك الأمين بن هارون . وسيطرت المؤثرات اليونانية والفارسية على الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية فى بغداد ،

وانمحى التأثير العربى مكانا خلفيا . ولما كانت الحكومة يدير شئونها وزراء من الفرس ، والأقاليم يتولاها عمال من أصل فارسى ، أصبح حرس الخليفة وجيشه مليئين بأبناء خراسان . أما الجند من رجال القبائل العربية ممن استبعدوا باعتبارهم جماعة تفتقر إلى النظام وتعجز عن الدخول فى معركة فاصلة ضد قوات مدربة أو عن استعادة صف ثلم ذات مرة[1] ، نقول إن هؤلاء الجند هبطوا إلى نوع من « الميليشيا الإقليمية » لا يستدعون إلا لملء صفوف قوة بعينها فى الحملات يغلب عليها العنصر الفارسى أو التركى .

اللغة العربية هى وحدها التى حافظت على مواقعها خلال السنوات الخمسمائة التى امتد إليها عمر الخلافة العباسية . فمن لغة للشعر فحسب فى عصر الجاهلية ، والدين فى زمن محمد ، أصبحت أداة للتعبير عن أفكار العلم والفلسفة ، ولغة الدبلوماسية ، من آسيا الوسطى إلى أسبانيا . ولكن اللغة لم تكن كافية لمساندة الخلافة ضد تلك المؤثرات الأجنبية التى راحت تعمل الآن للسيطرة على الخلافة .

وبتولى المعتصم وهو أخ المأمون وخلفه المباشر ، أخذ النفوذ الفارسى يخلى مكانه للنفوذ التركى كانت أم الخليفة الجديد أمة من التركان ضمها حريم هارون وكان المعتصم خلال حياته يفضل أن يتحدث بلغتها واتخذ عادات جنسها . ولما كان لا يثق فى الفرس والعرب على السواء استبدل الحرس الخراسانى بضباط وجنود من التركان . هذه الواردات الجديدة وتدعى أحياناً « المماليك » ومفردها العربى « مملوك » ، جاءت فى الأغلب من القوقاز وتركستان وفرغانة وغيرها من أجزاء آسيا الوسطى حيث أسروا هم أو أهلوهم فى أثناء

(١) لعل أكبر دليل ينفى هذه الصفات عن العرب من أبناء شبه الجزيرة أنهم هم الذين حطموا الدولتين البيزنطية والفارسية، واشتبكوا فى العديد من المعارك الفاصلة ضد قوات تفوقهم فى العدد والعدة . — المترجم .

فتوح الأمويين . وكان يؤتى بالألوف منهم كل عام إلى العراق ومصر وأجزاء أخرى من الإمبراطورية ؛ ولما كانوا لم يدربوا إلا على فن الحرب فإن هؤلاء المجاهدين الأشداء ذوى النزعة العـــدوانية ، ارتقوا بسرعة فى صفوف جيش الخليفة .

وقبل نهاية عهد المعتصم فى عام ٨٤٢ كان الأتراك قد تولوا قيادة الجيش ولهم سيطرة كاملة على الخليفة بالفعل . مثل هذه القوة أدارت رؤوسهم ، وبدأ الجند الأتراك يتصرفون فى شوارع بغـداد كالبلطجية ، يضربون الناس ويشتمون المارة لمجرد التلذذ بالإساءة إليهم وإذلالهم . وعندما لم ينصفهم الخليفة اتحد المواطنون للدفاع عن أنفسهم . ولـكن المعتصم لم يكن ليقبل الإساءة إلى رجاله من الأتراك ، فنقل على الفور مقر حكمه مع حرسه الوحشى إلى سامرّا الواقعة شرقى دجلة حيث بنى عاصمة جديدة . وعاقب البغـداديين التعساء ففرض عليهم الضرائب لتغطية تـكاليف البناء .

كانت هذه حركة سيئة الطالع على ما أثبتت الأحداث ، إذ كان تأثيرها الرئيسى وضع الخليفة تماماً تحت رحمة ضباطه الأتراك وزيادة إبعاده عن تأثير الرأى العام . ربما لم يكن المعتصم الذى يجرى فى عروقه الدم التركى ، ليعترض على هذا ، ولـكن بالنسبة إلى الخلفاء الثمانية الذين سوف يقيمون فى سامرا بعده خلال السنوات الثمانى والخمسين التالية ، أصبحت العاصمة الجديدة لا تزيد على كونها سجناً لا يُسمح لهم فيه بالبقاء على قيد الحياة إلا طالما أطاعوا سجانيهم الأتراك . وبحلول النصف الأخير من القرن كانوا قد فقدوا كل سيطرة على الخلافة . أصبح الحرس التركى هو الحاكم الأعلى ، يصنع الخلفاء ويعزلهم حسب أهوائه ونزواته ، ويقتل ويسجن من يرفض منهم تنفيذ أوامره أو يحاول الفرار من قبضته .

ولـكن إذا كان الأتراك تمـكنوا من السيطرة على الخلفاء فى سامرا ،

فقد كانوا أقل نجاحاً مع الأقاليم الممتدة إلى ما ورائها . فبعد موت المعتصم إهتزت دعائم الإمبراطورية بفعل سلسلة من ثورات متعاقبة فى فلسطين وبلاد العرب ومصر وفارس وأرمينية ، وحتى تحت أنوفهم فى العراق . فالأقاليم لم تشارك الخليفة حبه الشديد للمماليك الأتراك الذين كانت تعتبرهم جنساً أجنبياً من العبيد ينبغى إبقاؤهم فى المعسكرات تحت نظام صارم ودقيق . وعلاوة على هذا ، كان نظام حكم الأقاليم يسمح بقدر وافر من الاستقلال الذاتى المحلى فى المناطق البعيدة عن مقر الخلافة. حقيقة كانت عواصم الأقاليم يربطها ببغداد بريد الحمام الزاجل وشبكات من الطرق الرئيسية أنشئت لأسباب استراتيجية، وصحيح أيضاً أن جيوش الخليفة كانت تشتهر بخفة الحركة وسرعة الانتقال (ربما كانت كذلك لأن أرزاق الفرسان كانت ضعف أرزاق المشاة !) . ولكن برغم جميع هذه العوامل المساعدة للاتصال، ظلت سيطرة بغداد بعيدة . ولما أصبحت الولاية على الأقاليم وراثية زاد تحدى ولاتها للعاصمة . وبدأت عدوى نجاح انفصال الأغالبة فى تونس تنتقل إلى مصر ، وانفصل حاكم سجستان بشرق فارس عن الخلافة فى عهد المعتز سنة ٨٦٩ .

فى محاولة لوقف هذا الإتجاه الخطر بعث الأتراك بأحدهم إلى مصر ، ممثلا لحاكمهم الإسمى الذى بقى فى سامرا . كان أحمد بن طولون اسم هذا الإبن من أبناء عبد مملوكى سابق من أهل فرغانه ، كان عامل بخارى قد أهداه إلى المأمون . وتربى الإبن فى بلاط الخليفة ليتعلم مهنة الحرب ، برز شأن ابن طولون لأول مرة فى عام ٨٦٦ عندما حاول الخليفة المستعين الفرار من سامرا إلى بغداد . ولكى يستدرجه الأتراك من مخبئه عرضوا عليه الأمان ليتوجه إلى المدينة ، فلما خرج اقتادوه إلى بيت قاتل أجير فى واسط ، وهناك قتل . كان القاتل هو ابن طولون ، ومكافأة له على هذه الخدمة الدموية

التى أداها لرؤسائه ، ظفر بالترقية ، وبُعث به إلى مصر لتهدئتها ، على رأس قوة تركية كبيرة .

وبينما كان ابن طولون مشغولا بهذه المهمة وقع انفجار كبير فى العراق نفسه . كان هذا هو ما يعرف باسم ثورة الزنج (من الكلمة الفارسية «زنج» ومعناها « حبشى ») التى قام بها الزنوج الأحباش ممن يشتغلون فى مناجم نترات البوتاس فى دلتا الفرات . كان زعيم الثورة فارسياً طريد القانون ، زعم أنه من نسل على بن أبى طالب . وكان من قوة السخط فى العراق على الخلافة وسادتها من الأتراك، أن استولى الزنج فى ظرف عامين على البصرة وجميع الدلتا . وراحوا ينتشرون فى كافة الجهات، فاستولوا على واسط والبحرين ثم غزوا فارس . هذه العصبة من الزنوج ، غير الهيابة ، وتحركها مذاهب مستمدة من مبدأ الخوارج الجمهورى ، بثت الخوف فى الخلافة طيلة أربعة عشر عاماً ، وهزمت الجيوش التى سيرت ضدها ، الواحد بعد الآخر، وأخذت الآلاف من الأسرى رهائن عندها . وأخيراً فى عام ٨٨٣ ، بعد أن تقلصت قوتهم نتيجة انشقاق أفرادها ، قتل زعيمها وتحطمت الحركة .

إن المجهود الذى بذل فى سحق هذه الثورة التى بلغ عدد ضحاياها نصف المليون من الأنفس فيما يقال ، أدى إلى نفاذ خزائن سامراء . وإذ كان المعتمد يذكر مصير أخيه المعتز الذى خلعه الأتراك بسبب عدم دفع رواتب الجيش الذى أرسل إلى سجستان، أمر الأقاليم بتقديم المعونة المالية . فدفعت كلها عدا مصر حيث استقر رأى ابن طولون الآن على أن يستفيد من ضعف الخلافة ليقتطع مملكة لنفسه . هذا التحدى من جانبه يشير إلى نقطة تحول فى علاقة مصر بالبلاد العربية الأخرى . فلو استثنينا عودة قصيرة إلى حظيرة بنى العباس فى مستهل القرن العاشر ، فإن مصر أصبحت من الآن فصاعداً دولة مستقلة بالفعل ، وظلت كذلك إلى أن وضعت الامبراطورية العثمانية بعد ذلك

بستمائة عام ، نهاية للاستقلال الداخلى فى العالم العربى .

إن التماثل بين تحدى ابن طولون للخلافة وبين إعلان محمد على استقلال مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، أمر مثير للاهتمام جداً . فعلى غرار محمد على فيما بعد ، كان ابن طولون من رواد النزعة الإنفصالية المصرية وإن لم يكن هو نفسه مصرياً . فأنشأ جيشاً كبيراً حقق به استقلال مصر أولاً ، ثم عمل على أن يظفر بالسيادة على الإمبراطورية وعلى سادته السابقين . ومرة أخرى وكما فعل محمد على فيما بعد ، عمل ابن طولون على تهدئة شكوك سادته بأن عاونهم فى طرد قوى الغزو الخارجية ، ثم استولى على الأرض التى حررتها قواته . وفى النهاية ، تجاوز كل من هذين المغامرين حدود قوته ، فأُجبرا على التخلى عن فتوحهما والانسحاب إلى القاعدة المصرية التى بدأ كل منهما .

كان أول عمل قام به ابن طولون كحاكم مصر المستقل ، تنظيم جيش من ١٠٠,٠٠٠ من الأتراك والعبيد الزنوج ، فرض عليهم أن يقسموا يمين الولاء له شخصياً . ثم ، بينما كانت جيوش الخليفة تلعق جراحها التى سببتها ثورة الزنج ، استغل غزواً روميا للشام فعرض أن يبعث قوات لتذود عن ممتلكات الخليفة . لقى العرض قبولا ، وعندئذ شخص ابن طولون من الفسطاط على رأس جيشه مخلفاً ابنه ليتولى أمر مصر . كانت مقاومة الروم يسيرة ، وتم تطهير الشام من الغزاة بغير صعوبة . ثم ، وبالتظاهر بأنه يتعقب العدو إلى أرض الروم ، تقدم كى يستولى على الموصل . ولكن قبل أن يصل إلى هدفه وردت الأنباء بأن ابنه خرج من الفسطاط وهاجم الأدارسة فى تونس ، فى محاولة كسب نصر لنفسه . ولما لم تكن للصبى قوات كافية أصيب بهزيمة بالغة ، وارتد تماماً فى الوقت الذى رجع فيه أبوه إلى مصر ليعالج الموقف ومن أجل تلقين الصبى درساً أمر والده بجلده ، وجعله يأمر شخصياً بتقطيع الذى شجعوه فى هـذه الحماقة إرباً .

فى هذه الأثناء كان جيش ابن طولون قد زحف يستولى على الموصل ، وصمم الوالى الشاب الطموح ، وقد أصبح الآن سيد مصر والشام وشمال العراق على القبض على الخليفة وإحضاره إلى مصر . لم يقنع بما ظفر به ، فأراد أن يحكم الإمبراطورية كلها بتأييد من سلطان الخليفة . وعلى ذلك دُعى المعتمد إلى الانضمام إلى قوات ابن طولون التى تحتل الموصل لترافقه فى ظل حمايتها إلى مصر حيث يستطيع أن يقيم حاضرته بعيداً من الهزات والاضطرابات فى العراق. هذه الخطة الجريئة بصورة تبعث على الدهشة ، قربت من النجاح . فالخليفة قبل الدعوة وخرج يقصد الموصل ، مفضلا أن يكون تابعاً لابن طولون فى الفسطاط على سجنه الحالى فى سامرا . ولكن قبض عليه أخوه الموفق الموالى للأتراك ، وأعاده إلى سجنه فى سامرا

أما وقد خاب أمل ابن طولون فى هذه المحاولة من أجل السلطة العليا ، راح يدعم قبضته على الشام التى حُكمت الآن من وادى النيل لأول مرة منذ عصر الفراعنة . وفى سبيل هذه الغاية بنى قاعدة بحرية فى عكا ، ووضع الحاميات فى المراكز الاستراتيجية. كذلك طوّر الزراعة ، وحسن الرى ، على نحو ما فعل فى مصر . ولكن فى السنوات الأخيرة من حكمه بدأت الحاميات تنفض من حوله وتنحاز إلى جانب الخليفة ، بفعل قوة الرشوة . وبرغم أنه ظل حاكم الشام الإسمى حتى وفاته فى سنة ٨٨٤ لأن الخليفة فضل عدم الدخول فى مواجهة معه ، لم يعد فى إمكانه أبداً أن يعتمد مرة أخرى على ولاء الشاميين. وبعد أن أجبر على الانسحاب ركز اهتمامه على مهمة التحسين الاجتماعى والمعمارى فى مصر . فبنى أول بيمارستان للمرضى ، وقصراً منيفاً لنفسه . كانت جدران القصر محلاة بالذهب ؛ وتحدياً للنهى النبوى القاطع عن رسم صور الآدميين ، زينت الجدران بأشكال منحوتة على صورته وصور أزواجه وقيناته اللائى يغنين له ، وعلى رؤوسهن الأكاليل من الذهب . وفى حدائق القصر الغريبة قفص كبير لتربية

الطيور ، وحديقة للحيوان ، وبركة من الزئبق فوقها فرش من آدم يحش بالريح حتى ينتفخ ؛ وعلى هذا الفرش ينام الحاكم وأصحابه ، فلا يزال يرتج ويتحرك حتى يناموا . إن أعظم آثاره بالطبع هو جامع ابن طولون الذى صممه مهندس معمارى نصرانى ، ومكانه اليوم بالحى المعروف باسم مصر القديمة . (١) وكانت مأذنته تحاكى مثيلتها التى بناها المعتصم فى سامرا . وكان الصحن الفسيح الذى يحيط به من جوانبه الأربعة رواق فخم ذو أعمدة مع إفريز نقشت عليه آيات قرآنية ، يضفى على الجامع اتساعا وصفاء لا ينافسهما جامع آخر فى القاهرة

وكما هو شأن كل فاتح أو مغتصب آخر فى تلك الأيام ، أراد ابن طولون أن يؤسس أسرة حاكمة ، ولكن كان نجاحه فى هذا قصير الأمد . فابنه خمارويه ، المغامر الأحمق الذى حاول القضاء على الأغالبة ، أثبت أنه خلف هزيل لوالده ، وكان مسرفاً فى بذخ ، ومفرطاً فى تعاطى الشراب حتى كان موضع لعنة جميع المسلمين المؤمنين بسبب إسرافه وتطرفه . وبعد أن أثبت ابن آخر وحفيدان أنهم ليسوا بأفضل منه ، انتهت الأسرة الطولونية وعادت مصر فى سنة ٩٠٥ ، لثلاثين سنة بعد ذلك ، فوقعت تحت سيطرة العباسيين .

ولقـــد أحسن فيليب حِتِّى تلخيص عناصر النجاح أو الفشل فى التجربة الطولونية فقال إن ابن طولون « ضرب مثلا لما يمكن عمله فى مسألة الوصول إلى القوة العسكرية والسياسية على حساب خلافة كبيرة الحجم تصعب إدارتها ، وذلك عن طريق الطموح القوى الواثق الذى يساور جنديا من الرعية وتوابعه من العبيد . ولكن الطولونيين ... لم تكن لهم قاعدة وطنية فى الأراضى التى بسطوا عليها حكمهم ولذلك كان عمرهم قصيراً . كان ضعفهم ينحصر فى عدم وجود مجموعة متماسكة قوية من الأنصار من بنى جلدتهم . وكان الحكام أنفسهم دخلاء اضطروا إلى تجنيد جيوشهم من مصادر أجنبية شتى . ومثل هذا

(١) ومكانه حى السيدة زينب . المترجم

الحكم لايمكن المحافظة عليه إلا على أيدى رجال ذوى نفوذ شخصى بارز ؛ وبمجرد أن يخف أو تزول الذراع القوى للمؤسس يحل التفكك » .

هذا الرثاء سوف ينطبق بانتظام عجيب على المجموعات التركية المتنوعة التى تعاقبت على امتداد السنوات الثلاثمائة والخمسين التالية كسادة خلفاء بغداد إلى أن جاء المغول ومحوا الخلافة وعاصمتها من على سطح الأرض . إذا كان العرب لم يعد فى إمكانهم أن يديروا شئون إمبراطوريتهم فمن المؤكد أنهم جعلوا من الصعب بقدر الإمكان على الأجانب أن يديروا أمورها لهم . وكانت النتيجة لامفر منها . شاعت الفوضى وحل العطب بقيام سلسلة من الأسرات الحاكمة الصغيرة الشأن وطوائف الزنادقة فى جميع أنحاء الخلافة وإعلانها الاستقلال ، ومن الآن فصاعداً لم تعد الإمبراطورية تعمل كوحدة متماسكة للسلطة . وكما هو الحال بالنسبة إلى طائرة تحطمت فى أثناء هبوطها على الأرض، فانها عاشت طويلا بعد الصدمة الأولى وتخلصت من السيطرة كلما تمزقت . وأخيراً انفجرت واندلعت النار فيها ، لاتتحرك إلا بفعل قوة طيرانها الأصلية. سوف يظهر فيما بعد ، قواد فرديون لهم شهرة عالمية مثل عبد الرحمن الثالث فى أسبانيا ، وصلاح الدين والسلطان المملوكى بيبرس ، ويستعيدون الكرامة الضائعة للدولة العربية ، ولكن الخلافة كانت مؤسسة تحتضر ، ولم يعمل لمعان انتصاراتهم إلا على الكشف عما تعانى من داء مميت .

(١٣)

الصيف الهدى للأمويين

بانتصاف القرن التاسع عندما كانت امبراطورية بنى العباس قد بدأت في التفكك ، كانت الوحدة التى خلقها عبد الرحمن الأول فى الإمارة الأموية بأسبانيا ، تتفكك أيضاً بسرعة . فبعد أجيال أربعة منذ وفاة مؤسسها بدأت الولايات والمدن الأسبانية تخرج عن سلطان قرطبة . بدأ العفن فى كورة ريّه Rejio فى الجنوب وفى أرغن Aragon فى الشمال حيث تحالفت الأسرة القوطية الحاكمة مع ملوك ليون المسيحيين ، برغم تحولها إلى الإسلام . ثم سارت فى الاتجاه ذاته طليطلة الضجورة وقد أثارها رجال قبائل البربر ؛ ثم انفصلت أشبيلية وجلِّيقية Galicia ومرسية Marcia وكورة الغرب Algarve فى البرتغال. وثمة مسلم من نسل أحد نبلاء القوط الغربيين ، هو عمر بن حفصون ، أثار الجنوب ضد الأمير الحاكم ، وسيطر عليه طيلة ثلاثين عاما ضد خلفى الأخير ، عازلا قرطبة عن بقية أسبانيا ، بل وسعى وإن لم يصب نجاحاً ، إلى أن يعترف به الخليفة العباسى آنذاك والياً على أسبانيا .

وهكذا بابتداء القرن العاشر كاد تراث عبد الرحمن الأول أن يضيع كله ؛ وبعد أن كانت الإمارة الأموية العظيمة تضم سبعة أثمان شبه جزيرة ايبيريا ، إنكمشت فلم تتجاوز بضعة أميال مربعة من الأراضى التى تحيط بقرطبة . ولكن فى عام ٩١٢ جاء شاب فى الثالثة والعشرين من العمر يحمل الإسم المجيد لمؤسسها ، ليستردها وليرفعها إلى ذروة قوتها وشهرتها . كان عبد الرحمن الثالث وهو ابن لجارية نصرانية ، طويل القامة ؛ رشيقاً وذا عينين زرقاوين . وخاف جده عبد الله الذى بسبب استرابته فى خيانة والد عبد الرحمن ، أجبر

أبنه الآخر على قتله ثم عمل على قتل القاتل حتى يخفى آثار الجريمة .

شرع عبدالرحمن على الفور فى استرداد الولايات الضائعة . فخرج من حاضرته المحصورة واستولى على استجة Ecija وإلبيرة Elvic وجاين Gaen وبنهاية سنة ٩١٣ كانت عاصمة ريه تؤدى الجزية وفتحت أشبيلية أبوابها للأمير الجديد . حارب ابن حفصون بصلابة فى الجنوب لمدة أربع سنوات أخرى ، ولكن عندما توفى سنة ٩١٧ كان عبد الرحمن قد أوشك أن يعيد الولايات الضائعة إلى حظيرة قرطبة . لم تقاوم سوى طليطلة التى كان يسيطر عليها البربر ، وأخيراً فى عام ٩٣٢ تم إخضاع مركز المقاومة هذا .

ولكن متاعب عبدالرحمن لم تكن قد انتهت بعد . ففى أفريقية قامت أسرة علوية جديدة طردت الأغالبة من القيروان . وإذ سموا أنفسهم الفاطميين لزعمهم بأنهم من سلالة النبي عن طريق ابنته فاطمة ، صمموا الآن على هدم بقية أعدائهم الأمويين التقليديين وأعلنوا الحرب على إمارة قرطبة . ولكن موت ابن حفصون حرمهم من حركة يقوم بها طابور خامس يمكن الاعتماد عليه فى أسبانيا ؛ كما كان بعد نظر عبدالرحمن فى بناء بحرية ، عاملا فى إخفاق خططهم للغزو بطريق البحر . وبذلك أوقف الفاطميون فى مساعيهم ؛ واستفادة من فشلهم أخذ الأمير الشاب المبادرة وانتقل إلى أفريقية حيث استولى على سبتة Ceuta وأجبر معظم ساحل البربر على أن يدين له بالولاء .

ولكن كان لا يزال من المتعين عمل حساب لأردنيو ملك ليون (١) بينما كان عبدالرحمن يعالج أمر التهديد الفاطمى فى الجنوب . أوغل أردونيو فى الأراضى الإسلامية ، وأسر قائداً أموياً وسمر رأسه فى جدار حصن على نهر دورو . وفى عام ٩٢٠ نزل عبدالرحمن إلى الميدان وأخرج أردونيو إلى نافار ، واستولى على بنبلونة Pamplanc ، وعاد ظافراً إلى قرطبة . ثم واصل ضغطاً مستمراً على

---

(١) أو جليقية . — المترجم .

ليون ونافار حتى سنة ٩٣٩ حين بلغ التحرش بالملكين المسيحيين حداً يفوق الاحتمال ، فاتحدا وكادا يمحوان جيشه . هذه النكبة علمت الأمير درسا لم ينسه أبداً ، ومن الآن فصاعداً ترك المسيحيين وشأنهم فى ذلك الركن من أسبانيا ، مقابل معاهدة وقعت فى احتفال مهيب فى قرطبة ، اعترفت بسيادته على بقية شبه جزيرة ايبيريا .

قبل هذا الاحتكاك النهائى مع الجيران المسيحيين بعشر سنوات ، كان عبدالرحمن قد أعلن نفسه خليفة وبذا وضع نهاية لسنة إنكار الذات التى تقيد بها كل حاكم لأسبانيا منذ فرض سميه استقلاله عن بغداد . لم يقدم المؤرخون سبباً مقنعاً للتغيير . ولكن خشية الظن بأن مافعله يمثل واحدةمن حالات جنون العظمة من جانب عبد الرحمن ، فإن من الإنصاف أن نلاحظ أن الخلافة فى هذا الوقت كانت تتجه نحو التمزق ، وكان شمال أفريقية ومصر والولايات الشرقية يؤكدون استقلالهم . فى ظــــــل تلك الظروف كانت أسبانيا العربية تعنى بالنسبة إلى العالم شيئاً أكثر من تلك البقية الممزقة من الإمبراطورية العباسية .

وعلاوة على هذا كان بلاط قرطبة أكثر من غيره بهاء وجلالا فى التاريخ ، ولا يباريه فى أيامه سوى القسطنطينية . وكان فيه سفراء معتمدون من قبل الإمبراطور البيزنطى ومن بلاط كل من ألمانيا وإيطالياوفرنسا وكان القصر الملكى المطل على الوادى الأخضر العريض الذى يغذيه نهر الوادى الكبير ، يضم أربعمائة غرفة بالإضافة إلى الغرف السكنية للألوف العديدة من العبيد وأفراد الحرس . وبلغ عدد سكان قرطبة ٨٠٠ر٠٠٠ نسمة وهم اليوم ١٨٠ر٠٠٠ فحسب . ووصل عدد المساجد إلى سبعمائة ، وكان هناك ثلاثمائة حمام فى وقت كانت الأجناس الأوربية لاتزال تعتبر الاستحمام عادةوثنية . وكانت الشوارع وطولها عشرة أميال ، مرصوفة ومضاءة ، وهو تطور لم يقدر للندن وباريس

أن تنعما به طيلة سبعمائة سنة أخرى ، كان أهلهما خلالها يتحسسون طريقهم أميالا فى الظلام الحالك ، وغالباً ما تغوص أرجلهم حتى الرسغ فى الطين . وكان هناك سبعون داراً للكتب ، وفى عهد الحكم وهو ابن عبد الرحمن وله ولع شديد باقتناء الكتب ، تم جمع ٤٠٠٫٠٠٠ مجلد من دور الكتب والمكتبات فى الأسكندرية ودمشق وبغداد بينما لم يكن هناك أكثر من ١٠٫٠٠٠ مجلد بالإنجليزية فى أى مكان آخر بالعالم . وكان حكام ليون ونافار وبرشلونه إذا احتاجوا إلى طبيب أو مهندس معمارى بعثوا يطلبونهم من قرطبة وليس من فرنسا أو ألمانيا . وجذبت جامعة قرطبة الطلاب من أفريقية وأوربا وآسيا. وكان الإلمام بالقراءة والكتابة عاماً — فيؤكد رينهارت دوزى أن « كل شخص تقريباً يستطيع القراءة والكتابة بينما كانتا فى أوربا المسيحية ، ماتزالان احتكاراً لرجال الدين وعدد قليل من الكتبة المحترفين » .

وفى الصناعة أيضاً سارت أسبانيا قدماً بقيادة عبدالرحمن . فازدهر النسج والصناعة الجلدية ، والحقيقة أن مراكش تعلمت الأخيرة من أسبانيا العربية . وتقدمت صناعة الزجاج والخزف بسرعة ، كما تقدم استخراج معادن الذهب والفضة والحديد والرصاص . واشتهرت طليطلة بعمل السيوف ، وبتمليس الصلب بالذهب والفضة ، وكلا الفنيين استورد من دمشق .

وانتعشت الزراعة إذ استفادت من الرى الذى أدخله العرب الذين جاءوا إلى أسبانيا أيضاً بالفواكه الحمضية التى سبق أن وردت إلى العالم العربى من الهند ، وكذلك العنب والخوخ والبرقوق والقطن وقصب السكر . ومايزال الطابع العربى يشاهد فى بساتين ومزارع الكروم فى أسبانيا الحديثة .

وقامت تجارة صادر رابحة ينقلها أسطول عبدالرحمن البحرى إلى أبعد أركان المعمورة . وكانت إنجلترا وفرنسا تستوردان منتجات أسبانيا التى شقت طريقها أيضاً ناحية الشرق حتى وصلت إلى الهند ووسط آسيا . إن

الأصل العربى لبعض مفرداتنا البحرية الحديثة مثل « أميرال » admiral « وتعريفة » tariff تشهد بما كان لهؤلاء الملاحين التجار العرب من تأثير واسع الانتشار . كذلك فالعملة التى أدخلها العرب الأسبان كانت خلال السنوات الأربعمائة التالية أداة التبادل النقدى الوحيدة فى أجزاء من أوربا .

مثل هذا الرخاء جاء بإيراد ضخم . أصبح مبلغ قدره ستة ملايين وربع المليون دينار يصب الآن فى بيت مال الخليفة كل سنة . ومن هذا المبلغ يجنب الثلث كاحتياطى ، وينفق ثلث على الجيش ، ويخصص الباقى للأشغال العامة والبناء . كان عبد الرحمن مسرفاً فى إقامة المبانى . فبنى جامعة قرطبة والكثير من المساجد السبعمائة ، فضلا عن تكبير الجامع الكبير الذى شيده سميه من قبل . وما من شك أن أجمل عمل قام به هو قصر المرمر الفخم الواقع على مسافة بضعة أميال من قرطبة ، والذى بناه من أجل محظيته الأثيرة « الزهراء » وسماه باسمها ومعناه « ذات الوجه الصبوح » . جىء بأكثر من أربعة آلاف(١) من سوارى الرخام من إيطاليا وقرطاجنة وبيزنطه واستخدمت فى إتمام هذا العمل الرائع الدال على الحب ، وكدح عشرة آلاف من أصحاب الحرف تحت إشراف أعظم مهندس معمارى بيزنطى آنذاك لمدة عشرين عاماً حتى أكملوه. واليوم فإن كل ما تبقى منه هو الأسس وعدد قليل من الجدران والأرضيات من القصر ومن الضاحية الملكية التى قامت حوله وكانت تضم أكثر من اثنى عشر ألف نسمة . أما الباقى فنقل بالعربات بعد الفتح المسيحى فى القرن الخامس عشر لبناء ديرسان جيرونيمو القرنفلى اللون والشاسع ، فى التلال هناك . ولكن ، مع هذا ، لن يتطلب الأمر الكثير من جهد الخيال كى نرسم صورة ذهنية لعظمة القصر بأقواسه الرشيقة ، والقطع الخزفية الرائعة التى تظللها أشجار السرو ، وحدائقه وبساتينه الممتدة حتى شواطىء نهر الوادى الكبير

---

(١) قيل ٤٣٢٤ — ريه — المترجم .

وهو عمل جدير حقاً بالمرأة التى أعطت هذا الحاكم العظيم ، المتعة الحقيقية الوحيدة التى عرفها . وعندما رقد عبدالرحمن فوق فراش الموت فى سن الثالثة والسبعين وبعد أن حكم أسبانيا خمسين عاما ، صرح أنه خلال حكمه الطويل لم يمر به سوى أربعة عشر يوما من السعادة . وما من شك أنه قضاها وسط روائع قصر الزهراء التى كانت مبعث الإلهام بها .

نجح ابنه وخليفته الحكم فى المحافظة على تماسك الخلافة الأسبانية طيلة عهده الذى دام خمسة عشر عاماً . فلما مات سنة ٩٧٦ وخلفه ابنه هشام ذو الإثنى عشر ربيعاً ، أصبح حاكم قرطبة الحقيقى محدث نعمة عديم الضمير ، هو محمد بن أبى أمير الذى اتخذ لنفسه لقب « المنصور » ، تفاخراً وتظاهراً . كان المنصور خلال حياة الحكم كاتب رسائل فى البلاط ، ولما مات الخليفة نجح فى كسب الحظوة عند أرملته ، وسرعان ما لم يصبح عشيقها فحسب وإنما صار أيضاً كبير حجاب القصر ووزيرها أيضاً . وإذ سيطر على حرس الخليفة الصبى ، وهم أخلاط من أربعة آلاف من المولدين[1] ممن دعاهم عبد الرحمن « الصقالبة » وحولهم إلى الإسلام ، جدد المنصور الحرب ضد ليون ونافار . وفيما بين عام ٩٨٥ ونهاية القرن ، حرب الركن المسيحى من أسبانيا ، ونهب برشلونه ودمر ليون . ولكن فى عام ١٠٠٢ أضاع كل ما ظفر به ، وقتل وهو يحارب فى قشتاله .

كان انتصار المنصور القصير الأمد علامة على آخر فتح عربى فى أسبانيا ، وبموته بدأت الخلافة الأسبانية تموت أيضاً . وتمشياً مع التقليد انقلب الحرس الإمبراطورى من الصقالبة على الخليفة الشاب وجعلوه سجين أمرهم . وثار البربر من جديد كى يغتصبوا كل مايقدرون على اغتصابه من الدولة الأموية الآخذة فى التفكك . تخلى هشام عن الخلافة عام ١٠٠٩ ، وخلال اثنتين وعشرين

---

(١) سلالة القوط والنصارى الذين أسلموا . المترجم .

سنة بعد ذلك تعاقب ستة خلفاء مختلفون بصورة تبعث على الحيرة لم تكن لأى منهم سلطة أيا كانت ؛ وكان كل منهم ألعوبة إما فى أيدى الصقالبة أو البربر أو أهل قرطبة ، وعندما يكون قد خدم أهداف الشيعة المؤيدة له ، أو عندما تكون شيعة أخرى قد أصبحت أشد قوة ، فكان يقتل على أيدى حرسه أو يدس له السم أو يختفى وحسب فى بعض الأحيان . وكان آخر أفراد هذا الفرع هشام الثالث الذى زج به فى سجن مظلم بينما عقد العسكريون المسيطرون على الوزارة ، اجتماعاً عاماً ليقرروا ما إذا كانوا يبقون على الخلافة الأسبانية أو يلغونها . وفى ظلام دامس جلس هذا الشخص التعس من سلالة عبدالرحمن العظيم ، نصف عارٍ ويكاد يختنق من رائحة السجن الكريهة وهو يضم ابنته الصغيرة إلى صدره . ولما جاء سجانوه يبلغونه أنه تقرر إلغاء الخلافة وإقامة مجلس دولة جمهورى ، كان رد الفعل الوحيد من جانبه أن يلتمس ضوءاً وبعض خبز لطفلته الجائعة .

بنهاية القرن الحادى عشر كان النفوذ العربى فى أسبانيا يتضاءل فى كل مكان ، ويخلى مكانه للبربر أولا ثم للنصارى . ففى أعقاب خلافة متحدة جاءت عشرون أسرة حاكمة صغيرة وجمهورية ، كل منها فريسة سهلة لملوك الشمال النصارى الذين استولوا على الأراضى حتى طليطلة وبلنسية . خسر العرب الأرض ببطء ولكن بصورة مؤكدة . ودارت الموقعة الحاسمة فى عام ١٢١٢ عند لاس نافاس دى تولوزا ، حيث سحقت مجموعة كبيرة جبارة من الجيوش المسيحية من قشتالة وأرغن ونبرّه (نافارا) الجيش العربى . خرت أسبانيا العربية تحت أقدام الفاتحين . فسقطت قرطبة فى سنة ١٢٣٦ ، وأشبيلية فى ١٢٤٠ ، ولم يصمد سوى رندة Ronda بجبليها التوأمين ، وغرناطة . ولكن حتى هاتين سحقتهما بعد ذلك بقرنين الجيوش المشتركة التى تمثل فرديناند ملك أرغن وإيزابلا ملكة قشتالة . حوصرت غرناطة ، وبأهلها الذين تجمدت أجسادهم من

البرد ويتضورون جوعا ،سلم حاكمها أبو عبد الله الذى دعاه الأسبان Boabdil المدينة بشروط تسمح له بضيعة ولأهل غرناطه بحرية العبادة كما يشاءون . وهو امتياز سحب بعد ذلك بسبع سنوات عندما أمرت محاكم التفتيش بطرد جميع الذين أبوا التحول إلى المسيحية . لقد اتهم أبو عبد الله بالتواطؤ مع الأسبان؛ وسواء كان هذا صدقا أو باطلا ، فإن قبريته فى التاريخ سوف تكون دائما الكلمات المرة التى تحدثت بها أمه إليه وهو يحدق للمرة الأخيرة والدموع تنساب من عينيه ،إلى الحصن العربى الأحمر الفخم: إبك كامرأة على ماعجزت عن الدفاع عنه كرجل .

هكذا اختفت البقايا الطافية من السفينة الأموية الغارقة ، وتم اجتياح ثالث وآخر إمبراطورية عربية ، وكما كان الحال مع الأمويين فى الشام ومع العباسيين فى العراق ، كان مع الأمويين فى أسبانيا : لقد بلغ العرب ذروة من القوة والسمعة بفضل زعامة عدد قليل من الحكام العظام حقاً ، ثم ليخسروا كل ما كسبوه بمجرد رحيل الحكام العظام . وقبل انتهاء القرن العاشر، وإذ لم يعد لدى الأمويين أو بنى العباس قادة عظام ، لم يعد البيتان الحاكمان قوى سياسية فعالة فى العالم .

وعلى ذلك ربما تكون هذه هى اللحظة المناسبة لنرتد بالبصر إلى البلاد الأربعة التى ولى أمورها البيتان ، وأن نقارن إنجازاتهما . وإذا اضطلعنا بمهمة المقارنة بموضوعية فإن من المستحيل أن نخالف النتائج التى استخلصها السير وليم ميور فى تاريخه عن انحلال وسقوط الخلافة العربية فيقول: « واضح أن أزهى أيام الإسلام هى أيام بنى أمية . فمعاوية والوليد لا يحجبهما ظل هارون أو المأمون أو الروايات الاخبارية التى نعتمد عليها والتى كتبت تحت تأثير التفوق العباسى تميل إلى تمجيد ذلك البيت على حساب البيت الأموى . وحتى مع كل عمليات الاستعمار الزائدة التى قام بها العهد العباسى ، فهو يتضاءل أمام مجد البيت

الأموى الذى عمل بفتوحاته على توسيع أسس الاسلام فى الشرق والغرب ».
ويفسر ميور الأمر بقوله أن « السبب الرئيس فى تفوق الأمويين كان عادات الرجولة والاعتدال والجسارة التى اتصف بها الشعب العربى الذى اعتمدوا عليه . فمنه كانت تتكون المادة الرئيسية لبلاطهم ووزرائهم ، وقوادهم وشركائهم . . . كان حب حياة الصحراء الكامن فى نفس العربى، عنصراً عمل إلى حدما على تصحيح التراخى ووهن العزيمة اللذين كانا يزحفان الآن على العالم الاسلامى . وفى ظل العباسيين تغير كل شىء. فوقعت القيادات العليا من مدنية وعسكرية ،سريعا فى أيدى المغامرين من الأتراك والأعاجم . سرح العرب كقاعدة ، وجندت القوى الإمبراطورية من قبائل آسيا الوسطى أو من البربر فى الغرب . وهكذا انسحب العرب إلى الصحراء وهم على استعداد لأن يسيروا وراء أى خارج على القانون ، يناشد حبهم الفطرى للسلب والتمرد والغزو » .

من المؤكد أن الوليد والحجاج كانا يصران بأكثر مما يجب على وجود طبقة حاكمة عربية وبذلك دفعا أهل الأقاليم الشرقية الذين أحسوا بالمرارة ، إلى الثورة السافرة بمجرد عدم وجودهما لإخمادهم، ولكن هارون والمأمون وخلفاءهم ذهبوا إلى الطرف الأقصى المضاد ، فاعتمدوا اعتماداً خالصاً على النفوذ الفارسى والتركى لتوجيههم وحمايتهم، وبذلك حصروا مصيرهم بأنفسهم . كان بنو أمية بنائين أساساً هدم بيتهم سكانه من أهل الشرق الذين تملكهم الغضب الشديد ؛ وكان العباسيون مقترضين أساساً فلما انتهى أجل الإجارة استولى عليه أصحاب الديْن . كلاهما كان قصير النظر ، وعن طريق تجاهلهم الأعمى للمستقبل عجلوا بنهايتهم . ولكن الجزاء عن النظام والاعتماد على النفس والإنجاز الإمبراطورى ، يجب أن يكون من نصيب الأمويين الذين بنوا فيهما يزيد قليلا على خمسين عاما ، أعظم إمبراطورية فى العالم من الصين إلى المحيط

الأطلسى ـ بجيش محترف على درجة عالية من التدريب لم يكن قبل ذلك بوقت طويل سوى مجموعة صعبة المراس من قرصان البر ، كانت تكرس نفسها للإغارة على معسكرات وقطعان بعضهم وسلبها ، ولعبادة الأصنام كما كان يفعل أسلافهم منذ العصور الموغلة فى القدم .

لم يقصر الأمويون عن بنى العباس إلا فى مجالات الأدب والعلم . ففى الشرق والغرب على السواء ، جاءت ذروة الإنجاز الثقافى الإسلامى بعد سقوط الأمويين. فى تاريخ معظم الشعوب نادراً ماهيأت فترات الانتصارات العسكرية الكبرى المناخ الصالح للنبات الثقافى الغزير . ولم يكن العرب استثناء من القاعدة ، وعموماً فهم حققوا أخصب إنجازاتهم الثقافية فى تلك الفترات من الإسترخاء ، ومن الإنحلال فى الغالب ، التى أعقبت أعظم سنى الفتح والتوسع . كانت الإمبراطورية قد تجاوزت ذروتها عندما بزغ فجر عصر العلم فى بغداد القرن التاسع ؛ وكما زاد تدهورها كقوة سياسية وعسكرية ، ارتفع إنجازها وتأثيرها الثقافى باطراد .

نفس القصة نلقاها فى أسبانيا العربية . صحيح أن عهد كل من عبدالرحمن الثالث وابنه الحكم الشغوف باقتناء الكتب ، غرس بذور التطور الفكرى وثبّت قرطبة كمركز أوربا الثقافى . ولكن ما عملته طمسته القفزة الكبرى إلى الأمام ، التى تلت سقوط الأمويين الأسبان . ففى الأدب والشعر والموسيقى أثرت أسبانيا العربية فى أوربا وبصورة أدوم من تأثير العباسيين بفارس والعراق . كان على بن حزم وهو من أغزر المؤلفين إنتـــاجاً فى جميع العصور ، حفيد أسبانى تحول عن النصرانية واعتنق الإسلام . وخدم فى شبابه وزيراً لهشام الثالث التعس آخر خلفاء بنى أمية فى أسبانيا ، ثم تحول إلى الكتابة عند ما عزلت العصابة العسكرية مولاه . وأتم نحو أربعمائة مجلد تشمل موضوعات متنوعة كالتاريخ والشعر ، وعلوم الدين والمنطق .

وكان معظم الملوك صغار الشأن الذين جاءوا بعد انهيار الخلافة الأموية في قرطبة ، يعينون أمراء للشعر في بلاطهم ، ونشأ تنافس غيور بين دول أشبيلية وطليطلة وغرناطة ، حيث كان كل حاكم ينافس الآخرين من أجل التفوق الأدبي ، وكان الجميع مصممين على أن يفوقوا سجل قرطبة . إن الكثير من موسيقى أسبانيا اليوم مثل الفلامنجو الشهيرة ، ترجع بأصولها إلى الأغاني الشعبية وقصائد الغزل التي ألفها الشعراء والموسيقيون العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ويغنيهـــا المنشدون الطوافون الذين يعتبرون أسلاف التروبادور troubadours الذين عرفتهم أوربا فيما بعد .

وكانت أسبانيا العربية تضع تأكيداً على التعليم العام أكبر ممـا وضعته البلاد الأخرى بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط ، وبوجه خاص لم يكن النساء يخضعن لصنوف التفرقة المعروفة في العالم العربي الشرقي ، وبرعت نسبة عالية من السكان في العلوم الأولية وهي الكتابة والقراءة (وبصفة رئيسية من القرآن) وأجرومية اللغة العربية والشعر . وبانتصاف القرن الرابع عشر لم تكن قرطبة فحسب ولكن كانت غرناطة ومالقة وأشبيلية تفاخر بمـــا تملك من معاهد للتعليم العالي تدرس فيها علوم الدين والفلسفة والشريعة والرياضة والطب والفلك والتاريخ والجغرافيا . وكان لكل بلاط ملكي مكتبته ، كما كان هناك الكثير من المكتبات الخاصة . والحقيقة ، أصبح امتلاك مكتبة من كتب مجلدة تجليدا فاخراً ، رمزاً يدل على مكانة الطبقات الأوفر ثراء ، وأن تلك الثروة من المخطوطات العربية والموجودة اليوم في قصر الاسكوريال القريب من مدريد ، والتي هي أغنى ما يملك العالم من نوعها ، هـــذه الثروة جمعها فيلب الثاني وفيلب الثالث مما تبقى من مكتبات أسبانيا العربية بعد الغزو المسيحي .

في علوم الدين والتاريخ والفلك لم يقرب العرب الأسبان من تفوق الخلافة

العباسية ، فلم تتغلغل الثقافة اليونانية والفارسية فى أسبانيا ، وكان هناك القليل من المعرفة الوطنية الذى يمكن أن يحاكوه . واحد فقط من كبار المؤرخين المسلمين كان من أصل أسبانى ، ذلكم هو عبد الرحمن بن خلدون . وبرغم أن أوربا اكتسبت معرفتها بالأبحاث الفلكية العربية من أسبانيا فإن علماء الفلك الأسبان ركزوا بوجه خاص على تهذيب مؤلفات الخوارزمى ومعارضة تأكيدات بطليموس دون أن يضيفوا الكثير من التفكير الإيجابى من عندهم .

ولكن فى ميادين الطب وعلم النبات والفلسفة ، كما فى الأدب والشعر ، يمكن للعرب الأسبان أن يدعوا أنه كان لهم تأثير غالب على التطوير الثقافى الأوربى . فمن الزهراوى طبيب بلاط الخليفة الأموى الأسبانى الحكم الثانى والذى اكتسب الشهرة بأنه أعظم جراح فى العالم العربى ، إلى الفيلسوف والطبيب العظيم بالقرن الثانى عشر وهو ابن رشد الذى يعرفه الأوربيون فى العادة باسم Averroes — فإن العلم الطبى الذى جمعه العرب الأسبان من مصر والعراق وفارس ، كان يصب فى أوربا المسيحية فى مجـــرى مستمر . (لاتزال هناك آثار تدل على التأثير العربى ، وذلك فى لغة الكيمياء التى تدين للاشتقاق العربى بمصطلحات من قبيل : صودا ، وكحول وشراب وقلوى) .

من العبث الادعاء بأن قرب أسبانيا النسبى لم تكن له علاقة بهذا التأثير ، بل وكان التقدم الذى حققه العرب فى البحث أكثر أهمية بالنسبة إلى المترجمين الأوربيين من أمثال جيرار الكريمونى الذى نقل مؤلفات الرازى وابن سينا والزهراوى إلى اللاتينية ، وإلى أبيلارد الباثى مترجم الخوارزمى . ذلك أنه فى وقت كان فيه الأطباء الممارسون الأوربيون لايزالون ضيقى الأفق العقلى بفعل العقيدة المسيحية ، تمكن العرب من العمل بطريقة علمية فى جو متحرر نسبياً من التعصب الدينى . مثال ذلك أنه فى القرن السابع عشر كانت أوربا

المسيحية ما تزال تعتقد اعتقاداً راسخاً أن الموت الأسود كان من فعل الله ، بينما أصر طبيب مسلم من غرناطه على أنه مرض معدٍ كما « أثبتت التجربة والبحث وأدلة الحواس والتقارير الجديرة بالثقة » .

وكان علم النبات علماً آخر ازدهر فى أسبانيا العربية . فلم يقتصر الأمر على استيراد الكثير من الفواكه والأزهار من الشرق العربى ، ولكن أجريت أبحاث واسعة النطاق عن حياة النبات والتربة والأسمدة . وكان عرب أسبانيا موضع الاعتراف فى العصــــور الوسطى ، بتفوقهم فى وصف أنواع علاج لأمراض النبات .

ولكن على ما يحدثنا فيليب حِتّى « كان الإنجاز الذى توج هامة الطبقة المثقفة من العرب فى أسبانيا ، هو فى ميدان الفكر الفلسفى . هنا كونوا آخر وأقوى حلقة فى السلسلة التى نقلت الفلسفة اليونانية ، كما نقلوها هم وإخوانهم فى الدين فى الشرق ، إلى الغرب اللاتينى وأضافوا ما أسهموا به من عندهم وخاصة فى التوفيق بين الإيمان والعقل ، وبين الدين والعلم » . ففى مجال الفلسفة ، كما فى البحث الطبى ، كان العرب فى العصور الوسطى أقل تقيداً بكثير بالعقيدة الدينية ، من الأوربيين . ويكفى أن نقول إن إثنين من أنجح فلاسفة أسبانيا العربية وأشدهم تأثيراً كانا من اليهود ، وهما سليمان بن جابيرون وموسى بن ميمون . وكان ابن رشد وهو آخر وأعظم الفلاسفة العرب عقلانية ، راسخ العلم ، أخضع كل شيء باستثناء أقدس تعاليم الإسلام ، لاختبارات العقل الباحثة .

وفى مقدمة التعاليم التى أخضعها ابن رشد لهـذا المنهج ، مؤلفات أرسطو . فبرغم أن موسوعته فى الدواء وأبحاثه فى الجدرى وأمراض العيون ، أسهمت فى البحث الطبى بمثل ما أسهم أى طبيب عربى آخر ، فسوف يذكر ابن رشد ويحترم بوصفه شارح أرسطو . إنهم لقلة من الكتاب سيطروا على عقول العلماء

والطلاب الأوربيين فى العصور الوسطى ، بمثل ما سيطر ابن رشد ، وكانت مؤلفاته مراجع معتمدة فى جامعات الغرب على مدى أربعمائة سنة على الأقل بعد وفاته فى نهاية القرن الثانى عشر . والحقيقة أن شهرته كانت أعظم فى أوربا منها فى العالم العربى ، إذ أنه شرح وفسر اليونانيين للغرب بأكثر مما فعل أى فيلسوف آخر فى يومه برغم أنه هو نفسه لم يستطع قراءة كلمة يونانية واحدة وكان مضطراً إلى الاعتماد على الترجمات العربية ، وبذلك وجه وشجع على فتح العصر المدرسى فى أوربا .

وابتدع ابن ميمون نظريات مشابهة لنظريات ابن رشد ، وكان على غرار معاصره الشهير ، باحثاً طبيبا نابها ، ورجل دين زنديقا تحدى النظريات المقبولة عن الخليقة ، وأكد أن الرؤى النبوية كانت مجرد مكاشفات نفسية . لكنه هنا تخطى كثيراً الحدود بالنسبة إلى الملك الصغير الشأن الذى كان يحكم قرطبة، ولم يمض وقت طويل على انتصاف القرن الثانى عشر حتى انتقل إلى القاهرة حيث صار طبيبا للسلطان العظيم صلاح الدين ورئيساً دينياً للجالية اليهودية .

وثمة فيلسوف عربى أسبانى عظيم ينتمى إلى هذا العصر ، وكان زعيم الصوفية فى عصره، هو محيي الدين بن عربى وقد انتقل أيضاً إلى الشرق بعد أن نبه ذكره فى أشبيلية ، وتولى تدريس هذا النوع من الفلسفة ، فى الشام – ونعنى به الاعتقاد بأن الله هو النور الباطنى لجميع الأشياء وأن الله لم يخلق العالم من لاشيء ولكن سبق وجوده كالمظهر الخارجى .

وهناك رجال علم آخرون سيحملون فى القرن الثالث عشر ، العمل الفلسفى والطبى الذى قام به ابن رشد وابن ميمون وابن عربى . ولكن بحلول عام ١٢٥٨ كان الغزو المسيحى قد توغل فى أسبانيا ؛ وبزوال الحكم العربى جفت ينابيع الإلهام التى سبق أن ارتوى منها كبار المفكرين؛ فكما أحبط تزمت التعاليم المسيحية التطور الفلسفى فى أوربا فى العصر الوسيط

فاستفادت أسبانيا العربية ، كذلك ترتب على الغزو المسيحى لشبه الجزيرة أن وجد الفلاسفة العرب أنفسهم أيضاً تخنقهم التنظيمات المذهبية الجامدة والضيقة. وإنه لمن المحزن القول بأن المؤثرات الليبرالية التى نقلها الفلاسفة العرب الأسبان إلى أوربا ، لم تنعكس بأى حال فى سياسات الفاتحين المسيحيين . فبإقامة نظام محاكم التفتيش بدا كما لو كان الأوربيون مصممين على أن يسحقوا إلى الأبد النظام الحر الذى جعل فى إمكان رجال من أمثال ابن رشد ، أن يساعدوا فى انتشال أوربا من العصور المظلمة إلى عصر جديد من العلم . فبعد سقوط غرناطة فى عام ١٤٩٠ تقرر التحول الإجبارى إلى المسيحية ، وفى عام ١٥٥٦ طالب القانون جميع المسلمين لا بنبذ دينهم فحسب بل وبنبذ لغتهم وأنظمتهم ومؤسساتهم أيضاً . وأخيراً فى بداية القرن السابع عشر أعدم أى مسلمين لم يعتنقوا المسيحية بعد ، أو نفوا قهراً إلى أفريقية .

على خلاف غزاة أسبانيا المسيحيين ضرب النورمانيون الذين استردوا صقلية ومالطة بعد سنة ١٠٦٠ ، مثلا يكاد أن يكون فريداً ، عن التعاون بين الأوربيين والعرب . لقد ظل العرب متمسكين بصقلية بعد أن أغرق المد الفاطمى الصاعد الأغالبة بقرن ونصف . ولكن قبضتهم كانت معرضة للتهديد بسبب الحروب الأهلية المستمرة بين القطاعات الأسبانية والأفريقية من السكان ، وعندما غزا الكونت روجر النورمانى الجزيرة فى عام ١٠٦٠ ، سرعان ما ظفر بموطأ قدم لما استولى على مسينا . وبعد ذلك بثلاثين عاماً استولى على مالطه ، وأكمل فتح صقلية من جديد .

بالنسبة إلى الذهن غير المثقف لهـــذا المسيحى النورمانى البسيط كان ما اكتشفه فى صقلية من تقدم التعليم ومن قوة تأثير الإسلام ، مبعث دهشة كبيرة . فقد كان فى بالرمو وحدها أكثر من ثلاثمائة معلم وعدد مماثل من المساجد. ذلك أن ثقافات الشرق والغرب وجدت فى صقلية أكثر مما وجدت

فى أى مكان آخر فى داخل الإمبراطورية ، مكان لقاء طبيعياً كانت اللغات السائدة وهى اليونانية والعربية واللاتينية تستخدم فيه طيلة عهود الإحتلال الأغلبي والفاطمى وسائل يعبر بها شعب مختلط من الروم والعرب والأسبان والطليان،

بدلا من القضاء على اللغة العربية والديانة الإسلامية استفاد روجر من الثقافة التى وجدها فى هذه الجزيرة المتعددة اللغات، ووضعها تحت رعايته. فعين مسلمين فى أعلى المراكز فى الحكومة، وجند غالبية جيشه من الحاميات التى هزمها من قبل ، وملأ بلاطه بالفلاسفة والشعراء والأطباء العرب. وكان المسلمون أحراراً فى ممارسة شعائرهم الدينية ، وفى مزاولة التجارة والصناعة والزراعة التى أدخلوها وعملوا على ازدهارها . وسار ابن روجر وخلفه ، روجر الثانى ، خطى أبعد وارتدى ملابس شرقية محلاة بحروف عربية ، فكان ذلك تقليداً جديدا سرعان ما أخذت به النساء المسيحيات فى صقلية. واستخدم رجال الحرف العرب لتشييد وتزيين الكنائس الجديدة ؛ وكان أبو عبد الله الإدريسى وهو أعظم الجغرافيين ورسامى الخرائط وأكثرهم أصالة فى يومه ، زينة بلاط الملك . أما حفيد روجر الثانى وهو فردريك الثانى الذى حكم صقلية وألمانيا واصبح عاهل الإمبرطورية الرومانية المقدسة وملك بيت المقدس فى السنوات التى آذنت فيها شمس الحروب الصليبية بالمغيب ، تقول إن فردريك حافظ على التقليد إذ عاد من مغامراته فى الشرق أكثر تأثراً بالإسلام منه تشبعاً بالروح الصليبية . كان يحتفظ بحريم ؛ وكان بلاطه يزخر برجال العلم وبفتيات الرقص من الشرق .

بفضل تأثير عقب روجر الأول الموالين للعرب ، ظلت الحضارة العربية متسلطة فى صقلية حتى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وعلاوة على هذا ، لما كان الملوك النورمانيون يسيطرون على جنوب إيطاليا بالإضافة إلى صقلية ، شقت الثقافة العربية طريقها من الجزيرة إلى البر الإيطالى . ومن

صقلية جيء إلى إيطاليا بالحرف اليدوية مثل أشغال الجلد وتجليد الكتب ، والترصيع بالذهب والفضة ، ونسج الحرير . وأظهرت أشكال معينة من فن العمارة تأثيراً عربياً قويا — مثل برج الأجراس ولعله مأخوذ عن المـــأذنة الإسلامية . أما عن أساليب اللباس ، فكانت الأقمشة الشرقية تحاكَى في معظم البلاد الأوربية ، واجتذبت التصميمات الصقلية لملابس الرجال والنساء المترفين في كل مكان .

والحقيقة ، من الإنصاف القول بأن صقلية لعبت دوراً يكاد أن يعادل دور أسبانيا العربية في نقل الفنون والحرف العربية إلى أوربا . ونظراً لأن من حسن حظ صقلية أن أعيد فتحها على أيدى حكام مستنيرين ومتعطفين نسبياً ، استمر العرب الأسبان يلعبون دورهم بينما كان أبناء عمومتهم في أسبانيا يجرى القضاء عليهم على أيدى الغزاة الأوربيين . ولكن بسبب قلة عددهم لم يتمكنوا من الإحتفاظ إلى أجل غير محدود ، بتفوقهم الثقافي بدون تسرب أفكار جديدة من مراكز العلم العربي الأصلية الكبرى — بغداد ودمشق وقرطبة . وفي ذلك الوقت كان أى أمل في أمثال هذه التعزيزات الثقافية قد مات . فأولاً خربت بغداد ودمشق على أيدى جحافل المغول الوافدين من آسيا الوسطى ، ثم وقعتا تحت يد الأتراك العثمانيين الميتة . أما قرطبة ، فمن أجل حل ما دعته محاكم التفتيش الأسبانية « المشكلة العربية » ، فإننا نجد هذا النظام قد أخمد بصفة دائمة أبهى نور للعلم في عالم العصور الوسطى.

عندئذ دارت العجلة دورة كاملة . فالثقافة التي سبق أن جاءت إلى العرب من اليونان القديمة ، عادت إلى أوربا . وخلال السنوات الثلاثمائة والخمسين التالية خُنق كل الجهد الأدبي العربي . وجاء الدور على العرب ليعودوا إلى العصور المظلمة .

(١٤)

الثورة الشيعية واضمحلال الدولة العباسية

لما انهار البيت الأموى الحاكم فى سنة ٧٥٠ انتهز العلويون الفرصة لإثبات حقهم فى الخلافة وربطوا مصيرهم بالثورة العباسية . والآن تقدم العلويون مرة أخرى ليستفيدوا من انحلال الحكم العباسى . لا يمكن أن يشمل التاريخ أمثلة قلائل ، إن كان يشمل شيئاً منها ، عن أناس أكثر تعطشاً للعقاب من هؤلاء الشيعة من أنصار علىّ . فبعد أن تصيدهم الحجاج وأعمل فيهم القتل فى العصر الأموى ، نهضوا من جديد ولكن ليعانوا نفس المعاملة على أيدى بنى العباس الذين ساعدهم العلويون فى الوصول إلى السلطة ؛ فقد قمعهم أبو جعفر وهارون ، بل والمأمون فى أواخر سنى عهده ، بوحشية لا تعرف الرأفة . ومع ذلك، لما سلم خلفاء المأمـــون أنفسهم إلى حراسهم الأتراك ، كان الشيعة ما يزالون هناك ينتظرون إثبات حقهم فى أن يحكموا الإمبراطورية، وفى هذه المرة فقط اقتربوا إلى حد ما ، من تحقيق مطمعهم .

كانت الحركة الشيعية قد بدأت فى بلاد العرب عند وفاة النبى ، بوصفها حزباً سياسياً كرس نفسه لوضع علىّ على عرش الخلافة . ومنذ ذلك الوقت إلى حين وفاة الحسين بن على ، كانت حركة عربية بحتة . ولكن عندما أشاع البنيان الطبقى الجامد الذى أقامه الأمويون ، المرارة فى نفوس الموالى الذين اعتنقوا الإسلام فى الشرق الفارسى ، رأى الشيعة فرصتهم لتوسيع القاعدة التى تقوم عليها حركتهم ، ولزيادة أعدادهم . وهكذا تحول أنصار على الأصليون إلى حركة دولية تصمم ليس فقط على إعادة العلويين إلى الخلافة ولكن أيضاً

على تدبير ثورة اجتماعية بالنيابة عن الطبقات المهضومة الحقوق فى كل مكان داخل الإمبراطورية .

ولكن بارتفاع شأن الموالى وإحلال أوليجاركية فارسية محل الطبقة الحاكمة العربية فى عصر العباسيين ، خسر الشيعة الكثير من التأييد الشعبى لهم وخاصة فى العراق الذى حقق بوصفه مركز الإمبراطورية رخاء إقتصادياً وازدهاراً فكرياً لم يعرفهما من قبل أبداً . كذلك لم يكن فى وسع الشيعة أن يكونوا احتكاراً لرد الفعل الذى حدث ضد الحركة العقلية فى الإسلام ، خلال عهد المأمون وبعده . فقد قامت فى العراق حركة خفية تدعى « الصوفية » نسبة إلى كلمة « صوف » العربية ، وهو الذى اتخذه تلاميذ الحركة لباساً لهم ، محاكاة للرهبان النصارى . بدأت الصوفية كحياة من الزهد قوامها التأمل فى خلوة ، وتحولت إلى نظام من جمعيات من العزاب على نسق رهبان الأديرة المسيحية . بعد ذلك راحت تتخذ فكرة غامضة عن الحياة ؛ فإذ اعتقد الصوفية أن الغرض من الإيمان الروحى يجب أن يكون تطهير الروح فى الحياة الدنيا فى سبيل الآخرة ، بدلا من التنعم بالمتع الأبدية فى الجنة ، نقول إنهم باعتقادهم هذا تحدوا مذهب أهل السنة ، ومن ثم اعتبرهم المسلمون المحافظون زنادقة . وعندما تعرض أحد قادتهم وهو الحلاج وكان فارسياً يشتغل بحلج الصوف ، للجلد والصلب ثم حزت رأسه بأمر من محاكم التفتيش العباسية بسبب قوله « أنا الحق » ، سار أتباعه خطى أبعد فى السخرية من تحريم القرآن لمبدأ « عبادة الفرد » ، وجعلوه أول سلسلة من الأولياء . لكن الصوفية بعد ذلك ، وبزعامة شخصيات فكرية بارزة مثل الفيلسوف الفارابى ، وأبى حامد الغزالى وهو من خراسان وأصبح فى القرن الحادى عشر واحداً من أكثر رجال الدين المسلمين حيوية وتقديراً ، نقول إن التصوف اكتسب لنفسه قدراً من الاحترام واتخذ مكانه كشكل من العلم الروحانى المباح فى الإسلام .

وثمة فرق أخرى مثل المعتزلة والخوارج ، تحدوا بطريقتهم الخاصة ، المذهب السنى الذى كان النظام القائم يأخذ به . كان المعتزلة يعتمدون على العقل ، ومن تعاليمهم استمد ابن ميمون اعتقاده فى مذهب حرية الإرادة . أما الخوارج فظلوا يعلنون أن حكام الإسلام يجب أن تختارهم الأمة بدلا من اختيارهم وفق مبدأ الوراثة .

وأصبح الشيعة منقسمين أيضاً إلى مجموعات مختلفة من المنشقين . فإذ رفضوا قبول أى خليفة لم يكن من نسل على ، وضعوا لأنفسهم مبدأ « الزعيم الأوحد » fuhrer-prinzip وأطلقوه على كل من كان عندهم موضع عبادة الأبطال ، أى « الإمام المهدى » وكان بالضرورة ممن ينتسب إلى آل على . ولكن اختلف الشيعة بشأن من يدعونه بالإمام المهدى ، من نسل علىّ . ففرقة منهم أطلقت الإسم على السابع فى سلسلة النسب ، وهو إسماعيل ، كان من أحفاد الحسين المتأخرين ، وعرف أفرادها فيما بعد باسم « الإسماعيلية » وزعيمهم الروحى اليوم هو أغاخان[1] . ولكن اسم إسماعيل كان كريهاً إلى غيرهم من الشيعة بسبب مازعموا من إدمانه الخمر ، ومن ثم وقع اختيارهم على أخيه الأصغر « محمد المنتظر » ويشغل المركز الثانى عشر فى سلسلة النسب العلوى ، ومن هنا عرفت الجماعة باسم « الإثناعشرية » . وكان « المنتظر » وهو آخر الباقين على قيد الحياة من سلالة علىّ ، قد كسب لنفسه فى عام ٨٧٨ مركز الشهيد بسبب اختفائه بطريقة غامضة فى أقبية مسجد سامرّا ، وما من شك أنه كان ضحية الحرس التركى السنى . ولما كان الشيعة

(١) المقصود به هنا أغا خان الثالث ، ابن أغا خان الثانى وحفيد حسن على شاه ، الذى ولد عام ١٨٧٥ وخلف أباه فى عام ١٨٨٥ . وله مؤلف بعنوان « الهند فى مفترق الطرق » وهو بالانجليزية .

توفى أغا خان هذا فى عام ١٩٥٧ ، ودفن فى مدينة أسوان بمصر . — المترجم .

يعتبرون أن الأئمة لايجوز عليهم الموت[1] ، لهذا أعلن الإسماعيلية والإثنا عشرية على التوالى أن إسماعيل الذى توفى سنة ٧٦٠ ، والمنتظر؛ هما فى «غيبة» أو « ستر » مؤقت. وكان يشار إلى كل منهما بأنه الإمام الغائب (أو المستور) الذى سيعود يوماً إلى الظهور ويعيد الدين الصحيح ويغزو العالم. وإلى يومنا هذا نجد فى فارس الشيعية أنه حتى الشاه يعتبر مجرد نائب مؤقت عن «الإمام الغائب » المنتظر .

كان مؤسس الطائفة الإسماعيلية عبدالله بن ميمون وكان إبناً لطبيب عيون فارسى. بدأ ابن ميمون بتنظيم ثورات شيعية خلال عهد المأمون. فمن البصرة أولاً ثم من السلمية بشمالى الشام ، أرسل مبعوثيه ليثيروا الشك فى معتقدات أهل السنة وليعلنوا قدوم الإمام إسماعيل. ولما كان داهية فى التنظيم السياسى استغل العداء المتزايد بين العرب والفرس استغلالا كاملا وأعلن أنه يهدف إلى تكوين حركة توحد بين جميع المفكرين الأحرار وبذلك تتمكن من انتزاع الخلافة من « المغتصبين » العباسيين ، ورفعه هو وسلالته إلى العرش .

لم تتحقق أطماع ابن ميمون الشخصية ، ولكن فى الوقت الذى مات فيه عام ٨٧٤ ، كان قد بدأ حركة ولدت فرقاً أخرى وجمعيات سرية سوف تعمل بدورها على بث الإرهاب والاضطراب فى الإمبراطورية . ومما هو أكثر لفتاً للنظر من أى شىء آخر ، أنه نجح فى وضع أسرة شيعية على عرش مصر لمدة مائتى عام . أول هذه الجمعيات كوّنها واحد من أشد تلاميذ ابن ميمون تعصباً وهو حمدان قرمط وأصله فلاح من العراق زعم أنه طالع فى النجوم أن الفرس يوشكون أن يعيدوا غزو الإمبراطورية . كان قرمط قزماً ، ولكنه عوض عيوبه الجسمية بمغناطيسيته الشخصية .

---

(١) يقول الحسن النوبختى فى كتاب « فرق الشيعة » إن طائفة الاسماعيلية أنكرت موت اسماعيل وقالت إنه تغيب « ولايموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس » . ـ المترجم.

نفس اسمه ومعناه « المعلم السرى » يوحى بالتآمر. وكان بارعاً فى استغلال مظالم الفلاحين المحليين وبدو القبائل . ومن مقره فى الكوفة أنشأ فرعاً خاصاً به للطائفة الإسماعيلية ، اكتسب اسمه منه ، وكان ذلك أول تجربة فى العالم العربى لما ينبغى أن ندعوه « الشيوعية ». وكنوع من روبين هود الذى عاش فى القرون الوسطى ، دعا قرمط إلى المشاركة فى الممتلكات والمقتنيات بما فى ذلك الزوجات ، ولهذا الغرض أنشىء صندوق يمول عن طريق ضرائب تفرض على أعضاء الجماعة ، ومن سرقة أى حجيج وسفار أغنياء يمرون فى أرضهم . وجرى تنظيم الصناع والعمال القرامطة على هيئة نقابات طوائف حسب حرفهم ، وهو نظام سوف يقتبسه الغرب فيما بعد ، ويمكن أن يقال إنه سلف الماسونية الحديثة . وبرغم أن التكريس كان قاسياً وإجبارياً ، فقد بلغ من قوة التأثير الشخصى لقرمط أن تمكن من إثارة القبائل العربية بالعراق والشام وبلاد العرب وإخراجهم من عزلتهم بالصحراء ، وأن ينظمهم فى ثورات ضد العباسيين وسادتهم الأتراك . ونجح حيث أخفق حتى تدريب ونظام الأمويين العسكرى ، بأن جمع حوله جيوشه من البدو لشن الهجمات من جديد ضد العدو حينما صد جند الخليفة الأتراك أول هجوم قرمطى .

كانت أول سلسلة من المعارك التى اشتبك فيها القرامطة هى لتأييد ثورة الزنج فيما بين عامى ٨٦٨ و ٨٨٣ . ثم لما تركهم انهيار الحركة الزنجية وحيدين فى الميدان لحقوا بجيوش الخليفة وحققوا فى عام ٩٠٠ نصراً ساحقاً فى البصرة . ومن هناك زحفوا على الشام واستنسفوا النصف الشمالى من البلاد سنوات عدة قبل أن هزمتهم قوة كبيرة من الأتراك . أصلح الذين فروا صفوفهم وفرضوا سيطرتهم على جنوب العراق كله من البصرة حتى الكوفة . ولما مات قرمط أقام مبعوثه سعيد الحسن الجنابى دولة قرمطية مستقلة فى البحرين التى صارت الآن مقر الحركة .

ومن هنا ، ومن مواقعهم المتقدمة فى العراق ، كانوا يسطون على قوافل الحجاج فى طريقها إلى مكة وفى عودتها منها ، واستخدموا الغنائم والأسلاب فى تمويل عملياتهم . حاولت قوات الخليفة التركية مراراً وتكراراً زحزحتهم من مواقعهم ولكنها كانت تصد فى كل مرة . وأخيراً ، عندما أصبحت الضغوط شديدة جداً انسحب القرامطة من العراق ولكن كى يستأنفوا القتال فى أماكن أبعد نحو الجنوب . وفى عام ٩٢٩ هاجموا مكة ونهبوها ، وحطموا ونقلوا الحجر الأسود بالكعبة ولم يعد إلى مكانه إلا بعد عشرين عاماً .

وخلال السنوات المائة التالية واصل القرامطة هجماتهم على الخلافة ، وأغرقوا الشام والعراق فى الدماء . فبمجرد أن يقضى على مجموعة منهم كانت تقوم أخرى لتحل محلها . لكن ، برغم جميع نجاحاتهم فى الميدان ظلوا لا يزيدون عن كونهم نوعاً من أنواع الماكى Maquis المعروفين فى العصور الوسطى ، أى حركة فوضوية فضلت أن تقاوم سلطة الآخرين بدلا من أن يتولوا السلطة بأنفسهم . أما أبناء عمومتهم من المنشقين ، وهم الفاطميون ، فلهم قصة مختلفة كلية . فبرغم كونهم من طائفة الإسماعيلية ، لم يستمدوا الوحى من مذاهب قرمط الشيوعية . ومن جهة أخرى كسب الفاطميون إمبراطورية ، وأقاموا خلافة لهم تفوق خلافة معاصريهم العباسيين ، قوة وهيبة .

كان مؤسس الفاطميين الذين اكتسبوا اسمهم من دعواهم الانتساب المباشر إلى فاطمة بنت النبى ، هو سعيد بن الحسين وكان من نسل عبدالله بن ميمون مؤسس الاسماعيلية الفارسى . ففى عام ٩٠٩ قدم إلى تونس من مقر الأخيرين فى السلمية . وبرغم أن الحاكم الأغلبى زج به فى السجن ، إلا أن اليمنى عبدالله الحسين أنقذه . كان عبدالله قد أحرز نجاحاً كثيراً فى حمل بربر شمال إفريقية على اعتناق المذهب الشيعى ؛ وبمجرد خروجه من السجن عمل هو وسعيد على قلب الأغالبة السنيين واستوليا على إمبراطوريتهم بما فيها صقلية ومالطة .

بويع سعيد بالإمامة والخلافة واتخذ لنفسه اللقب الفخم « عبيدالله المهدى » . وأسس عاصمة جديدة دعاها المهدية،على الشاطىء التونسى بالقرب من القيروان، ثم راح يمد حدود ممتلكاته صوب الغرب . ولكن عندما واجهه عبد الرحمن الثالث على امتداد ساحل البربر ، تحول وزحف على مصر . وفى عام ٩١٤ استولى على الإسكندرية ثم خرب دلتا النيل بعد عامين . وأغار أيضاً على سواحل فرنسا وجنوا وكالابريا بمساعدة الأسطول الذى سبق أن استولى عليه من الأغالبة .

لم تؤد وفاة سعيد سنة ٩٣٤ إلى وقف توسع الإمبراطورية الفاطمية . فواصل ابنه الضغط على شواطىء أوربا واستولى على جنوا ، ومد حفيد له وهو المعز ، حدودها الغربية حتى المحيط الأطلسى . بعد ذلك حقق الفاطميون فى عام ٩٦٩ أعظم انتصاراتهم بأن أضافوا مصر إلى إمبراطوريتهم الآخذة فى النمو كان قائد الجيوش الفاطمية التى فتحت مصر ، عبداً سابقاً من صقلية يدعى جوهر الصقلى . وبعد دخوله المظفر فى العاصمة بأربع سنوات أقام أثراً أعظم وأدوم للدلالة على شهرته ، وذلك عندما بنى قطيعة جديدة فى الفسطاط أصبحت عاصمة مصر الفاطمية وسميت القاهرة . وفى الوقت نفسه بنى جوهر الجامع الأزهر الكبير الذى أصبح المجمع العلمى الرئيسى للدراسات الإسلامية .

تحولت الآن مصر من المذهب السنى الصحيح إلى الزندقة الشيعية ، وبقدر ما يمكن اكتشافه ، ثم التحول دون معارضة ذات شأن من جانب الجمهور . لاريب أن هذا راجع من جهة ، إلى طبيعة الشعب المصرى المسالمة نسبياً[1] . ولكن لعل هذا القبول الوديع للتشيع كان أيضاً انعكاساً لحنين الكثير من المصريين إلى تغيير يأتى لهم ببعض استقلال حقيقى عن السيطرة العباسية . حقيقة سبق لابن طولون أن أعلن استقلاله واستقلال مصر عن الخلافة العباسية

(١) المسالمة وليست المستسلمة ، على ما يثبت التاريخ . — المترجم .

وعصبتها من العسكريين الأتراك . ولكن بالنسبة إلى المظاهر الخارجية لم يختلف نظام حكمه عن النظام القائم من قبل . فكان الأتراك هم العنصر الغالب على جيشه ، برغم أنه كان يقسم على الولاء له وليس للخليفة ؛ وكان شكل العبادة الدينية هو السنية المطبقة فى كافة أرجاء الإمبراطورية العباسية. وبالمثل لم تكن أسرة محمد الإخشيد القصيرة العمر التى حكمت مصر منذ سقوط الطولونيين فى عام ٩٣٥ حتى الفتح الفاطمى سنة ٩٦٩ ، إلا ولاية شبه مستقلة تتبع الخلافة العباسية ، وعلى رأسها خصى حبشى هو أبو المسك كافور . ولكن الفاطميين جاءوا بنسيم جديد ، له شذا المذهب والثقافة الفارسيين ليطرد رائحة الكافور المسك والجو الكريه للاحتلال التركى والعباسى . فهم لم يغيروا الإدارة والجيش فحسب ولكن غيروا المذهب الدينى أيضاً . وعلى ذلك كان فى إمكان المصريين الآن أن يروا وأن يحسوا شعوراً من ذلك الاستقلال الذى كانوا من الوداعة بحيث لا يقاتلون من أجله بأنفسهم ، ولكن يتلقونه فى سرور من الذين يكسبونه لهم . سوف يهدم الفاطميون فيما بعد الكثير من الأثر الطيب لهذا التغيير عن ما يفرضون المذهب الشيعى قسراً على المصريين ، وبالرجوع إلى الأسلوب العباسى من ناحية استيراد المماليك الأتراك لتعزيز جيشهم . ولكن فى هذه اللحظة إغتبطت مصر كلها للتحرير الذى بدأ فجأة أنه أنعم به على مواطنيها .

بالاستيلاء على مصر ورث الفاطميون السيطرة على الشام واليمن والحجاز بما فى ذلك المدن المقدسة التى كانت الخلافة الآخذة فى التدهور فى بغداد غير قادرة علـى منعهم من الاستيلاء عليها . فاقت الخلافة الفاطمية الشيعية العباسيين بكثير من ناحية القوة والنفوذ . فمن المحيط الأطلسى إلى المحيط الهندى كان اسم المعز هو الذى يذكر فى صلاة الجمعة وليس اسم الشخص الذى لا سند له الحاكم فى بغداد والذى قل من يذكرون اسمه بأى حال .

ومع كل ، وبرغم نجاح الأسرة الفاطمية المبدئى ، لم يقدر لها أن تعيش بعد العباسيين . فلم يمض وقت طويل على النصر العظيم الذى أحرزه جوهر حتى بدأت تتدهور . كان الحاكم وهو حفيد المعز صبياً فى الحادية عشرة من عمره عندما بويع بالخلافة . ولما بلغ طور الرجولة أصبح من الواضح بشكل متزايد أنه متعصب مخبول يطرب للقسوة والكبت وطبقهما بعنف شيطانى على النصارى واليهود الذين أجبرهم على لبس السواد ، وركوب الحمير ، ووضع طوق حول أعناقهم . وقتل الحاكم عدة من وزرائه ممن سعوا إلى تعديل فظائعه وفى محاولة للقضاء على المسيحية فى أملاكه دمر عدداً من الكنائس ومنها كنيسة القيامة فى بيت المقدس . هـــذا العمل الدال على الفاندالية ، سوف يشكل التكأة التى استندوا إليها فى شن الحروب الصليبية . وعلى قمة هذا كله أدعى ذلك المجنون ذو الشعر الطويل، الربوبية وهو إدعاء تقبلته طائفة شامية تدعى الدروز نسبة إلى مؤسسها الدرزى [1] وهو حائك من فارس . ولا يزال الدروز يعتقدون أن الحاكم سوف يعود يوماً إلى الأرض ليحطم معابد أهل السنة المسلمين فى مكة وبيت المقدس ، وليعبده جميع البشر باعتبار أنه الإله القائم من الموت . ولكن كان الشعور فى كافة أنحاء الممتلكات الفاطمية الأخرى هو أن الحاكم تجاوز الحدود ، ولم يحزن سوى الدروز عندما قتل أخيراً فى عام ١٠٢١ فوق جبل المقطم المطل على القاهرة ، بتحريض من أخته وكان قد اتهمها فى عفتها .

حاول خلفاء الحاكم أن يصلحوا أسوأ مفاسده فبدأوا ، من بين أشياء أخرى ، فى إعادة بناء كنيسة القيامة . ولكنهم كانوا فى الغالب شباباً ينقصهم النضوج وعاجزين عن وقف العفن الذى كان قد حل بجسم الدولة . ثارت الشام وفلسطين على السيطرة المصرية ؛ واستولى النورمانيون على صقلية

(١) محمد بن اسماعيل الدرزى . — المترجم .

ومالطه ؛ وراحت ممتلكات الفاطميين تنشق الواحدة بعد الأخرى بل وعاد بعضها إلى ولائها القديم لبنى العباس . وفى مصر كور الحرس البريتورى praetorian المكون من المماليك الأتراك والشراكسة ما كان يفعله بنو جلدتهم فى بغداد ، فاغتصبوا سلطة الخليفة ونصبوا من يؤثرونه من صنائعهم الأذلاء لشغل منصب الوزير . وفضلا عن هذا كله وقعت مجاعات دامت سبع سنوات فخربت البلاد واستنزفت مواردها . (١)

لكن برغم هذه النكسات كان الفاطميون متأثرين تماماً بأصولهم الفارسية ، فاستمروا يعيشون فى روعة مترفة كادت تعادل روعة بغداد فى عصر « ألف ليلة وليلة » . فكان القصر فى القاهرة يضم مالا يقل عن ثلاثين ألف شخص نصفهم من الخدم والباقون عبارة عن جنود حرس الخليفة وعائلاتهم . وكان الخليفة شخصياً يملك عشرين ألف بيت فى العاصمة، معظمها من الطوب ويبلغ ارتفاع الواحد منها حوالى خمسة طوابق ؛ كما كان يملك عدداً مما ثلا من الدكاكين . وكانت الشوارع الرئيسية مرصوفة ومضاءة ، وكانت الشوارع فى الأسواق مسقوفة . وساد مستوى عال بشكل ملفت للنظر ، من الأمانة العامة والمعاملات العادلة . فكان أصحاب الدكاكين يخضعون لرقابة شديدة على الأسعار؛ وأى شخص يبيع بأكثر من الحد الأعلى كان يطاف به راكباً فوق جمل ويرغم على الاعتراف بذنبه . وكادت السرقة أن تكون غير معروفة ، وكانت محلات الصاغة والصيارفة تترك ليلا دون إغلاقها بالأقفال. وحاز الخلفاء الفاطميون مجموعة ضخمة من المجوهرات وأدوات الزينة والمائدة المصنوعة من الذهب والبلور والعاج والأتباج ، وكانت سيوفهم وخناجرهم مرصعة بالجواهر

(١) تعرف باسم الشدة العظمى وقد حللناها ، أسبابا وآثاراً ، فى كتابنا « قادة الفكر الاسلامى فى ضوء الفكر الحديث » (القاهرة ١٩٦٩) فى الفصل المعقود عن المؤرخ المقريزى » — المترجم .

اليمنية ؛ وعند قيامهم بالمهام العامة كانت المظلات المرصعة بالجواهر تفرد فوق رؤوسهم . ولكن لما أصابت المجاعة مصر فى عام ١٠٧٠ اضطر الخليفة أن يبعث بأطفاله إلى بغداد خشية أن يموتوا جوعاً فى مصر .

من ناحية التطور الفكرى قصر الفاطميون كثيراً عما كان يمكن توقعه من أسلافهم الأعاجم . لقد بنى جوهر الصقلى الجامع الأزهر ، وأسس العزيز والد الحاكم بأمر الله مكتبة يقال إنها ضمت فى وقت من الأوقات ٢٠٠,٠٠٠ مجلد ومخطوط ، نهب العسكر الترك الكثير منها فيما بعد واستخدموا المخطوطات لإشعال نيرانهم واستخدموا الأغلفة الجلدية لتصليح نعالهم . وكان الحاكم أيضاً فلكياً بارعاً وأقام مرصداً فوق نفس جبل المقطم حيث لقى حتفه . وبنى أيضاً دار الحكمة لنشر المذهب الشيعى . ولكن بخلاف هذه الأمثلة القلائل ، كان أداء الفاطميين الفكرى ضعيفاً . فقد كان العلماء والكتاب ، سواء من أبناء البلد أو جىء بهم من الخارج ، يلقون القليل من التشجيع ويعانون الكثير من الإحباط فى جو يسيطر عليه التعصب الشيعى . لم تكن ضلالة التشيع وحدها بالتى وجدوها مقيتة إلى نفوسهم . فنظراً لكونهم من ذوى التفكير الحر ، كان الكثيرون من العلماء والكتاب بعيدين عن أن يكونوا من السلفيين السنيين ، ورحبوا كما رحب معظم المصريين فى وقت من الفتح الفاطمى ، بما جاء به من التغيير وتحدى الخلافة السنية فى بغداد . ولكن بتقدم الحكم الفاطمى فإن ما بدأ كتغيير منعش من السنية ، تحول إلى تزمت بلغ من شدته أن حرم كل حرية للتعبير عن الرأى .

ولكن إذا كان التعصب الشيعى حال بين الأدباء والكتابة فإن غيرهم منعوا بالمثل من الثورة على الحكومة الدينية السائدة وعلى التحالف غير المقدس بين المماليك والخلفاء ، وهكذا تشبث الفاطميون بأملاكهم الآخذة فى التناقص وذلك على مدى مائة وخمسين سنة أخرى بعد موت الحاكم . فى السنوات المائة الأخيرة من حكمهم كانت إمبراطوريتهم تزيد قليلا عن مصر نفسها .

ولكن ، أما وبغداد ضعيفة جداً ومشغولة بمشكلاتها بحيث لا تستطيع استعادة مصر ، فإن هذا الفرع من الطائفة الاسماعيلية الذى أصابه الضعف ظل لا يتعرض للتحدى إلى أن أصبحت أرضه ساحة قتال بين صلاح الدين والصليبيين فى عام ١١٦٤ .

قبل أن يبدأ الفاطميون فى مصر فى الانحلال بوقت طويل كان العباسيون التعساء فى بغداد يستبدلون فئة من الحكام الأتراك بفئة أخرى وكل واحدة تغتصب السلطة بطريقة أشد عنفاً من سابقتها. وكان الخلفاء يجيئون ويروحون وكل منهم يقتل أو يعزل بعد سنوات قلائل ، وكانوا جميعاً باستثناء واحد ، أدوات ذليلة فى أيدى سادتهم الأتراك. كان الفساد والغدر هما العملة السائدة. فلم يكن أحد فى مأمن من يد السفاح، ولعل الخليفة كان أقل الناس شعوراً بالأمان من هذه اليد . أما عن الإمبراطورية فإن المؤثرات الداعية إلى الفرقة وهى حتمية فى كومنولث متعدد القوميات ، استغلت تماماً الضعف السائد فى المركز . فبنهاية القرن العاشر كان شمال أفريقية ومصر مستقلين ، وضاعت الشام مع مصر ، واجتاح القرامطة بلاد العرب وجنوب العراق : بل، وقبل ذلك بوقت انفصلت أجزاء من فارس لتحكمها أسرات صغيرة مستقلة تعاقبت عليها . وأولى هذه الأسرات الأسرة الصفارية التى أسسها فى سجستان يعقوب الصفار ،[1] وهو « النحاس » الذى حكم فارس من عام ٨٦٧ إلى عام ٩٠٨، ثم جاء السامانيون وهم من سلالة السامان [2] وكان شريفاً مجوسياً من بلخ ، استولى على فارس وخراسان والولايات الشرقية . وبعد ذلك بثلاثين سنة خسر السامانيون بدورهم القسم الغربى من بلاد فارس ، استولت عليه قبيلة شرسة من أهل

(١) يعقوب بن الليث الصفار ؟ ومدة الدولة الصفارية من سنه ٢٥٤ إلى سنة ٢٩٠ هـ . — المترجم .

(٢) أسسها أحمد بن السامانى فى بلاد ماوراء النهر . — المترجم

الجبال فى جنوب بحر الخزر ويدعون بنى بويه؛ بينما ثار الجند الأتراك فى الولايات الغربية أى أفغانستان والبنجاب وأقاموا الدولة الغزنوية (٣٦٦ — ٥٧٩ هـ) نسبة إلى مقرهم وهو مدينة غزنة الأفغانية .

بخلاف أن الغزنوية أضافوا خراسان إلى ممتلكاتهم فقدقنعوا بشن غارات داخل الهند لنهب معابد الهندوس. ولكن بنى بويه كانوا أشد طموحاً وفى مركز أفضل لغزو العراق. وفضلا عن هذا كانوا شيعيين ،وفى وقت كان نجم الشيعة يشرق فى كل مكان آخر بالإمبراطورية ، جربوا فتح بغداد وإقامة حكم شيعى فى العراق . وفى عام ٩٤٥ انطلق بنو بويه بقيادة زعيمهم معز الدولة ، من عاصمتهم شيراز ووصلوا أمام أبواب بغداد. بادر الحرس التركى بالفرار تاركين الخليفة العاجز ليعقد أية شروط يمكن أن يصل إليها مع الغزاة. وعندئذ عين معز الدولة « أمير الأمراء » وفى هذا المركز أصبح الحاكم بالفعل على ما تبقى من الخلافة العباسية . وبرغم أن الخليفة استكان إلى مظاهر الإذلال هذه ، فإنه عزل خلال السنة بعد أن أعموه بأن أدخلوا فى عينيه أسياخا من الحديد المحمى ، بناء على أمر من معز الدولة . بعد ذلك كان بنو بويه يعينون ويسرحون الخلفاء حسبما تشاء أهواؤهم وأصبحت بغداد عاصمة إقليمية تخضع للمراسيم التى تصدر من شيراز . فى أيام المأمون أبى أهل العراق أن يُحكموا من فارس وأن يخضعوا للأساليب الشيعية ،ولكنهم كانوا الآن فى حالة من الانهيار المعنوى بحيث لا يستطيعون المقاومة . كذلك لم يترددوا عندما أدخل بنو بويه عادات شيعية مثل حجب النساء الشديد وعزلهن ، وأعلنوا وجوب الاحتفال بذكرى موت الحسين باعتبار أنه يوم للحداد القومى ، والاحتفال باليوم الذى زعموا أن النبى بايع فيه علياً خلفاً له ـ باعتباره يوم عيد . يقال

إن البغداديين استاءوا من التحول إلى المذهب الشيعى ، لكنهم احتملوا حكامهم الجدد أكثر من مائة عام .

فى هذه الأثناء بدأت قوة تركية جديدة فى الشرق تتوغل فى أملاك الدولة الغزنوية . اتخذ الأتراك السلاجقة اسمهم من زعيم تركمانى يدعى سلجوق خرج فى عام ٩٦٥ على رأس قبيلته من مروج القرغيز بالتركستان ليستقروا فى المنطقة المحيطة ببخارى حيث أصبحوا مسلمين متحمسين على مذهب أهل السنة . وفى مستهل القرن التالى زحف حفيد له هو طغرل على خراســـان واستولى على مرو ونيسابور من الغزنوية ، وسرعان ماأضيفت بلخ والرى واصفهان كلما انتشرت جيوش طغرل عبر فارس إلى أرض بنى بويه ؛ وبعد ثمانية عشر عاماً منذ أن اندفع طغرل بجيوشه لأول مرة من بخارى . زحف على رأس رجال قبليته ووصل أمام أبواب بغداد . كان ذلك فى ١٨ ديسمبر ١٠٥٥ أى بعد ١١٠ سنة من وقوف بنى بويه أمام نفس الأبواب » وكما سبق أن فر حرس الخليفة الأتراك ، كذلك هرب بنوبويه الآن من السلاجقة ولم يتركوا للقائم وهو الخليفة آنذاك ،من بديل سوى أن يرحب بالفاتح الجديد .

انتزع طغرل آخر قطرة من المجد لنفسه ومن الإذلال للخليفة وذلك فى الاحتفال الذى نودى فيه به وصياً على الإمبراطورية وملك الشرق والغرب مع اللقب الرسمى وهو « السلطان ». جلس طغرل على عرش فى مواجهة الخليفة وتلقى خضوع الخليفة وإعلاناً بصداقة لا تموت . وبعد هـذا المشهد الخارق المألوف مُنح سبعة أثواب تشريفاً له ، وتمثـــل الولايات السبع الباقية من الإمبراطورية الفارسية ، كما تمنطق بسيفين يرمزان إلى النصفين الشرقى والغربى من مملـكته . ثم نزع طغرل ورقة من كتاب بنى بويه ، وخرج من

بغداد وأقام حاضرته فى مرو بخراسان ، حيث تجاهل الألعوبة المذهبة التى سمح لها بالبقاء على العرش الخليفى .

تابع طغرل انتصاراته بزواجه من بنت الخليفة . ولكنه توفى عام ١٠٦٣ بعد إتمام الزفاف بوقت قليل ، تاركاً ابن أخيه المعروف باسم ألب أرسلان أى « البطل الأسد » ، ليخلفه . كان ألب أرسلان شاباً لامعاً ورشيقا ، برز اسمه فى فتوح السلاجقة لفارس والعراق . وكان فيه أيضاً مظهر يدعو إلى الغرابة ، فكانت شواربه من الطول بحيث كان يتعين ربطها إلى وجهه عند ما يخرج للصيد . وبالنسبة إلى شخص لم يزد أبوه عن كونه كافراً من البرابرة قبل أن يتحول إلى الإسلام وكان هو نفسه أمياً تماماً ، نقول إن تقدير هذا الشخص للفنون كان أمراً عجيباً حقاً . لقد قضى طغرل إلى حد كبير حكمه القصير الأمد بالعراق فى تدعيم مركز السلاجقة وفى القضاء على مؤثرات وعادات بنى بويه الشيعية . وهكذا عندما ورث ألب أرسلان السلطة كانت الإمبراطورية العباسية متحررة على نحو لم تعرفه طيلة أكثر من ١٥٠ عاماً . حقيقة كانت أسبانيا وشمال أفريقية ومصر ما تزال مستقلة ؛ ولكن تهديد القرامطة فى بلاد العرب كان قد تبدد نهائياً ، ومن دمشق إلى بخارى كان السلاجقة مسيطرين دون منازع . وإذ أمنت الجبهة الداخلية على هذا النحو لم يتوان ألب أرسلان عن مد نطاق ممتلكاته على حساب بيزنطه . فبعد اعتلائه السلطنة بعام زحف على أرمينيا النصرانية واستولى على العاصمة . ثم فى عام ١٠٧١ هزم الروم عند مانزيكرت فى أرمينيا وأسر الإمبراطور البيزنطى رومانوس ديوجين . وعندما اقتيد الإمبراطور أمام آسره سئل عما كان يفعله بألب أرسلان لو أن الموقف على عكس ما هو عليه ، فجاء الرد الصحيح « كنت أجلدك » . وكان الرد من الصراحة فى الحقيقة بحيث وافق السلطان السلجوقى على إطلاق سراحه مقابل فدية ضخمة وجزية سنوية ، بالإضافة إلى تسليم جميع المسلمين الأسرى عند الروم .

أما وقد تطهر الكثير من آسيا الصغرى من الحكم البيزنطى بدأت القبائل السلجوقية تنتقل من الشرق وتستوطن فى الأقاليم الجديدة التى فتحوها. وهكذا لأول مرة ، دخلت هذه المناطق فى الحظيرة الإسلامية ، وأرسى أساس الدولة التركية الإسلامية فى التاريخ الحديث . كان فاتحون وخلفاء ومسلمون آخرون ، من أمويين وعباسيين ، قد غزوا واحتلوا مرات عدة مساحات كبيرة من آسيا الصغرى خلال القرنين الثامن والتاسع ، ولكن تيار الحرب كان يردهم دائماً . وفضلا عن هذا لم تكن للجيوش العربية فرصة ولا رغبة فى الإقامة فى هذه الهضاب الوعرة المرتفعة البعيدة عن الخصب الدافىء فى الشام وفلسطين والعراق . لكن الأتراك السلاجقة انتقلوا من مناطق برية تجتاحها الرياح فى تركستان وأحسوا أنهم فى دارهم تماماً فى مناخ آسيا الصغرى وجبالها الوعرة .

ويبدو أيضاً أن ألب أرسلان كان يحب الأماكن المرتفعة إذ أنه خلال عهده الذى دام تسع سنوات ، لم يقم أبداً بزيارة بغداد وجعل عاصمته فى إصفهان فى فارس . هنا كان وزير هو الفارس الشهير نظام الملك ومن أعظم دعاة العلم فى تاريخ الإسلام . كان نظام الملك هو الذى أسس المدرسة النظامية فى بغداد ، وهى المدرسة التى قدر لها أن تصبح نموذجاً لكل معهد آخر للتعليم العالى بالعالم الإسلامى . وكان هو أيضاً الذى أصلح التقويم الفارسى . ومن فكره خرج واحد من أروع الموضوعات التى كتبت عن فن الحكم . وبوصف نظام الملك راعياً لعمر الخيام فإنه ناصر الرياضى والفلكى الشاعر المجيد ، وساعد على إخراج رباعياته وغيرها من أعماله . والحقيقة ، لم يكن هناك فعلا مجال للثقافة والسياسة لم يحس بتأثيره المسيطر . ويحدثنا المؤرخ ابن خلكان أنه لما خلف ملك شاه أباه ألب أرسلان ، كانت كل السلطة مركزة فى أيدى

نظام الملك ، بينما لم يكن أمام السلطان إلا أن يجلس على العرش ويتمتع بهواية الصيد . ولكن على خلاف الكثيرين من الوزراء ونواب الملوك ممن ظفروا من قبل بالسلطة فى الخلافة ، يظهر نظام كمؤثر طيب ومتحضر تماماً ، ألقى شعاعاً لامعاً من الثقافة على المسرح المظلم الذى كان يشهد إنحلال العباسيين وسقوطهم .

مات ملك شاه ونظام الملك فى نفس عام ١٠٩٦ ، الأول من السم والثانى على يد متعصب شيعى . تنازع السلطنة أبناء ملك شاه الثلاثة ، وبسرعة تحول الصيف الهندى القصير الذى تمتعت به الإمبراطورية فى ظل السلاطين السلاجقة الثلاثة الأول ، إلى شتاء من الانقسام والهزيمة . وبرغم أن السلاطين واصلوا التسلط على الخلافة قرناً آخر ، فسرعان ما لم يعد وجود للامبراطورية التى أعاد توحيدها طغرل وألب . انفصلت الولايات الشرقية ولم ترجع أبداً ، وفى نفس الوقت زحف الصليبيون من الغرب . وبعد ذلك بمائة وخمسين سنة نزلت جحافل المغول بقيادة جنجيز خان وهولاكو من الشرق ، ووضعت حداً لآلام الموت التى طال أمد معاناة البيت العباسى لها .

إلا أن العالم الإسلامى كان مقدراً له أن يعرف مرحلتين من المجد والخلاص من الغزو المسيحى والوثنى . كان لا يزال على صلاح الدين والسلطان المملوكى بيبرس أن يكتبا فصولهما الباهرة فى تاريخ الاسلام . ولكنهما استمدا من مصر وليس من بغداد ، القوة التى ألقت بالصليبيين خارجاً ، وأوقفت المغول الذين جاءوا فى أعقابهم . ذلك أن بغداد لم تعد حكما (بفتح الحاء) وإنما كانت الآن مجرد متفرج على الأحداث فيما تبقى من الإمبراطورية الفارسية .

القســم الرابــع

المحنة والنصر

(١٥)

الحرب الصليبية

فى نوفمبر من عام ١٠٩٥ ، وفى بلدة كليرمون بفرنسا ، ألقى البابا إربان الثانى ما دعاه فيليب حتى « ربما أشد خطاب فى التاريخ تأثيراً » . فاستجابة للنداءات المجنونة والمتكررة من الإمبراطور البيزنطى بطلب المساعدة فى طرد السلاجقة من آسيا الصغرى ، سار البابا عدة خطوات أبعد ، فحث المسيحيين على النهوض والإسراع لا إلى الأناضول فحسب ولكن إلى بيت المقدس أيضاً لانتزاع القبر المقدس « من الجنس الشرير » . وعندما كان يتحدث برسالته الخطيرة كان الفرنجة قد بدأوا يردون العرب على أعقابهم فى أسبانيا ، واسترد النورمانيون صقلية . ولكن كانت أوربا المسيحية الآن على وشك أن تتحدى الإسلام عند عتبة داره ، وأبحر ١٥٠٫٠٠٠ من الفرنجة والنورمانيين والبنادقة وأهل جنوا ، متجهين غرباً فى أول حرب من الحروب الصليبية ، يرن فى آذانهم خطاب كليرمون .

ان كلمات البابا إربان النارية كانت ستعمل فى الواقع ماهو أكثر من بدء حلف مسيحى للاستيلاء على بيت المقدس من سيطرة التعصب الفاطمى. وبرغم أنه ما كان فى إمكان أحد آنذاك أن يتنبأ بما سوف تؤدى إليه هذه الكلمات، إلا أنه قدر لها أن تشعل حرباً دامت مائتى سنة وأن تزود العالم الإسلامى بنقطة تلاق ومن ثم بوحدة فى الغرض لم يعرفها منذ الفتوح الأموية الكبرى . بدون هذا التحدى من جانب دين وجنس أجنبيين لجاز أن كان الإسلام يفقد روحه الحربية واحساسه بالمصير ، فى المنافسات التافهة والحروب الأهلية مما كان يترك العالم الاسلامى لا يملك مصدراً للمقاومة يعتمد عليه عندما

انقض عليه التهديد المغولى المريع بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً . ولكن الحروب الصليبية أوجدت صلاح الدين ، وأظهرت انتصاراته على الفرنجة الطريق فيما بعد أمام السلطان المملوكى بيبرس الذى قضى نهائيا على الصليبيين ورد المغول على أعقابهم فأنقذ الدين الاسلامى من الفناء وظفر للعالم العربى بفترة أخرى من الاستقلال النسبي قوامها قرنان ونصف القرن .

فى أول الأمر انتصر الصليبيون على طول الخط حيث كانت لهم ميزة المباغتة . فبعـــد أن انضموا إلى الجيوش البيزنطية التابعة للقسطنطينية ، فى عام ١٠٩٧ احتلوا نصف آسيا الصغرى قبل بدء الصيف ، ثم تدفقوا على جبال طوروس وأخذوا أنطاكية عنوة بعد أن حاصروها تسعة أشهر . وهنا ساعدتهم إلى حد كبير الجاليات النصرانية المارونية التى كان حاكم أنطاكية السلجوقى طردهم منها . ومن أنطاكية واصلوا الزحف على فلسطين مما أسفر عن قتل مائة ألف من المسلمين ، على مايحدثنا ابن الأثير . وفى ٧ يونية ١٠٩٩ فرضت جيوش الصليبيين المشتركة والبالغة ٤٠٫٠٠٠ رجل ، الحصار على بيت المقدس التى كانت آنذاك تحت سيطرة الفاطميين المعرضة للتهديد . صمدت الحامية المصرية الصغيرة التى لا يزيد أفرادها عن الألف ، أمام العدو لمدة خمسة أسابيع ، إلى أن أحدث الصليبيون فى ١٥ يولية ثغرة فى سور المدينة الشمالى وتدفقوا إلى داخل بيت المقدس .

ثم بدأت مذبحة من أشد المذابح دموية وقسوة فى التاريخ . ليس هناك أرقام يطمئن إليها ، عن مجموع من هلك من المسلمين ، ولكن ابن الأثير يحدثنا أن سبعين ألفاً ذبحوا فى المسجد الأقصى وحده ، كلهم من غير المحاربين وبعضهم من الأئمة وعلماء الدين ممن لجأوا إلى ما يعتبر حرماً آمناً طبقاً لقوانين الحرب الإسلامية . وذكر رواة الأخبار المسيحيون هذه الرواية ، وكتب قسيس صليبى يهلل طرباً للفظائع التى ارتكبت ، فقال « مناظر مدهشة نعمت

بها أعيننا . فالبعض من رجالنا وهم الأكثر رحمة وشفقة، حزوا رؤوس الأعداء؛ ورماهم غيرهم بالسهام فسقطوا من الأبراج ، وآخرون عذبوا لوقت أطول بأن ألقى بهم فى النيران . كانت أكوام من الرؤوس والأيدى والأقدام تشاهد فى شوارع المدينة » . لاعجب أن كان الصليبيون فى نظر العالم الإسلامى « حيوانات تملك فضائل الشجاعة والقتال ولا شىء خلاف هذا » .

هذه «المناظر المدهشة» استمرت أسبوعاً بأكمله ، كان فيه النساء والأطفال، والشيوخ والشباب ، والجند والمدنيون ، والعرب واليهود ، يقتلون فى مذبحة لم تتفوق عليها فى الوحشية مذبحة أخرى بل ولم تبزها غزوات المغول. وفى النهاية عندما انطفأ تعطش الصليبيين للدماء ، أخذوا يعملون على دعم مركزهم . عاد إلى الأوطان أولئك الذين كانوا قد حضروا فقط من أجل إعادة الأماكن المقدسة المسيحية إلى سيطرة المسيحيين . ولكن تخلف عدد أكبر وأقام فى فلسطين . فمن الجيش الضخم الذى استجاب لدعوة البابا كان عدة من الزعماء قد جاءوا للحصول على إمارات يحكمونها ؛ وجاء البنادقة والجنويون لتنمية مصالحهم التجارية ؛ بينما كان الكثيرون من العوام لايسعون إلا إلى الهروب من الفقر وقذارة الحياة فى فرنسا وإيطاليا . ووقع الاختيار على جودفرى أوف بويون القائد العام الصليبى ليكون ملكا على الدولة اللاتينية لبيت المقدس ، واحتفل بتنصيبه بأن استولى على مدينتى حيفا ويافا الساحليتين بمساعدة أسطول البندقية . وأعقب ذلك مذبحة فظيعة أخرى عندما دعا المنتصرون الحامية والأهلين إلى التجمع حول صليب باعتبار أنه حرم مقدس ثم قتلوهم جميعاً . واحتاج العالم الإسلامى إلى أربعين سنة أو أكثر كى يعبىء جيوش التحرير . ولكن هذه الفظائع ـ وخاصة مذابح بيت المقدس التى ارتكبت فى رمضان وهو الشهر المقدس ـ لم ينسها أو يغفرها أبداً عالم الإسلام .

فى السنوات التالية قتل جودفرى خلال قتال ، وعندما خلفه أخوه بلدوين شدد الصليبيون من قبضتهم على سواحل الشام وفلسطين ، فاستولوا على قيسارية وبيروت وصور وصيدا وجبيل وطرابلس ، وكان الأهالى يقتلون أو يعذبون كى يسلموا مقتنياتهم . ولم يحل عام ١١١٠ حتى كان ملك الفرنجة صاحب السلطة العليا ، وكان موضع الكراهية فى كل مكان ، من أنطاكية إلى العقبة . وقسمت الأراضى الواقعة تحت سيطرته إلى ثلاثة أجزاء : مملكة بيت المقدس الممتدة من بيروت إلى العقبة ؛ إمارة أنطاكية من اللاذقية حتى حدود أرمينية ؛ مقاطعة طرابلس . ولكن الفرنجة إذ جزأوا فتوحهم ، إنما نقضوا ماتعهدوا به للامبراطور البيزنطى بأن يسمحوا بعودة أنطاكية إلى الروم لقاء المساعدة التى قدمها الأخيرون . ولذلك انسحب الروم إلى آسيا الصغرى ليغذوا مظالمهم ، وتركوا حلفاءهم الفرنسيين الغادرين يعملون بدونهم والآن استقر الفرنجة فى فتوحهم الجديدة على نحو مافعل المستوطنون الفرنسيون فى الجزائر فى القرن التاسع عشر ؛ وكانوا فى بعض الحالات ينتزعون كل ياردة مربعة من الأرض لأنفسهم ويطردون الفلاحين من أهل البلاد ، ويجبرون النساء العرب على الزواج المختلط وعلى الخروج عن دينهم .

لكن ، برغم ما ارتكب الصليبيون من الفظائع وأعمال النهب ، لم يرتفع إصبع فى بغداد لمساعدة فلسطين أو الشام ؛ وفى مصر احتفظ الوزير الفاطمى الأفضل بجيشه فى داخل البلاد ، ولم يبعث بأسطوله إلا من وقت لآخر ليضايق البحريات الصليبية التى تحاصر المدن الساحلية . إلا أن الأراضى التى سيطر عليها الصليبيون كان لا يمكن الدفاع عنها إلا بصعوبة ، إذا تعرضت لهجوم مصمم (بتشديد الميم الأولى وكسرها) تقوم به قوات برية ، وذلك بسبب افتقارهم إلى أى دفاع فى العمق . وإذا استثنينا الرها وراء الفرات فى شرق أرمينية ، واستثنينا بيت المقدس ، فإن جميع البنادر والمدن الداخلية

كانت فى أيدى العرب . فلم تتعرض دمشق وحلب وحمص وبعلبك وحماة أبداً للتهديد بشكل خطير ، وخل عنك أن الغزاة لم يفتحوها ، وأقامت سلسلة جاهزة من القواعد ليشن منها هجوم مضاد ضد عدو لا يبعد إلا على مسيرة يوم واحد . ولكن لم يأت أحد من عاصمة بنى العباس . وحتى لما سقطت بيت المقدس وذبح أهلها ، وجد الوفد الذى توجه لطلب المساعدة من الخليفة ، أن الكل فى بغداد يبكون ولكنهم غير مستعدين لشن الحرب بسبب ما نزل بإخوانهم . فالأتراك السلاجقة الذين كانوا ينتصرون على طول الخط ، لم تعد لهم أية قابلية للقتال إلا فيما بينهم . وكما يلاحظ ابن الأثير ، فإن الفرنجة لعنهم الله حققوا فتوحهم بسبب الإنقسامات فى صفوف المؤمنين ، إذ فى الحقيقة كانت جيوش المسلمين وقادتها فى حرب باستمرار مع بعضهم بعضاً ، وكانت اتجاهاتهم متنافرة ، وأهدافهم منقسمة ، ومواردهم المالية مبددة .

وفضلا عن هذا كانت خزائن الخلافة تفرغ بسرعة كلما تفككت الإمبراطورية وانقطعت الإيرادات الغنية وتوقفت عن التدفق من الولايات إلى بغداد . وعلى كل نداء بطلب المساعدة ضد الصليبيين كان السلاجقة يردون بأن السلطان ليس عنده مال ، ولن تكف قواته أبداً عن أن تطلب منه مالا يستطيع أن يعطيه لها . أما الحملة أو الحملتان اللتان دفع الخجل السلاجقة فى النهاية إلى ارسالهما إلى الشام وفلسطين فكان مصيرهما الذوبان والتفرق لما رفض أمراء الشام التعاون ، أو مزقها الفرنجة إرباً . وبخلاف هذه الإجراءات النصفية الفاشلة اقتصرت مقاومة المسلمين لما يقرب من خمسين سنة على غارات تلقائية تشنها القبائل العربية التى كانت أعدادها وأسلحتها غير فعالة تماماً ضد المعاقل الصليبية . ولكن فى عام ١١٤٤ تلقى احتكار الصليبيين للقوة خبطة وحشية عندما فرض عماد الدين زنكى حاكم الموصل ، الحصار على الرها وهى المخفر الأمامى الشرقى للمتلكات الصليبية واستولى عليها . بهذه الضربة

المنيفة الواحدة أزال المسلمون الإسفين الذى كان الصليبيون قدد قوه للفصل بين الشام والعراق . وأكثر من هذا ، كان انتصار زنكى يشير إلى « بداية نهاية » حكم الصليبيين فى فلسطين وعرب الشام ، وبدأ الثأر الإسلامى الذى سوف ينتصر فيما بعد ، بقيادة صلاح الدين .

كان السلطان السلجوقى ملكشاه زنكى إبناً لعبد تركى ، وقفز إلى الشهرة لأول مرة فى عام ١١٢٦ عند ما أحبط وهو والٍ على البصرة ، محاولة من جانب الخليفة لقلب السلطان . ومكافأة له على خدماته عينه السلطان واليا أو « أتابك » على الموصل . هذا اللقب ومعناه « حارس الأمير » مشتق من حقيقة أنه فى ولايات معينة كان أمير سلجوقى يشغل منصب نائب الخليفة تحت حماية الوالى . بدأ زنكى الآن يحلم بتأسيس مملكة من السلطنة السلجوقية المتهورة ، وفى عام ١١٢٨ نجح فى إقناع السلطان بمنحه سلطة عامة فى جميع أرجاء الشام . وبهذه المساندة دخل حلب حيث استقبله أهلها بالفرحة البالغة ، ثم واصل السير إلى حماه حيث خدع حاكمها السلجوقى لينضم إليه بحجة أنهما سوف يتوجهان سوياً لمهاجمة الفرنجة . وعند ما وصل الشاب الصدّيق إلى معسكر زنكى ومعه حامية حماة كلها ، قبض عليه على الفور ومعه ضباطه بينما زحف زنكى واستولى على المدينة العزلاء .

تنبه السلطان السلجوقى الآن للخطر الناجم من تزايد قوة الأتابك . وكذلك كان الحال بالنسبة إلى الفرنجة . ولكن زنكى هزم جميع الوافدين من السلاجقة والصليبيين ، وفى عام ١١٣٧ توغل فى الأرض المسيحية . ثم ارتد إلى أرض السلاجقة واستولى على بعلبك حيث أعدم الحامية بعد أن أمنهم على حياتهم إذا سلموا المدينة . انتشر خبر غدره بسرعة ، وعند ما توجه لحصار دمشق لم يكن الأمير السلجوقى على استعداد لتصديق ما عرضه من مبادلة بعلبك

بالعاصمة الشامية ، بحيث أنه عندما أخفقت مدافع الحصار فى تحقيق غرضه ، اضطر زنكى هذه المرة إلى الاعتراف بالهزيمة .

أما وقد أصيب زنكى بالإحباط فى ميدان القتال، لجأ الآن إلى الدبلوماسية للحصول على التأييد بينما وسع إمبراطوريته الخاصة. هنا حقق نجاحاً وبصفة خاصة لأن السلطان السلجوقى لم يكن فى وسعه أن يرفض عروضه فى هذا الموقف الحرج . أحد الأسباب فى هذا أن السلاجقة كانوا يعانون هزائم جديدة فى الشرق على أيدى مجموعة جديدة من القبائل التركانية من بلاد ماوراء النهر — وكان هذا تهديداً هو من القوة بحيث أنه حتى أهل السنة والشيعة اتفقوا مؤقتاً على دفن صراعهم . وثمة سبب آخر هو أنه مهما قد تكون أطماع زنكى النهائية فقد كان فى ذلك الوقت يدبر حاجزاً بالغ النفع والفعالية ضد التهديد من جانب الغزوات الصليبية شرقاً .

لهذه الأسباب وافق السلاجقة فى عام ١١٤٣ على معاهدة عدم اعتداء . كان زنكى الآن حراً فى التحرك ضد الصليبيين دون خوف من هجوم سلجوقى فى مؤخرته. وبعد شهور قلائل جمع أمراءه وتحدث إليهم قائلا إنه لن يتناول معه العشاء تلك الليلة إلا الذين سوف يدقون فى الغد أبواب الرها برماحهم . لم يرفض أحد الدعوة ؛ وفى الغد سقطت الرها — لا أمام رماح الأمراء ، ولكن أمام المهندسين من العسكر الذين قوضوا الاستحكامات.

وسقطت حصون للصليبيين فى تعاقب سريع . ولكن سقوط الرها أسفر عن الحرب الصليبية الثانية ، كما أن موجة التعزيزات الفرنجية التى هبطت الآن على فلسطين ، أوقفت مؤقتاً عمليات زحف جديدة من جانب المسلمين . ثم اغتيل زنكى فى عام ١١٤٦ على يد أحد عبدانه أثناء حصاره لقلعة صليبية . عندما توفى كان معه ابنه نور الدين الذى أخذ منه خاتمه رمزاً للسلطة، وأسرع

إلى حلب حيث استقبل كخلف لزنكى. كان نور الدين إداريًا حازمًا ومقتصدًا وورعًا، متعته الوحيدة لعب البولو من وقت لآخر؛ وكان كأبيه داهية تمامًا، ففى عام ١١٥٤ ظفر بالسيطرة على دمشق دون طلقة واحدة بأن ادعى أنه يحذر أهلها من هجوم وشيك من قِبل الفرنجة. وبعد أن استقبلوه بأذرع مفتوحة أقنع الوالى بتسليم المدينة مقابل تعيينه واليًا على حمص، فلما توجه الأخير المطالبة بالمدينة اكتشف أن نور الدين أعطاها لشخص آخر. ومن دمشق عمل نور الدين على توسيع إمبراطورية أبيه على حساب الصليبيين، وفى ظرف عشر سنوات جعل من نفسه سيد الشام بالفعل فيما عدا أنطاكية.

ولكن بينما كان نور الدين يكتسح كل شىء أمامه فى الشمال، كان الفرنجة يبدأون تهديدًا جديدًا فى الجنوب. كانت عسقلان قاعدة الفاطميين البحرية شمال غزة قد وقعت فى أيديهم وبذا فتح الطريق إلى مصر. وفوق كل شىء أراد عمورى (أملريك) ملك بيت المقدس الجديد الاستيلاء على مصر حتى ولو كلفه هذا أنطاكية. ولكن عمورى لم يكن الوحيد الذى يريد مصر. فقد كان نور الدين بالمثل يحن إلى أن يضيفها إلى أملاكه، وإلى أن يعمل بصفته سنيًا متعصبًا، على أن يقضى على الخلافة الفاطمية فى القاهرة هى وزندقتها الشيعية. وحانت فرصة نور الدين فى عام ١١٦٤ عندما قدم دمشق وزير فاطمى اسمه شاور كان الحرس البريتورى قد عزلوه لصالح زعيم من البدو، وكان قدومه بغرض الحصول على تأييد يعيده إلى منصبه فى مصر، وعرض ثلث ثروة[١] مصر ثمنا للتأييد. وافق نور الدين على تقديم المساعدة شريطة أن يعترف له شاور بالسيادة إذا ما نجح. تم الاتفاق على الصفقة، وبعث نور بشاور ليسترد منصبه الوزارى فى مصر، على رأس جيش بقيادة أقدر قواده وهو أسد الدين شيركوه أيوب.

---

١) المقصود دخل مصر أو إيراداتها — المترجم.

كان شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب من عائلة كردية في شمال العراق، وقضيا وقتا طويلا في خدمة أتابكة الموصل وحلب . وفي عام ١١٣٢ وكان نجم الدين عاملا على تكريت ، عرض إيواء ومساعدة والد نور . ومكافأة له على ما تحمل من متاعب في تلك الأيام المبكرة بينما كان زنكي لا يزال يتعرض لضغط شديد من جانب السلاجقة، عين حاكما على بعلبك في سنة ١١٣٩، كذلك ترقى شيركوه إلى أعلى منصب في جيش زنكي ، ثم كان مبرزاً بعد ذلك في حملات نور ضد الصليبيين في الشام . ولكن حملته إلى مصر مع شاور كادت أن تقضي عليه . ذلك أنه لما هزم الوزير الحاكم ووضع شاور مكانه أنكر الأخير على الفور اتفاقه مع نور ورفض أن يعترف له بالسيادة ، ثم أمر شيركوه نهائياً بالعودة إلى الشام . رد شيركوه بالاستيلاء على بلبيس في دلتا النيل ليتخذ منها قاعدة له ، وعندئذ طلب شاور من الصليبيين أن يساعدوه على إخراجه . فعرض على عموري ألف دينار عن كل مرحلة من المراحل السبع والعشرين التي تمثلها المسيرة من بيت المقدس إلى النيل . بدأ عموري الزحف على الفور ، وهو الذي لم يكن بحاجة إلى مغريات مالية لتأتي به إلى مصر . وبعد ثلاثة أشهر من الحصار الذي فرضته القوات الصليبية اضطر شيركوه تحت ضغط تهديد الموت جوعاً ، إلى عقد هدنة وخرج من مصر.

ولكن نور الدين لم يكن بالذي يُحرَم بمثل هذه السهولة ، فبعد عامين أرسل شيركوه مرة ثانية ليدخل مصر في مدار البلاد التي تؤدي له الجزية . ومرة أخرى اتحد شاور الغادر وعموري الطامع . ولكن في هذه المرة كان شيركوه أسرع منهما ، وقبل أن يتمكن الفرنجة من اعتراضه ضرب معسكره قبالة القاهرة في ظل هرم الجيزة الأكبر . جلس شيركوه شهراً في مواجهة قوات شاور وعموري المشتركة ، عبر النيل . ولكن عموري كان لا يرغب في مغادرة معقله في القاهرة؛ فلما تظاهر شيركوه بالانسحاب نحو الجنوب كان

فى ذلك ما أغرى عمروى بمطاردته . وبرغم أن قوات عمورى هى الأقوى من حيث العدد إلا أن المغامرة كادت أن تكلفه هو وشاور حياتهما . فقد اتبع شيركوه تكتيكا أثبت نجاحه ضد الفرس فى نهاوند سنة ٦٤٢ ونادراً ما أخفق عند استعماله ضد أعداد أكبر . فبعد تراجع فى المركز فى شكل اضطراب مدبر بعناية استدرج الفاطميين والصليبيين إلى هجوم قاتل شنه فرسانه على الجانبين وأسرعت البقية الممزقة بالعودة إلى القاهرة .

جاء الآن دور شيركوه ليخطىء . فبدلا من أن يهاجم القاهرة سلك السبيل الأسهل وهو احتلال الأسكندرية حيث فتح أبوابها أهلها الذين يكرهون شاور وحلفاءه الكفار ورحبوا بمحرريهم الشاميين . بهذا الذى عمله شيركوه أوقع نفسه فى فخ حيث سارع عمورى إلى محاصرة المدينة وساعده الأسطول الصليبى على إحكام الحصار . نجح شيركوه نفسه فى التسلل خفية من الإسكندرية مع معظم رجاله فى محاولة لإبعاد القائمين بالحصار وذلك بأن يهاجمهم فى المؤخرة . وترك حامية صغيرة من ألف رجل بعد أن أصدر لها الأوامر بالصمود أطول وقت ممكن ، ولكن قبل أن أمكن تنفيذ المناورة كان مركز الحامية قد أصبح مما لا يمكن الدفاع عنه ، وفى أغسطس ١١٦٧ اضطر شيركوه إلى عقد اتفاق مع الصليبيين .

كان قائد الألف شامى المحصورين إبناً لنجم الدين أيوب يدعى صلاح الدين يوسف بن أيوب الشهير باسم صلاح الدين والذى ولد قبل ذلك بتسعة وعشرين عاما فى تكريت عند ما كان أبوه عاملا عليها . هذا الشاب النحيل الميال إلى العزلة والذى كانت ابتسامته الجذابة تخفف من تعبير حزين نوعاً ، كان يهتم ، بعلوم الدين بوجه خاص . وعند ما أصر عمه شيركوه على أن يصاحب صلاح الدين حملة شاور إلى مصر ، لم يكن الشاب شديد الرغبة

فى أن يستبدل هدوء بعلبك ومروج وادى البقاع المحيطة بها بمسيرة طويلة فى جو حار، وغير مضمونة. لم يكن السبب افتقاره إلى الشجاعة؛ بالعكس كان يكشف فحسب فى البداية عما قدر له أن يصبح حياة عسكرية مظفرة وهو أنه كان أكثر فاتح فى التاريخ كله عزوفاً عن الحرب.

وكما أظهرت المناقشات التى أعقبت سقوط الأسكندرية كان صلاح الدين يملك موهبة رائعة للدبلوماسية وتفضيلا قوياً للمفاوضات كوسيلة لتسوية المنازعات. فبرغم ضعف مركز شيركوه العسكرى عند تلك النقطة، نجح بمساعدة صلاح الدين فى الحصول على صفقة متكافئة فى هذه المفاوضات. فبرغم أنه اضطر إلى الموافقة على سحب قواته ودفع جزية للملك بيت المقدس الفرنجى حصل بالمقابل على جـــلاء معظم الجيش الصليبى عن مصر. وهذه المباحثات كانت أولى إتصالات صلاح الدين بالزعماء الصليبيين. وبلغ من دهشة عمورى وقواده لا كتشافهم بأنه كان إنساناً على درجة عالية من التعليم والحضارة، أن أنعموا عليه برتبة فارس الشرفية.

ولـكن برغم كل هذا الملق كان صلاح الدين وشيركوه يعرفان جيداً أن انسحاب عمورى من مصر ما هو إلا خدعة لتخدير أعصاب خصومه المسلمين بينما يعد لهجوم جديد. ومن ثم فعند عودتهما إلى الشام بدأت استعدادات محمومة لإرسال حملة أخرى إلى مصر. مثل هذه العجلة كان لها مايبررها تماماً؛ إذ فى ظرف شهور قليلة من توقيع الهدنة عقد عمورى صفقة مع إمبراطور الروم تقضى بتقسيم مصر بينهما، ثم زحف بنفسه على القاهرة بحجة أن شاور تأخر فى أداء الجزية المفروضة عليه. لعل هذا صحيح فابن الأثير يحدثنا أن شاور كان يحاول أيضاً رشوة نور الدين بمبالغ كبيرة من المال كى يدعه فى سلام.

أبدت القوات الفاطمية مقاومة باسلة فى بلبيس ولـكنها كانت أقل عدداً بكثير وهزمت. وأعدم سكان بلبيس بما فيهم الأقباط، وسار عمورى ليتقبل

استسلام القاهرة . والآن توسل شاور الفظيع إلى نور أن ينقذه وأجبر الخليفة الصبى التعس وهو العاضد ، على توقيع نداء الاستغاثة الذى كان فى طيه خصل من شعور نساء الحريم اللائى التمسن الخلاص من أيدى الفرنجة . ولكن ، أما وقد تعرض نور مرة لإنكار فضله ، فإنه لم يكن فى حالة نفسية تسمح له بالاستجابة إلى نداء شاور . وكان رده أن بعث بشيركوه وصلاح الدين مرة ثانية إلى مصر على رأس جيش من ثمانية آلاف فارس ، ومعهما أوامر بالقضاء على الحكم الفاطمى ، وعلى الاحتلال الصليبى أيضاً .

أما وشاور الآن فى حالة يأس ويواجه الهزيمة على أيدى كل من الفرنجة والشاميين ، لعب ورقته الأخيرة . فجدد عرضه الخاص بثلث إيراد مصر مقابل حماية نور له من الفرنجة ، وفى الوقت نفسه سعى إلى كسب ود عمورى بأن أنذره باقتراب شيركوه . ولكن كان شيركوه هو الذى استفاد فى النهاية من هذه المخادعة . إذ لما زحف الفرنجة لاعتراضه سبقتهم مرة أخرى قواته السريعة الحركة إلى درجة عالية . وفى ٦ ديسمبر ١١٦٨ دخل شيركوه أخيراً القاهرة دون أن يلقى مقاومة ، فخلع عليه الخليفة الفاطمى خلعة الوزارة وأكرمه .

مما يدعو إلى الدهشة أن يتقبل عمورى هذه النكسة وينسحب من مصر ولن يعود إليها أبداً . وفى هذه الأثناء عمل شيركوه على تثبيت مركزه كحاكم مصر من حيث الواقع ، ولكنه لم يعمل شيئاً لعزل الخليفة الفاطمى . ويحدثنا أبو الفداء أن شاور وجه جهده الآن نحو استمالة شيركوه ، فكان يتردد عليه يومياً ووعد أن يحترم اتفاقاته الماضية بل وأقام الولائم تكريماً للذى غلبه على أمره . واقتصر شيركوه على تجاهل التماساته ووعوده . ولكن لم يكن هذا بموقف صلاح الدين الذى صمم على قتل شاور ، فأغراه بالتوجه إلى قبر مقدس بحجة أن شيركوه يرغب فى مقابلته ، وهناك قبض عليه . أبلغ نبأ القبض إلى شيركوه ولكنه رفض الموافقة على إعدام شاور إلا إذا حصل على الموافقة الشخصية من الخليفة .

ووافق العاضد ، ولما قدمت إليه الرأس المفصولة عن جسدها ، عين شيركوه وزيراً وأضاف إليه لقب القائد العام .

ولكن لم يطل العمر بقائد نور الدين ليتمتع بثمار حملاته المتصلة حيث مات بعد شهرين من توليه وزارة مصر ، وخلفه صلاح الدين . هكذا انتقل حكم مصر إلى يد معلم الدين الشاب الذى قال عند ما أمر بأن يصحب حملة شيركوه الثالثة والأخيرة ، إن عليه الطاعة ولكن لو عرضت عليه المملكة نفسها لما تطوع للعودة إلى مصر بعد المآسى التى لا تنسى والتى تحملها فى حصار الأسكندرية .

(١٦)

انتصار صلاح الدين

من الآن فصاعداً انتقل مركز القوة فى العالم الإسلامى إلى مصر حيث بقى فيها إلى أن أنزل الأتراك العثمانيون الهزيمة بالسلاطين المماليك ونقلوه إلى القسطنطينية بعد ذلك بثلاثمائة وخمسين عاماً . كانت بغداد خارج الحساب ، وبرغم أن نور الدين قد رد حدود الصليبيين فى الشام إلى الوراء ، كان مايزال معزولا بطريقة فعالة ، حيث الدولة اللاتينية المعادية فى فلسطين من جهة والدولة العباسية المحايدة فى العراق من جهة أخرى . مصر فقط هى التى كانت توفر الموارد وحرية المناورة مما يلزم لزحزحة قبضة الفرنجة على فلسطين — ولتحقيق هذه الغاية كرس صلاح الدين نفسه . فأقلع عن شرب الخمر ، وترك وسائل اللهو ، وأقسم أن ينتزع بيت المقدس من الفرنجة وأن يؤسس أسرته السنية مذهبياً فى مصر .

لكنه اضطر خلال العامين الأولين إلى أن يخطو فى حذر . فقد ثار حرس القصر من النوبيين فى أغسطس عندما أمر صلاح الدين بإعدام قائدهم جزاء خيانته ؛ وبعد هذا امتنع عن أى تدخل آخر فى بيت الخليفة الشخصى . ثم فى أكتوبر وقد قرر الروم متأخرين تنفيذ الصفقة التى سبق لهم عقدها مع عمورى نزلوا على دلتا النيل وحاصروا دمياط لمدة خمسين يوما عدلوا بعدها عن المحاولة وأقلعوا عائدين إلى بلدهم . ولكن أخطر مشكلة واجهت صلاح الدين نشأت من الإزدواج الغريب الذى اتسم به مركزه . فمن جهة هو مدين بقوته إلى نور الدين الذى كان جنوده الشاميون يشكلون القلب الصلب لجيش صلاح الدين؛

ومن جهة أخرى فبوصفه وزير مصر كان مديناً بولاء صورى للخليفة الفاطمى الذى كان نور الدين يود أن يراه وقد قضى عليه هو الزندقة الشيعية التى يمثلها. وفضلا عن هذا أحس صلاح الدين الحذر أن أفضل أمل له فى القضاء على الفاطميين وإعادة الشعب المصرى إلى مذهب أهل السنة السنى ، هو أن يتذرع بالصبر وأن يعامل الخليفة برفق إلى حين . ذلك أنه من قبيل التناقض أن نفس ضعف العاضد الشاب أدى إلى قدر بالغ جداً من العطف الشعبى على نظام الحكم الفاطمى .

ولكن كان كثيراً جداً أن يُتوقع من نور الدين المقيم بعيداً فى حلب ، أن يفهم هذه الأمور الدقيقة . فبعد أن انتظر النتائج قرابة عامين نفد صبره ، وأرسلت أوامر قاطعة إلى القاهرة بالدعاء فى خطبة الجمعة للخليفة العباسى الذى كان نور الدين مايزال يعتبره مليكه الأسمى ، بدلاً من الدعاء للعاضد . وعندما تردد صلاح الدين قائلا إن الشعور الشيعى والتأييد للعلويين مازالا قويين فى مصر ، وأن الخليفة الشاب سوف يموت على أى حال بعد قليل من مرض لايرجى منا شفاء ، هدد نور الدين بالقدوم بنفسه إلى مصر لتنفيذ أوامره . لكن منعه من تنفيذ هذا التهديد وقوع زلزال خطير دمر الكثير من تحصيناته على الحدود . وبرغم هذا بعث بسنى من شيوخ الموصل فاعتلى المنبر فى أحد مساجد القاهرة فى ١٠ سبتمبر ١١٧١ ، بدون إنذار مسبق ودعا للخليفة ببغداد .

مر هذا الحادث دون صراع أيًا كان[١] ؛ وفى يوم الجمعة التالى ، وقد اقتنع صلاح الدين الآن بأن التحول إلى المذهب السنى يمكن أن يتم دون خطر من وقوع عنف ، أمر جميع المساجد الأخرى بأن تحذو نفس الحذو . ولكنه أبى السماح بإبلاغ الخبر إلى العاضد قائلا : « دعوه يموت فى سلام » .

---

(١) دون أن « ينتطح فيه عنزان » على حد تعبير ابن الأثير . — المترجم .

وبعد ذلك بثلاثة أيام مات الخليفة الفاطمى الرابع عشر والأخير ، ونودى بصلاح الدين سلطاناً على مصر . ولكن برغم أن واحداً من أعز أطماعه تحقق، لم يكن فى وسعه أن يغتبط بالعكس ، لام نفسه بمرارة لأنه رفض بدافع الخوف من الخيانة ، أن يدخل على الصبى ليراه وهو راقد يحتضر ، وكان يتحدث عنه دائماً بعاطفة دافقة من المحبة .

بموت العاضد فقد الشيعة آخر أمل لهم فى تثبيت مركزهم كالفئة الحاكمة فى الإسلام . استمرت المؤامرات العلوية لحظة فى مصر ولكن لم تزد على كونها رعشات عصبية للجثة الشيعية . لم يبق التشيع على قيد البقاء كضلالة سائدة ، إلا فى جنوب العراق مسرح استشهاد الحسين ، وفى فارس التى اتخذها العلويون قاعدة لهم منذ أيام علىّ الرضا ومؤسس الاسماعيلية عبدالله بن ميمون، وفى اليمن التى أصبحت ملجأ القرامطة الأخير . وفيما عدا هذه الأجزاء ظل العالم العربى على ولائه للمذهب السنى أو عاد إليه دون أن ينظر إلى الوراء لحظة ، خلال بقية حياته .

توقع نور الدين الآن من صلاح الدين أن يستغل سيطرته على مصر لينضم إليه فى سحق الفرنجة . ولكن صلاح الدين لم يكن ليقبل أن يُدفع إلى تعجل الأمور . فبينما كان على درجة كافية من الاستعداد لإزعاج المراكز الصليبية على الحدود فى غزة ، لم يكن مستعداً بعد لشن حملة كبرى. كما لم يكن ليكره إطلاقاً إبقاء مملكة الصليبيين فى بيت المقدس كحاجز بينه وبين مولاه المتعجرف(١)

انتظر نور مرة ثانية أملا فى أن يستجيب صلاح الدين بغير ضغط ، ولكن عندما لم ترد استجابة مصر نفد صبره وزحف على فلسطين وأمر نائبه أن ينضم إليه أمام الكرك وهو معقل صليبى عند الطرف الجنوبى من البحر الميت . قرر صلاح الدين أن يسلك مسلكاً وسطاً وسار لمهاجمة الكرك .

(١) ذكر ابن الأثير أن صلاح الدين حرص على عدم التوسع فى حرب الصليبيين ليظلوا ستارا يفصل بينه وبين نور الدين — المترجم .

ولكن عندما وصل جيش نور إلى المكان تحجج صلاح الدين بموت أبيه فى مصر ، ليبرر عدم إمكانه الاشتراك فى حملة مشتركة وبادر بالعودة إلى مصر. ولم يتحسن مزاج نور الدين عندما انقض عليه جيش كبير من الفرنجة بعد رحيل صلاح الدين ، ولم يتخلص إلا بعد أن تحمل خسائر فادحة . وبعد ذلك هدد بغزو مصر وإخضاع مرؤوسه غير المتعاون . لم يكن السلطان بالتأكيد غير خائف من هذه التهديدات ، وأرسل أخاه توران شاه للاستيلاء على النوبة ليتخذ منها مأوى إذا أخرجه نور الدين من مصر . ولكن قبل أن توضع المشكلة موضع الاختبار مات نور الدين من التهاب فى اللوزتين ، فى دمشق فى مايو ١١٧٤ وهو يرسم بالفعل خطته لغزو مصر .

كانت هذه خبطة حظ مزدوجة بالنسبة إلى صلاح الدين . فهى قد خففت من الضغط عليه كى يهاجم الصليبيين قبل أن يكون مستعداً ، كما فتحت إمكانية إضافة الشام إلى سلطنته بعد أن انتقلت وراثة الأتابكة إلى ابن نور الدين وهو الصالح اسماعيل وكان فى الحادية عشر من العمر . وبينما صلاح الدين يفكر فى خطوته التالية قام عمورى بقفزة إلى الأمام بأن عقد تحالفاً ضده مع الوصى على الصالح . عندئذ دارت عجلة الحظ فجأة لصالحه . إذ بعد شهرين من توقيع الميثاق مع الوصى على الأتابك ، وقبل أن يتمكن الفرنجة من التعبئة لمهاجمة مصر ؛ مات عمورى بالدوسنطاريا . فى ظرف ثمانية أسابيع فقط كانت الصورة بكاملها تغيرت ، إذ مات منافساه الرئيسيان ، المسلم والمسيحى ، وبذا بقى هو القوة والشخصية المسيطرة فى الشرق الأوسط . وخرت الشام على قدميها بلا زعامة وتنتظر الاستيلاء عليها . وراحت الدولة المسيحية فى فلسطين تتفكك من الآن فصاعداً إلى صراعات داخلية فى ظل سلسلة من ملوك يعانون اعتلال الصحة أو ضعاف .

هذا التغيير المثير المفاجىء انعكس على سلوك صلاح الدين . فإذ طرح

جانباً حذره السابق أمسك الآن بالفرصة بكلتا يديه . فلما دعاه جماعة من أمراء الشام ليخلصهم من الوصى الغادر ، أسرع إلى دمشق حيث انحازت إليه الحامية الشامية كرجل واحد . فر الحاكم الصبى إلى حلب ، وخرج السلطان ليستولى على حماه وحمص وبعلبك . وبيما تحول صلاح الدين جانباً ليعالج أمر هجوم دبره الفرنجة ليصرفوا أنظاره ، دعا الصالح ابن عمه سيف الدين حاكم الموصل مع جيش كبير للمساعدة فى الدفاع عنه فى حلب . عرض صلاح الدين حلا وسطا يقضى بأن يبادل حمص وحماه بحلب ، فلما رُفضت شروطه على الفور ، انقض على قوى الأتابك الشاب المتحالفة . عرض الصالح الآن ؛ وبروح من الشهامة وافق صلاح الدين على أن يدعه فى حلب ويكتفى ببقية أملاك نور الشامية .

إن ملك مصر والشام الجديد ، طبقاً للتسمية التى أطلقها الآن خليفة بغداد على صلاح الدين ، هذا الملك كان ما يزال عليه أن ينزع شوكة فى لحمه يزداد ما تسببه له من ألم . فخلال قدومه إلى الشام وخروجه منها نجا مرتين بصعوبة من الموت على أيدى جماعة من المتعصبين الشيعيين ممن سيصبح اسمهم مرادفاً للاغتيال . هؤلاء المتعصبون الذين أطلق عليهم اسم الحشيشية (نسبة إلى الحشيش الذى كانوا يتعاطونه لتخدير أنفسهم حتى يصبحوا فى حالة من الجرأة الكاملة) ورثوا دور القرامطة حوالى نهاية القرن الحادى عشر . كان مؤسسهم داعيا فارسيا من دعاة الخلافة الفاطمية ، ادعى أنه من نسل أحد البيوت الحميرية الحاكمة فى جنوب العرب . وفى عام ١٠٩٠ استولى على معقل فى جبال البرز فى فارس ، وراح مع عصابته من الأتباع يغير على أية قبائل أو مدن تعطف على النظم العباسى وتعمل فيها النهب والسلب . لقد جعل الحشيشية من القتل فناً رفيعا ، وكانوا يستخدمون فى العادة خناجر مسمومة للقضاء على ضحاياهم الذين كان منهم نظام الملك الشهير . وبرغم

محاولات متكررة لتحطيمهم ظلوا على قيد البقاء فى معقلهم الفارسى حتى عام ١٢٥٦ عندما أخرجهم منه الخان المغولى هولاكو وقضى عليهم فى النهاية.

وفى القرن الذى عاش فيه صلاح الدين مدوا نشاطهم إلى الشام حيث استولوا على حصن جبلى تحت قيادة زعيم جديد هو رشيد الدين سنان الذى كناه الصليبيون « شيخ الجبال » ، ومن هناك أقسموا أن يقضوا على نور الدين أولا ثم على صلاح الدين ، انتقاما لسقوط الفاطميين إخوانهم فى الزندقة . وبعد هجمات عديدة على جند صلاح الدين فى الشام وعمليات قتل فيهم صمم صلاح الدين أن يضع نهاية للتهديد من جانب الحشيشية . ولما لم يكن أبداً بالذى يجعل نفسه عرضة للغدر ، غزا أرض سنان . ولكنه وجد هو وقوانه المنطقة مليئة بالسحر الشرير بحيث أنه بعد أن اكتشف فى مخدعه خنجراً مسموماً ومذكرة تهدده ، بعث برسالة الى سنان يعرض فيها أنه لن يضايقه بعد ذلك إذا فعل الحشيشية المثل . تمت الصفقة ، ومن الآن فصاعداً ترك سنان سلطان مصر وشأنه .

خلال السنوات الثلاث التى انقضت منذ أخذ صلاح الدين دمشق ، كان رد الفعل من ناحية الصليبيين سلبيا بشكل غريب . وسرعان ما أطلعه عيونه على السبب ، وكان أحدهم محظية ملك الفرنجة ومنها علم بوجود انقسامات عميقة فى صفوف الصليبيين . فالمرارة بين الفرنجة والروم التى كانت قد بدأت بشأن أنطاكية ، زادت وانقلبت إلى عداء سافر ، ثم أخذ الصليبيون يتشاحنون فيما بينهم . يضاف إلى هذا أنهم كانوا فى حاجة شديدة إلى التعزيزات لأن الكثيرين منهم ضجروا وعادوا إلى أوطانهم . هذا الخبر كان كافيا كى يحمل صلاح الدين على القيام بمحاولة من مصر للاستيلاء على بيت المقدس ، ولكن عند عبوره الحدود بالقرب من عسقلان فرق جيشه للبحث عن العلف ، تاركا نفسه مع حفنة فقط من العسكر والمماليك . كادت غلطته أن تكلفه حياته عندما أخذته الحامية الإفرنجية فى عسقلان على غرة ،

ولم ينقذه سوى بسالة ابنه الأصغر الذى قتل وهو يبعد الفرنجة إلى أن تمكن أبوه من الهرب .

هذه النكسة وما صحبها من مأساة شخصية ، هزت ثقة صلاح الدين بشكل خطير ، فاستأنف للخطة تكتيكاته الحذرة . ولكن الصليبيين لم يتابعوا نصرهم ؛ وبعد أكثر من سنة من التوقف استأنف السلطان ضغطه . فشن هجومه من الشام وأحرز انتصارين حاسمين فى ربيع سنة ١١٧٩ . وبعد ذلك بسنة طلب الفرنجة هدنة . لعله كان فى إمكان صلاح الدين أن يفرغ من الصليبيين نهائيا فى هذه المرحلة ، ولكن جفافا طال أمده سبب مجاعة فى أجزاء كثيرة من الشام وفلسطين ، وخوفا من أن استمرار القتال قد يزيد من نضوب موارد الغذاء القليلة للسكان ، وافق على وقف إطلاق النار . ولكن فى صيف عام ١١٨١ نقض الأمير الصليبى رينولد دى شاتيون الهدنة بأن أغار على قافلة للمسلمين . كان صلاح الدين يأمل فى تسوية المسألة سلميا فطلب إعادة الغنائم . راوغ الفرنجة ، وخلال إثنى عشر شهراً كاملة جاهد صلاح الدين فى صبر من أجل الوصول إلى تسوية سلمية . ولكن بعد وقوع اعتداءات جديدة على قوافل الحجيج أصبح صلاح الدين على اقتناع بأن رينولد ينو بأبصاره إلى مكة والمدينة . فقرر ألا ينتظر أكثر من ذلك ؛ وفى مايو ١١٨٢ خرج من مصر للمرة الأخيرة ليقاتل الفرنجة .

وقبل أن يهاجم السلطان الصليبيين أحكم إغلاق بابه الخلفى فى وجه أى تهديد بخيانة سلجوقية وذلك بأن استولى على الموصل وأرض الجزيرة بين دجلة والفرات . ثم أخذ حلب حيث كان الصالح قد مات قبل ذلك بوقت قليل . ولكن برغم أن المسرح كان معداً الآن للهجوم الكبير على فلسطين التى يسيطر عليها المسيحيون فإن صلاح الدين لم يكن فى عجلة لتوجيه الضربة القاضية إذ كان خليفة بغداد يقف موقف الحياد المشوب بالعطف ، وكان الأتراك السلاجقة

فى الأناضول قد أفاقوا بالدرجة الكافية بحيث يحتوون الجيوش البيزنطية فى آسيا الصغرى . فأولاً كان يريد أن يوفر الأمن من جديد للحجاج المسلمين وللسفن والقوافل التى يسطو عليها رينولد الغادر . وتبعا لذلك هاجم قاعدة رينولد فى الكرك فى نوفمبر ١١٨٣ . وبعد توجيه بضع طلقات إلى أسوار القلعة علم أن فى داخلها حفل زفاف حيث كانت الأميرة الرومية إيزابلا التى سوف تصبح ملكة بيت المقدس فيما بعد ، قد تزوجت أميراً صليبياً هـو همفرى دى تورون . وبالشهامة التى اتصف بها صلاح الدين سأل عن الجزء من الحصن والذى يتم فيه حفل الزفاف ، حتى يصوب رجاله نيرانهم نحو مكان آخر وكوفئت شهامته بأن أرسلوا إليه عينة من ألوان الطعام الذى قدم فى الوليمة .

ولكن الشهامة لم تكن كافية للاستيلاء على معقل رينولد المحصن تحصيناً جيداً ، وبعد عام وعندما عرض الفرنجة هدنة أخرى فرح السلطان وقبل العرض. مرة أخرى كان التوقف عن القتال يناسب كلا الجانبين . كان المرض قد أصاب صلاح الدين ؛ ومن ناحية الصليبيين زادت انقساماتهم حدة بسبب الدعاوى المتنافسة بشأن مملكة بيت المقدس . ظل صلاح الدين شهوراً عدة يعانى من المرض بصورة خطيرة ، فلما شفى وجد أن رينولد عاد إلى نقض الهدنة بشن هجوم على قافلة للمسلمين . مرة أخرى طلب صلاح الدين الإفراج عن الأسرى وإعادة مقتنياتهم ، ومرة أخرى كان جزاء الطلب الرفض . لقد اختبر الفرنجة صبره ، وأكثروا من استغلال حسن نيته . دقت ساعة الثأر ، وأعلن صلاح الدين الجهاد ضد الصليبيين ، بعد أن أقسم أن يقتل رينولد بيده .

وبحلول يوليه ١١٨٧ كانت الدعوة إلى الجهاد قد جمعت أكبر جيش قاده صلاح الدين فى حياته . وعلى رأس هذا الجيش الضخم عبر السلطان نهر الأردن وانقض على شمال فلسطين واستولى على طبرية . أصبحت بيت المقدس الآن

مقطوعة عن أى أمل فى تلقى تعزيزات من طرابلس وأنطاكية ، وواجه الصليبيون الاختيار الصعب : إما أن يخرجوا للقتال بشروط صلاح الدين ، وإما أن يبقوا فى بيت المقدس وينتظروا حصاراً . أشار معظم فرسان جى ملك بيت المقدس بالانتظار فى العاصمة حتى يبدأ جيش المسلمين الضربة الأولى . ولكن ، عندما وصمه رينولد بالجبن وافق على خلاف رأيه الصائب ، على الخروج ومحاولة استرداد طبرية . ما كان يمكن أن يقع بأحسن من هذا فى أيدى صلاح الدين . فبدلا من أن يضطر السلطان إلى مواجهة الجزء الأكبر من القوات الصليبية فى مدينتهم الحصينة أمكنه الآن أن يختار ساحة المعركة .

كان الموقع الذى وقع عليه الاختيار قريباً من حطين وهى قرية تقع فى التلال المطلة على بحيرة طبرية . إن حطين بمروجها الخضراء وبوفرة الماء المتاح لها من البحيرة ، أعطت المسلمين ميزة سيكولوجية قوية ، فضلا عن عسكرية ، على الفرنجة . فكانت حرارة شهر يوليه خانقة ، وبعد مسيرة إجبارية طويلة للوصول إلى طبرية ، كان الفرنجة يقاسون آلام العطش . لكن ، لكى يصلوا إلى المياه الباردة نوعاً بالبحيرة التى بدت أمام أنظارهم ، كان عليهم أن يمروا بجيش صلاح الدين المتجمع . مرة أخرى انقسمت آراء الصليبيين عندما اتخذ جيشهم فى ٣ يوليه موقعه على الهضبة الجافة بين القرية وتل مكور وراءها يعرف باسم قرون حطين . أشار البعض باختراق خطوط المسلمين من أجل الوصول إلى البحيرة ، بينما حبذ غيرهم أن يستريحوا ليلة ،وهؤلاء هم من كانوا يحسون بالإعياء أكثر من إحساسهم بالعطش . أمر الملك جى بالوقوف ، وأمضى الفرنجة الذين كانوا فى حالة من التعاسة الكاملة ، الليل يستمعون إلى العرب وهم فى خيامهم يغنون ويصلون ويسترجعون بطولات أسلافهم العسكرية . وزاد الأمور سوءاً أن المسلمين أشعلوا النار فى الشجيرات الصغيرة الجافة التى

تحيط بالهضبة . وإذ تدفق الدخان فى خيام الصليبيين يخنق من فيها ويعميهم ، أحاط جيش السلطان بمعسكر العدو فى هدوء .

وعندما طلع النهار بدأ هجوم المسلمين . جن مشاة الصليبيين من العطش فلم يفكروا إلا فى الوصول إلى البحيرة ، ولكن رجال صلاح الدين ردوهم إلى لهب ودخان النيران المشتعلة فى الأعشاب . قاتل الفرسان الفرنجة ببسالة رائعة ، ولكن برغم أن نظامهم كان أفضل من نظام المشاة كانوا مثلهم يعانون من العطش والحرارة ؛ وخارت قوتهم بسرعة كلما دفعهم جيش المسلمين نحو القرون. ولما تحطم آخر هجوم مستميت لهم على الجدار المطبق عليهم والمكون من رماة السهام وحملة السيوف من المسلمين ، أعلن الإبن الأكبر لصلاح الدين وهو الأفضل ، وقد تملكته النشوة أن العدو دحر . ولكن السلطان الذى كان يعلم جيداً ميل العرب إلى التحول للنهب قبل أن يتأكد النصر ، أسكت ابنه بسرعة قائلا أنه لن يدعى أنه انتصر إلا بعد أن يدمر آخر خيمة للفرنجة ، وأمر قواته بالإطباق على الصليبيين الذين انهارت روحهم المعنوية . تقدم المسلمون فتحطم الفرنجة ولاذوا بالفرار . وبعد لحظات قلائل قلبت خيمة الملك — وكانت آخر خيمة ظلت قائمة فى مكانها — وقفز صلاح من فوق جواده وبكى من الفرحة والارتياح .

لما انتهى اليوم الدامى لم يكن على قيد الحياة من الفرنجة إلا حفنة ، وغطيت ساحة المعركة بأكوام تضم عشرات الألوف من قتلى الرجال والخيل الميتة . (يذكر ابن الأثير كيف أنه بعد عام من ذلك التاريخ عند ماحصدت الوحوش وجوارح الطير محصولها المريع ، كانت ساحة القتال بحطين كتلة من العظام) . استسلم الملك جى ورينولد دى شاتيون وجىء بهما إلى خيمة المنتصر . استقبل صلاح الدين الملك فى رقة وأدب وقدم له قارورة ماء بردته ثلوج جبل حرمون. عندئذ مرر الملك القارورة إلى رينولد وهنا أمر الملك المترجم أن يقول لجى إن

مضيفه لم يقدم الـكأس إلى أمير شاتيون وعلى ذلك ليس فى وسع رينولد أن يطلب الحصانة التقليدية التى ينعم بها الضيف . وعند مافُهمت الرسالة ومعناها المميت التفت صلاح الدين إلى رينولد وراح يلعنه بصوت كالرعد ، بسبب غدره وما ارتـكب من أعمال النهب والسلب ، ثم هوى بسيفه ففصل رأسه بضربة واحدة . وقيل لجى الذى كان يرتعش ، إن حياته فى أمان ، ولـكن أعطيت التعليمات بقتل مائتين من الفرسان العسكريين الذين كانوا يعينون على خيانات رينولد . وعُفى عن جميع الأسرى الآخرين ، وسُمح للـكثيرين منهم بالعودة إلى دورهم .

لقد حطم صلاح الدين الآن الجيش الوحيد القادر على تحطيمه ، وعندما أكمل عمليات التطهير من العدو فى بقية فلسطين ، سلمت عكا بدون قتال ، ولم تقاوم نابلس سوى بضعة أيام ، واستولى على يافا أخوه العادل الذى كان قد تحرك من مصر . وسقطت صيدا وتلتها بيروت وجبيل . نجت طرابلس من الهجوم بسبب ميثاق سرى بين المسلمين وحاكمها الصليبى ، جعلها تلتزم الحياد . وقاومت صور طويلا بحيث فضل صلاح الدين أن يتجاوزها وهو يزحف شمالا . وأخيراً فى الجنوب ، سُلمت عسقلان للمصريين ، وتلتها غزة وبيت لحم . أصبح صـــلاح الدين الآن يملك أو يسيطر على الساحل الصليبى بأسره من الشام إلى مصر ، ثم اتجه نحو بيت المقدس التى انقطع كل أمل لها فى الإنقاذ من الخارج .

ولما وقفت قوات المسلمين أمام أبواب بيت المقدس فى ٢٠ سبتمبر من عام ١١٨٧ اهتزوا عند ما شاهدوا فوق أسوار المدينة عدداً من الرجال أكبر مما توقعوا ، بعد القضاء على الجيش الصليبى عند قرون حطين . ودل رنين هائل يصم الآذان فى داخل التحصينات ، على أن المدينة كانت موضع دفاع قوى جداً . . أحاط السلطان ببيت المقدس لمدة خمسة أيام قبل أن يقرر مهاجمتها

من الجانب الشمالى . ثم بعد أن استخدم المجانيق لهـــدم الأسوار وقوض التحصينات من أسفل ، راح يعمل من أجل تحقيق هدفه النهائى . ويذكر ابن الأثير أنه تلت ذلك موقعة دامية كان كل رجل من كلا الجانبين يعتبر دوره عملا يمليه الإيمان والتزاماً لا يمكن تجنبه .

وأخيراً ، حطم هجوم من المسلمين التحصينات وحدث شرخ فى أسوار المدينة . فلما تدفق القائمون بالحصار إلى الداخل ، عرض الفرنجة الاستسلام بشروط . تردد صلاح فى أول الأمر مدعيا أنه كان قد أقسم أن يستولى على القدس بحد السيف ، ومذكراً الفرنجة بفظائع عام ١٠٩٩ ولكن باليان حاكم بيت المقدس رد مهدداً بأن المدينة سوف تحرق ولن يبق أحد من أهلها حياً ، سواء كان نصرانيا أو مسلما ، حراً أو أسيراً ، إذا أصر صلاح الدين على أن يأخذ بيت المقدس عنوة . وإذ لم يجرؤ صلاح الدين على أن يعتبر مثل هـذا القول نوعاً من البلف ، قبل شروط الحاكم الإفرنجى وتم الإتفاق على فدية قدرها عشر قطع ذهبية عن كل رجل ، وخمس عن كل امرأة ، واثنتين عن كل طفل ، يدفعها الصليبيون فى ظرف أربعين يوماً .

عادت القدس إلى الحظيرة الإسلامية بعد ثمانية وثمانين عاماً من الاحتلال المسيحى . وأنزل الصليب الذهبى الذى كان الفرنجة نصبوه فوق قبة الصخرة التى أقامهـــا عبد الملك ، وتم ذلك وسط صيحة فرح عظيمة أطلقها النظارة المسلمون ؛ كما أعيدت الآثار الإسلامية التى كانت قد دنست حرمتها فى المسجد الأقصى . ولكن بخلاف إعادة الأماكن الإسلامية المقدسة ، لم يسمح صلاح الدين بالمساس بمبنى واحد . وطبقاً لشهادة المؤرخين المسيحيين صدرت أوامر مشددة إلى جميع القوات الإسلامية بحماية أرواح المسيحيين وممتلكاتهم ، ولم يتعرض مسيحى واحد للمضايقة بسبب ديانته — وهذا اختلاف جدير بالإعتبار ، عن الفظائع التى ارتكبها الفرنجة قبل ذلك بثمانية وثمانين عاماً .

يكاد الفرنجة ألا يستحقوا روح الشهامة التى عاملهم بها صلاح الدين وكما يقول السير ستيفن رنسيمان فى كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » ، وبسبب موقف البخل الذى اتخذته سلطات الكنيسة ، لم يتم جمع المال اللازم لدفع الفدية، فتهدد آلاف المسيحيين بأن يباعوا فى أسواق النخاسة . لكن عندما سُيِّرت أول مجموعة وكانت من ألف فرد ، تشفع لهم العادل أخو السلطان ، فتم إخلاء سبيلهم . ثم أمر صلاح الدين بإطلاق سراح كافة المسنين الذين لم تدفع فديتهم، وبخفض مجموع الفدية إلى كسر صغير من المبلغ الأصلى . وعندما استمر الفرنجة لا يدفعون ، أطلق سراح المتزوجين والأرامل والأيتام ، وقدم صلاح الدين معونة من بيت ماله إلى من كانوا محتاجين حقاً . بل أن شهامته سمحت لأرملة واحد من خلفاء عمورى بمغادرة المدينة مع كل حاشيتها من الخدم وجميع مجوهراتها . وسمح لأرملة رينولد أن تأخذ معها جميع مقتنياتها حتى وإن لم تنفذ صفقة من أجل إخلاء سبيل ابنها الأسير مقابل التنازل عن الكرك للمسلمين . وكما يلاحظ رنسيمان عند قرون حطين وأبواب بيت المقدس انتقم [أى صلاح الدين] للاذلال الذى سببته الحرب الصليبية الأولى وأظهر كيف يحتفل الشخص النبيل بانتصاره » .

أحدث الاستيلاء على بيت المقدس وفلسطين رد فعل مجنوناً فى أوربا . وعلى الفور أبحر فردريك بربروسا ملك ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب ملك فرنسا لشن الحرب الصليبية الثالثة . ولكن نظراً لعدم وجود أى نظام مركزى للقيادة ، سار كل من الجيوش الوطنية الثلاثة فى طريق مستقل . انحرف ريتشارد ليفتح قبرص . ونظراً لأن فردريك بربروسا جاء عبر البلقان فإنه تعرض للمضايقة والإيذاء من جانب السكان المحليين ، ولما وصل إلى آسيا الصغرى وجد الأتراك السلاجقة أكثر صلابة مما توقع . ولإكمال قصة البلايا التى أصابت الألمان غرق فردريك نفسه وهو يعبر نهراً فى

كيليكية . لكل هذه الأسباب تعطل الهجوم المضاد الصليبي نوعا ، ولم يكن الألمان وهم أول الذين وصلوا ، فى مركز يسمح لهم بتهديد الأرض الإسلامية إلا عند انتصاف عام ١١٨٩ .

مرة أخرى نجد صلاح الدين الذى يفضل الكلمات على الحرب ، يعرض التفاوض، وكرمز على حسن نيته أطلق سراح الأسرى من الصليبيين بما فيهم الملك جى ، بعد أن أقسموا أنهم لن يحملوا السلاح ضده أبداً. ولكن رد الفعل الوحيد من جانب الصليبيين كان الإصرار على إعادة فلسطين إليهم بما فيها بيت المقدس ، وأن ينسحب السلطان بجيشه كله إلى مصر . أعقب ذلك تحرك ضد عكا . ذلك أن الملك جى نكث بقسمه بمجرد أن صار حراً ، وجمع جيشاً وفرض الحصار على عكا . سارع صلاح الدين فدفع بقواته إلى الميدان وكان على وشك أن يرفع الحصار عند ما وصلت تعزيزات صليبية جديدة عن طريق صور وكانت الميناء الوحيد على البحر المتوسط ، الذى لم يستول عليه المسلمون .

هذا الخطأ سوف يكلف السلطان غالياً فى الأشهر التالية . فبالتشبث بهذه الثغرة الحيوية فى دفاعات المسلمين عمل الصليبيون الآن على تدفق القوات والإمدادات عن طريق صور ، وباستخدام الميناء كقاعدة بحرية ضربوا حصاراً من البحر على عكا . تجمع الآن جيش ضخم من الصليبيين وراء أسوار المدينة المحصورة ، وبرغم أنه من حين لآخر كانت تنجح سفينة قادمة من مصر فى تخطى الحصار لتأتى بالطعام للحامية ، فإن المجاعة أخذت نصيبها بالتدريج من الأرواح والقوة . ومع ذلك صمدت الحامية ثلاثة وعشرين شهراً ملأى بالآلام ، إلى أن استسلمت وهى منهوكة القوى عضها الجوع بنابه ، فى يوليه ١١٩١ للقائمين بالحصار وكانوا الآن بقيادة ريتشارد ملك إنجلترا . كانت الشروط متماثلة فعلا مع الشروط التى أقرها صلاح الدين مقابل تسليم

بيت المقدس إليه — فدية مقابل الإبقاء على حياة وحريات المدافعين . لكن قبل أن يتمكن المسلمون من تنفيذ الصفقة ، أنكرها ريتشارد بحجة أن عدداً معيناً من الأسرى المسيحيين لم يطلق صلاح الدين سراحهم ، ثم راح يقتل حامية عكا بأسرها مع زوجاتهم وأطفالهم . ولم ينج إلا عدد قليل من الأمراء والضباط الأغنياء اشتروا أرواحهم .

أما وقد أمنت عكا وصور الآن فإن الصليبيين راحوا ينتشرون على امتداد الساحل حتى قيسارية وأرسوف . وسار ريتشارد ليأخذ يافا وعسقلان ولكنه خشى أن يتوغل فى الداخل صوب بيت المقدس وبعيداً عن قواعده الساحلية . وهكذا بدأت فترة من تفاوض طال أمده حاول فيه الملك الإنجليزى أن يحصل بطريق الدبلوماسية على ما كان يخشى أن يأخذه بالقوة . ولكن فى كل مرة تقابل فيه الرسل المفوضون كان الاتفاق يحول دونه مطلبان لا سبيل إلى التوفيق بينهما . كان ريتشارد يصر على أن يتخلى صلاح الدين عن فلسطين كلها ، وكان صلاح الدين يصر على خروج ريتشارد من عسقلان التى كانت تشكل فى أيدى الصليبيين خنجراً مصوباً إلى قلب مصر . وفى النهاية تحطمت المفاوضات واستؤنف القتال فى مايو ١١٩٢ . تقدم ريتشارد الآن نحو بيت المقدس ، ولكنه لم يكن متحمساً بشأنها . وعند أول مظهر يدل على تصميم المسلمين على المقاومة انسحب على عجل خشية أن يفقد ماء الوجه والرجال فى محاولة الاستيلاء عليها إذ يعلم أنه لن يستطيع الاحتفاظ بها إلى ماشاء الله . ومرة أخرى تجددت المفاوضات ولكن بغير نجاح .

ما من شىء كان يقنع صلاح الدين بتعديل مطلبه الخاص بنزع سلاح عسقلان ، أو بالجلاء عن فلسطين . ليس معنى هذا أنه كان يحاول استدراج ريتشارد إلى مواجهة ؛ بالعكس وكما هو شأنه دائماً ، كان يفضل تسوية خلافاته بطريق الدبلوماسية ، وكان على استعداد لأن يتخلى للصليبيين عن

مدن ساحلية معينة . ولكنه فى جميع هذه المناقشات كان يقامر على رغبة ريتشارد فى الخروج بأسرع ما يمكن والعودة إلى إنجلترا . ولا شك أنه لهذا السبب خرج على أسلوبه لمداراة الملك الإنجليزى . وعندما قتل حصان ريتشارد وهو يركبه فى مناوشة فى أعقاب زحفه الفاشل على بيت المقدس ، بعث إليه صلاح باثنين من أجمل جياده رمزاً عن إعجابه بشجاعته فى القتال ؛ وعندما رقد ريتشارد مريضا بالحمى خلال إحدى نوبات التفاوض المتعددة أرسل إليه صلاح الدين كمية من الخوخ والجليد من جبل حرمون لتبريد مشروباته .

هذا المزج المتقن من المجاملة المدروسة والصلابة التى لا تلين ، حقق ثماراً طيبة بعد ذلك بشهور قلائل . ففى سبتمبر لم يعد فى وسع ريتشارد أن يؤجل رحيله أكثر من ذلك . وعقدت صفقة تنازل بها صلاح الدين للصليبيين عن الساحل من صور إلى يافا (حـــوالى ميلين إلى الجنوب من تل أبيب) بما فى ذلك حيفا وقيسارية وعكا . واحتفظ السلطان من ناحيته ببقية فلسطين، وظفر بعسقلان حيث دمرت المنشئات العسكرية على الفور خشية أن يرجع الصليبيون عن الصفقة ويستردوا الميناء القريب من حدود مصر . وتقرر أن يكون الحجاج من المسيحيين والمسلمين أحراراً فى زيارة أماكن العبادة الخاصة بهم فى بيت المقدس .

إن شروط الاتفاقية تركت موقف المسلمين أضعف مما كان عليه بعد استيلائهم على بيت المقدس قبل ذلك بخمس سنوات . ولكن قوة حركة الحرب الصليبية الثالثة وإن لم تهدد أبداً بيت المقدس أو أى مدينة داخلية تهديداً خطيراً ، كانت قد أخرجت المسلمين من كل معقل كانوا يحتفظون به على ساحل فلسطين من صور فى الشمال إلى عسقلان على حدود مصر . وأحرز صلاح الدين ما يشبه نصراً دبلوماسياً إذ ضمن جلاء الصليبيين عن عسقلان ونحو خمسين ميلا من الساحل نحو الشمال ، وبذلك أزال أسوأ التهديد

الصليبى لمصر . ومهما كانت رغبة ريتشارد فى العودة إلى انجلترا ، فيكاد لا يكون فى حدود السياسة العملية أن يُتوقع منه التنـــازل عن مزيد من الأراضى إلا إذا أجبر عليه بفعل الضغط العسكرى .

وفضلا عن ذلك ، فى هذه المرحلة كان المرض يشتد على صلاح الدين بما يمنعه من القيام بهجوم إسلامى آخر . فبعد التوقيع على الاتفاقية بخمسة أشهر وعودته إلى دمشق ، مرض بشكل خطير . كافح أطباؤه طيلة إثنى عشر يوما لإنقاذه بالأشربة والفصد ، ولكن إذ لم يقدر على تناول أكثر من رشفة من ماء الشعير ، أخذ يزداد ضعفاً باطراد . ومات فى مارس ١١٩٣ ، ودفن فى القلعة الواقعة إلى جانب الجامع الأموى الكبير الذى بناه الوليد ، وسط مظاهر من الحزن والنحيب شملت الدمشقيين جميعاً .

هناك نواحى شبه معينة تلفت النظر بين سلوك وخلق صلاح الدين والنبى . كان بسيطا ومقتصداً فى كل أذواقه فلم يترك سوى حفنة من القطع النقدية وقطعة ذهبية والقليل من الملابس البسيطة . لم يأخذ لنفسه دانقاً واحداً ، سواء من بيت مال الفاطميين أو من تركة نور الدين . كذلك ، وعلى غرار محمد ، لم يكن يشتد فى المعاملة إلا إذا تعلق الأمر بالخيانة والغدر . وبخلاف هذا كان أرق الأبطال وأشد المحاربين عزوفاً عن الحرب . فلم يكن راغباً فى المسير إلى مصر فى أول الأمر ، ولا فى معاملة الخليفة الفاطمى الصبى بخشونة وغلظة ، وفى استخدام أية قوة لا لزوم لها ضد الصليبيين . والحقيقة ، كان عزوفا دائما عن اللجوء إلى الحرب إذا كان الجدل والتفاوض يخدمان غاياته بنفس الدرجة . وعلاوة على ذلك ، وعلى نقيض المخادعين من أمثال رينولد دى شانيون وريتشارد قلب الأسد ، كان إذا وقع على اتفاقية احترمها . وكما يقول رنسيمان « على خلاف السادة الصليبيين لم ينكث أبداً بعهد قطعه لأى

أناس آخرين أياً كان دائماً .. وكان دائماً ملاطفاً وكريماً ، ورحيماً كفاتح وقاض ، وعاقلا ومتسامحا كسيد » .

لم تتح لصلاح الدين الفرصة ليكسب إمبراطورية مثل إمبراطورية الوليد ، أو ليقيم تفوقا ثقافيا على نحو ما فعل المأمون . ولكن عندما كانت شعوب الإسلام مهددة بالإخضاع وكان دينها مهدداً بأن يقضى عليه ، فإنه (أى صلاح الدين) جمع ووحد العالم العربى من النيل إلى دجلة ضد عدو أشد خطراً من أى من خصوم الإسلام المتقدمين ، ووجه ضربة إلى الغزاة الأوربيين لم يفيقوا منها تماماً أبداً. لقد وضع العرب من جديد على الخريطة وجعل منهم قوة يُعمل لها حساب فى الشرق والغرب على السواء ؛ وضرب مثلا فى الروح الإنسانية والشهامة فى الحرب ندر أن كان له مثيل ولم يتفوق عليه مثال آخر أبداً فى تاريخ البشرية الطويل .

الفصل السابع عشر

المغول والمماليك

لم يكد يموت صلاح الدين حتى بدأت تتفكك الأسرة الأيوبية التى أسسها والتى استمدت اسمها من والده نجم الدين أيوب . نشب العراك بين أبنائه وأخيه العادل حول تقسيم ممتلكات السلطان . وحلت المشكلة مؤقتاً حلا وسطا ، فأخذ أبناؤه الثلاثة الباقون على قيد الحياة وهم الأفضل والعزيز والظاهر ، دمشق والقاهرة وحلب على التـــــوالى ، بينما استقر عمهم العادل بالكرك . ولكن سرعان ما أثبت هذا التقسيم أنه عامل ضعف ، كما لم يكن عملياً . وبعد ذلك بست سنوات خسر أبناء صلاح الدين كل شيء لصالح العادل الذى سيطر على مصر والشام فضلا عن فلسطين . وخلال حكمه الذى بلغ عشرين عاماً ، حافظ أخو صلاح الدين على أفضل العلاقات مع الصليبيين الذين التزموا من جانبهم بالحدود التى قررتها الاتفاقية المعقودة بين ريتشارد وصلاح الدين . ولكن بعد موت العادل فى عام ١٢١٨ نشبت المشاحنات فى داخل البيت الأيوبى .

كان السلطان الجديد الكامل وهو أكبر أبناء العادل ، مصمماً على أن يمنع أبناء عمه من فرع صلاح الدين من استعادة السلطنة مهما كلفه الأمر ؛ ولما كان شديد الإعجاب بالديانة المسيحية وكان صديقاً لريتشارد ورحب بسان فرنسيس الأسيسى فى بلاطه ، وجد من الطبيعى أن يعقد صفقة خاصة به مع الصليبيين . وفى عام ١٢٢٩ وبعد حملة صليبية أخرى شنها فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة الذى كان مغرماً بالترف الشرقى ،

واكتسحت المسلمين من بيروت وطبرية وعسقلان وتوغلت في دلتا النيل ، تنازل الكامل عن بيت المقدس ، مع ممر يربطها بعكا ، وذلك مقابل تعهد الصليبيين بتأييده ضد أي من بني أيوب يحاول الاستيلاء على السلطنة . كان ميثاقاً فظيعاً وخيانة مذهلة لكل ما حارب صلاح الدين من أجل استرجاعه للاسلام . إن فشل الصليبيين في استغلال هذه الفرصة ليتوغلوا في الأراضي الإسلامية وإنما اضطروا إلى التخلي عن بيت المقدس في عام ١٢٤٤ ، للمرة الثانية والأخيرة ، نقول إن هذا كله لم يكن الفضل فيه للكامل . والأحرى أنه كان راجعاً إلى المنافسات القديمة بين أهل جنوا والبنادقة والفرنجة ، التي أضعفت قوات فردريك ، كما كان راجعاً إلى عدم ورود تعزيزات من أوربا التي أصبحت الآن وقد زال عنها وهم فكرة مواصلة حرب دينية ضد الإسلام .

في هذه الأثناء انتهى عصر الأتراك السلاجقة بالعراق في عام ١١٩٤ عندما عمد الخليفة العباسي الناصر إلى تحريض تكش العامل الشيعي على خوارزم الواقعة على شواطىء بحر آرال، على خلع السلطان السلجوقي الحاكم. انتهز تكش في جشع ، دعوة الخليفة فعمل على توسيع مملكته الجبلية الصغيرة؛ وعندما هزم السلاجقة بقي في بغداد مما كان مبعث دهشة الناصر الحسن النية ، وأعلن نفسه سلطاناً جديداً على العراق وكردستان. وتفوق ابنه علاء الدين على ما أنجزه أبوه ، فغزا معظم فارس وبخارى وسمرقند وغزنة فيما بين عامي ١٢١٠ ، ١٢١٤ ثم أعلن عزمه على خلع الخليفة العباسي وتنصيب أحد العلويين مكانه .

الآن وقد تملك الناصر اليأس صحح حساباته الخاطئة السابقة بأن عقد تحالفاً ضد من كانوا حلفاء له من قبل ، مع عدو للاسلام هو في مثل خطورة الصليبيين تماماً بل وأكثر منهم وحشية . كان هذا هو جنكيزخان الزعيم

السيء السمعة لجحافل المغول الوثنيين الذين كانوا يتدفقون الآن وهم يمتطون أفراسهم الصغيرة القوية ، على الإمبراطورية العربية السابقة ، مكتسحين كل شيء أمامهم ، ومخلفين وراءهم الموت والدمار بصورة لم يشهدها أحد من قبل أبداً . وبحلول عام ١٢١٩ كان جنكيز خان قد استولى على بخارى وسمرقند وبلخ وخربها تماماً . هدمت القصور والمكتبات والمدارس والمساجد بعد أن استخدمت كاصطبلات لأفراس المغول أو كمصى صغيرة لراكبيها . وذبح المسلمون بعشرات الألوف ، ومحي تراث الإسلام الثقافى فيما وراء النهر .

فر علاء الدين سلطان خوارزم أمام الهجوم الوثنى ، وعاش الخليفة وحلفاؤه سنوات قلائل بعد ذلك فى فراغ ينتظرون أن يجرفهم النهر الملوث بالدم والذى يطلقه حلفاء الناصر المغول . أتاح لهم موت جنكيز خان فى عام ١٢٤١ فترة راحة ولكن لم يحل دون إنزال العقاب بهم . ذلك أنه بعد أقل من عشر سنوات نزل على فارس حفيده هولاكو وهو أول زعيم من المغول يتخذ لقب إيلخان[1] ويعلن استقلاله عن الإيلخانات الأعلين بالشرق . وما أن حل عام ١٢٥٦ حتى أشعل هولاكو النار فى معـــــاقل الحشيشية بالجبال واضطرهم إلى الخروج منها ، وحطم تلك الطائفة المشئومة . بعد ذلك زحف عن طريق خراسان نحو العراق ، وبعث إلى الخليفة الحاكم وهو المستعصم ، إنذاراً نهائياً يطلب فيه تسليم المدينة وهدم دفاعياتها إذا كان يريد الحياة .

كان ناقوس الموت يدق بالنسبة إلى العباسيين . كان الخليفة التعس قد اضطر إلى تخفيض حاميته من ١٠٠٫٠٠٠ إلى ٢٠٫٠٠٠ حتى يتمكن من دفع الجزية التى طلبها المغول حسب معاهدة التحالف مع الناصر ، ولم يكن فى حالة تسمح له بالمقاومة . إلا أنه تردد فى قبول الإنذار ؛ وعلى ذلك راح يراوغ وبعث برد غير صريح . ولكن هولاكو لم يكن من طراز صلاح الدين

(١) أى امبراطور — المترجم .

الذى كان يصبر عاما بأكمله محاولا إقناع خصمه بالرضوخ . لقد أعطيت للخليفة فرصة ، ولن تقبل منه نداءاته التى توجه فى آخر لحظة . سوف تؤخذ بغداد عنوة وتُسوّى بالأرض. وفى يناير ١٢٥٨ نصبت آلات الحصار خارج أسوار المدينة. وإدراكا من المستعصم بأن اللعب انتهى ، بعث بوزيره يطلب الشروط . ولكن الوزير الذى كان يكنّ فى السر مشاعر العطف على العلويين ويكره الخليفة بسبب تعصبه ضد الشيعة ، تحول إلى رجل يخون مولاه وساعد المغول خلسة على احتلال ضاحية الكرخ . عندئذ حاول المستعصم بث الخوف فى نفس هولاكو بتحذيره من أن الله سوف يعاقب العالم إذا قُتل الخليفة . سوف تكسف الشمس ويتوقف المطر وتزول الحياة . ولكن الزعيم الوثنى كان يعرف خيراً من هذا ، إذ أخبره المنجمون أن النجوم فى صفه . وفى ١٠ فبراير هاجمت جحافله بغداد بعنف .

وإذ كان المستعصم لا يزال غير مرتاب فى وزيره ، فإنه بعث به الآن ليعرض على هولاكو التسليم بلا قيد ولا شرط . رأى المغولى فرصته وأعاد الخائن برسالة يتعهد فيها بإبقاء الخليفة على عرشه إذا سلم على الفور ، بشخصه ومع حاشيته . وقع المستعصم فى الخدعة وأسرع إلى خيام هولاكو مع أهله وموظفيه وحرسه وكانوا يعدون بالمئات . وعندما اجتمعوا كلهم انقض المغول على رجال الخليفة وذبحوهم جميعاً ، ذكوراً وإناثاً على السواء . وعندئذ أسلمت بغداد إلى عملية من القتل والنهب والتدمير ، أفظع حتى مما سبق أن وقع فى بخارى . ندر أن بقى مبنى قائماً ، إذ أشعلت جموع الوثنيين النار فى المكتبات العظيمة والمدارس التى جعلت لبغداد زعامة العالم الثقافية . إن أكثر من مليون نسمة بما فى ذلك النساء والأطفال والرضع فى أحضان أمهاتهم — وهو مايعادل ثلاثة أرباع السكان — قد ذبحهم المغول المتعطشون للدماء . وكان من شدة الرائحة الكريهة المنبعثة من الجثث المتحللة ، أن أضطر هولاكو إلى سحب قواته من المدينة مؤقتاً .

كان النهب على نطاق لم يسبق له مثيل فى تاريخ الحروب. وذكر شهود عيان أن عسكر المغول كانوا من الغنى بعد ذلك بحيث أن سروج خيولهم وبغالهم وحتى أبسط أدواتهم العادية ، كانت مرصعة بالأحجار الكريمة واللآلى والذهب . ونزع بعضهم مقابض السيوف كى يملأوا الغمد بالذهب ؛وأخرج آخرون أحشاء جثة إنسان بغدادى وأعادوا ملأها بالذهب والأحجار الكريمة واللآلىء ، ونقلوها من المدينة . وأحرقت مقابر الخلفاء ، وتحول قصر المستعصم والمساجد الرئيسية إلى أكوام من الأنقاض. لم ينج من هذا سوى النصارى وكنائسهم . ويرجع هذا إلى أن زوجة هولاكو كانت نصرانية ، أما السبب الآخر فهو أنه كان قد اتفق مع ملك أرمينية المسيحى على الإبقاء على النصارى ومعابدهم وعلى أن يساعدهم فى استرجاع بيت المقدس مقابل أن يساعدوه على تحطيم الإسلام . ولهذا السبب خاطب البابا بعبارة « صاحب الصفو » ، وبل دعى إلى إعتناق المسيحية هو وجموعه .

لأول مرة فى السنوات الستمائة التى انقضت منذ وفاة النبى ، كان الإسلام بدون خليفة . ولكن إذا كان المغول ظنوا أن فى وسعهم بمعونة المسيحيين أن يحطموا بقية العالم العربى بنفس السهولة التى قضوا بها على بغداد ، فانهم لم يأخذوا فى الحساب روح المقاومة التى أثارها صلاح الدين فى مصر والشام . فبرغم أن آخر البيت الأيوبى إنهار فى النهاية ولم يسجل لنفسه فضلا سوى استرداد بيت المقدس ، إلا أنه حلت محله مجموعة جديدة جبارة . لقد تكرر فى مصر النمط الذى حدث فى العراق . ففى عام ١٢٥٢ أطاح بالأيوبيين أجنادهم وعبدانهم الذين عندما ظفروا بالسلطة ، كانوا فخورين إذ اتخذوا لأنفسهم لقبهم الأصلى الدال على عبوديتهم ، وأعلنوا أنهم مماليك مصر . على غرار السلاجقة والعصابات التركية السابقة فى العراق ، كان المماليك على مدى المئات من السنين ، يستخدمون أو يسيئون استخدام مركزهم كقلب الجيش المصرى ، لكى

يصبحوا حكام مصر الحقيقيين . إلا أن السلطة الإسمية ظلت فى أيدى الأسرة الحاكمة القائمة . لكن لعب المماليك الآن على المكشوف . واستولوا على السلطنة المصرية أو انتزعوها من أيدى آخر الأيوبيين وكان طفلا فى السابعة من العمر من نسل صلاح الدين ويدعى الأشرف موسى . وخلال السنوات المائتين والخمسين التالية قدر لهذه الأوليجاركية من عبيد سابقين انقلبوا جنوداً ، أن تحكم فى مصر فى الواقع وبالإسم .

إن المرحلة الأخيرة فى قيام هؤلاء المماليك الشراكسة والأتراك ، تكاد لا تكون درامية . فبعد أن استولى السلطان الأيوبى الصالح وهو ابن أخ السلطان القادر وهو الكامل ، على بيت المقدس من جديد بمساعدة فرقة من الأتراك الخوارزمية ، عزم على أن يطرد الصليبيين كلية من فلسطين . لقد أخفق فى تحقيق هذا ، ولكن برغم ذلك وجهت جيوشه ضربة ساحقة إلى الفرنجة عند يافا الواقعة شمالى بيت المقدس . وبفضل هذا النصر أعيد استخلاص الشام من الائتلاف الذى كان يضم الصليبيين والأيوبيين الموالين لهم فى حلب ، وهو الائتلاف الذى ظل قائماً منذ أيام الكامل . ولكن مات الصالح فى عام ١٢٤٩ ، ونادت أرملته بنفسها « ملكة المسلمين » وكانت امرأة جريئة ذات كيد عظيم ، تدعى شجرة الدر ، دبرت مقتل ابن زوجها . كانت شجرة الدر نفسها جارية تركية ومن أفراد حريم خليفة بغداد من قبل ، أعتقها الصالح بعد أن ولدت له ولداً . انفردت شجرة الدر بالحكم مدة ثمانين يوماً ؛ ثم فى عام ١٢٥٠ عين المماليك قائدهم التركى عز الدين أيبك سلطاناً بعد أن عيرهم خليفة بغداد بقوله « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاخبرونا حتى نسير إليكم رجلا »(١) . وعلى الفور تزوجت شجرة الدر من أيبك ، وبعد سبع سنوات إرتابت فى أنه يفكر فى أن يستبدل بمليكته المتغطرسة ، زوجة أخرى ، فدبرت

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٩١ — المترجم .

قتله وهو فى الحمام . ولـكن حل العقاب سريعاً ، إذ أن شجرة الدر نفسها قتلت بأيدى خدم أيبك .

انتقلت الـكرة الآن إلى أقدام المماليك . فاتخذ أحدهم لقب سلطان وهو سيف الدين قطز وكان ضابطاً ممتازاً من خوارزم كان أيبك قد اشتراه فى الأصل رقيقاً ثم عينه وصياً على ابنه الصغير السن . فى الوقت الذى عين فيه قطز كان مشتبكا فى القتال ضد الصليبيين فى جنوب فلسطين ، يساعده شاب من التركمان ، طويل القامة ، قاتم اللون وأزرق العينين اسمه بيبرس البندقدارى . كان بيبرس من أهل بلدة كيبشاد فى وادى نهر الفولجا[١] ، واشتراه كعبد فى دمشق الصالح الأيوبى وعينه للخدمة فى حرس السلطان . وبرغم أنه كان يعانى من عاهة فى إحدى عينيه إلا أنه سرعان ما برز فى خدمة الصالح ؛ وبقامته المهيبة وصوته الآمر ونشاطه الذى لايفتر أظهر منذ البداية أنه ولد ليتزعم الرجال . وإذ ترقى بسرعة فى الجيش عين وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ليتولى قيادة القوة التى قامت بالحملة فى فلسطين بعد إعادة الاستيلاء على بيت المقدس وتوج هامته بالمجد عندما أخرج الصليبيين من الشام .

زادت أطماع بيبرس السياسية مع إنجازاته العسكرية ، وعندما وضع المماليك نهاية لحـكم بنى أيوب فى عام ١٢٥٢ ، رأى بوضوح الإمكانيات المتاحة أمام جندى ناجح مثله . عند هذه النقطة كان قد ركز أنظاره على أن يكون نائب السلطان فى الشام ؛ ومن الممـكن أنه لو أن قطز كان أكثر أمانة فى معاملة بيبرس لربما قنع الأخير بأن يتولى حلب مدى الحياة . ولـكن قطز كان أشد طموحاً حتى من بيبرس . فبعد سنتين من الوصاية على ابن أيبك عزله ونادى بنفسه سلطاناً فى عام ١٢٥٩ . وما أن استولى على العرش وإذا بالمغول تحت قيادة هولاكو الذين حققوا إنتصاراتهم الوحشية فى العراق قبل ذلك بوقت

---

(١) فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ١٥٩ / ١٦٠ المترجم .

قليل ، ينقضون على الشام ويستولون على دمشق وحلب وصيدا . وكانوا يقتلون كل مسلم يؤسر فى القتال — هلك خمسون ألفاً فى حلب — ولم يبق على قيد الحياة سوى النصارى تمشياً مع اتفاق هولاكو مع الأرمن .

مرة أخرى واجه الإسلام إمكانية الدمار الكلى عندما خرج قطز وبيبرس من مصر وهما يحتذيان خطى صلاح الدين . كان بيبرس يتولى قيادة مقدمة الجيش المملوكى الذى اشتبك مع المغول فى موقعة حاسمة عند عين جالوت القريبة من بيت المقدس فى ٣ سبتمبر ١٢٦٠ . دحر المغول بعـــد أن طبق بيبرس التكتيك العربى المجرب ، حيث تظاهر بالفرار واستدرجهم إلى كمين من النيران القاتلة . ترك المغول قادتهم صرعى فى الميدان وولوا الأدبار وبذا سمحوا بتعقبهم وطردهم من الشام . لم يكن هولاكو حاضراً فى عين جالوت إذ اضطر إلى الرجوع إلى بلده عند وفاة أخيه ليسوى مسألة وراثة الإيلخانة . ولكن غيابه عن الميدان لا يقلل من حجم وأهمية انتصار بيبرس . إن جيشاً من العبدان أنقذ الإسلام ومن ثم العالم المتمدين كله من أن يبتلعه مدّ البربرية المغولية .

كان بيبرس بطل الساعة ولكن عندما طالب بالمكافأة التى عرضها عليه قطز عند خروجهما من مصر — وهى ولاية حلب — تنكر السلطان لوعده . إشتد غضب بيبرس بسبب خديعة سيده فأقسم أن يتخلص منه . وعندما كان الرجلان مشغولين بالصيد عند عودتهما إلى مصر اقترب من قطز وانقض عليه وطعنه بالخنجر حتى مات[1] . كان بيبرس يعلم جيداً أن دوره فى هزيمة المغول

---

(١) عندما وصل ركب السلطان إلى الصالحية فى طريقه إلى القاهرة أظهر قطز رغبته فى الصيد ، فلما فرغ من رياضته تقدم منه الأمير بيبرس وطلب امرأة من سبى التتار ، فأجابه السلطان إلى طلبه تظاهر بيبرس برغبته فى تقبيل يد السلطان ، وكانت اشارة بينه وبين شركائه المتآمرين ، فقبض بيبرس على يد قطز ليمنعه من الحركة فى حين انهال عليه بقية أمراء البحرية بسيوفهم ورماحهم وألقوه عن فرسه حتى أجهزوا عليه (سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٣٩) ويقول المصدر نفسه إن البحرية — ومنهم بيبرس — لم ينسوا لقطز أنه شارك فى قتل كبيرهم أقطاى زمن أيبك . المترجم .

سوف يضمن له الغفران عن جريمته ، وكان ذلك مؤكداً إذ عندما دخل القاهرة بعد ذلك بأيام قليلة استقبله جمهور تملكه جنون الفرحة والسرور وهو يهتف لسلطان مصر والشام الجديد .

إن رجلا أقل عزما ونشاطاً ربما كان يكتفى بأن يعيش على أكاليل غار انتصاره فقد حصر مغول هولاكو فى العراق ، ولم تعد البقية الصليبية فى فلسطين تهديداً خطيراً لمصر والشام . ولكن الكلب كان قد رأى الأرنب ، وعمد بيبرس وقد صمم على أن يتفوق على صلاح الدين ، إلى طرد الفرنجة من فلسطين كلية ، وإضافة بغداد إلى إمبراطوريته . وعلاوة على هذا ، وعلى خلاف صلاح ، فإن بيبرس لم يكن ليتردد أبداً إذا ماعزم ، وكان ينغمس فى أية حيلة أو مخادعة قد تخدم غرضه . وعلى الخصوص كان مصمماً على تجنب الحرب فى جبهتين . وعلى ذلك تحالف مع المغول فى أول الأمر لكى يهزم الصليبيين ، ثم مع الإمبراطور البيزنطى ليهزم المغول . وعقد معاهدات تجارية مع ملوك فرنسا وصقلية وأسبانيا ليمدوه بالأسلحة ومواد الحرب مما هـــو لازم لكلا الفتحين .

وإذ عقد بيبرس أولى المحالفتين خرج على رأس مماليكه ليحطم الفرنجة ، وبوجه خاص ليصب الإنتقام على نصارى أرمينية وأنطاكية الذين كادت اتفاقياتهم مع هولاكو أن تؤدى إلى القضاء على الإسلام . وفى عام ١٢٦٣ أخذ الكرك من الصليبيين ، وبعد ذلك بعامين أخذ قيسارية وحيفا . وفى عام ١٢٦٦ حاصر صفد القريبة من طبرية . وبعد أن وعد بالعفو مقابل استسلام حاميتها أمر الألفين الذين كانوا يدافعون عنها بالتجمع فوق تل وقتلهم جميعاً . وانقض عبر الجليل وعلى امتداد الساحل وهو يذبح كل مسيحى ، عربياً كان أو أوربياً ، وقع فى قبضته . وإذ فشل فى الاستيلاء على عكا فإنه تخطاها ليغزو ويستولى على فيليقية . ثم تحول نحو أنطاكية ووجه إلى حاكمها بوهمند قائمة من التهديدات

التى يتجمد لها الدم فى العروق بحيث تعسر على التصديق لولا أنها وردت بالحرف الواحد فى مذكرات بيبرس . فبعد أن هبط فى أول جملة بمكانة بوهمند بأن خاطبه على أنه كونت وليس بأمير ، راح يحدثه — نظراً لأنه كما أوضح — لم يبق على قيد الحياة أى شهود عيان من الفرنجة ليخبروه هم أنفسهم ، عن ألوف الصليبيين والنصارى العرب الذين ذبحهم المماليك فى عملياتهم السابقة ، وعن النساء اللائى باعوهن رقيقا فى مجموعات كل منها من أربع نساء الواحدة منهن بدينار ، وعن الأطفال الذين حكم عليهم بالاسترقاق . وباهى بيبرس بالقصور التى أحرقها والكنائس والأديرة التى نهبها ، والدور والمدن التى هدمها من أساسها . وانتهى بأن حذر بوهمند من أن هذه الفظائع سوف تتكرر إذا لم يستسلم . ولكن كلماته مرت لاتلقى الاهتمام واضطر إلى أن يستولى على المدينة عنوة . ثم أحرقها تماماً وذبح حاميتها ، وباع الزوجات والأطفال رقيقاً . ويسجل بيبرس نفسه أنه كان من المستحيل حصر عدد من مات من المدافعين . وبعد هذا سقطت يافا فى أيدى المماليك . وأخيراً ، سقط الحصن الصليبى المشهور الذى سبق أن تحدى كافة هجمات صلاح الدين .

وفى عام ١٢٧١ توقف تقدم المماليك بفعل وصول إمدادات للفرنجة ، فعقدت هدنة وتُرك الصليبيون يتشبثون لسنوات قلائل أخرى ، بآخر معاقلهم الأمامية وهى صور وعكا وطرابلس . طالب بيبرس الآن بتنفيذ ميثاق عدم الاعتداء مع بيزنطه كى يتحول ليمزق المغول . لم تكن هذه أول مرة حاول فيها بيبرس أن يستولى على بغداد . ففور استيلائه على السلطة فى عام ١٢٦٠ كان قد دعا عماً لآخر خليفة عباسى وكان قد نجا من المذبحة المغولية ، للقدوم إلى القاهرة حيث بويع بالخلافة ولقب بالمستنصر . كان غرض بيبرس الحقيقى من إحياء هذا المنصب الذى لامعنى له إلى حد كبير ، هو أن يقلده الخليفة « سلطانا وواليا على مصر والشام والحجاز واليمن ووادى الفرات » ، وفى

الوقت نفسه ليعطى نفسه عذراً كى يعيد مدينة بغداد رسمياً إلى خليفة عباسى . ولكن بينما هو فى طريقه إلى بغداد غير رأيه بشأن المشروع وتخلى بصورة غادرة عن ألعوبته سيئة الطالع ، وترك الخليفة ليمزقه حرس الحاكم المغولى فى العراق إرباً .

ومع ذلك ثابر بيبرس على تنفيذ خططه ، وبعد موت المستنصر دعا وبدون أن يتأثر لما حدث ، قريبا عباسيا آخر ليعتلى « العرش » الشاغر . فهو لم يجد متطوعا فحسب على استعداد لمسايرته ، ولكن هذا الشخص الذى ينتسب إلى بنى العباس والذى كان تصرفه مهزلة ، استمر يحكم وإن بدا ذلك داعيا إلى الدهشة ، وهو يتلقى الأوامر من المماليك إلى أن غزا الأتراك العثمانيون مصر فى سنة ١٥١٧ وأخذوا آخر خليفة سجينا إلى القسطنطينية . لقد استخدم ثانية الدمى التى صنعها لتكون تكأة يبرر بها غزواً مملوكيا للعراق فى عام ١٢٧١ . وبرغم إخفاق بيبرس فى الاستيلاء على بغداد ، نجح فى مد حدوده شرقا . كان هولاكو قد مات فى عام ١٢٦٥ مخلفا قبضة المغول على العراق أضعف بكثير مما كانت عليه قبلا ؛ ولمدة خمس سنوات استطاع الجيش المملوكى أن يدمر وينهب وادى الفرات دون أن يخشى عقابا يحل به ، وأن يطهر المنطقة كلها من الحاميات المغولية . حاول خلفه أبغا فى استماتة ، أن يطرد المماليك ، بل أنه بعث برسول إلى البابا يتوسل إليه ، وتؤيده فى هذا أرمينية ، أن يبعث بحملة صليبية أخرى . ولكن الغرب الآن كان أضعف ماديا ومعنويا ، من أن يقوم بجهد جديد ، ولم تلق هذه المؤامرة المغولية استجابة .

مات بيبرس فى يولية ١٢٧٧ قبل أن يتمكن من إنجاز مهمتيه الرئيسيتين . فطرد الصليبيين نهائيا من فلسطين جاء بعد ذلك بأربعة عشر عاما على يد مملوك آخر من كيبشاك هو سيف الدين قلاوون ، ألمع خلفاء بيبرس . وبالمثل لم تنحسر الموجة المغولية نهائيا ، الا فى عام ١٣٠٣ عندما حاول حفيد لهولاكو هو خازان

خان، أن يغزو الشام فهزمه المماليك بالقرب من دمشق وساقوا جيشه إلى القاهرة مكبلا فى الأغلال ويحمل أفراده حول أعناقهم رؤوس رفاقهم الذين سقطوا فى المعركة . ولكن كما أرسى صلاح الدين أسس النصر النهائى على الصليبيين ، كذلك حطم بيبرس زحف المغول وهم فى ذروة قوتهم . وإذ فعل هذا منح العالم الاسلامى قرنا من السلام والأمن إلى أن جاء تيمور لنك فكرر قصة الموت والدمار التى بدأها جنكيز خان . وأكثر من هذا أنه إذ أوقف الزحف المغولى وراء حدود مصر ، أنقذ مصر من الخراب الذى أصاب الشام والعراق وبذلك ضمن لها فى العالم العربى تفوقا وسياسيا بغير منازع لمدة ستة قرون.

ولكن برغم أن إنجازات بيبرس وصلاح الدين متشابهة إلا أنهما يختلفان اختلافا كبيراً فى أخلاقهما كان صلاح الدين أسداً وكان بيبرس نمراً . فبرغم أن بيبرس كان تكتيكيا شجاعا إلى درجة هائلة ولامعا فى الحرب والسياسة إلا أنه كان غادراً ومنتقما ، وكان يجد متعة فى القسوة على ما أظهر مسلكه فى أنطاكية وصفد. ربما كان لديه سبب أكثر مما لدى سلفه ، يدعو إلى كراهية المسيحيين بسبب تحالفهم غير المقدس مع هولاكو ولكن صلاح الدين لم يكن ليغفر لرجل يقتل أسراه على نحو ما فعل بيبرس .

كان بيبرس أكثر من شخصية عسكرية ، وكانت طاقاته العديدة مكرسة لتحسين إدارة مصر والشام قدر ما كانت مكرسة لقتـــل المسيحيين والمغول . فخفض الضرائب ، وشجع الأعمال العامة ، وحفر الترع ، وأنشأ الثغور ، وزود بلديه بخدمة بريدية يندر أن نجد خيراً منها فى عصر الطائرات النفاثة الحالى . كان إرسال خطاب من القاهرة إلى دمشق يستغرق أربعة أيام فقط . وكانت السرعة التى يقوم بها برحلة بنفس سرعة البريد ، ولم يكن يتردد فى أن يمارس لعبته المفضلة وهى البولو ، يوما فى دمشق ثم يمتطى جواده إلى القاهرة ليفعل الشىء ذاته خلال الأسبوع .

إن المملوك الذى أصبح سلطاناً وأنقذ الإسلام من المغول يحتل اليوم مكانه مع أعظم الأسماء فى التاريخ العربى الإسلامى أجل ، إنه يشغل فى التاريخ القائم على الأساطير ، مرتبة تعلو حتى على مرتبة صلاح الدين ، وقصته أوسع انتشاراً فى الشرق العربى من « ألف ليلة وليلة » . لو حكمنا عليه بالنتائج فإنه يستحق بالتأكيد مكانا فى التاريخ . هنا لأول مرة زعيم لم يرتفع فحسب من أدنى المستوى الاجتماعى إلى قمـــة السلطة ، ولكنه رفع أيضاً إخوانه المماليك إلى مراكز من أعلى درجة — زعيم أعاد العالم العربى والإسلامى إلى العظمة وسعى إلى أن يتركه آمناً ضد نوع الإنحلال الذى كثيرا ما حل بعد أن أخلى أبطال سابقون مكانهم لسلالة دونهم شأناً . حقيقة أنه بمجرد طرد الصليبيين والمغول من فلسطين والشام لم يكن سوى القليل الذى يمكن أن يقلق سلام الحياة وهدوئها بالنسبة إلى خلفاء بيبرس . ولكن لعل السبب فى هذا أن المماليك ، على خلاف الأسر الحاكمة التى سبقتهم ، كانوا يتصفون باليقظة ، وظلوا مائة سنة أخرى من بعده لا يخففون من حذرهم وهمتهم .

ومما هو أكثر لفتاً للنظر بالنسبة إلى نجاح المماليك ، أن السلاطين بعد بيبرس كانوا يبقون فى الحكم فترات أقصر منها فى حالة الخلفاء العباسيين ، فى ذلك الليل الطويل الذى سيطر فيه عليهم عسكرهم الأتراك . إن القرنين ونصف القرن من السلطنة المملوكية ، ينقسمان إلى أسرتين حاكمتين وشهدا تعاقب ما لا يقل عن سبعة وأربعين سلطاناً . فالمماليك البحرية ـ وترجع التسمية إلى أنهم كانوا يقيمون فى معسكرات جزيرة (بحر بالعربية) فى النيل ، حكموا من عام ١٢٥٠ إلى عام ١٣٩٠ ؛ وبالمثل استمد المماليك البرجية اسمهم من مساكنهم فى أبراج (مفردها « برج » بالعربية) حول قلعة القاهرة، وهؤلاء حكموا إلى أن اجتاحهم الأتراك العثمانيون فى عام ١٥١٧ . فالمماليك البحرية ومعظمهم من العبيد الأتراك مع مزيج من الدم المغولى، قدموا أربعة وعشرين

سلطاناً خلال حكمهم الذى استمر ١٤٠ سنة ؛ أما البرجية وكانوا شراكسة من القوقاز وولايات البحر الأسود فى روسيا الحديثة ، فكانت عدة سلاطينهم ثلاثة وعشرين فى ظرف ١٢٧ سنة . ولكن على خلاف العباسيين ، رفض المماليك نظام الوراثة . فلم يزد السلطان المملوكى على أن يكون الأول بين أقرانه ، وكانت السلطة الحقيقية تكمن فى أيدى أقليـــة حاكمة من العسكريين . وبهذا فإن تلك العصبة من الرقيق التى حكمت مصر والشام ، ظلت تقف على أقدامها ، على الأقل طيلة عصر بيبرس ، بفعل تنافس صحى فى داخل الجسم السياسى ، وحيل بينها وبين الوقوع ضحية للمؤثرات الداعية إلى الفساد والإنحلال المترتبة على حياة الترف والأحقاد العائلية التى اكتنفت سقوط الأسرات الوراثية التى تقدمتهم .

القســم الخامـس

التفوق التركى

(١٨)

سبات العصور

ما أن استهل القرن الرابع عشر حتى عاد الإسلام فكان سيد مصيره هو . فقد طُرد الصليبيون ضحايا ما كانوا عليه من الهوى والغدر والشره ، أو كما جاء في الحكم الرهيب الذى أصدره ستيفن رنسيمان « كان هناك الكثير من الشجاعة والقليل من الشرف ، والكثير من الغيرة والقليل من الفهم . مُثل عليا لطختها القوة والجشع ، والنشاط والجلد لطخهما ورع ضيق الأفق ، ولم تكن الحرب المقدسة نفسها أكثر من فصل طويل من التعصب باسم الرب ، وهو الخطيئة ضد روح القدس » . أما المغول فظلوا مسيطرين على فارس والعراق ، ولكن ابتداء من غازان خان فصاعـــداً اعتنق الإلخانات الإسلام . وفى الشام فإن الجيش المملوكى الذى سبق أن رد الغزو الذى قام به غازان خان فى عام ١٣٠٧ ، قمع الدروز والنصارى الموارنة والإسماعيلية . بدا الآن أن العالم العربى قد تخلص من جميع مؤثرات الفرق المنشقة التى كانت تتحدى عقيدة أهل السنة والجماعة .

الحقيقة أنه وان كانت الإمبراطورية منقسمة من الناحية السياسية بين المماليك فى الغرب والمغول فى الشرق ، فقد كان الإسلام السنى متحداً على نحو لم يكن عليه منذ أقدم أيامه ، ووقف الآن متأهباً للقيام بزحف كبير آخر سوف يسحق الإمبراطورية البيزنطية إلى الأبد ويدفع بجيش من المسلمين حتى أبواب فيينا . ولكن عندما جاء ذلك الزحف والذى يلى إمبراطورية بنى أمية فقط ، من حيث نطاقه وإنجازه ، كان نصراً تركياً وليس عربياً . فعن طريق واحدة من أقسى سخريات التاريخ فإن العرب الذين ابتكروا

وزرعوا العقيدة التى قدر للأتراك العثمانيين أن يفتحوا بها كل جنوب شرق أوربا ، نقول إن العرب كان مصيرهم هم أنفسهم أن يبتلعهم ويستعبدهم هؤلاء الفاتحون أنفسهم .

كان أول ظهور الأتراك العثمانيين حوالى نهاية القرن الثالث عشر عندما وجد سلاجقة الروم الذين عاشوا مائة عام بعد الدمار الذى حل بأبناء عمومتهم فى العراق ، وقد أغارت عليهم جموع النهب والسلب من المغول . إلتمس الأمير السلجوقى علاء الدين (ليس من قرابة سميه الخوارزمى) العون من جماعة من رجال القبائل التركية ممن يمتون بصلة القربى إلى السلاجقة الروم وكانوا يعسكرون على مقربة . استجاب أرطغول زعيم رجال القبائل لنداء علاء الدين شريطة أن تمنح أرض لأتباعه ثمناً لما يقدمون من عون ودعم. تمت الصفقة وطرد المغول ودخل رجال القبائل وبهم جوع إلى الأرض إلى أراضيهم الجديدة مع أسراتهم الأربعمائة . مضت لحظة كان كل شىء خلالها هادئاً الى أن توفى أرطغرل فى عام ١٢٩٩ وخلفه أمير شاب يتصف بالصلابة والطموح يسمى عثمان ، بدا عليه ما يوحى بملامح الإمبراطور القادم وأصبح مؤسس أسرة آل عثمان الذى لقبت هذه الأسرة الحاكمة باسمه . لم يقنع عثمان بعدد قليل من الأفدنة فى الأناضول فراح يوسع مملكته فى جميع الاتجاهات . كان يعامل كل معارضة له بدون رحمة ، حتى قيل إنه أمر بقتل عم له اعترض على خطة أعدها لمهاجمة قبيلة مجاورة . وعندما مات عثمان فى عام ١٣٢٦ كانت أملاكه قد وصلت إلى البحر الأسود والبوسفور ، واتخذ من مدينة بروصة عاصمة له . أما حلفاؤه السابقون أى السلاجقة الروم ، فذابوا فى دولته الى الأبد .

اقتسم ابنا عثمان إدارة ممتلكات أبيهما ، فكان الأكبر سلطاناً والأصغر وزيراً . ومنذ ذلك الحين وخلال الفترة التالية البالغة ٥٩٨ سنة والممتدة حتى

انهيار الإمبراطورية العثمانية فى سنة ١٩٢٢ ، تولى الحكم ستة وثلاثون سلطاناً كلهم من سلالة عثمان بطريق مباشر . وبرغم أن هذين الشابين كانا ألطف طبعاً من والدهما العنيف الشرس ، إلا أنه لم ينقصهما الطموح ولا التنظيم العسكرى . وكان إنشاء فرقة الانكشارية المشهورة من وحى تفكيرهما .

وإذ الاسم تحريف لتعبير « ينى شيرى » Iyemi cheri ومعناه بالتركية « القوة الجديدة » ، فإن الانكشارية يمثلون تحولا غريباً بالنسبة إلى قوم اعتنقوا الإسلام وتحمسوا له فى تعصب ، مثل الأتراك العثمانيين لأن هؤلاء الجند كانوا نصارى ، أغلبهم من المحندين الأروام الشبان الذين أصبحوا من رعايا السلطان بحكم فتوحات عثمان فى أراضى الدولة البيزنطية وشكلت منهم فرقة تمثل صفوة الجيوش العثمانية .

فى النصف الأخير من القرن الرابع عشر كان ما تبقى من الإمبراطورية البيزنطية تمزقه الحرب الأهلية ، وانتهز الأتراك العثمانيون الفرصة فعبروا مضيق البسفور وأقاموا رأس جسر فى أوربا . كانوا قد توغلوا حتى بحر الأدرياتيك وحدود هنغاريا ، عندما استدعاهم السلطان بايزيد ليعالج أمر آخر الغزوات المغولية وأفظعها . فى عام ١٣٨٠ قام أحد أبناء بلاد ما وراء النهر ، اسمه تيمورلنك ويزعم أنه من نسل جنكيز خان ، باحتلال أفغانستان ونزل على فارس وكردستان وهو يعتزم الاستيلاء على أراضى أبناء عمومته الإلخانيين. هذا التهديد المغولى الجديد راح ينتشر جنوباً وغرباً ببطء ولكن بقوة لا يمكن مقاومتها ؛ وفى عام ١٣٩٣ استولى تيمورلنك على بغداد واحتل أرض الجزيرة، ويشيع الموت أينما سار على نطاق أكبر مما فعل جنكيز وهولاكو . ففى تكريت مسقط رأس صلاح الدين ، بنى هرماً من جماجم ضحاياه ، ولما انحرف شرقا بعد ذلك بخمس سنوات متجهاً إلى الهند واستولى على دلهى ، قتل ثمانين ألفا من أهلها . وبعد انحراف قصير الأمد نحو الروسيا احتل خلاله

موسكو لمدة تربو على العام ، عاد تيمورلنك فوجه اهتمامه إلى الشرق الأوسط وفى عام ١٤٠٠ اكتسح الجيوش المملوكية فى الشام وضرب حلب ، ومرة أخرى بنى هرماً من جماجم السكان . كوِّمت عشرون ألفاً من الرؤوس على هيئة تلال بلغ ارتفاع كل منها عشرة أذرع[1] ، ووجوهها التى تنطق بالألم والدم ينزف منها ، متجهة صوب الخارج كتحذير بشع لمن بقوا على قيد الحياة بأن لا يقاوموا الغزاة ودمرت جميع المساجد والمدارس التى أنشئت فى عهد صلاح الدين ، ولم يعاد بناؤها أبداً .

بعد ذلك وفى العام نفسه سقطت حمص وحماة وبعلبك فى أيدى المغول ، وفى عام ١٤٠١ دحر المماليك الذين يدافعون عن دمشق وتم الاستيلاء على العاصمة الشامية . بعد ذلك فإن تيمورلنك الذى أدى به دخوله فى الإسلام إلى تبنى الزندقة الشيعية ، نهب ودمر المدينة وأحرق كل شىء عدا جدران الجامع الأموى الكبير الذى بناه الوليد . وإذ لم يقنع بتدمير آثار أهل السنّة والجماعة ، حمل معه إلى عاصمته فى سمرقند أفضل ما كان فى المدينة من الصناع وأرباب الحرف. وفى طريق عودته توقف فى بغداد التى قُتل بعض ضباطه على أيدى أهلها الذين اشتد بهم الغضب ، فأمر على سبيل الثأر بإعدام جموع الرهائن وبعد ذلك أقيمت أهرامات الجماجم كالمعتاد فى جميع أرجاء المدينة . وعلى غرار مافعل فى دمشق ، نقل كل صانع حاذق إلى ممتلكاته الشرقية .

حتى الآن لم يكن الأتراك العثمانيون سوى متفرجين على هذه المذابح وقد ملأ الرعب قلوبهم . ولكن فى عام ١٤٠٢ إنقض تيمورلنك الذى لا يهدأ ولا يرحم ، على الأناضول . لم يتمكن حتى الانكشارية من وقف الفيضان ، وسُحق الجيش العثمانى أمام أنقره وسيق السلطان أسيراً . وظل بايزيد التعس أياماً وهو يطاف به محمولا فى قفص معلق بين حصانين ، ليعرض أمام قومه كحيوان أسير ، بينما يواصل تيمورلنك الضغط عبر آسيا الصغرى . وأخيراً

(١) الذراع = ٠,٤٥٧٢ من المتر — المترجم

أنقذه الموت من آلامه بعد أن استولى آسره على بروصه وأزمير على ساحل بحر إيجه . بدا الآن أن المغامرة العثمانية خُلقت فى طفولتها ؛ ولكن موت تيمورلنك نفسه بعد ذلك بعامين أوقف الغزو المغولى بمعجزة ، كما أحدث موت جنكيز خان قبل ذلك بمائة وستين عاما . فاستطاع الأتراك والفرس والعرب أن يستردوا أراضيهم ، وكان الاتراك أحراراً الآن كى يخططوا للهجوم الشامل الذى سوف يسفر عن سقوط القسطنطينية ويدفع بالجيوش العثمانية إلى التوغل فى شبه جزيرة البلقان الأوربية حتى بلغت شواطىء الدانوب .

واضح أن كتابة تاريخ للعالم العربى لاتعنى أن نصف بأى تفصيل النجاحات التى حققتها الأسلحة التركية فى جنوب شرقى أوربا وفى القضاء نهائياً على الإمبراطورية العثمانية . يكفى أن نقول إنه بفضل فرق الانكشارية المنتقاة ونتيجة نظام موحد للقيادة ، تمتع العثمانيون بميزة هائلة على الجيوش الغربية التى تكونت على عجل لمقاومتهم . وثمة سبب آخر يفسر نجاح العثمانيين هو انتفاء العطف فى روما وباريس على الكنيسة اليونانية المنشقة . راحت توسلات الإمبراطور البيزنطى فى هذه الانحاء طلباً للمعونة العسكرية ، لاتلقى اهتماماً من جانب أحد : كانت روح الجهاد المقدس قد ماتت تماماً الآن فى أوربا ، وخُذِلت الإمبراطورية البيزنطية بقسوة لتلقى مصيرها . وسقطت القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ ، وأصبح الاتراك يحكمون من الدانوب حتى جبال طوروس .

وإذ تحمس الاتراك بفعل هذه النجاحات ، ولّوا وجوههم شطر الشرق والجنوب . فى بداية القرن السادس عشر كان الشاه إسماعيل وهو من سلالة شيخ ورع ذى ميـــــول شيعية قوية ويسمى صفى الدين ، ومنه اشتق اسم « الصفوى » ، نقول إن إسماعيل هذا كان قد أسس بيتاً حاكماً فارسياً جديداً هم الصفوية . هذا البيت الذى قدر له أن يحكم بلاد فارس لأكثر من مائتى عام مجيدة وأن يضم فى قائمة ملوكه اللامعين ، الشاه عباس الذى اشتهر بتمجيد إصفهان ، هذا البيت كان يزعم الانتساب إلى موسى الكاظم ، أحد

الأئمة الإثنى عشر . كانت ضلالة الصفويين الشيعية بغيضة إلى نفوس العثمانيين الشديدى التمسك بمذهب أهل السنّة ؛ وبعد أن أصبح سليم الرهيب سلطاناً فى عام ١٥١٢ عزم على أن يضع نهاية لهذه الاسرة المنشقة التى تمتد أملاكها إلى ما وراء حدوده الشرقية .

ولما اتخذ جيش سليم مواقعه شمالى بحيرة أورميا فى أذربيجان الفارسية فى أغسطس من عام ١٥١٤ ، التمس الشاه إسماعيل المساعدة من السلطان المملوكى قنصوه الغورى . ولكنه تأخر أكثر مما ينبغى . وعندما انقض الجيش العثمانى عليه كان الظفر لمدفعية الانكشارية التى مزقت المشاة الفرس. فر الفرس من الميدان ، واحتل سليم تبريز عاصمة إسماعيل . ثم تقدم جنوباً فى العام التالى واستولى على أرض الجزيرة .

فى هذه الأثناء كان قنصوه المملوكى فى طريقه إلى حلب ، وفى صحبته آخر سلسلة طويلة من الخلفاء العباسيين الذين كانوا كالدمى فى أيدى المماليك . أذاع قنصوه أنه آت للوساطة بين العثمانيين والفرس . ولكن عيون سليم حدثته بخلاف هذا ، وعندما وصل مبعوث مملوكى إلى معسكره ، حلقوا له لحيته وأعادوه راكباً بغلة ومعه إعلان بالحرب من سليم . كان السلطان العثمانى قد رأى فرصة لتحقيق نصر سريع يضع الشام فى قبضته ويفتح الطريق إلى مصر . وإذ بلغته الأخبار بأن الولاة الشاميين ممن كان قنصوه يعتمد عليهم ليقدموا إليه أغلبية قواته ، يحتمل أن يخرجوا على الأخير لدى أول فرصة تسنح ، راح سليم يشن الهجمات هنا وهناك . كانت حساباته صحيحة ، إذ عندما نشبت المعركة فإن الشاميين المسلحين بالرماح والسيوف فقط ضد بنادق الأتراك ومدافعهم ، فروا جملة مع قادتهم . خرّ قنصوه صريعاً من فوق جواده مصاباً بالفالج ودخل سليم حلب منتصراً . وبعد ذلك بشهرين كان الفاتحون العثمانيون قد احتلوا الشام كلها .

زحف سليم عبر فلسطين ليجعل من نفسه سيداً على وادى النيل ، تاركاً الصفويين فى المرتفعات الصحراوية من ممتلكاتهم الفارسية التى تقطعت أوصالها الآن . وعلى غرار أبناء عمومتهم الشاميين ، كانت معدات المصريين لا تكفى للوقوف أمام بارود ومدافع العثمانيين . وأسوأ من هذا أن أعدادهم نقصت بصورة خطيرة بفعل الطاعون والمجاعة ؛ فالموت الأسود الذى نشب فى أوربا كان قد انتقل إلى مصر حيث قتل الألوف من الأهلين . وفوق هذا كله فإن ما اتصف به المماليك البحرية من دقة النظام والتنظيم ، لم يحافظ عليه خلفاؤهم المماليك البرجية ، وكان الفساد قد حل . كان عدة من سلاطين المماليك البرجية قد عملوا على الإثراء عن طريق احتكار الغلال والسكر فى أوقات نقص هذه المحاصيل ، وكانوا يحرمون على رعاياهم زراعتها وإلا كان جزاؤهم الموت . وكانت النتيجة المحتومة هى المجاعة التى قضت مع الطاعون على ثلثى أهل الدولة المملوكية فى مصر والشام وهكذا عندما تدفقت على مصر القوات التركية الحسنة الغذاء والمسلحة تسليحاً قوياً ، لقيت صعوبة قليلة فى التغلب على المدافعين المماليك والاستيلاء على القاهرة فى يناير ١٥١٧ . سحقت الآن الأسرة الحاكمة المملوكية ، ودخلت المدن التابعة وهى مكة والمدينة ، بطريقة آلية فى الفلك العثمانى . وحمل الخليفة الألعوبة أسيراً إلى الآستانة التى كانت قد أصبحت الآن العاصمة العثمانية الجديدة ، وانتهت آخر الدعاوى فى خلافة عربية .

انتشر الأتراك العثمانيون الآن بسرعة على طول الساحل الأفريقى الشمالى . فبعد سقوط القاهرة بعام احتل قرصان تركى هو خير الدين ، الجزائر . منح الباب العالى كما كانت تدعى الحكومة العثمانية ، لقب « باى » لخير الدين ، وبعد أن جاء سليمان العظيم خلفاً لسليم ، زود هذا السفاح من بناة الإمبراطورية ، بجيش من الانكشارية زحف بهم للاستيلاء على مدينة تونس فى عام ١٥٣٤ . وفى عام ١٥٥١ انتزعت جيوش السلطان بقيادة قائد ألبانى ، طرابلس من

فرسان القديس يوحنا أصحاب مالطة ، وخلال السنوات العشرين التالية كانت قائمة الفتوح العثمانية عندما سقطت الحسا وكانت تشمل الكويت والبحرين، وسقطت اليمن وعدن ومسقط . وحق لسليمان أن يبعث بخطاب إلى ملك فرنسا استهله بالعبارات التالية « أنا سلطان السلاطين وملك الملوك ... ظل الله على الأرض ، سلطان وسيد البحر الأبيض والبحر الأسود ، وبلاد الروم وأذربيجان وفارس ودمشق وحلب والقاهرة ومكة والمدينة وبيت المقدس وبلاد العرب واليمن وأراض كثيرة أخرى ... أخضعتها جلالتى لسيفى الملتهب وسلاحى المنتصر . أنا السلطان سليمان خان . . . إليك فرنسوا ملك أرض فرنسا » .

من الإمبراطورية العربية القديمة كانت المناطق المستقلة الوحيدة هى مراكش وفارس وقلب الجزيرة العربية الصحراوى . بهذه الإستثناءات ، بالإضافة إلى اليمن التى أصبحت مأوى للاجئين الشيعيين من العراق والبحرين والتى احتفظت بإمامة مستقلة لها فيما بين عامى ١٦٣٣ و ١٨٧٠ ، كانت جميع المناطق الناطقة بالعربية من الإمبراطورية قد أخضعها الآن الأتراك العثمانيون وظلت كذلك حتى القرن التاسع عشر . أما الذى عجز العثمانيون عن الاستيلاء عليه فكان يخضع لاحتلال أجنبى . فبغداد كان يستولى عليها الفرس والشاه إسماعيل والشاه عباس من حين لآخر ويحتلونها على فترات فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ؛ وظلت الولايات الشرقية الواقعة وراء النهر ، تحت أقدام المغول إلى أن جاء الغزو الروسى ، وأفادت كقواعد للاستيلاء على الهند وإنشاء الإمبراطورية المغولية فى دلهى ؛ وكان ملوك أرغون وقشتالة المسيحيون قد انتزعوا أسبانيا .

وتخلت القاهرة للآستانة عن كونها مركز الثقل بالإسلام وأصبحت مجرد بلدة إقليمية . ولما اكتشف ڤاسكو داجاما طريق الرأس إلى الهند فى عام ١٤٩٨

فقدت مصر والشام والعراق مركزها الاقتصادى وأهميتها كطرق تجارية إلى الشرق . ولإكمال قصة الإذلال العربى كانوا يدعون للسلطان والخليفة التركى فى خطبة الجمعة فى جميع أرجاء الإمبراطورية . إن العفن الذى حل قبل ذلك بسبعة قرون عندما استخدم الخليفة العباسى المعتصم القوات التركية ، قد شق طريقه إلى قلوب وروح الشعوب العربية . وخلال معظم السنوات الثلاثمائة التالية وقع العالم العربى فيما سوف يدعوه محمد على « سبات العصور » .

كان الأتراك العثمانيون نوعاً غريباً من الإمبرياليين . كانوا فى سبيل التمسك بإمبراطوريتهم على استعداد لأن يعملوا أى شىء خلا أن يعيشوا فيها . فإذ فضلوا أن يبقوا كأقلية متسلطة فى وطنهم بآسيا الصغرى ، حكموا ممتلكاتهم عن طريق نواب سلطان من الأتراك يدعون الباشوات ، تمكن فى ظلهم الموظفون والجند من أبناء هذه البلاد من التطلع إلى أعلى مراكز السلطة والمسئولية بما فيها منصب الوزير الأعظم ، بل ووصلوا إلى هده المراكز بالفعل . وكانوا يضعون فى عاصمة كل إقليم وحدة رمزية من الانكشارية لتكون نواة لقوات الأمن والدفاع فيه . ولكن أغلبية كل جيش إقليمى كانوا يجندون من أبناء الإقليم — البربر ، الأكراد ، اليونانيين ، الشراكسة ، العرب ، الصقالبة ، الألبان ، الطليان ، والأرمن — ممن كانوا يتلقون برامج عنيفة من التدريب والتوعية فى المدارس العسكرية التركية المحلية ، ويعتنقون الإسلام حيثما دعت الضرورة .

كلما بعد الإقليم وصعب الوصول إليه ، عظم الاستقلال المحلى الذى كان ينعم به الوالى وأتباعه . ومن أمثلة ذلك الجزائر وتونس وليبيا . من الناحية الإسمية كانت هذه ولايات تابعة للباب العالى ، ولكنها كانت من الناحية العملية ممتلكات مستقلة إلى حد كبير ، وكانت تترك تماماً تقريباً لتطبق أساليبها الخاصة بها شريطة أن تدفع الجزية النظامية . ونظراً لأن الأتراك

لم يستثمروا غير القليل فى هذه الممتلكات أو لم يستثمروا شيئاً ، عمدت هذه الولايات بالشمال الأفريقى إلى القرصنة للحصول على إيراد لبيوت المال فيها ولدفع الجزية السنوية للباب العالى . وبتوسع نطاق النشاط التجارى على طول شواطىء أوربا على البحر المتوسط ، تفتح أمام قرصان ساحل البربر ميدان مجزٍ للنهب والسلب استمر حتى منتصف القرن التاسع عشر . ولقد أصبحت الخسائر التى كانوا يلحقونها بالملاحة الأجنبية من الفداحة بحيث وجدت الدول التجارية أن شراء الأمان لسفنها بدفع المال إلى ولايات القراصنة هذه مقابل الحماية ، هو أرخص من محاولة الاشتباكات مع القراصنة .

فى أول الأمر عملت السلطات العثمانية الكثير لمساعدة وتشجيع المجتمعات الفلاحية العربية فى الإمبراطورية ، وإن كان ذلك بوسائل إقطاعية نوعا . ولكن إذ حذا آل عثمان حذو تلك الأسرات الحاكمة التى كانت تحكم العالم العربى فى الأيام الخوالى وأصابها الإنحـــلال ، كذلك أصبح رعاياهم موضع الإهمال نتيجة سوء الإدارة . حل التدهور بعد نحو مائة عام من فتح الشام ومصر . ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أن السلاطين الإثنى عشر الأولين من نسل عثمان ، وكانوا جميعاً حكاماً قادرين وأذكياء ، خلفهم ما يدعوهم برنارد لويس فى كتابه « ظهور تركيا الحديثة » سلسلة من العاجزين والمنحلين الذين لا يصلحون للحكم ، فى ظلهم تدهورت كفاءة ونزاهة الحكم فى جميع أرجاء الإمبراطورية ، تدهوراً ينطوى على الكوارث . وهذا بدوره كان راجعاً إلى النظام الغريب الذى اتبعه العثمانيون لكى يضمنوا توارث العرش . فمن أيام محمد الثانى وهو السلطان الذى انتزع القسطنطينية من البيزنطيين ، وحتى نهاية القرن السادس عشر ، كانوا يضمنون انتقال العرش من الأب إلى الإبن بالأسلوب البسيط ولكنه وحشى وهو قتل إخوة كل سلطان يتولى الأمر . وبعد ١٥٠ سنة أوقف قتل الأمراء ، ولكن خلال القرنين السابع

عشر والثامن عشر كان جميع الأقارب من الذكور ؛ باستثناء أبناء السلطان الحاكم ، يسجنون فى القصر ، وعلى سبيل الاحتياط من المؤامرات كان يحرم عليهم كل اتصال بالعالم الخارجى . وفى الوقت نفسه وضعت قاعدة جديدة تنص على أنه عندما يموت السلطان ينتقل العرش إلى أكبر أقاربه الأحياء من الذكور سناً وهو ما يعنى أن كل حاكم سوف يخلفه ، ينشأ فى الأسر ومن ثم فى جهل مفروض عليه بالعالم الخارجى ومشكلات الإمبراطورية .

سبب آخر يكمن وراء إنحلال الإمبراطورية هو فقدان الحافز بعد أن توقف توسعها فى نهاية القرن السادس عشر عندما وجد العثمانيون أنفسهم تواجههم فى كل ناحية حواجز لا يمكن اجتيازها . فمن ناحية الشمال كانت الروسيا التى خرجت حديثاً من فتح بلاد خانات الجيش الذهبى ، تسد الطريق إلى مزيد من الزحف وراء القرم والقوقاز . وفى الشرق طرد البرتغاليون البحرية العثمانية من المحيط الهندى . وفى الجنوب كانت الصحراء الأفريقية تتحدى الغزو ؛ وفى الغرب كانت جيوش آل هبسبرج قد هزمت كل محاولة للاستيلاء على فينا . وإذ فقدت الإمبراطورية القوة الدافعة على التوسع ، بدا أنها فقدت الإحساس بالغرض . ونعود فنقتبس ما يقول برنارد لويس « .. كانت تقاليد الحد ما تزال جذورها متعمقة فى حياة العثمانيين الحربية والاجتماعية والدينية ، وكان لإغلاق الحد فعلا أمام المزيد من التوسع والاستعمار ، تأثير عميق عليهم . كانت النظم العثمانية فى التنظيم العسكرى والإدارة المدنية والضرائب وملكية الأرض، كلها مشدودة إلى حاجات مجتمع يتوسع عن طريق الفتح والاستعمار فى أراضى الكفار . لم تعد تتمشى مع الضغوط المختلفة التى يفرضها حد لا يتحرك أو آخذ فى التراجع » .

أصبحت النزعة المحافظة هى النغمة السائدة كلما سمت الإدارة العثمانية إلى وقف ساعة التقدم الإنسانى وإلى تحدى القوى الدينامية التى تتجمع داخل

حدود الإمبراطورية وخارجها . ولكن العالم لم يكن ليقف ساكناً مع الإمبراطورية العثمانية ، وبحلول القرن الثامن عشر كانت الضغوط من جانب العظاوات الأوربية قد أحبطت بنجاح جهود الإمبراطورية فى المحافظة على كيان منغلق على نفسه ومعزول عن بقية العالم . لم تكن سلامة أراضى ممتلكات السلطان هى وحدها المعرضة للتهديد حينذاك : كان كل أسلوب الحياة فى إمبراطورية كانت ما تزال تعتبر شرائع سليم العنف وسليمان العظيم تجسيداً لكل حكمة ، هذا الأسلوب بدأ يتخلف إلى الوراء فى عالم تنافسى استمد إلهامه حديثاً من الأساليب العلمية الثورية . وكما عبر عن الأمر السير هـ . ا . ر . جب وهارولد بوون فى مؤلفهما المجتمع الإسلامى والغرب « بعد مثل هذا العدد الكثير من القرون من الجمود ، أصبحت عمليات الزراعة والصناعة والتبادل والعلم لا تزيد على كونها عمليات آلية إلا قليلا ، وأسفرت عن نوع من الضمور جعل المشتغلين بها غير قادرين على تغيير أساليبهم أو نظرتهم ، إلى أدنى حد » .

يضاف إلى متاعب السلطات العثمانية أنه كان يواجهها تخفيض خطير للعملة ، مرده إلى كشف مناجم الذهب والفضة بالعالم الجديد ، وفى الوقت نفسه اضطرها تقدم علوم الحرب إلى التوسع فى الإنفاق على إعادة تجهيز جيوشها وتحديثها . فللدفاع عن الحدود ضد الدول الأوربية الناهضة ، كانت هناك حاجة إلى المزيد من المدافع والبنادق وكلها زاد ما تتكلفه من العملة العثمانية التى انخفضت قيمتها . وهذا بدوره جاء معه بتضخم جامح .

كان حتماً أن تعانى المجالات الأخرى من الإدارة ، وبالأخص الزراعة . فلم يقتصر الأمر على عدم توافر المال لرفع التكنولوجيا الزراعية من مستواها البدائى ، بل الأسوأ من هذا أن خلق جيش محترف كبير كان يعنى الاختفاء الفعلى لتلك الفرقة من الفرسان الإقطاعيين ، وهم السباهية ، الذين كوفئوا

على خدماتهم للسلطان بتنحيهم الإقطاعيات ، وهم الذين كان يتكون منهم أساس النظام الزراعى العثمانى . فى مكان هؤلاء الفلاحين الأعيان نشأ نظام من الملاك الذين لا يقيمون فى أراضيهم ومن المضاربين مما أعقبه على الفور إنصراف عن الأرض ، وما إن انتصف القرن السابع عشر حتى كانت المناطق الريفية التى كانت تنعم بالرخاء من قبل ، قد أصبحت مهجورة وخالية من أهلها . هجرت القرى ، وتعرت السهول الخصيبة وتحولت إلى صحارى ؛ وبعد أن بدأ الاحتلال العثمانى بمائتى عام كان سكان الشام كلها قد انكمشوا فأصبحوا لا يزيدون عن المليون إلا قليلا ، وانخفض عدد سكان فلسطين إلى ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة وحسب .

ولكن مهما كانت التضحيات التى فرضها العثمانيون على رعاياهم ، فلم يتمكنوا من الإبقاء على تماسك إمبراطوريتهم . فبنهاية القرن السابع عشر كانوا يتراجعون فى أوربا . فقد تشجعت القوى الغربية من إخفاق هجومهم الضخم الثانى على ڤينا فى عام ١٦٨٣ . وفى أمل التقاط بعض ما قد يكون الأتراك قد خلفوه وراءهم فى البلقان، بدأت بريطانيا وفرنسا والنمسا والروسيا تتحرك فى زحف موحد ضد جيوش السلطان، وما أن حل عام ١٧٥٠ حتى كانت هنغاريا وترنسلفانيا وأجزاء من ولايات روسيا على البحر الأسود قد تطهرت من المحتلين العثمانيين . عند هذه النقطة حل العطب فى ممتلكاتهم العربية . ليس مما يبعث على الدهشة أن جاء التحدى الكبير من مصر . هنا ، وكما كان الشأن فى الأجزاء الأخرى من إمبراطوريتهم ، ترك الباب العالى حكم الولاية يؤدى عمله فى ظل باشا عثمانى . هكذا استمر المماليك فى مصر والشام باعتبارهم تبعاً للاستانة . ولكن الباشوات الذين كان الباب العالى يبعث بهم ليرأسوا هذه الإدارات المملوكية أثبتوا جهلهم أكثر فأكثر باللغة والعادات المحلية ومن ثم أثبتوا أنهم أقل فعالية وأضعف أثراً . فخلال

٢٨٠ سنة من الحكم العثمانى المباشر جاء إلى مصر وخرج منها مائة من الولاة الأتراك المختلفين . بل وشهدت الشام تغييرات أكثر من هذه ، إذ كان الباشوات يتغيرون بمعدل واحد كل ستة عشر شهراً .

وفضلا عن هذا ففى ظلى الحكم العثمانى زاد تدهور حالة الأهلين وخاصة فى مصر ، فقد قضى الطاعون والمجاعة مرتين فى القرن السابع عشر على أكثر من ربع مليون نسمة ، وبعد ذلك بمائة عام كان قد حدث القضاء على أكثر من المليونين . هذا المزيج من إهمال الحكام وتعاسة المحكومين ، كان يحتوى حتماً على المادة التى تصنع منها الثورات. وجاء الإنفجار فى عام ١٧٦٩ عندما طرد على بك قائد الجيش المملوكى ، الباشا العثمانى وأعلن استقلال مصر .

كان على بك مملوكاً شركسياً وابناً لقس نصرانى . وعندما كان صبياً اختطفه قطاع الطرق وباعوه رقيقاً فى مصر حيث ترقى إلى أرفع المراكز فى جيش السلطان . فى ذلك الوقت كانت الإمبراطورية العثمانية فى قتال مع الروسيا بشأن تملك القرم والمستعمرات التركية الأخرى على طول ساحل البحر الأسود. وحتى يتمكن الباب العالى من مواصلة الحرب أمر علياً بإعداد جيش والتوجه على عجل إلى مسرح العمليات . رأى المملوك الداهية فرصته ، وعندما جند جيشه وجهه ضد سادته العثمانيين ، فتغلب على الحامية الأنكشارية وأمر الباشا القائم بالحكم، بالعودة إلى الآستانة. وخرج زوج ابنته محمد أبو الذهب للاستيلاء على مكة باسم على الذى نادى بنفسه عندئذ «سلطان مصر البحرين وخاقان البحرين» (المتوسط والأحمر) المستقل . وفى عام ١٧٧١ زحف أبو الذهب على الشام وأخذ دمشق بقوة قوامها ثلاثون ألف رجل . ولكن انتصار على كان قصير الأمد ، لأن زوج ابنته الغدار إنحاز الآن إلى الأتراك مع كل جيشه المملوكى بالفعل . وإذ وجه على بك بأغلبية قواته وكذلك بالعداء المقيم من جانب

الباب العالى ، لم يجد أمامه من بديل سوى الفرار إلى فلسطين حيث انضم إلى قوات زعيم ثائر آخر هو الزعيم البدوى الشيخ زاهر العمر .

كان زاهر قد استغل نفس ضعف الحكم العثمانى فى الشام الذى حفز علياً على الثورة فى مصر ، فأنشأ حوالى منتصف القرن الثامن عشر مشيخة مستقلة صغيرة تضم عكا وطبرية . وبعدأن عقد حلفه مع على أضاف صيداإلى أملاكه بمساعدة السفن الحربية الروسية المشتبكة فى إزعاج الشاطىء التركى . ولكن جرأته لم تفد إلا فى أن تثير ضده الأمراء الشهابيين فى لبنان. وسرعان ماوجد زاهر وعلى أنفسهما وقد هاجمهما تحالف يفوق قواتهما بشكل ساحق ، يتكون من القوات العثمانية والمملوكية واللبنانية . قتل على فى عام ١٧٧٣ ، وبعد ذلك بعامين لقى زاهر حتفه أيضاً .

وخلال فترة قصيرة بعد ذلك وقع وشاح زاهر على شخص من أبناء البوسنة اعتنق الإسلام ، هو أحمدالجزار الذى سبق أن ساعد زاهرفى الاستيلاء على صيدا وبعد ذلك صمد فى عكا ضد الأتراك ثم ضد الفرنسيين عند ماظهر نابليون على المسرح فى عام ١٧٩٨ . كان الجزار أوفر حظاً من زاهر، نظراً لأن الأتراك الذين أنهكهم كل هذا الصراع الإستعمارى بلعوا كبرياءهم فى النهاية واعترفوا به والياً على الشام ولبنان كى يشتروا بهذا الثمن هدنة قلقة . وفى مصر أيضاً بدا الباب العالى الأن حريصاً على تجنب أية إثارة جديدة . لم يعين أحد مؤقتا مكان الباشا الذى سبق أن أخرجه على بك ، وعين الثائر السابق محمد أبو الذهب شيخاً للبلد وله سلطات الوالى — وكان هذا هو المنصب التقليدى الذى شغله جميع البكوات المماليك الرئيسيين فى ظل العثمانيين . ورغم أن أمر السلطان أعيد فى الوقت المناسب فى مصر ، إلا أن الحكم التركى كان قد اهتز بصورة خطيرة؛وعندما انتهى القرن الثامن عشر كان المسرح قد أعد لشخص كبير آخر يتحدى مشيئة السلطان .

(١٩)

مصر تستيقظ من جديد

في يوليه من عام ١٧٩٨ نزل نابليون بونابرت في الاسكندرية وبهذا غير كل وجه الشرق الأوسط . الحقيقة أن كل شيء حدث في العالم العربي في هذين القرنين الأخيرين ، يمكن تتبعه وإرجاعه إلى هذا الحدث الشبيه بالطوفان . فقيام محمد علي ، وتدفق التعليم والثقافة والمثل العربية وهو ما غرس بدوره بذور الفكر والعمل القومي العربي الحديث - فضلا عن اهتمام بريطانيا وفرنسا بالشرق الأوسط والتنافس بينهما - كل هذه الأحداث يمكن عزوها مباشرة إلى هذا الغزو الأوربي الكبير الثاني ، يمثل ما كان في الغزوات التي شنها الصليبيون واستيلاء الفرنجة على بيت المقدس الحافز المباشر على قيام صلاح الدين وبيبرس ونهوض الإسلام المناضل من جديد في نهاية العصر الوسيط . وأهم من هذه جميعاً أن الغزو الذي قام به نابليون أخرج مصر من دائرة النسيان التي عاشت فيها باعتبارها مجرد ولاية تابعة وأعادها إلى الجبهة الأمامية للسياسة الدولية . وبرغم أنه كان لا بد من انقضاء ١٥٠ سنة أخرى قبل أن تسترد مصر في النهاية استقلالها ، فإنها عادت من الآن فصاعداً إلى أهميتها السابقة كفيصل العالم العربي والمعبر البري الرئيسي بين الغرب والشرق .

بالطبع لم يكن جنود نابليون أول غربيين أو حتى فرنسيين وطأت أقدامهم أرض الشرق الأوسط منذ أن خرج منه آخر الصليبيين . ففي القرن السادس عشر أنشأ التجار الأوربيون مستعمرات تجارية في سوريا ولبنان ومنحتهم السلطات العثمانية امتيازات تقضي بإعفاء رعايا هذه المستعمرات من الضرائب التركية والقضاء التركي ومنحوا الحق في أن يحاكموا أمام محاكمهم القنصلية

عن أية مخالفات يرتكبونها . كان البنادقة أول القادمين ثم أعقبهم الفرنسيون والبريطانيون . وسارع الفرنسيون إلى اقتناص فرص إشباع الطلب الغربى على مواد الترف الشرقية وهو الطلب الذى كان عصر الحروب الصليبية قد نشطه ، وسرعان ما قامت المصانع الفرنسية تعمل فى جميع أرجاء الشام . وبمرور الوقت أيضاً ، أخذ الفرنسيون على عاتقهم دور القوة التى تحمى السكان الكاثوليك من أوربيين وعرب . ومن هذه البدايات فإن المبشرين والمعلمين من فرنسا ومن البلاد الأوربية الأخرى ، ولم يقدروا على مقاومة الحافز على نشر إنجيلهم ، جاءوا فى أعقاب التجار وأقاموا الكنائس والمدارس لتنمية عملهم .

كانت السلطات العثمانية تتسامح مع هذه الغزوات التى قام بها الكفار باعتبارها أمراً محتوماً يصاحب الجالية الأوربية المشتغلة بالتجارة ، بل ولقيت التشجيع من جانب حكام محليين معينين ، بفضل ما يتصف به أفرادها من المزايا . ومن هؤلاء الحكام كان أمير لبنانى صغير الشأن اسمه فخر الدين يحكم فيما بين عامى ١٥٩٠ و ١٦٣٥ باعتباره عاملا من عمال السلطان وينعم بما يشبه الاستقلال الذاتى ، على مملكة تمتد من طرابلس إلى طبرية ، هذا الأمير خرج عن طريقه ليشجع هذه المؤثرات الأوربية والمسيحية . ولقد استقدم هو شخصياً معماريين ومهندسين وزراعيين من الإيطاليين ، كان قد أعجب بعملهم ومهارتهم فى الصناعة عند ما كان فى فلورنسا التى نفى إليها بصفة مؤقتة فى أثر خلاف مع الباب العالى فى بداية عهده . وهكذا ، بينما السهول الخصيبة فى الشام ودلتا النيل تتآكل وتتحول إلى صحراء ، كان فخر الدين يعمل على أن يتعلم رعاياه اللبنانيون الأساليب الحديثة فى الزراعة وعلى تحويل وادى البقاع وغيره من الأقاليم بمملكته ، إلى بساتين ومخازن للغلال .

وفى المجال الدينى أيضاً تمتع أهل مملكة هذا الأمير المستنير بحرية جديدة

وإنجاز جديد . فعاش الدروز والنصارى فى سلام وانسجام جنباً إلى جنب . وبرغم أن مناشط فخر الدين أثارت شكوك سادته العثمانيين، استطاع تهدئتها مؤقتاً بأن أعلن ولاءه الشخصى الذى لا يموت لمذهب أهل السنة والجماعة . ولكن محاولة لبس هذا القناع أمام الباب العالى بينما يمارس العقيدة الدرزية أمام رعاياه ويشجع رجال الإرساليات المسيحية فى داخل ممتلكاته ، حطمته فى النهاية ؛ فبعث الأتراك بجيش ضده ، وبرغم أنه حاول الفرار إلى الجبال فإنهم طاردوه وأسروه ، وساقوه مكبلا بالأغلال إلى الآستانة وقطعت رأسه فى النهاية .

ليس مما يبعث على الدهشة أن يثير وصول الجيوش الفرنسية إلى الأسكندرية فى عام ١٧٩٨ بعد قرنين من عمليات التوغل الأجنبى فى الأراضى العثمانية ، أشد رد فعل من جانب الباب العالى . كان نابليون يتوقع مثل هذا الرد، وفى محاولة لذر الرماد فى أعين الأتراك أعلن عند نزوله أنه جاء لتأديب المماليك الذين لم يكونوا مسلمين صالحين ، واستعادة سلطة السلطان التى أضرت بها ثورة على بك . ولكن الأتراك كان يعلمون جيداً أن الغرض الحقيقى الذى يتوخاه نابليون هو إقامة قاعدة فرنسية تمكنه من أن يقطع اتصالات بريطانيا مع الهند والشرق . وكانوا يعلمون أيضاً أنه لو نجح فإن مصر وربما الأراضى العثمانية الأخرى سوف تحتلها القوات الفرنسية إلى ما شاء الله . كان التجار الفرنسيون موضع الترحيب ، وكان المعلمون والمبشرون الفرنسيون يعاملون بروح من التسامح ؛ ولكن لن تعامل القوات الفرنسية بهذه الروح أبداً !

ومن ثم فبعد أن أظهر نابليون نواياه الحقيقية بأن سحق جيش السلطان فى موقعة الأهرامات ثم طارد فلوله على امتداد النيل حتى النوبة ، راح الباب العالى يجند الجيوش من جميع أجزاء الإمبراطورية كى يطرد الغزاة الفرنسيين .

دعا السلطان جميع المؤمنين الصادقين إلى حمل السلاح ضد الفرنسيين ، أولئك الكفار الأجلاف كى يخلصوا هذه الديار المباركة من الأيدى اللعينة . وأمر باشواته أن يواصلوا النهار بالليل فى جهودهم من أجل الانتقام . ولما وصل الأسطول البريطانى فى الوقت المناسب ، أغدق الهدايا على الأميرال نلسون ومن بينها عباءة من الفرو وفرعاً مصنوعاً من الماس من عمامته وعلبة مرصعة بالماس. وفى الحال رد نلسون على كرم السلطان بأن هزم البحرية الفرنسية عند خليج أبى قير .وبعد ذلك بثلاث سنوات أى فى سنة ١٨٠١ ،تابعت وحدات من الجيش البريطانى النصر الذى حققه نلسون فدحرت الجيش الفرنسى فى موقعة الأسكندرية. أحبطت أطماع نابليون فى الشرق ولما انسحبت قواته من مصر عاد السلطان العثمانى يتنفس الصعداء من جديد .

ولكن بمجرد إزاحة الغزاة الفرنسيين بدأ يتشكل تهديد جديد للسيادة العثمانية فى مصر . من بين قوات الاحتياطى الكثيرة التى جندت من أجل الحرب ضد نابليون من الممتلكات التركية فى جنوب شرق أوربا ، كان ضابط شاب فى قوات السلطان الألبانية يدعى محمد على وكان قد ولد فى قوله القريبة من سالونيك فى عام ١٧٦٩ . كان إبناً لتاجر دخان فى بلد كان أهله من الفقر بحيث يعجزون عن شراء الغليون والطباق ، ولذا كان يتجول فيبيعهم النفحات مقابل مبلغ زهيد . بدأ محمد على حياته جابياً للضرائب فى خدمة الوالى المحلى . وبرغم أنه كان أمياً ، فسرعان ما أبدى فى الأساليب التى اتبعها لإجبار المتهربين من الضرائب على أدائها ، دهاء وقسوة لن يفقدهما أبداً . ولما كانت أساليبه تتضمن استئجار البلطجية لضرب المعاندين من دافعى الضرائب إلى أن يدفعوها ، فإنه حقق نجاحاً بالغاً فى عمله وسرعان مااسترعى نظر الوالى التركى المحلى الذى زوجه ابنته وعينه فى الميليشيا المحلية . وهكذا ، عندما وصل نداء السلطان ، وجد — محمد على — نفسه فى الطريق إلى مصر يشغل المركز الثانى فى كتيبة من الجنود غير النظاميين العثمانيين .

كانت الرحلة بالبحر عنيفة للغاية ، وعندما اقتربوا من الشاطىء المصرى غرقت السفينة التى فيها محمد على ورفاقه فالتقطهم من البحر بحارة سفينة حربية بريطانية . كان ما لاقاه الضابط الذى يتولى قيادة الكتيبة كافياً فعاد إلى بلده على الفور . لم يبطىء محمد على فى استغلال هذه الترقية التى جادت بها الصدفة ؛ ورغم أنه لم يلعب ، على ما يظهر ، دوراً نشيطاً جداً فى العمليات ضد الفرنسيين ، إلا أنه يشق طريقه إلى القمة بسرعة فائقة . ففى ظرف عامين من وصوله فى عام ١٧٩٩ رقى إلى رتبة كولونيل فى أركان حرب الباشا التركى ، وإلى المركز الثانى فى قيادة القوات الألبانية التى تتكون منها أغلبية الحامية التركية فى مصر .

هذه النظرة البعيدة إلى الحكم والحامية فى مصر سرعان ما فتحت أعين محمد على على امكانيات ازاحة النير العثمانى ، مستخدماً من الألبان رأس حربة فى الثورة ، ومن المماليك سنداً . وبرغم أنه على خلاف المماليك ، لم يكن يشعر بأى سخط قومى على الأتراك ، الا أنه كان على درجة عالية من الطموح وتخيل أنه الشخص الذى سوف يبنى امبراطورية جديدة . وهكذا سرعان ما انغمر فى التآمر ضد سادته الأتراك ولعب دوراً قيادياً فى المؤامرة التى أدت فى عام ١٨٠٣ الى تمرد الحامية الألبانية بحجة عدم دفع المتأخرات من الرواتب شهورا عدة .

كان النجاح الكامل حليف التمرد الذى تزعمه طاهر بك وهو قاطع طريق سابق وتولى قيادة القوات الالبانية . وترتب على انضمام المماليك أن استولى الالبان على القلعة ، مقر الحكومة ، وألجأوا الباشا الى الهرب . من حسن حظ محمد على أن قتل طاهر بعد قليل فأصبحت له قيادة الألبان ومن ثم قيادة القاهرة . من الآن فصاعداً راح يلعب دوره بدهاء بالغ ونفاق لا يعرف الرأفة ، فيضرب الاتراك والمماليك بعضهم ببعض ، وينتهز كل فرصة لتقوية

مركزه . وبعد أن قتل المتمردون الألبان أول شخص بعث به الباب العالى مكان الوالى المطرود ، وبعد وصوله بقليل قرر محمد على الآن أن من السياسة مجاراة الأتراك مؤقتاً . فانقلب على المماليك وأعلن تأييده للباشا الجديد خورشيد الذى وصل فى مارس ١٧٠٤ . ولكن تحت هذا القناع من التعاون كان يعمل بلا انقطاع على اجتذاب أهل القاهرة ورجال الدين فيها مستغلا كل مظاهرة ضد الحكم العثمانى .

وإذ زاد التوتر فى القاهرة بدأ خورشيد يرتاب فيما يدعيه محمد على من الولاء ، ولكى يتخلص منه دون أن يثير صداماً سافراً عينه والياً على جدة فى الحجاز . قابل محمد على هذه الحركة بأن أمر جنوده الألبان بالقبض على خورشيد ، بينما خرج أهل القاهرة من جانبهم إلى الشوارع يصيحون مطالبين بعينه والياً . ولكنها ، بما اشتهر به من دهاء ، قاوم مطالبهم وانتظر أن يتخذ الباب العالى الخطوة التالية . ولما كان السلطان غير متأكد من صلابة الأرض التى يقف عليها وخوفاً من أن يتحدى الألبان الذين لهم الآن اليد العليا ، أرسل مبعوثاً خاصاً للتحقيق وتقديم التوصيات بشأن حل المشكلة . وبالفعل رفع المبعوث تقريراً قال فيه إن أقوى قوة فى البلد هى محمد على بغير شك ، فوراءه الحامية الألبانية وأهل مصر . وفى يونية ١٨٠٥ إنحنى الباب العالى أمام المحتوم وخلع عليه رسميا « باشوية » مصر .

حقق محمد على أول أطماعه فراحت شهيته للسلطة تنمو بقوة ، وسرعان ماساورته أحلام أكبر . من النقاط التى تحتمل الجدل أن نسأل هل كان فى وسعه أن ينتصر فى النهاية على الباب العالى وينصب نفسه سلطاناً لو لم يقف أحد فى طريقه : من المحقق أنه كان على وشك النجاح فى مشروعه عندما تدخل وزير بريطانيا بالمرستون لمنعه ، ذلك أن الحكومة البريطانية التى تحملت المشاق كى تعيد سلطة السلطان عندما كاد نابليون أن يقضى عليها ،

لم تكن لتسمح بأن يفسد محمد على ما صنعته يداها . لم يكن الأتراك من أهل الكمال فى نظرها ، ولم تذرف الدمع على الخسائر التى لحقت بالإمبراطورية العثمانية فى أوربا ؛ ولكن فيما يتعلق بالشرق الأوسط كان السلطان ضماناً لأمن الطريق البرى إلى الهند أفضل من محدث النعمة الطموح هذا . وهكذا ، فمنذ أن بدأت ولاية محمد على كان موضع الريبة فى لندن بمثل ما كان فى الآستانة ، ولم تكن بريطانيا أقل ميلا فقط من السلطان نفسه إلى احتمال تحديه للأخير ، ولكن كان أيضاً فى موقف أقوى بكثير للحد من أطماعه الإمبريالية .

جاء أول تحرك بريطانى ضد باشا مصر الجديد فى مارس ١٨٠٧ ، أى بعد أقل من سنتين من توليه السلطة . فنزلت قوة بريطانية فى مصر بنية الانضمام إلى المماليك وإخراج محمد على . ولكن حبطت الخطة . لم تأخذ لندن فى حسابها أنه بينما كان المماليك راغبين فى أن يروا نهاية للباشا الذى انقلب عليهم ، فإنهم كانوا أضعف من أن يشكلوا « طابوراً خامساً » له فعالية . ان تلك الأسرة الحاكمة من الرقيق ، كانت الآن مغلوبة على أمرها . فبعد أن انهزم المماليك وانهارت روحهم المعنوية فى موقعة الأهرام ، وتفرقوا لما طاردهم الفرنسيين إلى مجموعات صغيرهم متناثرة بين القاهرة والنوبة ، لم يعودوا وحـــدة مقاتلة لها فعاليتها . وعلى ذلك لم يلق جنود الباشا الألبان صعوبة فى عزل وهزيمة القوة البريطانية الصغيرة لما نزلت على شواطىء الأسكندرية . ثم ، وعلى نحو ما فعل الجيش المغولى المهزوم والتابع لغازان خان قبل ذلك بخمسمائة عام ، أجبر الأسرى من البريطانيين على السير نحو القاهرة حاملين عدة رؤوس لرفاقهم الذين قتلوا ، وبيعوا فى سوق النخاسة بالمزاد العلنى إلا إذا افتداهم قادتهم .

وأخيراً صمم محمد على الآن على تحطيم ما تبقى من المماليك . فبرغم

تفرقهم وفقدانهم روحهم المعنوية ظهر أن وجودهم نفسه يشكل دعوة إلى التدخل والغزو الأجنبي وبذلك فهم خطر محتمل. غير أن المماليك حاولوا أن يوجهوا الضربة الأولى فدبروا مؤامرة لاغتيال الباشا فى الاحتفال السنوى بوفاء النيل. ولكن المؤامرة اكتشفت، ودُبر كمين وقع فيـــه أولئك السفاكين باعتبار ما سيكون، ومزقوا إرباً وهم فى طريقهم إلى الاحتفال، وتحرك الباشا الآن لتدبير المذبحة. وتشبهاً بملك من ملوك عالم الجريمة دبر بأعصاب هادئة إبادة فرقة الضباط المماليك. فتظاهر أولا بأنه أسبغ عليهم شرف أن يكونوا طليعة جيش سوف يبعث به لصد هجوم على الحجاز من جانب شيعة متعصبة من نجد، ثم دعا ضباطهم إلى استعراض يقام فى القلعة تكريماً لهم قبل رحيلهم. فى هذا الجو من المؤامرات والمؤامرات المضادة، يبدو أنه يصعب أن نصدق أن المماليك ساروا نحو هذا الفخ الشيطانى دون أن تساورهم الريبة. ربما كانوا يعرفون ما هو مخبأ لهم فقرروا أن يتخذوا منه مبرراً لمعركة وعلى أى حال توجهوا إلى القلعة، وعندما تخطى عتبتها البكوات والضباط المماليك أغلقت الأبواب ونصب الفخ.

راح محمد على يلعب دوره الغادر حتى النهاية فاستقبل القادة المماليك فى حجراته ذات الطقس البارد والفسيحة والتى سادها الظلام نوعاً. كان مظهره مظهر حاكم مستبد يحسب كل خطوة ويتمعن كل ما سيحدث، وقد جلس القرفصاء على الديوان وعيناه الباردتان لا تبتسمان وكانت عمامته فوق جبينه المجعد موضوعة بزاوية فاجرة نوعاً، فرحب بضحاياه وقدم لهم الشربات. طبقا للعرف العربى كان ينبغى أن تحمل هذه الإيماءة معها حماية المضيف لضيوفه. ولكن لم يكن محمد على عربياً وكان ينظر إلى معظم التقاليد العربية بازدراء. ولدى إشارة معلومة إنقض حرسه الألبان على الضيوف وذبحوهم. بينما انطلقت المدافع فى شراسة من أبراج الحصن الكبير لتقتل المماليك

المحصورين فى الخارج . من ٤٧٠ شخصاً لم ينج من المذبحة غير ضابط واحد همز حصانه حتى اعتلى سور القلعة وجعله يقفز إلى الأرض من الناحية الأخرى. قتل الحصان ولكن الراكب هرب وإن كان قد أصيب من أثر السقوط ، واختبأ عند أصدقاء له .

لم يقنع محمد على بهذه المذبحة فأرسل قواته تطارد من تبقى من الأجناد المماليك وتقضى عليهم . وأسلمت القاهرة لأعمال النهب والسلب طيلة ستة أيام ، بينما تمتع الجنود الآن بالحرية الكاملة لقتل أى مملوك يجدونه وسلب ما يملك . وأرسل ابراهيم أكبر أبناء الباشا ، للقضاء على المماليك الذين كانوا قد فروا إلى الوجه القبلى أمام الغزاة الفرنسيين . نجحت مجموعات صغيرة فى الهروب إلى السودان ولكن ما انتهى عام ١٨١١ حتى كانت تلك القلة الحاكمة المتكبرة التى أخرجت الصليبيين فى النهاية ، وردت الموجات المغولية وحكمت مصر والشام طيلة ما يزيد على مائتين وخمسين عاماً من الاستقلال ، قد محيت بصورة فعالة فى أدق مذبحة تخطيطاً وتنفيذاً منذ قضى العباسيون على بنى أمية .

تحول محمد على الآن إلى الحرب فى الحجاز حيث كان الوهابيون وهم فرقة جديدة متشددة وبالغة العنف من المسلمين السنيين ، قد استولوا على مكة والمدينة وحققوا استقلالهم عن الباب العالى . كان الوهابيون وهم سلف العرب السعوديين اليوم ، من أهل نجد واكتسبوا اسمهم من الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكان داعية متشدداً إلى احياء الإسلام فى القرن الثامن عشر ، ويعتبر الأتراك زنادقة بسبب خرقهم المستمر لتعاليم القرآن ، مثل شرب الخمر والميسر والزنا والوثنية . وكخطوة أولى نحو تخليص العالم الإسلامى من هذه المؤثرات الدنسة ، كان عبد الوهاب يصر على أن مدن الإسلام المقدسة ، حيث ولد النبى ودفن ، يجب أن تتطهر من الزنادقة . وبينما كان الناس

يقتنعون بأقواله النارية اجتذب إلى قضيته واحداً من زعماء نجد هو محمد بن سعود الجد الاعلى للملك سعود مؤسس العربية السعودية . وهذا الزعيم أصبح فى مقدمة أنصاره وزوجاً لابنته فى نفس الوقت . هـــذان المؤسسان للفرقة الوهابية توفيا قبل أن تمكنت حركتهما من الوصول إلى السلطة . ولكن فى عام ١٨٠١ نهب خلفاؤهما كربلاء التى تعتبر المركز الرئيسى للضلالة الشيعية، ثم راحوا يستولون على مكة والمدينة ، وبحلول ١٨٠٥ كانوا قد غزوا الشام والعراق ، وبذلك مدوا ممتلكاتهم من بالميرا إلى عمان .

انزعج الباب العالى تماماً بسبب غارات الغزو هذه على الأرض العثمانية فطلب إلى محمد على أن يبعث بجيش الى الحجاز لطرد الوهابيين . تلقف الباشا الدعوة التى رأى فيها فرصة ذهبية لمد ممتلكاته . ولكنه اقترب كثيراً جداً من إفساد الفرص التى أتيحت له ، إذ بعث بابنه الأصغر طوسون على رأس الحملة ، إذ كان ابراهيم مشغولا بمطاردة المماليك فى الوجه القبلى . لم يكن طوسون وهو الأثير عند أبيه على ما يزعمون ، قد بلغ السابعة عشرة من العمر بعد ، وكان هو وأركان حربه غير مستعدين تماماً للمقاومة العنيفة التى قوبلوا بها من الوهابيين . وبرغم نجاح جنود طوسون فى الاستيلاء على قاعدة فى ينبع على البحر الأحمر ، لم يلاقوا سوى الهزيمة كلما حاولوا التوغل فى الداخل ، وراح المصريون التعساء وقد حصدهم عدو متعصب فى قاعدتهم ، يتساقطون كالذباب بفضل الوباء ونيران الوهابيين . ظلوا عامين يتحملون هذا الشقاء إلى أن حضر محمد على بشخصه فى عام ١٨١٣ ومعه التعزيزات . وطبقا لما رواه شهود العيان فإن زيارة الباشا رفعت فوراً الروح المعنوية لجنوده المصريين للقتال . وإذ أباد إبراهيم المماليك ، تولى الآن القيادة مكان طوسون ، وبالتدريج أصبح للمصريين اليد العليا ، وساعدهم على ذلك ما نشأ بين الزعماء الوهابيين من المشاحنات وضروب الغيرة . استردت مكة والمدينة فى الوقت المناسب ، وفى

عام ١٨١٨ تقدم ابراهيم ليغزو نجداً ويحطم الدرعية عاصمة الوهابيين . لقد انتصر الباشا ، ولكنه لم يحقق هذا إلا بعد سبع سنوات من القتال وبتكلفة بلغت أربعة أخماس القوات التى استخدمها ، بما فيها ابنه طوسون الذى توفى بالطاعون قبل النصر النهائى .

لم يكد محمد على يتوقف لحظة حتى شن مغامرته التالية وهى غزو النوبة وكردفان فى السودان حيث كانت حكايات بعض الرحالة قد أقنعته — وخطأ على ما اتضح فيما بعد — بأنه سوف يعثر على الذهب .

وفى عام ١٨١٩ أبحر بطريق النيل ابن ثان له وهو إسماعيل على رأس حملة ولكن قدر للباشا أن يعانى خسارة شخصية مرة ثانية ، حيث أشعلت النار فى معسكر إسماعيل فمات حرقاً . وعندئذ ، فى عملية رهيبة من الثأر ، انطلق جنود الباشا بغير ضابط وقتلوا عدداً يقرب من عشرين ألف نوبى ، كدية مقابل مقتل قائدهم . خضع شمال السودان الآن وأصبح جــزءاً من إمبراطورية محمد على الآخذة فى النمو ؛ ولكن المذبحة التى ارتكبت باسمه[١] خلفت فى قلب كل سودانى جذوة نار من الكراهية لحكام القاهرة ، سوف يحولها إلى جحيم بعد ذلك بخمسين عاماً ، رجل دين مسلم ومتعصب آخر هو المهدى .

وإذ عاد الجيش المصرى من فتوحاته الدموية فى النوبة ، كانت تتفتح أمام محمد على فرصة أخرى لتوسيع نطاق ممتلكاته . كانت المتاعب قد نشبت فى كريت حيث حاول رعايا السلطان اليونانيون أن يتخلصوا من الحكم التركى . فى أول الأمر لم يكن محمد على لا يشعر بالعطف على قضية الثوار وسمح لهم بتجنيد الأنصار من صفوف الجالية اليونانية فى الاسكندرية . . ولكن سرعان ما تغير هذا الموقف عندما عرض عليه السلطان الجزيرة فى عام ١٨٢٢

(١) يلاحظ أن هذه القوات التى بعث بها محمد على لم تكن من المصريين بالمعنى الصحيح . — المترجم .

إذا أخمدت الثورة اليونانية . قبل محمد على العرض راضياً . وبعد عامين أضاف الجزيرة إلى إمبراطوريته الآخذة فى النمو .

ولكن روح القومية اليونانية انتقلت إلى اليونان وبدأت ثورة خطيرة فى شبه جزيرة المورة . مرة أخرى اتجه إلى عامله المصرى يطلب المساعدة ويعرض عليه المورة — وكذلك الشام على ما أكد محمد على فيما بعد ثمناً لها ، ومرة أخرى قبل محمد على العرض ، وفى يوليه من عام ١٨٢٤ بعث بإبراهيم إلى اليونان ومعه قوات عدتها ستة عشر ألفاً ، ومائة من ناقلات الجنود والمعدات ، وثلاث وستين سفينة حربية . فى أول الأمر سار كل شىء على ما يرام بالنسبة إلى القوات العثمانية . نزل إبراهيم إلى البر ، وبعد أن دفع الثوار اليونانيين أمامه استولى على أثينا . ولكن عند هذه النقطة دخلت بريطانيا والروسيا وفرنسا فى الصورة ، فى محاولة لوقف القتال . ضغط البريطانيون على محمد على وحملوه على الدخول فى مناقشات كى يحملوه على الانسحاب من المورة . ولكن عندما أخفقوا فى أن يعرضوا عليه شيئاً يغريه يمكن أن يقارن بالرشوة الجميلة التى قدمها السلطان ، قطع الباشا المفاوضات .

أما وقد أخفقت الدبلوماسية فى وقف أعمال القتال ، حاولت بريطانيا وفرنسا الآن أساليب أكثر مفعولا . ففى أكتوبر من عام ١٨٢٧ ظهر أسطول إنجليزى — فرنسى قوى أمام القاعدة التركية فى نڤارين ومعه أوامر بالعمل على تحقيق وقف إطلاق النار . ولكن الأتراك فتحوا النار على الضيوف الذين قدموا دون دعوة وجهت إليهم . وأجابت السفن الحربية البريطانية والفرنسية ، وكانت نيرانها مدمرة إلى حد أنه بعد أن انجلى غبار المعركة كانت قوات السلطان التركى والباشا المصرى البحرية المشتركة قد محيت

بالفعل . أغرقت سفنهما البالغ عددها ٧٨٢ ولم ينج منها سوى ٢٩ سفينة . اشتد الغضب بمحمد على إزاء عجز الأتراك الذى كلفه أفضل أجزاء أسطوله وعلى الفور أمر ابراهيم بالانسحاب وترك المورة للثوار . ظل مبتئساً فترة من الوقت ، ولكن عندما حدث بعد أربع سنوات أن أضاف السلطان الإهانة إلى الإساءة بعدم منحه الشام ، بعث الباشا بإبراهيم على رأس ستة عشر ألفاً من الجنود للاستيلاء عليها باسمه .

سهل من مهمة ابراهيم أن كان الى جانبه الأمير اللبنانى بشير الشهابى الذى كانت السلطات العثمانية قد نفته قبلا لضمه وادى البقاع الى امارته . كان بشير لا يحتاج سوى التأييد من جانب جيش مصرى قوى ، كى يدعو رعاياه اللبنانيين إلى الثورة على سادتهم الأتراك، وفيما بين سنة ١٨٣١ والسنة التالية استولت القوات المصرية اللبنانية المشتركة على بيت للقدس ويافا وعكا ودمشق . وكان رد الفعل من جانب الباب العالى عزل محمد على من الولاية على مصر ، وأمر بوصفه السلطان والخليفة بلعنه هو وابنه إبراهيم فى كل أرجاء الإمبراطورية . رد محمد على غاضباً على هذه الحركات الجوفاء بأن حمل شريف مكة الذى كان تحت سيطرته منذ إخراج الوهابيين من الحجاز ، على أن يعلن أن السلطان عدو للاسلام ونبيه .

أما وقد عجز الباب العالى عن إزاحة الباشا من الطريق بالضغوط السياسية أو الروحية ، حاول التدابير العسكرية . فتقدم جيش من عشرين ألفاً من الأتراك لصد إبراهيم ولكنه دحر ، وزحف المصريون للاستيلاء على حمص وحلب ، وعادوا مرة فأصبحوا سادة « سوريا الكبرى » بما فيها فلسطين ولبنان ، وما أن حل شهر نوفمبر حتى عبر إبراهيم جبال طوروس

واستولى على أطنه وقونية . أصبح الطريق إلى الآستانة مفتوحاً الآن أمامه ، وانتظر السلطان المرتجف الضربة النهائية .

لم تأت الضربة أبداً . ذلك أنه حتى عندما وقف إبراهيم مستعداً للقضاء على الإمبراطورية العثمانية ، أمر محمد على بالتوقف بينما كان ينتظر ردود الفعل من أوربا . لو أنه واصل الزحف والضغط هناك وفى ذلك الحين لغير مجرى التاريخ بأكمله . ما من شك أنه كان يستطيع أن يستولى على الآستانة وينصب نفسه سلطاناً بمساعدة الروسيا ، ولو أنه فعل هذا فمن المؤكد بالمثل أن الروسيا كانت ستثبت أقدامها على مضيق البسفور . ولكن مغازلات الروسيا مع العناصر المنشقة فى الإمبراطورية العثمانية كانت تلاحظ بالفعل بالارتياب الجسيم فى لندن وباريس . وبرغم أن البريطانيين والفرنسيين كان يمكن أن ينضموا مع الروس ضد السلطان عندما كان يضرب رعاياه الأوربيين فى اليونان أو بلغاريا إلا أن آخر شىء كانوا يريدونه هو رؤية الروس على ضفاف البسفور ولهم حرية إرسال سفنهم الحربية إلى البحر المتوسط . ومن ثم ، فعند أول إشارة بأن حكام سان بطرسبرج يشحذون خناجرهم استعداداً لزحف إبراهيم على الآستانة ، أصدر اللورد بالمرستون فى لندن إنذاراً شديداً إلى الباشا بألا يتابع مكاسبه فى آسيا الصغرى .

كان للانذار أثره . فقرر محمد على ألا يغامر بقوته مع القوى الأوربية وأمر ابراهيم بالعودة الى الشام ودعم فتوحاته . وكتعبير عن الشكر على خلاصه « أعاد » السلطان « تعيين » محمد على والياً على مصر واعترف بغزوه سوريا . فى ظل الحكم المستنير والليبرالى الذى فرضه ابراهيم ، راحت سوريا تنعم بعصر من السلام والتجانس كان فيه المسلمون واليهود والنصارى يحترمون أساليب العبادة عند بعضهم بعضاً ، وذلك بدرجة من التسامح لم تكن معروفة فى جميع سنوات الحكم العثمانى . ولكن تمتع سوريا ومجد محمد على لم يقدر

لهما أن يبقيا لأكثر من سنوات قلائل . ذلك أن بريطانيا كانت قد قررت الآن أنه يجب سحق الباشا مرة واحـــدة والى الأبد . ربما كان السلطان يستسلم ؛ ولـكن بالمرستون لم يـكن مستعداً لقبول الأمر الواقع فى الشام . ومن الآن فصاعداً بدأ يمارس الضغط على الباب العالى لاخراج محمد على من فتوحاته .

(٣٠)

اعتداءات أوربية

من قبيل توافق الصدف الغريب أن قادة أهم ثورتين عربيتين ضد الإمبراطورية العثمانية وهم محمد على والحسين ، اتسموا فى معامـــــلاتهم مع البريطانيين والفرنسيين بلين العريكة وقلة الدربة بمثل ما اتسموا بالدقة البالغة فى خداع حكام الأتراك . بالنسبة إلى الحسين يمكن القول أنه بوصفه أميراً عربياً كانت تعوزه الخبرة بالسياسة والدبلوماسية الأوربية وعلى ذلك كان من السهل على كليمنصو ولويد جورج أن يخدعاه. ولـكن محمداً علياً كان أوربياً بالتبنى والتربية ، وخلال ولايته كلها كان مثابراً على الإفادة من الأوربيين ، فانتقى الممتازين منهم واستورد سلعهم وأنشأ الدولة الحديثة بمصر بتـكنيكاتهم ومساعداتهم . بل انه استخدم ضابطـاً فرنسياً هو الـكولونيل سيف كان قد تخلف بعد انسحاب نابليون واعتنق الإسلام ، وذلك كى يعمل على تمصير جيشه وتنظيمه من جديد ؛ وكانت القوة البحرية التى ساندت إبراهيم فى الحملة الشامية ، تحت قيادة ضابط بحرى بريطانى هو الـكابن بريسيك . لـكن يبدو أنه كان كالحسين ساذجاً إلى درجة تثير الدهشة فى علاقاته مع القوى الغربية وكان له إيمان خارج عن المألوف فى نوايا الأوربيين وفى نوايا الفرنسيين بوجه خاص .

ربما كان تأثير سيف هو الذى أدى بمحمد على إلى أن يسىء تماماً تقدير ردود الفعل الأوربية وأن يعتمد على أن فى إمكانه أن يضرب بريطانيا بالفرنسيين . لأن سيف كان يؤكد له باستمرار أن فرنسا سوف تسانده على الأقل للتغلب على البريطانيين الذين كانوا يؤيدون الباب العالى . وخلال

تملكه الشام كان يعتقد بصورة ضمنية أن الفرنسيين سوف يقاومون فى النهاية أية ضغوط إنجليزية — تركية لإخراجه ، وإن كانت فرنسا فى الحقيقة تساند جهود بريطانيا فى جعل الباب العالى يتخذ موقفاً صلباً ضده .

وأخطأ محمد على أيضاً الحكم على أخلاق بريطانيا وصلابة بالمرستون وذلك عندما قرر تمشياً مع البديهية التى آمن بها وهى « علىّ أن أجعل قدمى فى ركابى السرج » ، أن يراهن على التأييد الفرنسى وأن يسعى إلى كسب تأييد بريطانيا لخططه ضد الباب العالى . ففى لحظة كان الفرنسيون يأملون فى أن يساعدهم فى فتح الجزائر ، اقترح على قنصل عام بريطانيا فى القاهرة أن تتفق بريطانيا ومصر على إبعاد الروسيا عن الشرق الأوسط . كان يؤكد أن الإمبراطورية العثمانية قوة منهارة لا تستطيع تحقيق هـــــذا الهدف : « ألا ترى أن من المستحيل الإبقاء على الباب العالى ؟ . . . . . لقد فقدت الحكومة ثقة الناس فى داخل العاصمة وفى المقاطعات . . . . الطريق الوحيد لدعم السلطان هو مساندة . . . . بالإنجليز كأصدقاء لى أستطيع أن أفعل أى شىء ، وبدونهم لا أستطيع أن أفعل شيئاً . . . ولكن بالمرستون كان قد أصبح على اقتناع ، بمثل كان إيدن على اقتناع بالنسبة إلى ناصر فى عام ١٩٥٦ ، بأن محمداً علياً كان متفقاً فى السر مع الروسيا ، مهما بدا شديد الرغبة فى أن يتحدث عن المصالح المتبادلة مع بريطانيا . وإذ كان بالمرستون يشك فى أن فخاً كان يجرى نصبه ، كان رد الفعل من جانبه صدمة عنيفة فاستولت القوات البريطانية على عدن لتحرم مصر من التسلط على الأقل على أحد طرفى البحر الأحمر ، وحذّر الباشا ألا يحاول مد نطاق نفوذه على حساب بريطانيا أو الباب العالى .

وفى هـذه الأثناء كانت الضغوط الإنجليزية — الفرنسية فى الآستانة تسفر عن نتائج . ففى سبيل إخراج ابراهيم كان الباب العالى يجمع جيشاً

ضخماً على أن يتولى قيادته القائد البروسى فون مولتكه وبضم نسبة كبيرة من الضباط الألمان . وبدأ العملاء الأتراك أيضاً حملة واسعة النطاق بقصد إثارة مسلمى الشام ضد سياسة إبراهيم القائمة على التوفيق بين المسلمين والنصارى واليهود فى داخل مملكته. وعند ما رد الباشا بالاستعدادات الحربية على هذه التهديدات، عاد القنصل العام البريطانى بتحذيرات جديدة بألا يتخذ مثل هذا الموقف العدوانى ضد الأتراك . هذا الموقف ضد الرجل الذى كان فى الحقيقة الحاكم المستقل على أرض عربية تزيد عما يحكم سيده الإسمى ، والذى شملت ممتلكاته المركزين الباقيين من مراكز الثقافة والعلم العربيين ـ القاهرة ودمشق ـ فضلا عن المدن المقدسة فى الإسلام ، هذا الموقف كان لابد أن يسبب انفجاراً فى النهاية . ولكن قبل التفجر استطلع محمدعلى رأى الفرنسيين وعلى نحو ما فعل سيف ، فإن ممثل فرنسا فى القاهرة قاده الى الظن بأنه يستطيع أن يعتمد على تأييد باريس فى أية مواجهة مع الآستانة أو لندن أو كلتيهما . كان هذا هوا الجواب الذى كان يأمله ؛ وفى مايو ١٨٣٨ استدعى محمد على القناصل العامين لبريطانياوفرنسا والنمسا والروسيا وأمام الرباعى الذى تملكته الدهشة أعلن استقلاله التام والنهائى عن السلطان .

أحدث الإعلان رد فعل بالغ الغضب من جانب لندن واحتجاجات أقل عنفاً من باريس والعواصم الأوربية الأخرى . وجرى التعجيل بالضغط على الباب العالى حتى ينتهى من هـذا المغتصب الحديث النعمة لسلطة السلطان . ولكن كان ما يزال أمام الأتراك اثنى عشر شهراً كى يجهزوا ويسيروا جيش فون مولتكه على الشام ، وعند ما جاء الصدام النهائى فى عام ١٨٣٩ أجبرهم ابراهيم على الإرتداد بسرعة نحو الأناضول كأنهم مجموعة من الرعاع حلت بهم الهزيمة . وبعد أسابيع قلائل وجه محمد على ضربة أخرى جديرة بالنظر . فعن طريق مزيج ماهر من الرشاوى ودق الأسافين أغرى أحمد باشا القائد

البحرى للسلطان على الخروج مع الأسطول العثمانى بأكمله والتوجـــه الى الاسكندرية . وبرغم أن رد فعل الباب العالى كان مرة أخرى هو تقبل النكسة ، الا أن هذا كان القشة التى تقصم ظهر البعير ، وذلك فى نظر بالمرستون الذى رأى بوضوح الآن أنه اذا لم يقم بعمل حاسم فسوف تسقط الإمبراطورية العثمانية كتفاحة فاسدة فى حجر محمد على . وفى أوائل عام ١٨٤٠ أعلنت الدول الغربية بزعامة بريطانيا ، تأييدهم العسكرى التام للسلطان وبعثوا الى محمد على بما يجب أن يرقى حقاً الى مرتبة واحـــد من أغرب الإنذارات النهائية فى التاريخ . فأبلغوا الباشا أنه اذا استسلم فى الشام وسلم أسطول السلطان فى ظرف عشرة أيام فإن فى امكانه أن يحتفظ بمصر وفلسطين ؛ واذا فعل هذا فى ظرف عشرين يوماً أمكنه الاحتفاظ بمصر فقط ؛ واذا ظل بعد عشرين يوماً لا يستجيب للانذار فسوف يضرب عليه حصار بحرى لإجباره على التسليم وعندئذ يحرم من جميع أراضيه وألقابه .

ولبيان جدية نواياهم استولت قوة بحرية بريطانية على سرية من المجندين الألبان فى عرض البحر بينما كانت تتجه الى مصر . احتج الباشا لدى القنصل العام البريطانى وهدد بإحداث ثورة فى ألبانيا ضد السلطان اذا لم يفرج عن جنوده ، ولكنهم نحوه جانباً فى ازدراء وذكروه أن فى امكان بريطانيا أن تسحق مصر وأنها سوف تفعل هذا اذا نفذ مناورته . أدرك محمد على أن هذا ليس تهديداً أجوف . كان منذ بداية أمره يفهم أهمية القوة البحرية . كان افتقاره اليها خلال حرب الحجاز عندما كانت سفنه التى تنقل الإمدادات تحت رحمة قراصنة البحر الأحمر قد أقنعه بهذه الاهمية ، كما أقنعه قبل ذلك عجز مركز نابليون فى مصر بعد أن هزم الاسطول الفرنسى فى معركة النيل ، وعلى ذلك أسرع مرة أخرى إلى التماس مشورة قنصل عام فرنسا الذى نصحه بالثبات فى الشام وبالاحتفاظ بأسطول السلطان وبعدم إثارة أية استفزازات

جديدة . وأكد له أن العاصفة سوف تهدأ ويفقد البريطانيون حماسهم للقضية التركية .

يندر أن كان يحصل على نصيحة أسوأ من هذه . كان بالمرستون قد كشر الآن عن أنيابه ، وعندما انقضت مدة العشرين يوما نزلت إلى بر الشام قوة مشتركة من الإنجليز والأتراك تساندها البحرية البريطانية ، بينما ضربت وحدات بحرية بريطانية أخرى الحصار على الساحل المصرى . ولقى الغزاة المساعدة من ثورة قام بها الدروز الذين ساءهم تسامح إبراهيم مع المسيحيين واليهود فى البلاد ، فاستولوا على بيروت وعكا؛ وبينما أبحرت قوة صغيرة بقيادة الكومودور نابيير لتتفاوض بشأن استسلام الباشا ، راحت القوة الإنجليزية ـ التركية تنزل الهزيمة بإبراهيم فى اشتباك بعد آخر . سقطت صيدا ومن بعدها طرابلس وطرسوس . خارت عزيمة الأمير بشير وفر مع قواته اللبنانية المكونة من خمسة عشر ألفا ، وبرغم أن المصريين قاتلوا بشجاعة بالغة إلا أن خسائرهم كانت تزيد باطراد . وإذ وجد إبراهيم نفسه تضربه البحرية البريطانية من البحر ويطارد من معقل إلى آخر فى البر ، أجبر فى النهـــاية على الانسحاب مع بقية جيشه .

وفى مصر وعندما اقترب نابيير من الأسكندرية فإن الباشا الذى كانت تتقدم به السن ، استشاط غضباً إذ لم يرفع الفرنسيون إصبعاً للدفاع عنه . نصحه القنصل العام الفرنسى بانتظار تحرك ما من جانب باريس ، وهنا فقد محمد على أعصابه ، وبالغضب الشديد فى عينيه ، صرخ فى وجه الفرنسى بأنه انتظر زمناً أطول مما ينبغى ، وأنه سوف يعلق الآن كل شىء على حركة يائسة أخيرة يقوم بها الأسطول . ولكن تهديده لم ينفذ أبداً ، لأنه فى تلك اللحظة فقد إبراهيم الذى كان يتراجع من الشام كل اتصال مع القاهرة ولم يعرف والده أين يوجه الضربة فى سبيل تأييده . لقد أطلق الباشا سهمه . وكل ما يستطيع عمله الآن

أن يضع مصر فى حالة حصار ويحصن الإسكندرية وينتظر عودة إبراهيم . وفى الوقت نفسه حاول إصلاح جسور قلائل مع الدول الغربية بأن دفع جميع ديونه للتجار والمقاولين الأوربيين وسمح للبريد البريطانى أن يمر فى بلاده إلى الهند دون عائق . وكانت استجابة بريطانيا الوحيدة تشديد الحصار . .

كان انسحاب إبراهيم صورة مصغرة لارتداد نابليون من موسكو . فعندما كان يشق طريقه إلى مصر كان قد خسر أكثر من نصف جيشه ، إذ كانت القوات البريطانية والتركية تطارده . وكان معظم الباقين على قيد الحياة فى حالة يرثى لها . وخشية وقوع متاعب من جانب أهل القاهرة وهم يرون البقايا الحزينة تشق طريقها متعثرة إلى القاهرة ، أعلن محمد على أن الجرحى هم من الأسرى البريطانيين أو الأتراك . ولكن الحقيقة سرعان ماتسربت ، وأصبح مزاج الناس قبيحاً وينذر بالخطر حتى برغم أن إبراهيم راح فى إيماءة لإرضاء قواته فسلم قصره بالقاهرة ليكون مستشفى للمرضى والجرحى . ثم ، وكخاتمة للأمور صرح المسيو تيير رئيس الوزراء الفرنسى أنه « إذا خضع باشا مصر فى وقت مبكر بالدرجة الكافية ، فربما قد تترك له مصر على أن تكون وراثية فى أسرته » . أخيراً أظهرت فرنسا موقفها ، وكان واضحاً أن خير مايمكن أن يأمل فيه الآن هو الاحتفاظ بباشوية مصر . لقد ضاعت الشام إلى الأبد وضاع معها حلم محمد على فى تكوين إمبراطورية .

بعد ايام قليلة وصل الكومودور نابيير إلى الإسكندرية . ووسط قاعة الاستقبال بجدرانها المنقوشة بالزخارف وبشمعداناتها المصنوعة من الذهب والفضة ، وفى عباءته الخضراء المبطنة بالفرو وفى فمه مبسم نارجيلته (المصنوع من العنبر) استقبل الباشا السىء الحظ رسول الفاتحين البريطانيين . سلم نابيير شروط بالمرستون وكانت مزيجاً وافرا من التهديدات والإغراءات . بدأت رسالة رئيس وزارة بريطانيا بالتذكير بخسائر إبراهيم ، ثم جعلت من

الواضح أن محمداً علياً سوف يغلب ويخسر كل شيء إذا رفض الوصول إلى اتفاق . ولكن بشرط أن يعيد أسطول السلطان إلى صاحبه الشرعى ويتخلى عن دعاويه فى الشام ومكة والمدينة فإن بريطانيا وفرنسا والروسيا والنمسا سوف يستخدمون نفوذهم لدى الباب العالى لكى يضمنوا له استمرار بقائه والياً على مصر .

لم يكن أمام محمد على من بديل سوى أن يقبل هذه الشروط . ولكن عند هذه النقطة استرجع الباب العالى فجأة شجاعته التى كان قد أخفق بمثل هذا الشكل الغريب فى اظهارها لما كان الباشا فى ذروة قوته . رفع الآن الثمن الذى عرضه بالمرستون وطالب بأن يخضع محمد على لأن يكون خلفه من اختيار الباب العالى ، وأن يقصر عدد الجيش المصرى على عشرين ألفاً منهم ألفان يستبقون فى الآستانة كرهائن على حسن سلوكه . وطالبه أيضاً بأن يقبل مبعوثين أتراكاً يتولون الإدارات الرئيسية فى حكومته ، وأن تعين الآستانة جميع الضباط فى جيشه ، وأن يدفع ربع ايرادات مصر جزية الى السلطان .

ولكن الباشا لم يكن ليرضخ ، وبعد أن أعاد مبعوثى الباب العالى شكا للبريطانيين فى حرارة من أن السلطان يحاول أن يخدعه . فى هذه المرة سائد بالمرستون محمداً علياً ضد الأتراك وأخبر السلطان الا يتوقع أى تأييد بريطانى بعد ذلك اذا أصر على هذه الشروط الإضافية . واذ كانت المتاعب تختمر فى جميع أرجاء ممتلكات الباب العالى الأوربية والعربية لم يكن فى وسعه أن يبعد بريطانيا عنه ، ومن ثم تراجع . ووافق محمد على أن يدفع لى من ايراداته جزية وأن يقبل مندوباً تجارياً تركياً ..

وفى نوفمبر ١٨٤٠ سلم الأسطول العثمانى ، وفى يناير من العام التالى ثبته السلطان العثمانى مرة أخرى باشا لمصر . رجع محمد على الى حيث بدأ ؛ ولكنه ظفر بما كان يعتبره أهم هدف تبقى فى حياته ، هو الحق فى تأسيس ملك له

ولأسرته . أما عن مغامرته الشامية فكانت نتيجتها النهائية نقيض ما كان يأمل فى تحقيقه . فهو لم يفشل فقط فى اقتلاع السلطان العثمانى، باعتباره الحاكم الأعلى للعالم العربى ، ولكن بريطانيا صارت الآن فى مركز أقوى وأثبت فى الشرق الأوسط من مركز فرنسا وأنمت رابطة مع الإمبراطورية العثمانية سوف تستمر أكثر من سبعين عاماً إلى أن سمح رجال جماعة تركيا الفتاة بأن تأسرهم مشروعات قيصر ألمانيا للسيطرة على العالم ووجدت بريطانيا نفسها وعلى غير رضاء ذاتى نوعاً ، تؤيد الثورة العربيـــــة التى قام بها حسين شريف مكة .

إلا أنه برغم النكسات التى أصيب بها ، بدا أن الباشا العجوز الذى بلغ الآن الثانية والسبعين من عمره ، عاد إلى أسلوب التآمر وإن لم يكن يبقسم . كان السلطان القائم بالحكم شاباً مصاباً بالصرع فى الثامنة عشرة من عمره ، اسمه عبد المجيد اعتقد محمد على خطأ أنه لن يمتد به الأجل . خرج الباشا عن أسلوبه المعتاد وراح يتودد إلى الصبى أملا فى أن يعين خلفاً له ، واقترح عليه مرات عدة أن يتعاونا فى إخماد الثورات فى الإمبراطورية ومنع مكائد وأحابيل الدول الغربية . وبعث بابنه سعيد إلى الآستانة لتمطر الحاكم الشاب بالهدايا الثمينة والنادرة بما فيها فرس نهر جىء به من الحبشة ، وليطلب يد أخته . ولكن كل مكائده انتهت إلى لاشىء . فأعيد سعيد إلى بلده بأسلوب مهذب ؛ وعاش السلطان وبرغم ما كان يتعرض له من نوبات ، أحد عشر عاماً بعد وفاة نائبه المصرى . والحقيقة أنه حوالى النهاية كان محمد على هو الذى لم يعد مالكا لقواه ؛ وكانت أحواله تتراوح بين فورات من الغضب والجموح والسوداوية اليائسة . ولما مات فى النهاية فى سن الثمانين ، فى أغسطس ١٨٤٩ كان قد خرف تماماً .

لقد دعى محمد على بحق ، مؤسس مصر الحديثة . فبرغم أن أحلامه فى

إمبراطورية حطمتها بريطانيا بالمرستون بعنف ، فإن نجاحه فى إنقاذ واستعادة اقتصاد قاعدته المحلية بعد تدهوره المحزن فى ظل الحكم العثمانى ، كان إنجازاً هائلا . حقيقة استخدم أساليب قاسية لابتزاز الضرائب من رعاياه حتى يدفع رواتب جنوده وتكاليف تطوير مصر . وبعد أن انتقلت أعداد من البدو إلى فلسطين كى يتفادوا دفع الضرائب الباهظة التى فرضها عليهم الباشا ، جعل مغادرة البلاد بدون ترخيص خاص جريمة عقوبتها الموت . وكان التعذيب بالفلقة أى الضرب على الأقدام بالكرباج المصنوع من جلد الجاموس ، يستخدم بدون تمييز فى معاقبة المتهربين من الضرائب والتجار الذين يحققون أرباحاً فاحشة . ولكن فى ذلك الحين كان نظام الضرائب والحسابات الذى تولاه الأقباط منذ القرن العاشر ، معقداً جداً وأتاح للكثيرين من الأقباط وملاك الأرض أن يدفعوا القليل من الضرائب أو لا يدفعونها ، الأمر الذى تعين معه اتخاذ إجراءات حاسمة للتغلب على المشكلة ، من بينها شكل من تأميم الأرض حول فى الواقع معظم الأرض الصالحة للزراعة فى مصر بما فى ذلك دلتا النيل كلها ، إلى ضيعة شخصية للباشا (ظل الكثير من هذه الأملاك الضخمة فى أيدى حفيد هو الملك فاروق فى الوقت الذى قام فيه جمال عبدالناصر بالثورة فى عام ١٩٥٢) . لكن ، مهما بدت أساليبه ظالمة ووحشية حسب معايير اليوم ، فلا سبيل إلى إنكار أن محمداً علياً عمل فعلا بهذه الاصلاحات التى لاترحم وباستيراده العلماء والفنيين الأوربيين ، على تنمية مواردمصر إلى أقصى طاقتها . وبوجه خاص أدخل زراعة القطن من السودان ، وأنشأ أول مدارس للهندسة والطب الحديث بمصر،وابتدع أساليب علمية جديدة فى الزراعة . وكما يلاحظ هنرى دُدْول فى دراسته عن الباشا « فالشىء الملفت للنظر ليس فى أن محمداً علياً أقام حكمه كرجل تركى ، ولكنه فى أنه كان قادراً ، بما لم يقدر عليه أى تركى آخر فى عصره ، على استيعاب أفكار جديدة وتطبيقها على ظروف

جديدة ومختلفة ... باحساس بالقوى التى تبنى بها الدول وتتحطم . . . قاد الطريق فى تطبيق الأفكار والسياسية الغربية على الأحوال القائمة فى الشرق » .

هذا لا يعنى القول بأنه ألغى الفقر فى مصر أو حتى قلل منه بصورة جدية . فكان الفلاحون لا يزالون يعيشون فى فاقة وضنك فى عام ١٨٥٠، وكثيرا ما كانوا لا يحصلون على ثمن المحاصيل التى أخذها مفتشو الحكومة لبيعها لصالح الدولة. وفى محاولة لتحويل المقت من عاتق الباشا إلى الباب العالى ، كان الموظفون يقولون إن السلطان حلب الخزانة حتى جف ضرعها . وكان محمد على يفرض رقابة شديدة على مفتشيه ويشتد به الغضب جداً إذا قيل له إنهم كانوا يسمحون للفلاحين بأن يحتفظوا أو أن يبيعوا فى السر ، مايزيد على النسبة الضئيلة من محاصيلهم وهى النسبة التى يسمح لهم القانون بها . وكانت كل التجارة أى الواردات والصادرات ، وأرباح المقاهى ، والمبيعات من الغلال أو حتى من الأشجار تخضع لضريبة قدرها ١٠ فى المائة . ولكن البيوت والأرض كانت معفاة بحيث أن أكبر مالك أرض فى مصر أو المالك الوحيد بالفعل ، وهو الباشا ، لم يدفع ضريبة على الجزء الأكبر من ممتلكاته . وهكذا كانت هناك فوارق ضخمة بين الأغنياء والفقراء . ففى الوظائف الحكومية مثلا كان محافظ الوجه القبلى يحصل على هيئة ضرائب ومرتب ،على ما لا يقل عن ٦٠٫٠٠٠ دولار فى السنة ، بينما كان مدير المديرية يحصل على ٢٥٠٠ دولار فقط ، ومأمور المركز ١٧٠ دولاراً ومحصل الضرائب ٦٠ دولاراً .

ولقد أعطى محمد على مصر — والشام أيضاً خلال السنوات السبع من حكمه لها — نظاماً عنيفاً من العدل ، كان بغير شك قاسياً أكثر منه عادلا ، إلا أنه كان أكثر ليبرالية بصورة لانهائية ، من النظام الذى كان يطبقه الباشوات العثمانيون السابقون وليس أكثر شدة من نظام العدالة السائد

حينذاك فى انجلترا . كان للحاكم وقضاته ومحافظيه ومديريه سلطة الحياة والموت على جميع من يظهرون أمامهم . ولكن الذين كانوا يستشعرون الخوف من هذه المحاكم السريعة الفصل فى القضايا ، كانوا أولئك الذين يجنون الأرباح الفاحشة ومن يضطهدون الأقليات الدينية . مهما كان الربح الذى يحققه الباشا بسبب مركزه ، فقد كان لا يسمح لأحد آخر بأن يضحى بالفقراء ويستغلهم . وكذلك لم يكن ليتسامح مع أى اضطهاد دينى . ففى كل من مصر والشام فى ظل حكمه وحكم إبراهيم ، كان فى إمكان اليهود والنصارى أن يسيروا فى الشوارع دون خوف من المضايقة والإزعاج ، وهذا موقف لم يكن معروفا فى ظل حكم العثمانيين الذين كان أكثر أسلوب يستخدمونه من أجل الاحتفاظ بسيطرتهم فى ولاياتهم العربية ، هو أن يثيروا الدروز ضد الموارنة أو المسلمين ضد اليهود .

وسار إبراهيم فى الشام على نهج أفضل مما سار عليه محمد على فى مصر ، وعمل على أن يحكم البلد ويصلحه عن طريق التعاون بدلا من الكرباج . كان ضد سياسة أبيـــه فى الابتزاز واختطاف الأراضى ، فألغى استخدام الفلقة والكرباج ، ومع ذلك جمع من الضرائب ما يكفى لإنشاء مدارس للطب والهندسة والزراعة والموسيقى حيث لم يكن التعليم قبل ذلك يتعدى اللغة التركية وحفظ القرآن . وفى المسائل الدينية كانت تصرفاته أفضل أيضاً من تصرفات أبيه . ففى ظـــل الحكم العثمانى كان غير المسلمين يخضعون لقيود لا عدّ لها . فلم يكن فى الإمكان أن يتولى مسيحى مثلا مركزاً من مراكز السلطة فى الحكومة ، بل ولا أن يظهر علناً ممتطياً حصاناً أو مرتدياً عمامة بيضاء أو حمراء أو خضراء[1] . ألغى مظاهر التفرقة هذه ، وكون مجلساً للحكم من مسلمين ويهود ونصارى . وشجع أيضاً رجال الإرساليات من أوربا

---

(١) يستطيع القارىء أن يلمس سماحة الاسلام فى عهد الخلفاء العرب وكيف كان لا يفرق بين الناس على أساس دياناتهم — المترجم .

والولايات المتحدة على إنشاء مدارسهم — وهو تطور فى الثقافة الغربية سوف يؤدى مباشرة إلى تكوين ما يعرف الآن بالجامعة الأمريكية فى بيروت . والحقيقة أن إبراهيم كان يتجه نحو استرضاء رعاياه المسيحيين . بل ويقال إنه عندما استولى خلال الحملة الشامية ، على مدينة تضم مسجداً وكنيسة للكاثوليك استخدم المسجد لخزن مؤونته وأعفى الكنيسة من هذا الأمر . « يستطيع رجالى أن يصلوا فى الخلاء » ، كان هذا هو رده على القائد البحرى الكابتن بريسيلك الذى تملكته الدهشة .

لقد كانت مأساة بالنسبة إلى الشام أنه بفضل تدخل بالمرستون ومخاوفه إلى حد كبير ، أن أهلها لم يتمكنوا من أن ينعموا لأكثر من تسع سنوات بالمنافع التى نجمت من حكمة إبراهيم السمحة ومن فهمه للناس . ولكن ربما كانت المأساة أعظم بالنسبة إلى مصر أن ابراهيم لم يعش بعد أبيه ليصبح والياً عند ما توفى محمد على وليشرف على بناء قناة السويس . لو أن هذا حدث لكان من المرجح أن مصر لم تكن لتخسر أبداً نصيبها فى هذا الإستثمار المجزى الكبير . فالذى آلت إليه الأمور فى المستقبل هو أن اسماعيل بن إبراهيم الذى أصبح باشا فى عام ١٨٦٣ ، سرعان مارهن خلال إثنى عشر عاماً ، مستقبل مصر بسبب أسلوبه فى الإنفاق على التنمية بطريق العجز ، بحيث اضطر إلى أن يبيع حصة مصر بأسرها فى شركة قناة السويس إلى الحكومة البريطانية كى يسدد ديونه المستحقة للدائنين الأوربيين . وهكذا أهديت لبريطانيا هى وفرنسا ، الرقابة المالية على مصر . بعد ذلك لم تكن الحكومة البريطانية بحاجة إلى غير ثورة مسلحة ضد « المراقبين » لتتخذ منها ذريعة لفرض احتلال عسكرى . هذه الذريعة وفرها فى عام ١٨٨٢ فى يسر وسهولة أحمد عرابى الذى كان الأول فى تلك السلسلة الطويلة من الضباط الوطنيين العرب ، والذى تزعم ثورة قام بها الجيش ضد الرقابة الإنجليزية — الفرنسية[١] .

(١) الأصح فى التعبير أن ثورة عرابى ضد التوغل الأجنبى وضد الحكم المطلق للخديو ، استغلها الانجليز لضرب هذه الحركة القومية وكان الخديو توفيق أداتهم الطيعة . — المترجم

وسرعان ما قضت قوة بريطانية بقيادة السير جارنت ولسلى على ثورة عرابى فى موقعة التل الكبير ؛ ومن ذلك الحين فصاعداً أصبح السير إﭬلين بارنج (اللورد كرومر فيما بعد) حاكم مصر من حيث الواقع ، ومعه جيش احتلال بريطانى يساند كل قرار يتخذه .

وهكذا انتهت سلسلة الأحداث التى بدأت بنزاع محمد على مع بالمرستون حول الشام ، بأن استبدلت مصر بسادتها الأتراك سادة بريطانيين وظلت ولاية فى حالة تبعية حتى عام ١٩٣٦ ومخفراً عسكرياً أمامياً لبريطانيا حتى عام ١٩٥٤ . وبرغم ذلك كان لدى مصر شىء حاسم يعزيها ويستحق أن تشكر محمد علياً عليه . فمنذ أن ارتفع إلى موضع السلطة كانت مصر المركز السياسى للعالم العربى ، سواء أ كانت مكبلة بالأغلال أم حرة . كان هناك بالطبع من قالوا إن الباشا « استهدف الفتح قبل أن أضفيت عليه السلطة على نحو سليم » وإن « قمة طموحه كانت هى أن يثبت نفسه وورثته على عرش مصر » ، وإنه « جعل خزائنه خاوية وسلب أرضاً خصبة زهرة شبابها فى سبيل مد نطاق ممتلكاته » . ولكن إذ نحكم فى الضوء التحليلى الذى يلقيه التاريخ ، فإن محمداً علياً أيقظ بالفعل المصريين من « سبات العصور » ، وضربهم واستبد بهم كى يصبحوا من جديد ، الأمة الكبرى فى المركب العربى .

---

(١) ولنضيف أن الهزيمة التى يتحدث عنها الكاتب كانت وليدة الخيانة من جانب عناصر عميلة . — المترجم .

القسم السادس

ريح التغيير

(٢١)

ثورة المهدى

لم يلعب السودان دوراً يذكر فى التاريخ العربى ، حتى النصف الأخير من القرن التاسع عشر . هذا البلد الذى يعادل من حيث المساحة أوربا الغربية بما فيها اسكنديناوه ، لم تتعرض له الإمبراطورية الرومانية . أما النوبة التى تبلغ ربع مساحته ، فلم تفتحها الجيوش العربية سوى ثلاث مرات . وانتزعها صلاح الدين يتخذ منها مكاناً يمكن أن يلجأ إليه ، وذلك عندما خشى أن يعزله من حكومة مصر مولاه الشامى نور الدين ، وفتحها بيبرس كعمل من من أعمال التملك الامبريالى المباشرة ؛ وأخذ محمد على إذ اعتقد خطأ أنه سوف يجد الذهب هناك . كان المهاجرون العرب قد تسربوا إلى النوبة فى العصر الجاهلى قادمين من اليمن ، ولكنها أصبحت فى القرن السادس الميلادى وقبل مولد محمد ، مملكة مسيحية بفضل النشاط الذى بذله من أجل تنصيرها ، الأسقف البيزنطى الكبير نسطوريوس المقيم فى الحبشة المجاورة لها . وعندما فتحت الجيوش العربية مصر فى عام ٦٤٠ باسم خليفة مكة ، وتداعت الممتلكات المجاورة الواقعة فى الغرب ، صمد النوبيون وأجبر قائد قوات الخليفة على عقد اتفاق ينظم العلاقة مع هؤلاء الأشداء ممن كانوا قد اعتنقوا المسيحية . وبالتدريج توغلت الفرق الإسلامية ـ من الخوارج والحشيشية والإسماعيلية ـ فى شرق أفريقية بما فى ذلك جزيرة زنجبار . ولكن النوبة تمكنت خلال سبعمائة عام من الثبات أمام الهجوم من جانب الإسلام؛ وحتى فى القرن الرابع عشر وبعد اعتداءات صلاح الدين بوقت طويل ، ظلت للديانة المسيحية الغلبة والسيادة . ولم يبدأ التأثير الإسلامى ينتعش إلا بعد استيلاء سلاطين المماليك على السودان ؛

وبحلول العشرينات من القرن التاسع عشر، عندما ضم محمد على النوبة، كان المسيح قد حل محله محمد كرسول الله. وأخلى الحكام الوطنيون الطريق أمام حكام من الأتراك ليحكموا أهل القبائل الهمج والعراة في هذه المقاطعة الصحراوية الشاسعة.

كانت النوبة متورطة بعمق في تجارة الرقيق منذ العصور القديمة. فلم يقف الأمر عند حد كونها مصدراً جاهزاً للرقيق من أبنائها، لتزويد البلاط في مكة ودمشق وبغداد والقاهرة[1]؛ ولكنها كانت توفر تسهيلات المرور على طول نهر النيل لتجار الرقيق الذين يتوغلون في شرق أفريقية لاتمام مشترياتهم من هذه السلعة. الواقع أن كل مايتكون منه السودان الآن - أى النوبة وكردفان ودارفور وبحر الغزال والإستوائية - كان يشتغل بتجارة الرقيق حتى عام ١٨٧٧ عندما عين إسماعيل خديو مصر، الجندى المكتشف البريطانى الجنرال جوردون حاكماً عاماً على هذا الإقليم المصرى المترامى الأطراف. كان إسماعيل يعلم جيداً وتماماً أن جوردون سوف يصر على القضاء على تجارة الرقيق. ولكن من كانوا تحته من المحافظين الأتراك والمصريين كانوا قد أشاعوا الاضطراب في السودان، بالاشتباك في منازعات مع الحبشة وبتبديد إيرادات مصر الآخذة في التناقص والسماح للمحافظين الإقليميين بأن يتصرفوا كأنهم حكام مستقلون، بحيث لم يكن أمام جوردون من بديل سوى تقبل هذه الخسارة كثمن لإقامة إدارة تتسم بالكفاءة. ذلك أن جوردون النزيه بما له من تجربة في فتح أبواب مناطق المستنقعات في أعالى النيل، كان هو الرجل الوحيد الذى يمكن أن يطمئن إليه إسماعيل ليفرض السيطرة على هذه الأرض الموحشة التى لم تحدد وترسم معالمها.

عمل جوردون تماماً الشيء الذى كان متوقعاً منه، فوحد السودان تحت راية الخديو، وعين مديرين أوربيين في المديريات، وقضى على تجارة الرقيق.

---

(١) كان خليقاً بالكاتب وهو يذكر هذا مع علمه بموقف الاسلام الحقيقى من استنكار الرق، ان يضيف ان استرقاق أبناء إفريقية فعلا بدأ بعد كشف العالم الجديد حيث سيقوا بالملايين للعمل في المزارع والمناجم والموت أيضاً — المترجم.

كان حتماً أن يثير عداء تجار الرقيق والباشوات المحليين ؛ إلا أنه كسب احترام بل وامتنان قطاع كبير من السكان عندما حسم نظام الرشوة والابتزاز ، الذى كان أسلافه يعيشون عليه . ولكن عندما تآمرت بريطانيا مع الباب العالى فى عام ١٨٧٩ على طرد اسماعيل وإحلال ابنه توفيق محله ، قدم جوردون استقالته كحاكم عام . هذا الجندى الغامض الذى أنهكه ما بذل من جهد ليخلق النظام من الفوضى ، والذى شعر بالاشمئزاز من الطريقة العنيفة التى عومل بها صديقه الخديو على يدى بارنج ، نقول إن هذا الجندى وجد فى خلع إسماعيل القشة الأخيرة التى تقصم ظهر البعير .

أغرق رحيل جوردون السودان مرة أخرى فى الفوضى . وكان خلفه رؤوف باشا أسوأ شخص يمكن أن يقع عليه الاختيار . كان جوردون قد طرده من الخدمة فى السودان بسبب قسوته مع الأفريقيين ، فراح الآن يمطر الرعاية على أصدقائه وكان من بينهم لصوص ومحتالون . وأعيد التعذيب والجلد فى السجون ، ومرة أخرى عادت الرشوة والابتزاز يحكمان السودان . ولم يزد المديرون الأوربيون الذين أبقوا فى دارفور وبحر الغزال والإستوائية عن كونهم قطع شطرنج لاحول لها ولاقوة على تلك الرقعة التى يتسلط عليها هذا التركى الفاسد الشرير . وعادت الإيرادات تنتزع من الناس بالكرباج لتصب فى جيوب موظفى الحكومة ، كل حسب رتبته ؛ أما الذى كان موجوداً من الخدمات الاجتماعية الهزيلة فلم يوفر لها حاجتها من المال فتوقفت ؛ وكانت القوات غير النظامية ومعظمهم من السودانيين والزنوج لايتقاضون رواتبهم أو يطردون من الخدمة . وبالإضافة إلى هذا كان الجنود والموظفون الأتراك يعاملون رعاياهم السودانيين بعجرفة لايمكن إحتمالها .

أصبح السودان الآن وقد نضج فى كل مكان للثورة التى لم تكن تتطلب سوى زعيم يشعل نارها . وفى ظرف سنة من رحيل جوردون وجد هذا الزعيم

فى شخص محمد أحمد بن سيد عبد الله وكان إبناً لأحد صانعى الزوارق النيلية ، فاتخذ لنفسه فى عام ١٨٨٠ لقب « المهدى » وأقسم أن يخلص الشعب السودانى ممن يضطهدونه ويظلمونه . ولد محمد أحمد عام ١٨٤٨ فى دنقلة عاصمة المملكة المسيحية السابقة وهى النوبة ، والواقعة على النيل بين حدود مصر والخرطوم . وبرغم نشأته الفقيرة والمتواضعة أصبح شاباً ذكياً وقادراً على تحريك العواطف. كان طويل القامة ، عريض المنكبين . وقوى البنية ؛ وكان يبدو ممثلا لطراز المحارب السودانى ، وذلك بقامته المنتصبة الوقورة ، وبآثار جراح ثلاثة على كل واحد من خديه ، وبعينيه الكبيرتين الدافئتين ووجهه الدائم الابتسام . ومن سن مبكرة أصبح طالباً نهماً فى دراسة الفقه الإسلامى ، وبعث به بطريق النيل إلى بربر ليدرس مايؤهله لوظيفة دينية . ولما بلغ الثانية والعشرين من العمر كان قد أصبح موضع الاعتراف الواسع بكونه واعظاً ومعلماً . وإذ كان زاهداً متشدداً ولا يتساهل فى تلك الأيام المبكرة ، عاش فى غار بجزيرة أبا القريبة من بربر ، حيث « أثار » وعظه « القلوب وأحنى الرؤوس كما ينحنى القمح تحت العاصفة » على مايحدثنا السير ريجنالد ونجيت فى كتابه « المهدية والسودان المصرى » .

منذ البداية الأولى لحياته كمعلم لتعاليم الإسلام ، كان يكره الأجانب الذين يحكمون وطنه ، سواء كانوا من أصول تركية أو ألبانية أو شركسية أو غيرها ، وكان يجمعهم جميعاً تحت كلمة واحدة تنم عن الخزى هى « الأتراك » . كان يكرههم لا بسبب اضطهادهم وإذلالهم إخوته السودانيين فحسب ، ولكن كان يكرههم أيضاً بسبب فسادهم وخروجهم على تعاليم القرآن المقدسة . كان حتماً ألا يطول أول اشتباك له مع السلطة . انقطعت صلة محمد أحمد بالطرق الدينية[1] عندما طرد بسبب اتهامه رئيسه الدينى فى بربر بأنه يغتصب وظائف الله بأن راح يغفر ذنوب الناس على الأرض . ولكن هذا التحدى

(١) المقصود الطرق الصوفية . . المترجم .

الذى قام به أكسبه إعجاباً وإهتماما واسعين وإن كان ذلك فى صمت، وراح يطوف فى عملية استكشاف واسعة النطاق للنوبة وكردفان، لتقييم استعداد الناس للثورة.

استشعر الرضاء عما توصل إليه، فعاد إلى أبا وبدأ يدعو إلى الانتقاض السافر ضد الأتراك. وكان يؤكد وهو يشير إلى الفظائع التى يرتكبها جباة الضرائب ضد الشعب، أن كل هذا الشقاء والظلم كان نتيجة غضب الله بسبب شرور الناس. فمنذ أن قبض النبى وخرج من الدنيا وقع كل شىء فى الخطيئة والإهمال. ولكن أضاف محمد أحمد أن هناك علاجاً فى متناول اليد. ذلك أن الله سوف يرسل هادياً آخر أو مهدياً ليبحث الخطيئة ويخلص الناس حتى يتمكنوا من تملك الأرض التى كانت لهم، باسم الله، ويكتسح جباة الضرائب الملاعين وسادتهم الأتراك الأشرار.

كان محمد أحمد يمس أعصاباً خاماً ـ وكان يعرف ذلك جيداً. فبنفخة ثورية واحدة أثار إحساس السودانيين بالظلم وكراهية الحكم الأجنبى والاعتقاد الإسلامى فى أن رسول الله سوف يعود مرة ثانية(١). وجاءت الفرصة التى يعلن فيها أنه ذلك الرسول، عندما كان يعظ الناس ذات يوم من عام ١٨٨٠، اندفعت مجموعة من الرجال فشقوا طريقهم إلى مقدمة الحشد وقالوا بلهجة تجمع بين التساؤل والتأكيد « أأنت المهدى الذى وعد به الله ونبيه ؟ فأجاب محمد أحمد فى ثقة : « نعم، أنا المهدى. »

من الآن فصاعداً راح يتصرف كما لو كان نبياً ثانياً للاسلام، ولم يغفل أبداً فى جميع دعوته أن يربط مطلبه الحماسى بالإصلاح الاجتماعى بنداء حماسى إلى بعث روحى، وهو ربط سوف يحرك شعباً كان من أشد شعوب الأرض تأخراً بحيث ينتصر على قوات أعظم دولة بالعالم وحلفائها. اكتسب محمد أحمد الآن مجموعة من التلاميذ فى مقدمتهم عبد الله التعايشى الذى ينتمى إلى قبيلة البجارة

(١) لم يذكر المؤلف مصدراً اسلامياً صحيحاً يمكن الإستناد إليه، ذلك ان ليس فى القران ولا فى «الحديث» مايمت بصلة إلى هذه الفكرة عن عودة الرسول. — المترجم.

وهم فرسان من تلال النوبة ، وأكد لهم أن بعثته الإلهية قضى بها الله ومحمد .

فى أول الأمر عاملت السلطات المصرية عظاته ودعواته على أنها شطحات عديمة المعنى يطلقها واحد من رجال الدين إمتلأت نفسه بالسخط . ولكنها لم تحبسه لفترة قصيرة إلا بعد أن سبب وقوع اضطراب ، ثم أطلقت سراحه باعتبار أنه شخص غريب الأطوار لاخطر منه . ولكن عندما انحازت إلى جانب المهدى بعد ذلك بعام ، قبيلة البجارة بأسرها وكانت تتألم من الهزائم التى أنزلها بها جوردون ، بدأ رؤوف باشا يأخذه مأخذ الجد وتحرك بسرعة ليقضى على الثورة فى مهدها . فبعث بضابط على رأس مائتى رجل لإحضار محمد أحمد من أبا إلى الخرطوم ليواجه محاكمته بتهمة الحض على الفتنة . ولكن خبر مجيئهم نما إلى علم أتباع المهدى فنصبوا لهم كميناً وردوهم مدحورين إلى العاصمة . دار أول صدام مع السلطات لصالحه ، ومن الآن فصاعداً إرتفعت مكانته بسرعة .

وبرغم هذا وجد نفسه فى أبا قريباً بصورة غير مريحة ، من الحاميات المصرية الرئيسية . وعلى ذلك فبدلا من أن يغامر بنفسه فى هذه المرحلة المبكرة انسحب إلى كردفان ليثير القبائل كى تؤيده ، ومعلناً فى احتراس أن الله تجلى له فى رؤيا وأمره بالتوجه إلى الغرب . أرسل رؤوف باشا القوات لمطاردته والقبض عليه ، ولكنها إما هربت أو لم تتمكن من العثور عليه . حتى هذه النقطة كان رجال المهدى مسلحين بالعصى والرماح فقط فقط ـ وهو نقص أخبرهم زعيمهم أنه علامة الفضيلة نظراً لأن جيش النبى نفسه كان يحارب بنفس هذه الأسلحة(١) . ولكن فى ديسمبر ١٨٦١ عندما وقعت قوة مصرية من ألف وأربعمائة رجل فى كمين وأبيدت ، انقض المهديون على هذا الخير المفاجىء من الأسلحة والذخيرة الحديثة ، وسرعان ماطوى النسيان الفضيلة القديمة .

أعلن محمد أحمد الآن « الجهاد » ضد الكفار وجميع الكفار فى السودان .

---

(١) كان جيش النبى يستخدم الأسلحة المعروفة فى عصره .. المترجم .

وندر أن انقضى أسبوع دون أن ينقض أتباعه من رجال القبائل على بلدة صغيرة أو قرية فى كردفان يعمـــلون السيف فى المدافعين عنها . وسرعان ما أصبحت شهرته أسطورية وانتشرت أغرب الحكايات عن مآثره بما فيها القصة المفرحة التى تقول إنه كان فى إمكانه أن يحول رصاصات الحكومة إلى ماء ! من حين لآخر كانت تشتبك معه قوة مصرية وتوقع به الهزيمة ، ولكن رجاله يختفون كلمح البصر فى الصحراء ثم يعودون إلى التجمع كى يشنوا الهجوم من جديد. كان الجنود المصريون الذين تمتلىء نفوسهم بالسخط المرير لبعدهم عن أسراتهم واضطرارهم إلى الخدمة فى حر السودان وغباره ، غير متعودين تماماً على هذا النوع من حرب العصابات وسرعان ما ذابت مقاومتهم . وفى يونيه من عام ١٨٨٢ حلت الهزيمة بقوة حكومية من ستة آلاف رجل بالقرب من فاشوده ، وما أن حل خريف السنة ذاتها حتى كان المهديون يسيطرون على جميع كردفان ودارفور باستثناء مدينتى الأبيض ودرة حيث الحاميات الرئيسية .

حاول المهدى أن يأخذ الأبيض عنوة ، وكانت مدينة كبيرة مزدهرة تضم ١٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ولكنه صُد عنها وقد بلغت خسائره ما يقرب من العشرة آلاف . وعلى أثر ذلك أصدر أوامره بعدم مهاجمة أية مدينة محمية أو حصن إلى أن يكون معروفاً أن المجاعة والمرض اضعفا الحامية فلم تعد قادرة على المقاومة . وبرغم أن ثورته كانت فى هـــذا الوقت قد انتشرت نحو الجنوب ، إلا أنه قرر أن يركز قواته على تطهير كردفان ودارفور من كل احتلال أجنبى قبل أن يستولى على مديريات أخرى. هذه التكتيكات كان لها جزاؤها عندما سقطت الأبيض بعد ذلك بشهور قلائل فى أيدى المهديين الذين يحاصرونها . كانت الحامية تواجه الموت جوعاً بحيث اضطرت إلى أن تأكل جريد النخل والأغطية الجلدية للأرائك والكراسى ذات المساند ،

فسلمت بعد أن أمنهم المهدى على حياتهم . واحترمت الشروط برغم اعدام قائد الحامية وثلاثة من أركان حربه بسبب محاولتهم تهريب رسالة إلى الخرطوم بعد أن سلموا . ولكن الأبيض أسلمت للنهب والسلب ، وزاد بيت مال المهــــدى ثراء إذ حصل على ٣٠٠٫٠٠٠ دولار تقريباً ، وظفرت ترسانته بستة آلاف بندقية .

خلال الحملة التى شنها فإن النجاح بدا دائما عاملا يقوى أوهام محمد أحمد بشأن رسالته . ومن الآن فصاعداً زعم أن النبى محمداً والمسيح عيسى بن مريم ظهرا له فى رؤيا وأكدا أنه المهدى . كذلك راح يصر على أنه من نسل النبى مباشرة ، من ناحية أبيه ، ومن سلالة الحسين الشهيد من ناحية أمه . وكان أتباعه يعرفون حتى الآن بالدراويش فسماهم من جديد ، الأنصار على غرار الأنصار الذين آزروا النبى ، وأطلق اسم « الخلفاء » على معاونيه الرئيسيين وسمى كلا منهم باسم أحد الخلفاء الأربعة الذين خلفوا محمداً . فعين عبد الله التعايشى رئيس قبيلة البجارة ليكون أول من يخلفه وأسماه أبا بكر ، وأطلق أسم عمر على زعيم قبلى آخر ، ومما يلفت النظر إطلاق اسم علىّ على زوج ابنته . أما لقب عثمان فاحتفظ به كاحتياطى لرئيس برقة السنوسى الذى عزف برغم هذا ، عن قبوله .

وحرص محمد أحمد أيضاً على أن يؤكد أن البعث الروحى المهدوى مبنى على المبدأين اللذين استرشد بهما النبى . فأولا أعلن أن جميع الناس متساوون أمام الله وكل من يتحدث عن « مجرد عبد » فى حضرته إنما ينطق بحكم الموت على نفسه . وثانياً كان يرى وجوب احتقار جميع متاع الحياة الدنيا ، فقال فى عظة ألقاها « أنظروا إلى أمور هذه الحياة الدنيا بعين نفاذة . تأكدوا أن هذه الحياة عبث ووجهوا قلوبكم إلى ما فى الحيـاة الآخرة ، وكرسوا أنفسكم لله وامتنعوا عن الملذات والمتع الدنيوية » . وعندما وجد أنصاره يقومون بأعمال النهب والسلب فى الأبيض لأنفسهم متحدين الأمر الذى

فرضه بأن يسلموا كل غنائم إلى بيت مال المهدى ، تحدث اليهم قائلا : إنكم إذ تحذون حذو الاتراك فإن الله سوف يعاقبكم ويحرقكم بالنار . لقد أخبرنى النبى أن أعاقب الذين يأبون طاعتى ؛ وسوف يكون مثل هذا العقاب هو الموت . . . » .

وبرغم أن أحداً من العصاة لم يعدم فى الحقيقة ، ربما لأن الذين استولوا على نصيب كامل من الأسلاب غادروا المعسكرات واختفوا فى الصحراء حسب الأسلوب البدوى الصحيح ، أمر محمد أحمد بأن كل من يقبض عليه فى المستقبل وهو ينهب أو يسرق ، فسوف تقطع يده وقدمه . وأمر بايقاع أشد العقوبات على الذين يخالفون شريعة القرآن ، فى شرب الخمر ثمانون جلدة بالكرباج ، تزيد إلى مائة فى حالة تدخين الطباق . وكانت عقوبة الفرار من الجهاد قطع اليد والقدم ، أما التجديف والكفر فجزاؤه الموت . ونهى عن البكاء على الموتى لأن النبى كان يغضب منه ، ولأن الموت فى خدمة المهدى شرف . وحرم الرقص أيضاً ، وفرض الحجاب على النساء إذا ظهرن فى الطرقات ، وأمر أن تكون ولائم الزفاف والمهور متفقة مع النمط العام للتقشف . ولم يكن من المسموح ارتداء الملابس الغالية ؛ فكان محمد أحمد وجميع الأنصار يرتدون « جبة » بسيطة هى عبارة عن عباءة خشنة ومرقعة علامة على الفقر ومن ثم على الفضيلة . وفيما عدا حالة القتال ، فقد أمر أتباعه بالمشى بدلا من ركوب الخيل أو الجمال ، كرمز للتواضع .

ولكن خطط المهدى للفتح كانت خلواً من التواضع . فأعلن فى بداية عام ١٨٨٧ أنه بعد أن يستولى على السودان بأكمله ، سوف يخرج لفتح مصر وبعدها مكة حيث سوف تدور أعنف معركة ، ثم يزحف على بيت المقدس حيث سينزل المسيح من السماء للقائه ، وأخيراً يغزو العالم كله . وبرغم أن لندن استبعدت هذه المزاعم باعتبارها تدعو إلى السخرية ، فان القاهرة قررت

الآن أن الثورة يجب أن تؤخذ مأخذ الجد . فأرسل الخديو توفيق قوة من عشرة آلاف من الجنود المصريين النظاميين بقيادة ضابط بريطانى من الجيش الهندى هو الكولونيل هكس ، ومعه أوامر بالقضاء على محمد أحمد واسترجاع الأبيض . فى أول الأمر أحرز هكس بعض نجاح بأن هزم قوة مهدية كبيرة فى المنطقة الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض. ولكن عندما تحول غرباً نحو كردفان وهى معقل المهدى ، فسرعان ما وجد نفسه فى مأزق لا رجاء فيه . فبدون معدات سليمة ، ومثقلة بالمدافع الجبلية الثقيلة ، لم تكن قواته نداً للأنصار الذين يمتازون بدرجة عالية من سرعة التحرك. وكان الكثيرون من المصريين قد جندوا من نزلاء السجون فى القاهرة ممن كانوا قد زج بهم فيها بسبب اشتراكهم فى ثورة عرابى قبل ذلك بعام . ولم يكن أحد منهم يعرف السودان، وكانوا جميعاً تحت رحمة أدلاء وضعهم محمد أحمد لتضليلهم أو كانوا يتعاطفون سراً مع القضية المهدية . وكانت الحرارة شديدة وسرعان ما نفذت مواردهم من الماء ، وقادهم الأدلاء عمداً إلى آبار لم يكن لها وجود .

ظلت حملة هكس تدور حول نفسها طيلة شهرين ، بينما كان محمد أحمد ينتظر انهيار روحها المعنوية . ثم كتب إلى هكس يعرض عليه الحياة إذا استسلم . ولما لم يتلق رداً قاد قوة من خمسين ألفاً من الأنصار إلى غابة تبعد ثلاثين ميلا عن الأبيض ، حيث كان المصريون قد نصبوا معسكراتهم . ولم تمض خمس عشرة دقيقة حتى كان العشرة آلاف قد قتلوا فيما عدا نحو مائتين. قاتل هكس كما سبق أن قاتل الشهيد الحسين(١) ، وظل يطلق مسدسه حتى نفذ ما فيه من الرصاص ، وفى النهاية مات من ضربة رمح وهو يهجم بسيفه على السودانيين الذين كانت تتصاعد صيحاتهم .

كان تأثير هذه الهزيمة المصرية مدمراً وساحقاً وعلى حد تعقيب الآن

(١) قياس مع الفارق على ما يمكن أن نلاحظ . — المترجم .

مورهيد فى كتابه « النيل الأبيض » : « فى السودان كان الأمر كما لو أن سداً قد انفجر ؛ وفى موجة هائلة تدفقت عقيدة المهدية » . كان المهدى الآن نبياً معصوماً من الخطأ فى نظر الشعب السودانى ، وكان المؤمنون يشربون الماء الذى يغتسل به كأنه ترياق ضد الشر والمرض. كان ينتظره فى الأبيض استقبال حماسى يصل إلى درجة الجنون ، ولكن محمداً أحمد إنما انتظر وقتاً كافياً يجمع خلاله قواته استعداداً لضربة كبيرة أخرى . فى هذه المرة كان هدفه « درة » عاصمة دارفور ، حيث كان محافظها النمسوى رودلف كارل فون سلاتين قد انقطع اتصاله بالخرطوم شهوراً عدة ومعه حامية سودانية إلى حد كبير أصابتها عدوى المهدية . فى محاولة أراد بها فون سلاتين أن يزيد من سيطرته على قواته ، كان قد أصبح مسلماً؛ ولكن بعد أن وصلت إلى دره أخبار اندحار هكس لم يعد هناك أمل فى السيطرة على المدافعين المهددين بالموت جوعاً الذين سلموا المدينة بعد ذلك بشهر . أسر سلاتين ، ولكن كعلامة عن الصداقة نحو شخص اعتنق الإسلام أعطاه قائد قوات المهدى جواده هدية منهم ، وأرسل النمسوى إلى المهدى الذى استقبله بحرارة وقال له : « اعتقدت أن أصلى داعياً الله أن تعتنق الإسلام ، واستجاب الله ونبيه لدعائى ، والآن يجب أن تخدمنى : لأن من يخدمنى إنما يخدم الله وسوف يظفر بالسعادة فى هذه الدنيا وبالنعيم فى الآخرة » .

وبينما كان المهدى يدعم قبضته على السودان الغربى ، ثار لصالحه تاجر اسمه عثمان دنجا يجمع فى عروقه الدم التركى والسودانى ، وفى فبراير من عام ١٨٨٤ هدد سواكن على البحر الأحمر . وبرغم هذا أرسلت القاهرة ضابطاً بريطانياً آخر ممن يجرى وراء المغامرات ، هو الجنرال بيكر ، ليخمد الثورة الجديدة ، ولكن مصير رجال بيكر لم يكن خيراً من مصير

حملة هكس . فعندما هاجمهم الأنصار تملكهم الذعر وفروا تاركين ما يزيد على ثلثى عددهم فوق أرض المعركة .

كان المهدى الآن يسيطر على أرض تزيد مساحتها على ٥٠٠٫٠٠٠ ميل مربع ، تمتد عبر وسط السودان ، وكانت قبائل الجنوب قد انحازت إلى جانب قضية الثوار . بدأت القاهرة الآن تسبر غور موضوع التراجع . ولكن فى هذه اللحظة نفسها أخذت لندن تنظر نظرة جادة إلى ما يجرى فى السودان والذى رأت فيه الآن تهديداً لمركز بريطانيا فى مصر . وبنهاية عام ١٨٨٣ أُقنع الجنرال جوردون بالعودة إلى الخرطوم وإعداد تقرير عن الموقف .

عندما وصل جوردون إلى الخرطوم فى فبراير ١٨٨٤ كانت العاصمة السودانية فى حالة حصار بالفعل كانت قوات المهدى تحيط بها من جميع الجوانب ؛ ولم يبق مفتوحاً سوى الطريق النهرى تحرسه بواخر نيلية مسلحة أدرك جوردون بسرعة أن السياسة العملية الوحيدة هى إجلاء الحاميات قبل أن ينقطع نهائياً سبيل الهروب ، وأبلغ ذلك إلى لندن والقاهرة . ولكن ماذا يحدث لو سحب الجيش المصرى ؟ كان جواب جوردون أن اقترح أن يعين خلفاً له أمير مصرى[1] كان يعيش فى السودان على أرباح تجارة الرقيق ؛ ولكن عند ما تسرب اقتراحه للصحافة أثارت « جمعية مناهضة الرق » فى بريطانيا ضجة فى الرأى العام اضطرت معها الحكومة إلى رفض الاقتراح . عندئذ قرر جوردون الصمود مؤقتاً بل وكتب إلى محمد أحمد يعرض الاعتراف به حاكما على السودان والسماح باستمرار تجارة الرقيق إذا اتفق معه .

أدرك المهدى الآن ، وعلى خلاف مخاوفه ، أنه يجب أن لا تصل إلى جوردون قوات بريطانية لمساندته . كان الرد الذى بعث به ينطـــوى على الإزدراء : إنه لا يهتم بالحل الوسط الذى يعرضه الجنرال ، لأن رسالته سماوية

(١) ليس مصريا إلا من ناحية أنه كان فى خدمة حكومة مصر . — المترجم .

ولا يستطيع أن يوقفها إلا بعد أن يكون قد أحيا الدين الصحيح من جديد ، بالغزو أو بإدخال الناس فيه أو بكلا السبيلين . وإذ راح يلفت النظر إلى الدين كسبهم إلى جانبه ومنهم فون سلاتين، دعا جوردون إلى اعتناق الإسلام وأرسل مع الخطاب « جبة » ليلبسها الجنرال علامة على دخوله فى الإسلام .

كان رد فعل جوردون مثالا من العناد المشاكس الذى ميز الكثير من حياته . فهو إذ صدم من جانب بريطانيا والمهدى ، راح يعمل على تحصين موقف لا يمكن الدفاع عنه ، لكى يقاوم قوة لا يمكن مقاومتها . فى هذه الأثناء أطبق عليه محمد أحمد استعداداً للجولة النهائية : كان هدفه الأول مدينة بربر الواقعة على النيل على مسافة ثلاثمائة ميل إلى الشمال من الخرطوم ، حيث كان جوردون وهو فى طريقه إلى منصبه ، قد ارتكب غلطة مميتة بأن أخبر الشيوخ المحليين أنه لا يرى بديلا عن جلاء الحاميات المصرية . وانحاز الشيوخ على الفور إلى المهدى ، وأصبحت حامية بربر جزيرة صغيرة أخرى للمقاومة فى بحر المهدية الزاحف . وفى مايو كانوا بالفعل على وشك الموت من الجوع فاستسلموا ، وانقطعت آخر صلة لجوردون مع مصر والشمال . وبعد أسابيع قليلة زال آخر أمل فى الحصول على مساعدة من الجنوب عند ما تخلت حامية بحر الغزال وسلمت المديرية دون إطلاق رصاصة واحـــدة . وسيق مديرها الإنجليزى أسيراً ، وأنقذ حياته باعتناق الإسلام .

لم يصب الأنصار بأية نكسة خطيرة إلا فى الشرق عندما نزلت حملة عسكرية وبحرية مشتركة بريطانية فى سواكن وهزمت عثمان دقنا وقتلت عدة آلاف من رجال القبائل الذين معه. أما عن جوردون الذى حوصر فى الخرطوم فان كل ما كان يستطيع أن يفعله هو القيام بعملية تسلل من حين لآخر، يحاول بها أن يفك الحبل الذى يلف حـــول عنقه . ولكن جنوده كانوا عادة يصابون بأفدح الخسائر إذا اشتبكوا مع الأنصار ، وبعد أن خسر جوردون

ثمانمائة من رجاله فى كمين ليلى قرر الاحتفاظ بذخيرته انتظاراً للهجوم الرئيسى على الخرطوم · حاول أن يبعث بـكلمة إلى القاهرة بأن تبعث إليه بقوة تخفف الضغط الواقع عليه ، ولـكن الضرر الذى نجم عن المحاولة كان أكبر . فقد وقع الرسل فى أيدى المهدى ، وعرف محمد أحمد الآن ومما كتب الجنرال بخط يده كيف كان فى محنة ميئوس منها . فارسل إلى جوردون دعوة نهائية إلى التسليم وأرفق معها الوثاق التى استولى عليها من رسل الجنرال وكانت تتضمن تعداداً لحامية الخرطوم وقائمة مفصلة بمعداتها وخطاب جوردون الذى يناشد فيه إرسال المساعدة .

وفى الوقت نفسه خرج المهدى من مقر قيادته القريب من الأبيض على رأس ٢٠٠٫٠٠٠ من أتباعه، فى طريقه إلى الخرطوم . لـكن عند وصوله إلى الخرطوم لم يبادر بالهجوم على الفور. فهو إذ فضل أن يمارس لعبة القط والفأر إلى أن تنهار الروح المعنوية للحامية تماما أرسل إلى جوردون « جبة » أخرى ودخل عن طريق التراسل ، فى مناقشات فقهية مطولة كان قد بدأ بها رجال الدين فى الخرطوم بأمل مستميت فى أن يقنعوه برفع الحصار . فبوصفهم من علماء الـكلام ذوى الخبرة ، استطاعوا أن يبرهنوا على أن زعمه بأنه المهدى زعم باطل. لقد اتخذوا من مذهب الإثنا عشرية المقدمة المنطقية التى تقوم عليها حجتهم ، أوضحوا أن المهدى الحقيقى الذى أصبح « الإمام المستور » كان قد مات وأو اختفى فى مسجد سامرا فى عام ٨٧٨ · فاذا كان محمد أحمد هو الرجل فعندئذ لابد أن يكون عمره ألف سنة .ولـكن هذا المنطق الذى لايمكن دحضه ، كان كالهشيم تذروه الرياح . وكما لاحظ ونجيت : « متى كان منطق المحصورين يسلم به القائمون بالحصار ؟ متى تفادت حجة فقهية نشوب معركة ؟ » .

وأخيراً جاءت المعركة فى ١٢ نوفمبر بعد أن غادر المهدى قاعدته فى كردفان بثلاثة أشهر . ولـكن الهدف لم يـكن الخرطوم وإنما كان أم درمان على

الشاطىء الغربى للنيل وفى مواجهة العاصمة مباشرة . ظلت المعركة مستعرة طيلة ثمانية أسابيع مليئة بالألم ، بينما اضطر جوردون الذى يفتقر إلى القوات الفعالة والذخيرة أن يقف ساكتاً يراقب من سطح قصر الحاكم العام آلام الموت فى جيرانه . وعندما استسلمت أم درمان فى النهاية فى الخامس من يناير أصبح مركز الخرطوم ميئوساً منه إذ يحيط بها عشرات الألوف من الأنصار من كل جانب وعلى مسافة بضع مئات من الياردات واضطرت حاميتها إلى أن تأكل الكلاب وجلود الحيوانات والصمغ وألياف النخيل . ولكن تردد المهدى فى إعطاء الأمر بالاستيلاء عنوة على هذا الحصن الأخير للمقاومة المصرية . وعندما تلقى الخبر بأن قوة بريطانية جاءت للنجدة تحت قيادة السير جارنت ولسلى الذى سبق أن انتصر فى التل الكبير، قد أوقعت هزيمة فادحة بالأنصار جنوبى بربر ، تملكه الذعر وأمر بالانسحاب فوراً إلى كردفان ، زاعماً أن الله تجلى له فى رؤيا وأمره بالهجرة على نحو ما هاجر النبى من مكة . كان الشىء الوحيد الذى يرهبه هو أن يضطر إلى مواجهة القوات البريطانية،وكان خوفاً كبيراً ومعدياً إلى حد أن جميع قواده عدا واحد فقط ، وافقوا على أنه ينبغى رفع الحصار عن الخرطوم قبل أن يلحق بهم ولسلى .

ولكن الخارج الوحيد على الاجماع وهو محمد عبد الكريم ، أكد بحرارة أن لديهم الوقت للاستيلاء على الخرطوم قبل أن يصل البريطانيون إليها . ودعم حجة عبد الكريم وصول أخبار جديدة بأن هجمات الأنصار عطلت تقدم ولسلى ، وعند ما وجدوا أن طمى النيل ملأ الخندق الموجود على الجانب الجنوبى من الخرطوم للدفاع عنها ، فإن شجاعة محمد أحمد عادت إليه الآن . وعلى الفور أعلن أن الله تجلى له مرة أخرى ليخبره أن يلغى الانسحاب ، وأمر بشن هجوم شامل فى فجر اليوم التالى الموافق ٢٦ يناير . ثم عبر النيل إلى جانب الخرطوم وخطب فى رجاله . فقال لهم إن كل من

يقتل وهو يحارب هؤلاء الملحدين والكفار سوف يدخل الجنة مباشرة . ولكنه أضاف أدق التعليمات بأن يؤخذ جوردون حيا حتى يمكن إدخاله فى الإسلام . فعلى خلاف «الأتراك» الحقراء الذين كانوا ينتهكون حرمة السودان . وينهبونه ، كان جوردون رجلا طيباً غلطته الوحيدة هى أنه لم يكن من أهل « الدين الحنيف » . وبمجرد اعتناقه الإسلام سوف يصبح شخصاً كاملا .

بدأ الهجوم على الخرطوم قبيل الفجر عند ما عبر الأنصار الخندق المملوء واستولوا على أبراجها عنوة . وفى دقائق قليلة كانت الشوارع قد امتلأت بالمهديين وهم يزعقون . هربت الحامية التى استولى عليها الرعب ، ولكن جوردون استبسل حتى النهاية ورفض التسليم . وإذ تدفق رجال القبائل إلى قصره وقد جنوا بمنظر الدماء ، نسوا أمر المهدى وسقط الجنرال وقد نفذت رماحهم فى كل مكان من جسمه . وتلت ذلك مذبحة تكاد أن تكون على نطاق المذابح التى عرفتها العصور الوسطى ، ويقال إن عشر سكان الخرطوم البالغ عددهم أربعون ألف نسمة قد لقوا حتفهم . وبعد ست ساعات من القتل العنيف أمر محمد أحمد بوقف إطلاق النار ، وبيع السكان الباقون على قيد الحياة رقيقاً . وأخذ هو نفسه كل فتاة صغيرة اعتباراً من سن الخامسة فما فوقها ، وقسم الباقون بين « خلفاء » المهدى وقواده[1] . وبالمثل قسمت خير دور المدينة وحدائقها بين المهدى ومعاونيه ، ووضعت الغنائم فى بيت المال الرسمى .

بعد يومين وصل طابور الإنقاذ بقيادة ولسلى على مرأى من الخرطوم . ولكن إذ رأوا أنهم تأخروا جداً فلا يستطيعون إنقاذها ، داروا على أعقابهم يلتمسون الأمان فى الأرض المصرية . إن منظر القوات البريطانية وهى فى حالة تقهقر كامل ، عمل على رفع مكانة المهدى حتى بأكثر مما رفعها سقوط الخرطوم . حتى المؤمنون من أتباعه الذين لم يكن يساورهم أى شك فى عصمته

---

(١) يخيل إلينا أن فى هذه الروايات قدرا كبيرا من المبالغة — المترجم .

الخارقة للطبيعة ، كادوا لا يستطيعون أن يصدقوا أن دولة عظمى مثل بريطانيا تعجز عن الإنتقام لهزيمة جوردون وموته . نفس الأرض التى يطأها محمد أحمد بقدميه اعتبرت الآن أرضاً مقدسة وراح الناس يجمعون ترابها رمزاً لإبعاد المرض وضمان سلامة ولادة الأطفال .

ولكن المهدى لم يطل به العمر كثيراً جداً بحيث يتمتع بهذه المكانة المقدسة . فبعد خمسة أشهر ، أى فى يونيه ١٨٨٥ ، توفى فى أم درمان . لم يثبت أبداً السبب فى موته ، ولكن النظرية التى تعزو الوفاة إلى تدهور القلب بسبب السمنة ، نظرية تبدو صحيحة . ففى الشهور الأخيرة من حياته زاد محمد أحمد سمنة بصورة هائلة وانغمس فى أسلوب من الإباحة لو أن إنساناً آخر أقل منه شأناً حذا حذوه لعوقب عقاباً شديداً . كان حريمه ضخماً ، وتمثل فيه كل قبيلة فى السودان ، كما تمثل كل لون من الدنكا فى بحر الغزال ولونهم فى سواد الأبنوس إلى الأسرى الأحباش من ذوى البشرة النحاسية . وفى الخلوة عند حريمه كان يلبس قمصاناً وسراويل من أفخر أنواع التيل والحرير ، ويتكىء على وسائل موشاة بخيوط الذهب ، بينما جواريه يهوين عليه بمراوح من ريش النعام أو يمسحن يديه وقدميه بالبخور أو العطر من خشب الصندل . أما خارج بيته فظل يتظاهر بزهادته القديمة ويلبس جبته ويؤم أتباعه الشغوفين به ، فى الصلوات الخمس كل يوم .

خلف عبد الله التعايشى سيده ، وخلال السنوات الثلاث عشر التالية ، وبرغم المجاعة والجدرى اللذين قتلا ما يزيد على نصف السكان ، احتفظ بالسودان ضد مصر والبريطانيين . وعلى نقيض الدعاية البريطانية السائدة حافظ على القانون والنظام فى كافة أرجاء الأرض الخاضعة للمهديين . وزاد أيضاً أملاكه بالاستيلاء على كسلا وسنار فى الشرق وبالضرب جنوباً فى اتجاه أوغندا . بل إنه ذهب إلى أبعاد بعيدة بأن دعا الملكة فكتوريا وبروح جادة

تماماً ، إلى القدوم إلى أم درمان واعتناق الإسلام والاستسلام له بوصفه المهدى ورسول الله . ولم يسقط قبل عام ١٨٩٩ عند ما غزا الجنرال (اللورد كتشنر فيما بعد) السودان بقوة بريطانية حديثة جبارة من عشرة آلاف من المشاة ورجال المدفعية والفرسان — وكان منهم رجال اشتهروا فيما بعد ، مثل ونستون تشرشل وريجنالد ونجيت ودافيد بيتى . غاب الجيش المهدى على أمره ومزق إرباً عند أم درمان ، وبرغم أن عبد الله فر إلى الغرب إلا أنه أسر فى النهاية وقتل على أيدى قوة بقيادة ونجيت . وبعــــد ذلك حكمت بريطانيا ومصر سوياً السودان فى ظل الإدارة الانجليزية — المصرية مع حاميات بريطانية ومصرية وحاكم عام بريطانى يعينه سوياً العاهل البريطانى والخديو المصرى :

كانت شجاعة الأنصار حتى النهاية داعية إلى العجب حقاً فبرغم أنهم كانوا يواجهون ظروفاً مستحيلة ، قاتلوا فى أم درمان بنفس الشجاعة البالغة التى كان المهدى قد بثها فى نفوسهم . قال مراسل حربى بريطانى عن شجاعتهم ونيران كتشنر تنصب عليهم : « ما من قوات بيضاء كان يمكن أن تواجه ذلك السيل من الموت لمدة خمس دقائق لم تكن معركة ولكنها كانت مجزرة » . وكان تعليق كتشنر ذا طابع عملى أكثر ، عند ما قال : « أخيرا أنقذت البلاد من الطغيان العسكرى الذى بدأ فى حركة من التعصب الدينى منذ تسع عشرة سنة خلت . المهدية الآن شىء ينتمى إلى الماضى ». لو أنه كان يفكر فى المهدية باعتبارها حركة عسكرية ، فقد كان على حق . ولكن باعتبارها رد فعل ضد التسلط التركى المصرى ، فإن قعقعتها ظل صداها يتردد طالما بقيت الصلة مع مصر . وفى عام ١٩٥٢ عندما زار اللواء نجيب رئيس مصر الخرطوم وأثار من جديد مخاوف السودانيين من ضم بلادهم إلى

مصر ، فإن شيعة الأنصار الذين كانوا ما يزالون على قيد الحياة ، استطاعوا بأعمال الشغب الدامية أن يبينوا أن المهدية لم تمت بالتأكيد .

أما عن المهدى نفسه فإن الذين أنصفوه من المؤرخين قلة . فاذ أعماهم العطف على جوردون والإعجاب به ، فانهم صوروه فى الغالب رجلا همجياً تماماً كان يقتل والابتسامة ترسم على وجهه لأنه كان يتلذذ بالقتل ولكن اثنين من أسراه هما فون سلاتين والأب أوهر واندر وهو قس كاثوليكى أسروه من بعثة مسيحية فى كردفان ، أكدا بعد نجاتهما فى النهاية ، أنه كان يفضل التحول إلى الإسلام على القتل وكان مستعداً دائماً للعفو عن ضحاياه إذا اعتنقوا الإسلام . وحتى عندما رفض أوهر والدر واخوانه من رجال الدين التخلى عن عقيدتهم المسيحية لم يقتلهم المهدى على أساس أن القسيسين يجب أن يعاملوا معاملة غير المحاربين . وعلى خلاف « خليفته » عبد الله الذى كان يراقب بنفسه الأسرى وهم يعذبون ، فإن محمد المهدى لم يسىء أبداً معاملة الأسرى الأوربيين، بل كان يسمح لهم بالتجوال فى معسكره كما يشاءون بشرط ألا يحاولوا الهرب . وكان السير ونستون تشرشل وهو من أفراد حملة كتشنر المتحمسين، كريماً إذ يقرر فى كتابه «حرب النهر» أن المهدى بث الحياة والروح فى قلوب مواطنيه ، وحرر السودان من الأجانب ، وأضاف « جلالا رهيباً » إلى حياة المواطنين الفقراء الذين كانوا يعانون من الجوع وشبه عراة. فكتب بعد أن أطلق موت جوردون العنان لطوفان من الغضب فى بريطانيا ، بسنوات قليلة فقط : « . . . لست أشارك فى الرأى الشعبى ، وأعتقد أنه لو قدر فى السنوات المستقبلة ، أن يأتى الرخاء لشعوب أعالى النيل وفى أعقابه العلم والسعادة ، فإن المؤرخ العربى الذى سوف يمعن النظر فى أوائل أخبار ذلك الشعب الجديد ، لن ينس أن يكتب اسم محمد أحمد على رأس أبطال جنسه » .

أن التشابه بين حياة محمد أحمد وأفعاله وحياة النبى وأفعاله تشابه مخالف للمألوف بحيث يوحى بأن المهدى عمل عن عمد على أن يحاكى مؤسس الإسلام. ففى نواحى تقشفه ، بدا أن هناك مناظرة واعية لعناصر قوة محمد . وبالمثل ، ففى القواعد والتنظيمات التى وضعها وفى تعيين « خلفاء » من أقرب معاونيه إليه، كان واضحاً أنه يحتذى تعاليم النبى وأفعاله[1] . ولكن أروع تشابه هو أن المهدى أظهر كما سبق أن أظهر محمد قبل أكثر من ألف ومائتى سنة ، أن شعباً من البدو مسلحاً بالعصبية ، قادر على أن يهزم شعبا من الحضر يعتمد على قوانين القوة البهيمية والتخويف . وكما قال ابن خلدون فى رسالته السوسيولوجية الرائعة عن العرب : « فإذا كان فيهم النبى أو الولىّ الذى يبعثهم على القيام بأمر الله ، ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ، ويأخذهم بجمودها ، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق ، تم اجتماعهم ، حصل لهم التغلب والملك . »

ففى وقت كان لايزال على العالم العربى أن ينتظر يقظته النهائية من جديد ، فان ابنا لأحد صناع القوارب من أرض النيل ، أظهر للعالم كيف أن مجموعة من رجال القبائل العراة ، مسلحين أولا بالعصى والهراوات ، ومسلحين فى داخلهم بالإيمان والوحدة ، يمكن « أن يتوحد ويحقق التفوق » إلى حد هز أعظم قوة على ظهر الأرض .

(١) لم يعين النبى عليه الصلاة والسلام « خلفاء » له ، بل أن الكاتب نفسه لم يذكر شيئا كهذا من قبل . — المترجم .

(٢٢)

الثورة فى الجزائر

اخترع الفرنسيون المثل القائل « لاشىء يدوم كالشىء المؤقت » . وقد كان فى إمكانهم أن يحسنوا هذا القول لوصف احتلالهم الجزائر طيلة مائة عام، وهو الاحتلال الذى بدأ كحملة تأديبية وتطور إلى ضم بلد مساحته تعادل مساحة فرنسا أربع مرات - وهى قصة مسرحية هزلية أصبحت مأساة أولا بالنسبة إلى الجزائريين، وأخيراً وبعد مائة عام للفرنسيين أنفسهم .

بدأت الرواية الهزلية فى عام ١٨٢٧ عندما استثير داى مدينة الجزائر التركى ففقد أعصابه أمام القنصل الفرنسى وهو شخصية تافهة ومشبوهة يدعى ديفال، ولطمه على وجهه بمنشته التى يذب بها الذباب . أبلغ ديفال خبر الحادثة إلى باريس وطلبت الحكومة الفرنسية الترضية . ولكن حسين رفض بصفة قاطعة تقديم اعتذار، وكذلك فعل الباب العالى . عندئذ اتجه الفرنسيون إلى محمد على الذى حسبوا أنه على استعداد للانتقام من السلطان العثمانى الذى خدعه فحرمه من الولاية على الشام . ودعى الباشا إلى إرسال حملة تأديبية إلى مدينة الجزائر ليلقن الداى التركى درسا حتى لا « يلوث» الفرنسيون «أيديهم بمقاتلة الهمج » على حـــد التعبير الذى أطلقه مبعوثهم إلى القاهرة، ولكن محمد عليا كان يعتزم الانتقام من السلطان فى الشام ولم تكن به رغبة فى الاشتباك فى أية مغامرة جانبية بالجزائر . وبعد مايقرب من ثلاث سنوات من التهديدات والدسائس وجد الفرنسيون أنفسهم فى مركز يفرض عليهم إما أن يفقدوا كرامتهم أو أن يقوموا بعملهم القذر بأنفسهم .

فى عام ١٨٣٠ أقلعت الحملة الفرنسية الأولى من مارسيليا فى طريقها

إلى مدينة الجزائر . كانت تتكون من مائة سفينة حربية وخمسمائة ناقلة تحمل ثلاثين ألفا من المشاة يساندهم الفرسان والمدفعية . وبرغم هذا الإستعراض الجبار للقوة كان ثمة جو من البانتوميم يحيط بالعملية كلها لم يبطىء أصحاب النكت الفرنسيون فى استغلاله . فعندما أهدى مار جا الطيار الملكى ، بالونا أسيرا إلى الحملة زعم مخترع أن فى إمكانه تقديم حصن تقالى يمكن تركيبه فى سبع دقائق ! بعد هذا عرض صاحب مقهى فى مرسيليا تقديم فندق عائم لصاحب الحملة ويضم مقاعد يشاهد منها الركاب المعركة ! واقترحت صحيفة فرنسية طريقة لربط شماسى على سونكيات الجنود لتحميهم من الشمس ! .

ولكن سرعان ما تبخر الجو البانتوميمى عندما نزلت الحملة فى مدينة الجزائر فى الرابع عشر من يونيه . جند الداى ستين ألفا من رجال القبائل لقتال الغزاة وطردهم وناشد جيرانه فى تونس وفى مراكش المستقلة أن يساعدوه . ولكن رجال القبائل لم يكونوا متحمسين لإنقاذ الأتراك الذين يضطهدونهم ، وقصر الجيران التونسيون والمراكشيون تأييدهم على الدعاء بنصر المسلمين على الكفار. وانتهى كل شيء فى الرابع من يوليه ؛ فاستولى الفرنسيون على مدينة الجزائر ثم على وهران فى أثرها ، وشحنوا الداى إلى الآستانة ، وملأ الجيش الفرنسى جيوبه مما نهبه من ثروة مدينة الجزائر وكنوزها

وحتى لو كانت نية الحكومة الفرنسية فى الأصل تنظيم غارة تأديبية فقط وتلقين الأتراك درساً فى الأخلاق الدبلوماسية ، فقد كان الأثر المترتب على غزوهم أن تركت الجزائر دون أية سلطة عدا سلطتهم هم ،وبذا لم يكن أمامهم من بديل سوى إقامة حكومة فرنسية مؤقتة . فى أول الأمر تقبل أهل الجزائر من العرب والبربر والقبائل ، الحكم الفرنسى بمزيج من اللامبالاة والارتياح إذ تخلصوا من الاضطهاد العثمانى . ولكن إذا كانوا لم يكترثوا بالفتح الفرنسى الجديد ، فكذلك كانت باريس بالمثل حيث لم تهتم بأن ترسل إلى الجزائر

حكاما ذوى خبرة بالعادات العربية والإسلامية . كانت الحكومة المؤقتة مسألة تثير الأسى . فخلال العامين الأولين كانت أبواب قصر الحاكم تشهد مجىء وخروج جماعات من الأوباش والصادبين إلى أن أشعل أشدهم قسوة وهو الدوق دى روفيجو وكان رئيس شرطة سابقاً فى فرنسا ، نار الثورة فى مدينة الجزائر عندما محا من الوجود قبيلة جزائرية بكاملها انتقاما لحالة قتل أثبتت الأدلة فيما بعد أن أحداً من أفرادها لم يرتكبها .

وبين يوم وليلة نشأت حركة مقاومة جزائرية أعلنت الجهاد ضد الفرنسيين وعينت شيخاً عربياً وقوراً ووليّاً من مسكرة فى غرب الجزائر يدعى محيى الدين ليقـــود الجهاد . إن محيى الدين الذى أعلن أنه من نسل النبى ، اختاره العرب بسبب سجله السابق فى المقاومة التى لا تلين للاحتلال التركى ، فقد سبق أن اعتقله هو وأبنه عبد القادر ، داى وهران التركى فى سنة ١٨٢٥ بسبب استنكاره خروج الأتراك على تعاليم القرآن . ويقال إنه عندما أطلق سراح محيى تراءى له فى المنام ملك من ملائكة الله ، أخبره أن الحكم التركى سوف ينتهى سريعاً وعندما ينتهى فسوف يصبح ابنه عبدالقادر سلطان شمال أفريقية ، فلما طرد الفرنسيون الأتراك من الجزائر انتشر الخبر بسرعة عن رؤيا الشيخ . وقد تحقق الجزء الأول من النبوة بالنسبة إلى مدينة الجزائر ، فسرعان ما لقيت القصة التصديق ، وعندما أعلن « الجهاد » ضد الاحتلال الفرنسى بدا من الطبيعى تعيين والد « السلطان » المختار ليجمع القبائل تحت لوائه ويمهد الطريق لتحقيق ما يتعلق بعبد القادر .

لم يستمر محيى طويلا كالزعيم الأسمى للجزائريين . فاذ كان رجلا مسنا ليس له خبرة عسكرية أيا كانت ، فسرعان ما تنازل لابنه . والآن دعا عبد القادر الذى سمى « أمير المؤمنين » جميع قبائل الجزائر إلى أن يتبعوه فى قضية « طرد والتغلب على العدو الذى غزا بلدنا بغرض أن يضع نير العبودية على أعناقنا » . فعلى غرار مقابله السودانى أى المهدى ، اعتقد عبد القادر أن القبائل

تستطيع إذا اتحدت أن تقضى على الغازى الأجنبى . وكان مثل المهدى يكره الأتراك بمثل ما يكره آخر الغزاة الوافدين من أوربا . لو أنه كان مستعداً للتعاون مع الأنكشارية الأتراك الذين كانوا مايزالون فى شرق الجزائر، لكان من المرجع أن يلقى بالفرنسيين فى البحر . ولكن عبد القادر لم يكن من طراز محمد على . كانت نشأته كابن « زوايا » — المقابل الإسلامى لرئيس دير فى الكنيسة المسيحية ـ صارمة وصلبة الرأى . فمنذ الصغر تعلم أن يكره أبناء الموظفين العثمانيين ممن كانوا زملاءه فى المدرسة وتعودوا أن يعيروه بسبب تقواه ونظراته الجميلة التى تكاد تشبه نظرات المرأة وأنفه الجريسى الدقيق الشكل وحاجبه المرتفع وعينيه الحزينتين الناعمتين . وكان ذوقه الذى يدل على الزهد فى اللباس رد فعل آخر ضد مسلك وعادات حكام الجزائر العثمانيين . وعلى نقيض الحراير الثمينة والشمارات المزوقة التى يلهو بها الأتراك ، كان يرتدى ثوباً خشناً وبسيطاً من القطن أو الصوف ، ونهى زوجه عن أن تلبس شيئاً مصنوعاً من الحرير أو القطيفة . وظل عبد القادر حتى نهاية حياته يرفض رفضا مراً التسامح مع أى شخص أو أى شىء تركى حتى ولو كلفه فى النهاية حرب تحرير الجزائر التى استهلها الآن .

بدأت ثورة الجزائر فى الجزء الغربى من البلاد حيث لم تكن الحاميات الفرنسية قد توغلت بعد . وسرعان ما كان الظهير بكامله الممتد وراء وهران فى أيدى الثوار . كان رد الفعل فى باريس هادئا ومعقولا فى أول الأمر . فاستدعت دى روفيجو وعينت خلفا له أكثر اعتدالا فى مسلكه يدعى ديميشيل Desmichels وزودته بتعليمات تنص على الاحتفاظ بالمناطق التى فتحتها فرنسا والا يخرج لفتح أرض جديدة إذ لم يكن هناك مال للانفاق على توسع جديد أو إرسال قوات أكثر . وإذ رأى عدم جدوى النضال بغير تعزيزات فقد فسر ديميشيل التعليمات الصادرة إليه بأنها تفسح أمامه المجال للتفاهم

مع الثوار . قبل عبد القادر اقتراحه الذى كان يعنى الاعتراف بسلطانه على الظهير الغربى ويعطيه أيضاً فترة لالتقاط الأنفاس يستطيع خلالها أن يعبىء القبائل لهجوم كبير فيما بعد على الأراضى التى يحتفظ بها الفرنسيون .

بعد ذلك بعامين استدعى ديمشيل وأرسل قائدان فرنسيان هما درلون D'Erlon وتريزل Trezel لتولى الأمر فى مدينة الجزائر ووهران . بدأ درلون بتحذير الثوار من التوسع فى وسط الجزائر . ولما كان هذا هو بالضبط ما كان يخطط له عبد القادر إذا تجمع لديه القوة الكافية ، كان من الضرورى إزالة شكوك غريمه مهما تكلف الأمر . وبناء على ذلك أرسل عضو يهودى ماكر من أتباع حركته ، يدعى بن دوران ، للاتصال بالحاكم العام الفرنسى الجديد . نجح بن دوران بدهائه فى كسب ثقة درلون بحيث أصبح فى ظرف أسابيع قلائل الرفيق الدائم للفرنسى ، يشاطره الشراب والعشاء بالليل ، ويملأ أذنيه الساذجتين بتأكيدات عن أن عبد القادر يمكن الاعتماد عليه فى عدم إثارة المتاعب للفرنسيين فى المناطق التى فتحوها . بل وتشجع عبد القادر بحيث اقترح على درلون تقسيم الجزائر رسمياً بينهما ، فيحتفظ الفرنسيون بمدينة الجزائر ووهران ويحتفظ عبد القادر بالظهير الممتد وراءهما . ولكن بينما كان درلون يفكر فى هذا الاقتراح ، خرق زميله فى وهران وهو الجنرال تريزل ، الهدنة بأن وضع تحت حمايته قبيلتين كانتا قد رفضتا الانضمام إلى الثوار . جادل عبد القادر قائلا ان شروط الاتفاق تتضمن نصاً يقضى بأن يسلم إليه من يهربون منه ؛ ولكن تريزل عمد إلى المحاكمة فزعم أن هذا لا يشير إلا إلى الأفراد وليس إلى قبائل بأكملها رفضت الاعتراف بسلطان عبد القادر .

وفى النهاية حل الإشكال فى موقعة دامية فى ممر ما كتا الجبلى القريب من الساحل، فى يونيه ١٨٣٥ عندما وقعت قوات تريزل فى كمين. وبرغم أن خسائر الجزائريين بلغت ١٨٠٠ قتيل مقابل ٢٥٠ فرنسى فحسب، إلا أنهم أرغموا أعداءهم على القرار الشائن إلى وهران. وعلى الفور ارتفعت الأصوات فى فرنسا تطالب بالانتقام لهذه الهزيمة المذلة. فاستدعى درلون وتريزل، وفى أغسطس وصل الماريشال لكوزل إلى مدينة الجزائر ومعه أوامر بتحطيم عبد القادر، والقوات والأموال اللازمة لأداء المهمة.

ولو كانت الأوامر الصادرة إلى لكوزل لم تتضمن الملحق الإيضاحى الحذر بأن لايحاول التمسك بأراض جديدة، لجاز أن نجح فى سحق الثوار. فبقوة مدربة تدريبا جيدا ومسلحة تسليحا قويا، تتكون أحد عشر ألفا من الجنود النظاميين، وخر الجزائريين أمام مسكره عاصمة عبد القادر. ثم واصل السير للاستيلاء على تلمسان المدينة الرئيسية فى غرب الجزائر، وهناك فرض على الأهلين ضريبة قدرها ١٥٠٫٠٠٠ فرنك لتغطية تكاليف الحملة. ولكن لكوزل المقيد بالأوامر المعطاة له، راح الآن ينفس فى بعض تفكير خطر مبنى على التمنى؛ فأعلن أن ثورة عبد القادر تحطمت وقواته تشتتت، ثم انسحب إلى وهران حتى قبل أن جمعت الضريبة.

كان خطأ سيئا فى الحساب. حقيقة تخلت القبائل عن عبد القادر بعد سقوط مسكره، وانسحب « السلطان » إلى الصحراء مشيعا بالإهانة من خدامه الذين وصفوه بأنه قصبة مكسورة. ولكن عندما انتشر الخبر بأن الفرنسيين رجعوا إلى قاعدتهم، تجمعت القبائل وتوسلت إليه أن يحمل السلاح ويقودهم مرة ثانية. وبرغم ماسببه هؤلاء الأصدقاء المتقلبون من القرف والسأم لعبد القادر

فإنه وافق على كره منه وتحرك بسرعة وفى صمت كما لو كان واحدا من أشباح الصحراء ، إلى شليف وهى المحافظة الوسطى فى الجزائر . ثم انقض على السهول الساحلية ووراءه حشد من رجال القبائل ، واستولى عنوة على ميديا التى تقع على بعد ميلاً جنوبى مدينة الجزائر وشنق الداى المعين من قبل الفرنسيين ، باعتبار أنه خائن .

الآن أدركت باريس أخيراً أن الفترة « المؤقتة » قد انتهت . كان على فرنسا إما أن تنسحب من الجزائر وتقبل ذل الهزيمة على أيدى « الهمج » ، أو أن تنفق ما قد يحتاج إليه فتح البلد بكليته ، من وقت ومال وقوات وإذ استقر الرأى على الدخول فى مواجهة، بعثت الحكومة الفرنسية بالجنرال بيجو ليتولى القيادة العليا للعمليات الفرنسية فى الجزائر على أن يكون لكوزل المرؤوس المباشر له . كان بيجو من المحاربين الذين اشتركوا فى حرب شبه جزيرة ايبريا، وكان رجلا عملاقا، وبدا شبيهاً بأصله إذ كان ابن حداد . فى البداية الأولى لحلته كاد ينجح فى أسر عبد القادر . ولكن قبل أن يتمكن بيجو من متابعة الميزة التى حققها ، وجهت ضربة أخرى إلى الاحتلال الفرنسى سوف تحدث تحولا جديدا ومفزعاً فى السياسة الفرنسية . فقد منى لكوزل السيء الحظ ، بنكبة وهو يحاول إخراج الأتراك من قنسطنطين وهى آخر معقل تبقى لهم . فبسبب جهله بأرض أو موقع هذه المدينة الحصينة والمنيعة تقريباً ، خسر لكوزل نصف قوته المكونة من ثمانية آلاف ، فى هذه المغامرة الانتحارية وأعيد هو نفسه إلى فرنسا مجللا بالعار .

حولت باريس الآن أهدافها . فأعطيت الأولوية لاسترجاع الكرامة الفرنسية التى ضاعت فى قنسطنطين ؛ وعلى ذلك صدرت الأوامر إلى بيجو

بعقد هدنة مع الجزائريين الثوار ؛ بينما وجه الفرنسيون اهتمامهم العسكرى ضد الأتراك :. كان عبد القادر سريعاً فى الإحساس بما هو فيه من موقف سيء وأجبر بيجو على أن يعترف بسلطان على جميع غرب ووسط الجزائر ، فيما عدا وهران ومدينة الجزائر ومنطقة صغيرة حول المدينتين . أما جميع المدن الأخرى الواقعة على سيطرة الفرنسيين فسلمت إلى الثوار وأمكن لعبد القادر من أن يزعم الآن أنه حاكم على ثلاثة أرباع الجزائر .

وحتى كوسيلة لتأمين جناحهم بينما يعالجون أمر قسنطنطين فقد كان إتفاقا خارجا عن المألوف بالنسبة إلى الفرنسيين وإذلالا أدعى إلى العجب بالنسبة إلى قائدهم العام فى الجزائر . وأوحت بعض التقارير اتفاق أملته حقيقة كون بيجو قد أصبح نائبا فى البرلمان الفرنسى يمثل دائرة انتخابية جزائرية وأنه أراد الإقامة بصفة دائمة فى شمال أفريقية . ولكن بالنسبة إلى رجل له شهرة بيجو كجندى ، فإن هذا التفسير يصعب أن يكون صحيحا . والأكثر احتمالا أن الفرنسيين حسبوا أن فى إمكانهم القضاء على الأتراك والانقلاب على عبد القادر قبل أن ينتشر خبر الهدنة المذلة بعيداً بحيث تصيب السمعة الفرنسية بضرر دائم إلا أنهم هنا وأخطأ الحساب مرة ثانية . فأولا ، انقضى أكثر من أربع سنوات قبل أن استطاعوا أن يلموا شعهم ليوجهوا ضربة حاسمة إلى الثوار الجزائريين وثانيا أخفقوا فى أن يعملوا حسابا القدرة عبد القادر على أن يستفيد إلى أقصى حد من الإذلال الفرنسى باستعراض المهارة فى اللعب سوف يرن فى جميع أرجاء الجزائر .

فبعد أن رتب لقاء مع بيجو فى الصحراء خارج وهران للاحتفال بالتوقيع على الاتفاق بينهما ، وصل عبد القادر أولا متأخراً عن الموعد وأبقى الفرنسى

ينتظره يوماً بأكمله ، ثم توقف على مسافة من مكان اللقاء الذى عيناه وبهذا أجبر بيجو على المجىء إليه ، وبالاتفاق المتبادل لم يأت الفرنسى معه إلا بحرس صغير بينما كان عبـــد القادر محوطا بحشد من خمسة عشر ألف فارس تلمع صفوفهم ، وفدوا من كل قبيلة متحالفة معه ، ليشهدوا أمام رفاقهم كيف أُذِل القائد الفرنسى أمام « سلطانهم » . وإذ راحت القوة الفرنسية الضئيلة تقترب من الاستعراض الكبير الذى يحيط بعبد القادر ، تصرف بيجو على نحو يخدم مصالح خصمه . فهو إذ أدرك بعد الأوان كثيراً أنه قد وقع فى فخ ، وخوفا من الغدر ، ترجل من فوق حصانه ، وأمام رجال القبائل الثوار ناشدهم بأسلوب ذليل تقريبا الاستجابة إلى العقل . استهل حديثه بقوله أنه تجاوز كثيراً حدود تعليمات حكومته فى التنازلات التى قدمها إلى الثوار ، راح يعبر عن الأمل فى أن يتمكن عبد القادر فى منزلته ومركزه الجديد ، من المحافظة على السلام والاتجار مع فرنسا . كان هـذا كلام عدو مهزوم ، وتقبله عبد القادر على أنه كذلك . وإذ لا يزال واقفا بجانب جواده نظر بازدراء إلى بيجو الذى أصيب بالإذلال ، ولاحظ فى مرارة أن السلام إذا خرق فلن يكون الخطأ منه . ثم لوى عنان جواده وعاد ومعه جيشه ، تاركا القائد العام الفرنسى واقفاً وسط سحابة من الغبار .

بهذا النصر الأدبى العظيم الذى ظفر به عبد القادر ، شرع فى تطويق القبائل التى لم تـكن قد أعلنت انحيازها إليه بعد . انضم إليه الآن معظم المتخالفين دون تردد . ولـكنه عامل الأقلين الذين لم ينضموا ، بقسوة جديدة وغير عادية ، إذ أمر بإعدام كل شىء يتلـكأ . كان من قوة تصميمه على أن ينضوى الـكل تحت لوائه ، أنه قضى ستة أشهر يحاصر قبيلة معينة ولم يمن بالحياة إلا على واحد فقط من رؤسائها بناء على توسلات أطفال المحـكوم

عليه . لكن ، إذا كانت أساليبه بدائية أحيانا فقد كان يمليها الاقتناع بأن الهدنة حيلة فرنسية لكسب الوقت وأن الفرنسيين سوف يخرقونها حينما يناسب هذا غرضهم .

وسرعان ما ثبتت دقة هذا الحساب . استولى الفرنسيون على قسنطنطين فى أكتوبر ١٨٣٧ ؛ وبعد أقل من سنة أدعوا حقهم فى كل منطقة القبائل » وهى الأرض الواقعة بين مدينة الجزائر وقسنطنطين . رد عبد القادر فى غضب وبعنف أن اتفاقه مع بيجو يقصر الأرض الفرنسية شرقى مدينة الزائر على نهر كدارة الذى يبعد مائة ميل ، وبعبارة أخرى يقصرها على ثلث ما يدعيه الفرنسيون الآن . اضطر بيجو إلى التسليم بأن عبد القادر على حق . ولكن بيجو كان قد حل محله فى وظائفه السياسية المارشال فاليه وهو استعمارى طموح لا يتورع عن أى شىء فى سبيل مد نطاق ممتلكاته . وإذ كان عبد القادر يدرك أن من الصعب توقع العدل من ممثل من هذا القبيل ، وجه نداء صريحا إلى ملك فرنسا جاء فيه : « لست من الغفلة بحيث أن أتصور أنى أستطيع أن أتقدم علانية ضد قواتكم » — برغم ثقل أعداد الجزائريين لم يكن لديهم سوى أربع مدافع — « ولكن يمكننى أن أضايقهم بلا انقطاع . لن يكون هناك أمن المستعمرين .. سوف يراق دم جنودك عبثا ؛ سوف تكون حربا حتى الموت » . وحتى نداءه متسائلا عن السبب الذى من أجله لا يجب أن يعيش المسيحيون والمسلمون جنبا إلى جنب ، كل فى الأرض المحددة فى الميثاق المعقود مع بيجو ؟

لم يتوقع عبد القادر تماما النتيجة المتوخاة ، وبالفعل لم يبعث لوى فيليب برد على رسالته . ولكن فاليه بعث برد ، بأن أمر الجيش الفرنسى فى الجزائر

بالقيام بمظاهرة يقودها دوق أورليان ابن الملك ، لتأكيد سلطة الفرنسيين على المنطقة المتنازع عليها . اعتبر « السلطان » هذه الحركة اعلانا بالحرب وأطلق قوة من العرب وأهل « القبايل » من التلال المطلة على مدينة الجزائر، فأحرقت ونهبت المزارع والمستوطنات الفرنسية على حدود المدينة وقتل أصحابها أو طوردوا حتى أبواب الجزائر . ولكن هذه المبادرة الجزائرية كانت قصيرة الأمد . هاج الرأى العام الفرنسى ضد الإدلال الذى انطوى عليه اتفاق بيجو ، فأرسلت تعزيزات قوية إلى فاليه الذى ما أن حل مارس ١٨٤٠ حتى كان تحت أمره جيش بقرب من ستين ألفا من الجنود النظاميين المدربين تدريباً عالياً . وفى أبريل زحف هذا الجيش على المواقع الجزائرية، وبعدمعركة دامية استرجع ميدية ومليانة حيث قُتل ثلثا الحامية الجزائرية .

اشترك بيجو الآن فى المطاردة وقد أثار غضبه ما عمد إليه الجزائريون من قتل المستوطنين الفرنسيين حول مدينة الجزائر . وبعد أن أعلن بطريقة وحشية أن « العرب يجب القضاء عليهم ، ويجب أن يكون عَلَم فرنسا هو العلم الوحيد الذى يرفع فوق هذه الأرض الأفريقية » قاد جيشا من ثمانية وسبعين ألفا إلى غرب الجزائر، ودحر رجال عبدالقادر واسترد مسكره وعاصمته الجديدة تجدمى Tagdemi . مرة أخرى انسحب عبد القادر إلى التلال بالصحراء . جاء عليه الدور الآن ليناشد بيجو أن يستجيب إلى العقل . وسأل عما يأمل هو وتأمل فرنسافى كسبه من هذه الحرب؟ « سوف تزحف إلى الأمام وسوف نسحب ، ولكن سوف تجبر على الانسحاب وسوف نعود ... سوف نصيب قواتكم بالإعياء ونضايقها ونقضى عليها بالتدريج ، وسوف يتكفل مناخنا بالباقى . أرسل رجلا مقابل رجلا ، وعشرة مقابل عشرة ، وألفا مقابل ألف ،

وسوف ترى ما إذا كنا ننكص على أعقابنا . ألا ترى الموجة ترتفع عندما يلمسها طائر بجناحه ؟ هذه هي صورة مروركم فوق أفريقية » نظراً لأن إقناع البرلمان والشعب فى فرنسا بصدق هذا التحذير ، احتاج إلى يزيد على مائة عام من الكراهية وإراقة الدماء وإلى رجل مثل شارل ديجول ، فليس مما يبعث على الدهشة أن منطق هذا الإنذار فات فى عام ١٨٤٠ قائداً فرنسياً خرج يسترد سمعته كجندى ، وأكثر من هذا ، فات شعباً فرنسياً يتلوى بالألم . وفضلا عن هذا ، عادت القبائل فى هذا الوقت تنفض من حول عبد القادر ، ولم يسفر نداء بطلب المساعداة وجه إلى سلطان مراكش إلا عن رسالة من التمنيات الطيبة لأبناء عمومته الجزائريين . كان أقصى ما يعمل السلطان أن يغمض العيش عن التجاء عبد القادر إلى مراكش عندما استولى الفرنسيون فى يناير ١٨٤٢ على تلمسان آخر معاقله .

من مراكش شن عبد القادر سلسلة من غارات جريئة فى محاولة يائسة لتجميع القبائل . ونشر الشائعات بأن مراكش انحازت إلى قضيته؛ وأن انجلترا أعلنت الحرب على فرنسا ، وأن القوات الفرنسية من ثم يجرى سحبها . ونظم عاصمة متنقلة ليتخذ منها مقراً لقيادته فى أثناء المعارك وكى يقيم فيها ستون ألفا من رجال القبائل وعائلاتهم. ولكن هذا تحطم فى مايو ١٨٤٣ بفعل هجوم مفاجىء قام به الفرسان الفرنسيون وتابع الفرنسيون هذا النجاح بأن استصدروا فتوى من « علماء » القاهرة تحل أية قبيلة تنضم إليهم من اللعنة التى كان عبد القادر يصبها على من يخرجون عليه .

وببدء عام ١٨٤٤ كان عبد القادر قد تخلى عنه الجميع باستثناء قلة من المخلصين ، وتحرك بيجو الآن سعياً وراء القضاء نهائيا. فشق طريقه إلى مراكش واكتسح دوريات حرس الحدود من أمامه ، وطالب بتسليم عبد القادر .

واذ راحت السفن الحربية الفرنسية تطلق نيرانها أيضاً على طنجة وموجا دور، تحرك سلطان مراكش فى النهاية إلى العمل وأعلن الحرب على فرنسا . ولكن فى ظرف أسابيع قليلة اندحر جيشه بأسره على أيدى قوة فرنسية من ستة آلاف ، وانتهى تظاهره المتأخر بالتضامن العربى ، بأن التمس الصلح ووافق على حرمان الزعيم الجزائرى من حماية القانون .

رأى عبد القادر الآن أن الموقف ميئوس منه إذ الجميع ضده ، فعرض تسوية يحكم بموجبها كتابع لفرنسا ويدفع الجزية ويقدم رهائن ضمانا لحسن سلوكه . ولكن الفرنسيين لم يكونوا ليقبلوا ما يقل عن التسليم بلا قيد أو شرط . فرفضوا شروطه ، وفى محاولة لإرهاب أتباعه السابقين حتى يسارعوا إلى الإستسلام ، بدأ الجيش الفرنسى سلسلة أعدت بعناية ، من الفظائع ضد القبائل ، فيهدم معسكراتهم ويحرق سكانها أحياء . ولكن هذه التكتيكات الإرهابية كانت نتيجتها على عكس ما قصده الفرنسيون ، وفى ربيع ١٨٤٥ حدثت موجة جديدة من الثورات بطريقة تلقائية فى جميع أرجاء الجزائر . غادر عبد القادر مخبأه فى مراكش ، وبعد أن جمع حوله جيشاً آخر توغل حتى بلغ شليف ، طارده الفرنسيون ، ولكن « السلطان » كان يختفى دائماً كالشبح قبل أن يلحقوا به . كان من القدرة على المراوغة بحيث انهار ثلاثة من القواد الفرنسيين بالميدان ومات اثنان منهم نتيجة المطاردة . لقد سبق أن كتب إلى بيجو : « سوف نصيب قواتكم باعياء ، وسوف يتكفل المناخ بالباقى » .

ولكن إذا كان الفرنسيون فى الجزائر قد أعيتهم مطاردة « السلطان » فإن باريس لم تكن كذلك . أخذت التعزيزات تتدفق ، وكان ثلث الجيش الفرنسى بأسره — أكثر من ١٠٠٫٠٠٠ رجل — مشتبكا فى مطاردته .

كانت الشبكة تطبق عليه ببطء ولـكن بلا هوادة . كان قواد عبد القادر يقتلون أو يؤسرون ، الواحد تلو الآخر ، وانسحب مرة أخرى ليختبأ فى مراكش . وخوفاً من أعمال الثأر من جانب الفرنسيين أمر سلطان مراكش بالقبض عليه أو إخراجه من البـلاد . وفى ديسمبر ١٨٤٧ وكانت القوات المراكشية تزعج عبد القادر ، عبر الحدود ليجد نفسه على الفور وقد أحاطت به القوات الفرنسية . وفى أسلوب الفيلسوف خاطب الأتباع القلائل الذين وقفوا بجانبه حتى النهاية ، فقال : « انتهى النضال وعلينا أن نذعن . إذا كان الله لم يمنحنا النصر فلأنه ظن من المناسب أن تـكون هذه الأرض تابعة للنصارى .. يجب أن نذعن » .

وعند استسلام عبد القادر تعهد له الحاكم العام الجديد شخصياً ، دوق دومال وهو ابن آخر للوى فيليب ، والقائد العام الجنرال لاموريسيير الذى خلف بيجو حديثاً ، بإرساله إلى بلد إسلامى يقضى فيه بقية حياته . ربما تجاوز دومال سلطته من باب الإعجاب بأسيره والعطف عليه ، والذى كتب عنه إلى وزير الحربية « لا أستطيع أن أخفى إلى أى حد بعيد تأثرت بعزة نفسه وبساطته . لقـــد لعب دوراً عظيما فارتفع وسقط الآن فهوى . لم يطلق أى شكوى ولم ينطق بكلمة واحدة تنم عن الأسف . . لقد وعدته بأن الماضى سوف ينسى تماماً » . ولـكن وزير الحربية لم يكن سوى تريزل الذى لم يكن لينسى الهزيمة المذلة التى أصيب بها على أيدى « السلطان » الثائر فى ممر ماكتا الجبل . فعند وصول عبد القادر وحاشيته إلى طولون قبض عليهم وأودعوا السجن فى حصن من حصون الجيش . عبثاً احتج أن ابن الملك نفسه قد وعد بإرساله إلى بلد إسلامى . لقد ظفر تريزل بتأييد الملك له فى سجن عبد القادر فى فرنسا

غير أن احتجاجات عبد القادر وخزت عدداً من الضمائر الفرنسية من

بينها ضمير بيجو الذى كتب يحاول إقناعه بأن يعيش بمحض اختياره فى فرنسا . وأجاب عبد القادر بما تميز به من الصلابة : « لو أمكن أن توضع جميع كنوز العالم فى ذيل برنسى ووضعت فى الميزان مقابل حريتى لاخترت حريتى . لست أطلب مِنّة ولا فضلا ، ولكنى أطلب تنفيذ التعهدات التى قطعت معى . . . لن أعيد إليكم كلمتكم ، ولكن سأموت معها فتحملون العار » . ولكن فى سنة ١٨٥٢ حدث تغيير فى نظام الحكم فى فرنسا ، جاء معه بتغيير فى المشاعر من ناحية الزعيم الجزائرى . طرد لوى نابليون أسرة البوربون ؛ وفى أكتوبر حظى عبد القادر بزيارة من الأمير — الرئيس الذى نُصِّب حديثاً . أبلغ لوى نابليون فى تواضع أسيره أنه أحس بقلق كبير لأن فرنسا نكثت بوعدها له لمدة خمس سنوات وأنه سوف يطلق سراحه ويرسل إلى تركيا . غلب الفرح والامتنان على عبد القادر فتطوع بضمان مكتوب « بأن لا يعود أبداً إلى الجزائر أو يفعل شيئاً يناقض الثقة التى وضعت فيه » .

وعند إطلاق سراح الثائر السابق أخذ إلى باريس حيث كان طيلة أسبوعين موضع التعظيم والتمجيد من مجتمع فرنسى كان قبل ذلك بسنوات قلائل فقط يزأر مطالبا بدمه . أقيمت حفلات الرقص ومسرحيات الأوبرا والعروض العسكرية تكريما له ، وحتى يعلو فوق كل هذا التحول الساخر فى الأحداث أصر عبد القادر على أن يصوت فى انتخاب نوفمبر لصالح أن يصبح نابليون امبراطورا . وفى الشهر التالى سافر إلى تركيا حيث رتب له الامبراطور الفرنسى الجديد معاشاً سنوياً .

هزمت الجزائر وأصلح لوى نابليون بعد الأوان بعض شرف فرنسا المطلخ . ولكن كان مايزال مقدرا لعبد القادر أن يكتب ملحقا لهذه القصة من المأساة والقدر ، وهى القصة التى سوف تنافس المثل الذى ضربه صلاح الدين . لم يكن من غير الطبيعى أن تكون حياته فى تركيا قصيرة ومزعجة فى آن واحد .

فشعورا بالغيرة من أن يظفر رجل عربى فحسب مثل هذه الشهرة لنفسه ، استقبله الأتراك ببروسة . فبعد إقامة سنوات قلائل طلب عبد القادر من لوى نابليون الإذن بنقل محل إقامته من بروسه إلى دمشق ، وتم له ما أراد .

كانت الشام فى هذا الوقت تمر بفترة من الصراع الدينى . فمنذ أبعد اللورد بالمرستون ما كان لحكومة إبراهيم من تأثير سمح يعمل على تحقيق الوحدة ، انتهجت السلطات العثمانية فى الشام سياسة « فرق تسد » فتحرض المسلمين على ارتكاب العنف ضد المسيحيين كوسيلة رخيصة لنيل الحظوة عند الأغلبية وتحويل الاهتمام عما تتصف به هذه السلطات من سوء الإدارة . ففى عام ١٨٦٠ وبعد أربع سنوات من استقرار عبد القادر فى دمشق ، حرض الوالى التركى على مذبحة رهيبة ضحيتها المسيحيون — من العرب فضلا عن المواطنين الأجانب لم يتردد عبد القادر لحظة فتوجه مع حرسه الجزائرى مباشرة إلى قنصليات فرنسا والدول الأوربية الأخرى وصحب معه إلى داره وتحت حمايته ، القناصل والموظفين العاملين فى هذه القنصليات وجميع المسيحيين الذين كانوا قد احتموا بها . ثم توجه إلى الحى المسيحى حيث كانت تجرى أسوأ أعمال القتل . هنا راح هو وأتباعه ينتزع — بالمعنى الحرفى للكلمة — النصارى من أيدى القتلة ويسوقهم تحت حمايته إلى ما يوفره لهم بيته من الأمان . وعندما بلغت جملة الذين أنقذوا حوالى أربعة آلاف زحفت الجموع الهائجة على بيته وهددت بالاستيلاء عليه إذا لم يسلم إليهم المسيحيون الذين فى داخله . فواجههم عبد القادر بلا خوف . وراح وقد استشاط غضبا ، يذكر لهم كيف حارب خمس عشرة سنة لنصرة حقوق المسلمين واستقلال العرب ، ثم استعاد بكلمات القرآن المقدسة فاتهم الغوغاء الذين كانوا يزعقون بصوت مرتفع بأنهم جبناء وسفاكين كان الأمر كما لو أن ما فعله الحجاج بن يوسف فى مسجد الكوفة قد تكرر ،

وكان ذا أثر فعال مثله . تفرقت الجموع ، وعندماهدأت المشاعر عرض عبدالقادر خمسين قرشا مقابل كل مسيحى يؤتى به حياً .

بهذا المزيج من الشجاعة والرشوة أنقذ أكثر من أثنى عشر ألف شخص من القتل . هذا العمل الشجاع من جانبه تجاوبت أصداؤه فى جميع أرجاء أوربا . فرفع لوى نابليون أرزاقه ومنحه وسام اللوجيون دونير من درجة الصليب الكبير . وانهالت عليه أوسمة ومظاهر تكريم مشابهة من جانب قيصر الروسيا وملك كل من بروسيا واليونان . أصبح فى أعين الدول المسيحية شخصا لا يمكن أن يرتكب خطأ . بل وجرى اقتراح فى باريس بتعيينه نائبا عن الملك فى الجزائر . ولكن كان من الحكمة بحيث يجعل من المعروف أنه سوف يعتذر من قبول مثل هذا المنصب لو عرض عليه ، ذلك أنه كان قد تشبع بالأساليب الغربية بحيث لا يستطيع أن يقيم من جديد فى وطنه المتخلف ثقافيا . وخلال السنوات العشرين من حياته عاد إلى حياة الدرس والعلم التى كان قد تربى فيها ، ونعم بصحبة البريطانيين المتخصصين فى الشئون العربية ، من أمثال ريتشارد ميرتون وتشارلز دوتى ، وحرر وأخرج مؤلفات المفكر العربى الأثير لديه وهو محيى الدين بن عربى ، ودفن بجوار قبر الأخير عندما توفى فى مايو ١٨٨٣ .

ويرغم ما سببه عبد القادر للفرنسيين من الإزعاج والمضايقة طوال خمسة عشر عاما ، فإنه أخفق فى الظفر بالاستقلال للجزائر ، من جهة لأنه واجهته عقبات طاغية وأبى أن يطلب العون من الأتراك ، ومن جهة أخرى كانت القبائل تفتقر إلى صفة « العصبية » التى كان يمكن أن تجمع بينهم فى حال الهزيمة . لقد قدر لرجال آخرين أن يحملوا ألوية القومية العربية ويسيروا بها إلى انتصارات فاقت بكثير من حيث أثرها ، كل ما أنجزه لكن لا يستطيع أحد جاء بعده أن يزعم أنه أظهر مثالا أكثر بهاء ، عن الشهامة فى النصر ،

والشجاعة فى وقت الشدة ، وكرم الأخلاق أفراء من ارتكبوا مثل هـــذا الظلم الأليم ضده وضد قومه. لو أن بريطانيا وفرنسا بعد أن تحطمت الامبراطورية العثمانية نهائيا فى عام ١٩١٨ ، تصرفتا إزاء العالم أن العربى بنفس الحلم والفهم بدلا من أن تسترشدا بالجشع وشهوات الامبراطورية ، لما كان ثمة حاجة أبدا الدماء التى أهرقت والدموع التى أذرفت مما كتبه نصف القرن الأخير من التاريخ العربى .

(٢٣)

الشيوخ والشباب من الأتراك

بينما كان عبد القادر والمهدى يحاولان بطريق الثورة السافرة أن يطرحا نير تركيا وفرنسا وبريطانيا حول أطراف العالم العربى ؛ كانت قد بدأت فى مركزه أن دمشق ، أول اضطرابات تنبىء عما سوف يصبح اليقظة العربية الصحيحة من جديد . يكاد ألا يثير الدهشة أن الثورة الوليدة جرى حملها فى أحشاء الشام لا مصر . فمن جهة كانت الشام منطقة شغب وصدام منذ أن توقفت عن أن تكون مركز الخلافة . ومن جهة أخرى ، وبفضل الحكم المستنير الذى أقامه إبراهيم باشا فيما بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٤٠ خرجت سوريا ولبنان وفلسطين من العصور المظلمة ، وبلغت بانتصاف القرن التاسع عشر درجة من التطور الفكرى نافست الدرجة التى وصلت إليها مصر . وفضلا عن هذا ، مكلما تقدم القرن أصبحت مصر مشغولة بصورة متزايدة بمشكلات علاقتها الغريبة مع تركيا وبريطانيا ، ومن ثم زادت عزلتها عن شئون أبناء عمومتها العرب .

كان إبراهيم قد شجع الإرساليات المسيحية الغربية من الجزويت والبرزبتيريان ، وشجع رجال التربية الغربية ، على الإقامة فى المشرق . كذلك أقام نظاماً من المدارس الإبتدائية الإسلامية فى جميع أرجاء البلاد ، بالإضافة إلى ثلاث كليات ثانوية فى دمشق وحلب وانطاكية لتنمية تدريس اللغة العربية والأدب العربى اللذين كانا قد تدهورا بصورة محزنة فى ظل الاحتلال التركى . من هذه البدايات قدم رجال التربية والتعليم إلى سوريا من كافة أرجاء العالم الغربى بما فيه الولايات المتحدة التى أرسلت إيلى سميث Eli Smith (ودانيل بليس

Dusis ablis بعد ذلك) لإنشاء مدرسة ق آبى Abey فى جبال لبنان (وهى المدرسة التى تطورت فيما بعد فأصبحت الجامعة الأمريكية ببيروت ، التى اشتهرت فى العالم أجمع) . وفتحت الإرساليات مدارس أخرى فى بيت المقدس وبيروت وزحلة فى أجزاء أخرى من لبنان . ولعلاج النقص فى الكتب الدراسية العربية استوردت الإرساليات مطابع خاصة بهـــا ، ومن أجل زيادة العدد الصغير بشكل يدعو الأسف ، من المدرسين المؤهلين جعلوا من المدرسة التى أنشئت فى آبى لـكلية لتخريج المعلمين .

فلما أجبر إبراهيم على الخروج من الشام سنة ١٨٤٠ قضى الأتراك على المدارس والـكليات الإسلامية التى أنشأ . ولـكن خوفاً من ردود الفعل الغربية لم يجروا على أن يأمروا بإغلاق مدارس الإرساليات الـكاثوليـكية والبرزبترية الوافدة من وراء البحار . ومن ثم زادت الأخيرة عدداً وتعوذاً مما عاد بالنفع على العرب المسيحيين ، بينما لم تتوافر مدارس حديثة للمسلمين والدروز البؤساء. وعلى ذلك العرب المسيحيون هم أول من أثار الوعى العربى النائم إذ فى ذلك الوقت كانوا هم وحدهم الذين فى أيديهم مفتاح كنوز الأدب والتاريخ العربى، وأن كان هذا لابد أنه كان مصور كدر وضيق لأتباع الإسلام .

من المعلمين العرب المسيحين فى هذه الفترة برز اثنان من المثقفين الشبان هما نصيف اليازجى وبطرس بستانى . ولد اليازجى فى عام ١٨٠٠ من أبوين لبنانيين فقيرين ، وراح يحصل كل ماقدر عليه من التعليم بأن علم نفسه من المخطوطات الموجودة فى مـكتبات دير الموارنة . ولـكن بفضل ما أوتى من عبقرية وطاقة على العمل ، استطاع بهذه الطريقة الشاقة والمراهقة أن يـكشف عن افضل الأدب العربى ولـكما أكب على عمله أصبح وقد تملـكته رغبة فى إحياء أمجاد التاريخ العربى الماضية . وبدأ بـكتب وشعر متدفقين ومؤثرين ، عن الحاجة إلى نفس تلك الوحدة بين العرب من جميع الأديان ، وهى الواحدة التى ساعدت على أن جعلت من أسلافهم أمة عظيمة فى الماضى . وباعتباره

حجة فى التاريخ والأدب العربى أخذته الإرسالية الأمريكية التى كان يرأسها إيلى سميث ، وأصبحت المؤلفات التى صنفها لهم ، وظلت بعد وفاته بوقت طويل ، الكتب الرئيسية فى تدريس اللغة العربية .

وفى لبنان أيضاً ولد بطرس بستانى فى عام ١٨١٩ ؛ ولكن على خلاف اليازجى تمكن بفضل المنح الدراسية من أن ينعم من سن العاشرة بتعليم طيب فى كليات مارونية مختلفة . كان لغوياً بارزاً ، يتقن ثمانى لغات بالإضافة إلى العربية ، واستخدمه أيضا رجال الإرساليات الأمريكية ، وفى سن الحادية والعشرين بدأ التدريس والترجمة فى مدرسة إيلى سميث فى آبى . كان إنتاجه المدرسى غزيراً فاشترك مع اليازجى وغيره فى ترجمة الإنجيل إلى العربية ووضع قاموساً للغة العربية وموسوعة عربية . وبعد مذبحة المسيحيين فى عام ١٨٦٠ [١] أسس أول مجلة سياسية تظهر فى سوريا ، وفيها دافع طويلا وبحماس عن التسامح والتفاهم بين المجموعات الدينية ، وعن العلم الذى يؤدى إلى الاستنارة ويضع نهاية للتعصب .

إلا أن هم مناشط البستانى واليازجى جميعاً وأشدها تأثيراً كان تكوين جمعية أدبية فى عام ١٨٤٧ اقتصرت عضويتها فى أول الأمر على المسيحيين ثم نمت بعد ذلك بعشر سنوات وتحولت إلى جماعة عرفت باسم الجمعية العلمية السورية . وكانت تضم ١٥٠ عضواً جرى اختيارهم من القادة المثقفين فى صفوف المسلمين والدروز والمسيحيين . ولاحظ جورج أنطونيوس فى كتابه « يقظة العرب » أن « إنشاء الجمعية كان أول مظهر خارجى لوعى قومى جماعى ، وتكمن أهميتها فى التاريخ فى أنها كانت مهد حركة سياسية جديدة ... يمكن القول أن الحركة القومية العربية أطلقت صيحتها الأولى خلال اجتماع سرى عقدته الجمعية العلمية السورية » .

(١) أنظر الفصل السابق عن « الثورة فى الجزائر » حيث كان الحاكم التركى هو الذى حرض على هذه المذبحة . — المترجم .

عقد الاجتماع فى عام ١٨٦٨ ، وكانت « الصيحة » عبارة عن قصيدة ألفها ابراهيم وهو ابن اليازجى ، فتحدث عن أمجاد فتوحات وثقافة العرب الماضية وعن مباهج أدبهم وهى إذ دعت جميع السوريين إلى التماس الوحى من الماضى فإنها دعت صراحة جميع الوطنيين العرب الحقيقيين إلى أن يتحدوا ويخلصوا أنفسهم من الاضطهاد العثمانى . ولما كان طبعها يعتبر عملا مثيراً للفتنة لهذا أخذت تنتشر عن طريق الرواية، وأصبحت للحظة نشيد الحرب الذى تتغنى به الحركة القومية الجديدة التى سرعان ما أضيفت إليها جمعية أخرى أكثر نشاطاً تحدت علناً السلطة العثمانيـة المحلية بأن غمرت مدن بيروت ودمشق وصيدا وطرابلس بلافتات معادية للأتراك .

هذا التحدى لحكم السلطان أثبت أنه قصير الأمد ، وسرعان ما أسكتت « صيحة » الحركة العربية الوليدة بفعـــل مزيج من التهديدات والمداهنات التركية ، ولم يكن لها صدى يتردد حتى عام ١٩٠٨ . لكن مهما كانت ساعة التحدى هذه قصيرة ، فإن الشيء المهم هو أنه حدث ، وبحـــدوثه ولدت القومية العربية .

هكذا كان الموقف فى « سوريا الكبرى » عندما اعتلى عبد الحميد آخر القياصرة[1] العثمانيين ، العرش فى عام ١٨٧٦. هذا الاحتمال الذى ينطوى على التهديد ، زاد من خطورته تدهور حديث العهد فى العلاقات العثمانية مع أوربا وزيادة مفاجئة فى الاعتداءات الأوربية على الإمبراطورية التركية . فقد اتخذت فرنسا والبلاد المسيحية الأخرى من مذبحة عام ١٨٦٠ تكأة تستند إليها فى التدخل بصورة متزايدة فى الإدارة الداخلية بسوريا. لم تقنع هذه الدول بإعدام الحاكم التركى الذى حرض على قتل المسيحيين، فراحت توسع من نطاق الحقوق الممنوحة لها بموجب الامتيازات ، على أساس أنه إذا كان الأتراك لن يحموا

(١) المقصود الحكام المطلقين أى السلاطين العثمانيين . — المترجم .

الجاليات المسيحية ، فمن واجب هذه الدول توفير الحماية المطلوبة . بل وأرسلت سفن حربية تجوب فى المياه السورية ، ونزلت حملة فرنسية فى بيروت .

وفضلا عن هذا ، سببت الفظائع التركية ضد ثورة بلغارية صراخاً عالياً فى لندن وغيرها من العواصم الغربية . وعندئذ ، لم يمض عام على اعتلاء عبد الحميد العرش حتى اضطر إلى التسليم بالهزيمة فى النضال الطويل ضد الروسيا حول الأراضى العثمانية فى القوقاز وأوكرانيا . وبعد ذلك بأربع سنوات ، أى فى ١٨٨١ ، استولت فرنسا على تونس من الأتراك ، وفى السنة التالية مباشرة جعلت بريطانيا من الخديو تابعاً بريطانياً يسيطر جيش احتلال على أراضيه ، برغم أنها كانت ما تزال تعترف بسلطة الباب العالى الإسمية فى مصر والسودان : لقد اصبحت الدول الأوربية فى الحقيقة من التطفل بحيث دعت إلى مؤتمر ليضع طائفة من الإصلاحات لإدارة الأقاليم التركية ، وهى الإدارة التى وإن كانت أبعد ما تكون عن اللامركزية الشديدة فى أوائل أيام التفوق التركى ، أصبحت باطراد أكثر مركزية وأشد صلفاً كلما تقلصت الامبراطورية أمام الاعتداءات الفرنسية والبريطانية والتهديد من جانب النزعة الانفصالية العربية .

وسرعان ما أدرك عبد الحميد ان الأمر فى حاجة إلى حركة مظهرية تشد الأنظار إذا أراد أن يزيح القوى الأوربيـــة من فوق ظهره ويستعيد هيبة السلطان العثمانى فى العالم العربى . إن السياسة القديمة القائمة على تحريض المسلمين والنصارى كى يبددوا طاقاتهم فى مقاتلة بعضهم البعض ، هذه السياسة لم تعد تجدى نفعاً أمام مانادت به الحركة العربيـــة الجديدة بالوحدة بين جميع الفئات .

وعلى ذلك استل السلطان مدافع القوى الأوربية الموجهة ضده بأن أعلن بنفسه فى عام ١٨٧٦ تطبيق نظام دستورى للحكم وإسناد وظيفة كبير النظار إلى سياسى متحرر هو مدحت باشا . بعد حياة ممتازة كوالٍ مستنير نسبياً على

الولايات البلقانية التابعة لتركيا أصبح مدحت الوزير الأول فى عهد سلف عبد الحميد ، ولكن لما لم يعد قادراً على أن يبتلع طغيان مولاه قدم استقالته وكون جماعة ليبرالية من السياسيين الأتراك ، تكرس نفسها للاصلاح والحكم الدستورى . وعلى ذلك كان اختياره أمراً طبيعياً لإقناع الأوربيين بأن تركيا على عهد عبد الحميد قد قلبت صفحة جديدة . ولكن لم تمض ثلاثة أشهر على تعيينه حتى جددت الروسيا الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية ، ونفى مدحت وأبطل العمل بالدستور الليبرالى الجديد .

قدر لحركة أخرى قام بها عبد الحميد أن تكون أكثر دواماً . ففى محاولة شاملة لكسب ولاء العرب المسلمين فى داخل الإمبراطورية ، قرر إحياء ما كان للخلافة من قوة وتأثير روحيين . لقد ظل سلاطين آل عثمان مايقرب من أربعمائة سنة يحملون لقب الخليفة ولكنه فقد أهميته الدينية فى النصف الأخير من تلك الفترة وأصبح مجرد لقب آخر ليس له معنى حقيقى . خيل لعبد الحميد أنه باستعادة سلطانه الروحى فى عالم الإسلام ، يستطيع أن يسترد مكانته الضائعة فى مجالس الأمم ويوحد جميع المسلمين وراءه .

ولهذا السبب أصبح عبد الحميد خليفة وسلطاناً ورعاً . فحرم شرب الخمر فى بلاطه ، وأصبح الأولياء هم صحابته الدائمون ، وأنشئت كليات جديدة لتدريس الفقه الإسلامى وتدريب الوعاظ المسلمين . وحتى يظفر بود العرب عين سورياً هو عزت باشا ، سكرتيراً له كما عين غيره من العرب البارزين فى مناصب رنانة الإسم وجزاؤها المادى وفير ، وأصدر قراراً بأن تكون أورطة من حرسه عربية بحتة . ومن أشهر مشروعاته كان بناء سكة حديد الحجاز المراد بها فى الظاهر اختصار المدة التى يستغرقها المسلمون عندما يحجون وذلك بطريق برى من دمشق إلى مكة ؛ وإن لم يتجاوز أبداً المدينة المنورة ولكن كان إنشاء الخط ذا غرض استراتيجى فى الواقع هو نقل القوات بسرعة لمعالجة

أية اضطرابات فى الحجاز أو جنوب الجزيرة العربية حيث كان للاتراك حامية دائمة من أربع فرق . وعند نهاية الخط فى دمشق بنيت محطة رائعة لتشبه أحد القصور الفرنسية فى القرن الثامن عشر ، وبها شمعدانات مزخرفة من النحاس الأصفر ، وسقفها منقوش بالألوان . لم يدخروا مالا فى سبيل إنجاز هذا المشروع الطموح ، وفى الوقت الذى كمل فيه كانت النفقات قد بلغت نحو ثلاثة ملايين جنيه .

ولكن الطرق التى اتبعها عبد الحميد لاستعادة سلطته لم تكن كلها بهذا الورع والاحترام . فمن الأساليب الملتوية الأخرى استخدم جيشاً من ثلاثين ألفاً من الجواسيس ومثيرى الفتن لإثارة الخصومات بين القبائل واغتيال من لا يمكن شراؤه من مثيرى المتاعب أو ضربهم بالهراوات لإجبارهم على الرضوخ والاستسلام من المحزن القول أن هذا المزيج من اللين والعنف ـ من جهة بتملق مشاعر العرب والمسلمين واستغلال ما تنطوى عليه الشعوب الخاضعة للغير من صفات القابلية لأن تباع وتشترى[1] ، ومن جهة أخرى بتهديد المعاندين وإرهابهم . هذا المزيج أثبت فعاليته إلى درجة عالية . فخلال حكم عبد الحميد الذى امتد اثنتين وثلاثين سنة لم يعد يسمع سوى القليل عن الجمعية العلمية السورية ، ولم تشهد سوريا الكبرى سوى ثورتين لهما شأن من العداء العربى لنظام حكم عبد الحميد . ففى ١٨٨٠ ظهر المزيد من اللافتات التى تطالب باستقلال الشام وجعل العربية اللغة الرسمية فى البلد . ولكن عندما اقتفى عملاء السلطان أثر الذين فعلوا هذا ، لم تتكرر اللافتات . بعد ذلك نشر كاتب سورى هو عبد الرحمن الكواكبى وينتمى إلى أسرة مسلمة مشهورة من حلب ، كتابين هاجم فيهما تسلط العثمانيين ودعا إلى حركة عربية تضع مشروعاً للاستقلال . ولكن نثر الكواكبى المملوء بالعبارات الحماسية أخفق فى أن يثير أى رد فعل عربى له شأنه .

(١) رأى غريب جداً أو لو كانت هذه الشعوب تباع وتشترى فكيف تفسر نجاح الحركات القومية التى انتهت بانتصارها وباستقلال المستعمرات وأشباهها . — المترجم .

هـذا الانقياد السلس لم يـكن مقصوراً بالـكلية على سوريا الـكبرى . فالحقيقة أنه فى تلك الأجزاء من العالم العربى التى كانت لا تزال خاضعةلسيطرة الباب العالى ، كان أهل اليمن فقط هم الذين كانوا يشكلون أية متاعب جدية. فنظراً لأنهم لم يعترفوا أبداً بسلطةالإمبراطورية العثمانية منذ القرن السابع عشر ، تمردوا عندما أعاد الباب العالى السلطة التركية فى عام ١٨٧٢ ، وبمرور الوقت ظفروا من حكومة عبد الحميد بقدر بالغ من الاستقلال الذاتى ، ويرجع هـذا إلى حد كبير إلى أن الأتراك السنيين قرروا أن الأسهل بـكثير هو أن يحكموا من بعيد ، هؤلاء الشيعة المتمردين من أهل جنوب بلاد العرب . ولـكن اليمنيين كانوا الاسـتثناء ، وفى جميـع أرجاء الولايات العربية التابعة للسـلطان رقدت الحركة القومية العربية الآن « كما لو كانت فى سبات ، يقيدها طغيان عبدالحميد وتخدرها العناصر المنومة التى تنطوى عليها سياسته العربية » على حد وصف جورج أنطونيوس . وعلى ذلك يكاد يبعث على الدهشة أنه برغم كل العمل الشاق الذى قام به اليازجى وبستانى وزملاءهما من المتآمرين[1]، أن الحركة التى سوف تعزل عبد الحميد فى النهـاية ، نشأت من دوافع تركية وليسـت عربية . فبعد ابتداء القرن بوقت وجـــيز كونت هيئة من « الأتراك الفتيان » كما أطلقوا على أنفسهم ، جمـاعة فى سـالونيك تعرف رسمياً باسم « لجنة الاتحاد والترقى » . كانت تتـكون إلى حد كبير من نفر من ضباط الجيش المستائين ، وعلى غرار حركة الضباط الأحرار التى قادها جمال عبد الناصر فى عام١٩٥٢ ، كرسوا أنفسهم لغرض واحد هو إلغاء الحـكم المطلق الحميدى وبعث الدستور الليبرالى التى كان موقوفاً طيلة أكثر من ثلاثين عاماً.وفى يوليو من عام١٩٠٨ ضربوا ضربتهم . أعلن وقوع انقلاب عسكرى ، وفى محاولة مذعورة من جانب عبد الحميد لإنقاذ عرشه وافق على إعادة دستور ١٨٧٦ وحل جيش جواسيسه وإطلاق سراح جميع المسجونين السياسيين ، وبعد تسعة أشهر حاول الثعلب

(١) التعبير الصحيح هو « الوطنيين فالمطالب بحرية وطنية لا يعد متآمرا . — المترجم .

العجوز تدبير ثورة مضادة ، ولكن جمعية الاتحاد والترقى استبقته وعزلته وعينت مكانه أخاه محمد رشاد الذى أصبح أداة طيعة فى أيدى الأتراك الفتيان».

استقبلت الثورة بفرحة بالغة فى جميع أرجاء الولايات العربية الخاضعة للامبراطورية . وعندئذ بدا أن الأتراك الفتيان عملوا ما عجز عنه معظم قادة العرب إما بسبب الخوف أو لأنهم سمحوا لأنفسهم بأن يُشتروا(١) . وعلى نحو ما حدث من قبل وماسوف يحدث مرات كثيرة من جديد، كان الشىء الوحيد الذى كان يهم العرب هو أن تغييراً قد حدث، وأن نظام الحكم القديم جرى التخلص منه ، وأن عربة جديدة براقة ذات بطاقة « ديموقراطية » عليها ، تدعوهم إلى أن يقفزوا فوقها . أما الذى سوف يحل محل النظام القديم فقد بدا غير ذى أهمية . فى الجنون الذى أعقب إنهاء عصر عبد الحميد ، نسى العرب تماماً حقيقة أن المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه الدستور الجديد هو الاندماج العنصرى الذى يجب بحكم التعريف أن ينكر عليهم أى أمل فى الاستقلال الثقافى واللغوى . تكونت جمعية عربية أطلق عليها من قبيل التفاؤل اسم « جمعية الأخوة العثمانية العربية » التى سمحت بها وباركتها جمعية الاتحاد والترقى ، « لكى توحد جميع الأجناس فى الولاء للسلطان وتنمى رفاهية الولايات العربية على أساس من المساواة الحقيقية مع الأجناس الأخرى بالإمبراطورية » .

بدا للحظة أن آمال أولئك السوريين الذين ظلوا متعلقين بمبدأ الاستقلال الذاتى العربى ، قد حكم عليها بالزوال . ولكن حرارة علاقة شهر العسل بين الأتراك الفتيان والعرب قدر لها أن تبرد بسرعة جداً . ففى نفس أول انتخابات أجريت فى ظل الدستور الجديد اكتشف العرب مدى « ليبرالية » نظام الحكم الجديد . فعن طريق التلاعب بحدود الدوائر الإنتخابية أخرجت نتيجة أعطت ١٥٠ مقعداً فى البرلمان الجديد للمرشحين الأتراك ، ٦٠ مقعداً فقط

(١) لا يمكن شراء غير العقول الضعيفة وهذا أمر تلقاه فى جميع المجتمعات . — المترجم .

للعرب ، أى بنسبة ٥ : ٢ لصالح الأتراك بينما نسبة السكان الأتراك إلى العرب فى الامبراطورية ٢ : ٣ . بل وكان حظ العرب أسوأ فى مجلس الشيوخ الذين يعين السلطان أعضاءه ، فحصلوا على مجرد ثلاثة مقاعد من ٤٠ مقعداً . وعلاوة على هذا حرّم رجال تركيا الفتاة وجود جمعية الأخوة العثمانية العربية هى وكل جمعية أخرى غير تركية . وأخيراً ، وقد حصلوا على نتيجة الإنتخابات التى أرادوها ، راحوا يفرضون على الولايات العربية نظاماً للحكم أشد مركزية بكثير من نظام عبد الحميد .

أما وقد ظهر رجال تركيا الفتاة فى ثوبهم الحقيقى ، فقد الزعماء العرب المسلمين آخر أوهامهم . بدأت الحركة القومية العربية تنهض مرة ثانية ، ولأول مرة منذ بدأها اليازجى وبستانى كانت أغلبية أعضائها الرئيسيين من المسلمين . وفيما بين عامى ١٩٠٩ و ١٩١١ تكونت عدة جمعيات سرية عربية أهمها إثنتان أولاهما « القحطانية » وهو تنظيم نصب نفسه لفكرة الملكية الثنائية ، التركية والعربية ، على غرار إمبراطورية النمسا والمجر ، ويتمتع فيها القسم العربى باستقلال داخلى تام . وكانت الجمعية الثانية وتعرف باسم « الفتاة » تطالب للعرب بالحكم الذاتى الكامل فى جميع الشئون عدا الشئون الخارجية والدفاع والمالية القومية .

وطالبت « الفتاة » من ينضوون تحت لوائها وحصلت منهم على وعد بالولاء حتى الموت بحماية أعضائها وخططها . ولكن برغم هذه الإحتياطات سرعان ما وجد قادتها إهتمام جواسيس رجال تركيا الفتاة شيئاً مزعجاً . فبعد موجة من المظاهرات العامة تأييداً لأهـــدافها ، فى المراكز الرئيسية بالشام وفلسطين والعراق اضطرت « الفتاة » إلى التماس الأمان فى باريس لتواصل عملها .. وهنا عقد فى أبريل ١٩١٣ مؤتمر عربى بغرض التعبير عن حقوق العرب . حاول الباب العالى الحيلولة دون انعقاد المؤتمر ، ولكن لما رفضت

الحكومة الفرنسية أن تتعاون ، أرسل مبعوثاً ليتباحث مع الثوار مباشرة .

وكانت النتيجة صفقة صدقت عليها الآستانة فيما بعد ، وتقضى بأن تصبح العربية اللغة الرسمية فى الولايات العربية من الإمبراطورية وأن يجرى تدريسها فى جميع المدارس ، ونص على تمثيل العرب فى وزارة السلطان ، وأن يكون لهم مزيد من الرأى فى الحكم الإقليمى ، وكان هناك وعد مبهم بإصلاح نظام الإدارة كله فى الإمبراطورية على أساس اللامركزية . ولكن فى العام نفسه أصدر الباب العالى فرماناً بينما زعم أنه يصدق على اتفاق باريس ، كان فى الواقع ينسخ أهم نصوصه وخاصة ما تعلق منها باللغة العربية .

راح رجال تركيا الفتاة الآن يضيفون القمع إلى الخديعة ، وقاموا بعمليات اعتقال بالجملة لمن يشتبهون فيهم من القوميين العرب . وكان من الضحايا الذين وقع عليهم اختيارهم البكباشى عزيز على المصرى وهو شاب فى هيئة أركان الحرب التركية ويجرى فيه الدم المصرى والتركى ، فقبض عليه وحوكم بتهمة الخيانة . كان عزيز على فى الأصل عضواً فى جماعة تركيا الفتاة ولكنه أخذ بالتدريج يفقد ثقته فيهم وانضم إلى « القحطانية » التى أصبحت بعد ذلك ، حركة سرية عسكرية وتغير إسمها إلى « العهد » . وكان أيضاً شخصية ذات شعبية كبيرة ، ووراءه سجل عسكرى ودبلوماسى ممتاز . كان قد توصل إلى التسوية السلمية مع اليمن ، وساعد زعيم برقة السنوسى ، سيد أحمد فى قتال الإيطاليين عندما غزوا ليبيا فى عام ١٩١١ واستولوا على آخر ما تبقى للعثمانيين من ممتلكات فى شمال أفريقية . وعندما قرروا أن هذا الوطنى العربى المشهور ارتكب جريمة الخيانة وحكموا عليه بالإعدام ، إرتفعت صيحات الغضب ضد تركيا الفتاة ، فقامت المظاهرات فى مسقط رأسه وهى القاهرة ، وأقسم الضباط العرب فى الجيش التركى أن ينتقموا له إذا نفذ فيه حكم الإعدام ، وعندما انتقلت الضجة إلى الصحافة البريطانية قدم السفير البريطانى

فى الآستانة احتجاجات لدى الباب العالى. وعندئذ أبدل الحكم إلى الأعمال الشاقة لمدة خمسة عشر عاماً. ولكن واصل الزعماء الوطنيون العرب الضجيج والإثارة إلى أن ألغى الحكم فى النهاية. عاد عزيز على ليستقبل استقبال الأبطال فى مصر، وأعيد إلى منصبه فى الجيش، وأصبح بعد وقت مفتش عام القوات المسلحة المصرية.

لقد ارتكب الباب العالى خطأ جسيماً، فلأول مرة أثيرت الجماهير العربية؛ وكانت هذه هى نقطة اللاعودة فى بناء الثورة العربية. لقد بدد رجال تركيا الفتاة آخر فرصة أتيحت لهم للوصول إلى تفاهم مع القوميين العرب. حتى الآن حافظ قادة العهد والفتاة على اعتدال مطالبهم، ولم يتحدثوا عن الإنفصال، ووضعوا التأكيد على اللامركزية والاستقلال الداخلى فى داخل النظام العثمانى. ولكن حادثة عزيز على المصرى التى جاءت تتوج إنكار الباب العالى لاتفاق باريس، أدت إلى تصلب الرأى العام العربى ضد أى تفاهم جديد. والآن، وقد تحول الرأى العام العربى نحو الاستقلال التام، ظهر زعيم جديد فى شخص أحد سلالة النبى المباشرين وفى مكة مدينة النبى نفسه.

(٢٤)

الثورة العربية

منذ مقدم رجال تركيا الفتاة كان شريف مكة هو حسين بن على من بنى هاشم ، وكان يعود بنسبه إلى محمد عن طريق الحسن الإبن الأكبر لعلى وفاطمة . وفى أيام عبد الحميد أجبر الحسين وأبناؤه الأربعة ـ على ، عبد الله ، فيصل وزيد ـ على أن يعيشوا فى الآستانة بناء على أمر السلطان ، لأن عبدالحميد لم يكن يطمئن إلى هذا الهاشمى العنيد الذى كان على ما أبلغوه قومياً عربياً صلباً لا يلين . لكن نظراً لأن السلطان لم يكن ليجرؤ على إعدام شخص نبيل كهذا ينتمى إلى بيت النبى ، أبقاه تحت بصره فى بلاطه ولكن تفكير رجال تركيا الفتاة كان مختلفاً عن هذا . فإذ خدع ضباط الجيش هؤلاء من ذوى البلادة والصلف ، بهيبة حسين الأخاذة وأخلاقه الحميدة ، ظنوا أن هذا العجوز المؤدب والوقور يمكن أن يستجيب إلى حركهم إذا عينوه فى منصب حكومى رفيع فى الولايات العربية . وفضلا عن هذا ، جوت التقاليد بأن يكون شريف مكة هاشمياً من عقب النبى .

وسرعان ما أدركت الجماعة خطأها فى تعيين هذا الهاشمى بنوع خاص أميراً على مكة وذلك عندما بدأ حسين يؤكد سلطانه الشخصى على قبائل الحجاز خارج المدينة . وإذ راح رؤساء عتيبة وحرب وجهيمة وبنى عطية والحويطات ، والواحد بعد الآخر ، يعلنون ولاءهم لشريف مكة ، راح رجال تركيا الفتاة يذكرون الحسين أن الحجاز هو تحت سلطانهم وليس تحت سلطانه ، وأن أهله يخضعون للتجنيد كى يؤدوا الخدمة العسكرية مع الجيش

التركى . عارض الحسين هذا المذهب فبعثوا بحاكم عام ليعزله . ولكن عندما هدد بأن يدفع القبائل إلى الثورة نكصوا على أعقابهم واضطر حاكمهم العام لا إلى الاتفاق فحسب مع الحسين ولكن إلى أن يقبّل طرف رداء الشريف كعلامة على الخضوع والامتثال .

وهكذا حدث أنه عندما أخذ الشعور القومى العربى يغلى فى بداية عام ١٩١٤ بسبب محاكمة عزيز على ، وجد الشريف نفسه فى مركز استراتيجى ، ومزوداً بالسلطة الروحية اللازمة وبتأييد القبائل ، بحيث يطرح النير التركى ويرفع لواء دولة عربية مستقلة . كان العنصر الوحيد الذى يفتقده هو المساندة المسلحة من جانب دولة كبرى وهذا ما راح الحسين يلتمسه من البريطانيين الذين أصبح خلال إقامته الاجبارية الطويلة فى الآستانة ، يكن لهم إعجاباً قوياً بسبب معاملاتهم الدبلوماسية النزيهة فى الظاهر . كان مبعوثه الذى وقع عليه اختياره هو ابنه الثانى عبد الله الذى كان نائباً فى البرلمان التركى . وبرغم أن عبد الله لم يتجاوز الثلاثين من عمره إلا أنه كان دبلوماسياً ثاقب الفكر وسياسياً بطبيعته ، جعلته رغبة فى الاستقلال متغلغلة فى نفسه ، يرفض كل محاولة من جانب رجال تركيا الفتاة لشراء ولائه بمناصب عليا عرضوها عليه . وفى فبراير ١٩١٤ قام عبد الله بزيادة اللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى القاهرة وحاكم مصر من حيث الواقع فى ذلك الحين ؛ وبعد أن وصف كيف أن قبائل الحجاز أصبحوا قريبين من الثورة ضد الباب العالى ، راح يتساءل فى تحفظ وحذر عن الموقف الذى تتخذه بريطانيا إذا اشتبك العرب فى قتال مع سادتهم الأتراك . وأجاب كتشنر بقدر كاف من الصحة أن بين بريطانيا وتركيا صداقة ترجع إلى وقت طويل ، وأنها — أى بريطانيا — لا تستطيع أن تتدخل فى الشئون الداخلية لممتلكات

السلطان (يظهر أن عبد الله تجنب فى تلك الحالة أن يسأل عما تفعله بريطانيا فى مصر !) .

ولكن أفكار كتشنر الخاصة لم تكن بالتأكيد محايدة وغير ملتزمة على نحو ما كان عليه جوابه الرسمى . لقد كان خلال الثلاثين عاماً السابقة يشهد بانزعاج متزايد تطور سياسة ألمانيا فى « الزحف نحو الشرق » . فمنذ أن وصلت إلى تركيا بعثة عسكرية ألمانية لتدريب جيش السلطان، وأعقبها بعد خمسة عشر عاماً زيارة قام بها القيصر ولهلم الثانى إلى الآستانة للحصول لألمانيا على امتياز بناء السكة الحديدية التى تربط تركيا ببغداد ، بدا أن التهديد لمصالح بريطانيا الإمبراطورية يزداد حجماً وقرباً . من الجائز أن الغرض الذى كان عبد الحميد يستهدفه من وراء تشجيع ألمانيا ، كان يقتصر على دعم قبضته على ولاياته العربية ، ولكن فى رأى كتشنر كان فى إمكان الألمان فضلا عن الأتراك أن يستخدموا سكة حديد بغداد وسكة حديد الحجاز للهجوم على مواصلات بريطانيا الإمبراطورية فى الخليج الفارسى والبحر الأحمر وقطعها .

كذلك لم يكن هذا بالتهديد الوحيد الناشىء من ازدياد الصداقة التركية الألمانية . ففى حالة نشوب حرب بين بريطانيا وألمانيا كانت هناك إمكانية دخول تركيا فى الحرب إلى جانب ألمانيا وإعلان « الجهاد » ضد الكفرة الذين يحتلون الأرض الإسلامية . ولو استجاب العرب لنداء من هذا القبيل لربما أصبح مركز بريطانيا فى مصر وعدن — فضلا عن موقف حليفتها الفرنسية الجديدة فى الجزائر وتونس — معرضاً للخطر بل ويصعب الاحتفاظ به والدفاع عنه . وكان كتشنر قد أمضى وقتاً طويلا فى مصر والسودان فى أثناء ثورة المهدى وبعدها بحيث لا يستخف بمثل هذا الاحتمال . والآن بدا أن ما يعرضه حسين يتيح إمكانية للقضاء على هذا التهديد ؛ ذلك أن الأتراك سوف يحتاجون إلى كسب ود حسين بن على شريف مكة وأحد سلالة النبى

أكثر مما يحتاجون إلى أية شخصية أخرى فى العالم الإسلامى ، كى يضمنوا استجابة واسعة الانتشار للدعوة إلى « الجهاد » أو على الأقل لأن قيام تفاهم بين بريطانيا والشريف سوف يحطم خططهم تماماً . وعلى ذلك بعث كتشنر رونالد ستورس المستشار الشرقى فى دار المعتمد البريطانى حينذاك ، ليرد الزيارة لعبد الله ويبقى على الاتصال معه ومع والده .

تحدث عبد الله الآن بصراحة تامة عن استعدادات والده وطلب بأسلوب جاد ، مدافع رشاشة من زائره . كان ستورس بالطبع مضطراً إلى أن يرفض هذا الطلب لنفس الأسباب الدبلوماسية التى سبق إبداؤها . ولكن لم يكن عبد الله ووالده بحاجة إلى الانتظار طويلا كى يتخذ كتشنر المبادرة بالنيابة عن الحكومة البريطانية . فعند نشوب الحرب بين بريطانيا وألمانيا بعث كتشنر الذى كان الآن وزير الحرب فى بريطانيا ، برسالة إلى عبد الله يسأل عما إذا كان الشريف سوف يلقى بدلوه مع الأتراك أو مع البريطانيين إذا انضمت تركيا إلى ألمانيا ضد بريطانيا . انتفت الآن التحفظات والمراوغات التى كانت تتسم بها المراسلات البريطانية السابقة . كانت بريطانيا فى حرب مع عدو مميت وتحتاج إلى أن يكون العرب حلفاء لها . وهذه كانت الفرصة التى ظل حسين ينتظرها طويلا .

برغم الترحيب الذى لقيته رسالة كتشنر التى وصلت إلى مكة فى منتصف أكتوبر ١٩١٤ ، إلا أن طابعها الجاد والجاف شكل مشكلة بالنسبة إلى حسين . فبرغم أنه كان شخصياً يميل إلى بريطانيا ويتحرق شوقاً إلى الدخول فى معركة مع الأتراك ؛ إلا أن أبناءه لم يشاركوه تماماً أفكاره . كان عبد الله يؤيده إذ علم عن طريق اتصالاته مع جمعيتى « الفتاة » و« العهد » أنه إذا دخل الأتراك الحرب فان الشام والعراق على استعداد للثورة وانتزاع حريتهم بحد السيف .

فاقترح أن يكون الرد على رسالة كتشنر هو السؤال عما اذا كانت بريطانيا سوف تضمن حصول العرب على الاستقلال اذا انضم الشريف اليها وهزم الأتراك ولكن من الناحية الأخرى ، كان من رأى فيصل أن العرب قد يحصلون على مكاسب أكبر اذا انحازوا إلى تركيا . وإذ كان يسر بأفكاره هذه الى والده ؛ كان مقتنعا اقتناعاً راسخاً أن لبريطانيا وفرنسا نواياهما بشأن الشام والعراق عندما يخرج الأتراك منهما .

بمثل هذا الانقسام فى الرأى آثر حسين الانتظار. فأجاب على كتشنر بأنه قد يجد فى الإمكان دفع أتباعه المباشرين إلى الثورة بشرط أن تعد انجلترا بالتأييد الفعال . ولكنه أكد أيضاً أنه لا يستطيع فى هذه المرحلة أن يخرج على الحياد الذى يفرضه عليه مركزه كزعيم مسلم . وأجاب كتشنر على هذه المذكرة فى ٣١ أكتوبر وهو اليوم الذى دخلت فيه تركيا الحرب الى جانب ألمانيا ، بأن أكد بشكل قاطع أنه مقابل تأييد حسين لبريطانيا ضد الأتراك فإنها سوف تضمن مركزه كشريف مكة وتؤيد جهود العرب فى الحصول على حريتهم . بل وكان هناك ايحاء بأن بريطانيا سوف تعترف بحسين خليفة لو بويع بهذا . تشجع حسين كثيراً وكان جوابه أكثر حرارة وأقل مراوغة عن ذى قبل . فبرغم أنه ظل لا يلتزم بصدد مسألة التوقيت ، إلا أنه أوضح أنه بمجرد أن يجمع قواته فسوف ينتهز أول فرصة ليوجه ضربته الى الإمبراطورية العثمانية .

لم يكن كتشنر ليختار وقتاً أفضل من ذلك الذى قدم فيه التأكيدات لشريف مكة . ففى ظرف أيام قلائل من إعلان الباب العالى الحرب على بريطانيا تصرف على النحو الذى تنبأ به ودعا جميع المسلمين الصادقين الى المشاركة فى الجهاد ضد بريطانيا وفرنسا . وأرسل المبعوثون الى جميع أنحاء الإمبراطورية وإلى فارس والهند وأفغانستان لإثارة الحماس من أجل « الجهاد ». لسنا بحاجة إلى القول بأنه بذل محاولة خاصة فى سبيل الظفر بالمساندة والاشتراك النشيط

من جانب الحسين بن على الذى ينتسب إلى النبى . ولقد بلغ من الأهمية التى كانوا يعلقونها على اجتـــذاب الشريف كى يشترك فى الجهاد ، أنه حتى أكثر الأتراك وحشية وهو جمال باشا الذى كان والياً على الشام فى ذلك الحين، أغمض العين مؤقتاً عن تآمر (١) الزعماء الوطنيين الشاميين خشية إزعاج حسين وأصدقائه . ولكن جميع هذه الجهود كانت عديمة الجدوى. فبخلاف جانب من الرأى الإسلامى المحافظ فى الهند ، لم يستجب للنداء سوى إمام اليمن وزعيم قبيلة شمر وهو ابن الرشيد من أهل نجد ، وكانا يعتمدان على الدعم التركى لشن حرب عصابات قبلية ضد الوهابيين. أجاب حسين الذى كان ممتازاً دائماً فى معاملاته مع الأتراك ، على الرسائل التى بعث بها إليه أنور باشا رئيس وزارة تركيا وجمال باشا حاكم الشام يحثانه فيها على الاشتراك ، نقول إنه أجاب بأنه بينما يؤيد الجهاد تأييـــداً كاملا ويتمنى له كل نجاح إلا أنه لا يستطيع أن يقول هذا علناً لأن بريطانيا سوف تحاصر ساحل بلاده وتجيع شعبه . وفى هذه الأثناء كان يجمع قواته وأبعد أية تساؤلات من جانب الأتراك تنم عن إرتيابهم ، بأن رجال القبائل التابعين له كانوا يدربون على القتال إلى جانبهم بمجرد أن يشعروا أنهم على قدر كاف من القوة يمكنهم من تحدى البريطانيين الكفار .

لم يطل الوقت بالأتراك كيف يدركوا حقيقة مناورات الشريف ولكنهم كانوا عاجزين عن عمل أى شىء لمواجهتها . ولقد بذلت محاولات لاستخدام اسمه زوراً فى البيانات العامة وفى المظاهرات التى تنظمها السلطات ، ولكنها جميعاً أخطأت الهدف بسبب عـــدم وجود أى تأكيد لها من مكة . وفى فبراير من عام ١٩١٥ ، قرر الباب العالى الـــذى تملكه اليأس الآن ، أن يعمل على اغتيال حسين . ولكن الشريف الذى كان جواسيسه لا يقلون عن جواسيس الأتراك مهارة ، سرعان ما نمى

(١) ناقشنا موضوع التآمر فى ص ٣٧٤ (حاشية ، رقم ١) . — المترجم .

إليه خبر المؤامرة على حياته . فأرسل فيصل بمهمة ظاهرية هي الاحتجاج لدى رئيس النظار شخصياً على هذا الغدر ، ولكنه بعث به فى الواقع لإجراء اتصال برجال « الفتاة » و« العهد » إذ كان حسين قد علم قبل ذلك بقليل من مبعوث سرى أن الزعماء العرب فى الشام والعـــــراق على استعداد لتوجيه الضربة وينتظرون التأكيد بأنه سوف يقود الثورة ضد الأتراك باعتباره شريف مكة الأعظم .

وفى الطريق إلى الآستانة نجح فيصل فى إجراء الاتصالات اللازمة مع الجمعيات السرية العربية . سواء كان الوصف الذى قدمه فيصل إلى والده عن موقف الزعماء الوطنيين فى الشام دقيقاً أو كان انعـكاساً لشكوكه فى نوايا البريطانيين والفرنسيين ، فهو قد أبلغ والده أن من رأى رجال جمعيتى الفتاة والعهد ، أن الخروج على تركيا يعنى الوقوع فى شرك إنجليزى — فرنسى وأنهم يفضلون البقاء على الحياد . وعندئذ ، عند عودته إلى دمشق بعد أن قدم احتجاج حسـين إلى أنور باشا فى الآسـتانة ، قدمت إليه مذكرة جعلت من الواضح أن رجال الجمعيتين لن يلتزموا بثورة سافرة ضـــــد الأتراك بدون ضمانات بريطانية بشأن استقلالهم . هذه المذكرة التى حملها فيصل معه إلى مكة فى مايو ، كانت تطالب بريطانيـا بأن تعترف باسـتقلال سوريا ولبنان وفلسـطين والعراق وشبه الجزيرة العربية باسـتثناء عدن ، وأن تعقـد محالفة دفاعية مع الدولة العربية المستقلة التى سوف تتـكون فى داخل هذه الأراضى .

والآن وجدت الورطة التى كان فيها حسين حلا طيباً . لقد حصل على تبنى الزعماء الوطنيين السوريين لثورة عربية ضد تركيا بشرط الحصول على أدق الضمانات البريطانية ، وأصبح الآن فى مركز يســمح له بتقـديم شروطه إلى بريطانيا وهو يتحدث باسم « الشعب العربى » ، ومن ثم كتب فى ١٤ يوليه ١٩١٥ إلى السير هنرى مكماهون الذى خلف كتشنر فى مصر ، ودعاه إلى

الموافقة على الشروط التى تضمنتها مذكرة دمشق . وأضاف إلتماساً بأن تؤيد بريطانيا « إعلان خلافة عربية للاسلام » نظراً لأن كتشنر نفسه سبق أن أثار المسألة معه .

فى هذه الأثناء ، وكجزء من الخطة البريطانية لإحباط الجهاد الذى دعا إليه السلطان ، أصدر مكماهون وبناء على تعليمات من لندن ، تصريحاً عاماً أعلن أن بريطانيا على استعداد للاعتراف بشبه الجزيرة العربية دولة عربية مستقلة ولها السيادة على مكة والمدينة . ولكن نظراً لأن التعليمات التى تلقاها لم تقل شيئاً فى هذه المرحلة عن سوريا ولبنان وفلسطين أو العراق وإنما تحدثت عن شبه الجزيرة العربية بعبارات غامضة ، لم يكن فى مقدور مكماهون أن يقبل التعاريف المحدودة للاستقلال العربى التى وصفها الخطاب الذى كان قد بعث به الشريف ، وعلى ذلك كان رده على الشريف مراوغاً . فبينما أيد تأكيدات كتشنر العامة بشأن التأييد البريطانى ، أعلن وسط مجموعة من المجاملات والتحيات المزوقة التى لم يتوقعها حسين ولم يعبأ بها ، أنه لا يمكن توقع أن تحدد بريطانيا الحدود الدقيقة للاستقلال العربى بينما هى مشتبكة فى حرب .

ولكن الشريف لم يكن ليُخدَع بمثل هذه السهولة وأوضح فى مذكرة جديدة أن الدقة بالنسبة إلى الحدود شرط لا غنى عنه بالنسبة إلى أى اتفاق . وفى لهجة جافة طلب من مكماهون أن يدخل فى صلب الموضوع وقال إن هدفه هو « ضمان الحصول على الشروط الجوهرية اللازمة لمستقبلنا ، على أساس من الواقع وليس من العبارات والألقاب المزوقة إلى حد كبير » . وفى أكتوبر ١٩١٥ بعث مكماهون برد أكثر دقة ؛ فقال إن بريطانيا سوف تعترف باستقلال المناطق الواردة فى مذكرة الشريف السابقة باستثناء مناطق معينة فى الشمال الغربى والشرق زعم أنها إما لم تكن « عربية بحتة » أو تتطلب

ترتيبات خاصة لحماية المصالح البريطانية . وحُددت هذه المناطق على أنها : (١) مرسين والأسكندرونة فى كيليكيا ، (٢) لبنان وسوريا غربى خط يمتد بين حلب ودمشق ، و (٣) جنوب العراق من بغداد إلى البصرة .

تبودلت مكاتبات أخرى عارض فيها حسين بحرارة فى استبعاد أية أراضٍ لبنانية أو سورية وعبر عن شكوكه فى قيام إدارة إنجليزية — عربية فى العراق . ولكن إذ لم يدع مكماهون فى شك فى أن العرب يطلبون الاستقلال للشام كلها ، وافق فى نهاية الأمر على تأجيل اتخاذ قرار بشأن الحدود إلى ما بعد الحرب وعلى أن يركن إلى حسن نية بريطانيا . واختتمت المراسلات بخطاب من مكماهون لاحظ فيه بصورة تنم عن الرعاية نوعاً « أننا لا نشك فى حقيقة أنكم تعملون لخير الأمة العربية وبدون أى دافع خفى أياً كان » ، ثم راح يبلغ حسين أنه فيما يتعلق بالأقاليم المحتفظ بها فى الشام وكيليكيا فإن على بريطانيا أن تأخذ مصالح الحلفاء الفرنسيين فى الحسبان .

كان حاصل هذا كله بعيداً جداً عن التعريفات الدقيقة التى تضمنتها مذكرة دمشق . وبرغم أنه ما من شىء يمكن أن يبرر ما عمدت إليه بريطانيا وفرنسا فيما بعد من خيانة العرب باتفاق سيكس — بيكو السرى وتصريح بلفور ، إلا أنه يبدو من الخارق للمألوف أن يعتبر الشريف هذه المراسلات المتبادلة ضماناً وافياً يبدأ على أساسه الثورة العربية . إن من أغرب المفارقات فى هذه القصة أن رجلا استطاع أن يتعامل مع الأتراك بمثل هذه المهارة والحذق ، ظهر بمثل هذه الدرجة من التصديق فى معاملاته مع البريطانيين . ولكن من الواضح أن حسين كان يريد أن يصدق إحساس بريطانيا باللعب النظيف لأنه كان يريد الثورة التى كانت تعتمد اعتماداً كلياً فى نجاحها على الإمدادات من الأسلحة والذخيرة البريطانية .

وإذ سارت الإستعدادات للحرب قُدُماً فى الحجاز أخلت سياسة قفاز الحرير المؤقتة التى انتهجها جمال إزاء القومية العربية مكانها لتحل محلها تكتيكات أشد عنفاً . فطلب جمال من بين أشياء أخرى ، إرسال فيصل إلى دمشق ليكون رهينة تضمن حسن سلوك العرب . رأى حسين أن من الحكمة الامتثال لهذا الأمر بدلا من المخاطرة بمواجهة مع الأتراك قد تُحبط خططه . ونجحت الخدعة مؤقتاً وركن الأتراك إلى سلبية نسبية . ولكن فى مايو ١٩١٦ طار صواب جمال ويرجع هذا إلى حد كبير إلى ما أحس به من الإحباط بسبب إخفاق الجيوش التركية فى الاستيلاء على مصر ، وإخفاقه هو فى القضاء على المتآمرين السوريين الرئيسيين . فإذا كان لم يتمكن من الكشف عن قادة الفتاة والعهد ، فسوف يستخدم الإرهاب بلا تفرقة أو تمييز لتخويفهم . وعلى ذلك قُبض على واحد وعشرين من المواطنين البارزين فى ادمشق وبيروت ولم تكن لبعضهم أية علاقة بأية جمعيات قومية عربية ، وأعدموا شنقاً فى السادس من مايو ١٩١٦ .

هذه المحاولة الهمجية لردع المقاومة العربية بعد ذلك، ارتد سهمها إلى صدر جمال ، فتحول حياد فيصل فجأة إلى رغبة ملحة فى القتال . وعلى حد تعقيب جورج أنطونيوس « أياً كانت الشكوك الباقية فى ذهنه بصدد حكمة الخروج على الأتراك ، فإنها زالت الآن وانقلبت إلى إحساس عنيف بالنفور ، وأصبحت العبارة التى انطلقت من فمه عند سماع خبر عمليات الإعدام [حَلاَ الموت أيها العرب] صيحة الحرب التى رددتها الثورة العربية » . فإذ خدع جمالاً فسمح له بمغادرة دمشق بدعوى قيادة قوة من العرب الذين تطوعوا للخدمة فى الجيش التركى ، الذى كان على وشك مغادرة المدينة المنورة ، شخص الأمير لينضم إلى والده . وفى هذه الأثناء كان قد رتب مع حسين أن تبدأ الثورة العربية فور عودته إلى الحجاز . لم يشأ الشريف أن يتأخر لحظة

أكثر من ذلك لأن جمالا كان قد أبلغه أن قوة تضم ثلاثة آلاف وخمسمائة من الألمان والأتراك كانت فى طريقها لتقوية الحاميات العثمانية فى جنوب بلاد العرب .

فلما وصل فيصل إلى المدينة المنورة وجد أن الألمان من أفراد القوة والذين لم يُسمح لهم باتخاذ الطريق المباشر عبر مكة لأنهم من غير المسلمين ، راحوا يتقدمون من جديد عن طريق ينبع الواقعة على الساحل . أما وقد تبدد هذا التهديد وأصبح فيصل فى مأمن من قبضة جمال ، أصدر حسين الأمر إلى قبائل الحجاز كى تضرب ، وأعلن الاستقلال العربى ، وفى ١٠ يونيه هوجمت الحامية التركية فى مكة بنيران البنادق . استمرت المعركة طيلة ثلاثة أسابيع ، وكان الأتراك يردون بالمدفعية التى لم يملك رجال حسين شيئاً منها . ولكن عندما أرسلت بطاريتان مصريتان من المدفعية على عجل من الجيش البريطانى فى مصر، تعرض الأتراك لضرب المدفعية فسلموا المدينة فى ٩ يوليه ، وبعد أسبوع سقطت جدة فى أيدى قوات الشريف ، وتوجه عبد الله للاستيلاء على الطائف حيث كانت الحامية التركية الرئيسية تُصيِّف فى جو الجبال البارد . وما أن حل سبتمبر حتى سقطت رابغ وقنفدة على الساحل ، كما سقطت ينبع حيث أحيط بالقوة الألمانية بسرعة وسلمت إلى وحدة بحرية بريطانية تساعد الزحف العربى على طول ساحل البحر الأحمر .

دارت عجلة التاريخ دورة كاملة . إن مكة التى سبق أن خرجت لتفتح الأراضى العربية الشمالية وتسحق المحتلين من الروم والفرس ، عادت من جديد فأطلقت شرارة الثورة التى سوف تشعل حماس العرب وتطرد الاضطهاد الأجنبى من أراضيهم .

لم يعرف الهياج الذى تملك جمالا بسبب هذه النجاحات العربية حدوداً ، فأطلق الآن على الشام حملة من الإرهاب جعلت الفظائع التى ارتكبها قبل

ذلك ، تبدو كلعب الأطفال . فقُبض على المواطنين العرب البارزين وعُذِّبوا في محاولة مجنونة للكشف عن أسرار الجمعيات الوطنية . وبينما لم يكن لدى الكثيرين من هؤلاء التعساء أسرار قومية يكشفون عنها ، فإن الذين وقعوا في شباك جمال من أعضاء جمعيتي الفتاة والعهد ، حافظوا على ما أقسموا عليه من التزام السرية ، وفعلوا ذلك برغم التعذيب الرهيب . فقد أسيئت معاملة شكري القوتلي الذي سوف يصبح فيما بعد رئيساً لسوريا الحرة ، حتى أنه حاول الانتحار خشية أن ينهار إذا ما تعرض لمزيد من العقاب . ومات آخرون بفعل التعذيب أو نجحوا في أن يقضوا على حياتهم بأيديهم . ومع ذلك ، وعندما جرب رجال محاكم التفتيش التركية كل نوع من القطائع عرفوه ، ظلت أسرار الجمعيتين مصونة وسليمة ، وفي النهاية أُوقفت عمليات تعذيب وإعدام زعماء سوريا العرب بعد أن هدد فيصل بالثأر من الضباط الأتراك الذين أسروا في مكة والطائف .

ولكن جمالاً لم يكن قد انتهى بعد . فإذا كان لم يتمكن من القضاء على الوطنيين فسوف يتخذ من التجويع سلاحاً لإضعاف قوى الشعب . كانت المجاعة قد بدأت في أجزاء من سوريا الكبرى لأن الجراد دمر المحصول في الربيع السابق ، فأصدر جمال الآن أوامر بعدم السماح بشراء القمح في جميع المناطق التي يُشتبه في تعاطفها مع ثورة الشريف . أخذ الناس يموتون ، أولا بالمئات ثم بالألوف وعشرات الألوف . وأصَمّ الأتراك آذانهم عن جميع توسلات البلاد المحايدة التي كانت شديدة الرغبة في تخفيف الآلام ، بل ورفضوا السماح للصليب الأحمر الأمريكي بإرسال الإمدادات . ويقدر أن نحو ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة ماتوا من الجوع في الممتلكات التي كانت تحت حكم جمال باشا . كان ذلك نصراً فرسياً[1] للأتراك ولكنه حقق الغرض منه

(١) أي يقرب من الهزيمة — المترجم .

فيما يتعلق الأمر بسوريا . ذلك أنه عندما جاء نداء الشريف إلى ثورة عربية عامة لم يكن السوريون فى حالة تسمح لهم بالاستجابة له .

لم يكن التجويع بالشيء الوحيد الذى منع العرب فى خارج الحجاز من التعاون بكل قلوبهم مع حسين . فقد كان يحيى إمام اليمن وابن الرشيد زعيم شمر قد أعطيا العهد بمساندة الأتراك . وكان السنوسى فى برقة وقبائل دارفور فى السودان أكثر اهتماماً بمقاومة الاحتلال الإيطالى والبريطانى منهم بطرح النير العثمانى . وفى نجد ، بينما كان ابن سعود يتحدث فى بلاغة من أجل الثورة وذلك مؤتمر عربى عقد فى الكويت ، فإنه انتهج سياسة رائعة من الجمود لأسباب داخلية من جهة ، ومن جهة أخرى لأنه بعد وقوع اشتباك مرير على الحدود مع السعوديين قبل ذلك بخمس سنوات ، كان حسين الآن من الحماقة بحيث يعلن نفسه « ملك البلاد العربية » . وجد ابن سعود فى هذا قدراً كثيراً من الوقاحة .. ولكن برغم أن الحكومة البريطانية رفضت الاعتراف بأن الشريف ليس أكثر من « ملك الحجاز » أصر حسين على استخدام اللقب الأفخم فى معاملاته مع جميع جيرانه . وكان ابن سعود يتعرض للاهانة بصفة دائمة ، فصمم مع الآن فصاعـــداً على أن يسحق الهاشمى الطموح لدى أول فرصة .

كذلك فإن إدعاء حسين السيادة على جميع العرب أبعد عنه عدة من قبائل سوريا والأردن . وكان حيادهم المترتب على ذلك ، عاملا حد بشدة من قوى الثورة العربية فى أوائل مراحلها الحرجـــة وثبت فكرة الشكاك من رجال القيادة العليا البريطانية فى مصر ، عن أن حرب الشريف عملية جانبية تافهة لا تستأهل سوى تأييد رمزى . ولم يساعد على إثارة التأييد القبلى الذى يكفى لمواجهة التقدم العربى من الحجاز صوب الشمال ، إلا الجهود التى لا تكل التى بذلها فيصل الذى كان مصمماً الآن على أن يرى الأتراك وقد اندحروا ،

والتدخل فى الوقت المناسب من الشيخ عودة أبى طي زعيم الحويطات وسيد الأردن من معان إلى العقبة . وجاءت نقطة التحول فى يوليه ١٩١٧ عند ما تم الاستيلاء على العقبة بحركة التفاف بارعة قادها عودة ولورنس الذى جعلته أعماله المجيدة الخارجة عن المألوف عند ما كان مستشاراً بريطانياً لفيصل ، من أبطال الحرب العالمية الأولى الذى أصبحوا شخصيات أسطورية ووضاءة . استيقظت القيادة العليا الآن على حقيقة أن فى الإمكان توحيد العرب لتكوين قوة محاربة ذات قيمة حقيقية ويعتمد عليها لحصر الأتراك شرقى نهر الأردن بينما يتقدم الجنرال اللنبى شمالا عن طريق فلسطين . وبفضل التدخل الذى لا يكل من جانب لورنس لدى أركان حرب اللنبى ، أصبحت جيوش الشريف تزود من الآن فصاعداً بكل ما تحتاج إليه من مدافع ومال كى تتقدم إلى سوريا ، ولما ذاعت الأخبار فى الصحراء عما حققوه من نجاح استطاعوا أن يجمعوا تحت لوائهم المترددين من أبناء القبائل الشمالية .

بعد ذلك أصبح الزحف سباقاً بين العرب وجيوش الحلفاء للاستيلاء على دمشق . توافر لفيصل الآن الدليل على أن البريطانيين والفرنسيين يعتزمون أن يسرقوا من العرب حريتهم بمجرد أن يطرد الأتراك ، وكان مصمماً على تأكيد حقوق والده بالاستيلاء على دمشق بجيشه هو . وكسب السباق بأيام قلائل فى أول أكتوبر ١٩١٨ ، ودخل العاصمة السابقة لإمبراطورية بنى أمية العظيمة ، ليستقبله أهلها استقبالا جنونياً .

كان فيصل ورجاله يستحقون ما استقبلوا به من ترحيب . فلم يقف الأمر به عند حد أنه كسب السباق مع البريطانيين وطرد الأتراك المكروهين من دمشق ، ولكن جيوشه وكانت مزيجاً من جنود نظاميين عرب هربوا من الجيش التركى ، ومن أهل القبائل البدو ممن لم يكونوا يحذقون إطلاقاً فنون الحرب الحديثة ، هذه الجيوش قطعت مسافة ألفى ميل عبر البعض من أكثر

صحارى العالم وعورة وجفافاً ، وشلت حركة الجيش الرابع التركى بأسره بين المدينة المنورة ودمشق ، وقتلت أو أسرت ما يزيد على ٣٥٫٠٠٠ من جنود العدو أو أبقتهم محصورين فى حامياتهم على طول سكة حديد الحجاز . وخلال كل الزحف الذى قام به العرب من العقبة شغلوا من الأتراك عدداً لا يقل عمن شغلتهم قوات اللنبى ، وحوالى النهاية وبحركة حرب عصابات بارعـــة ضد مواصلات العدو بالسكة الحديدية مع دمشق ، نجحوا بالفعل فى قطع الجيش التركى عن إمكانية الحصول على تعزيز ضد تقدم اللنبى من بيت المقدس .

كان إنجازاً رائعاً ومثيراً ، جديراً بخالد بن الوليد وغيره من الفاتحين العرب الأوائل . وتتويجاً للجهد الذى بذل ، استسلمت الامبراطورية العثمانية بعد ذلك بأربعة أسابيع ، فى ٢٩ أكتوبر ١٩١٨ ، أى بعد أربعمائة سنة تقريباً منذ أنزل سليم المخيف الهزيمة بالمماليك وأضاف الشام ومصر إلى أملاك السلطان التركى .

(٢٥)

الغدر بالعرب

بالنسبة إلى فيصل نفسه فإن لحظة الانتصار عندما وصل العرب إلى دمشق، كانت مناسبة لابتهاج تام. كان الأمير الشاب يواجهه الكثير من الصعاب والشكوك والمخاوف. فمن جهة، هناك مشكلة تحويل رجال القبائل الذين نشأوا على رفض ومقاومة أى نوع من السلطان، إلى مواطنين ينزلون على أحكام القانون، وإقناعهم بأن يتقبلوا بقاء الموظفين الذين كانت خبرتهم فى الإدارة فى ظل الأتراك، أساسية للمحافظة على الحكم المنظم. ومن جهة أخرى فإن الشكوك التى كانت تساوره فى أن بريطانيا وفرنسا تعتزمان الدخول عندما يخرج الأتراك، دعمها إزاحة الستار عن اتفاق سايكس — بيكو وإصدار الحكومة البريطانية تصريح بلفور.

كان اتفاق سايكس — بيكو وثيقة مخجلة إذ كشف عن أنه بمجرد أن ختم مكماهون مفاوضاته مع الشريف حسين بدأت الحكومة البريطانية مباحثات سرية مع الفرنسيين لتقرير كيفية تقسيم الهلال الخصيب الذى يشمل العراق وسورية الكبرى بين بريطانيا وفرنسا. وكما أظهرت السنوات المائة الأخيرة، لم يتأخر الأوربيون عن اقتطاع مايشاءون من الدولة العثمانية الآخذة فى الاضمحلال. فانتزعت فرنسا الجزائر وتونس ومراكش، واستولت إيطاليا على ليبيا، واحتلت الروسيا أجزاء من أرمينية، واستولت بريطانيا على مصر وقبرص وعدن ومشيخات الخليج الفارسى[1] ولما دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا رأت الدول الكبرى المتحالفة أنه ما تزال أمامها فرص للاستحواذ على الأرض بعد أن مكنها النصر من تمزيق الإمبراطورية العثمانية.

(١) الخليج العربى. — المترجم.

أرادت الروسيا أن تأخذ الآستانة والبوسفور على نحو ما كانت رغبتها فى أيام محمد على ، ورغبت فرنسا فى سوريا وهى البلد الذى كانت مرتبطة به تجارياً منذ أوائل أيام الامبراطورية العثمانية والذى كانت تحس إزاء النصارى من أهله بمسئولية ثقافية ودينية ترجع إلى أيام الحروب الصليبية. وكانت بريطانيا والحكومة البريطانية فى الهند تريدان الحصول على فلسطين والعراق والخليج الفارسى من الكويت إلى مسقط .

وهكذا بعد أن سطر مكماهون خطابه الأخير إلى حسين بأربعة أشهر ، بدأ السير مارك سايكس بالنيابة عن بريطانيا والمسيو جورج بيكو نيابة عن فرنسا يرسمان خطة تقسيم الامبراطورية العثمانية. فتقرر أن تحصل الروسيا المتحالفة الآن مع بريطانيا وفرنسا ، على الآستانة والبوسفور فضلا عن جزء كبير من شرق الأناضول ، وأن يكون لفرنسا الشام كلها ومنطقة الموصل بالعراق وجزء من جنوب الأناضول ، وكوفئت بريطانيا ببقية العراق . أما فلسطين التى كانت تدعيها كل من فرنسا وبريطانيا ، فتقرر وضعها تحت إدارة دولية غير محددة المعالم . إلا أنه فى الكتب المتبادلة بين مكماهون والشريف فإن المناطق التى سوف تستبعد من ضمان بريطانيا للاستقلال العربى، قد ذكر بوجه خاص أنها « جهات مرسين والأسكندرونة ، وأجزاء من سوريا تقع إلى الغرب من نواحى دمشق وحمص وحماه وحلب » و« ولايتى بغداد والبصرة ». لم يذكر مكماهون أبداً فى أى من خطاباته إلى شريف مكة ، شمال العراق وبقية سورية شرقى دمشق وحلب . وعلى ذلك كان للعرب الحق تماماً فى أن يعتبروا جميع هذه الأراضى داخلة فى منطقة الاستقلال التى قبلتها بريطانيا .

راح اتفاق سايكس — بيكو يضيف الغباء إلى الخداع ، بتقسيم مقلوب للشام والعراق إلى مستعمرات ومحميات شبه مستقلة . فى ظل هذا التقسيم تقرر أن توضع مدن تاريخية ولها ثقافتها وتقدمها من قبيل بيروت وبغداد والبصرة،

تحت الحكم الاستعمارى الفرنسى أو البريطانى المباشر . أما بقية الشام والعراق التى تتكون إلى حد كبير من الظهير الصحراوى الذى يقطنه بدو بدائيون، فسمح لها بوضع شبيه بالاستقلال الداخلى ، بوصفها محميات فرنسية وبريطانية . « كان ذلك » على ما لاحظ جورج أنطونيوس « أشبه بإرسال البالغين إلى المدرسة وإخراج تلاميذ المدارس الأولية إلى معترك الحيـــاة » . مثل هذا الترتيب الأحمق أظهر بوضوح أن الدول الغربية لم تعرف ولم تهتم بتقاليد الشام والعراق الثقافية؛ كانت تحابى البدوى البـــدائى ولكنه رومانسى فى نظرها ، على حساب السوريين والعراقيين المتحضرين الذين كانت جذورهم التعليمية تكمن فى يونان أفلاطون ، والذين ساعد احتفاظ أسلافهم بالثقافة الهيلينية والفارسية القديمة على إخراج أوربا من العصور المظلمة .

كانت بريطانيا قد نكثت بما عاهدت عليه حسين ، وحتى تزداد الأمور سوءاً لم يبلغ حسين بشىء معين عما دبره المستر سايكس والمسيو بيكو برغم أن هذين السيدين زاراه فى جدة بعد عام من التوقيع على الاتفاق الذى تم بينهما . العذر الوحيد الذى قد يقدم لتبرير هذا النفاق هو أن وكالات شتى فى الحكومة البريطانية مسئولة عن السياسة فى الشرق الأوسط كانت تعمل داخل حجرات محكمة الأبواب والمنافذ . فلم تعرف اليد اليسرى ما تعمله اليد اليمنى . ولكن برغم أن مثل هذا التفسير قد يبرىء مسئولين حكوميين من أمثال مكماهون وسايكس من تهمة المخادعة ، إلا أن شخصاً على المستوى الأعلى لابد أن عرف ما كان يجرى ولابد أنه أدرك أن بريطانيا كانت تخون العرب من أجل إرضاء مطالب حليفها الفرنسى فى الشام وإرضاء مصالحها التجارية فى العراق . وأكثر من هذا ، فإن أى شخص عرف ما كان يجرى ، كان يجب أن يدرك أن الصفقة التى تمت بين سايكس وبيكو لا يمكن أن تبقى سرية

إلى أجل غير مسمى وأنه كلما طال الوقت الذى تخدع فيه بريطانيا الحسين زاد إحساسه بالإساءة عندما يتسرب السر فى النهاية .

وجاء التسرب عندما استولى البلاشفـــة على السلطة فى الروسيا فى عام ١٩١٧ ، وفى محاولة متعمدة لإرباك حلفاء النظام القيصرى أذاعوا على العالم شروط الاتفاق الإنجليزى — الفرنسى . لم يبطىء جمال باشا فى استغلال هذه الفرصة ليدق إسفينا بين الشريف الغاضب وحلفائه . ففى خطاب بعث به إلى فيصل فى نهاية نوفمبر ١٩١٧ اقترح أن يتخلى العرب الآن عن شركائهم الأوربيين الغادرين وينضموا إلى تركيا ، فإذا فعلوا ذلك فسوف تضمن لهم الإمبراطورية العثمانية أكمل استقلال داخلى بعد الحرب . تشاور فيصل مع حسين الذى طلب بدوره المشورة من ونجيت الذى كان الآن المندوب السامى فى مصر مكان مكماهون . وبناء على تعليمات من لندن نقل ونجيت إلى حسين رسالة من ا . ج . بلفور وزير خارجية بريطانيا زعمت أن الأتراك « شوهوا » بسوء نية « الغرض الأصلى من التفاهم بين الدول الكبرى وتغاضوا عما تضمنه من شروط تتعلق بموافقة الشعوب المعنية وحماية مصالحهم » ؛ وأن الثورة العربية « خلقت منذ وقت طويل موقفاً مختلفاً كلية » . وبعبارة أخرى يستطيع العرب أن يطمئنوا إلى أن الاتفاق سوف يعدل تعـــديلا كبيراً لصالحهم . وقد قاتلوا الآن بمثل هذه القوة للظفر بحريتهم ولمساعدة بريطانيا فى تحطيم العدو المشترك » .

أما أن يوقع أى وزير خارجية بريطانى باسمه على رسالة كاذبة كهذه فأمر أقل بعثاً على الدهشة من أن يكون حسين بمثل هذه الدرجة من السذاجة بحيث يقبل هذه التأكيدات بدون أن يصر على الإطلاع على نص اتفاق سايكس — بيكو . لو أنه أصر على هذا لرأى أنه لم تكن هناك كلمة عن « موافقة الشعوب المعنية » وأن الوثيقة بأكملها كانت موجهة نحو تنمية

خطط بريطانيا وفرنسا والروسيا على حساب الاستقلال العربى. وعلاوة على هذا فلابد أن بلفور كان يعرف أن فرنسا لن توافق أبداً على أن العرب كسبوا الحق فى تعديل الاتفاق لصالحهم، وكان يعلم علم اليقين أن بريطانيا ليست لديها نية التخلى عن دعاويها فى العراق. وأما فيما يتعلق بفلسطين فإنه قبل ذر هذا الرماد فى أعين حسين بثلاثة أشهر فقط كان قد أصدر فى نوفمبر ١٩١٧ تصريح بلفور الشهير الذى تعهد فيه بتأييد بريطانيا لإنشاء «وطن قومى» لليهود فى فلسطين، مع دافع خفى هو إقامة إدارة استعمارية بريطانية وقواعد عسكرية بريطانية فى ذلك البلد.

لم تكن بريطانيا راضية على الإطلاق عن الترتيبات «الدولية» المبهمة بشأن فلسطين والتى تضمنتها صفقة سايكس — بيكو. كانت هذه الترتيبات كافية فى ذلك الوقت لعرقلة دعاوى فرنسا فى الحصول على نصيب من الأرض الفلسطينية. ولكن كانت لندن الآن تحس إحساساً قوياً بأنه لو قام نظام حكم دولى لما وفر أمناً كاملا لقناة السويس ومصالح بريطانيا البحرية وهو الأمن الذى كان يتطلب سيطرة بريطانيا على فلسطين فضلا عن مصر. وفى فبراير ١٩١٧ فإن الذريعـــة التى تريد بريطانيا أن تستند إليها فى النكوص عن الترتيب «الدولى»، تجلت فى شكل حملة شنها الدكتور حاييم ويزمان من أجل إنشاء دولة يهودية أو «وطن قومى» كما دعيت من باب تلطيف التعبير، فى فلسطين.

بطريق الصدفة كان ويزمان الذى كان الآن محاضراً فى مادة الكيمياء بجامعة منشستر، يقيم فى دائرة بلفور الإنتخابية، وظل وقتاً ينعم بصداقة فكرية وثيقة مع وزير خارجية بريطانيا. هذان الذهنان اللامعان سرعان ما أدركا كيف تستطيع الصهيونية والإمبريالية البريطانية أن تخدم كل منهما مصالح الأخرى. وكان ويزمان من بين الصهاينة الذين تسلطوا على تيودور هرتزل

مؤسس الصهيونية عند ما أراد فى عام ١٩٠٣ قبول ما عرضته الحكومة البريطانية من تقديم أوغندة لتكون وطناً للشعب اليهودى . والآن رفض وايزمان فى صلابة النظر فى أى بديل عن فلسطين، بسبب صلات الشعب اليهودى التاريخية بتلك الأرض قبل العصر المسيحى(١) ولهذا السبب كان يعارض بحزم، وعلى نحو ما أصبحت الحكومة البريطانية تعارض بعد ذلك فيما اقترحه اتفاق سايكس — بيكو بشأن قيام نظام دولى . وجعل من الواضح جداً أيضاً لصديقه بلفور أنه سوف يحصل على تأييد الصهيونيين لقيام محمية بريطانية فى فلسطين إذا أيدت بريطانيا المطالب الصهيونى . وعلى أساس هذا التفاهم أعلن بلفور فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ أن بريطانيا سوف « تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومى فى فلسطين للشعب اليهودى » ثم أضاف مخادعاً الأغلبية العربية الساحقة فى فلسطين ، أنه « لن يعمل شىء يمكن أن يسىء إلى الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة فى فلسطين . . . » .

وإذ جاء تصريح بلفور فى نفس الوقت تقريباً الذى سرب فيه البلاشفة إتفاق سايكس — بيكو ، فإنه أحدث فزعاً فى العالم العربى . اضطرب حسين اضطراباً عميقاً وطلب على الفور من حليفه البريطانى تفسيراً عما بدا من أن فلسطين مهددة بالاستعمار من الخارج مع أنها فى مراسلات مكماهون ، لم تكن متضمنة أبداً فى المناطق « المحتفظ بها » . هنا كان الشريف سيخدع ثانية بالتأكيدات الباطلة . فبعثوا إلى الحجاز بالكومودور هوجارث وكان من أعضاء المكتب العربى فى القاهرة وحجة فى التاريخ العربى ، ليبلغه بناء على تعليمات من لندن أنه « لن يسمح باستيطان اليهود فى فلسطين إلا بقدر ما يكون متفقاً مع حرية الشعب العربى السياسية والاقتصادية » . فى ضوء ما هو واضح الآن أنه كان أهداف الدكتور وايزمان والمستر بلفور ، وبالنظر إلى تشجيع بريطانيا لاستيطان اليهود فى فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى ، فإن بيان هوجارث

(١) هذا الادعاء لا سند له يبرر هذه الأطماع . فاقامة اليهود لم تتجاوز سبعين سنة ثم زال ما كان لهم من نفوذ — المترجم .

لا يمكن أن يوصف إلا بأنه خداع متعمد يتساوى مع « تفسير » بلفور لاتفاق سايكس — بيكو . لو كانت الحكومة البريطانية دافعت عن « الحرية السياسية والاقتصادية » العربية لرحب العرب بتوطين اليهود فى فلسطين . ويكمن البرهان على هذا فى حقيقة أن حسين رد على هو جارث بأنه سوف يستخدم كل نفوذه للمساعدة فى إيجاد ملجأ لليهود من الاضطهاد ، وأعطى تعليمات لأبنائه وللزعماء العرب الآخرين بأن يفوا بوعدهم لبريطانيا وأن يهدئوا الشكوك العربية فى دوافعها .

واصل بلفور أيضاً جهوده « فى تهدئة الشكوك العربية » فأرسل ويزمان إلى القاهرة فى مارس ١٩١٨ ليطمئن الزعماء العرب فى مصر وفلسطين بأن المشروعات الصهيونية بشأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين لن تسىء إلى الحقوق العربية . وأعلنت وزارة الخارجية البريطانية فى يونيه أن الأراضى العربية التى تحررت بفضل جهود العرب أنفسهم — أى الحجاز وشرق الأردن — سوف يضمن لها « الاستقلال التام ذو السيادة » ، وأن المناطق التى تحررت بالمساعدة البريطانية — أى فلسطين والعراق — سوف تحكم « على أساس مبدأ رضا المحكومين » وأن أية أراض لا يزال يتعين تحريرها ـ أى الشام ـ « سوف تحصل على حريتها واستقلالها » : وأخيراً ، فى نوفمبر ١٩١٨ بعد استسلام تركيا ، صدر تصريح انجليزى — فرنسى مشترك فى فلسطين والشام والعراق ، أعلن أن سياسة الحكومتين فى الأراضى العربية المحررة هى إقامة نظم للحكم « تستمد سلطتها من حرية أهاليها فى ممارسة المبادرة ومن اختيارهم » ، وأنكر التصريح بصفة خاصة أية نية « لفرض هذا النظام أو ذاك على شعوب تلك الأقاليم لا يكون « يكفل العدالة غير المتحيزة والمتساوية للجميع » . وبعبارة أخرى يمكن أن يطمئن العرب إلى أن صفقة سايكس — بيكو كانت الآن مهملة ،

وأن الشام والعراق وفلسطين وشبه الجزيرة العربية سوف تكون حرة فى اختيار حكامها .

أما أن العكس بالضبط كان هو الصحيح وأن نية الحكومتين البريطانية والفرنسية الحقيقية كانت تجزئة فلسطين والعراق وسورية ولبنان بينهما ، فقد أصبح واضحاً بمجرد أن نصب فيصل نفسه فى دمشق . فأقيمت حكومة مدنية وعسكرية بريطانية فى بيت المقدس وبغداد ؛ وفرض الفرنسيون حكمهم على لبنان وشمال شرقى سوريا ، وأعطى للعرب الظهير السورى وشرق الأردن من حلب إلى العقبة . احتج فيصل بأن هذه الترتيبات تتعارض تماماً مع العهود التى قطعت للعرب وعندما عجز عن إحداث أى تغيير على الفور سافر أولا إلى باريس ثم إلى لندن ليعرض قضيته .

استقبله الفرنسيون ببرود وقالوا إنهم لا يستطيعون التعامل معه كممثل للعرب. وقابل البريطانيون دعاويه بصمت ينم عن الإرتباك . وحتى لو أرادوا التسليم بأى من حججه ، فقد كانوا أقل قدرة على هذا الآن منهم فى أى وقت قبل ذلك : ذلك أنهم وقد أقاموا حكومة عسكرية بريطانية فى جنوب العراق ، اشتموا رائحة بترول فى الشمال وهو المنطقة التى كانت قد آلت إلى فرنسا بموجب التقسيم الذى قضى به إتفاق سايكس ـ بيكو . كان النفط الوحيد الذى اكتشف قبل عام ١٩١٤ بكميات تجارية فى هذه الأجزاء هو الذى اكتشف فى منطقة امتياز الشركة الإنجليزية ـ الفارسية للزيت فى جنوب بلاد فارس . ولكن منذ ذلك الحين امتدت عمليات الحفر عبر الحدود العراقية إلى خانقين التى تتوسط المسافة بين بغداد وكركوك . كانت المصالح البترولية البريطانية على اقتناع بأنها لو اتجهت شمالا أكثر من ذلك فسوف تجد ثروة من النفط لم تمس بعد . وهكذا فى عام ١٩١٩ بذلت جهود كبيرة فى لندن لحمل الفرنسيين على التنازل عن منطقة الموصل لبريطانيا ولكن فرنسا كانت قد أحست بأن تصريح بلفور

خدعها ؛ ولم يكن فى مقدور كليمنصو رئيس وزراء فرنسا ، تقديم أية تنازلات لبريطانيا أو للعرب .

وعلى ذلك غادر فيصل لندن خالى الوفاض ، وعندما وصل إلى مؤتمر الصلح فى فرساى كانت تنتظره صدمات جديدة . كان أبوه قد استيقظ أخيراً على حقيقة أنه خدع ، وفى ثورة الهياج التى تملكته رفض أولا أن تكون له أى معاملات مع الحلفاء ولم يمنح فيصل السلطة للتفاوض بالنيابة عن العرب . واستمر الفرنسيون بالمثل فى رفضهم الاعتراف بالأمير ولم تتمكن الحكومة البريطانية من إقناع كليمنصو والشريف بسحب اعتراضهما إلا بصعوبة . وحتى فى هذه الحالة لم يسمح حسين لفيصل بحرية التوصل إلى حل وسط وأصر على أن تنفذ عهود بريطانيا كاملة .

مسكين فيصل ! لا يمكن أن تكون هناك شخصيات قلائل أكثر شعوراً بالوحدة فى أية أزمة فى الشئون العالمية من ذلك الذى شق طريقه وحيداً وسط الضخامة المذهبة التى كانت تحيط بالمؤتمرين فى فرساى . لم يؤيده سوى الوفد الأمريكى برئاسة وودرو ويلسون ؛ ولم تكن أمريكا فى ذلك الوقت فى مركز يجعل تأييدها على مائدة المؤتمر فعالا فى الشرق الأوسط . كانت بريطانيا تسعى وراء الموصل وفلسطين ؛ وكانت فرنسا مصممة على الحصول على كل ماتقدر عليه فى الشام ؛ وإذا أريد إقناع كليمنصو بالتنازل عن الموصل وقبول انتداب بريطانى فى فلسطين تعين على بريطانيا أن تطلق يد فرنسا فى سوريا . والحقيقة أن القوات البريطانية كانت آخذة فى التخلى عن مواقعها فى غربى سوريا للفرنسيين. كل ما استطاع الأمير أن يحققه هو اتفاق مع كليمنصو فى نوفمبر ١٩١٩ يؤكد سلطة العرب فى الأرض الواقعة بين العقبة وحلب بما فى ذلك دمشق ، وتشكيل لجنة تحقيق متحالفة تقوم بزيارة الشرق الأوسط واستشارة الأهالى المعنيين وتقديم توصيات بشأن حكومتهم المستقبلة . وتقرر أن تتكون اللجنة

من ممثلين عن بريطانيا وفرنسا وأمريكا . ولكن تنحت بريطانيا وفرنسا بدلا من أن تجدا أنفسهما تواجههما توصيات قد تتعارض مع سياساتهما ؛ وأصبح « المحققون » فريقاً أمريكياً بحتاً يرأسه الدكتور هنرى كنج والمستر تشارلز كرين Charles Crane .

قامت لجنة كنج - كرين بمهمتها باتقان كامل وأوصت بإقامة انتدابات مؤقتة فى سوريا وفلسطين والعراق . واقترحت أن يعهد بالانتداب على سوريا وفلسطين إلى الولايات المتحدة على أن يكون فيصل ملكا على سوريا ، وأن يعطى الانتداب على العراق لبريطانيا وأن يجرى استفتاء لاختيار ملك. أما عن فرنسا فأكدت اللجنة أن قوة الشعور العربى ضد الفرنسيين تستبعد التوصية بمنحهم أية انتدايات. وبالنسبة إلى مشكلة استيطان اليهود فى فلسطين ، اعترضت اللجنة على مشروع الصهاينة لإنشاء « كومنولث يهودى » وحبذت هجرة يهودية محدودة جداً وتدريجية . وباختصار ، كان تقرير كنج - كرين شعاعاً من الإدراك السليم والفهم فى عالم غشيه ظلام الجشع والخداع : ولكن كان مصيره التجاهل لأنه أنكر أطماع المنتصرين .

فى هذه الأثناء كان فيصل قد رجع إلى دمشق حيث وجد العرب يزدادون جموحاً . كانت جمعيتا الفتاة والعهد قد خرجتا إلى العلانية وكونتا سوياً « حزب الاستقلال العربى » الذى دعا إلى مؤتمر قومى سورى .وفور تكوينه فى مارس ١٩٢٠ أصدر المؤتمر قراراً يطالب بالاستقلال لسوريا الكبرى وأن يكون فيصل ملكا عليها ، وبرفض تصريح بلفور واتفاق سايكس - بيكو ، ورفض الوصاية و« المساعدة » الفرنسية فى أية صورة . وتلا ذلك اجتماع ضم الزعماء العراقيين اتخذ قرارات مشابهة واختار عبد الله ملكاً . استجابت فرنسا وبريطانيا بإعلان أن هذه الإجراءات باطلة ودعما على الفور إلى

اجتماع من الدول المنتصرة فى سان ريمو بإيطاليا ليتقاسموا الانتدابات على سوريا وفلسطين والعراق .

وكما سبق أن توقعت تجارة الخيل فى فرساى ، اعترف المؤتمر بدعوى بريطانيا فى فلسطين براكب يضطرها إلى تنفيذ تصريح بلفور ، وأضاف الموصل إلى انتدابها على العراق مقابل السماح للفرنسيين بسوريا كلها فضلا عن لبنان . وهكذا أنكرت قرارات سان ريمو على فيصل والعرب حتى تلك الشريحة من سوريا والتى تشمل حلب ودمشق ، وهى الشريحة التى كانت قد منحت لهم فى التقسيم الذى تقرر بعد الحرب والتى أكد كليمنصو قبل ذلك بخمسة أشهر فقط أنها أرض عربية .

خسر العرب ، وتحركت فرنسا على الفور لتدعيم مكاسبها فاستغلت خلافاً مع فيصل حول الحقوق الفرنسية فى استخدام سكك حديد الشام لتقوية حامياتها فى الشمال فأرسلت السلطات الفرنسية فى بيروت إنذاراً نهائياً تطلب إليه التسليم للدولة المنتدبة . واعتقاداً من فيصل بأن البريطانيين سوف يشعرون بأنهم مضطرون إلى التدخل ، أخذ يتأرجح وقتاً طويلا بحيث أعطى الفرنسيين ذريعة للزحف على دمشق . وبرغم أنه قبل الشروط الفرنسية فى وقت لاحق ، زعم الفرنسيون أن خطابه « فقد » عند وصوله ، ولما عثروا عليه كانوا قد احتلوا عاصمته وأمروه بمغادرة سوريا بأول قطار فى الصباح التالى . لقد غدرت بريطانيا وفرنسا الآن بكافة وعودهما للعرب . فخطاب مكماهون إلى حسين فى أكتوبر ١٩١٥ ، وتأكيدات بلفور وهوجارث بشأن اتفاق سيكس ـ بيكو وتصريح بلفور والتصريح البريطانى الصادر فى يونيه ١٩١٨ ، والإعلان الإنجليزى ـ الفرنسى فى نوفمبر التالى ، والاتفاق بين فيصل وكليمنصو فى نوفمبر ١٩١٩ ، هذه جميعاً نسخت الآن . كان كل منها قد حقق الغرض المتوخى منه من حيث ملاطفة العرب والإبقاء على الثورة العربية قائمة ضد العدو المشترك

والآن يمكن نسيان هذه العهود والنزول بها إلى أضابير فصل دنىء ومخجل من التاريخ الدبلوماسى .

ولكن إذا كان الحلفاء اختاروا نسيان عهودهم ، فان العرب كانوا مايزالون يذكرونها ، وبعد أن عزل الفرنسيون فيصل بمثل هذه السرعة ، نشبت موجة من الثورات فى صفوف قبائل وادى الفرات فى العراق . كانت الخسائر فى الأرواح والأموال التى تكلفها إخماد هذه الثورات من الفداحة بحيث اضطرت الحكومة البريطانية إلى إعادة النظر فى سياستها والتخفيف من التزاماتها فى العراق؛ فدعى مؤتمر إلى الانعقاد فى القاهرة فى مارس ١٩٢١ رأسه المستر ونستون تشرشل بوصفه وزير المستعمرات وحضره كوكبة من الخبراء البريطانيين فى الشئون العربية تضمنت ت. ا . لورنس وجرترود بل والسير برسى كوكس المندوب المدنى البريطانى فى العراق ، وذلك للبحث فى أفضل طريق يمكن به تحقيق السلام فى العراق والوفورات لدافع الضرائب البريطانى .

اتخذ مؤتمر القاهرة قراراً واحداً وفرض عليه قرار ثان . كان القرار الذى اتخذه هو دعوة فيصل إلى التقدم إلى استفتاء شعبى بقصد تنصيبه ملكاً ، وسحب الجيش البريطانى والاعتماد على سلاح الطيران للدفاع عن البلد وعن مواصلات بريطانيا مع الهند . أما القرار المفروض على المؤتمر فكان الاعتراف بعبد الله أميراً على شرق الأردن . كان عبد الله ووالده قد تملكهما الغضب الشديد من جراء مسلك الفرنسيين فى سوريا بحيث صمما على محاولة استرداد البلد بالقوة . وعلى ذلك أرسل عبد الله مع جيش من ألفى رجل وراح يشق طريقه إلى دمشق عبر شرق الأردن عندما اعترض طريقه ضابط من إدارة فلسطين وكانت مفاجأة له أن رحب به الضابط فى البلد . وسرعان ما أثنوا عبد الله عن خططه لاسترداد سوريا بمثل هذه القوة الصغيرة فأعلن نفسه حاكماً على شرق الأردن بينما كان مؤتمر القاهرة مجتمعاً . قرر تشرشل ومستشاروه قبول الأمر

الواقع وتم الاعتراف بالفعل بعبـــد الله أميراً فى ظل الإنتداب البريطانى .

هكذا قدمت بريطانيا بعض الكفارة لاثنين من أبناء الشريف حسين . ولكن ظل حسين نفسه لاتليق لهقناة، فلم تجد الجهود التى بذلت لإقناعه بأن يقبل قرارات سان ريمو . وراحت بريطانيا تغريه بعقد معاهدة تحالف ؛ ولكن الشريف رفض بجفاف ما اعتبره محاولةلرشوته كى يتجاوز عن نكث بريطانيا عهودها . ولم يكن أقل شدة فى التنديد بفيصل بسبب تساهله فى حقوق العرب بالاتفاق الذى عقده مع كليمنصو . وفى هياجه وغضبه الشديد حاول بغباء أن يؤكد سلطة لم يكن يملكها . فاستغل سقوط السلطان ـ الخليفة العثمانى ونادى بنفسه خليفة للاسلام .

وكما لو أن هذا لم يكن كافياً ليثير غضب جاره المعادى له وهو ابن سعود الذى كان بسبب روحه البيوريتانية[1]، يعتبر مسايرة الشريف للحلفاء الكفار انتهاكاً للدين راح حسين الآن فاتخذ خطوة أخرى بمحالفة ابن الرشيد العدو التقليدى لابن سعود . وكذلك ساعد فى تمويل ثورة قبائل وادى الفرات ضد الاحتلال البريطانى .

وهكذا بحلول عام ١٩٢٢ كان الشريف قد أبعد عنه ابنه وجيراته وأخيراً الحكومة البريطانية وهى الوحيدة القادرة على حمايته ضد تهديدات الوهابيين . إلا أنه عاد فى العام التالى فرفض عرضاً بعقد معاهدة مع بريطانيا مصراً على أنه يجب أولا أن تنفذ وعود بريطانيا بالاستقلال العربى تنفيذاً حرفياً . وبرغم أن بريطانيا كانت مستعدة لأن تقنع باعترافه بانتدابها على فلسطين وحده ، رفض حسين فى عناد أن يقبل أى شىء يقصر عن الصيغة التى ذكرها هو جارث عن « الحرية السياسية والاقتصادية » للعرب فى فلسطين . وعندما توقفت

---

(١) الشديدة التمسك بتعاليم الدين . ــ المترجم .

أخيراً المفاوضات فى ربيع عام ١٩٢٤ كان حسين قد أغلق آخر باب يمكن أن يأتى عن طريقه العون والتأييد لأنه كان أكثر اهتماماً بانقاذ عرب فلسطين من أن تطغى عليهم الهجرة اليهودية غير المحدودة ، منه بإنقاذ عرشه هو . إذا لم يكن من سبب خلاف هذا ، فيجب أن نعجب به إذ من الصعب الاعتقاد بأنه عجز عن إدراك النتائج التى تترتب على رفضه مخالفة ضميره مقابل معونة بريطانية ضد جيرانه السعوديين الذين كانوا يهددونه .

وبعد أشهر قلائل فى أغسطس ١٩٢٤ أمسكت به النتائج عندما زحف جنود ابن سعود الوهابيون على الحجاز . وعند ما احتل الفاتحون الطائف ونشر عملاؤهم الذعر فى جميع أرجاء الحجاز بشائعات عن أن جميع سكان البلدة قتلوا[1] ، اتجه الشريف أخيراً نحو بريطانيا يلتمس المساعدة . ولكن الحكومة البريطانية اختارت الآن أن تعامل الصراع على أنه مسألة قبلية لا تعنيها . وفضلا عن هذا ، كانت الحكومة البريطانية فى الهند تقف إلى جانب ابن سعود وتكن للشريف ضغينة منذ أمد طويل لكونه أثار غضب المسلمين الهنود بتحديه للسلطان — الخليفة العثمانى منذ لحظة تعيينه فى مكة .

تنازل حسين الآن لصالح ابنه الأكبر على وهو شخص مصاب بذات الرئة ، حال ضعف صحته دون أن يلعب دوراً نشيطاً فى الثورة العربية . كان الرجل العجوز يأمل فى أنه بالتضحية بنفسه قد يوقف المزيد من إراقة الدماء ويحمل ابن سعود على التفاوض للوصول إلى تسوية . ولكن الوهابيين واصلوا زحفهم بغير هوادة واستولوا على مكة فى أكتوبر ١٩٢٤ ، وبعد حصار طويل أخضعوا فى النهاية آخر معقل هاشمى وهو جدة فى ديسمبر ١٩٢٥ . سلم على البلاد لابن سعود وخرج ليعيش فى المنفى فى إحدى ضياع أخيه فيصل فى العراق . وتوجه حسين إلى قبرص حيث تقلد وسام فارس

(١) نوع من حرب الأعصاب ـ المترجم .

الصليب الأكبر من طبقة سان ميشيل وسان جورج ، على أيدى حاكمها رونالد ستورس وهو الرجل الذى كان حسين قـــد تفاوض معه بشأن الخطوات الأولى فى تحالفه التعس مع بريطانيا — فكان الوسام بديلا هزيلا عن عرشه وعن الحرية والاستقلال اللذين ظن ذات مرة أنه ظفر بهما للعرب .

(٣٦)

ابن سعود — سياسي الصحراء

ما من شك أن الرجل الذى حطم حسيناً شريف مكة فى النهاية ، وهو عبد العزيز بن سعود ، يعتبر اليوم واحداً من آخر الأمراء الإقطاعيين العظام فى بلاد العرب . لكن هذا ليس فيه إلا قدر من الحقيقة ؛ لأن هذا الأمير نفسه لم يكن ليفتح الحجاز فحسب ، بل وأهم من هذا قدر له أن يكون مبعث إلهام وتوجيه لواحدة من أروع ما عرف التاريخ من ثورات وعمليات بعث .

من المحقق أنه ما من شىء كان يمكن أن يكون أقرب إلى الإقطاع أو حتى إلى العصر الوسيط ، من خلفيته . بدأ ابن سعود حياته وسط قوم كانت الحضارة قد خلفتهم وراءها تماماً . وكانت الأملاك التى ورثها عن أسلافه أرضاً غير مملوكة لأحد ، تقع بين شمال بلاد العرب وجنوبها ، وفيها كان الصراع ضد العوامل الطبيعية من القسوة بحيث تركها الغزاة الأجانب فلم يمسوها أو يحتلوها . كانت أول جيوش الإسلام بقيادة خالد بن الوليد قد عبرتها لترغم عمان وحضرموت واليمن على الاستسلام ، وعبرها القرامطة لينهبوا مكة ، وعبرها عبد الوهاب ليستولى على مدن الإسلام المقدسة من الأتراك . ولكن الرمال التى تذروها الرياح سرعان ما محت آثار أقدامهم ، وكانت الوهاد الصحراوية فى نجد تعود بعد كل اضطراب تعرض له إلى الخلاء الأزلى الذى يتصف به مكان لا يبقى فيه أحد إلا ليموت ، وكان البدو الرحل السريعو الحركة هم وحدهم الذين حافظوا على وجود جزئى طفيف . ولكن أصول ابن سعود البدائية وجدت فى عقيدة أسلافه الصارمة ما هو أكثر من تعويض عنها . وبينما كان ما يزال فى عهد الصبا برغم خلفيته التى

تنتمى إلى العصور الوسطى ، صنع دولة عصرية من القبائل الرحل وأصبح بمرور الوقت قوة يعمل حسابها فى يقظة بلاد العرب من جديد .

ولد ابن سعود فى نوفمبر من عام ١٨٨٠ ، وكان من عقب محمد بن سعود وسميه عبد العزيز بن سعود ، وهما الشخصيتان الرئيسيتان اللذان ناصرا عبد الوهاب الذى كان يدعو إلى الإحياء والتمسك بالتعاليم ، والذى أضفى إسمه على رجال القبائل المحاربين الأشداء الذين حكمهم البيت السعودى . فى هذا الوقت كانت حظوظ الأسرة وأملاكها تختفى سريعاً تحت وطأة مطارق قبيلة شمر الكبيرة بزعامة محمد بن رشيد أمير الحائل الكائنة فى شمال شبه الجزيرة العربية . كان العداء المستحكم بين السعوديين والرشيديين يرتد إلى عهد بعيد ، وعند ما طرد السعوديون فى النهاية وأتباعهم الوهابيون من رجال القبائل من الحجاز على أيدى جيوش محمد على المصرية فى عام ١٨١٨ أسرع أتباع الرشيد إلى استغلال هذه الهزيمة . وخلال بقية القرن التاسع عشر إنزوى السعوديون وأصبح موطنهم فى نجد ملكاً بغير منازع لشمر وقادتهم الرشيديين . قنع الأتراك بقبول هذا الموقف . فهو من جهة أزال التهديد بنشوب ثورة وهابية أخرى كالتى كادت أن تفقدهم الحجاز والمدن المقدسة فى بداية القرن ؛ ومن جهة أخرى لم يكونوا يميلون إلى احتلال الصحارى وفضلوا أن يقوم الرشيديون بهذه المهمة .

وبعد مولد ابن سعود بأربع سنوات شن زعيم شمر الحاكم وهو محمد ابن رشيد ، هجوماً جديداً على المعقل الذى كان باقياً فى أيدى السعوديين وهو الرياض . ظل « هذا الوغد ذو البشرة الصفراء والعينين الضخمتين اللتين تشبهان عيون النساء » على حد وصف تشارلز دوتى ، يحاصر الحصن السعودى إلى أن سقط نهائياً فى عام ١٨٩١ . وعندئذ فر الأمير الصبى ووالده الأمير عبد الرحمن ، إلى الكويت حيث منحهما حق اللجوء حاكمها الشيخ مبارك

وكان قريباً لهما من بنى عنيزة . وهناك كبر ابن سعود الشاب فأصبح شخصية مرتفعة القامة وذات قوة بدنية كبيرة ، له لحية دقيقة أنيقة ويدان رشيقتان وتعبير يمكن أن يصبح عنيفاً حقاً إذا ثار غضبه ، وشفتان يبدوان إذ أطبقتا كنصل أبيض لسلاح يتذبذب . وهناك أيضاً تعلم أساليب الصحراء من بدو قبائل مطير وعوازم ، ومن هؤلاء القوم الفقراء والمقتصدين فى حياتهم ، اكتسب بساطة فى الملبس والعادات لن تفارقه أبداً .

شىء آخر لم يفارقه أبداً وهو يتقدم نحو مرحلة الرجولة فى ظل حماية شيخ الكويت ، هو رغبة ملتهبة فى الثـــأر لهزائم الأسرة وفى استرداد ممتلكاتهم فى نجد . وفى فبراير ١٩٠٠ قام ابن سعود بأول محاولاته للخروج من الكويت . انتهت المحاولة بكارثة وهزيمة ، ولكنها علمت الأمير الشاب الوافر الحماسة ألا ينقض على شمر فى معركة سافرة دون أن تتوافر له القوات الكافية . وبعد عامين اقترض من الشيخ مبارك مالا لتجهيز قوة تضم مائتين من راكبى الإبل وخرج للاستيلاء على الرياض خلسة . وعند ما بلغ أطراف البلدة انتقى خمسة عشر من أقوى وأشجع رجاله وزحف معهم نحو هدفه الأول وكان بيت الحاكم . تطور النضال الذى تلا ذلك إلى نزال شخصى بين ابن سعود والحاكم، كان رجال الأمير خلاله يطاردون الحرس الرشيدى الذى جرى لنجدة سيدهم . ثم ، بينما كان جنود الحاكم يجرونه بعيداً أرداه أحد رجال ابن سعود قتيلا ، وهنا اشترك راكبو الإبل من رجال الأمير واستسلمت الحامية الرشيدية .

كسب ابن سعود الجولة الأولى فى نضاله الشخصى من أجل تأكيد شرف الأسرة . وبعد ذلك بأسبوعين نادى به أبوه أميراً على نجد وإماماً للوهابيين . انتشرت أنباء البعث السعودى كالنار فى الهشيم . وسرعان ما انضم إلى ابن سعود حشد هائل من المؤيدين ، وبعد الاستيلاء على الرياض

بعامين كان قد تم تطهير معظم نجد من أتباع ابن الرشيد . والآن تحول ابن الرشيد ناحية حماته الأتراك يطلب المساعدة . واستجاب الباب العالى بإرسال حملة وصلت إلى قاسم فى شمال غربى نجد فى صيف عام ١٩٠٤ ونجحت فى إلحاق الهزيمة بابن سعود الذى جرح فى الاشتباك . ولكن الأتراك الذين لم يكونوا معتادين على المناخ سرعان ما أصيبوا بالكوليرا ، وعندما قاد الأمير هجوماً مضاداً عنيفاً اضطلعت به قوات الصاعقة الوهابية ، انهار الأتراك وفروا متخلين عن حلفائهم من بنى شمر .

حاول الباب العالى الآن تعويض خسائره عن طريق المفاوضة وأرسل مبعوثين إلى ابن سعود لاقتراح إنشاء دولة عازلة محايدة فى ظل السيطرة التركية بين أملاك شمر والسعوديين . ولكنهم لم يحصلوا على أى فائدة من الأمير الذى راح يلاحقهم بالمراوغات بينما كان يجمع قوته من أجل المواجهة النهائية مع ابن الرشيد . وبعد ذلك فى أبريل ١٩٠٦ قاد هجوماً مباغتاً على المعسكر لرشيدى . قتل ابن الرشيد فى القتال الذى أعقب ذلك واستسلم أتباعه للفاتحين الوهابيين .

كان ابن سعود الآن سيد نجد كلها واسترد الممتلكات الشرعية التى كانت للبيت السعودى . لم تبق غير صعوبة واحدة . فبالتحريض من جانب الأتراك استمرت قبائل الحسا على الخليج الفارسى تشن سلسلة من الهجمات الجانبية على المواقع السعودية فى الشرق . ظل سنوات عدة يتجاهل وخزات الإبر هذه . ثم بينما كان يقوم بجولة تفتيشية فى هذه الجبهة فى أوائل عام ١٩١٤ ، وجد نفسه على مسيرة ساعات قلائل فقط من عاصمة الحسا حيث كانت تنزل الحامية التركية الرئيسية . وبالجسارة التى يتميز بها الأمير قرر أن يضرب مع حرسه المكون من ستمائة وهابى وبعد أن عرف قوة وتحركات الدفاعات التركية . إنسل فى كنف الظلام وانقض على الحامية التى اعترتها الدهشة فأسرهم مع

حاكمهم . بعد ذلك بشهر لم يبق أتراك فى الحسا ، وتم تهدئة القبائل ، وسيطر ابن سعود على ساحل الخليج الفارسى بأسره من الكويت حتى البحرين . استبعد الباب العالى الآن هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية ولم يعد ابن سعود يتعرض أبداً للمضايقة بسبب الهجمات التركية .

ومع كل ، كانت نجاحاته قد أثارت الآن اهتمام قوة عالمية أخرى هى بريطانيا العظمى ، كانت سياستها فى ذلك الحين هى مد مجال نفوذها حتى الخليج الفارسى بقدر الإمكان ، لموازنة التهديدات العدوانية الممثلة فى سياسة « الزحف على الشرق » الألمانية . والآن وقد أصبحت الأراضى السعودية تمتد حتى شواطىء الخليج الفارسى حول البحرين ، ومع حليف السعوديين القديم مبارك فى الكويت ، فان الأمير يمكن أن يكون صديقاً نافعاً أو عدواً يسبب الحرج . وعلى ذلك عند ما تجمعت سحب العاصفة قبل الحرب العالمية الأولى أرسلت حكومة الهند ممثلا هو الكابتن شكسبير من رجال الإدارة السياسية الهندية ، لمقابلة ابن سعود . ولكن الأمير ، شأنه شأن حسين شريف مكة ، كان لا يهتم إلا بالحصول على الأسلحة والمال لوقف الأتراك عند حدهم . ولما كان شكسبير ملتزماً بأن يرد على ابن سعود بأن بريطانيا لا يمكن أن تتدخل فى الشئون الداخلية للامبراطورية العثمانية ، انتهت الجولة الأولى من المباحثات إلى لا شىء ولكن ، وكما كان الحال مع حسين ، سرعان ما تغيرت نغمة بريطانيا عندما نشبت الحرب وأصبحت تركيا عدوها السافر . فأرسل شكسبير فى نوفمبر ١٩١٤ ليتفاوض بشأن عقد معاهدة تحالف مع ابن سعود بينما كانت القوات البريطانية تنزل فى العراق وتحتل البصرة عند بدء الحملة على الجزيرة . كانت تعليماته فى هذه المرة هى أن يسعى للحصول على المساعدة السعودية النشيطة ضد الأتراك . ولكن الأمير الحذر لم يكن ليجر إلى القتال لحساب بريطانيا كان أقصى ما يمكن أن يوافق عليه تعهداً بالامتناع عن الدخول فى علاقات مع أية

قوة أجنبية أخرى وبأن يرفض السماح لجيش أجنبى باستخدام أرضه. ومقابل هذا إعترفت به بريطانيا حاكماً على نجد والحسا ، وتعهدت بالدفاع عنه ضد أى هجوم تركى وبتزويده بالبنادق والمال .

لم تكن هذه صفقة رديئة بالنسبة إلى السعوديين . فهى قد أعطتهم الحماية مقابل الحياد ؛ وجعلت فى إمكانهم عندما دعاهم السلطان العثمانى إلى الاشتراك فى « الجهاد » ضد بريطانيا ، أن يردوا بصدق تام أنه لا يمكنهم أن يستعدوا العناية الإلهية فى صورة القوة البحرية البريطانية فى الخليج الفارسى . ولكن عندما بدأت الثورة العربية فى عام ١٩١٦ وبدأت الإمدادات البريطانية تتدفق على جيوش حسين لتمكينها من القتال إلى جانب بريطانيا ، شكا ابن سعود من أنه يعامل معاملة هزيلة بالقياس إلى شريف مكة ولكن مهما كان ما حصل عليه حسين من بريطانيا قليلا ومهما كان القتال الذى اضطلع به بالمقابل شديداً ، فان ابن سعود كان سيعترض . إذ ظل طيلة السنوات الخمس السابقة يكن مظلمة مريرة ضد جاره الهاشمى . ففى عام ١٩١١ كان رجال القبائل من أتباع حسين قد وجدوا أخاً لابن سعود هو سعد، يحاول أن يضم بعض القبائل على حدود الحجاز إلى جانب قضية الأمير وأخذوه أسيراً . رأى الشريف الذى كان مايزال عند هذه النقطة يتظاهر بالتعاطف مع الأتراك بينما يخطط سراً لثورته ، نقول رأى هنا فرصة لتهدئة شكوك الباب العالى وأعلن أنه سوف يطلق سراح سعد بشرط أن يعترف ابن سعود بالسيادة التركية على قاسم الواقعة على الحد الشمالى لنجد . اضطر الأمير المتكبر إلى الموافقة على الشروط ، وبرغم أن الأتراك لم يعملوا أبداً على تأكيد حقهم ،إلا أن الإذلال ظل يتقد وقتاً طويلا فى نفسه . وبدلا من أن يحاول حسين العمل على أن يندمل هذا الجرح ، عمل أشياء أسوأ عندما طلب ابن سعود ألا يعتدى على أراضى

نجد فى العمليات التى يقوم بها ضد الأتراك فأجاب أن مثل هذا الطلب لا يمكن أن يكون قد صدر إلا عن مجنون أو مخمور .

ولكن برغم حقيقية أن الشريف كان يحارب بينما التزم الأمير الحياد ، فان شكاوى ابن سعود وجدت آذاناً صاغية فى داخل حكومة الهند التى كانت تكره حسين بسبب ما سبب لها من متاعب فى صفوف المسلمين الهنود . وبعد جولة طويلة أخرى من المباحثات مع السير برسى كوكس باعتباره يمثل الإدارة البريطانية بالجزيرة ، حصل ابن سعود على اتفاق قرر له إعانة شهرية قدرها ٥٠٠٠ جنيه انجليزى (٢٥٫٠٠٠ دولار) وكمية إضافية من البنادق مقابل تعهده بالإبقاء على جيش مستديم من أربعة آلاف رجل ، وبمواصلة الضغط على الرشيديين لمنعهم من تعزيز الأتراك فى بلاد الجزيرة ، كان ماحصل عليه مبلغاً ضخماً بالنسبة إلى أمير معوز كان يمكنه فى ذلك الوقت أن يضع فى خرجه الاحتياطيات المالية فى مملكته بأسرها . إلا أن ابن سعود عجز تماماً عن تنفيذ هذا الجانب من الصفقة واستطاع أمير الحائل الجديد أن يترك عاصمته فى أيدى عبد يثق به وأن ينضم إلى الأتراك مع الجانب الأكبر من قواته . عندئذ عرضت بريطانيا مضاعفة الإعانة إذا استرد ابن سعود الحائل فيخفف الضغط المتصاعد على جبهة الجزيرة ، ولكن الأمير سخر فحسب من الفكرة وأصر على أنه مقابل مثل هذه الخدمة ، يجب أن تزيد المدفوعات إلى ثلاثة أمثالها وأن يزود بعشرة آلاف بندقية على الفور ، وهذا مطلب لم يكن فى إمكان حتى صبر حكومة الهند أن يحتمله .

أكد الذين دافعوا عن موقف ابن سعود وتصرفه بأن السبب فى عدم التزامه بهذه الصفقه هو أنه كان مشغولا بأمره منافسه الجديد حسين . صحيح أن حسين ربما كان بما زودته به بريطانيا من أسلحة ومال وخبراء فنيين ، يشكل فى ذلك الوقت جاراً أبعث على الرعب من الرشيديين الذين كان

الوهابيون قد أصابوهم بضربة حاسمة قبل ذلك بعشر سنوات . وكما عبر سنت جون فيلبي عن الأمر بدقة ، فأن الأمير « لم يكن بالتأكيد ليقف موقف المتفرج الخالى من المصلحة ، على تعقيدات السياسة العربية » . وعلاوة على هذا فلاشك أن ادعاءات حسين الحمقاء بأنه « ملك البلاد العربية » ، زادت من شكوك ابن سعود . ولكن مواصلة الأمير التزام الحياد كان يرجع أكثر سبب فيه إلى انشغاله بالمشكلات الداخلية بمملكته الصحراوية .

فبفهم دقيق للتاريخ العربى ، كان ابن سعود يعرف أن مزيجاً من الحماس للاسلام ومن النجاح العسكرى ، لايمكن أن يبقى على وحدة وتماسك جماعة عربية صحراوية إلى غير مسمى . فكثيراً جداً ما عمل الصراع القبلى على تبديد الفتوحات العربية المبكرة وعملت المؤثرات الخارجية على تقويضها ، وذلك بعدوفاة الفاتحين . لابد من شيء أكثر دواماً من الشخصية أو النهب والسلب إذا أريد لهذه الشظايا القبلية التى تضمها مملكته ، أن تندمج فى بعضها لتكوين مجتمع قوى ومستقر . وفى سبيل هذه الغاية لم يكن العرب فى حاجة إلى نداء فحسب وإنما كانوا فى حاجة إلى حرفة . وهكذا راح الأمير يبث مفهوماً جديدا وثورياً للحياة فى المجتمعات البدوية فى نجد . وتحدياً لقرون من التقليد ، بدأ فى عام ١٩١٠ يفتت القبائل ويمزجها سوياً ، وأعاد توطين البدو فى الأرض فى مستعمرات صغيرة من « الإخوان » . وكان له من وراء هذا أهداف ثلاثة هى : أن يخلق من المستوطنين جيشاً من نوع الميليشيا قادراً على الدفاع عن كل مستوطنة ضد الغزاة أو قطاع الطرق ، أن يعلم البدومنافع الحياة المستقرة على نقيض حياة الترحال ؛ وأن يحطم البنيان القبلى القديم بمايشتمل عليه من ضغائن وفتن تسبب الانقسام وأن يُحل محله إحساساً بالتماسك القومى والروحى . طبق أول تجربة على أصدقائه وحماته القدامى وهم بنو مطير ، ولم

يمض وقت قصير نسبياً حتى كان قد أنشأ نحو سبعين من مستوطنات الإخوان مجموع سكانها حوالى ثمانين ألف نسمة .

لم يكن أى من هذا النظام الجديد ليتحدى سيادة الإسلام الغالبة . على العكس ، كان الشعار هو « الرجوع إلى القرآن وإلى الأرض » ، وكانت فكرة ابن سعود هى أن العقيدة الإسلامية تزداد قوة إذا حل الشعور الإخوانى محل الولاء القبلى . إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى كان مشروعه يواجه معارضة عنيفة من جانب الوهابيين المحافظين وذلك لأسباب دينية وكذلك لأسباب قبلية ؛ وعلى ضوء ما سوف يكتشفه فى مناسبات كثيرة فيما بعد حينما حاول إصلاح وتحديث حياة شعبه وعاداتهم ، فإن النجاح فى وجه معارضة مصممة كان يتطلب كل ما تملك قيادته من قوى ، فضلا عن تنازلات شديدة على حساب هيبته وكرامته . من المفهوم أنه وأمامه الكثير الذى يتعين التغلب عليه ، لم يكن يملك فائضاً من الموارد أو الطاقة يمكنه من الاشتباك مع عدو لم يعد يضايق قومه ، وهو عدو يجوز إذا استثير أن يجلب هجوماً تركيا جديداً ينقض على رأسه .

من المحقق أنه بعد الحرب العالمية الأولى عند ما أزيل التهديد التركى ، لم يبد أى تردد فى استئناف حربه الخاصة . ففى عام ١٩٢١ وبعد أن استولى على عسير فى الجنوب والواقعة بين الحجاز واليمن ، استولى على الحائل ووضع نهاية للرشيديين . وفى العام التالى استولى على الجوف ووادى سرحان وهى المواقع الشتوية التقليدية لقبيلة رُوَلاّ التى يرأسها نورى شعلان أحد أمراء بلاد العرب العظام الأربعة . بل وحاول أن يغزو شرق الأردن فطرده السلاح الجوى البريطانى .

فلم يأت عام ١٩٢٢ حتى كان ابن سعود قد اكتسب شهرة تجاوزت حدود نجد بكثير . ولكن خزائنه لم تزد مع مكانته ، ولا حتى مع فتوحه ؛

فبخلاف إعانة بريطانية قدرها ٦٠٫٠٠٠ جنيه (٣٠٠٫٠٠٠ دولار) فى السنة ، لم تتجاوز إيراداته السنوية ١٥٠٫٠٠٠ جنيه (٧٥٠٫٠٠٠ دولار) . وعاد عليه امتياز بالتنقيب عن البترول فى مقاطعة الحسا ، بمبلغ آخر قدره ٢٠٠٠ جنيه (١٠٫٠٠٠ دولار) فى السنة ، ولكن رجال النفط أقلعوا عن المحاولة بعد عامين وخرجوا . راح ابن سعود الآن ينظر حوله بحثاً عن فتح جديد يمكن أن يزيد بيت ماله الهزيل . وكان حتماً أن تقع عينه فى اشتهاء على الحجاز ، على أمل أن تستأنف إيرادات الحج بعد أن انتهت الحرب وأعيد فتح الطريق إلى مكة .

أحست بريطانيا على الفور بالخطر ، خاصة وكان حسين والأمير قد اشتبكا حديثاً فى صدام عنيف بسبب ادعاء كل منهما الحق فى واحة الخرمة على حدود الحجاز ونجد . كانت بريطانيا قد انحازت إلى جانب حسين فى هذه المشكلة ، وفى مارس ١٩١٩ أمرت ابن سعود بالخروج من الخرمة . ولكن عندما وصل عبد الله فى مايو ليتملكها باسم الشريف ، خسر كل القوة التى كانت معه ، على أيدى المدافعين الوهابيين . دعى مؤتمر تحت رآسة بريطانى إلى الانعقاد فى الكويت فى نوفمبر ١٩٢٣ ، دعا ابن سعود إلى السماح لحسين بامتلاك الخرمة إذا اعترفت بريطانيا بحقه فى وادى سرحان . ولكن الأمير رفض صراحة إذ كان يعلم أن فى إمكانه الاحتفاظ بالإثنين . سادت حالة من الهدنة المسلحة لمدة أربعة أشهر ، ثم نادى حسين بنفسه خليفة فى فبراير ١٩٢٤ . كان هذا بالنسبة إلى ابن سعود ذريعة كافية للاستيلاء على الحجاز . وفى سبتمبر سقطت الطائف فى أيدى الإخوان المتحمسين الذين قتلوا ثلاثمائة من الأهلين قبل أن يتمكن قائدهم سلطان بن بجاد من وقفهم . خاف ابن سعود أن تتعرض مكة لما هو أسوأ من هذا ؛ ولكن لحسن الحظ جلا حسين عن المدينة دون قتال ، وكانت أسوأ خسارة هى تحطيم بعض آثار إسلامية كان

الوهابيون المتزمتون يعتبرونها من مظاهر الوثنية . وفى السنة التالية سقطت المدينة المنورة وجدة ، وفى ٨ يناير ١٩٢٦ نودى بابن سعود ملك الحجاز وسلطان نجد . وبعد ذلك بست سنوات فى سبتمبر ١٩٣٢ فإن اتحاد نجد والحجاز والحسا أصبح رسمياً المملكة العربية السعودية يحكمها ابن سعود حكماً وراثياً .

بينما فتح الحجاز بايراداته من الحج ، حل بعض المشكلات ، فانه خلق أيضاً مشكلات أخرى . فباعتبار أن السعوديين حفظة المدن المقدسة الجدد ، أصبحوا الآن على اتصال وثيق بل وعلى خلاف مع الدول الإسلامية الأخرى ومع القوى الأوربية التى تتولى الإدارة فى مستعمرات تتاخم الأرض السعودية . كان مايشكل أعظم صعوبة هو الفجوة الواسعة بين تعاليم الوهابيين المتشددة والأساليب المتساهلة والمثقفة نسبياً عند أهل الحجاز الذين كان الوهابيون يدرجونهم فى إزدراء فى غير المؤمنين باعتبارهم من « الكفار » . أما مدى اتساع تلك الفجوة ففى الإمكان أن نراه من حقيقة أن الإخوان الذين أخذوا مكة أمكن بصعوبة صرفهم عن هدم قبة قبر محمد باعتبارها رمزاً وثنياً يخلد ذكرى رجل وعلى ذلك لايتفق مع القرآن .

عالج ابن سعود هذه المشكلات بمهارة رائعة وفهم واسع . فدعا إلى مؤتمر من الدول الإسلامية فى يونيه ١٩٢٦ ، لمناقشة الجوانب الإسلامية من الإدارة الحجازية ، وأحسن استغلال الفرصة ليجعل رجاله من الإخوان المتحمسين يتصلون بمسلمين أكثر ثقافة . وكانت النتيجة على مايقال ، أن تأثير الضيوف الأجانب على الإخوان كان أفضل بكثير من تأثير الإخوان على الضيوف . ولكن بالنسبة إلى الغرض الذى توخاه ابن سعود كان المؤتمر ناجحاً إذ مكنه من العمل بصورة متدرجة جداً ، على تعديل المبادىء الأصولية التى كان يعتنقها الوعاظ الوهابيون ، وأن يقنع أهل نجد بقبول معدات علمية حديثة

من قبيل التليفونات والسيارات باعتبارها أشياء نافعة للحياة والحكم، وكانت هذه المعدات حتى ذلك الحين موضع الاستنكار من جانب العلماء المتمسكين بالتقاليد باعتبارها من اختراعات الشيطان. ولكن العملية كانت بطيئة وطويلة تتطلب صبراً بغير حدود؛ وخلال العشرينات من القرن العشرين وأوائل الثلاثينات كان على الأمير أن يعمل فى حذر شديد على الحد من تعصب الوهابيين دون أن يعرض نفسه للاتهام بالردة. كان التليفون يمثل واحدة من أكبر المشكلات وفى مؤتمر بالرياض عام ١٩٢٧ ضم القادة العلمانيين والدينيين، وجد أكبر صعوبة فى الظفر بمناقشة حامية حول إمكان قبوله كعون للمواصلات، مباح للمسلم الورع. كان قبول الراديو عملية أسهل إذ أوضحوا أن فى الإمكان استخدامه لاذاعة آيات القرآن وبذا يساعد على نشر رسالة الله و نبيه. ولكن برغم أن ابن سعود كسب الحجج المؤيدة لاستخدام التليفون والراديو، أخفق فى أن يثنى مستشاريه عن إثارة خلاف مع مصر قدر أن يسبب قطيعة بين البلدين لمدة عشر سنوات. نشأت المعركة بعد أن استولى الوهابيون على الكسوة التقليدية المصرية للكعبة فى مكة، على أساس أنها مزخرفة أكثر مما ينبغى، وبرغم محاولات ابن سعود ظل وقتاً طويلا لا يستطيع إقناع مستشاريه بتقديم أية ترضية إلى المصريين الذين تعرضوا للاهانة.

ولكن واصلت علاقاته ببريطانيا الازدهار. فلما أحست الحكومة البريطانية بالارتياح لأن ابن سعود حل الخلاف بينه وبين الشريف حسين المتقـــدم فى السن والذى كان يذكر الناس بخيانتها طالما يحكم الحجاز، قبلت بسرور أن تعترف بالأمير ملكاً على الحجاز وذلك فى اتفاقية جدة الموقعة فى مايو ١٩٢٧. ولقد بلغ من شدة رغبتها حقيقة فى إنشاء علاقات مع ابن سعود، أنها امتنعت عن حسن إدراك عن أن تطلب منه فى معاهدة جدة

تأييد تصريح بلفور أو الانتداب البريطانى على فلسطين ـ تلك المشكلات التى كانت نقطة القطيعة فى مفاوضتها مع حسين .

من هذه الإنطلاقة نحو الإعتراف الدولى، راح ابن سعود يعقد المعاهدات ويتبادل البعثات مع فرنسا والروسيا وهولندا وايطاليا وهى دول كان رعايا مستعمراتهم يضمون الكثير من المسلمين . ولكن خلال حكمه كله أبقى هذه البعثات وكافة البعثات الأخرى فى جدة التى تبعد ثما نمائة ميل عن عاصمته الرياض، وهذا عرف لاتزال متبعاً حتى اليوم . كان ابن سعود يؤمن إيماناً راسخاً بأن الدبلوماسية والحكم يجب إدارتهما فى أماكن محكمة الإغلاق . لقد قبل الاعتراف به من قبل القوى الغربية ولكن هذا لا يعنى أنه كان يثق بهم أو أن يكون العاملون فى إدارة مملكته ،معرضين للتجسس عليهم من جانب الممثلين الأجانب . بخلاف ما كان مغروساً فى نفسه من ريبة ، كان هناك سببان طيبان على الأقل وراء هذا النفور . فمن جهة هناك خطر المغالاة فى تعريض الإخوان للكفار الموجودين فى مكان كالرياض ، كان يمثل هذه العزلة عن العالم . ومن جهة أخرى لم يرغب ابن سعود أن يشهد الأجانب عن مسافة قريبة جداً ، الاضطراب الذى وقعت فيه حكومته نتيجه الاستحواذ على أراض جديدة وما ترتب عليه من مسئوليات جديدة .

منذ أن مد ابن سعود نطاق ممتلكاته بحيث شملت الحسا ، كان هناك نقص خطير فى العناصر المدربة التى تتولى الإدارة . فالبدو المخلصون الذين كان الأمير يعتمد عليهم فى إدارة شئون نجد ، كانوا لا يقدرون فحسب على مواجهة المشكلات التى تراكمت عليهم . ومن ثم وجد ابن سعود نفسه يزداد اشتغالا بتفاصيل الإدارة فضلا عن القرارات المتعلقة بالسياسة العليا، ولما كانت إحدى عينيه قد فقدت بالفعل قوة الابصار فإن المجهود الممثل فى العمل من الصباح الباكر إلى ما بعد منتصف الليل بكثير ، أصبح بصورة متزايدة مما

لا يمكن احتماله . إلا أنه واصل الكفاح دون تفويض المسئولية إلى الغير ، إلى أن اكتشف بعد سنوات عدة رجل أعمال سعوديا عربيا أحس ابن سعود أن فى وسعه أن يلقى عليه ببعض عبئه بأمان .

كان عبد الله السليمان من أهل قاسم ، تعلم فى الهند واكتسب خبرة واسعة فى اقتصاد العالم العربى . وكان من أبناء المملكة العربية السعودية . وعلى ذلك أحس ابن سعود أنه يمكنه أن يعهد بإدارة البلد المالية إلى عبد الله محتفظاً لنفسه بمجالات العلاقات الخارجية والدفاع والشئون الإسلامية. أعطيت لوزير الخزانة سلطة تامة فى إدارة مالية البلاد على النحو الذى يراه أفضل ، ولم يكن ابن سعود يتدخل الا إذا كانت قرارات الوزير تمس الشئون الإسلامية أو البلاط. فمثلا لما وجد عبد الله إسرافاً فى الإنفاق الحكومى ، كان فى إمكانه أن يأمر بإجراء أية وفورات يرغب فيها ، إلا فى ميزانية مصلحة الأوقاف ووزارة المؤسسات الدينية وفى المال الذى ينفق على تكريم ضيوف الحكومة. كان الأمير يصر على أن العبث بهذه يتعارض مع واجبه كإمام للوهابيين ومع تقاليد العرب فى كرم الضيافة . كان ماينص عليه لإشباع حاجات المجتمع الوهابى هو « طالما لدينا القرآن فدينينا فى أمان ، وطالما لدينا الجمل فشرفنا فى أمان » . ولما كانت مستوطنات الميليشيا من الأخوان تدخل أيضاً فى نطاق ذلك التعريف باعتبارها أساسية بالنسبة إلى الأمن القومى وإلى توطين البدو ، كان حتما أن تكون الخدمات الاجتماعية والتعليم هى التى تعـــانى من أى تخفيضات فى الميزانية .

لم يمض وقت طويل جداً على انتصاره فى الحجاز حتى ظهرت الحاجة الى قوة أمن تتصف بالكفاءة وفى حالة يقظة مستمرة ، على نحو ما كان عليه الإخوان. ففى عام ١٩٢٧ ثارت عناصر محافظة معينة بقيادة فيصل الداوش كبير رؤساء قبيلة مطير فى الشمال الشرقى ، تحت ذريعة أن ابن سعود كان متحالفاً مع

« الكفار » الوثنين ويتزلف إلى بريطانيا والحكومة البريطانية فى الهند .
أما الذى أشعل شرارة الثورة فكان رواية عن أن قوات الحدود العراقية كانت تقوم بناء على أوامر بريطانية ، ببناء حصن فى منطقة سبق الاتفاق على حيادها ونزع السلاح منها. وبدون أن يستشير فيصل مليكه هاجم الحصن وقتل جميع من كانوا يعملون فى بنائه ولكن صدته فيما بعد قاذفات السلاح الجوى الملكى . وبدلا من المخاطرة بحرب مع بريطانيا والعراق تحرك ابن سعود لكبح جماع فيصل ، ولكن قاومه زعيم مطير . ولم يتمكن الإخوان من هزيمته وأسره الا فى مارس ١٩٢٩ .

كانت لحظة حرجه بالنسبة إلى الأمير ، وعلمته أكثر من أى وقت مضى أنه يجب العمل بالتدريج على أن يتعرف الوهابيون على أفكار القرن العشرين فى العلاقات الدولية . ولكن لم يكد يتقبل هذه النكسة حتى وجد أن بلاده تواجه الإفلاس . ففى عام ١٩٣٠ أصاب الكساد الاقتصادى العالمى المملكة السعودية بضربة تمثلت فى حدوث نقص خطير فى عدد الحجاج المسلمين الذين فى وسعهم القيام بالرحلة إلى مكة . وسرعان ما أصبحت الخزانة خاوية من المال وأعلنت الحكومة قراراً بوقف سداد الدين الأهلى ومرتبات الموظفين . معجزة فقط كانت تستطيع إنقاذ البلد من الإفلاس ، ولكن جاءت المعجزة فى ظرف عام .

فقد تصادف أن كان تشارلز كرين الذى كان من أعضاء لجنة كنج ـ كرين ، فى زيارة لابن سعود فى جدة . فحرصا على تقاليد كرم الضيافة العربية وبغض النظر عن فقر الخزانة ، استقبل الأمير ضيفه بالكرم الذى يليق بالملوك وحمله هدايا كانت تضم جوادين عربيين جميلين من الإصطبلات الملكية . كانت استجابة كرين الغريبة نوعاً أن أهدى إلى الملك صندوقاً من التمر كان

قد أتى به من بقال فى سان فرنسسكو ، وكان يسعى به إلى إقناع مضيفه بأن لمنتجات مملكته شهرة عالمية ! ولكن قبل أن يسافر الأمريكى أرسل على نفقته الخاصة مهندس تعدين لإجراء بحث جديد عن الموارد المعدنية المحتملة فى مملكة ابن سعود .

اكتشف الزيت فى الشرق ، واكتشفت كمية محدودة من الذهب فى الغرب . وسرعان ماتقدمت شركات النفط بالعالم تطلب امتياز الحفر فى الظهران القريبة من ساحل الحسا ، وفى عام ١٩٣٣ حصلت شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا على الامتياز مقابل ٥٠٫٠٠٠ جنيه (٢٥٠٫٠٠٠ دولار) . وبعد ست سنوات تم إنتاج الزيت بكميات تجارية قدرها ٣٠٫٠٠٠ ب/ى ، وعندما وصل إلى ٦٠٠٫٠٠٠ ب/ى فى عام ١٩٥١ كانت الخزانة السعودية تحصل كل يوم على إيراد يزيد على ما كان يمكنها أن تجمعه فى سنة بكاملها فى الوقت الذى حدثت فيه زيارة المستر كرين التى كانت بطريق الصدفة . كان بين استخدامات هذه الثروة الطائلة خط حديدى تكلف ٣ مليون دولار ، وميناءان ، وقصور جديدة عدة ، ومحطة للاذاعة ، وطرق رئيسية جديدة ، ومحطة لتوليد الكهرباء للمدن الأربع ، وتزويد جدة بالماء بالأنابيب ، وخط طيران وطنى ، وإعادة فتح مناجم الملك سليمان للذهب القريبة من المدينة المنورة . ونظراً لأن مثل هذا التطور كان يتطلب مهارات غير متاحة فى العربية السعودية فتح الباب على مصراعيه الآن ، وهرع الأطباء والمدرسون والفنيون والاداريون من مصر وسورية ولبنان وفلسطين إلى الدولة التى تشهد ازدهاراً جديداً .

هذه السنوات من الثروات المتصاعدة بالنسبة إلى العربية السعودية كانت أيضاً سنوات المأساة والاضطرابات بالنسبة إلى الكثير من العالم خارجها ، وخاصة بالنسبة إلى فلسطين . إلا أن مغامرة ابن سعود الوحيدة فيما وراء حدود بلاده كانت الهجوم على اليمن فى عام ١٩٣٤ عندما طار صوابه بسبب

محاولات الإمام اليمنى المستمرة المطالبة بجزء من عسير لمملكته ، وأجبره على قبول التخطيط السعودى للحد المشترك بينهما .

خلال كل الصراع بين بريطانيا والعرب واليهود فى فلسطين ، وبين فرنسا والعرب فى سوريا ولبنان ، انتهج ابن سعود سياسة حياد دقيق . من المفهوم وكما كان الحال فى الحرب العالمية الأولى، أن يرى من الأفضل عدم الإنحياز فى صراع بريطانيا مع ألمانيا النازية ، فيما عدا إعلان الحرب فى اللحظة الأخيرة ليبرر المطالبة بعضوية الأمم المتحدة . ولكن الذى كان يدعو إلى الدهشة حقاً هو عدم اهتمامه الظاهرى بمصير فلسطين بين الحربين . فخلال هذه الفترة قنع فى صمت بقبول الانتداب البريطانى لا لأنه كان يميل إليه ولكن لأنه لم يكن يتعدى على حدوده ، ولأنه تمتع بنوع معين من الشماتة إزاء الهزيمة التى ألحقها بعبد الله الهاشمى الذى عندما كان يتقدم للاستيلاء على الخرمة فى عام ١٩١٩، كتب إلى ابن سعود يقول « أفطر غداً فى الخرمة وفى الأسبوع التالى أتعشى فى الرياض » .

ولم يتحرك ابن سعود حتى عندما أعلن الصهيونيون صراحة أن هدفهم هو إنشاء دولة قومية يهودية فى فلسطين . أخذت الهجرة اليهودية من أوربا تتصاعد بخطى واسعة، ومع ذلك ندر أن رفع ملك السعوديين إصبعاً لمساندة إخوانه العرب فى تضالهم من أجل الاحتفاظ بأرضهم (١) . وعندما ظهرت دولة إسرائيل إلى عالم ١٩٤٨ وحاول جيرانها العرب أن يسحقوها وهى فى المهد لم يقدم سوى تأييد رمزى لجهودهم وجعل من المعروف أنه اعتبر حملتهم قد أسيء توقيتها وكانت تفتقر الى الإستعداد والتنسيق .

من الأمور التى تحتمل الجدل هو لو أن ابن سعود استخدم نفوذه الشخصى الكبير مع بريطانيا ومع عرب فلسطين، فهل كان يمكن الوصول إلى تفاهم قبل أن أطلقت الحرب العالمية الثانية فيضاً لا يمكن مقاومته، من المهاجرين اليهود من معسكرات

---

(١) ما كنا ننتظر منه أن يفعل شيئاً والدولة لا تزال فى أوائل عهدها ، والدول العربية الأخرى لا تتحرك بصورة مؤثرة — المترجم .

الرعب في أوربا وبذا جعل من الحتمي خلق دولة في فلسطين مع كل المرارة التي ولدها هذا في جميع أرجاء العالم العربي. من المؤكد أن الوقت كان متأخراً جداً في عام ١٩٤٨ بحيث يتمكن أي شخص من منع النكبة، ولكن في الثلاثينات ربما كان في إمكان عربي في مكانة ابن سعود وهيبته أن يقنع كلا من البريطانيين والعرب في فلسطين بأن ينتهجوا سياسات أوفر عقلا ويسلكوا سبلا أكثر حكمة. والحقيقة أنه لم يحاول أبداً [1].

ربما يكون أحد الأسباب أن ابن سعود كان يشعر خلال حكمه الطويل بكراهة للتعقيدات الخارجية. فلم يسافر أبداً خارج الشرق الأوسط ونادراً ما غادر بلاده نفسها. لقد قام مرة بزيارة رسمية إلى القاهرة بعد إصلاح القطيعة التي كانت نشأت بسبب كسوة الكعبة. وهناك قوبل بترحاب حار، ولكن عندما رجع إلى بلده أسر إلى مستشاريه أنه مايزال لا يجد فائدة تعود عليه من المصريين. كان يرتاب في جيرانه وخاصة في الهاشميين. فيصل في العراق وعبد الله في شرق الأردن. وبرغم أن البريطانيين لم يكفوا عن تملقه في جميع معاملاتهم معه، إلا أنه لم يتغلب في الحقيقة أبداً على الارتياب في أنهم كانوا «ينصبون شباكاً» على حد قوله، ليقع فيها، بأن أيدوا أولاً الحسين في الحجاز ثم عبد الله في شرق الأردن، وبالإعتداء على الكويت والبحرين والمشيخات الأخرى في الخليج الفارسي على امتداد حدوده. في هذه الظروف بدا له أن الحياد وعدم التورط هما السياسات المأمونة الوحيدة التي يتعين عليه انتهاجها.

برغم أن الأمير حكم مملكته طيلة نصف قرن وأنشأ دولة حديثة وموحدة من قبائل متنافسة كانت من مخلفات العصور الوسطى، ظل في قرار نفسه أميراً قبلياً بسيطاً بكل ما يصاحب مثل هذه الخلفية من فضائل ونقائص، وشكوك، ووطنية مشددة، ونبل وضيق أفق، وروح دعابة وافتقار إلى

---

(١) كان لمصر مشا كلها مع بريطانيا، ولسوريا ولبنان صراعهما مع فرنسا، وكانت الدول العربية في شمال افريقيا خاضعة للاستعمار، فكيف كان يطالب ابن سعود بان يتحرك في ظل هذا الجو — المترجم.

التعليم . ولقد اعترف ذات مرة أن أيام معاركه المبكرة ضد الرشيديين كانت أفضل أيام حياته ، وهى أيام نضال كان فيها الجوع والعطش موجودين دائماً فى صحبة الخطر ، ولكن كل يوم كان مليئاً بالمتعة والرفقة الطيبة . ولم يكن أبداً أشد إحساساً بالراحة إلا عند ما يحكم فى نزاع قبلى، فيحلل ويفحص بصبر ومهارة لا نهاية لهما مجموعةالحجج والأدلة المتضاربة ثم يصدر حكمه غير المتحيز . وكان يسير فى حياته الخاصة حسب القوانين الإسلامية بدقة . فبرغم أنه كان يحب النساء كثيراً ويقال إنه تزوج أكثر من مائة مرة إلا أنه لم يكن فى عصمته أكثر من أربع زوجات فى نفس الوقت الواحد ، بالإضافة إلى أربع محظيات لإدارة البيت وأربع جوار للاشراف على حاجاته[1] . وكان لكل زوجة بيتها وخدمها لأن ابن سعود كان يعارض بقوة اختلاط النوعين فى البلاط أو عند تناول الطعام الذى كان لا يتناوله إلا فى صحبة الذكور . من جهة كان هذا راجعاً إلى التقاليد ، ومن جهة أخرى أن موضوعات الحديث المحببة — من قبيل والشئون العالمية — لم تكن تصلح فى رأيه لأن يستمع إليها النساء . وكان يحب أيضا النكات العملية ، ويقهقه بصوت مرتفع إذا أجبر أحد رجال البلاط على تجربة دواء جديد استوردته إدارة الصحة أو الخضوع لعلاج جديد انتهى بتعرض الضحية سيء الحظ لصدمة كهربائية . وكان أكثر ما يحبه هو الصيد إما بالصقور - أو كما أصبحت العادة فيما بعد بإطلاق النار من السيارات المكشوفة وهى تنهب الأرض عبر الصحراء .

برغم أنه كان حاكماً دينياً إقطاعياً بطبيعته وحسب نشأته إلا أنه مامن زعيم عربى فى العصر الحديث كان له من التأثير على قلوب شعبه أدق وأدوم

---

(١) هذا نوع من المبالغات التى درج الكتاب الغربيون على ترديدها ، وكثيراً ما كتبوا الشيء نفسه عن بعض قادة المسلمين لتشويه سمعتهم من جهة ، أو — وهو الأهم — لوخز المسلمين عامة بإظهار أن دينهم يبيح لهم هذه التصرفات من الزواج والطلاق بغير ضابط، مع أن الإسلام واضح ودقيق من هذه الناحية . — المترجم .

من تأثيره . كان يعرف عناصر ضعفهم فضلا عن عناصر قوتهم ، ولذا كان يراقب دائماً أية علامات تنم عن أن الثراء المفاجىء الناتج من النفط كان يؤدى بهم إلى الطمع فى كسب المال وإلى إهمال الدين الصحيح . إذا كانت العقوبات التى أوقعها على السارق والزانى[١] وربما تبدو ذات طابع ينتمى قليلا إلى العصور الوسطى ، فإن بتر يد أو حز رأس كان كافياً للابقاء على نظام مطلق وجعل الفيافى الصحراوية فى مملكته مكان أمن للحجاج والسفار بالقياس إلى مدن البعض من أكثر الشعوب تقدماً وتحضراً . ربما كان عدله عنيفاً أحياناً ، وكان تشدده الدينى شديداً وانتقامه قاسياً . ولكن بدون هذه التدابير المتطرفة لما أنقذ ابن سعود أبداً مملكة أسلافه من الهزيمة أو مزج مجموعة من القبائل المتأخرة والمتناثرة ليخلق شعباً ويقودهم نحو القرن العشرين برغم احتجاجهم أحياناً وشعورهم بالتخوف دائماً .

(١) هذه العقوبات نصت عليها الشريعة الإسلامية حماية للمجتمع . — المترجم .

(٢٧)

المأساة فى فلسطين

ما من كلمات يمكن أن تفسر نضال الشعوب العربية ضد الظلم والاحتلال الأجنبي بدقة تزيد على ما يفسرها به قول شاعر عربى مجهول: لا تدعوا أحداً معنا يكون متكبراً أو متغطرساً لأننا نستطيع أن نكون أكثر حماقة وأشد جرأة. وما من فترة من التاريخ العربى تعكس الحكمة البسيطة الكامنة وراءه بصورة أكمل من ملحمة فلسطين فى ربع القرن الممتد بين قيام الانتداب البريطانى بعد الحرب العالمية الأولى وخلق دولة إسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية. وما من شىء كان يمكن أن يكون أشد كبرياء وصلفاً من موقف السلطة المنتدبة البريطانية أو الحركة الصهيونية إزاء عرب فلسطين، كذلك ما من شىء كان يمكن أن يكون أشد حماقة وجسارة من رفض العرب المستمر التفكير فى أى اتفاق أو أية تسوية تتحدى حقوقهم التقليدية أو السلالية فى فلسطين أو تقصر عن الوفاء المطلق بالتعهدات التى قطعتها بريطانيا خلال الحرب بشأن حرية العرب(١). أما أنهم كانوا ضحايا الغدر والظلم فأمر لا يمكن إنكاره، ولكن « الصفح عن المظالم الماضية ونسيانها ليس فضيلة فحسب ولكنه ينم عن الحكمة » على حد ملاحظة واحد من أبرز المدافعين عنهم وهو الجنرال جلوب فى الوصف الذى كتبه لكارثة فلسطين. ونظراً لأن العرب لم يستطيعوا أن ينسوا الغدر بهم كما لن يتخلى الصهاينة عن أطماعهم، فان مصير فلسطين كان نكبة.

فبمجرد أن صدر تصريح بلفور تحرك الصهيونيون. فى مارس ١٩١٨ وصلت إلى فلسطين لجنة صهيونية تتكون من الدكتور وايزمان والمستر جيمى دى روتشيلد والمستر إسرائيل سبيف، وكان الغرض الظاهرى منها أن تعمل

(١) ليس هذا حماقة وإنما هو تمسك بالحق القومى. — المترجم.

كحلقة اتصال بين اليهود والحكومة العسكرية البريطانية . فى هذه المرحلة كان يهود فلسطين نحو ٥٥٫٠٠٠ أو أقل من ٨ فى المائة من سكانها البالغ عددهم ٧٠٠٫٠٠٠ نسمة . أما النسبة الباقية وقدرها ٩٢ فى المائة فكانوا عرباً أربعة أخماسهم مسلمون والباقون من المسيحيين فمن جهة بسبب هذا التفوق فى الأعداد، ومن جهة أخرى لأن الكثيرين من كبار السن اليهود الذين يعيشون فى فلسطين كانوا معارضين فى إنشاء دولة يهودية ، وأكثر من هذا كله لأنه فى عام ١٩١٨ كان قادة من العرب مثل الشريف حسين ما يزالون يعتقدون أن وعد بريطانيا بأن الهجرة اليهودية لن تتعدى على حريتهم السياسية والاقتصادية، لهذا لم يبد عرب فلسطين أى اعتراض على الوجود الصهيونى فى وسطهم . وعلاوة على ذلك، ففى حفل عشاء أقامه الحاكم السير رونالد ستورس وحضره الزعماء العرب الفلسطينيون ، خطب وايزمان فأكد لرفاقه من الضيوف أن هدف اليهود هو أن يعملوا جنباً إلى جنب مع العرب وليس أن يسعوا وراء السلطة السياسية . وحتى عندما بدأت الأعلام اليهودية بعد ذلك بوقت وجيز ،تظهر فى المواكب العامة وأخذوا يعزفون النشيد القومى اليهودى دون اعتراض من جانب سلطة الانتداب ، كان العرب ما يزالون يلتزمون الهدوء ولا يحتجون، وأبدى الأمير فيصل حسن نيته فى يناير ١٩١٩ بأن وقع اتفاقاً مع الدكتور وايزمان أعلن أنه بشرط حماية حقوق الفلاحين والمزارعين المستأجرين العرب « فسوف تتخذ جميع التدابير اللازمة لتشجيع وتنشيط هجرة اليهود إلى فلسطين على نطاق كبير وبأسرع ما يمكن لتوطين المهاجرين اليهود فى الأرض » .

ثم جاء مؤتمر الصلح ومعه تحطم سياسة فيصل فى سوريا . ولكن برغم أنه كان واضحاً الآن أن العرب فى سوريا سوف يباعون إلى الفرنسيين بثمن بخس ، لم يقم وفد عربى بزيارة لندن سعياً وراء مزيد من الضوء على خطط الحكومة البريطانية بالنسبة إلى فلسطين ، إلا فى عام ١٩٢٠ . هنا أحس العرب

بانزعاج كبير عندما وجدوا أن وزارة المستعمرات كانت تحيل تساؤلاتهم إلى مقر الإدارة الصهيونية . هذا الكشف حفزهم على أن يسألوا أنفسهم عما إذا كانت الحكومة البريطانية قد لا تكون تنوى تسليم السلطة فى فلسطين إلى الحركة الصهيونية . وكما لو كان رداً على سؤالهم ، بدأت السلطات البريطانية فى بيت المقدس تطرد الموظفين العرب وتجند يهوداً كى يحلوا محلهم . بعد ذلك أعلن مؤتمر صهيونى فى لاهاى أن هدف الصهيونية ليس إنشاء « وطن قومى لليهود ولكنه إقامة دولة يهودية » ثم عبر وايزمان عن هذا بأن أعلن فيما بعد أن الحركة التى يتزعمها تعتزم أن تجعل فلسطين « يهودية بمثل ما تكون أمريكا أمريكية وانجلترا إنجليزية » . وختاماً لهذا كله اتفقت بريطانيا وفرنسا فى سان ريمو على وضع فلسطين تحت انتداب بريطانى يحمل معه الالتزام بتنفيذ وعد بلفور . وعندما تكشفت شروط الانتداب أظهرت إغفالا تاماً للأغلبية العربية فى فلسطين والبالغة ٩٢ فى المائة، بأن أشارت فيما لا يقل عن أربع عشرة مرة إلى اليهود أو المؤسسات اليهودية .

كان واضحاً الآن أن تأكيدات بريطانيا المتكررة بأن فلسطين لن تكون من المناطق المحتفظ بها للوصاية البريطانية أو الفرنسية ، كانت مجرد كلام . كانت المذكرة التى بعث بها مكماهون إلى الشريف قد خصصت هذه المناطق على أنها « أجزاء من سوريا إلى الغرب من جهات دمشق وحمص وحماه وحلب » وأضافت أنه مع هذا التحفظ ومع الترتيبات المعدة للعراق « فبريطانيا العظمى على استعداد لأن تعترف باستقلال العربى وتسانده ، فى جميع الأقاليم الواقعة داخل الحدود التى اقترحها شريف مكة » . إن فلسطين كما يعرف أى واحد من تلاميذ المدارس لم تكن فى غرب المناطق المحتفظ بها وإنما كانت إلى الجنوب منها ، ولكن الحكومة البريطانية آثرت أن تتجاهل هذه الحقيقة. وإذا كانت بريطانيا تستطيع بمثل هذه السهولة أن تخرج على حقائق الجغرافيا

وعلى ما تعهدت به كتابة فكيف يستطيع العرب الذين ليس لهم من يمثلهم في المراكز العالية في بريطانيا ليواجهوا نفوذ الوزراء وأعضاء البرلمان اليهود والمنظمة الصهيونية المنتشرة في العالم ، أن يأملوا في منع بريطانيا من تجاهل تأكيداتها الأخرى بشأن تصريح بلفور والإستيطان اليهودى في فلسطين عند ما يكون هذا يناسب غرضها ؟ وحتى تزداد الأمور سوءاً ، وتذرعاً بأن حـــــدة المشاعر بين العرب واليهود في فلسطين تتطلب أن تحتفظ بريطانيا بالسيطرة ، وضعت سلطات الانتداب دستوراً أعطى المندوب السامى البريطانى السلطة المطلقة للاعتراض على أى إجراء يسنه المجلس التشريعى . وعند ما أصبح هذا معروفاً قاطع العرب انتخابات عام ١٩٢٢ وأصبح ما يدعى المجلس التشريعى في عداد الموتى ؛ وهكذا تركت سلطة غير مقيدة في أيدى سلطات الانتداب مع مجلس استشارى كل أعضائه من البريطانيين ، كانت وظيفته تأييد قراراته ومراسيمه .

ومع كل ، وبرغم هذه الضربات ، ظل السكان العرب يلتزمون الهدوء نسبياً طيلة الأعوام الخمسة الأولى من الإنتداب البريطانى . ومن قبيل التناقض أن هذا الهدوء كان راجعاً إلى أن الحكومه البريطانية اختارت السير هربرت (اللورد فيما بعد) صموبل ليكون أول مندوب سام في فلسطين . كان صموبل وهو أول يهودى يحكم فلسطين منذ ألفى عام ، نصيراً متحمساً للصهيونية يحلم بأن يرى ثلاثة أو أربعة ملايين يهودى يستوطنون فلسطين . وبرغم هذا كان منصفاً بدقة كبيرة في معاملاته مع العرب خلال المدة التى شغل فيها منصبه ، وعلى خلاف البعض من خلفائه الكفار ، لم يظهر أى تحيز للصهيونية . وعـــدم التحيز الواضح من جانب صموبل ساعد أيضاً عمدة القدس راغب النشاشيبى الذى كان وطنياً معتدلا ، على السيطرة على الموقف ، ومنع المتطرفين من أن يفلت زمامهم خلال تلك الأيام المبكرة .

ولكن إذا كان اختيار الحكومة البريطانية لصمويل مندوباً سامياً ، عوناً للنشاشيبي ، وغيره من الزعماء العرب المعتدلين ، فإن اختيـــار صمويل للحاج أمين الحسيني ليكون مفتي القدس لم يكن من هذا النوع وسوف يؤدى في الوقت المناسب إلى أن يسحب المتطرفون البساط من تحت أقدام المعتدلين . فمن جهة ، كان هناك تنافس مرير بين آل النشاشيبي وآل المفتي ، وتعيين الحاج أمين أعطاه الزعامة الدينية على الجماعة الإسلامية وعلى ذلك أكسبه مركز تفوق يستطيع منه أن يجعل من قوته نداً لقوة عمدة القدس . ومن جهة أخرى ، وكما لاحظ السير رونالد ستورس ، فإن المفتي وإن كان أقل صلابة وقدرة من راغب النشاشيبي كان زعيماً أشد جاذبية وأقوى تأثيراً . وعندما أصبحت ضغوط الهجرة اليهودية أمراً لايستطيع العرب احتماله ولوا وجوههم شطر الزعيم الذى كان دائماً يدعو إلى استخدام أسلوب العنف ، ونأوا عن الرجل الذى كان يحبذ التفاهم والتراضي .

لم يكن افتقار السلطات البريطانية إلى التحذير بالذى جعلها تختار الحاج أمين لمنصب المفتي ، ذلك أنه كان قد أظهر كراهية تامة للانتداب البريطاني منذ البداية الأولى . كان الحاج أمين قصير القامة ، صلب العود ، له عينان قلقتان ونفاذتان ، ولكن إذا كان هادئاً ومستريحاً فقد كان وجهه ينطق أيضاً بالبشاشة وكان فيه شيء يذكر برجال الدين فى الأرياف . كان لأسلافه تقليد طويل من العلم الإسلامي مما يناسب بيتاً كان يدعى وإن كان ذلك موضع شك ، بأنه من نسل محمد عن طريق حفيده الذى استشهد وهو الحسين . وكان جده مفتياً للقدس على عهد الأتراك ، وشغل أخوه المنصب بعد الحرب مباشرة . وتمشياً مع هذه التقاليد درس الحاج أمين العلوم الإسلامية فى جامعة الأزهر ، ولكنه لم يتم الدراسة ووجد نفسه عند نشوب الحرب العالمية الأولى ضابطاً فى الجيش التركي فى أزمير . وإذ فضل لأسباب دينية أن يخـــدم السلطان

الخليفة بدلا من أن يحارب إلى جانب بريطانيا ، لهـذا لم يشترك فى الثورة العربية . ولـكنه تمـكن فى عام ١٩١٨ من الوصول إلى القدس حيث ابتلع أحقاده مؤقتاً وقبل وظيفة كانت فى مكتب جبريل حـــداد المستشار العربى لستورس .

أثبت هذا أنه نقطة تحول فى حياته العملية . فبينما كان يخدم الإدارة البريطانية بدأ يكنّ كراهة مريرة للبريطانيين ولليهود الذين كان على اقتناع بأنهم يتآمرون سوياً للاستيلاء على فلسطين . لا عجب أن سرعان ما طرد من خدمة الحـكومة ووجد طريقه إلى الصحافة حيث راح يصب السم فى السطور التى يكتبها وظفر بتقدير شعبى كثير بسبب قوة وحِدّة مقالاته . ولما نشبت أعمال الشغب فى أبريل ١٩٢٠ ضد الممتلـكات اليهودية فى القدس ، اعتبروا الحاج أمين مسئولا عن تحريض المشاغبين ، ولما كان قد هرب إلى سورية حكم عليه غيابياً بالسجن عشر سنوات .

وفى سبتمبر التالى أصدر صمويل عفواً عنه فعاد إلى القدس . بعد ذلك فى فبراير ١٩٢١ توفى أخوه الذى كان مفتياً للقدس ؛ وبرغم أن الحاج أمين كان ترتيبه الرابع بين الذين اختارهم « العلماء » لخلافة أخيه إلا أن صمويل عينه فى المنصب . وأكثر من هذا ، لما نقل البريطانيون الإشراف على الشئون الإسلامية إلى المجلس الإسلامى الأعلى انتخب الحاج أمين لرآسته وبذا أصبح مصدر الشريعة الإسلامية فى فلسطين وله السيطرة على المحاكم الشرعية والحق فى تعيين القضاة وموظفى المحاكم فضلا عن المدرسين والوعاظ فى جميع المدارس الإسلامية وأماكن العبادة. يضاف إلى هذا كله أنه حصل على أرزاق من الأموال المرصودة للأغراض الدينية ، قدرها ١٢٠٫٠٠٠ جنيه (٦٠٠٫٠٠٠ دولار) .

لاشك أن فـكرة صمويل كانت أن يحول سارق الصيد إلى حارس للصيد ، ويجب التسليم بأنه طالما ظل مندوبا ساميا وألزم الصهيونيين ألا يتعدوا

الحدود ، قلت سرقة الحاج أمين للصيد وأصبحت الجماهير العربية تصيخ السمع لدعاة التراضى والتعاون من أمثال النشاشيبى . ولكن برحيل صمويل عادت الضغوط الصهيونية من جديد ، وثبت أن تعيين هذا المهيج الذى سبق الحكم عليه بالسجن ، فى مركز له مثل هذه السلطة والهيبة ، كان أشد إجراء لضمان المستقبل تهوراً .

عندما حل عام ١٩٢٨ كان الموقف قد تدهور بسرعة . فازداد جموح العرب وسخطهم بحيث أنه برغم ظفر العراق باستقلاله وظفر شرق الأردن بالحكم الذاتى فى الشئون الداخلية ، كانت فلسطين لا تزال تعامل كمستعمرة متأخرة . وعند ما طلب العرب بعد عشر سنوات من انتهاء الحرب ، أن تسلم بريطانيا لفلسطين بالحق فى الحكم الذاتى الديموقراطى الذى كانت قد نادت به تصريحات الحلفاء أنفسهم فى يونيه ونوفمبر من عام ١٩١٨ ، كان مصير هذه التصريحات الرفض على الفور .

كان قلق العرب الآخر يتعلق ببيع أراضيهم . كانت نسبة كبيرة تماماً من الأرض فى فلسطين مملوكة قبل ذلك لملاك أراض لبنانيين وعند ما قسمت سوريا الكبرى كان عليهم إذا رغبوا فى زيارة مزارعهم أن يحصلوا على تصاريح خروج من السلطات الفرنسية لمغادرة لبنان وتصاريح دخول الى فلسطين من السلطات البريطانية . غالباً ما كان يتعذر الحصول على هذه التراخيص وعلى ذلك باع الكثير من الملاك أراضيهم للمشترين اليهود الذين كانوا يبحثون دائما عن أرض لتوطين المهاجرين اليهود فيها ، وذلك بالتشجيع وأحياناً بالإعانة من الحركة الصهيونيـــة . وهكذا لم يقتصر الأمر على أن ملكية العرب للأرض كانت مهددة ، بل حيث اشتراها الصهاينة كان المستأجرون وعمال المزارع العرب يطردون من بيوتهم ليفسحوا المجال أمام المستوطنين اليهود . وفى بعض المناطق محيت قرى بكاملها لكى يمكن بناء مستعمرات

مكانها ؛ وفى إحدى الحالات طرد ٨٠٠٠ من المستأجرين والعمال العرب من ضيعة مساحتها ٥٠٫٠٠٠ فدان وحصل كل منهم على تعويض قدره ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات (١٦ دولار) .

وإذ راحت طوابير العرب الذين أخرجوا من دورهم وأعمالهم تخرج من أراضيها وقراها بحثاً عن الغذاء والمأوى ، قربت مشاعر العرب من نقطة الغليان . فى هذه الأثناء يبدو أن الحكومة البريطانية لم تكن تتحرك بدافع من إحساس صمويل بالإنصاف بقدر ما كانت تتحرك تحت تأثير العبارة المأثورة عن اللورد ملنر وزير المستعمرات حينذاك والتى قالها فى سان ريمو ، وهى أن فلسطين ليست أرضا عربية « على غرار البلاد العربية الأخرى » ، وأن ليس لسكانها العرب من حقوق تزيد عما للأجناس والأديان الأخرى . أجل ، عند هذه النقطة بدت الحكومة البريطانية تسير إلى أبعد من ملنر . فبينما رفضت مطلب العرب بشأن الحكم الذاتى سمحت للوكالة اليهودية فى فلسطين بأن تصبح دولة فى داخل الدولة وحكومة يهودية فى طور التكوين، هذه الوكالة التى كان المفروض أن تقتصر وظائفها فى ظل الانتداب على تقديم المشورة « فى المسائل الاقتصادية والاجتماعية وغيرها التى يمكن أن تؤثر فى إنشاء الوطن القومى اليهودى » . مثل هذه التفرقة الملموسة ضد العرب تجاوزت الحد المناسب والآن دعا المفتى أتباعه إلى الإضراب، وفى أغسطس ١٩٣٠ نشبت أعمال شغب خطيرة فى القدس وحبرون وصفد فى الجليل الشمالى .

خلال عهد صمويل الهادىء نسبياً خفضت قوات الأمن البريطانية إلى أدنى حد ممكن . فلم تكن هناك قوات كافية لمعالجة العنف إذا ما انتشر ، وعلى ذلك حاولت الحكومة البريطانية صرف غضب العرب بارسال لجنة للتحقيق فى مظالمهم . وفى داخل الحدود الضيقة التى تعمل فيها اللجنة قدمت بعض توصيات عادلة ومعقولة بشأن تشديد الرقابة على الهجرة اليهودية — فمنذ عام

١٩٦٠ أقام ١٠٠٫٠٠٠ مهاجر يهودى فى فلسطين . وبشأن حماية المستأجرين والعمال العرب قبلت الحكومة البريطانية النتائج التى توصلت إليها اللجنة ولكن الصهيونيين أثاروا احتجاجات بلغ من عنفها أن اضطر المستر رمزى مكدونالد الذى كان رئيسا للوزراء حينذاك ، أن يكتب إلى الدكتور وايزمان يطمأنه على أن حكومته لم تكن تعنى حقاً ماقالته .

فى عام ١٩٣١ كانت نسبة اليهود من السكان تضاعفت فبلغت ١٧ فى المائة ووصل عدد المستوطنين اليهود إلى ١٧٠٫٠٠٠ – وهذا فى بلد لاتزيد مساحته على مساحة ولاية ماريلاند أو إمارة ويلز . بل ومما كان أدعى إلى الانزعاج ، أنه بدا للعرب أنه فى جميع المسائل التى تمس مصالحهم ، مثل الهجرة والاستيطان بالأرض ، كانت القوة الفعالة فى أيدى الوكالة اليهودية . بل وحينما كان يبدو كما لوأن سلطة الانتداب تحاول أن تكون لها سيطرة فى هذه المسائل كانت الاحتجاجات العالية تصدر من الوكالة اليهودية وتجد صدى فى صحافة الولايات المتحدة وأوربا الغربية وروسيا السوفييتية . وكثيراً مانكصت السلطات البريطانية وسمحت للصهاينة بالتصرف كما يشاءون ، خشية أن تتهم بالعداء لليهود .

فى هذه الأثناء ، بحلول عام ١٩٣٣ ، وبفعل وصول أدولف هتلر إلى الحكم فى ألمانيا، زاد معدل الهجرة اليهودية إلى ثلاثة أمثاله أى من ١٠٫٠٠٠ إلى ٣٠٫٠٠٠ فى السنة . وارتفع فى العام التالى إلى ٤٣٫٠٠٠ ، وبلغ رقما قياسيا فى عام ١٩٣٥ إذ كان ٦٢٫٠٠٠ . أما وقد تضخمت نسبة اليهود إلى مجموع السكان فبلغت الآن ٣٠ فى المائة بدأت الدولة المنتدبة أخيراً تدرك أنه لابد من عمل شىء لحماية السكان العرب . فأعلنت الحكومة البريطانية العزم على إنشاء مجلس تشريعى له سلطات ووظائف حقيقية ، على أساس التمثيل النسبى . لقى الاقتراح ترحيباً واسع النطاق فى صفوف عرب فلسطين فيما عدا المفتى

وأقلية صغيرة من المتطرفين أحسوا أن قبول هذا الإعتراف بحقوق الأغلبية والذى تأخر عن موعده ، سوف يجعل العرب يباركون الانتداب وعلى ذلك يضعف مركزهم . ولكن الصهاينة رأوا فيه تهديداً لهدفهم فى إنشاء دولة يهودية واستنكروه فى كل نفس رددوه . وتلا ذلك جدل مرير فى مجلس العموم تحدث فيه عدد من أنصار الصهيونية البارزين من قبيل المسترونستون تشرشل ، بحماس ضد اقتراح الحكومة . وبمرور الوقت وضعت الفكرة كلها على الرف . مرة أخرى خدع العرب ، ولم يضع المفتى وقتـــا ليقول « قلت لكم هذا » .

كانت هذه فرصة الحاج أمين الكبيرة وأمسك بها بكلتا يديه . من الآن فصاعداً فقد النشاشيبى السيطرة ؛ أصبح الاعتدال قرين الخيانة ، وتولى المفتى الأمر . وفى أبريل ١٩٣٦ تأسست منظمة تدعى اللجنة العربية العليا لتوجيه ثورة عربية سافرة . أنتخب المفتى رئيسا للجنة ، وفى اجتماع حضره ممثلون من سوريا والعراق وباركته التمنيات الطيبة التى بعث بها المتعاطفون العرب من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهندى ، دعا المؤتمر إلى إضراب عام فى كافة أرجاء فلسطين . وأبلغت السلطات البريطانية أن الإضراب سوف يستمر إلى أن توافق بريطانيا على وقف الهجرة اليهودية تماماً . وفى نفس الوقت وجهت حملة من التخريب ضد المواصلات الحكومية وأسلاك التليفون والطرق والسكك الحديدية . تجاهلت السلطات البريطانية طلب المفتى ولكن لم يكن فى إمكانها أن تتجاهل العنف الذى تلاه . وكذلك لم يكن فى إمكانها أن تواجهه بما تحت تصرفها من قوات أمن ضئيلة . وهكذا مرة أخرى قررت الحكومة البريطانية أن تنزع سلاح العرب بالحيل الدبلوماسية وأعلنت عن تشكيل لجنة ملكية للتحقيق فى الموقف الفلسطينى .

وكما حدث فى عام ١٩٢٩ نجحت الحيلة ، فبعد ستة أشهر من أعمال الشغب

دعت اللجنة العربية العليا إلى وقف الإضراب وذلك تحت الضغط من جانب عبد الله أمير الأردن وغيره من الزعماء العرب ممن كانوا يحبذون التفاهم. ولكن حتى عندما بدأت اللجنة الملكية رحلتها اختارت السلطة المنتدبة أن تعلن جدولا زمنيا جديداً لمنح التراخيص للهجرة اليهودية . وتحت قيادة المفتى أعلنت اللجنة العربية العليا أنها خدعت وأنها وجميع الوطنيين العرب الصادقين سوف يقاطعون اللجنة الملكية لدى وصولها .

بقدر ما قد يشعر المرء بالكثير من العطف على إحساسهم بالإساءة فمن الصعب أن نتصور وسيلة للاحتجاج هي أكثر حماقة وغباء من حرمان العرب المتعمد هذا من فرصة حقيقية لعرض قضيتهم أمام لجنة التحقيق هذه . إذا كانت الحجج التى استمعت إليها اللجنة الملكية تؤيد المصالح اليهودية والبريطانية بقوة فإن العرب ملومون كأى شخص آخر . وبرغم أن اللجنة العربية العليا أذعنت فى النهاية بعد ضغوط جدية من جانب الزعماء العرب بالخارج ، إلا أن الوقت كان قد تأخر جداً بحيث لم تتمكن اللجنة الملكية من سماع أكثر من إثنى عشر من الشهود العرب بالقياس إلى ما يزيد على المائة من البريطانيين واليهود ، قبل أن تغادر البلاد فى يناير ١٩٣٧ لإعداد تقريرها عما كشفت عنه . وعلى كل حال ، رفضت اللجنة مظالم العرب باعتبارها غير مشروعة ، ورفضت مطالبهم بشأن مؤسسات للحكم الذاتى باعتبارها مما لا يمكن تنفيذه فى نطاق شروط الانتداب ، بينما دعت فى الوقت ذاته إلى إجراء تغييرات حاسمة فى الانتداب تسمح بتقسيم البلد بين العرب واليهود .

إن توصية اللجنة بالتقسيم كحل لمشكلة فلسطين ، مشهورة . ولكن الذى كثيراً ما يجرى نسيانه هو أن مشروع التقسيم الذى أوصت به كان يعطى ٦٠ فى المائة من المساحة القابلة للزراعة بفلسطين إلى اليهود الذين كانوا يمثلون ٣٠ فى المائة من مجموع السكان. كان المقرر أن يحصل اليهود على الجليل فى

الشمال وعلى سهل اسدرائيلون فى الغرب بينما يترك للعرب الأراضى القاحلة فى جوديا والتلال الصحراوية فى النقب وسمارية . أما عن الأماكن المقدسة عند المسيحيين فقد قيل للعرب بالفعل إنهم لن يصلحوا أبداً لأن يكونوا حراسا على هذه « الوديعة المقدسة التى تركتها الحضارة » ، وأوصت اللجنة بوضع القدس وبيت لحم والناصرة تحت انتداب بريطانى دائم فى داخل منطقة مغلقة يكون لها منفذ إلى البحر المتوسط عند يافا (تل أبيب) .

وافقت الحكومة البريطانية على هذه التوصيات وباركتها فضلا عن هذا، عصبة الأمم . كذلك فإن عبدالله أمير شرق الأردن نصح عرب فلسطين سراً أن يقبلوا التقسيم ويقنعوا بنصف الرغيف المعروض عليهم . وبرغم أن ماعرضه فى وقت انعقاد مؤتمر القاهرة عام ١٩٢١ بشأن ضم جميع فلسطين إلى شرق الأردن ، كان مصيره الرفض واضطر إلى الاعتراف بالانتداب البريطانى ثمناً لاعتراف بريطانيا به أميراً على شرق الأردن، لم يفقد عبدالله الأمل فى الاستحواذ على جزء من فلسطين . وبدا له أن من المحتمل أن تخلق مقترحات اللجنة الملكية منطقة عربية غربى نهر الأردن قد تقلصت مساحتها فتضطر فى المستقبل إلى التماس الحماية عن طريق الاتحاد مع شرق الأردن . ولكن بالنسبة إلى عرب فلسطين كان نفس التهديد الممثل فى استيلاء شرق الأردن على البلد ، سبباً طيباً آخر دعاهم إلى أن يرفضوا فوراً مشروع التقسيم . وفضلا عن هذا فالظلم البين الذى ينطوى عليه تقسيم البلاد ، بالإضافة إلى الاهانة بشأن عدم اعطاء حراسة معابد المسيحية لشعب حافظ على حرمتها طيلة ثلاثة عشر قرناً ، نقول إن هذا كان كثيراً جداً بالنسبة إليهم .

والمرة الأخيرة سحب البساط من تحت أقدام المعتدلين . كان القدر قد خدم مرة أخرى الحاج أمين الذى كان يطالب على طول الخط بالمستحيل —

أى وقف الهجرة اليهودية تماماً — وبذا استبعد كل أمل فى التفاهم والتراضى والذى لم يكن الآن وبريطانيا تطالب بالانتداب دائم على بيت المقدس ، ليخسر الكثير من جراء الالتجاء إلى الثورة السافرة انفجر العنف ثانية فى أغسطس ١٩٣٧ عندما أعلن المفتى الحرب على البريطانيين واليهود وهدد بقتل أى عربى لا يستنكر ويقاوم مقترحات التقسيم . مرة أخرى بدا أن السلطات البريطانية أخذت على غرة . ولكن فى سبتمبر ١٩٣٧ عندما أطلقت النار فى الناصرة على المندوب البريطانى فى منطقة الجليل فخر صريعاً ، بدأت تتخذ موقفاً صلباً . فجىء بالتعزيزات من القوات إلى فلسطين ، وتقرر الحكم بالإعدام على من يوجد حاملا أسلحة ، واعتبرت اللجنة العربية العليا خارجة على القانون وفتشت مكاتبها وقبض على أربعة من زعمائها ونفوا إلى جزر سيشل . فر المفتى إلى بيروت حيث منحته السلطات الفرنسية حق اللجوء .

ولكن برغم غياب زعيم العرب وفداحة الخسائر فى صفوفهم إذ زادت بين عامى ١٩٣٦ و١٩٣٧ على ١٠٠٠ قتيل بالقياس إلى ٧٢ يهودياً ، واصلوا النضال بحرارة تزداد باطراد . وإذ تشجعوا بأصوات المؤتمرات العربية فى جميع أرجاء الشرق الأوسط وبصوت المؤتمر الإسلامى لعموم الهند ، وبالتحريض من جانب أتباع المفتى،سيطروا على معظم الريف وأحدثوا الدمار فى المواصلات الحكومية ، وهوجمت المستعمرات اليهودية ومحيى ما كان منها فى عزلة . وداوريات الأمن البريطانية التى تتجاسر على الابتعاد لأية مسافة خارج المدن الرئيسية ، كانت تنصب لها الكمائن وتقتل . وإذا وجد أى عرب غير متحمسين للقضية ،فإنهم كانوا يقتلون على أيدى رجال المفتى المسلحين. وأعدم إثنى عشر من العمد أو المخاتير لأنهم كانوا يفضلون أفكار راغب النشاشيبى الأكثر إعتدالا على العنف الذى أطلق له العنان الآن .

وهكذا أصدرت المحكمة الثورية العربية بفلسطين حكم الإعدام فى عام ١٩٣٨ على عدد من أعضاء حزب الدفاع الوطنى الذى يرأسه النشاشيبى وعلى ابن عمه فخرى ، لتنديدهم بالمفتى ، وطوردوا إلى أن قتلوا فى بغداد بعد ذلك بثلاث سنوات .

وفى أبريل ١٩٣٨ وبعد ثمانية عشر شهراً من إراقة الدماء ، أرسلت لجنة أخرى من بريطانيا للتوصية بحل . ومرة أخرى كانت التسوية التى أوصت بها هى التقسيم . ولكن فى هذه المرة وبينما كان المقرر أن يقتصر اليهود على السهول الساحلية ، كانت كل من الجليل والنقب ستوضعان تحت انتداب بريطانى دائم . كان الأمر بالنسبة إلى العرب أسوأ مما كان عليه ، ذلك أنه فى ظل هذا المشروع سوف يقطع طريق وصولهم إلى البحر بطريق النقب ولن يكون لهم سوى التلال الجرداء فى سمارية وأرض الميعاد بالإضافة إلى الشقة الصحراوية عند غزة .

لاعجب أن كان رد الفعل العربى هو أن زادوا من حدة عمليات حرب العصابات التى يشنونها ضد البريطانيين واليهود . وقيل لسلطة الانتداب بجلاء إن الشروط الوحيدة التى يمكن قبولها من أجل وقف إطلاق النار هى وقف الهجرة اليهودية تماماً وإنشاء حكومة عربية تمثيلية . وقابلت الوكالة اليهودية هذا بأن رفضت بصفة قاطعة النظر فى أى تقييد للهجرة أو أية حكومة تمثيلية للعرب . ثم بدأت أيضاً فى تنظيم فرق يهودية لمقاتلة الثوار العرب ، وهى الفرق التى سوف يتكون من بعض أعضائها فيما بعد نواة عصابة شتيرن وإرجون زفاى ليومى التى انقلب بها اليهود على الاحتلال البريطانى بعد الحرب العالمية الثانية . وفى الوقت نفسه بدأ اليهود عمليات من الهجرة غير المشروعة ونجحوا فيما بين عامى ١٩٣٨ و١٩٣٩ فى إدخال ٣٥٫٠٠٠ فى فلسطين بدون تراخيص .

كذلك رفضت بريطانيا بالطبع المطلب العربى بوقف الهجرة اليهودية باعتبار أنه يتعارض مع تصريح بلفور . أرسلت تعزيزات جديدة لدعم قوات الأمن فى فلسطين ومحاولة وقف القتال . ولكن برغم أن العرب كانوا مايزالون فى عام ١٩٣٩ يتحملون خسائر فى الأرواح أكثر مما يتحمل أعداؤهم كانت الخسائر قد بلغت الآن ٣٥٠٠ من العرب مقابل ٢٥٠ من اليهود ، ٧٧ من البريطانيين - استمرت الثورة وظل الريف تحت سيطرة الثوار إلى حد كبير . وواجهت بريطانيا بأزمة خطيرة . كانت سحب الحرب تتجمع فوق أوربا عندما تابع هتلر انتصاره فى ميونخ بالاستيلاء على براغ . إن ماسبق تخطيطه كمركز استراتيجى للدفاع عن قناة السويس أصبح الآن استنزافاً خطيراً لموارد بريطانيا العسكرية الهزيلة . كان لابد من عمل شىء لتحقيق تسوية فى فلسطين .

فبرغم الكشوف السريعة التى توصلت إليها اللجنة الملكية لم تعد الحكومة البريطانية لاتعطف على رغبة العرب فى الحكم الذاتى على نحو ما كانت عليه فى عام ١٩٢٨ . ولكن نظراً لأن العرب كانوا دائماً يقرنون نداءاتهم بشأن الحكم الذاتى بمطالب عن وقف الهجرة اليهودية كلية ، عرفت أن الحركة الصهيونية سوف تزيد الهجرة لو سمح للعرب بأن يتولوا شئونهم ويوقفوا الهجرة إلى فلسطين . أمام هذه الورطة دعت الحكومة البريطانية إلى مؤتمر بلندن فى أوائل عام ١٩٣٩ ، يمثل فيه عرب فلسطين والوكالة اليهودية والدول العربية . وكما كان متوقعاً سرعان ماوصل المؤتمر إلى مأزق . فقد أصر العرب على فلسطين عربية مستقلة على أن تمنح حقوق الأقلية لليهود الموجودين فيها ، وجعل المندوب اليهودى من الواضح أنهم لن يناقشوا أى اقتراح يهدد خلق دولة يهودية فى فلسطين . كانت عشرات الملايين من الجنيهات من المال اليهودى قد صبت فى شراء الأرض من أجل

هذه الغاية ؛ وارتفع عدد القرى والمستعمرات اليهودية إلى أكثر من ٢٥٠. وبينما كانت نسبة اليهود إلى العرب ١ : ١٢ فى سنة ١٩٢٠، ارتفعت الآن فأصبحت ١ : ٢ وارتفع عدد اليهود إلى نصف المليون وما كانت الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية ليقبلان أى شىء قد يؤخر السير نحو المساواة فى العدد على الأقل.

وعلى ذلك أعلنت الحكومة البريطانية فى مايو ١٩٣٩ الحل الذى تراه لفلسطين وذلك فى كتاب أبيض أصدرته. كان وثيقة رائعة. فعلى خلاف الانتداب إعترف الكتاب الأبيض بحق العرب فى الحكم المستقل وفى الحماية من إخراجهم من فلسطين بفعل الهجرة اليهودية وشراء الأراضى. وإذ اعترفت الحكومة البريطانية صراحة بأن سياستها السابقة لم تكن منصفة ولا عملية، أكدت الآن أن فى تكوين دولة يهودية فى فلسطين إنكاراً للعهود التى قطعتها بريطانيا للعرب لأنه سوف يؤدى إلى أن يكون الشعب العربى واللغة العربية والثقافة العربية فى حالة تبعية. كان الحل الذى رأته الحكومة ينص على فترة انتقال قدرها عشر سنوات بعدها يجب أن تصبح فلسطين دولة مستقلة ثنائية القوميات بحيث يشترك العرب واليهود فى الحكومة « بطريقة تضمن حماية المصالح الجوهرية لكل جماعة ». وفيما يتعلق بموضوع الهجرة المزعج اقترحت السماح بدخول ٧٥٫٠٠٠ يهودى خلال السنوات الخمس التالية، وبعد ذلك تكون أية هجرة جديدة بالاتفاق مع العرب. كذلك يمنح المندوب السامى البريطانى السلطة لتحريم شراء اليهود للارض فى مناطق معينة.

كانت هذه مكاسب مهمة للعرب. فلأول مرة فى عشرين عاما بدا أن الحكومة البريطانية أدركت أن للأغلبية العربية فى فلسطين قضية. أجل، ليس من غير الإنصاف أن نقول إن سياسة الكتاب الأبيض كانت المحاولة

الوحيدة ، المعقولة والتى تقسم بالخيال ، لحل المشكلة الفلسطينية التى برزت فى جميع سنوات الانتداب البريطانى الباعثة على الإحباط . لو أن كلا طرفى النزاع قبلا هذه السياسة ووافقا على التعاون فى خلق دولة ذات قوميتين ، لما اقتصر الأمر على تجنيب العالم ما أعقب خلق دولة إسرائيل من مرارة وإراقة دماء بل إن الكيان الذى كان فلسطين والذى كان أكثر المجتمعات تقدماً وتعليماً فى المنطقة ، كان يظل على قيد الحياة ليصبح مصدر قوة ووحدة فى جميع أرجاء الشرق الأوسط .

فى عام ١٩٣٩ كان مازال فى إمكان اليهود والعرب أن يعيشوا معاً فى سلام إذا كان زعماء الجانبين على استعداد للتفاهم(١) . فالصراع العربى — اليهودى لم يكن وراءه تاريخ طويل ، بالعكس لقد عاش هذان الفرعان من الجنس السامى قروناً فى سلام جنباً إلى جنب وكان التعصب هو النتيجة الاستثنائية التى ترتبت على التحريض التركى لا العربى . فاليهود الذين هربوا من إرهاب محاكم التفتيش الأسبانية ليبحثوا عن مأوى لهم فى الشرق فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانوا يعيشون قبل ذلك فى سلام وأمن فى ظل خمسة قرون من الحكم العربى فى أسبانيا . ومنذ العصور الموغلة فى القدم كان أبناء فلسطين من اليهود والعرب ممن يولدون فى نفس الأسبوع ، يعاملون كأخوة وأخوات فى الرضاعة . (كان للحاج أمين نفسه ثلاثة من أمثال هؤلاء الأخوة اليهود فى الرضاعة) . وعلاوة على هذا كان العالم العربى منذ أمد طويل ملجأ لليهود الفارين من مذابح أوربا الشرقية والوسطى ، الأمر الذى يدل عليه تفوق عدد اليهود الروس فى مجموع الذين هاجروا قبل عام ١٩١٤ إلى الأرض المقدسة . لم تكن المرارة التى نشأت منذ

---

(١) تفاهم على ماذا؟؟أن اليهود الذين تدفقوا على فلسطين انما جاءوا بهدف واضح هو انتزاعها من أيدى أصحابها العرب واخراجهم منها . . . المترجم .

عام ١٩٢٠ أكثر من انعكاس لخوف العرب من أن تفرض عليهم دولة عربية يغلب عليها الطابع الغربى ، وهو خوف لم تعمل على تبديده تصريحات من قبيل قول وايزمان أن فلسطين يجب أن تكون « يهودية بمثل ماتكون أمريكا أمريكية وانجلترا إنجليزية » .

ربما كان من الكثير جداً أن نتوقع من اليهود أن يقبلوا هذا التحول البريطانى السريع وأن ينظروا إلى الكتاب الأبيض على أنه حل وسط ، عادل ومعقول . ولكن الذى يبعث على الدهشة ، بل والمفجع ، أن العرب لم يروا أن الحل القائم على ثنائية القومية كان يتيح لهم أفضل وسيلة لتجنيب التهديد الممثل فى إنشاء دولة يهودية فى فلسطين .(١) وعلى أى حال فقد رفض كل من العرب واليهود بصفة قاطعة ، سياسة الكتاب الأبيض ، لأنهم على غرار الصليبيين بقيادة الملك ريتشارد ، كانوا يريدون أن يستحوذوا على فلسطين كلها لأنفسهم ، ولم يكن فى صفوف العرب الآن رجل من طراز صلاح الدين ليقنعهم بقبول تسوية بينما كانت لاتزال لهم ميزة التفوق العددى بنسبة ٢ : ١ .

لم يبق سوى أمل واحد فى تنفيذ هذا الحل القائم على دولة من قوميتين ، هو أن تفرضه بريطانيا على كلا الجانبين .

ولكن هذا الأمل حطمه نشوب الحرب العالمية الثانية عندما حولت بريطانيا اهتمامها إلى نواح وأماكن أخرى . أوقفت سياسة الكتاب الأبيض وأصبحت فلسطين قاعدة عسكرية للمجهود الحربى البريطانى فى الشرق الأوسط وبرغم أنه قامت هدنة ضمناً بين العرب واليهود ، بدأ الصهاينة يستعدون للمعركة القادمة مع البريطانيين الذين كانوا قد انحازوا إلى العرب

(١) كان طبيعيا أن يرفض العرب هذه النظرية بعد ماخبروه من أحابيل الصهيونية والسياسة البريطانية ، لأن قبولهم للنظرية معناه اعتراف بأن لليهود حقا فى فلسطين ، مثلهم مثل أهلها الأصليين وهم العرب ، ومثل هذا الاعتراف سوف يستغل لصالح الأهداف الصهيونية — المترجم .

وأرادوا وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، على حد اقتناع الصهاينة . بدأوا برامج للتدريب العسكرى طبقـاً للتعليم البريطانى ، كى يتعلموا استخدام الأسلحة الحديثة ، ولم يتورعوا عن القيام بعملية اغتيال من حين لآخر ، مثل مقتل اللورد موين الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط ، ومحاولة اغتيال السير هارولد ماك مايكل المندوب السامى فى فلسطين .

وبانتهاء الحرب ضاعف الصهاينة جهودهم للظفر بالسيطرة فى فلسطين وبالتأييد الدولى لقضيتهم . كان هتلر قد أهداهم ورقة رابحة يلعبون بها ، هى عمليات التعذيب والمذابح التى لا توصف والتى تعرض لها اليهود فى ألمانيا النازية والأراضى التى كان يحتلها الألمان ؛ واستخدم الصهاينة هـذه الورقة لتشويه سمعة السلطات البريطانية فى فلسطين بسبب رفضها الهجرة اليهودية غير المحدودة . وإذ رددت الصحافة والإذاعة فى الولايات المتحدة والروسيا وأوربا الغربية الصيحة ضد بريطانيا ، تشجع اليهود فأطلقوا قواتهم السرية ضد البريطانيين فى حملة من العنف نافست الثورة العربية فى ١٩٣٦ - ١٩٣٩ . واستخدمت كل حيلة ووسيلة لإدخال المهاجرين بالطريق غير المشروع . فأرسلت لجنة تحقيق إنجليزية - أمريكية إلى فلسطين ولـكنها لم تعمل سوى أن أضافت وقوداً إلى النار بأن أيدت اقتراحاً تقدم به الرئيس ترومان بشأن هجرة ١٠٠ ألف يهودى فوراً من أوربا لتعويض ما سببته الحرب من توقف الهجرة .

ما أن حل عام ١٩٤٧ حتى كانت بريطانيا قد نالت ما فيه الـكفاية . فبدلا من أن تعمل فلسطين على تقوية مركزها الإستراتيجى فى الشرق الأوسط بتوفير قاعدة عسكرية مستقرة لها ، لم تعمل سوى أن أضعفتها أدبياً وعسكرياً ، وكان حكمها الذى امتد سبعة وعشرين عاماً حصاراً طويلا بالفعل . فتخلت الآن عن الـكتاب الأبيض وأخطرت الأمم المتحدة باعتبارها خليفة

عصبة الأمم ، أنها – أى بريطانيا – لن تعود مسئولة عن فلسطين إعتباراً من ١٤ / ١٥ مايو من عام ١٩٤٨ . فى هذه الأثناء كانت الأمم المتحدة قد شكلت لجنة تحقيق تابعة لها ، هى اللجنة الخاصة عن فلسطين والتابعة للأمم المتحدة . مره أخرى ساعد العرب على جلب النكبة على رؤوسهم بأن قاطعوا لجنة التحقيق المنبثقة من الأمم المتحدة . إذ بسبب عـــدم وجود أى آراء أو اعتراضات عربية عادت اللجنة بأغلبية سبعة أصوات ضد أربعة الى فكرة التقسيم . وكان التقسيم الذى اقترحته يعطى العرب أقل واليهود أكثر مما أوصت به أية مشروعات سابقة . فبتقسيم فلسطين إلى ثلاثة جيوب عربية وأربعة يهودية ترتبط كل منها بشبكة من الإتصالات كان العرب سيخسرون النقب لصالح اليهود ولا يحصلون مقابل هذا إلا على نصف الجليل الذى كان كله تقريباً عربياً ، أما القدس فتكون منطقة دولية .

رفع تقرير اللجنة إلى الجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة ، فى نوفمبر ١٩٤٨ . قامت الحركة الصهيونية تؤيدها حكومة الولايات المتحدة بمناورات مكثفة من وراء الستار لكى تحصل على أغلبية الثلثين للموافقة على التقرير . واحتمت بريطانيا بالحياد والامتناع عن التصويت . وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، وبعد أن وقعت أقوى الضغوط على حلفاء أمريكا ، وخاصة على تلك الكتلة الكبيرة من دول أمريكا اللاتينية كى يؤيدوا مشروع التقسيم ، وافقت الجمعية العامة بأغلبية ثلاثة وثلاثين صوتاً من بينها صوت الاتحاد السوفيتى ، مقابل ثلاثة عشر صوتا على تقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية وفق الخطوط التى أوصت بها لجنة التحقيق التابعة للامم المتحدة ، وبذا وافقت على إنشاء دولة إسرائيل عند انتهاء إنتداب بريطانيا .

وعلى الفور بدأ قادة البلاد العربية المجاورة يستعدون لليوم الذى تخرج فيه بريطانيا من فلسطين فيدخلون فيها ويخنقون الدولة اليهودية الوليدة فى مهدها . باستثناء عبد الله ملك الأردن كانوا من الحماقة بحيث يتطلعون

إلى المفتى لإرشادهم . كان الحاج أمين بعد أن أيد انقلاباً موالياً لألمانيا فى العراق ، قد قضى السنوات الأربع الأخيرة عن الحرب فى برلين يصب جام غضبه على بريطانيا من راديو هتلر ويحاول عبثاً تحريض العرب على الثورة ضد الحلفاء . وفى ديسمبر ١٩٤٧ ومن مقره الجديد فى القاهرة ، أقنع الدول العربية بأن تسمح له بإرسال فرقة من الفدائيين إلى فلسطين لإعداد الأرض أمام زحف الجيوش العربية الرئيسية بعد خروج البريطانيين . كان الغرض الرئيسى من هذه القوة الاستيلاء على طريق بيت المقدس — تل أبيب وهو الشريان الرئيسى للمدافعين اليهود والطريق الذى تعتزم الجيوش العربية أن تستخدمه فى زحفها على الأرض اليهودية . ولكن خطة المفتى أخطأت الهدف . فالفدائيون الذين أطلقت عليهم التسمية الطموحة وهى « جيش التحرير العربى » كانوا حفنة مهلهلة من غير النظاميين وأثبتوا أنهم ليسوا نداً للقوات اليهودية . فلم يقف الأمر بهم عند الفشل فى تحقيق هدفهم ، ولكنهم سمحوا لليهود بالاستيلاء على قطعة كبيرة من الأرض العربية ومن ثم خلق نتوء شرقى اللطرون يشير إلى القدس حيث كانت مجموعة يهودية أخرى تنتظر الاستيلاء على المدينة الجديدة فور سحب القوات البريطانية .

وفى ١٥ مايو خرج البريطانيون وظهرت دولة إسرائيل إلى عالم الوجود ، وهجمت الجيوش العربية — المصريون عن طريق غزة فى الجنوب ، وهجم العراقيون والفيلق العربى الأردنى بقيادة الجنرال جلوب عن طريق جوديا وسمارية فى الشرق ، والسوريون واللبنانيون عن طريق الجليل فى الشمال . تقدم العرب فى أول الأمر . وبعد شهر من القتال احتل المصريون النقب ، واستولى الفيلق العربى على القدس القديمة وشددوا الضغط جداً على القوات الإسرائيلية فى المدينة الجديدة . وكانوا أيضاً على مسافة عشرة أميال من البحر المتوسط عند اللد ؛ واندفع العراقيون عن طريق سمارية حتى أصبحوا على بعد خمسة عشر

ميلا من حيفا والتهموا جزءاً كبيراً من الجيب المخصص لليهود فى الجليل .
كان السوريون واللبنانيون فى الشمال هم وحدهم الذين بدا تقدمهم بطيئاً ، وفى الوسط نجح الاسرائيليون الذين كانوا يقاتلون بصلابة ، فى إبقاء خطو نتوء اللطرون موجها إلى القدس .

عند هذه النقطة ، فإن الأمم المتحدة عن طريق وسيطها الكونت فولك برنادوت السويدى ، أقنعت كلا الجانبين بقبول هدنة . كانت هذه بغيرشك اللحظة المناسبة للعرب كى يتفاوضوا عنطريق الأمم المتحدة فى سبيل الحصول على تسوية أكثر إنصافاً وأكبر قابلية للتنفيذ ، من تلك الجراحة الفظيعة التى دعتها الجمعية العامة التقسيم . ولكن بعد حكايات الدعاية المبالغ فيها عن الهزائم الساحقة التى لحقت باليهود ، وهى الحكايات التى كانت تتدفق من راديو القاهرة ، راحت الجماهيرفى جميع أرجاء العالم العربى يرفعون أصواتهم الصاخبة مطالبين بجولة أخرى.وهكذا بعد أربعة أسابيع من بدء الهدنة، جددت الجيوش العربية الهجوم وهى تعتقد عن ثقة أنها بدفعة أخرى سوف تقضى على إسرائيل كلية . ولكن القيادة العليا الإسرائيلية كانت قد أحسنت استغلال الهدنة للحصول على الأسلحة والطائرات من الروسيا وتشيكوسلوفاكيا تحدياً للحظر الذى فرضته الأمم المتحدة على تقديم الأسلحة إلى أى من الجانبين ؛ وبهذا العتاد الحديث سرعان مابدا أثر تفوق ماتعلمه اليهودمن تنظيم وتدريب من البريطانيين خلال الحرب العالمية الثانية . كان العرب يعوزهم أى شكل من التنسيق أو التخطيط المشترك ، وعندما شنت الجيوش الإسرائيلية هجومها المضاد ، انفرط عقدهم . استولت الجيوش الاسرائيلية على اللد والرملة وطردت جميع سكانها بعد أن نقلت الذكور ممن كانوا فى سن الخدمة العسكرية إلى معسكرات الاعتقال الاسرائيلية . واجتاحت الجليل كلها واضطر الفيلق العربى الآن إلى تحويل القوات من القدس إلى سد الثغرات

التى أحدثها الهجوم الاسرائيلى وفقـدوا آخر فرصة للاستيلاء على القدس الجديدة .

وفى ١٨ يوليه نظمت الأمم المتحدة هدنة ثانية . مرة أخرى استخدم الاسرائيليون فترة توقف القتال للتزود بالأسلحة والطائرات من الـكتلة السوفييتية . هذه الفرصة لم تـكن متاحة للعرب الذين كان مصدر إمداداتهم من الأسلحة هو الدول الغربية التى كانت تلتزم بحظر الأسلحة الذى فرضته الأمم المتحدة. وأكثر من هذا أن العرب أخطأوا كثيراً تقدير عدد القوات التى يتطلبها إنزال الهزيمة بالاسرائيليين ، وكان الجيش الاسرائيلى يزيد بالفعل على ضعف قوة جميع القوات العربية . فلم يزد ما للعرب من قوات فى الميدان على ٥٦٫٠٠٠ أبداً بالقياس إلى قوة إسرائيل البالغة ١٢٠٫٠٠٠ .

بمثل هذا التفوق فى الرجال والعتاد آلى الاسرائيليون على أنفسهم أن يخرقوا الهدنة ثانية ، وفى ١٥ أكتوبر اندفعوا صوب المصريين فى الجنوب وفى ظرف أسبوع استولوا على بير سبع وراحوا يردون المصريين نحو غزة . لقد أطلق العرب آخر سهامهم ، وبرغم الدعوة إلى هدنة ثالثة ، لم يكن ثمة شىء يمكن أن يجنبهم خسارة جميع الأرض التى كانوا قد كسبوها وخسروا شيئاً آخر بالاضافة إلى هذا . وفى فبراير ١٩٤٩ وقعت مصر هدنة مع إسرائيل وتلاها لبنان بعد أربعة أسابيع . وعاد السوريون والعراقيون إلى بلادهم فى اشمئزاز . كان الاسرائيليون يحتلون الآن كل النقب حتى خليج العقبة ، وفى أبريل وقع شرق الأردن هدنة وهو الذى كان قد تحمل وطأة القتـــال وتركوه الآن وحيداً فى الميدان

انتهت الحرب . لقد محيت فلسطين من عالم الوجود . وخرجت إسرائيل ليس فقط بجميع الأرض التى منحت للدولة اليهودية طبقاً للتقسيم الذى أقرته الأمم المتحدة ، ولـكنها حصلت أيضاً على النصف تقريباً من المنطقة المخصصة

للعرب بما فيها شمال الجليل مع الناصرة وميناء عكا ، وبير سبع ، بالاضافة إلى هلال عريض من الأرض يمتد من البحر الميت إلى الرملة ، والقدس القديمة ، وترك للعرب سمارية وجوديا والقدس القديمة .

إلا أن ما كان أفظع وأفجع من أى شىء آخر ، هو مصير ٧٠٠ر٠٠٠ لاجىء عربى ، كان بعضهم قد هرب أمام الزحف اليهودى ولكن معظمهم كأهل اللد والرملة ، أخرجتهم الجيوش الإسرائيلية المنتصرة من دورهم ومزارعهم ووجدوا أنفسهم الآن وقد جمعوا فى معسكرات أقيمت على عجل فى قطاع غزة وفى الحطام الممزق الأوصال والذى كان من المقرر ذات مرة أن يكون الدولة العربية . هنالك يقيمون حتى يومنا هذا يبقيهم الإحسان من الأمم المتحدة على قيد البقاء ، ويزدادون عدداً كلما انتهت سنة عديمة الأمل بأخرى مثلها . ومع ذلك لايزالون يحرمون من الحق الأولىّ فى إعادة توطينهم فى الأرض التى كان يفلحها أسلافهم منذ العصور الموغلة فى القدم ، فيشكلون صورة مختصرة لشقاء البشر الذين فقدوا الدار والأمل وحتى احترام الذات الممثل فى أن يكسب الإنسان مايقيم أوده .

عندما كتب جورج أنطونيوس فى عام ١٩٣٨ عن مسئولية الإنسانية فى تخفيف آلام اليهود فى ألمانيا النازية أطلق هذا التحذير المقسم بالنبوءة : « إن إلقاء ثقل العبء على فلسطين العربية هو تهرب نفسى من الواجب الذى يقع على عاتق العالم المتحضر بأكمله . . ما من قانون للاخلاق يمكن أن يبرر اضطهاد شعب فى محاولة للتخفيف من اضطهاد شعب آخر . ليس علاج طرد اليهود من ألمانيا هو فى طرد العرب من وطنهم ؛ ولا يجوز أن يتم تخفيف المحنة اليهودية على حساب إنزال ضائقة مثلها بسكان أبرياء ومسالمين » . أما أن هذا هو بالضبط ماسمحت بريطانيا وحلفاؤها الغربيون بحدوثه فى فلسطين ، هذه الحقيقة خلقت مرارة وخوفاً هما من العمق والدوام فى قلوب

العرب ، بحيث أنه برغم انقضاء خمسة عشر عاماً(١) منذ التوقيع على الهدنة، لم تتم تسوية سلام حتى الآن ، ولايزال العرب فى حالة حرب مع إسرائيل ، يفرضون عليها المقاطعة الاقتصادية ، وخط أنابيب البترول من العراق إلى حيفا مقطوع ، ولا يسمح للسفن والشحنات الاستراتيجية الإسرائيلية بالمرور فى قناة السويس . وما من زعيم عربى يجسر على أن يناقش أو حتى يحلم بمناقشة — السلام مع إسرائيل طالما يحرم اللاجئون الفلسطينيون من العودة إلى وطنهم والإقامة فيه .

لكى نكون منصفين فان مأساة فلسطين لم تكن على الإطلاق غلطة بريطانيا أو الدول الغربية أوحتى الأمم المتحدة . فبجهل وجسارة حتى النهاية أضاع العرب تلك الفرص القليلة والتى كانت حقيقية برغم ذلك للحصول على نصف رغيف. فاذا كانوا لم يترك لهم سوى كسرة خبز جافة ومرة فيجب أن يقع بعض اللوم على الأنبياء الكذابين الذين ضللوهم وطالبوهم فى تطرف أعمى برفض أى تراض وتفاهم. وبعد أن فات الأوان كثيراً راحوا الآن يصرخون مطالبين بالحدود التى قررتها الأمم المتحدة . ولم تكن إسرائيل لتقبل أى حديث عن تنازلها عن شبر واحد مما فتحته. كل ما كان يمكن للعرب عندئذ — أو بالأحرى للامير عبد الله — هو أن يضعوا ماتبقى من الدولة العربية المقطوعة الأطراف، تحت جناح شرق الأردن

وإذ تم هذا فان عبد الله وسع نطاق ممتلكاته التى أصبحت الآن تعرف باسم المملكة الأردنية التى يتكون ثلث سكانها من فلسطينيين كان نصفهم وما يزالون لاجئين . وكذلك وقع على حكم باعدامه فعلا ، لأن التصرف الذى أقدم عليه حطم فى النهاية آمال المفتى فى العودة كزعيم لفلسطين عربية .

---

(١) بالنسبة إلى السنة التى نشر فيها هذا الكتاب — المترجم .

كان المفتى قد شكل خلال الحرب حكومة عربية لعموم فلسطين لتتولى الأمر في المناطق التي يسيطر عليها العرب وجند جيشاً لمساندة دعواه . ولكن الفيلق العربي بأوامر عن عبد الله كان قد بدد هذه المجموعة من الدهماء وحمل المفتى على أن يحمل عصاه ويرحل . كان ضم عبد الله للبقية العربية فى فلسطين ، وهو الأمر الذى جاء يختم هذه الحادثة والصراع الطويل بين هذين الرجلين حول السياسة والتكتيكات العربية خلال الانتداب ، نقول إن هذا الضم كان القشة الأخيرة بالنسبة إلى المفتى . وفى ٢٠ يولية ١٩٥١ أطلق قاتل مأجور من قبل ابن عم المفتى وهو موسى الحسينى ، النار على عبد الله فأرداه قتيلا وهو يغادر المسجد الأقصى فى القدس بعد صلاة الجمعة .

سوف نروى فى موضع قادم من هذا المجلد قصة بقية هذا الفصل الملىء بالألم من التاريخ العربى . ولكن كتذييل على قصة فلسطين فان فكرة غريبة تندفع لتطل علينا . لو أن فرنسا وليست انجلترا هى التى اختطفت فلسطين بعد الحرب العالمية الاولى لجاز أن أصبحت فلسطين دولة عربية مستقلة على نحو ما تحقق بالنسبة إلى سوريا ولبنان . حقيقة كان سيتعين على الفلسطينيين أن يتحملوا « المهمة التمدينية » الخانقة التى كانت تميز إدارة ممتلكاتها العربية فى شمال أفريقية والمشرق ، ولحدث فى فلسطين نفس إراقة الدماء مما وقع فى سورية ولبنان . ولكن الفرنسيين لم يكونوا مرتبطين بالمنظمة الصهيونية العالمية ارتباط البريطانيين بها فى نهاية الحرب العالمية الاولى . مهما أصبحت فرنسا فيما بعد ثيقة الاتصال باسرائيل نكاية فى العرب الذين طردوها من سورية ولبنان فى عام ١٩٤٥ ، فلو أنها كانت الدولة المنتدبة على فلسطين فى عام ١٩٢٠ لما سمحت أبداً للصهاينة بتثبيت أقدامهم فيها ، ذلك أن فرنسا على عهد كليمنصو لم تكن لها علاقة بتصريح بلفور . فبدلا من أن تكون فلسطين « وطناً قومياً » لليهود كانت تصبح محمية فرنسية . وعندما يجىء الوقت الذى

يثور فيه العرب ويطرحون النير الفرنسى ، يكون عرب فلسطين قد تعاونوا مع أشقائهم اللبنانيين والسوريين فى الظفر باستقلالهم . واذ كان يجرى المحافظة على دولة فلسطين سليمة لم تمس ، لكسب الشرق الاوسط كله الاستقرار والقوة .

(٢٨)

عصر نورى السعيد

بينما كانت فلسطين تتجه نحو الكارثة خلال العقود الثلاثة التى أعقبت نقلها من وصاية تركيا إلى الوصاية البريطانية فى عام ١٩١٨ ، وكان العراق يبدأ السير فى فترة من التوسع الاقتصادى والتقدم السياسى لم يعرفهما منذ الايام الذهبية للخلافة العباسية كان شمال العراق قد حقق مايزيد على توقعات القائمين بالتنقيب عن البترول فى أوائل العشرينات من القرن الحالى وثبتت شركة نفط العراق أقدامها بوصفها صاحبة الامتياز الرئيسية . وإذ تدفق « الذهب الاسود » من آبار الزيت فى الموصل وكركوك والبصرة بخطوط الانابيب إلى طرابلس وحيفا والخليج الفارسى ، انطلقت الدولة العراقية من الشرنقة التى نسجتها حولها قرون أربعة من الحكم العثمانى ، وراحت تنمو لتكون مجتمعاً حديثاً ، غنياً ومزدهراً . وخلال هذه الفترة تقدم العراق من الناحية السياسية أيضاً على نحو لم يعرفه شعب عربى آخر ، سواء أكان مكبلا بالاغلال أم حراً . فعلى خلاف كل دولة عربية أخرى وضعت تحت الانتداب بعد الحرب العالمية الاولى كان العراقيون وحدهم هم الذين ظفروا باستقلالهم قبل الحرب العالمية الثانية . وبرغم أن نظام الحكم ظل فى جوهره حكم أقلية تسانده بريطانيا مع قشرة رفيعة من الديمقراطية لتضفى عليه مظهر الحكم البرلمانى الحديث ، كان العراق قد أصبح عضواً كاملا فى عصبة الامم فى وقت كان عرب فلسطين ما يزالون محرومين من أية ذرة من الحكم الذاتى .

هذا التقدم الرائع كان راجعاً إلى حد كبير إلى تأثير نورى السعيد ذلك الدكتاتور اللطيف والناعم الملمس الذى كان يبدو كشاة عجوز ولكنه حكم العراق بيد من حديد معظم فترة الثلاثين عاماً . فعلى خلاف الحاج أمين الذى انحرف عن طريقه ليجعل التعاون مع أية سلطة بريطانية مستحيلا فإن نورى السعيد لم يقف عند حد أن جعل بريطانيا تعمل معه وتعطيه ما يريد ، بل وجعل هذا فرضاً عليها .

ولد نورى فى عهد عبد الحميد بدمشق فى عام ١٨٨٨ . ولما كان الإبن الوحيد لموظف حكومى صغير يعيش على مرتبه الهزيل فى بيت جدرانه من الطين فى بغداد ، حصل نورى على تعليم عسكرى تركى ، أولا فى مدرسة ابتدائية فى بغداد وبعد ذلك وابتداء من سن الرابعة عشرة ، فى كلية حربية فى الآستانة . كان تلميذاً نابهاً من تلاميذ الكلية . ففى عام ١٩٠٦ ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من العمر بعد حصل على وظيفة فى إحدى وحدات المشاة الخيالة التى تشتغل بالأعمال البوليسية بما فى ذلك جباية الضرائب ، فى العراق . وفى عام ١٩١٠ وكان قد تزوج من شقيقة لصديقه ورفيقه فى بغداد جعفر العسكرى الذى تزوج بدوره من أخت نورى ـ أرسل إلى كلية أركان الحرب التركية ، ثم أرسل بعد عامين للعمل مع القوات التى تعمل ضد الثوار البلغاريين ، وأصبح أول رجل يستخدم الطائرات فى القتال بأن ألقى قنابل يدوية على معسكر بلغارى ، من طائرة تركية من ذات السطحين .

وفى عشية الحرب العالمية الأولى أصبح نورى وقد زالت عنه الأوهام من ناحية رجال تركيا الفتاة ، ويشعر بالقلق إزاء ازدياد النفوذ الألمانى على الباب العالى . وتحت تأثير عزيز على انضم إلى الجمعية العسكرية السرية وهى العهد . وعندما حكم على عزيز على بالسجن مدى الحياة كان نورى من بين الذين ضغطوا على السفير البريطانى فى الآستانة كى يتوسط لدى الباب العالى .

وبعد الإفراج عن عزيز على خرج نورى خاسة ليثير المتاعب للأتراك فى العراق : ولكنه لم يتجاوز البصرة حيث أصيب بمرض فى الرئة فى اللحظة التى دخلت فيها تركيا الحرب ضد بريطانيا، فنُقل إلى الهند كى يعالج فى إحدى المستشفيات وسرعان ماشفى ؛ ولكنه قضى أحد عشر شهرا فيما يشبه الاعتقال وذلك بناء على أوامر السلطات الهندية ـ البريطانية التى كانت تشتبه فى أنه يدبر ثورة عربية عامة ضد تركيا وخشيت أن يثير المتاعب فى صفوف المسلمين الهنود .

شهد ديسمبر من عام ١٩١٥ عودة نورى إلى القاهرة بدعوة من عزيز على، ولكن لما استسلمت الحامية البريطانية عند كوت العمارة للاتراك فى أبريل التالى وتبدد الهجوم البريطانى فى الجزيرة ، اضطر إلى التخلى عن خططه بشأن بدء ثورة فى العراق وتوجه للانضمام إلى الشريف حسين التى كانت قواته قد استولت الآن على مكة . ظل عاماً يتولى قيادة المدفعية التى تساند جيوش أبناء الشريف الكبار وهما على و عبد الله التى بقيت فى الاحتياطى فى الحجاز بينما تقدم فيصل شمالا إلى شرق الأردن . ولكن روح نورى المغامرة ثارت على هذا الدور الدفاعى ، وفى عام ١٩١٧ تمكن من الانضمام إلى صهره جعفر الذى كان قد هرب من جيش السلطان بعد عمليات إعدام الوطنيين السوريين فى عام ١٩١٦ وتولى آلان قيادة قوات فيصل . نظراً لأن نورى كان يمارس فنون الحرب بأسلوب الجندى النظامى لهذا كان شخصية عسكرية غير ملائمة باعتباره قائد مدفعية فيصل وكان يظهر بطريقة سافرة جداً ازدراءه لرجال القبائل الذين كانوا يميلون إلى يفلتوا إلى الصحراء بمجرد أن يملأوا أخراجهم بالغنائم التركية . وكثيرا جدا كاد أن يشتبك مع عوده أبى طى بعد ملاحظة مهينة أبداها نورى بشأن افتقاد البدو إلى النظام ، أغضبت رئيس قبيلة الحويطات . وغالباً أيضاً ماوجد نفسه فى شجار مع ت . ا . لورنس. فإذ كان

يرفض نظرية لورنس فى عدم الاشتباك مع الأتراك إلا بشن غارات بأسلوب «إضرب واهرب» ، فكثيرا ما بدد نورى ذخيرة ثمينة فى هجمات أمامية . ولكن ، برغم كل تصلبه فى المسائل العسكرية، كان شخصية محبوبة فى حاشية فيصل ، وكان فى الأوقات الصعبة يعمل على رفع الروح المعنوية باحساس هائل للفكاهة وكان يحبذ بقوة تعاطى رشفة من زجاجة ويسكى كعلاج للكآبة والخوف أو البرد . ولما دخل فيصل دمشق فى أكتوبر ١٩١٨ جعل نورى قائدا لحامية المدينة ، فأنقذ بصفته هذه الموقف للأمير عندما حاول عبد القادر زعيم الجالية الجزائرية فى سوريا وحفيد بطل نضال الجزائر ضد فرنسا ، الاستيلاء على المدفعية بمساعدة ثورة من الدروز . ومكافأة على الدور الذى لعبه نورى فى هذه الحملات رقى إلى رتبة الجنرال ، ومنحته بريطانيا وسام الخدمة الممتازة وجعلته رفيقاً من وسام سان مايكل وسان جورج . ولكن أعظم جزاء كان فى الرعاية التى أسبغها عليه فيصل الآن . فعندما توجه فيصل إلى لندن فى ديسمبر ١٩١٨ ثم إلى باريس ليحضر مؤتمر الصلح فى فرساى ، صحبه نورى . ومرة ثانية فى عام ١٩٢٠ كان نورى المستشار الرئيسى لفيصل فى سان ريمو عندما تقدم الأخير بدفاعه الأخير غير المجدى ، من أجل الاستقلال العربى . وبعد أن طرد الفرنسيون فيصل فجأة من سوريا صحب نورى مولاه إلى المنفى فى فلسطين .

فى هذه الأثناء ، وبسبب العناد الغبى من جانب المندوب المدنى البريطانى الكولونيل ويلسون، إلى حد كبير، كانت الأمور فى العراق تسير من سيء إلى أسوأ. كانت «عصبة الجزيرة» المكونة من ضباط فيصل العراقيين تثير الدعوة إلى استقلال العراق مع اختيار عبد الله ليكون ملكا عليه ، وهو ماسبق أن طالب به المؤتمر العراقى الذى عقد فى دمشق قبل مؤتمر سان ريمو . التمس نورى من ويلسون أن يلقى بالا إلى هذا الهياج الذى أثاره العراقيون الأباة والمشاكسون ولكن دون جدوى . وفى يونيه ١٩٢٠ وقع المحتوم ؛ فثارت قبائل وادى

الفرات ضد فرض الحكم الإستعمارى البريطانى المباشر . استمرت الثورة حتى أكتوبر ، وبلغت خسائر كلا الجانبين ١٠٫٠٠٠ تقريبا ، وكانت التكلفة بالنسبة إلى دافع الضرائب البريطانى ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه (٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار) أو ثلاثة أمثال ما تكلفته جميع المعونة البريطانية للثورة العربية فيما بين عامى ١٩١٦ و ١٩١٨ . وبعد استيلاء الفرنسيين على دمشق فى يوليه اتخذت الثورة طابع « جهاد » إلى أن بعثت الحكومة البريطانية فى النهاية بالسير برسى كوكس وكان شخصا مستنيرا ، ليحل محل الكولونيل ويلسون الذى يتبع أسلوب القمع .

بعد ذلك سُمح للعراق بأن ينتخب برلمانا وحكومة تمثيليين وأصبح الموظفون البريطانيون مجرد مستشارين من الناحية النظرية . وبرغم أن كوكس احتفظ بحق الاعتراض على جميع القرارات الكبرى المتعلقة بالسياسة ، إلا أنه تمت خطوة متواضعة نحو الاستقلال . وفى هذه الأثناء أوقفت إراقة الدماء ومكنت مؤتمر القاهرة من الإستجابة إلى مطالبة العراقيين بملكية هاشمية . وإذ أقر المؤتمر سياسة من الاقتصاد مع الشرف ، دعا فيصل إلى التقدم إلى استفتاء على اختياره ليكون ملكا على العراق ، وجعل من الواضح أنه يأمل فى أن يتم سريعا إبدال الانتداب بمعاهدة تحالف . قبل فيصل ، وبعد انتخابه بأغلبية ساحقة ، نودى به رسميا ملكا على الدولة العراقية العلمانية فى ٢٣ أغسطس ١٩٢١ . لأول مرة فى التاريخ العربى منذ وفاة محمد فُصل الدين عن الدولة رسميا ، وأقيم نظام علمانى للحكم مع ملك دستورى مكان الخليفة .

بالنسبة إلى نورى السعيد كان قدوم فيصل إلى العراق جمعا ساراً للشمل ، إذ نظراً لأنه لم يكن لديه عمل يؤديه فى أثناء وجود مولاه فى المنفى ، قبل منذ وقت وجيزة دعوة لكى يصبح رئيس أركان حرب الجيش فى العراق . جاءت الدعوة من جعفر وزير الدفاع العراقى الجديد . فلما أعلن مؤتمر

القاهرة قراراته سارع نورى إلى استخدام مايلازم مركزه من تأثير ، لإقناع زملائه الضباط والمواطنين بتأييد ترشيح فيصل . أجل ، إن انتخاب الأمير فى بلد لم يكن شديد الرغبة بالتأكيد فى أن تحكمه أسرة مستوردة حتى ولو كانت من سلالة الخليفة على ، بطل العراق التقليدى ، هذا الإنتخاب كان راجعا إلى حد كبير إلى المناورات الحماسية من جانب صديقه وخادمه المخلص . مامن أحد كان يدرك هذا بأكثر مما أدركه فيصل ؛ ومنذ انتخابه إلى حين وفاته فى عام ١٩٣٣ ، أصبحت قصة العراق قصة ماقام بين هذين الرجلين من مشاركة وتفاهم .

لقد هيأ هذان الأمران مزيجا نادرا ورائعا من المواهب . كان نورى يقدم القوة المحركة والعبقرية التنظيمية اللازمين لإيقاظ العراقيين من جديد من سباتهم ، بينما استخدم فيصل تلك المهارات فى الدبلوماسية وتلك السهولة الخارقة للمألوف التى يعامل بها الناس والتى كان قد حاول بها خلال الثورة العربية أن يمزج بين مثل هذا العدد الكثير من القبائل المعادية بعضها بعضا ليخلق منها وحدة محاربة واحدة . لعله مامن رجلين خلافهما كان يمكن أن ينجزا ماأنجز فيصل ونورى من ناحية بناء دولة عصرية فى العراق فى فترة مابين الحربين العالميتين . ومن المحقق أنه مامن بلد عربى آخر كان يشكل مثل هذا العدد الكثير تماما من المشكلات والإنقسامات . كان العراق شعبا من أقليات عنصرية ودينية . كان ثلاثة أرباع ملايينه الثلاثة من الأنفس عربا ، ومن الربع الباقى ويتركز بوجه خاص فى منطقة الموصل ، نصف مليون من الأكراد وأغلب الباقين من الأشوريين . وفى المجال الدينى ورغم أن الأقليات غير المسلمة ضئيلة نسبيا ، كان المسلمون ينقسمون بالتساوى بين الشيعة وأهل السنة ، مع كل ما يعنيه هذا من ناحية التنافس الطائفى

التقليدى . وحتى الجالية المسيحية الصغيرة كانت تتكون من أتباع مالا يقل عن ست كنائس مختلفة .

وبالإضافة إلى هذه التقسيمات ، كثيراً ما نشبت المنازعات القبلية حول ملكية الأرض وحقوق الماء ، وخاصة فى وادى الفرات حينما كانت الحكومة تحاول تنفيذ مشروع ما للمحافظة على الماء أو لرى مساحات من أراضى الرعى القبلية من أجل الزراعة ، وكانت هناك صدامات مستمرة على الحدود مع العربية السعودية وأيضاً مع الكويت التى كان العراق يدعى الحق فى امتلاكها. وحاول الأكراد الذين لم يندمجوا أبداً خلال الحكم العثمانى فى المجتمع الذى يغلب عليه العنصر العربى، الانفصال وإقامة دولة خاصة بهم تتمتع بالاستقلال الداخلى. لكن انتصر فيصل على هذه المشكلات . فاشترى الأكراد إذ عرض تمثيلهم فى الحكومة العراقية ؛ وعوضت القبائل ؛ وبرغم أن النزاع مع الكويت لم يفض أبداً فقد عقد اتفاق بشأن الحدود مع السعوديين .

فى هذه الأثناء راح نورى كرئيس للاركان أولا ثم كوزير للدفاع من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٠ ، يعمل على تحديث القوات المسلحة العراقية. فاستعان كثيراً بالتسهيلات التى توفرها كليات أركان الحرب والكليات العسكرية فى بريطانيا والهند البريطانية ، وبفضل المعدات البريطانية أنشأ وحدات ميكانيكية ومدرعة حديثة . واستخدم أيضاً وجود أسراب سلاح الطيران الملكى فى الحبانية بالعراق لإنشاء سلاح جوى صغير ولكنه على درجة عالية من الكفاءة . مثل هذا التعاون جاء بسهولة إلى نورى لأنه كان يحب صحبة الجنود النظاميين البريطانيين ، ولأن إحساسه بالفكاهة جعله دائماً موضع الترحيب فى وسطهم . وممن كان هدفاً خاصاً لدعاباته رئيس المخابرات البريطانية الذى لم يغفل نورى أبداً عن أن يحييه قائلا « كيف حالك يا أبو الجواسيس ؟ »

كان نورى وفيصل يعرفان أيضاً أنه كلما زاد تعاونهما مع بريطانيا توثقاً ، أسرع العراق بالحصول على الاستقلال . وهنا لقيا مساعدة كبيرة من السير برسى كوكس وجماعة نزيهة من الموظفين البريطانيين ممن كان هدفهم أن يساعدوا العراق على التحرر فى أقرب فرصة ممكنة. وعلاوة على هذا ، فعلى خلاف فلسطين حيث غلبت على ذهن بريطانيا اعتبارات سياسية واستراتيجية أخرى مثل تصريح بلفور وتسلط فكرة القواعد لحماية قناة السويس ، قنع البريطانيون فى العراق بأن يروا مصالحهم يحميها مزيج من القواعد الجوية وحسن النية من جانب العراق . لهذه الأسباب حلت فى أكتوبر ١٩٢٢ معاهدة تحالف مكان الانتداب . أما الخلافات التى نشأت فيما بعد فلم تتعلق بمبدأ الاستقلال بقدر ما كانت تتعلق بدرجة السيطرة التى يجب أن تواصل بريطانيا ممارستها . وبسبب علاقة نورى الممتازة مع المندوبين السامين الذين تعاقبوا فى بغداد ، يرجع إلى حد كبير تضييق الفجوة تدريجياً التى كانت تفصل بين وجهات النظر البريطانية والعراقية بصدد هذه المشكلة . ففى يناير ١٩٢٦ ، ثم فى ديسمبر ١٩٢٧ ، وقعت اتفاقات أعطت العراقيين باطراد مزيداً من الإستقلال الداخلى. وفى يونيه ١٩٣٠ وبعد أن أصبح نورى رئيساً للوزراء لأول مرة بعد وقت قصير ، عقدت معاهدة نهائية أعطت العراق استقلاله ، فضلا عن وعد بأن تؤيد بريطانيا انضمامه إلى عضوية عصبة الأمم ، وبأن تعقد معه تحالفاً عسكرياً لمدة خمس وعشرين سنة . وقعت على أكتاف العراق الآن مسئولية الدفاع والعلاقات الخارجية فضلا عن الشئون الداخلية .وسمح لبريطانيا بأن تواصل استخدام القواعد الجوية فى العراق ومقابل هذا أرسلت بريطانيا بعثة عسكرية لتقدم المشورة بصدد المزيد من بناء القوات المسلحة العراقية .

وصل نورى الآن إلى قمة حياته السياسية . ولكن لم تمض شهور قلائل

على انتخاب العراق فى عصبة الأمم فى عام ١٩٣٢ ، حتى وجد نفسه وقد أقصى من منصبه نتيجة مناورات قام بهام محام شاب هو رشيد عالى الجيلانى وهو شخصية ذكية ولكنها غير مستقرة . كان رشيد قد خدم فى عدة حكومات عراقية ولكنه انضم فى عام ١٩٣١ إلى المعارضة وشكل مجموعة ضغط قومية باسم حزب الأخوة الوطنية ، لإثارة المشاعر من أجل الحصول على مزيد من الاستقلال؛ وفى سبيل شرائه عينه فيصل رئيساً للوزراء ومعه نورى وزيراً للخارجية . ولكن التجربة لم تنجح وفى سبتمبر ١٩٣٣ توفى فيصل بسبب هبوط فى القلب ، وإذ لم تعد لنورى السيطرة انفجر العراق فى بحر من القلق . أخذ رؤساء الوزارات والحكومات يجيئون ويخرجون فى تعاقب سريع ، إلى أن حل أكتوبر ١٩٣٦ عندما تحالف ضابط طموح من ضباط الجيش هو الجنرال بكر صدقى ، مع وزير سابق مصاب بخيبة الأمل هو حكمت سليمان ودبرا انقلاباً بهدف إبعاد تأثير نورى عن توجيه شئون العراق . اغتيل جعفر ، ولجأ نورى إلى مصر لما أصبح حكمت سليمان رئيساً للوزراء فى ظل حماية بكر . ولكن لم يمض عام حتى مات بكر أيضاً على أيدى أحد السفاكين ، وبعد فترة وجيزة لم تكن فيها حكومة ، عاد نورى يوم عيدالميلاد من عام ١٩٣٨ ليتولى رئاسة الوزارة للمرة الثانية .

ولكن متاعب العراق لم تكن قد انتهت بعد ، إذ فى أبريل ١٩٣٩ مات الملك غازى ابن فيصل وخليفته فى حادث سيارة وخلفه فيصل وهو طفل فى الثالثة من العمر ، واختير عبد الإله وصياً على العرش وهو ابن على ملك الحجاز المعزول . لم يكن موت غازى ليقع فى لحظة أسوأ من التى حدث فيها إذ بينما كانت سحب الحرب تتجمع فى سماء أوربا ، تطورت المنافسات المريرة بين الزعماء العراقيين السياسيين فانحرفت إلى خضم الصراع بين القوى الأوربية . وعند نشوب الحرب العالمية الثانية أوفى نورى بالتزامات العراق

وفقاً لمعاهدة ١٩٣٠ ، فطارد المبعوث الألمانى فى بغداد، الدكتور فريتز جروبا ، هو وجميع الرعايا الألمان العاملين فى العراق ، وأعلن فى عزم أن العراق يؤيد قضية بريطانيا من كل قلبه . كان نورى منذ أن عاد إلى العراق يبحث عن فرصة للتخلص من جروبا الذى كان يتآمر مع بكر ورشيد عالى للقيام بانقلاب آخر يأتى إلى السلطة بحكومة موالية للألمان . ولكن إبعاد جروبا لم يوقف مؤامرات رشيد عالى بأكثر مما نجح الاستقبال الفخم الذى أعده نورى لمفتى القدس الذى وصل حديثاً من منفاه فى بيروت ، فى تعديل كراهية الحاج أمين المرضية للبريطانيين ولأى عرب ساندون بريطانيا . لم يعمل رشيد عالى إلا على زيادة حدة جهوده للاطاحة بحكومة نورى الموالية للبريطانيين وكرس المفتى كل طاقاته من أجل مساعدته .

وفى ربيع ١٩٤٠ زادت قوة العنصر الموالى للألمان ويضم معظم الوطنيين المتطرفين ، زيادة بالغة بفعل الانتصارات الألمانية الكاسحة فى أوربا ،وتحول الرأى السياسى الآن بقوة لصالح الألمان . اغتيل وزير مالية العراق رستم حيدر الذى كان صديقاً حميماً لنورى ، وظهر عنصر جديد موال للألمان يدعى «المربع الذهبى» . كانت هذه الجماعات تتكون من أربعة من قواد الجيش والطيران البارزين ـ وهم الضباط الذين يتولون قيادة فرق الجيشين الأول والثانى والقوات الميكانيكية ورئيس سلاح الطيران . واستغل جماعة المربع الذهبى موجة الشعور الموالى للألمان التى سادت بين السياسيين العراقيين ، فأخضعوا الوصى على العرش لإرادتهم فعين رشيد عالى رئيساً للوزراء . وفى سبيل الإبقاء على المظاهر سمح لنورى بالبقاء فى الحكومة كوزير للخارجية ،ولكن السلطة الحقيقية تركزت الآن فى أيدى حزب رشيد وهو «الأخوة الوطنيون» ومؤيديهم العسكريين .

أصبح المصير واضحاً بالنسبة إلى بريطانيا وأصدقائها فى العراق . فأثار

المفتى على نحو خطير ، المشاعر التى سببها ما عملته بريطانيا فى فلسطين ، وأقنعت الانتصارات الباهرة التى أحرزتها ألمانيا فى الغرب ، عدداً كثيراً جداً من العرب بأن بريطانيا سوف تهزم حتما . وفى رمية مستميتة أخيرة نجح نورى فى إقناع زملائه فىالوزارة بأن يعلن العراق الحرب على أعداء بريطانيا، شريطة أن تتعهد الحكومة البريطانية بتنفيذ سياسة الكتاب الأبيض فى فلسطين بغض النظر عن الإعتراضات الصهيونية . كانت مقامرة رديئة من جانبه . فأيا كان الأمر فكان حتماً أن يكسب رشيد عالى وأصدقاؤه . فلو قبلت بريطانيا لأمكنهم أن يشيروا إلى حقيقة أن العرب كانوا قد رفضوا سياسة الكتاب الأبيض وأنه إذا حاولت بريطانيا أن تفرضها فسوف يكون هذا برهاناً آخر على عدائها وغدرها ، وإذا رفضت اقتراح نورى صار فى إمكانهم أن يطلقوا الصيحة « خيانة » . وكما كانت النتيجة التى تحققت ، رفض تشرشل بصفة قاطعة أن يعطى التأكيد المطلوب ولم يبطىء رشيد عالى فى أن يبين أن بريطانيا عادت مرة أخرى فنكثت بتعهداتها . بذل نورى مجهوداً أخيراً لإقناع زملائه بأنه مهما كان أداء بريطانيا فى فلسطين مذموماً فإن نصراً تحرزه ألمانيا سوف يعنى نهاية الحرية التىسبق أن ظفر بها العراق. وعندما أخفق هذا استقال من وزارة الخارجية فى أبريل ١٩٤١ وانتظر الصراع المحتوم .

بدأت الأمور تحدث الآن بسرعة محيرة . فأولا ، حاول رشيد عالى أن يوقف القوات البريطانية التى تعبر الأراضى العراقية فى طريقها من الهند لتعزيز الشرق الأوسط الذى كان يهدده الآن الزحف الألمانى على ليبيا واليونان. بعد ذلك تجاوز حدوده مع الوصى بأن طالب باعتقال جميع السياسيين البارزين الموالين لبريطانيا ، وبأن يقطع العراق علاقاته مع بريطانيا ويوقع على معاهدة مع ألمانيا . وبتأييد من أصدقاء نورى فى الجيش رفض عبد الإله

النظر فى هذه المطالب وأقال رشيد عالى بشجاعة . عين وزير الدفاع طه الهاشمى رئيساً للوزراء ، وأعلن بناء على أوامر الوصى ، أنه لن يكون هناك تغيير فى سياسة العراق الخارجية . ولكن فى ظرف أيام قام رشيد عالى والمربع الذهبى بتسديد ضربتهم . استقال طه ، وعاد رشيد عالى فتولى رآسة الوزارة مرة ثانية ، وعزل الوصى بقرار من الجمعية الوطنية . وفى ٢ مايو قررت كتيبة الطيران البريطانية فى الحبانية والمحوطة الآن بالقوات العراقية ، أن تشق طريقها بالقوة ، وفى اليوم ذاته أعلن رشيد عالى الحرب على بريطانيا . فى هذه الأثناء كان نورى والوصى قد لجأ إلى السفارة البريطانية ، ومنها نقلا سراً إلى الأمان فى شرق الأردن .

ردت بريطانيا الآن بسرعة خاطفة . فبانهيار المقاومة الفرنسية فى أوربا كانت سوريا ولبنان تعتبر أرضاً يحتلها الأعداء وتسيطر عليها حكومة الماريشال بيتان الموالية للألمان . وعلى ذلك كان من المحتوم القضاء على التهديد من العراق قبل أن يتمكن الألمان من القيام بحركة كماشة ضد الشرق الأوسط . وفى غير ماتردد هرع عبد الله أمير شرق الأردن إلى جانب بريطانيا ووضع الفيلق العربى تحت تصرفها ليعوض حملة سافرت إلى العراق فى ١٢ مايو .

فى هذه الأثناء كانت المقاومة التى طال أمدها على خلاف ما كان متوقعاً ، والتى أبداها البريطانيون للهجوم الألمانى على كريت ، مما حال دون إمداد الألمان المربع الذهبى بالأسلحة التى وعدوه بها . هذه الحادثة الموفقة مضافاً إليها الزحف المتسم بالتصميم والذى قامت به القوة البريطانية والأردنية الصغيرة ، أدى إلى انهيار انقلاب رشيد عالى بعد إعلانه الحرب بأربعة أسابيع فر رشيد عالى والمفتى وجماعة المربع الذهبى إلى طهران ، وعاد نورى وعبد الإله إلى بغداد . ولقد هيأ وصول نورى عنصراً من الارتياح المضحك مما كان موقفاً حرجاً . فهو إذ فقد متاعه فى الرحلة ارتدى ملابس استعارها —

بقميص مفتوح الرقبة مع سروالى بيجامة واسعة بارزين من تحت بنطلون خاكى مما يلبسه الجنود – وفى هذا الملبس الغريب ظهر أبعد الساسة عن التفاخر والأبهة أمام المصورين الصحفيين وهو يضحك .

وبدلا من أن يستأنف نورى منصبه على الفور كرئيس للوزراء ، قام الآن فى بعثة إلى القاهرة ليعرض على المصريين مشروعاً لإقامة اتحادأوثق بين البلاد العربية . كان هذا بعثاً لفكرة الهلال الخصيب — وهو اتحاد يضم العراق وسورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ، وتكون أبوابه مفتوحة أمام الدول العربية الأخرى لتنضم إليه بمجرد أن تصبح مستقرة بصورة ثابتة . كان نورى يأمل من وراء هذا المشروع ليس فقط خلق دولة عليا عربية بزعامة العراقيين والهاشميين ولكن كان يأمل أيضا حل مشكلة فلسطين داخل إطار مركب سورية الكبرى . فى داخل هذه المنطقة كان يقترح أن تتمتع الجماعات اليهودية باستقلال داخلى فى ظل سلطة إتحادية وبهذه الوسيلة كان يأمل تحقيق كل من وعد بلفور وسياسة الكتاب الأبيض . فبالاستقلال الداخلى يستطيع اليهود الحصول على « وطنهم القومى » بينما إذا اتحد عرب فلسطين مع إخوانهم السوريين واللبنانيين فسوف تتوافر لهم الحماية التى تحول دون أن يصبحوا أقلية فى دولة يهودية .

ولكن المصريين الذين كانوا قد أخذوا الآن يخرجون من عزلتهم عن الشئون العربية ، رفضوا التفكير فى هذا المشروع ويرجع هذا إلى حد كبير إلى أنه كان يحمل من العراق النفوذ الغالب فى العالم العربى ويعيد مركز القوة من القاهرة إلى بغداد التى كانت معاملة بريطانيا له بروح من المحاباة ، قد أثارت الاستقياء الغيور من جانب ملك مصر وحكومتها . وبرغم أن نورى حاول مراراً وتكراراً أن يستميل إلى جانبه النحاس باشا وغيره من الساسة المصريين البارزين فيما بين عامى ١٩٤٢ و١٩٤٤ ،وروج بشدة لمقترحاته

فى الدوائر السياسية البريطانية والأمريكية وفى الكومنولث ، فإن الجميع تجاهلوه عن روية . فرفضت مصر أن تتنازل عن حقها فى تزعم العرب ، وأرجأت لندن ووشنطن النظر فى مشكلة فلسطين خلال المدة التى تستمر فيها الحرب ضد ألمانيا . وفضلا عن هذا ، كانت الحكومة البريطانية مشغولة فى ذلك الوقت بتدبير مشروع مختلف كلية مع الحكومة المصرية من أجل قيام وحدة عربية — هى الجامعة العربية من مصر والعراق وسورية ولبنان وشرق الأردن واليمن والعربية السعودية ، وهى الجامعة التى سوف تكون حلفاً سياسياً وعسكرياً مقره بالقاهرة وتكون فيه مصر هى النفوذ المنشىء والمتسلط . وعلى ذلك اضطر نورى فى مارس من عام ١٩٤٥ إلى أن يقبل كأفضل حل ثان ، توقيع جميع هذه الدول العربية السبع بما فيها العراق ، على ميثاق الجامعة العربية ، وبعد ذلك بثمانية أشهر استقال من رئاسته الثامنة للوزارة .

لكن قبوله الجامعة العربية بديلا عن الهلال الخصيب لم يكن يعنى أنه قبل الزعامة المصرية . وبرغم أن نورى ظل بعيداً عن مراكز المسئولية خلال معظم السنوات الأربع التالية ، فإنه بدأ الآن يقود نضالا من أجل القوة ضد مصر ، سوف يستمر إلى ما بعد موته فى انقلاب عام ١٩٥٨ وهو النضال الذى سار به اللواء قاسم خطوات أبعد بالهجمات المجنونة التى شنها على جمال عبد الناصر . هذا الصراع بالطبع كانت له جذوره فى التاريخ العربى فالتنافس والغيرة بين بغداد والقاهرة يمتد مباشرة من وقت انحلال الخلافة العباسية عندما جعل صلاح الدين من مصر قاعدته لتحرير فلسطين من الإحتلال الصليبى ؛ وبعد ذلك بقرن من الزمان ، ومرة أخرى من مصر ، صد بيبرس الزحف المغولى . هناك تشابه إلى حد ما بين هذا التنافس العراقى — المصرى وبين تلك الأنغام من الغيرة وهى الأنغام التى ميزت تطور العلاقات الفرنسية — البريطانية ، والفرنسية — الأمريكية الحديث . كان العراق هو

البلد العربي الذى تعرض لأفدح الآلام من جراء الغزوات المغولية والفتح العثمانى والتى بفضلها تحطم التفوق الثقافى والعقلى الذى تميزت به بغداد فى العصور الوسطى . ومن جهة أخرى لم يحتل المغول مصر أبداً ، كما كان ما قاسته على أيدى الأتراك خفيفاً نسبياً ، ونستطيع أن تزعم[1] أنها أنقذت الشرق الأوسط من المغول ، وأنها كانت أول دولة عربية تحدت التسلط العثمانى . إلا أن نفس هذا الزعم إنما يعمل على إثارة إحساس العراق بالنقص. وبالمثل فإن فرنسا التى سالت دماؤها فى الحرب العالمية الأولى واحتلت أراضيها فى الحرب العالمية الثانية ، كان رد الفعل من جانبها عنيفاً ضد أى إيحاء بأن بريطانيا والولايات المتحدة اللتين لم تتعرض أى منهما لأن يجتاحها الألمان ، قد أنقذاها من الهزيمة فى كلتا المنافستين وبذلك فلهما الحق فى التفوق والسيادة .

لم تكن حملة نورى المعادية لمصر كافية لتحقيق الاستقرار فى بلده ، وبدأ العراق يترنح بشكل سيء بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . كانت الحكومات تجيء وتروح ؛ وكلما زاد اليهود من الضغط فى فلسطين نما الشعور المعادى للبريطانيين بسرعة . بدأ الهياج من أجل إعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٠ التى أكد أعلى القوميين صوتاً أنها أعطت بريطانيا رخصة واسعة للاعتداء على السيادة العراقية . وفى يناير ١٩٤٨ توجه صالح جبر رئيس الوزراء حينذاك ، إلى لندن وعقد معاهدة بورتسموث التى كان المراد منها أن تجعل التحالف الإنجليزى — العراقى أقرب إلى أن يكون مشاركة بين متساوين . ولكن بمجرد الإعلان عن التوقيع بدأ أسبوع من الشغب العنيف أدى إلى خسائر فى الأرواح بلغت المائتين تقريبا . إستقال صالح جبر ، وجرى التخلى عن المعاهدة . ولكن الوصى لم يستدع نورى ليشكل حكومته

---

(١) « تزعم » هذا يعنى « نوكر » — المترجم .

العاشرة إلا بعد ذلك بعام عندما سبب انتصار إسرائيل على العرب ثورة جديدة من الشعور المعادى لبريطانيا .

بالنسبة إلى فلسطين لم يكن أمامه ما يعمله سوى أن يتقبل هزيمة القضية العربية ، بينما كان يشترك فى الكورس العربى العام الذى يتغنى مطالباً بالعودة إلى الحدود التى قررها التقسيم الذى أقرته الأمم المتحدة . وعلى ذلك قرر نورى أن يركز على التنمية الاقتصادية الداخلية . فأنشىء مجلس الإعمار برئاسته ويضم مستشارين بريطانيين وأمريكيين ووزراء عراقيين ، لإنجاز مشروعات واسعة النطاق مثل الرى والتحكم فى الفيضان فى واديى دجلة والفرات ، تمول من إيرادات النفط . وإذ عكف مجلس الإعمار على مهمته ، إتخذ العراق مظهر مدينة أمريكية شهدت الرواج حوالى بداية القرن . فقامت السدود والكبارى فى تتابع سريع ، وحلت مشروعات الإسكان محل الصرائف ذات السقوف من القش ومجموعات الأكواخ المبنية بالطين ، وبقيت طرق طوالى جديدة تغطى طرق قوافل الإبل فى الأيام الخالية . وبفضل سد سامراء على نهر دجلة ، لم تعد ضواحى بأكملها تابعة لبغداد ، تكتسحها الفيضانات السنوية ، واستخدمت المياه التى حولت بهذا السد وبسد مشابه له على الفرات ، لإدخال الزراعة فى عشرات الألوف من الأفدنة كانت عاطلة .

وفى الشئون الخارجية عاد نورى إلى مشروع الهلال الخصيب ، ولكن فى صورة طرأ عليها تغيير بالغ . فمع وقوع فلسطين تحت الإحتلال اليهودى إلى حد كبير ، ركز الآن على اتحاد سورية مع العراق . وهنا لقى نجاحا قليلا بشكل ظاهر ، وخاصة بعد ثورة مصر عام ١٩٥٢ ، عندما بدأت دعوة جمال عبد الناصر المغناطيسية تحدث تأثيرها المضاد القوى على الرأى السورى . وبمرور الوقت آثرت سورية أن تنضم إلى مصر الناصرية فى الجمهورية العربية المتحدة ، تاركة نورى من جديد يبحث عن أفضل حل ثان ، وهو فى هذه

المرة اتحاد فيدرالى بين المملكتين الهاشميتين فى العراق والأردن .

لكن نجحت دبلوماسية نورى فى مجال هام واحد . كانت علاقة العراق الدفاعية مع بريطانيا قد فقدت آخر آثار النظام الاستعمارى وأصبحت مشاركة بين متساويين فى ظل حلف عسكرى جديد يضم جيران الروسيا فى الشرق الأوسط . كانت بريطانيا قد قامت فى عام ١٩٥١ بمحاولة لإنشاء نظام دفاعى للشرق الأوسط[1] يضم العالم العربى ، ولكن المحاولة لقيت استقبالا فى مصر لا يفضل ما استقبلت به معاهدة بورتسموث فى بغداد . وعلى ذلك تطلعت لندن وشنطن إلى عراق نورى وإلى تركيا وهى آخر من ضم إلى حلف الأطلنطى ، كى يشتركا فى توفير درع عسكرى للأقاليم المكشوفة فى شمال الشرق الأوسط المتاخمة للاتحاد السوفيتى .

وفى فبراير ١٩٥٥ أرضاها نورى بحلف عسكرى مع تركيا عرف باسم ميثاق بغداد . وبعد ستة أسابيع انضمت بريطانيا إلى الميثاق وسلمت قواعدها الجوية لتكون تحت السيطرة العراقية بينما احتفظت بالحق فى استخدامها للتدريب المشترك بدعوة من العراقيين . وتراجعت الحكومة الأمريكية فى اللحظة الأخيرة عن الانضمام إلى الميثاق خشية ردود الفعل الصهيونية إزاء حلف عربى — أمريكى ، ولكن سرعان ما انضمت باكستان وإيران لإكمال خط الدفاع على طول الحد الجنوبى للروسيا .

أثار التوقيع على ميثاق بغداد وما صحبه من انضمام بريطانيا ، عاصفة احتجاج من القاهرة ، ليس فقط لأن العراق خرق صفوف الجامعة العربية وانضم إلى بريطانيا وتركيا ، ولكن أيضاً لأن نورى وبريطانيا جعلا من الواضح أنهما يأملان فى انضمام دول عربية أخرى مثل سورية والأردن . إن التهديد

(١) ناقشنا هذا الأمر فى حينه وحللناه ونددنا به وكشفنا عن أهدافه الحقيقية فى كتيب لنا بعنوان « مشروعات الدفاع عن الشرق الأوسط » — المترجم

بأن فكرة الهلال الخصيب قد تتحقق بأسلوب الباب الخلفى ، كان كثيراً جداً على مصر . إذ لو تحققت لاهتز بصورة سيئة نفوذ مصر المتفوق فى الجامعة العربية ، إن لم يضع كلية . فأطلق راديو القاهرة الآن نيرانه كاملة ،فهاجم نورى وعبد الإله باعتبارهما أعداء للوحدة العربية وعملاء للامبريالية الغربية،وعلى ذلك فهما أصدقاء لإسرائيل . ورد نورى ملقياً الإهانة مقابل الإهانة ، على أمواج الأثير . ثم فى لحظة حرجة فى مارس ١٩٥٦ ، تصرفت بريطانيا بما فيه صالح مصر بأن أرسلت رئيس هيئة أركان الحرب العامة الامبراطورية الفيلد مارشال سير جيرالد تمبلر ، إلى عمان ليغرى الأردن بعروض من الأسلحة الحديثة والطائرات على الإنضمام إلى ميثاق بغداد . غلا الدم فى عروق الرأى الحيادى والموالى لمصر فى الأردن وقد أثارته مزاعم راديو القاهرة بشأن وجود مؤامرة إمبريالية للضغط على الأردن حتى ينضم إلى حلف غربى . ولما اجتاحت أعمال الشغب البلاد استقال هزاع المجالى رئيس وزراء الأردن الموالى لبريطانيا وعاد تمبلر صفر اليدين .

كسبت مصر وسياسة الحياد العربية المعركة ، وتهددت سياسة نورى فى التعاون مع الغرب تهديداً واضحاً . لم يبطىء فى ملاحظة هذا ، ذلك العدد المتزايد من الساسة وضباط الجيش الشبان المستائين وينتمون إلى الطبقة الوسطى، ممن وجدوا الحياة فى العراق فى عهد نورى ، خانقة وتحبط أطماعهم. كان التطور السياسى قد توقف وقتاً أطول مما يجب ، بينما سار النمو الاقتصادى قدماً . أصبح البرلمان الوطنى العراقى جمعية توافق بوجه عام على كل ما يعرض عليها كلما مد نورى قائمته الطويلة ، التى تضمنت المرات التى تولى فيها رآسة الوزارة . كان الآن فى وسط المرة الثالثة عشرة . وكان ستون فى المائة من الأعضاء يعينون من صفوف رؤساء الوزارات والوزراء السابقين ، وكان الأربعون فى المائة الباقون هم من الذين يقال عنهم « الموافقون » . ومنذ أن

تحول صالح جبر إلى الاشتراكية بعد هزيمته بصدد معاهدة بورتسموث، كان نورى قد حل جميع الأحزاب السياسية وركز جميع السلطة والرعاية فى يديه . وإذ راحت القوى التى تساند طراز ناصر من النظام الجمهورى وسياسة الحياد تزداد قوة فى كل بلد عربى آخر ، كاد العراق يصبح معزولا بشكل خطير عن شقيقاته الدول العربية ، وازداد ما ساور البعض من أوثق شركاء نورى مثل وزير خارجيته فاضل الجمالى ، من القلق بشأن مستقبل نظام الحكم.

وحتى برغم هذا ، جاءت لحظة فى يوليه من عام ١٩٥٦ كان يمكن العراق نورى أن يتغلب على عزلته فى الجامعة العربية لو لا أن بريطانيا ارتكبت أفدح أخطائها فى الشرق الأوسط . وكان هذا عندما أمم ناصر قناة السويس دون إخطار شركائه فى الجامعة العربية [١] هاج السعوديون وربما أحسوا ببعض خوف من أن يؤدى هذا التحدى المفاجىء للغرب إلى قتال يغلق طريق القناة ومن ثم يشيع الاضطراب فى الأسواق الغربية التى يبعثون إليها بترولهم. واحتجت دول عربية أخرى بسبب عدم استشارتها قبل اتخاذ هذا العمل المتسرع [٢] . وتصادف أن كان نورى والملك الشاب فيصل فى لندن عندما أعلن ناصر قراره فبادر على الفور إلى الإشارة على السير أنتونى إيدن باتخاذ إجراءات حازمة ولكن دون أن يشترك إما مع فرنسا أو مع إسرائيل فى أى عمل مضاد .

بدا للحظة كما لو أن هذه النصيحة كانت محل الاعتبار . فبدأت بريطانيا جبهة ضغط دبلوماسى مع الدول البحرية الرئيسية الأخرى بالعالم من أجل إقناع

---

(١) لم يكن من الممكن ولا من العملى فى ظل ذلك الجو الملىء بدسائس نورى وأصدقاء بريطانيا، أن تكشف مصر عن خطتها بالنسبة إلى القناة، إذ كانت ستتسرب حتما — المترجم

(٢) إن وصف هذا العمل بالتسرع ، فيه مجافاة للمنطق والحقيقة ، ولكن درج الاستعماريون على إطلاق هذه الصفة وأمثالها على كل تصرف يتعرض لمصالحهم — المترجم .

مصر بقبول عنصر من الرقابة الدولية يكمل شركة قناة السويس المؤممة . وأشير على نورى بأن يبعث بتعزيزات من القوات إلى الأردن فى حالة ما إذا اختارت إسرائيل الاستيلاء على الأراضى الأردنية الواقعة على الضفة الغربية من نهر الأردن بينما تكون جميع الأعين والاهتمامات موكزة على السويس . عندئذ تحولت بريطانيا فجأة من سياسة الضغط الدبلوماسى متعدد الأطراف إلى حشد عسكرى ثنائى مع فرنسا ، مصحوب بأصوات خافتة تنذر بالشر ، وتشير إلى تعبئة إسرائيلية . أبلغ نورى الآن بصورة حازمة بأن يخرج القوات العراقية من الأردن خشية إستفزاز إسرائيل فتهجم على الضفة الغربية ! وعندما سالك الإسرائيليون الطريق الآخر وهجموا عبر سيناء إلى السويس ، أصدرت بريطانيا إنذاراً نهائياً إلى كلا الجانبين بالابتعاد عن القناة ، وكان هذا يعنى عند تقديمه أن يتقهقر المصريون ويتخلوا عن كل سيناء للغزاة وأن يسمحوا للاسرائيليين بأن يتقدموا أكثر من مائة ميل فى داخل الأرض المصرية .

يكاد ألا يثير الدهشة أن هذه الدعوة إلى إسرائيل المستولى على عشرين ألف كيلو متر مربع من مصر ؛ تثير مثل هذه الفورات العنيفة من أعمال الشغب فى جميع أنحاء العالم العربى وخاصة فى العراق حيث لم يضطر غلاة الوطنيين والمستاءون إلى أن يرفعوا إصبعاً كى يدفعوا بالجماهير الهائلة إلى التظاهر ضد إسرائيل والبريطانيين والفرنسيين و « أداتهم وخادمهم » نورى السعيد . فى هذه المرة وقفت الحكومة العراقية موقفاً حازماً ضد المتظاهرين ، ولكن اضطر نورى إلى إجراء تنازلات للمشاعر العربية التى تعرضت للاساءة، فقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا ، وانضم إلى الكورس العام الذى يتغنى بالتنديد بإسرائيل . وأشير على بريطانيا أن تبقى بعيداً عن اجتماعات ميثاق بغداد إلى أن تهدأ العاصفة .

بهذه التنازلات للشعور الشعبى نجح نورى فى اجتياز العاصفة . ولكن

الهدوء الذى أعقب ذلك كان خداعاً. وأول المخدوعين كان نورى نفسه على ما أذكر من لقاء لى معه فى بغداد فى أبريل ١٩٤٧، فبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث بصدد أخطاء الماضى سألته عما إذا كانت كارثة السويس لم تقوض مركزه بصورة خطيرة فى العراق. ولكنه رفض أن يصدق أنه لن يتمكن من الاستمرار كما كان الحال من قبل تماماً. بل بدا أن قلقه بشأن أمنه الشخصى كان أقل منه فى أى وقت مضى. وبرغم أنه كثيراً ما تلقى التحـــذيرات بشأن أولئك النفر من قادة الجيش ممن كانوا يتآمرون لإسقاطه، إلا أنه استمر يستخدمهم فى مواقع النفوذ والثقة. وفى نهاية الأسبوع القاتلة قبل ثورة اللواء عبد الكريم قاسم فى عام ١٩٥٨، تجاهل الاحتياط الذى كان يتخذ منذ أمد طويل لضمان الأمن، وهو عدم السماح أبداً بوجود جماعة عسكرية ومسلحة فى بغداد دون أن تكون هناك قوة مضادة لمواجهتهم إذا حاولوا القيام بانقلاب.
كان قاسم على رأس اللواء الذى كان فى طريقه إلى تعزيز قوة الملك حسين حتى لا يتكرر فى الأردن نوع الثورة التى كانت قد نشبت حديثاً فى لبنان ضد الرئيس شمعون الموالى للغرب. وبينما كان قاسم يستريح مع جنوده فى ضواحى بغداد فى ١٣ يولية فسرعان ما أدرك أن اللواء الذى تحت قيادته هو القوة الوحيدة فى المدينة فى تلك الليلة المعنية. لقد ظل سنوات ينتظر هذه اللحظة ويرسم الخطط من أجلها، وبعد استطلاع سريع لمراكز الأعصاب الحيوية فى بغداد، وبعد بعض مشاورات أجريت على عجل مع سياسيين معينين كانوا معروفين بمعارضتهم لنظام الحكم، وجه قاسم ضربته، فاستولى على محطة الإذاعة وأعلن أن الثورة انتهت وأن الملك وعمه عبد الإله ونورى قد ماتوا. ثم أمر قواته بالتوجه إلى القصر لتنفيذ هذا الذى أعلنه. مزق السفاحون من رجال قاسم الأسرة الملكية بأسرها إرباً برصاص مدافعهم، وأردى نورى قتيلا وهو يحاول الهرب. وفى هذه الأثناء أحرقت الجماهير السفارة البريطانية

ظناً منهم أنه لجأ إليها على نحو ما فعل فى انقلاب رشيد عالى .

لاتعرف السياسة الامتنان ، كما لا تعرف الثورة الرأفة . ولكن أياً كان ما سوف يحدث فى المستقبل ، فلا سبيل إلى الشك فى أن بقاء العراق كدولة عصرية بعد أربعة قرون من الحكم العثمانى سوف يظل إلى الأبد محملا بدين لا يمكن قياسه ، إلى ما اتصف به نورى السعيد من نشاط لا يكل ومهارة فى إدارة شئون الدولة . إن تعاونه مع بريطانيا فى بناء قوة العراق الاقتصادية والعسكرية كان وثيقاً إلى أبعاد تجعله لا يناسب التفكير القومى المصرى ، ولكنه كان دائماً تقريباً يحصل من بريطانيا على ما يظن أن بلاده تحتاج إليه وكما قال عنه سفير بريطانى « كان أعظم شحاذ عرفته » .

ومما يدل على التناقض، أن هذه الخلاصة لاتفسر سر نجاح نورى فحسب، ولكنها تفسر أيضاً سبب سقوطه النهائى . فبالنسبة إلى الجيل الجديد الأبىّ النفس من القوميين العرب ، كان تسول الأفضال والنعم من الغرب ، أمراً عفا عليه الزمان ، ومحطاً للكرامة ، بل ويحمل معنى الخيانة ، لأنه يبقى العرب مقيدين فى أغلال القوى الغربية ، وعلى ذلك فبرغم تفانيه فى العمل من أجل رفاهية بلده وأمنها ، كانت نهايته محتومة بصورة واضحة . ما كان فى إمكان أى تدابير أفضل للأمن ولا كلمات أكثر ليناً ، أن تحول الغضب الشديد الذى كان يتجمع ضد كل شىء كان يمثله ، أو يوقف إلى أجل غير مسمى الثورة التى كان لابد أن تأتى ذلك أن نورى وإن لم يتجاوز السبعين من العمر عندما مات ، كان رجلا يعيش بعد زمانه . كان رمز الثورة العربية الأولى ضد الأتراك — وهى ثورة أمراء وباشوات وكبار شيوخ عالم قبلى من المحاربين البدو . ولكن العالم العربى كان قد تغير منـــذ تلك الأيام . فرجال المدن والساسة انتزعوا قيادة القومية العربية النضالية من أيدى رجال القبائل البسطاء فى الأمس ؛ وبسبب ما تعرضت له فلسطين وسورية من خيانة على أيدى من

سبق أن كانوا حلفاء الغرب حلت كراهيات محل المشاعر القديمة من الرفقة مع الغرب . وكانت ثورة عربية ثانية قد تفجرت على العالم ، يقودها رجال من أمثال جمال عبد الناصر ، رجال أقسموا أن يخلصوا العرب مما ينطوى عليه الاحتلال الغربى والوصاية الغربية من تهديدات وإهانات للكرامة ، وأن يسقطوا من اعتبروهم خونة مثل نورى الذى عاش وعمل مع الذين خانوا الحرية العربية وحطموا الوحدة العربية .

(٣٩)

فرنسا والعرب

ذات مرة حدثني الرئيس التونسي بورقيبة فقال إن الفرق بين الإمبريالية البريطانية والإمبريالية الفرنسية، أن الفرنسيين كانوا كالفلاحين الذين يتشبثون بكل شيء يملكونه. وقال «على خلافكم أنتم الإنجليز، ممن هم تجار يسعون وراء الأسواق بدلا من الأرض. بالنسبة إلى الفرنسيين يجب أن تكون كل ثكنة، وكل مكتب بريد، وكل حانوت، وكل مزرعة ملكية خاصة لهم يرفرف عليها العلم المثلث الألوان». وبالتأكيد لا يمكن أن نجد مثالا عن هذا الطراز من النظام الاستعماري الفرنسي، هو خير من علاقات فرنسا مع العالم العربي قبل وبعد الحربين العالميتين.

على خلاف موقف فرنسا الغامض أصلا في الجزائر، كانت نواياها في المشرق بعد الحرب العالمية الأولى واضحة. كانت تعرف ماتريد واعتقدت أنه أقل ماتستحقه مقابل ماتحملته من تضحيات. كان لفرنسا منذ القرن السادس عشر مصلحة تجارية طيبة بسوريا ولبنان، واعتبرت نفسها حامية الجماعات المسيحية المارونية فيهما.

وإذا كان العرب ساورتهم الشبهات في أن فرنسا تهدف إلى الدخول في بلادهم بعد طرد الأتراك منها، فقد كان الفرنسيون يرتابون بالمثل في أن الحركة العربية التي قام بها الشريف حسين كانت تريد منع انتشار النفوذ الفرنسي. وعلاوة على هذا كانوا يخشون أنه إذا أقيمت حكومة عربية مستقلة في سوريا فسوف يكون لها ردود فعل في ممتلكاتهم في شمال أفريقية. ولهذه الأسباب بذل ممثلو فرنسا في الشرق الأوسط كل جهد خلال الحرب العالمية

الأولى كي يحصروا الثورة العربية في مناطق الظهير الصحراوي في بلاد العرب وإبعادها عن المشرق . ولما أخفقت هذه الدسائس في تحقيق غرضها عند الجنرال اللنبي وأركان حربه ، استنتج الفرنسيون أن البريطانيين الذين خدعوهم فحرموهم بتصريح بلفور من دعاويهم في فلسطين ، كانوا على اتفاق مع العرب لخداعهم وإبعادهم عن سوريا أيضاً .

وهكذا فإن وجود فيصل في دمشق تسانده القوات البريطانية على مايظهر ، كان شيئاً لاتحتمله حكومة فرنسية .

فبعد أن حملت فرنسا البريطانيين أولا على الانسحاب ، ثم حصلت على السلطة القانونية على سوريا ولبنان بمقتضى الانتدابات التي أقرها مؤتمر سان ريمو ، فسرعان ما أمرت الأمير بأن يحمل متاعه ويرحل ، واحتلت داخل سوريا . وبعد ذلك أصبحت السياسة الفرنسية مثالا نموذجياً من «فرق تسد». عومل لبنان وسوريا كبلدين كل منهما منفصل عن الآخر ، وقُطعت سوريا إلى أربع مناطق متمايزة لكل واحدة منها إدارتها الفرنسية في ظل الإشراف العام من جانب المندوب السامي الفرنسي في دمشق .

وكانت المناطق الأربع تتكون من محافظة اللاذقية على الساحل بين طرابلس والأسكندرونة ، ودولة جبل الدروز فيما بين دمشق وشرق الأردن ، وسنجق الأسكندرونة ، ودولة سوريا بعاصمتها دمشق ، وتشمل بقية الظهير السوري . أما حدود لبنان التي كانت تشتمل في ظل حكم الأتراك على دولة فينيقية القديمة ـ بيروت وصور وصيدا والجبال القائمة وراءها مباشرة ـ فقد مد نطاقها الآن على حساب سوريا لتشمل طرابلس ووادي البقاع الغني بين سلاسل جبال لبنان والذي تقع فيه مدينة بعلبك. وهكذا باقتطاع أجزاء من سوريا ومضاعفة مساحة وسكان لبنان بنقل أخصب منطقة والميناء الرئيسي في سوريا حاول الفرنسيون إثراء ذلك الجزء من ممتلكاتهم الجديدة

الذى تسود فيه أغلبية مسيحية ، وذلك على حساب المناطق التى تضم أغلبية مسلمة ، وهى المناطق التى كانت فيها الحركة القوميـــة العربية أقوى ما تكون الآن .

وعلاوة على هذا ، نخلال السنوات الخمس الأولى من انتدابهم حكموا كلا البلدين فى ظل نظام من القانون العرفى لايختلف مطلقاً فى شدته وأسلوبه فى القمع عن الاحتلال العثمانى . خنقت القومية أياً كانت صورتها ؛ وكممت الصحافة ولم يسمح بوجود غير أجهزة الرأى التى كانت على استعداد لأن تتذلل لسادتها الفرنسيين . وبالمثل ، فى الإدارة والهيئة القشريعية لم يكن يوظف أو ينتخب إلا الخانعون الأذلاء

وفى المسائل الدينية وعلى غرار أسلوب العثمانيين ولـكن فى الاتجاه العـكسى ، كان المندوب السامى الفرنسى وحكام المحافظات التابعون له يحرضون المسيحيين ضد المسلمين بدلا من تشجيع الفريقين على التعايش فى سلام . وفى التعليم أصرت سلطات الانتداب على تدريس اللغة الفرنسية فى جميع المدارس الحـكومية على قدم المساواة مع العربية . وبرغم أن هذا عاد بمزايا ثقافية لاشك فيها ، فإن الطريقة التى فرض بها جعلت العرب يعتبرونه حرماناً من أحد المـكاسب الرئيسية التى حققوها من وراء ثورتهم — وهو أولوية وتفوق لغتهم . وبينما تدريس الثقافة العربية لم يكن منهياً عنه ، إلا أنه عانى نتيجة تعمد عدم توفير التعليم المدرسين والمبانى الجديدة للمدارس، بينما كانت المدارس التى يتحدث أبناؤها الفرنسية تتلقى منحاً مالية سخية . وحتى الـكتب المدرسية وضعت بأسلوب يقلل من شأن إنجازات العرب الماضية وينـكر الصلات التى توحد بين سوريا وجيرانها العرب .

أما عن الحـكام والموظفين الفرنسيين فبينما كان الجنرال ويجاند وغيره من الأسماء المشهورة فى تاريخ فرنسا العسكرى ، فربما كانوا يختارون

عن عمد بسبب افتقارهم إلى معرفة المشرق وأهله . أما أولئك الموظفون الذين كانت لديهم أية خلفية عن الإدارة الاستعمارية فإنهم اكتسبوا خبرتهم من حكمهم أشد ممتلكات فرنسا فى أفريقية تأخراً وأقلها ثقافة . والذين لم يكونوا ممن يشترون ويباعون فكانوا مستبدين ومتعجرفين ونجحوا فى العادة فى عمل كل شيء بالطريقة التى يعظم فيها الاحتمال بأن تهين الكبرياء العربى .

نجحت الأغلبية المسيحية فى لبنان لمدة وجيزة جداً ،فى المحافظة على حالة من التسامح العدائى بين الحاكمين والمحكومين ، ولكن ما عامل به الفرنسيون سوريا حيث الأغلبية الكبيرة من المسلمين ، من عجرفة وظلم لم يكن يولد سوى نتيجة واحدة . ففى يوليه ١٩٢٥ جاء الانفجار فى محافظة جبل الدروز . ففى ثورة على طغيان الحاكم المحلى نهض الزعماء الدروز وقضوا على طابورين فرنسيين قويين أرسلا لإخماد ثورتهم . ثم زحفوا على دمشق ، وبرغم أنهم لم يتمكنوا من أخذ المدينة ، إلا أنهم سيطروا على معظم المناطق المحيطة بها . وبحلول سبتمبر كان الرؤساء الدروز قد انحاز إليهم الزعماء الوطنيون فى الأجزاء الأخرى من سوريا ، وإذ انتشرت الثورة أجبر الفرنسيون على أن يدركوا أن محاولتهم أن يحكموا سوريا بالأحكام العرفية قد أدت إلى ثورة على نطاق قومى . كان رد الفعل من جانبهم وحشياً . فضربت القرى بالقنابل بدون إنذار ، وُسلح المرتزقة المسيحيون من الأرمن والشراكسة ، وأطلق لهم العنان لينقضوا على القرويين الأبرياء ، يحرقون ويقتلون وينهبون كما يشاءون . وقامت الطائرات بقصف الأحياء الإسلامية فى دمشق كما ضربت بالمدافع فى مناسبتين وبلغت الخسائر فى الأرواح أكثر من الألف . وبعد أول عملية من الضرب استدعى المندوب السامى الجنرال سراى ووبخته حكومته . ولكن إذ امتدت الثورة حتى عام ١٩٢٦، كرر خلفه الفظائع دون أى احتجاج ظاهر من باريس .

وفى النهاية كانت اليد العليا لثقل القوة العسكرية الفرنسية فحسب ، وانتهت ثورة الدروز . ولكن كانت قد حققت شيئا واحداً على الأقل ، هو أنها أرغمت فرنسا على تعديل سياستها. أوقفت الأحكام العرفية رسمياً، وبتعيين هنرى بونسو فى أغسطس ١٩٢٦ بوصفه أول مندوب سام فرنسى له خبرة إدارية مدنية ، بدأ فصل جديد وأبعث على الأمل . وخلال السنوات السبع التالية التى حكم فيها بونسو فى دمشق، دارت مفاوضات لإيجاد علاقة جديدة بين فرنسا وسوريا . وبرغم أنه شخصياً حاول جاهداً الوصول إلى تفاهم ، كانت باريس تصر دائماً على الاحتفاظ بحق الاعتراض على أية سلطة سورية منتخبة. وفى يونيه ١٩٣٢ كان قد أقيم شكل من الحكم الدستورى . سمح لممثلين منتخبين بأن يتولوا المناصب ، وبدا للحظة وجيزة أن اتفاقاً يمكن أن يكون فى حيز الإمكان . وأعد بونسو مشروع اتفاقية تضمنت على حد تأكيده ، المظاهر الرئيسية التى اشتملت عليها المعاهدة الإنجليزية - العراقية لعام ١٩٣٠. ولكن عندما دقق السوريون النظر فيها اكتشفوا أنه بينما المشروع كان من بعض النواحى متماثلا مع الاتفاقية السابقة لم يكن ثمة تغيير فى الموقف الفرنسى من المشكلات الكبرى المتعلقة بالسيادة والاستقلال الخارجى . مرة أخرى تحطمت المفاوضات ؛ واستقال الزعماء الوطنيون بالحكومة السورية ، ومن بينهم شكرى القوتلى بطل جمعية « الفتاة » السرية . وبعد أشهر قلائل اعتزل بونسو وعاد إلى فرنسا .

أثبت خلفه أنه الوسيط الكيميائى لعمل الاتفاق النهائى . كان داميان دى مارتل دبلوماسياً قديراً وسفيراً سابقاً ، ومع ذلك لم يكن من المؤمنين بأساليب قفاز الحرير . وعندما تولى منصبه استدعى رئيس الوزراء السورى وأمره بالتوقيع على مشروع الإتفاقية الذى أعده بونسو . لم يكن فى وسع رئيس الوزراء وكان قد عينه المندوب السامى الفرنسى ، أن يجلب على نفسه

غضب مولاه الجديد وفعل كما طلب منه . ولكن البرلمان السورى كان أوفر شجاعة فرفض التصديق على توقيع رئيس الوزراء . وعلى ذلك أوقف دى مارتل البرلمان ، وعادت سورية مرة أخرى إلى الحكم الفرنسى المباشر . ساد هدوء نسبى لمدة عامين ، بينما عكف المندوب السامى الفرنسى على عدد من المشروعات لتطوير البلاد الاقتصادى . ولكن فى يناير ١٩٣٦ وبعد موجة جديدة من الاعتقالات شملت الوطنيين العرب ، بدأ إضراب بصورة تلقائية فى جميع أرجاء سورية . أغلقت جميع المحال وتوقف كل النشاط والحياة الاقتصادية طيلة أسابيع عدة . ورد المندوب السامى بمزيد من الاعتقالات لمن يشتبه فى أنهم من مدبرى الإضراب ، ولكن دون جدوى . وفى ٢٥ فبراير أصدر المندوب السامى عفواً عاماً وأعلن إطلاق سراح المسجونين السياسيين وأنه دعا الزعماء الوطنيين لمناقشة وسائل التفاوض من أجل عقد معاهدة جديدة .

وبعد أربعة أيام أوقف الإضراب وسافر وفد سورى إلى باريس ليبدأ جولة جديدة من المفاوضات . كان هدفهم الوصول مع فرنسا إلى معاهدة على نسق المعاهدة الإنجليزية — العراقية ، تنص على استقلال ووحدة بلدهم المقسم بطريقة مفتعلة . ولكن سرعان ما أصبح واضحاً أن حكومة ألبير سارو الفرنسية لا ترغب فى الخروج من سوريا وأن ما أعلنه المندوب السامى كان حيلة فحسب لكسر حملة المقاومة السلبية التى شلت سوريا طيلة أسابيع ستة . عندئذ تدخلت ضربة من الحظ الحسن . سقطت وزارة سارو وخلفتها الجبهة الشعبية التى يتزعمها الإشتراكى ليون بلوم . ولما حسب بلوم ما تكلفته المغامرة السورية من خسائر رهيبة فى الأرواح والأموال ، وبلغت عدة آلاف من الفرنسيين قتلوا ، وأكثر من ٢٨٠ مليون دولار أنفقت على خدمات الانتداب وحده العسكرية ، قرر أن ينهى خسائر فرنسا . وفى سبتمبر ١٩٣٦

حصل الوطنيون السوريون على ما أرادوه وهو معاهدة تحالف فرنسية سورية واستقلال ، وبعد ذلك بثلاثة أشهر عقدت فى بيروت معاهدة شبيهة بها . كان المقرر أن المعاهدتين وهما مماثلتان من حيث الجوهر مع الترتيبات التى وضعتها بريطانيا مع العراق ، تدخلان فى دور التنفيذ فى ظرف ثلاث سنوات وأن تحلا محل الانتدابات ، بمجرد أن تصبح سوريا ولبنان أعضاء فى عصبة الأمم ، بتأييد من فرنسا . لقيت وحدة سوريا الاعتراف بها ؛ وكانت المواد العسكرية مبنية أيضاً على المعاهدة الإنجليزية — العراقية . كان الاختلاف الجوهرى الوحيد أن الفرنسيين احتفظوا فى سورية بالحق فى إبقاء حاميتين عسكريتين فى اللاذقية وجبل الدروز ، فضلا عن قاعدتين جويتين ؛ وفى لبنان سمح لهم بالاحتفاظ بأى عدد من القوات حيثما يشاءون .

وقبل نهاية عام ١٩٣٦ كان البرلمان السورى والبرلمان اللبنانى قد صدقا على المعاهدات برغم وقوع اضطرابات قام بها المسلمون فى طرابلس وبيروت عندما أصبح معروفاً أنه لاعودة إلى الحدود التى كان عليها لبنان قبل عام ١٩٢٠ ، وأن عدداً كبيراً من المسلمين السوريين سوف يصبحون بناء على ذلك أقلية فى لبنان الذى أغلبيته من المسيحيين. ولكن فى هذه الأثناء نشأت مشكلة جديدة سوف تعطى لفرنسا ذريعة لعدم تنفيذ الجانب المتعلق بها من الصفقة. فقد ادعت تركيا أن أغلبية سكان الأسكندرونة من أصل تركى وعلى ذلك يجب التنازل لها عن السنجق . وبعد أن نوقشت المسألة فى عصبة الأمم أصبحت الأسكندرونة ذات استقلال داخلى . أعقب ذلك أعمال شغب بين العرب والأتراك إشتركت فرنسا وتركيا فى إخمادها . وفى هذه الأثناء استخدم الفرنسيون مسألة الأسكندرونة كعذر لتأجيل التصديق على المعاهدتين. وبرغم أن المشكلة حلت فى عام ١٩٣٩ بالتنازل عن السنجق لتركيا ، فإن مقدم إدوارد دلادييه إلى السلطة فى فرنسا عرقل أية آمال فى أن يحترم

الفرنسيون التزاماتهم . وفى يولية ١٩٣٩ استقال الرئيس السورى هاشم الأتاسى إحتجاجاً ،واستغلت السلطات الفرنسية ماترتب على هذا من اضطراب لوقف الدستور واستئناف الحكم الاستعمارى المباشر .

وهكذا بعد سبعة عشر عاماً من حصول فرنسا على انتداباتها عادت سوريا ولبنان إلى حيث بدأتا ، ولم تدخل المعاهدة السورية ولا اللبنانية فى حيز التنفيذ. وكانت بريطانيا مشغولة أيضاً بمشاكلها هى فى فلسطين، وخائفة أيضاً من أن تزعج حليفها الفرنسى فى عشية حرب أخرى مع ألمانيا ، بحيث لم يكن فى إمكانها أن تستخدم نفوذها فى باريس أو بيروت أو دمشق. وفضلا عن هذا ،فمنذ أن اختطف البريطانيون فلسطين من تحت أنوفهم ، كان الفرنسيون يشعرون من ناحيتهم بالأذى إلى أكبر حد ، يضاف إليه شك لا رجاء فى زواله ، فى أن بريطانيا كان لها خطط بالنسبة إلى سوريا ولبنان أيضاً . ولما نشبت الحرب فى أوربا راحت بريطانيا تتراجع فى سبيل أن تستقل هذا الشك . كانت فرنسا قد أظهرت بعض العزوف عن الانضمام إلى بريطانيا فى إعلان الحرب على ألمانيا ، وكان الشعور فى لندن هو أنه لايجب عمل شىء يمكن أن يتيح للفرنسيين مبرراً للتوقيع على صلح منفرد .

ولكن بعد انهيار فرنسا ومجىء حكومة ڤيشى الموالية للألمان بدأت بريطانيا تفكر من جديد ، وروجعت سياسة « رفع الأيدى عن سوريا » . إذ فى ظرف سنة من توقيع الهدنة بين فرنسا وألمانيا أصدرت سلطات ڤيشى التعليمات للجنرال دنتز المندوب السامى الفرنسى فى دمشق ، بأن يسمح للطائرات الألمانية المتجهة إلى العراق ، باستخدام المطارات السورية. وبانتصاف مايو ١٩٤١ وبعدأن أعلنت حكومة رشيد عالى فى العراق الحرب على بريطانيا بأسبوعين كان نحو ستين قاذفة ألمانية قد استغلت هذه التسهيلات . كانت هذه هى «سياسة الزحف نحو الشرق » مرة ثانية، وأدركت القيادة البريطانية

فى الشرق الأوسط بقدر كاف من السرعة أنه إذا لم يعمل شىء لوقفها ، فسوف يجرى حشد خطير للقوات الألمانية فى سوريا ، تشن منه حركة كاشة خطيرة ضد مركز بريطانيا المعرض للتهديد فى الشرق الأوسط ، وهى حركة تتجه نحو العراق والخليج الفارسى لتتزامن مع الهجوم الثانى الذى سيقوم به الجنرال روميل من ليبيا ضد مصر .

صممت القيادة البريطانية على أن تستبق هذه الاستراتيجية بأن تغزو سوريا بالقوات التى لم تكن مشتبكة فى الجبهة الليبية أو فى العمليات الجارية فى العراق . عرض الجنرال كاترو المندوب الفرنسى لفرنسا الحرة بالشرق الأوسط أن يساعد بلوائين فقبل العرض بسرور . ولكن القيادة البريطانية وهى تذكر العهود التى نُكث بها بعد الحرب العالمية الأولى وكانت شديدة الرغبة فى الحصول على أكبر قدر من التعاون السورى ، اقترحت إذاعة وعد بالاستقلال فى أثناء عبور القوات الغازية الحدود السورية واللبنانية ، فاعترض كاترو بشدة بالنيابة عن زعيمه الجنرال ديجول . وبعد ضغوط قوية فى لندن أمكن إقناع القائد الفرنسى بأن يذيع فى غير لبس أو غموض على أهل سوريا ولبنان «إنى آت لأضع نهاية لنظام الانتداب ولأعلن أنكم أحرار ومستقلون » ، هذا البيان أكده تصريح مشابه أصدره السفير البريطانى فى مصر .

بمجرد أن بدأ الزحف فى ٨ يونيه انسحب الألمان إذ لم تكن لهم بعد قوات فى سوريا ، وبعد خمسة أسابيع توقفت مقاومة قوات حكومة فيشى الفرنسية. أما وقد أزيل التهديد الألمانى حوّل البريطانيون الآن إدارة سوريا ولبنان إلى حلفائهم الفرنسيون الأحرار ، مطمئنين إلى حسن نية الأخيرين فى احترام وعد كاترو . ولكن كان من الصعب على السوريين واللبنانيين أن يشاركوا السلطات البريطانية ثقتها ، وعندما اكتشفوا أن « تحريرهم »

الذى بُشروا به كثيراً أسفر فحسب عن إبدال نوع من الحكم الفرنسى بآخر ، تصاعدت الصيحة : « أين استقلالنا الموعود ؟ » ، أين حقاً ؟ ذلك أن الجنرال كاترو بوصفه المندوب السامى الفرنسى الجديد فى بيروت ، لم يعلن إلا بعد انقضاء عامين ، أنه سوف تجرى الإنتخابات لإقامة حكومات عربية مؤقتة فى سوريا ولبنان .

وحتى هذه الحركة المتأخرة عن أوانها ، ثبت أنها مجرد ذر للرماد فى العيون . فسرعان ما أصبح واضحاً أن ما كان يقصده الفرنسيون من اصطلاح « حكومات مؤقتة » هو نظم حكم عربية تكون ألعوبة فى أيدى فرنسا وتتبع أوامرها . فى هذه المرة كان لبنان هو الذى تزعم رفض قبول وضع البلد الذى يسير فى فلك غيره . وفى يوليه ١٩٤٣ أعلن البرلمان اللبنانى أن لبنان جمهورية مستقلة وقرر أن تكون العربية هى اللغة الرسمية بدلا من الفرنسية . كان رد الفعل من جانب السلطات الفرنسية أشبه ببغل يرفس ، وإذ تناست بسهولة معاهدة ١٩٣٦ التى لم يحترموها ، أمرت رئيس الوزراء الجديد رياض الصلح أن يلغى هذه الإجراءات على أساس أن انتداباً منحته عصبة الأمم ، لا يمكن أن يلغى بإجراء من طرف واحد . رفض هذا الطلب ، وعندئذ حل الفرنسيون البرلمان وأقالوا الوزارة واعتقلوا رياض الصلح هو وبشارة الخورى رئيس الجمهورية وعدة وزراء آخرين. عندئذ صدرت الدعوة إلى القيام بإضراب عام فى جميع أرجاء البلاد ، وتظاهر الألوف من المواطنين اللبنانيين الغاضبين فى بيروت وغيرها من المدن .

عند هذه النقطة تدخلت بريطانيا لتذكر السلطات الفرنسية فى لبنان بالعهد الذى قطعه الجنرال كاترو بمنح الاستقلال لسوريا ولبنان ، والذى ضمنه السفير البريطانى فى القاهرة فى يونيه ١٩٤١ . لم يكن الفرنسيون الأحرار فى مركز يسمح لهم بمحاجة حلفائهم البريطانيين الذين كان الأولون

يعتمدون عليهم فى تزويدهم بكل شىء حتى رواتب الجند ومعداتهم ، فاستسلموا على مضض . فأفرج عن الرئيس اللبنانى ووزرائه ، وفى نوفمبر استأنف البرلمان وظائفه التى انتخب من أجلها . ثم ، بعد أن تقابل ممثلو سوريا ولبنان مع السلطات الفرنسية فى بيروت ودمشق لمناقشة الترتيبات الخاصة بالاستقلال ، وافق الفرنسيون على أن ينقلوا إلى الحكومات العربية الوظائف الداخلية التى كان يمارسها من قبل ، المندوب السامى الفرنسى فى كل بلد ، وأصبح شكرى القوتلى أول رئيس لجمهورية سورية لها استقلالها الذاتى .

ساد الهدوء بينما كانت المناقشات تسير فى طريقها فى بيروت ودمشق عام ١٩٤٤ وإلى فترة طيبة من العام التالى . ولكن الفرنسيين لم يكونوا قد انتهوا بعد ، وفى مايو ١٩٤٥ نزلت قوات فرنسية فى بيروت . وعلى الفور قطعت سوريا ولبنان المباحثات التى قالوا إنه لا يمكن مواصلتها فى ظل هذا التهديد الفرنسى المتجدد ، وطلبوا المساعدة من بريطانيا وأمريكا والروسيا وأصدقائهم العرب . وثارت الاضطرابات والمظاهرات مرة ثانية فى بيروت ودمشق . هذا الموقف المتفجر إلى درجة عالية لم يكن يهدئه بأى حال بيان صادر من باريس جعل من الواضح أن فرنسا تريد أن تديم احتلالها العسكرى للمشرق . وعندئذ فى ٢٩ مايو ، وبعد صدام بين القوات الفرنسية والوطنيين السوريين فى دمشق ، بدأ الفرنسيون يضربون أجزاء معينة من المدينة بمدافعهم على نحو مافعلوا فى ثورة الدروز عام ١٩٢٥ . فقتل ثمانون من رجال البوليس السورى وأربعمائة من المدنيين بسبب هذا القصف وجرح ثلاثة أمثال هذا العدد .

اضطرت بريطانيا إلى التدخل مرة أخرى ، وللمرة الأخيرة على ما أثبت المستقبل . وفى رسالة مدوية كهزيم الرعد إلى الجنرال ديجول ، أمره ونستون تشرشل بإصدار تعلياته إلى قواته فى دمشق بوقف إطلاق النار ، وأضاف

أن الجنرال باجيت القائد العالم البريطانى فى الشرق الأوسط ، قد صدرت إليه الأوامر ، « بأن يتدخل كى يحول دون مزيد من إراقة الدماء وذلك لصالح أمن الشرق الأوسط بكامله » . وعلى غرار ما فعل شمشون فى المعبد ، كان الفرنسيون على استعداد لتحطيم أنفسهم هم ودمشق بدلا من التنازل عن سوريا لأهلها الحقيقيين والتقليديين . ولكن بينما راحوا يدربون مدافعهم من التلال المحيطة بدمشق نحو المدينة المقاتلة ، أدرك ديجول أن اللعبة انتهت وأمر بوقف عام لإطلاق النار . أنقذت سوريا ولبنان ، وأصبحا فى ظرف عام وقد حققا الاستقلال الذى وعدا به منذ زمن طويل وأصبحا أعضاء فى الأمم المتحدة . ولكن لم يكن فى إمكان زعيم فرنسا الحرة حتى الآن أن يسلم بأن فرنسا هزمتها روح العرب القومية فألقى اللوم على « جماعات محلية غارقة فى التآمر » باعتبارها مسئولة عن طرد فرنسا من الشرق الأوسط ، وترامت تلميحات خطيرة بأن بريطانيا هى التى شجعت هذه المؤامرات .

هذا العجز الفرنسى عن تقبل فكرة أن أى شعب « متأخر » لا يجب أن يرفض منافع « الرسالة التمدينية » كان يكمن أيضاً فى جذور متاعب فرنسا فى شمال أفريقية . فبعد انهيار ثورة عبد القادر فى عام ١٨٤٧ ، بدأت فرنسا تنظر بعين الشره إلى دولتى مراكش وتونس المجاورتين . ولكن بينما أبت بريطانيا أن تسمح لأى دولة أوربية كبرى أن تثبت أقدامها على الساحل الأفريقى الشمالى فى مواجهة جبل طارق ، وبينما كانت السلطة العثمانية ما تزال راسخة فى تونس ، اضطر الفرنسيون إلى استغلال مكاسبهم القائمة والعمل على استعمار الجزائر . بدأ المستوطنون الفرنسيون وهم أسلاف « المستعمرين » colons فى العصر الحديث ، يتدفقون عبر البحر المتوسط تشجعهم الوعود بمنحهم الأراضى . وخلال الفترة الوجيزة التى قامت بها الإمبراطورية الثانية ، حاول لوى نابليون وقف عملية الاستعمار وحماية حقوق ملاك الأراضى

الوطنيين وهى الحقوق التى كان عبد القادر قد أقنعه بأنها مهددة بطريقة ظالمة من جانب نظام المبيعات الإجبارية الذى فرضه سلفه من ملوك البوربون . ولكن بعد الحرب الفرنسية — البروسية وضياع الألزاس واللورين عاد خلفاء لوى نابليون إلى السياسة القديمة . والآن تحول مجرى المستوطنين إلى فيضان عندما تدفق على الجزائر الألوف الذين فقدوا ممتلكاتهم من الأقاليم التى خسرتها فرنسا ، وراحوا يسعون وراء مستقبل جديد . ولقى معدل الاستعمار دفعة أخرى عند ما قضى وباء على مصدر حياة عدد كبير من زراع الكروم فى جنوب فرنسا .

وإذ أقام مثل هذه الألوف الكثيرة من الفرنسيين فى المستعمرة الجديدة ، قررت الحكومة الفرنسية الآن « إدماج » الجزائر فى فرنسا وجعلها ملحقاً بالأرض الفرنسية الأم . فنقلت السيطرة من وزارة الحربية إلى وزارة الداخلية ، وأطلق اسم « محافظون » على رؤساء مختلف الأقاليم على نحو المتبع فى فرنسا نفسها ، وحلت الفرنسية محل العربية كاللغة الرسمية . وعندما بدأ يضعف فيضان اللاجئين الفرنسيين شجع المهاجرون على القدوم من أسبانيا وصقلية للاقامة فى الجزائر ، بشرط أن يتجنسوا بالجنسية الفرنسية . وعرضت أيضاً الامتيازات من قبيل الحصانة من نزع الملكية ، على صفوة جزائرية جرى انتقاؤها بدقة إذا قبل أفرادها التجنس بالجنسية الفرنسية .

وبرغم أن الظروف الاقتصادية للقلائل الذين تعاونوا مع الفرنسيين كانت أفضل بكثير منها فى ظل الحكم العثمانى ، فإن هذه المحاولة المتعمدة للقضاء على طابع البلاد الأصلى كان لا بد أن تسفر عن صدام . وفى الوقت المناسب ثار « القبايل » Kabyles فى شرق الجزائر ضد الظلم الفرنسى . كانوا موضع القمع الذى لا يعرف الرحمة ، وفى النهاية كانوا أسوأ حالا منهم فى أى وقت مضى . والآن انتهزت السلطات الفرنسية فرصتها فصادرت بدون

تعويض أرض أى شخص اشتبهت فى اشتراكه فى الثورات ووزعتها على المستعمرين الذين كان بهم جوع إلى الأرض لا يشبع .

ولكن حتى هذه الوسائل أخفقت فى أن توفر العدد الكافى من الأفدنة للسكان الأوربيين الذين تطرد الزيادة بسرعة فى أعدادهم ، وفى عام ١٨٨١ وعندما بدأت قوة الإمبراطورية العثمانية تتداعى تحت ضغط الأحداث ، تحركت فرنسا لكى تنتزع تونس. وهنا تكررت العملية الجزائرية بحذافيرها باستثناء الإدماج . فنظراً لكون تونس أقرب من الجزائر إلى مصر ، لهذا كان لها تقليد إسلامى أقوى . وبرغم أنها كانت ملكاً بالفعل لفرنسا إلى أن ظفرت باستقلالها فى عام ١٩٥٥ ، فعلى ذلك أصبح وضعها الرسمى وضع محمية بدلا من وضع مقاطعة من مقاطعات فرنسا ، وسمح الحاكم ألعوبة يحمل لقب باى تونس أن يمارس سلطة إسمية ويتلقى الأمر من مقيم عام فرنسى .

كانت فرنسا ما تزال غير قانعة بفتوحاتها فى شمال أفريقية . ففى الشرق كانت الفيافى الصحراوية بليبيا لا تجتذب الأنظار ، ولكن إلى الغرب من الجزائر كانت هناك الأراضى الخصيبة بمراكش . لم تصل الإمبراطورية العثمانية أبداً إلى هذا الموضع ، والشعب الوحيد الذى فرض نفسه على سيادة سلطان مراكش منذ الفتوح العربية كان أسبانيا التى احتفظت منذ القرن السادس عشر بموطىء قدم صغير فى مليلة وسبتة على ساحل البحر المتوسط » ولكن خلال العصر الفكتورى كانت بريطانيا تسد فى غيرة الطريق أمام التوسع الفرنسى غربى الجزائر . ولم يتم إزالة هذه العقبة التى لا يمكن تخطيها، إلا بعد أن تولى العرش البريطانى ذلك المسرف فى الميل إلى الفرنسيين وهو الملك إدوارد السابع . فبعقد الاتفاق الودى بين بريطانيا ومصر فى عام ١٩٠٤ تخلت فرنسا عن دعاويها فى مصر ، ومقابل هذا أطلق البريطانيون يد الفرنسيين فى مراكش . وهذا الاتفاق أعقبه آخر بين فرنسا وأسبانيا اعترفت

فيه فرنسا بالممتلكات الأسبانية فى الشمال ، ولم تثر أسبانيا إعتراضات على أن تنشىء فرنسا مجالا لنفوذها فى بقية مراكش .

كان الطريق مفتوحاً أمام أسبانيا لتأخذ بقية المغرب ، ومن الآن فصاعداً اتخذت الأحداث نمطاً مألوفاً . ففى عام ١٩٠٧ ومرة ثانية فى عام ١٩٠٨ ، وبعد مقتل بعض المواطنين الفرنسيين فى اضطرابات فى مدينتى مراكش وطنجة ، دخلت القوات الفرنسية لحماية أرواح وممتلكات الفرنسيين . تلا ذلك ثورات قبلية ضد البيت الحاكم ، ولما كان السلطان مولاى عبد الحفيظ رجلا ضعيفاً لا يقدر على السيطرة على رعاياه الأباة ، ناشد فرنسا أن تسانده . استجابت فرنسا للنداء بحماس، وفى ظرف عام كانت قد احتلت معظم البلد . عند هذه النقطة راحت ألمانيا تبدى اهتماماً بمراكش ، وبعد حادثة أغادير عام ١٩١١ عندما ظهر طراد ألمانى على مسرح العمليات وهدد باتخاذ عمل عدائى ، عادت فرنسا فاستغلت مخاوف السلطان . وفى مارس ١٩١٢ تم التوقيع على اتفاق جعل مراكش محمية فرنسية على غرار تونس وأعطى فرنسا الحق فى وضع قوات حيثما كان هذا لازماً لاحتلالها . ووقع اتفاق آخر مع أسبانيا اعترفت فيه الحكومة الأسبانية بالحماية الفرنسية ووافقت على أن تصبح طنجة منطقة دولية .

أدت هذه التضحية باستقلال مراكش إلى فورات جديدة من العنف القبلى . فقبل أن ينصرم العام عين الماريشال الفرنسى ليوتى مقيماً عاماً ولديه أوامر بسحق الثورة ، وكان السلطان مولاى عبد الحفيظ قد عزل فى هذه الأثناء لصالح أخيه مولاى يوسف جد الملك الحالى مولاى الحسن . وبحلول عام ١٩١٤ ، وبالمساعدة من جانب يوسف ، كان ليوتى قد هدّأ البلاد ؛ ولكن عندما نشبت الحرب العالمية الأولى بدأت ألمانيا مرة ثانية تحاول تقويض النفوذ الفرنسى فى مراكش . فعن طريق الحماية التى وفرتها مراكش

الأسبانية المحايدة ، فى الشمال ، تدفقت الأموال والأسلحة على قبائل إقليم جبال الريف وأطلس ، وبرغم أن الأمور ظلت هـــادئة نوعاً فى ظل يد الاحتلال الفرنسى الحديدية فيما بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٨ ، كانت القبائل قد تجمع لديها إمدادات كافية لتنقض على سادتها الأوربيين عندما انتهت الحرب .

ففى عام ١٩٢١ قام زعيم من البربر بإقليم جبال الريف، هو عبدالكريم، مدفوعاً بكراهية شديدة للأوربيين الذين احتلوا بلده وللسلاطين الذين تساهلوا معهم ، وأعلن قيام جمهورية من البربر . انقض أولا على الأسبان فهاجم وأسر قائدهم وعشرين ألفاً من الجند الأسبان وطارد البقية المحطمة من قوات الإحتلال الأسبانى وألقى بهم إلى البحر . ثم بعد أن انتزع فدية ضخمة للافراج عن الأسرى الذين عنده، تحول نحو الفرنسيين وما أن حل عام ١٩٢٥ حتى كان يهدد القلعة الفرنسية الرئيسية فى فاس . سحب ليوتى وأرسل مكانه الماريشال بيتان بطل فردان ، كى ينظم قوة فرنسية — أسبانية مشتركة لسحق ثورة الريف . لقد انتهى عبد الكريم . ولكنه لم يستسلم إلا فى العام التالى ١٩٢٦ ، بعد وعد بحريته الشخصية ، وبعد أن قتل رجاله من الثوار نحو ألفين من القوات الفرنسية بخلاف الوطنيين الذين كانوا يحاربون مع الفرنسيين . وكما حدث مع عبد القادر حنث الفرنسيون بوعدهم وسجنوا عبد الكريم فى جزيرة رينيون حيث ظل بها طيلة الإحدى وعشرين سنة التالية . ولكن الثورة علمت الفرنسيين درساً فى شراسة البربر(١) لم ينسوه أبداً ، ومن الآن فصاعداً تحولوا بسياستهم إلى مداهنة سافرة للبربر على حساب العرب بما فيهم حتى السلطان القائم بالحكم .

هذه السياسة من رشوة سارق الصيد وإذلال حارس الصيد ، حافظت

(١) لعل التعبير الأصح والأدق هو « شجاعة البربر » . المترجم

لسنوات قلائل على سلام مزعزع فى مراكش . ولكن هذا النوع من الموقف كان لا يمكن أن يستمر إن لم يكن لسبب إلا لأنه فى عام ١٩٢٧ ولى السلطنة شاب من أهل العزم ، عندما توفى أبوه مولاى يوسف . لم يكن محمد المعروف للعالم باسم محمد الخامس والمؤسس لمراكش المستقلة الحديثة ، بالرجل الذى يمكن تجاهله، وسرعان مابدأت المقاومة العربية تزداد صلابة ضد الفرنسيين بعد اعتلائه العرش . وفى عام ١٩٣٠ وقعت اضطرابات كبرى فى كافة أرجاء مراكش، وبعد ذلك أصبحت حركة تعرف باسم لجنة العمل المراكشية ، رائدة القومية المراكشية . طالبت لجنة العمل بالحد من الحقوق الفرنسية فصدر الحظر على نشاطها . ولكنها كانت قد أشعلت شرارة قدر لها أن تستمر إلى أن اضطرت فرنسا فى النهاية إلى التسليم باستقلال مراكش .

وخلال هذه الفترة نفسها كان محام شاب ممن تعلموا فى فرنسا ، هو الحبيب بورقيبة ، يشعل بنشاط نار الثورة التى يقوم بها فى وطنه تونس . انضم بورقيبه فى أوائل الثلاثينات إلى الحزب الوطنى وهو حزب الدستور ، وعند إغلاق صحيفة الحزب بعث باحتجاج شخصى إلى المقيم العام. ثم أخرج مع نفر من الأصدقاء جريدة خاصة به أطلق عليها إسماً مناسباً هو « العمل التونسى » ، وعندما أغلقت فى عام ١٩٣٤ كون حزبه السياسى الذى دعاه « الدستور الجديد » وكانت أهدافه شبيهة بحزب الدستور الذى كان قد أنشأه الوطنيون ، ولكن برنامجه كان أكثر نضالية بكثير . ولقد أكسبته جهوده قدراً بالغاً من التأييد الشعبى بحيث لم تمض ستة أشهر حتى اعتقل هو ومعاونوه ونفوا إلى مكان على حدود الصحراء الكبرى . وبمقدم حكومة الجبهة الشعبية برئاسة ليون بلوم فى عام ١٩٣٦ وهى الحكومة التى جعلت الاتفاقات مع سوريا ولبنان فى حيز الإمكان ، أفرج عن بورقيبه . ولكن بعد عامين وجدت السلطات الفرنسية سبباً آخر لاعتقاله وفى عام ١٩٤٠

وبرغم أنه لم يكن قد حوكم عن أية جريمة ، نقل إلى مرسيليا حيث سجن فى حصن سان نيكولا .

ولما انهارت فرنسا مارست الحكومتان الألمانية والإيطالية أقوى الضغوط عليه كى يعلن وقوفه إلى جانب دول المحور . ولكن بورقيبه كان أذكى من أن تخدعه وعودهم باستقلال تونس ، ورفض فى صلابة الانصياع إلى دعاياتهم . وعندما أطلق سراحه فى عام ١٩٣٤ وعاد إلى تونس دعا أتباعه على الفور إلى تأييد الحلفاء الذين كانوا قد حرروا تونس من الاحتلال الألمانى واحتلال حكومة ڤيشى الفرنسية . ولكن ، وكما كان الشأن فى سوريا ، فإن أول فكرة كانت تساور الفرنسيين الأحرار هى أن يدعموا مركزهم ويسحقوا بحزم أى شىء يمكن أن يدعى الدعاية الوطنية . وعلى ذلك منعت السلطات الفرنسية دعوة بورقيبة إلى حمل السلاح ، وهددت باتخاذ إجراءات المحاكمة ضده إذا أصدر أية تصريحات جديدة .

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية واصل حزب بورقيبه «الدستور الجديد» النضال من أجل الاستقلال ، وفى عام ١٩٥٠ تساهلت فرنسا إلى حد أنها عرضت على تونس الاستقلال الذاتى الداخلى . وبرغم المعارضة من جانب الوطنيين المتطرفين قبل بورقيبه نصف الرغيف . ولكن بعد عام تراجع الفرنسيون عن العرض الذى قدموه ، وعندما دبر حزب الدستور الجديد مظاهرة احتجاج قبض على بورقيبه ونفى للمرة الثالثة . وبعد أربع سنوات ونصف ، وبعد أن جاءت عجلة روليت السياسة الفرنسية بيير منديس - فرانس المستنير إلى الحكم ، أطلق سراح بورقيبه وعاد ليستقبل فى مدينة تونس استقبال الأبطال . ومقابل الاستمرار فى تأجير القاعدة البحرية فى بنزرت وتسهيلات عسكرية أخرى معينة إلى فرنسا ، منحت تونس الاستقلال . وفى مارس ١٩٥٦ أصبح أول رئيس للوزراء فى تونس المستقلة ،

وفى العام الثانى وبعد أن حمل الباى على التنازل عن العرش ، نودى به رئيساً لجمهورية تونس .

وسارت قصة مراكش بعد الحرب العالمية الثانية وفق نمط مشابه ، ولعب فيها محمد الخامس دور الزعيم الشعبى المنفى . فبعد الحرب مباشرة طلب حزب الاستقلال من فرنسا أن تعيد النظر فى قانون الحماية الذى ظل بدون تغيير منذ عام ١٩١٢ . ما كان يمكن أن يكونوا أكثر تواضعاً فى مطالبهم، إلا أنها رُفضت على الفور. فنظراً لأن الجلاوى وهو من زعماء البربر فى ناحية مراكش فى جبال أطلس ، كان يردد فى استكانة صدى الصيحة الفرنسية بأن الحكم الفرنسى هو أفضل شىء بالنسبة إلى جميع المراكشيين ، أحس الفرنسيون أنهم من القوة الكافية بحيث يستخدمون البربر ضد العرب . ولكن عند هذه النقطة وجه محمد الخامس الضربة ورفض أن يضيف توقيع السلطان إلى أية مراسيم أخرى يعدها الجنرال جوان المقيم العام ، إلا بعد أن توافق فرنسا على إجراء المفاوضات بشأن إعادة النظر فى دستور ١٩١٢ . وأخيراً اضطره جوان إلى التساهل مهدداً إياه بالعزل ، ولكنه أخفق فى إبعاد السلطان عن الوطنين المراكشيين لأن محمداً الخامس أبى أن يشجب الأنشطة التى كان يقوم بها حزب الاستقلال .

تطلع الفرنسيون الآن إلى الجلاوى ليقوم بالحركة التالية بالنيابة عنهم . جمع الزعيم البربرى جيشاً حول بلدة مراكش وهدد بالاستيلاء على السلطة إذا لم يعزل محمد الخامس . وعلى الفور عبر جوان عن إمتنانه ، وفى أغسطس ١٩٥٣ نقل محمد الخامس فى سفينة حربية فرنسية إلى كورسيكا . ولكن بدلا من أن يعمل عزل محمد الخامس على تحطيم حزب الاستقلال عمل فقط على أن وحد بين أنصار الملكية وخصومها فى المطالبة بعودته على الفور . ونشب العنف بصورة تلقائية فى جميع أنحاء مراكش ، وبعد عامين اضطر الفرنسيون

إلى التسليم بالهزيمة . كانت الثورة قد بدأت الآن فى الجزائر ، واضطرت فرنسا إلى إنهاء خسائرها فى مراكش وتونس ولو اقتصر السبب على رغبتها فى تركيز قواتها للاحتفاظ بالجزائر . وأفرج عن محمد الخامس فى نفس الوقت الذى أطلق فيه سراح بورقيبة ، وأعلن استقلال مراكش فى نفس الوقت الواحد مع استقلال تونس . وتنازلت أسبانيا عن كافة ممتلكاتها فى الشمال فيما عدا سبتة ، وأعيد توحيد طنجة رسمياً مع مراكش .

لم تكن الجزائر موفقة بهذه الصورة ، ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أنها لم تكن وجدت بعد زعيماً وطنياً من طراز محمد الخامس أو بورقيبة . ولكن أهم من هذا أن فرنسا كانت قد أجبرت منذ وقت قريب على التخلى عن إمبراطوريتها فى الهند الصينية ، وسواء كان المليون ونصف المليون ممن يقال لهم المستعمرون الأوربيون سيقاتلون أولا يقاتلون فى سبيل الاحتفاظ بالجزائر فرنسية ، فإن الجيش على أى حال ، لم يكن على استعداد للتسليم بآخر ممتلكات فرنسا العربية بدون نضال مستميت . وإذ أساءت الحكومات الفرنسية المتعاقبة فهم رغبة الشعب الجزائرى الملحة فى الاستقلال الذى منح لجيرانهم المراكشيين والتونسيين ، أصرت على أن القومية الجزائرية كانت من صنع حفنة من المهيجين الذين ينفذون أوامر ذهن متفوق أجنبى كجمال عبد الناصر(١) — ومن هنا كان تصميم فرنسا فى وقت أزمة السويس على تحطيم ناصر باعتباره العقبة الرئيسية فى طريق السلام فى الجزائر . ولقد لخص جى موليه رئيس وزراء فرنسا فى ذلك الحين ، موقف فرنسا عندما أخبرنى أن

---

(١) هذا هو دائما تفكير الاستعمار الذى يتعمد أن يتجاهل جذور المشكلة وهى القومية ، فيحاول أن يفسر الثورة عليه بأنها من صنع أيد خارجية . هذه الأيدى يمكن أن تساعد ولكنها لاتستطيع أن تخلق ثورة قومية فى بلد معين لأن هذه الأخيرة تنبثق دائما من ظروف هذا البلد الموضوعية — المترجم .

الاستقلال لم يكن فى الحقيقة يعنى شيئاً بالنسبة إلى جمهرة الشعب الجزائرى ، ولم يكن إلا شعاراً إخترعته مصر لإثارة المتاعب ، وأنه إذا استطاعت فرنسا أن تجعل الجزائر أكثر رخاء فسوف يقنع الجزائريون بالحكم الفرنسى .
كانت هذه المغريات قد جربت بالطبع وكانت قد أخفقت . فعرض وظائف أفضل ، ورفع المرتبات ، وتوفير الأمن لملكية الأرض للجزائريين الذين أصبحوا « مندمجين » عن طواعية ، كل هذا لم يسفر بحلول عام ١٩٣٨ إلا عن عدد هزيل من « المندمجين » لم يتجاوز ثلاثة آلاف . حقيقة عرض الفرنسيون فى عام ١٩٤٥ أن يزيدوا التمثيل الجزائرى فى المجالس المحلية من ٣٣ إلى ٤٠ فى المائة . ورفعوا عدد الذين ينتخبون من الجزائريين الذين لهم حق التصويت ، من ٢٠٠٫٠٠٠ إلى مليون ونصف المليون . ولكن عشرة ملايين جزائرى كانوا ما يزالون لا يمثلهم سوى عشرين نائب فى البرلمان الفرنسى — على أساس نائب واحد عن كل ٥٠٠٫٠٠٠ شخص مقابل نائب عن كل ٨٠٫٠٠٠ فى فرنسا نفسها .

إن قصة الكفاح العنيف الطويل وهو الثورة الجزائرية قصة مشهورة بحيث لا تتطلب تكرارها فى إسهاب . إنها لقلة من الثورات فى التاريخ كانت مثلها فى المرارة أو التكلفة بالنسبة إلى القوة القائمة بالاحتلال . فمنذ أن بدأت فى نوفمبر ١٩٥٤ إلى أن حصلت الجزائر على استقلالها فى مارس ١٩٦٢ ، كانت فرنسا تصب سنوياً ما يربو على بليون دولار فى محاولاتها العقيمة سحق الثوار والاحتفاظ بالجزائر ؛ وقبل أن تحل النهاية بوقت طويل كانت قوات فرنسية عددها نحو ٥٠٠٫٠٠٠ تحت رحمة جيش من الثوار ، يتكون من ربع هذا العدد . لقد بدأت جبهة التحرير الوطنى ببضع مئات من المجندين المسلحين ببنادق الصيد والمدى ، وبالتدريج زادت قوة عن طريق شن الغارات على مخازن السلاح الفرنسية وبفضل شحنات قليلة من الأسلحة من

مصر وبلاد عربية أخرى . وفى عام ١٩٥٦ كان المئات القليلة الأولى من الثوار قد زادوا إلى ٤٠٫٠٠٠ ثم إلى ١٠٠٫٠٠٠ بعد عامين .

كان عبد القادر قد كتب إلى بيجو «سوف ننهك قواتكم، ونضايقهم ونقضى عليهم بالتدريج .. ألا ترى الموج يعلو عند ما يلمسه طائر بجناحه ؟ هذه هى صورة مروركم فوق أفريقيا » . كان التاريخ يعيد نفسه . فى البداية كانت جبهة التحرير الوطنى لا تسيطر إلا على عدد قليل من الجيوب المنعزلة حول مدن الجزائر ووهران وفيليبفيل وشقة من الظهير الجبلى على مقربة من الحدود مع تونس . ولكنها كانت تزيد كل سنة من منطقة نفوذها وسيطرتها ، وفى عام ١٩٥٨ كانت الجزائر كلها تخضع لسيطرتها باستثناء وهران ومدينة الجزائر وقسنطينة ودائرة صغيرة حول كل من هذه المراكز الرئيسية .

كان الرجل المسئول بوجه خاص عن اندفاع جبهة التحرير المبدئى ونجاحها ، هو أحمد بن بيلا ، وهو من أهل وهران وله تقاطيع رشيقة وشخصية جذابة كالمغناطيس ، وسبق أن خدم فى جيش الفرنسيين الأحرار خلال الحرب العالمية الثانية على نحو ما فعل الكثيرون من زملائه الثوار ، ومنح الأوسمة لقاء شجاعته فى الحملات بشمال أفريقية وإيطاليا . وعند عودته إلى وطنه فى عام ١٩٤٦ عكف على إعداد الخطط لتحرير بلده فى النهاية ، وبعد أن اعتقل بسبب القيام بأعمال تخريب فى عام ١٩٥٠ ، هرب إلى القاهرة حيث حصل على وعود بتقديم أسلحة للنضال القادم . وفى عام ١٩٥٦ ، وبوصفه من أعضاء المجلس الوطنى للثورة ، توجه إلى مراكش ليناقش مع السلطان إمكانيات التفاوض مع فرنسا من أجل الوصول إلى تسوية . وكان وفده فى الطريق إلى تونس كى يعرض مقترحاته على الحبيب بورقيبة ، عندما أجبرت مقاتلة فرنسية طائرته على الهبوط فى مدينة الجزائر ، برغم أن الفرنسيين كانوا قد

منحوها أماناً بالسفر . قبض على بن بيلا ونقل إلى السجن فى فرنسا حيث أمضى السنوات الخمس التالية .

هذا التصرف الغادر لم يغضب الجزائريين فحسب ، ولكنه زاد أيضاً من حدة ورطة فرنسا . لأنه قضى على أية آمال فى وساطة يقوم بها السلطان أو بورقيبة ، ولم يدع لفرنسا سوى بديلين ، فإما أن تواصل الحرب أو تستسلم لجبهة التحرير التى تعرضت للاساءة والإهانة . ما من فرنسى فى موقع السلطة كان يجسر على الدعوة إلى الاستسلام ، ولكن الكثيرين كانوا يعرفون فى قرارة أنفسهم أن فرنسا تستنزف دماءها فى الجزائر . بذلت محاولة فاترة لحل المشكلة عن طريق ما دعى من باب التهذيب فى التعبير ، فرصة أمام الجزائريين « لإدارة شئونهم بطريقة ديموقراطية وفى حرية » . ولكن أظهر إمعان النظر فى الاقتراح أن المراد كان أن تظل الجزائر جزءاً من فرنسا ويتولى الفرنسيون الإشراف على الشئون الخارجية والدفاع والبوليس والأمن وإجراءات الانتخاب والعملة والمالية والجمارك والضرائب والإنفاق الحكومى والعدل والتعليم ! رفضت جبهة التحرير العرض بازدراء وزادت من حدة نضالها من أجل الاستقلال .

وحتى بعد عودة الجنرال ديجول إلى رئاسة الوزارة الفرنسية فى عام ١٩٥٨ ، واصلت السياسة الفرنسية الكفاح فى سبيل تملك جزء على الأقل من الجزائر . عرضت الآن بطريق غير مباشر فكرة التقسيم ولكن بغير نجاح . كان الجزائريون قد سمعوا عن فلسطين ، وعرفوا أن التقسيم يعنى فى نظر الفرنسيين الاحتفاظ بالسهول الساحلية الخصيبة وأن يعطى للجزائريين الظهير الصحراوى . وأخيراً فى مارس ١٩٦٢ ، وبعد عام تقريباً من المفاوضات التى طال أمدها ، حل ديجول المعضلة ومنح الجزائر حريتها . فاز بن بيلا الذى أطلق سراحه الآن من السجن ، فى صراع قصير الأمد من أجل السلطة مع

أولئك الزعماء من جبهة التحرير الذين كانوا قد أجروا المفاوضات بشأن استقلال الجزائر ، ونودى به رئيساً للوزراء . لقـــد خسرت فرنسا آخر ممتلكاتها فى العالم العربى . ولـكن الأسوأ من هنا أنها فقدت جميع عطف العرب ، وخلفت وراءها تركة من المرارة قد لا تنسى أبداً . بالنسبة إلى بريطانيا غالباً ما يقال إن علاقة العرب معها هى مزيج من الحب والـكراهية ؛ أما مع فرنسا بعد الجزائر فإن العرب لا يكنون نحوها غير الـكراهية[1] .

(١) يـكفى بهذا الصدد أن نذكر سياسة بريطانيا فى فلسطين ، واشتراكها مع إسرائيل وفرنسا فى العدوان على مصر سنة ١٩٥٦ — المترجم .

(٣٠)

مصر من كرومر إلى ناصر

لم تكن فرنسا القوة الوحيدة التي ترتكب أخطاء في التعامل مع الشعوب العربية ، فبريطانيا والولايات المتحدة ثم الاتحاد السوفييتي في عهد قريب جداً، كل منها أخفقت بدورها في فهم أهداف ودوافع القومية العربية. ومنذ وقت قريب جداً ارتكبت الروسيا غلطة محاولة خلق منطقة نفوذ سوفييتية في الشرق الأوسط . وكانت النتيجة أن المؤامرات الشيوعية كانت تخمد بقسوة في مصر وسوريا في أواخر الخمسينات ، وطرد الروس من العراق في فبراير ١٩٦٣ عندما قامت حكومة تمثل القومية العربية مكان نظام عبد الكريم قاسم وهاجمت الشيوعيين الذين كان قاسم يصادقهم ويشجعهم، بل وبوحشية فاقت الوحشية التي قضى بها قاسم على الملكيين . وأخفق الأمريكيون في أن يروا أن الحياد والاستقلال مرادفان للقومية العربية الحديثة وتعلموا درسهم في عام ١٩٥٨ عندما استطاع ائتلاف إسلامي - درزي إخراج رئيس جمهورية لبنان الموالي للغرب وهو كميل شمعون ، لأنه جعل لبنان ينحاز إلى الكتلة الغربية مقابل المعونة الأمريكية . وأخفقت بريطانيا في أن تدرك أن العرب يفضلون الحكم السيء الذي يتولونه بأنفسهم ، على أن يحكمهم شخص آخر حكماً طيباً .

كان من أكبر مشكلات بريطانيا خلال ارتباطها مع العرب طيلة نصف قرن ، أن تقرر بالضبط احتياجاتها في الشرق الأوسط . كانت مصالحها أساساً هي التجارة . ولكن حساب مدى السيطرة التي يجب أن تمارسها على العالم العربي لضمان أمن تجارتها وطرقها التجارية عبر الشرق الأوسط ، كان

شيئاً بدا أنه يختلف من عقد زمني لآخر . فقد سبق أن أوضح بالمرستون «أننا لا نريد مصر أو نرغب فيها لأنفسنا ، بأكثر مما يرغب أى رجل عاقل له ضيعة فى شمال إنجلترا ومسكن فى الجنوب ، أن يملك جميع النزل القائمة على طول طريق الشمال » . إلا أنه برغم مذهب بالمرستون قدر المستردف كوبر أن يكتب بعد ذلك بسنوات كثيرة إن « الإنجليز ذهبوا إلى مصر بدون سياسة مرسومة وضد إرادتهم ليمنعوا مذبحة ويخمدوا ثورة [و] وجدوا أنفسهم فى مركز لم تكن بهم رغبة فى التقدم منه ولكن كان من المستحيل التراجع منه . . . »(١)

كان دور بريطانيا فى مصر حتى ثورة ١٨٨٢ التى قادها الأميرالاى أحمد عرابى ، يزيد قليلا عن دور مراقب مالى . كان الخديو إسماعيل المبذر قد زاد ديون مصر قبل أن عزله الباب العالى من ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه (١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار) إلى ٩٤٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه (٤٧٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار) واضطر أن يبيع أسهمه فى قناة السويس ليدفع مستحقات الدائنين الأوربيين . بعد ذلك فرضت بريطانيا وفرنسا والقوى الأوربية الأخرى رقابة شديدة على الإنفاق العام المصرى وذلك عن طريق لجنة دولية . وبرغم أن جيش الخديو كان يضم ضباطاً بريطانيين فإن القوات البريطانية لم تكن قد احتلت بعد شبراً مربعاً واحد من الأرض المصرية .

ولكن تغير كل هذا بعد هزيمة عرابى فى التل الكبير فى سبتمبر ١٨٨٢ . كانت مصر ماتزال من الناحية الإسمية جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ،

---

(١) أية مذبحة يقصد دف كوبر ؟ لقد ثبت أن ما يدعى مذبحة الأسكندرية كان مدبرا من جانب عملاء الاستعمار . ثم من الذى دعاهم كى يخمدوا ثورة ؟ وهذه الثورة كانت للدفاع عن الشعب وحقوق الشعب ، ولحمايته من الحكم الخديوى المطلق ومن تغلغل السيطرة الأجنبية على البلاد ، تلك السيطرة التى فرضتها بريطانيا وفرنسا . وإذن فالانجليز قدموا ليخمدوا ثورة قومية تعارض أطماعهم . ولكن هذا هو منطق الاستعمار دائما — المترجم .

ولكن لم يبذل الباب العالى أية محاولة لتأكيد سلطته ، والآن ولبريطانيا جيش فى البلد ، وجدت نفسها لا تسيطر على مالية مصر فحسب بل وتسيطر بالفعل على البلد كله أيضاً . كان الموقف الذى وجدته تشيع فيه الفوضى . كانت الحكومة المصرية أداة لا حول لها ولا قوة فى أيدى خديو مستبد، ومقيدة فى معاملاتها التجارية بفعل الامتيازات التى منحتها الإمبراطورية العثمانية للقوى الأوربية فى القرن السادس عشر. كان رعايا هذه القوى لا يخضعون للقانون المصرى ، وكانت أية مخالفات يرتكبونها يفصل فيها قناصل بلادهم أو لا تنظر على الإطلاق. وكانت النتيجة أن مارس المقيمون الأوربيون وهم فى حصانة كاملة ،الجريمة والابتزاز والتهرب من الضرائب بل والدعاية السياسية. وفى بعض الحالات حاول المصريون أيضاً أن يبعدوا عن طائلة القانون عن طريق تسجيل مناشطهم فى حماية شركة أو عدة شركات تنتمى إلى القوى صاحبة الامتيازات .

قررت بريطانيا على غير رغبة منها نوعاً ،وبناء على مبادرة رئيس وزرائها وليم جلادستون وكان من حزب الأحرار ، أن تبقى كإجراء مؤقت وتنظف هذا الإصطبل وتضفى على مصر منافع نظام ليبرالى للحكم . وفى عام ١٨٨٤ عين السير إفلين بارنج ، اللورد كرومر فيما بعد ؛ مبعوثا لدى حكومة القاهرة، تحت اللقب المهذب لإخفاء حقيقته، وهو قنصل عام صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا وعهد إليه بوظيفة رئيس الكناسين .راح كرومر يباشر مهمته الشاقة لإصلاح مؤسسات مصر السياسية ، دون أن يملك سلطة إدارية لأن هذه كانت فى أيدى الخديو ، وبدون برلمان أو أحزاب سياسية يستشيرها . وبمحض قوة شخصيته ، يساعده جيش احتلال صغير نسبياً وقدر كبير من الرقابة المالية ، جعل من الواضح للخديو وحكومته أن أى وزير لا ينفذ تعليماته سوف يجبر على الاستقالة من منصبه. بهذه الوسائل ،وبأن أظهر أنه يسعى بصدق إلى تحسين

حظوظ الطبقات المهضومة الحقوق والحد من استبداد حكامهم ، ظفر بتأييد الجماهير . ألغيت السخرة والضرائب التى كانت تبعز بالكرباج ، وأدخلت نظم جديدة لضرائب الأطيان وتقدير القيم ، وهى نظم فرضت الضرائب على الأغنياء لا الفقراء . وجرى تجديد الرى ، ولأول مرة بعد سنوات كثيرة صارت البلاد قادرة على الوفاء بالتزاماتها المالية . كان ذلك كما لو أن إبراهيم باشا فى الشام قد عاد مرة ثانية ، وكما سبق أن تنبأ ابن خلدون فى تحليله للخلق العربى فإن أهل مصر « المغلوبين على أمرهم » تقبلوا بسهولة النظم الجديدة التى جاء بها « غزاة بلدهم » .(١)

ولكن كرومر أهمل إصلاحاً واحداً له أهمية جوهرية ، هو التعليم . يرجع بعض السبب فى هذا إلى التعقيدات الدينية(٢)، فقد كان التعليم على امتداد إثنى عشر قرنا فى أيدى السلطات الإسلامية فى مصر ، وكان كرومر ينفر من الظهور بمظهر الذى يهاجم هذه التقاليد الإسلامية القوية بأن يفرض على البلاد نظاماً جديداً من التعليم غير الطائفى . أنشئت مدارس خاصة قليلة مثل كلية فكتوريا فى الأسكندرية ، ولكن بخلاف هذه التسهيلات التعليمية لم تتح المزايا التى يوفرها تعليم بريطانى عصرى . وبالإضافة إلى هذا كان تعليم الجماهير المصرية مهمة طويلة الأجل ، وكانت التعليمات الصادرة إلى كرومر هى ألا يقوم إلا بالإصلاحات التى لايمكن إنجازها إلا فى الفترة قصيرة

(١) إذا كان هذا صحيحا فلماذا ثارت مصر على الحكم البريطانى ، تلك الثورة التى قادها الوطنيون من أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد ، ثم تزعمها بعد الحرب العالمية الأولى سعد زغلول . لقد ثارت لأن أية منافع مادية لايمكن أن تكون ثمنا لفقدان الحرية — المترجم .

(٢) الأحرى أن السبب هو الجمود الذى ران على البلاد وخاصة منذ الحكم العثمانى ، ولاعلاقة له بالنواحى الدينية ، فالإسلام يحض على تحصيل العلم ، ولم يشهد العالم فى تاريخه الطويل اهتماماً بالتعليم يشبه أو يقرب من الاهتمام الذى أبدته الدولة الإسلامية فى عصورها الزاهرة — المترجم .

الأمد التى تصورت لندن أنها تشمل وصاية بريطانيا على مصر .

هذه السياسة كانت تصبح أوفر معنى لولم تقم اعتبارات أخرى تحول دون خروج بريطانيا من مصر ، أو لو أن كرومر خلق جهازاً دستورياً به إدارة مصرية مسئولة لتمارس السلطات التى انتزعها من الخديو ، أو لو أن شعوبا أخرى لم تكن تتطلع إلى مصر بعين الشره والطمع . ولكن الوزراء الذين عينهم كرومر لم يكونوا أكثر من دمى تعمل وفق أوامره . أما عن الشره الأجنبى ، فمنذ أن بدأت بريطانيا تضطلع بالوصاية فى عام ١٨٨٢ . سجلت فرنسا معارضتها لإزاحة نفوذها كالقوة المتفوقة فى مصر ، وهذا مركز احتفظت به منذ أن بنى فرديناند دلسبس قناة السويس . وبرغم كل ماأعلنه المستر جلادستون من أنه ليس لبريطانيا دوافع إمبريالية ، إلا أنها لم تكن تعتزم الخروج تحت أى ظروف ، إذا كان الخروج يعنى إطلاق يد فرنسا فى مصر .

بعد ذلك بعشرين عاما ، أى فى عام ١٩٠٤ ، حلت مشكلات بريطانيا مع فرنسا بالتوقيع على الإتفاق الودى الذى تخلى الفرنسيون بموجبه عن دعاويهم فى مقابل إطلاق يدهم فى مراكش . ولكن سرعان ماقامت بعد ذلك عقبة أخرى تحول دون خروج بريطانيا ، وأصبح القلق الوطنى واسع الانتشار . فعندما انسحب كرومر فى عام ١٩٠٧ خلفه السير إلدون جورست الذى وجد نفسه تواجهه رغبة حكومته من جهة فى الخروج من مصر ، ومن جهة أخرى نقص فى الوزراء المصريين ذوى الخبرة والمسئولية ليتولوا الوظائف التى كانت تمارسها الإدارة البريطانية ، ولهذا عكس سياسة كرومر وأعاد إلى الخديو عباس حلمى الكثير من السلطة التى كان كرومر انتزعها منه . منذ تولى عباس حلمى فى عام ١٨٩٢ ، وكان ممن يؤيدون بقوة الحكم المطلق التركى ويعارضون الليبرالية البريطانية ، كان يطمع فى أن يصبح السيد المطلق فى

بيته هو . فانطلق الآن ، وراح بتأييد من التجار وملاك الأراضى الأثرياء يعلن الحرب على قادة الفكر الحر ، وفى سبيل إخفاء هدفه الحقيقى استخدم الصحافة لمهاجمة الإدارة البريطانية .

كانت حرية الصحافة من الأشياء التى يعبدها كرومر ، وأسرع الخديو الماكر إلى استخدام هذا السلاح لدعم حماته . راح سيل من الشتائم ضد البريطانيين يتدفق من كل صحيفة مصرية تقريبا ، وكانت النتيجة المحتومة أن الرأى العام سرعان ما انقلب على أولئك الموظفين البريطانيين الذين كانوا قد ساعدوا على تحرير الشعب من مظالم حكم الخديو . وكان رد إنجلترا أن غيرت مبدأها مرة أخرى . فأنشئت جمعيات تشريعية ، محلية ومركزية ، بالهدف المحمود وهو إعطاء الشعب مزيداً من الرأى فى شئونهم . ولكن عباس حلمى حول هذه الحركة بمهارة إلى مافيه مصلحته ، ولم يمض وقت طويل حتى كان الوطنيون فى هذه الجمعيات يهاجمون البريطانيين فى كل نفس يرددونه وينافسون الصحافة فى تحريض الجماهير على استخدام العنف .

وما أن حل عام ١٩١١ حتى هوت مصر إلى حالة من الفوضى الفعلية بسبب الاضطراب السائد ، وبدا الأمل فى أن تتخلص بريطانيا من مسئولياتها أبعد مما كان من قبل . ثم مات جورست فجأة وخلفه فى منصب المقيم البريطانى فى مصر اللورد كتشنر جنديا ممتازاً وقائداً عاماً بريطانياً سابقاً فى السودان ، له خبرة طويلة بقيادة القوات المصرية ، وكان يشعر بحب كبير للشعب المصرى البسيط وبازدراء الرجل العسكرى للساسة المستهترين الذين كانوا أبواقا للخديوى وملأوا جيوبهم بالمال على حساب الشعب . وخلال السنوات الثلاث التالية عالج فى حزم أمر الذين يثيرون الشغب وكرس نفسه لتوسيع نطاق حماية الفلاحين التى كان قد أقامها كرومر . فصدر قانون « الخمسة أفدنة » الشهير لمنع طرد الفلاح الصغير من الأرض بقضه وقضيضه

بسبب عدم سداد ديونه لمقرضى النقود ، وكانت احتجاجات كبار الملاك موضع التجاهل بجفاء. والحقيقة أنه بعد عامين من اضطلاع كتشنر بالأمر كان الموقف من الهدوء بحيث جعل بريطانيا تعيد البحث في إمكانية الانسحاب. ولتمهيد الطريق زيدت السلطات المخولة للجمعية التشريعية فى عام ١٩١٣ ، ومنح المزيد من التمثيل الشعبى . ولكن نشوب الحرب بعد عام وضع نهاية لأى تفكير فى الخروج . وفى أكتوبر ١٩١٤ ألقى السلطان العثمانى بمصيره مع القيصر الألمانى ، وإذ كانت مصر وقناة السويس مهـــددتين الآن من القواعد التركية فى فلسطين أعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، وعزلت عباس حلمى الميال إلى الأتراك ، لصالح عمه حسين كامل ، وراحت تنظم الدفاع عن البلد ضد الجيوش العثمانية .

كانت سنوات الحرب العالمية الأولى الأربع عبودية تعسة بالنسبة إلى مصر . فقد تحطم كل الخير الذى اتصف به حكم كتشنر ، وإلى هذه الفترة يمكن أن نتتبع الكثير من سوء التفاهم الذى سمم فيما بعد العلاقات الانجليزية — المصرية . كان المندوب السامى البريطانى هو الآن حاكم مصر بصورة فعالة ، وقرر هو والقادة العسكريون الموجودون فى البلد أنه وإن كانوا سوف يستخدمون أرض مصر والأيدى العاملة والتسهيلات فيها لمواصلة الحرب ، فإنهم ليسوا فى حاجة إلى أى تأييد عسكرى مصرى شامل ولا يجدون فيه سوى عائق . ونشأ ازدراء مرير للمصريين باعتبارهم مراوغين وجبناء ، فى صفوف الجنود البريطانيين الذين لم يكونوا على بينة من هذه القرارات الخاصة بالسياسة العليا ، وتولد استياء عميق فى نفوس المصريين الذين اقتصر عملهم فى أداء المهام الحقيرة تأييداً للجيوش المتحالفة . إن العلاقات الطيبة التى أقامها كرومر وكتشنر محتها الآن القوات البريطانية الذين أطلقوا بدون تفكير عبارة « كلاب قذرة » على من كانوا يخدمونهم ، ومحاها الموظفون

المصريون الذين أعادوا نظام السخرة واستولوا بالجبر على العلف والحيوانات من الفلاحين لسد حاجات الجيوش المتحالفة .

فبنهاية الحرب كان الرأى العام المصرى فى حالة متفجرة إلى حد كبير ولم يكن بحاجة لغير زعيم شعبى ليطلق الانفجار . وهذه الحاجة أشبعها سعد زغلول وكان من زعماء المعارضة فى الجمعية التشريعية وشريكاً أميناً للطفى السيد فيلسوف الفكر الحر المصرى منذ بداية القرن العشرين . كان زغلول وهو ابن فلاح فى الدلتا ، قد تزوج من ابنة أحد رؤساء الوزارات فى عهد عباس حلمى . وكان عباس حلمى يشعر نحوه بارتياب عميق لأنه كان يعارض أطماع الخديو ، ولكن أفكاره الليبرالية اجتذبت عطف ورعاية كرومر الذى عينه وزيراً للمعارف فى عام ١٩٠٦ . شغل زغلول هذا المنصب أربع سنوات ، وظل ثلاث سنوات بعد ذلك وزيراً للحقانية . ولكن فى عام ١٩٠٣ تشاجر مع كتشنر واستقال ولكنه انتخب عضواً فى الجمعية التشريعية . ومن الآن فصاعداً استخدم حريته النسبية فى صوغ نظريته فى ديموقراطية عصرية لمصر والتبشير بها — وتعنى دولة علمانية ليبرالية تعمل على تمصير الاقتصاد ، ويزول فيها النفوذ التركى فى السياسة ، ويلغى الحجاب بالنسبة إلى النساء ، ويقتصر رجال الدين على وظائفهم الروحية ، وتتحطم قوة الباشوات . كان يتساهل مع الاحتلال والنفوذ البريطانى ، طالما يستخدم للحد من سلطة الخديوى وسادته الأعلين الأتراك . أما أن يبقى البريطانيون فى مصر لحماية مصالحهم بعد هزيمة الأتراك ، فإهانة للشعور الوطنى المصرى . وعلى ذلك فبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بيومين توجه زغلول إلى المندوب السامى البريطانى السير ريجنالد ونجيت على رأس وفد وطنى وطالب بالنيابة عن الشعب المصرى بالاستقلال التام من الحكم البريطانى .

وعندما أبلغ أن بريطانيا لا يمكن أن تناقش أمثال هذه المسائل مع هيئة غير

رسمية ، تابع رئيس الوزراء المصرى رشدى باشا مبادرته وبصورة فاترة نوعاً، بأن اقترح على المندوب السامى أن يتوجه ـ أى رشدى ـ إلى لندن لإجراء مباحثات مع الحكومة البريطانية. ولكن هذا رفض أيضاً، وإذ أحس زغلول بالغضب إزاء هذا الصد المزدوج ، انتهز الفرصة التى أتيحت له ليؤثر فى الرأى العام. فتأسس الحزب المعروف باسم الوفد بزعامته ، وفى مارس ١٩١٩ وجه خطاباً مليئاً بالتهديد إلى سلطان مصر — كان لقب خديو قد غير منذ الانفصال الرسمى عن تركيا — متهماً إياه وحكومته بأنهم لا يظهرون أى كفاح من أجل قضية الاستقلال . قبض على زغلول وأقرب مؤيديه ، وتم نفيهم إلى مالطة . وفى اليوم التالى نشبت أعمال الشغب فى القاهرة ولم يمض أسبوع حتى كانت قد انتقلت إلى المديريات . قتل عدد من الأوربيين وكانت هناك عمليات تخريب واسعة النطاق للمكاتب والمواصلات الحكومية .

استدعى ونجيت وحل محله اللورد اللنبى الذى أعاد النظام باستخدام القوات البريطانية، وفى الوقت نفسه أمر بالإفراج عن سعد زغلول والسماح له بالعودة إلى مصر. لو أن هذا العمل الكريم تبعته بعض دلالة على أن بريطانيا على استعداد لبدء المفاوضات من أجل الاستقلال فى تاريخ مبكر ، لربما جلب الهدوء الذى كان يراد من هذا العمل أن يولده. وبدلا من ذلك عمدت الحكومة البريطانية إلى أسلوبها العتيق فى إرجاء اتخاذ قرار سياسى كبير وبعثت بلجنة تحقيق برئاسة اللورد ملنر . نظم سعد زغلول وشركاؤه مقاطعة على مستوى الأمة للجنة ، وهاجمتها الصحافة بالشتائم العنيفة ، ونظمت المظاهرات احتجاجاً على تكتيك بريطانيا القائم على التسويف . ولكن برغم هذا كله اتصلت لجنة ملنر بالفعل بزغلول فى أوربا عند عودتها من مصر ، وأوصت نتيجة لهذا بأن تلغى بريطانيا الحماية وتتفاوض مع دولة مصرية مستقلة من أجل عقد معاهدة تحمى المصالح البريطانية وتقدم التأكيدات بأن ماعملته

بريطانيا من أجل الفلاحين والطبقات العاملة بمصر لن يهدم بعد الاستقلال .

قوبلت هذه التوصيات بالابتهاج فى مصر . ولكن أخفقت الحكومة البريطانية طيلة أكثر من عام منذ عرفت التوصيات ، فى الوصول إلى اتفاق مع مصر حول الوسائل والطرق الكفيلة بإخراجها إلى حيز التنفيذ ، ويرجع هذا إلى حد كبير ، إلى أن رئيس الوزراء عدلى باشا كان يخشى تقديم تنازلات يمكن أن يفسرها زغلول على أنها تسليم للضغوط البريطانية . استقال عدلى فى نوفمبر ١٩٢١ ، وقبض على زغلول مرة ثانية ونفى . فأعقب ذلك إضرابات ومظاهرات ، وفى النهاية فى فبراير ١٩٢٢ اتخذت بريطانيا الخطوة الجريئة وألغت الحماية بقرار من طرف واحد واعترفت بمصر بلداً شبه مستقل . على غرار الأقاليم الخاضعة للانتداب مثـــل العراق وسوريا ولبنان تقرر أن تكون مصر دولة علمانيـة ولها برلمان من مجلسين . ولكن تقرر أن تبقى القوات البريطانية تحتل البلاد للدفاع عنها ولحماية الجاليات الأوربية والمصالح البريطانية كقناة السويس ، وحماية الإدارة الثنائية ، الانجليزية — المصرية فى السودان ، وفضلا عن هـذا نص على أن لا يعمل شىء بصدد الامتيازات التى تتمتع بها الدول الأوربية . وبرغم هذا ، قبـل المصريون هذه الرحمات الصغيرة ، وفى مارس ١٩٢٢ نودى بالسلطان أحمد فؤاد الذى ولى العرش عند وفاة أخيه حسين فى عام ١٩١٧ ، ملكاً على مصر . أطلق سراح زغلول فى سبتمبر ١٩٢٣ ، وفى أول انتخابات تجرى طبقاً للدستور الجديد ، ظفر بأغلبية ساحقة لنفسه ولحزبه الوفد .

لو أن الحكومة البريطانية أقرت هذا الإجراء النصفى بالاستقلال فور أن أصبحت توصيات ملنر معروفة ، فلربما فتحت فصلا جديداً من الصداقة والتعاون مع مصر . ولكن إذ جاء الإرجاء على قمة الغدر فى فلسطين وسوريا فإنه لم يعمل إلا على خلق شكوك فتجددت فى دوافع بريطانيا ، وعندما اكتشف

المصريون أن الاستقلال لم يكن يعنى نهاية الاحتلال البريطانى والسيطرة على سياسة مصر الخارجية ، وأن حكوماتهم كانت لاتزال فى الواقع تشكل وتعطى التعليمات على مائدة عشاء المندوب السامى البريطانى ، استنتجوا أن إلغاء الحماية لم يأت إلا بالقليل من التغيير . مرة أخرى قامت المظاهرات وفى نوفمبر ١٩٢٤ أغتيل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى ، فى القاهرة . قدم اللنبى إنذاراً نهائياً إلى زغلول طالب فيه بتقديم الاعتذار الكافى عن الجريمة وإنزال القصاص الواجب بمرتكبيها ، وأن تدفع غرامة قدرها ٥٠٠٫٠٠٠ جنيه (٢٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار) إلى الحكومة البريطانية ، وأن تسحب جميع وحدات الجيش المصرى بالسودان فى خلال أربع وعشرين ساعة . قبل زغلول المطالب الثلاثة الأولى ولكنه رفض سحب القوات المصرية من السودان ، وعندئذ استخدمت بريطانيا القوة فى إخراجهم ، ومن الآن فصاعداً تولت السلطة الوحيدة فى الإدارة الثنائية .

استقال زغلول وقد تعرض للهزيمة والإذلال ، وبرغم أن حزبه فاز مرة ثانية بالأغلبية فى انتخابات عام ١٩٢٦،فإن المندوب السامى البريطانى لم يسمح له أبداً بتولى رئاسة الوزارة . وفى عام ١٩٢٧ توفى هذا الوطنى المصرى العظيم وخلفه فى رئاسة الوفد مصطفى النحاس باشا . وبرغم أن شرف التفاوض بشأن المعاهدة التى كسبت الاستقلال لمصر فى النهاية سوف يؤول إلى النحاس، إلا أن الذى مهد الطريق كان الموقف الصلب الذى اتخذه زغلول فى أوائل العشرينات . وكما يقول ألبرت حورانى فى كتابه الفكر العربى فى عصر الليبرالية « كانت وحدة فكره [أى زغلول] هى مصر . يجب أن تكون مصر مستقلة ، ولكن الاستقلال الحقيقى لا يمكن أن يأتى إلا عن طريق إصلاح التعليم والقانون » . كان زغلول فى الحقيقة منصرفاً كلية إلى تحقيق هدفه وهو الحرية لمصر بحيث لم يكن لديه الوقت للمشكلات العربية الأخرى

كفلسطين . وعند ماطلب منه وفد فلسطيني المساعدة في أوائل العشرينات ، أخبرهم بجفاء أن يتصالحوا مع اليهود وأن يعيشوا سوياً كما كان يعيش العربي واليهودي في مصر .

كان تأثير زغلول من العظم بحيث مرت تسع سنوات دون إحراز تقدم في المفاوضات بين خليفته والمندوب السامي البريطاني اللورد لويد . لم يعد في إمكان النحاس أو أي زعيم مصري آخر أن يقبل إجراءات تصفية بعد ذلك، ولم يتم الاتفاق في النهاية إلا بعد أن استقر رأي بريطانيا نهائياً على أن السماح لمصر بالاستقلال الذي منحته للعراق ، يخدم مصالحها الاستراتيجية بالمثل إن لم يكن بطريقة أفضل . وفي ١٢ أغسطس ١٩٣٦ وقع النحاس باشا وأنتوني إيدن معاهدة تحالف وضعت نهاية للاحتلال وسمحت لبريطانيا بالاحتفاظ بعشرة آلاف جندي في منطقة القناة حيث لا يعود وجودهم يسيء إلى مشاعر سكان المدن والبنادر من قبيل القاهرة والأسكندرية . واعترفت مصر بأن قناة السويس ممر مائي دولي حيوي ، واعترف لها بالمقابل أنها دولة مستقلة ذات سيادة وأصبح المندوب السامي سفيراً، وعندما ألغيت الامتيازات بموجب اتفاق وقع بمونتريه في عام ١٩٣٧ أزيلت آخر بقايا امتياز عدم الخضوع للولاية المحلية .

لسوء الحظ أن السلام والصداقة النسبيين اللذين تولدا عن هذه الحركات التي جاءت متأخرة عن أوانها المناسب ،سرعان ماقدر لها أن تحطمها الأحداث التي تلت نشوب الحرب العالمية الثانية ، أي بعد ثلاثة أعوام بالضبط . مرة ثانية وجد البريطانيون أنفسهم يحاربون عدواً قوياً يهدد قناة السويس . مرة ثانية أصبحت مصر ساحة قتال في صراع كبير بين القوى الأوربية . وفي رغبة مستميتة في الاحتفاظ بملتقى الطرق الاستراتيجي الحيوي هذا لم يعبأ البريطانيون بحساسيات المصريين فزادوا كثيراً عدد القوات المسموح بها في

منطقة القناة بموجب معاهدة ١٩٣٦ وواصلوا إبقاء قوات فى ثكنات فى نفس قلب القاهرة ، فضلا عن تحريك جيوش كبيرة عبر البلاد حيثما تطلب ذلك سير الحرب . قام الملك الجديد فاروق وكان غلاما يحب اللهو ومدللا لا يزال فى أوائل العشرينات من عمره ، بجهد واحد لإثبات وجوده باسم دولة مصرية ذات سيادة ، وفى فبراير ١٩٤٢ وبدون استشارة السلطات البريطانية عين أحد مرشحيه وهو حسين سرى رئيساً للوزراء . ولكن السفير البريطانى مايلز لامبسون أراد عـــــودة النحاس بوصفه الشخص الذى بنى التعاون الإنجليزى — المصرى . ولكى يبين من هو السيد أمر كتيبة مدرعة بريطانية أن تحيط بقصر عابدين فى القاهرة ومدافعهم مصوبة نحو مقر إقامة الملك ، فأرغم فاروق على قبول من وقع عليه الاختيار .

هذا الفعل المتعجرف من « دبلوماسية الزوارق المسلحة » كان بداية النهاية بالنسبة إلى تفوق بريطانيا فى مصر . فلما ذاع فى البلاد خبر الإهانة التى وجهت إلى كرامة مصر ، أقسم ضابط شاب من سلاح المدفعية ، بنيته شبيهة ببنية لاعب كرة أمريكى ، وذو ابتسامة جذابة وعينين باردتين كالحية ، تقول إنه أقسم أن يثأر للاهانة التى أصابت كرامة مصر . ومع جماعة من اخوانه الضباط الذين يشاركونه أفكاره ، كون جمال عبد الناصر جماعة تؤيد الملك نحو هذه الغاية . ولكن كلما مرت السنون أصبح واضحاً للبكباشى ناصر وأصدقائه أن فاروق كان أكثر اهتماماً بالفتيات والميسر منه بالدفاع عن كرامة مصر وسيادتها . حقيقة أخذت حكومته القيادة فى تكوين الجامعة العربية وميثاق الأمن العربى فى عام ١٩٤٥ وثبتت مركز مصر كالقوة المتفوقة فى هذا التحالف ، ولكن بعد أن زالت طوارىء الحرب بسنوات عدة كانت القوات البريطانية لا تزال تحتل ثكناتها القديمة فى القاهرة ووضعت فى منطقة القناة

قوات تزيد ثمانى مرات على العدد المسموح به بموجب معاهدة ١٩٣٦ ، وبدون أية اعتراضات ظاهرة من جانب الملك أو وزرائه. وفضلا عن هذا كان ناصر ضابطا اشترك فى الحرب العربية الإسرائيلية . فرأى مدى فساد وإنعدام فاعلية الزعامة التى تتيحها الملكية المصرية للجامعة العربية فى هذا الاختبار الأول لقواتها المشتركة . وإذ واصلت البلاغات الصادرة فى القاهرة إذاعة انتصارات باهرة فى معارك كان يعرف ناصر أنها انتهت بهزائم مخجلة ، صمم على التخلص لا من البريطانيين فحسب ولكن من الملك وممن يحيط به من الساسة الفاسدين أيضاً .

ولكن السخط الذى كان يتزايد ضد استمرار احتلال القوات الأجنبية لمصر ، لم يقتصر على مجموعة ناصر من الضباط الأحرار . فبعد بناء القواعد البريطانية خلال الحرب بدأ الإحساس بوجود تيار خطر من الشعور المعادى للبريطانيين . حاولت بريطانيا مواجهة هذا بسحب قواتها من القاهرة فى عام ١٩٤٦ وعرضت سحب جميع القوات من مصر فى العام التالى . ووصل المستر إرنست بيفن وزير خارجية بريطانيا إلى اتفاق مع صدقى باشا رئيس الوزراء المصرى حول مشروع معاهدة لتحقيق انسحاب بريطانيا . ولكن المعاهدة تحطمت عندما فسرها المصريون على أنها تعنى أن بريطانيا قبلت حق مصر فى اتحاد مصر والسودان ، وهو حق كان الملك فؤاد قد أخفق فى حمل بريطانيا على قبوله فى عام ١٩٢٢ وعادت الحكومة البريطانية فاستبعدته باعتباره غير ذى موضوع ولا سبيل إلى قبوله .

بعد ذلك بما يقرب من خمس سنوات أعادت بريطانيا فتح المسألة بأن عرضت على مصر فى أكتوبر عام ١٩٥١ حلفا للدفاع عن الشرق الأوسط[١]

---

(١) نشرنا فى ذلك الحين كتيبنا بعنوان « مشروعات الدفاع عن الشرق الأوسط » حللنا فيه الفرصة المشار إليه وما ينطوى عليه من احتمالات خطيرة . — المترجم .

تقوم فيه قيادة مشتركة مكونة من بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وتركيا ومصر، بتولى أمر القواعد البريطانية فى منطقة قناة السويس. نفس الفكرة سوف تصبح فيما بعد الأساس الذى تقوم عليه ترتيبات الدفاع بين بريطانيا والعراق فى ظل ميثاق بغداد. ولكن كانت هناك عدة فوارق مهمة جعلت الاقتراح أبعد من أن يستسيغه المصريون. فمن جهة لم يكن يمكن أن يكون اختيار الشركاء أبعد عن التوفيق، فهو لا يضم الأتراك فحسب الذين سبق أن تسلطوا على مصر طيلة أكثر من ثلاثمائة عام، ولكنه كان يضم أيضاً الفرنسيين المكروهين الذين كانوا ما يزالون يخضعون الجزائر ومراكش وتونس بالقوة، والحكومة الأمريكية التى كانت تعد العامل الرئيسى فى مولد إسرائيل. وفضلا عن هذا، كان العراق قد حظى من بريطانيا بمعاملة أرق بكثير مما ظفرت به مصر، ونظراً لأنه أكثر تعرضاً للضغط السوفيتى أحس حكامه بالحاجة إلى حلف دفاعى مع بريطانيا لحماية بلدهم. ومن جهة أخرى كانت مصر تعتبر إسرائيل لا روسيا عدوها الرئيسى، وكان الرأى العام وخاصة فى صفوف الطبقات المتعلمة مصمما على ألا تتكرر التجربة التعسة التى مرت بها مصر إذ استخدمت مرتين خلال خمس وعشرين سنة ساحة قتال فى حروب تخص الغير.

ومن ثم استغل فاروق وحكومته التى عاد فرأسها النحاس باشا، فرصة العرض البريطانى كى يتظاهروا بالوطنية وذلك للتأثير فى أشد الوطنيين المصريين حماساً. رفضت المقترحات البريطانية على الفور، وألغيت بإجراء من جانب واحد، معاهدة ١٩٣٦ بين بريطانيا ومصر والحكم الثنائى فى السودان وأعلن فاروق نفسه ملكاً على السودان. وفى الوقت نفسه بدأت جماعات

مصرية من الإرهابيين الفدائيين[1] وبتشجيع من السلطات المصرية ، حملة من الأعمال الخارجة على القانون ضد القوات والمنشئات البريطانية فى منطقة القناة وسحب العمال المصريون من جميع القواعد البريطانية .

وإذ كانت بريطانيا تتصرف منذ عام ١٩٢٤ بوصفها الوصية الوحيدة على الشعب السودانى ، لهذا رفضت دعاوى فاروق بأن يكون ملكا عليهم . وأنكرت شرعية إلغاء معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد . وأظهر المستر هربرت موريسون الذى خلف بيفن وزيراً للخارجية ، إخفاق حكومته فى فهم إحساسات المصريين بأن أعلن فى خطاب مؤثر فى البرلمان أن سيادة مصر لم يكن يسيئها وجود قوات بريطانية فى ظل ميثاق دفاع عن الشرق الأوسط بأكثر مما يسيء إلى سيادة بريطانيا كونها عضواً فى حلف الأطلنطى . ولكن سوف تأتى الأيام المقبلة بما هو أسوأ من هذا الكلام المتناقض الأحمق . فنى يناير التالى هدمت القوات البريطانية قرية فى منطقة القناة بعد أن رفض أهلها تسليم إرهابيين معينين جرى الزعم بأنهم قتلوا جنودا بريطانيين فى الإسماعلية .. ثارت موجة عانية من الاحتجاج فى القاهرة حيث أحرق جمهور استشاط غضباً ، فندق شبرد وتيرف كلوب ونادى السيارات وبنك باركليز وذلك من بين عدد من المبانى المرتبطة فى الذهن المصرى بالجالية البريطانية التى قتل أثنى عشر من أفرادها فى أعمال الشغب أو أحرقوا .

كان فاروق يحصد الآن الدوامة التى ثارت من ذلك التظاهر بالوطنية الذى دبره قبل ذلك بثلاثة أشهر فقط . وفى لحظة من الذعر أعلن الأحكام العرفية ، وأقال النحاس وعدة وزراء آخرين عرفوا بتشجيع المتظاهرين ، وعين أحد محاسيب البلاط وهو على ماهر ، رئيساً للوزراء . وفى حرارة اللحظة

(١) سبق أن ذكرنا كيف كان الاستعمار يصف الوطنيين الذين يعارضون وجوده بأنهم إرهابيون — المترجم .

اعتبرت تصرفاته كأنها تزلف لبريطانيا كى تحميه. وعندما استأنفت بريطانيا بعد ذلك ، المفاوضات مع على ماهر حول مستقبل القواعد فى منطقة القناة ، كشف فاروق عن أن اهتمامه الأصلى مختلف جداً عن الإهتمام الذى سبق أن أوحى به تظاهره بالوطنية فى الخريف السابق . ذلك أن التوقف الذى طرأ على الفور على المناقشات حول اصرار الملك على أن تعترف بريطانيا يدعواه فى السودان كشرط مسبق للتفاوض حول القواعد ، هذا التوقف سرعان ماجعل من الواضح أنه كان يعمل عامداً على تعثر المباحثات حتى يجعل من المستحيل على بريطانيا أن تسحب قواتها من منطقة القناة،وذلك يجعل القوات البريطانية على مقربة فتسارع إلى انقاذه فى حالة نشوء تهديد للملكية .

بعد أن طالت المفاوضات الفاشلة حتماً شهوراً عدة قرر ناصر وشركاؤه توجيه الضربة ، وأقنعوا رئيساً صوريا فى شخص اللواء محمد نجيب وهو قائد محبوب وموضع احترام كبير ولهسجل ممتاز فى الحرب العربية ـ الإسرائيلية ، نقول إنهم أقنعوه برآسة لجنة من اثنى عشر عهد اليها بمهمة رسم التفاصيل النهائية للضربة . وفى ٢٣ يوليه ١٩٥٢ استولى نجيب وناصر على السلطة باسم الجيش وأمروا الملك بالتنازل عن العرش والخروج من مصر . تردد فاروق فى أول الأمر على أمل أن يتدخل الجيش البريطانى على نحو ما لإنقاذه . ولكن عندما أدرك أنه لن يحصل على مساندة من تلك الناحية قبل مطالب نجيب ، وفى مساء ٢٦ يوليه ١٩٥٢ خرج من الأسكندرية آخر حاكم من عقب محمد على ، على ظهر اليخت الملكى وسط فرحة مجنونة من رعاياه .

خلال الستة أسابيع الأولى بقى الجيش فى الظل ، واستمر على ماهر رئيساً للوزراء . ولكن فى سبتمبر وضع ناصر نهاية لهذا التناقض . فتولى نجيب رئاسة الوزارة وأصبح القائد الأعلى ، ووضعت جميع السلطة فى أيدى لجنة الاثنى عشر التى أطلق عليها الآن اسم مجلس قيادة الثورة . وإذ ثبتت

بالتدريج أقدام حكام مصر الشبان ، ألغيت الأحزاب السياسية القديمة وحلت محلها هيئة التحرير،واعتقل زعماؤها.وقاسى الشيوعيون بمثل ما قاسى الوفديون والأحزاب الأخرى . ولإكمال اللوحة الثورية ألغيت الملكية رسميا فى يونيه ١٩٥٣ وأصبحت مصر جمهورية تولى نجيب رئاستها ورآسة الوزارة ، وكان ناصر نائبا لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية .

كان نظام الحكم الجديد قد ثبتت دعائمه بالدرجة الكافية كى يبدأ من جديد المفاوضات حول القواعد فى منطقة السويس . وبإيماءة لها مغزاها بدأوا بالتخلى عن دعوى السيادة المصرية على السودان ،تلك الدعوى التى كان فاروق يصر عليها ، وسارعت بريطانيا إلى انتهار هذه الفرصة كى تنهى وصايتها على السودان وتعترف باستقلاله . ولكنها أخفقت فى انتهاز الفرصة الموازية لتضع حداً لاحتلالها منطقة القناة مرة أخرى لم يستطع البريطانيون أن يقرروا مايريدونه فى مصر ، ودفعهم اقتناع تجاوزالحد ، إلى قبول مشورة الاستراتيجيين المحافظين بأن الدفاع عن المصالح البريطانية فى الشرق الأوسط كان مايزال يتطلب مركبا ضخما من القواعد على قناة السويس .

كان رد مصر أن زادت من حدة الهجمات الإرهابية على القوات البريطانية . وإذ عاد الجيش البريطانى فى منطقة القناة فوجد نفسه محاصراً بشعب معاد ، أصبح موقف كلا الجانبين مجمداً ، وتعقد الموقف أيضاً بالصراع على السلطة الذى كان قد نشأ بين ناصر ونجيب الذى وضح أنه أقل رغبة فى أن يكون رئيساً صوريا مما توقع مجلس قيادة الثورة وكان يتزعم حملة لإجراء انتخابات فى تاريخ مبكر . مهما بدا هذا سلبيا فقد كان مجلس قيادة الثورة يعرف أن نتيجته سوف تقتصر على عودة الأحزاب السياسية القديمة إلى الحكم . وبدلا من السماح بوقوع هذا الأمر ، قرر ناصر فى فبراير ١٩٥٤ أن عليه الآن أن يخرج إلى العلن ويتولى رئاسة الوزارة . ترك نجيب رئيسا

للجمهورية . ولكن بعد ثلاثة أيام من إعلان التغييرات قامت المظاهرات في القاهرة تطالب بإعادة نجيب إلى وضعه واضطر البوليس إلى اطلاق النار على الجماهير . عند هذه النقطة أيدى ناصر الدهاء الرزين الذى سوف يستخدمه فيما بعد في أزمات أكبر تعرضت لها زعامته . أعيد نجيب رئيساً للوزراء ، وأعلن ناصر أن الثورة قد انتهت وأن الجيش سيعود إلى ثكناته وأن الإنتخابات سوف تجرى وأن الحياة السياسية ستعود إلى ما كانت عليه من قبل . وبعبارة أخرى سوف يعاد انتخاب الوفد والعصابة القديمة وسوف يكون نجيب أداة عودتهم .

كانت النتيجة بالضبط كما رسمها ناصر . عاشت مصر في اضطراب طيلة ستة أسابيع . أدان مجلس قيادة الثورة نجيب باعتباره أداة السياسيين القدامى ؛ فأضربت النقابات وطالبت بمقاطعة الانتخابات ؛ وقامت مظاهرات تعارض انسحاب ناصر . وكان لنجيب أنصاره أيضاً وخاصة في صفوف طلاب جامعة القاهرة . ولكن بانتصاف أبريل وضح أن أنصار مجلس قيادة الثورة هم القوة الأقوى بكثير . فقبل نجيب أن يصبح رئيسا للدولة لا سلطة له وأن يكون بالفعل محدد الاقامة في قصر عابدين ؛ وعاد ناصر إلى رئاسة الوزارة باعتباره حاكم مصر الفعلى وأعلن أنه لن تجرى انتخابات لمدة ثلاث سنوات .

بعد ذلك سرعان ما استقر رأى الحكومة البريطانية على أن متطلباتها الاستراتيجية تحتاج إلى اعادة توزيع قوات بريطانيا المقاتلة في جيوب صغيرة سهلة الحركة والانتقال ، حول البحر المتوسط بدلا من تركيزها في منطقة القناة . فبعثتنى في سبتمبر ١٩٥٤ إلى القاهرة لعقد المعاهدة الانجليزية ـ المصرية التى بمقتضاها وافقت بريطانيا على سحب جميع قواتها من القناة ؛ وتسلمت مصر نصف القواعد على أن يقوم مقاولون مدنيون بريطانيون بإدارة النصف

الآخر باعتبار أنها مخازن وورش لخدمة المعدات البريطانية . ومن موجة الفرحة العامة التى حيت الأخبار بأن أرض مصر قد تطهرت أخيراً من القوات البريطانية ، استمد ناصر القوة لعزل نجيب كلية ، وفى نوفمبر تولى هو نفسه رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزارة .

وانتهز أيضاً الفرصة ليقضى على ماتبقى من تهديد لنظام حكمه ـ ألا وهو الأخوان المسلمون . تكونت جماعة الأخوان فى عام ١٩٣٠ بوصفها جماعة دينية ، ولكنها تحولت إلى مجموعة قومية متطرفة كلما استكان زعماء الوفد والأحزاب وتهذبوا بمرور الوقت . وما أن حل عام ١٩٤٥ ، وبرغم أن جزءاً من تنظيمها كان مايزال يشتغل بالمسائل الدينية ، فإن الجماعة تحولت إلى جمعية ارهابية سياسية كرست نفسها لاجتثاث كافة آثار النفوذ الأجنبى فى مصر . وفى عام ١٩٤٨ دبرت اغتيال النقراشى باشا رئيس الوزارء فى وقت الحرب العربية — الإسرائيلية . والآن راح المرشد الأكبر الهضيبى يندد بمجلس قيادة الثورة بسبب موافقته على احتفاظ بريطانيا بقاعدة فى منطقة القناة ولو فى ظل إدارة مدنية. وعلامة على المعارضة لمعاهدة ١٩٥٤ دبر الإخوان محاولة لاغتيال ناصر أثناء اجتماع عقد فى الاسكندرية للاحتفال بانسحاب القوات البريطانية . كان هذا هو الذريعة التى ينتظرها مجلس قيادة الثورة ، فحلت الجماعة وحكم على الهضيبى وانصاره الرئيسيين بالسجن مدى الحياة .

فى مصر كان ناصر الحاكم الغالب ، وفى خارج مصر بدأت مكانته تنمو باعتباره نبى ثورة جديدة ورمز كرامة جديدة عن طريق استقلال جميع العرب . فعلى غرار صلاح الدين وبيبرس كان قد أنشأ قاعدة مأمونة فى مصر ، وراح العالم يراقب باهتمام مشوب بالقلق ليرى ما إذا كان سوف يتبع تعاليمهما، فيستخدمها لخلق إمبراطورية مصرية جديدة فى الشرق الأوسط. وبدورة غريبة من القدر ، فإن مثل هذا النجاح الذى حققه ناصر فى مناظرة

فتوحات صلاح الدين والمماليك ، جاء من محاولات الغرب الفاشلة القضاء عليه بأكثر مما جاء نتيجة قرار محسوب من جانبه بالخروج وغزو إخوانه العرب . كثيراً ماأثر عنه القول بأن تصرفاته كانت ردفعل وفى السنوات التى أعقبت انسحاب بريطانيا قُدِّر للعالم أن يرى مايمكن أن يكون عليه شخص يفتقر إلى اللباقة وله نفوذ مؤثر ، وموقفه هوردالفعل وليس الفعل .

(٣١)

الجمهوريات العربية المتحدة والمتفرقة

كان المظنون فى معاهدة ١٩٥٤ بين انجلترا ومصر أن تستهل « عصراً جديداً من الصداقة والفهم المتبادل » . ولكن منذ البداية تقريباً سرت المرارة إلى شهر العسل . فأولا ، بعد أن أكد ناصر أنه سوف يسير فى طريق الحياد الدقيق إذا نفذ نورى السعيد مشروعه الخاص بميثاق بغداد ، شن حملة عنيفة بمجرد التوقيع على الميثاق واتهم العراق بالخروج على بقية الجامعة العربية . وهرعت بريطانيا للدفاع عن نورى فاتهمت ناصر بخرق روح الصداقة الجديدة . ثم ، على أساس أن القوى الغربية كانت قد اتفقت على حفظ توازن فى شحنات الأسلحة بين إسرائيل وجيرانها العرب، رفضت بريطانيا تزويد ناصر بالأسلحة التى كان يحتاج إليها لدعم مركز الزعامة العسكرية فى العالم العربى . كان راديو القاهرة يطلق من حين لآخر التهديدات ضد إسرائيل ، وترتب على الغارات التى كان الفدائيون يشنونها على النقب من وقت لآخر برغم ما كان يجاب عليها دائماً بعمليات ثأر إسرائيلية وحشية ، أن عملت على إبعاد العطف عن مصر وزيادة احساس بريطانيا بالالتزام إزاء إسرائيل . وكانت بريطانيا ملتزمة هى والولايات المتحدة وفرنسا بمقتضى التصريح الثلاثى الصادر عام ١٩٥٠ ، بالتدخل ضد أى معتد يسعى إلى أن يغير بالقوة الحدود التى قررتها الهدنة بالنسبة إلى إسرائيل وجيرانها . وبرغم احتجاج ناصر بأن إذاعته كانت للاستهلاك المحلى فحسب ، رفضت الحكومة البريطانية أن تطلب من البرلمان التصديق على توريد الأسلحة التى يمكن استخدامها للهجوم على إسرائيل وعلى ذلك يمكن استخدامها ضد بريطانيا وحلفائها .

كل هذا بدا معقولا فى نظر الوزارة البريطانية ومجلس العموم ؛ ولكنه لم يقنع ناصر الذى علم عن طريق مخابراته أن فرنسا لم تكن تساورها أمثال هذه المشاعر بشأن صب الأسلحة فى إسرائيل بما فى ذلك أحدث الطائرات النفاثة . وعلى ذلك أعلن ناصر فى سبتمبر ١٩٥٥ وأمام عالم غربى تملكه الرعب ، بأنه سوف يشترى الأسلحة من الكتلة السوفيتية . من الآن فصاعداً تحركت الأحداث بسرعة مخيفة نحو صدام مباشر بين مصر وبريطانيا . كان السير أنتونى إيدن رئيس وزراء بريطانيا منذ مارس ١٩٥٥ يرى يد ناصر فى كل نكسة أصيبت بها بريطانيا فى الشرق الأوسط . فالى دسائس ناصر عزى طرد الجنرال جلوب المفاجىء من منصبه كقائد اللواء العربى فى الأردن برغم أن هذا الأمر أملاه تصميم الملك حسين على أن يكون سيداً فى بيته ؛ كما عزيت إليها مظاهرة فى البحرين ضد وزير خارجية بريطانيا سلوين لويد ؛ وكان أقل اضطراب فى واحدة من مشيخات الخليج الفارسى تلقى المسئولية عنه على أكتاف ناصر .

الحقيقة أن ناصر كان أكثر اهتمامـــاً بالإصلاح الدستورى والتنمية الاقتصادية فى مصر منه بإثارة المتاعب فى الأردن أو البحرين . ففى يناير ١٩٥٦ أعلن دستور جديد ، وبعد ذلك بخمسة أشهر انتخب ناصر بدون أية معارضة رئيساً للجمهورية والسلطة التنفيذية . وفى المجال الاقتصادى كان أشد مشروعاته طموحاً وأكثرها كلفة مشروع اقامة سد جديد على النيل جنوبى أسوان بغرض زراعة ملايين من الأفدنة بالصحراء وتوفير قوة كهربية هيدروليكية لإنشاء صناعات جديدة فى مصر . كانت أمريكا وبريطانيا قد عرضتا مع البنك الدولى ، المساعدة فى تمويل هذا المشروع الضخم والحيوى ، ويرجع هذا إلى حد كبير إلى الرغبة فى استباق أية عروض روسية ، وما أن انتصف عام ١٩٥٦ حتى كانت المفاوضات من أجل هذه الغاية قد قطعت شوطاً طيباً .

ثم فجأة قرر وزير الخارجية الأمريكية فى سنة انتخاب رئيس الجمهورية ، أن ثمة مخاطرة كبيرة فى محاولة حمل الكونجرس على أن يوافق على مساهمة أمريكا فى سد ناصر ضد معارضة المؤثرات الصهيونية ، وهى معارضة دعمها الآن مؤيدو الصين الوطنية وأثار ناصر غضبها قبل ذلك بوقت قليل عندما اعترف بالصين الشيوعية . وبناء على ذلك أعلن المسترجون فوستر دلاس فى ١٩ يوليه ١٩٥٦ أن الحكومة الأمريكية ألغت مساهمتها فى السد العالى . حذت بريطانيا حذوها ، وبعد ذلك بأسبوع فان ناصر الذى كان يشك — كما أخبرنى فيما بعد — فى أن سحب العرض الإنجليزى والأمريكى ينذر بمحاولة غربية ما للضغط عليه كى يرفع الحصار المفروض على إسرائيل ، نقول إنه أعلن تأميم الشركة الإنجليزية ـ الفرنسية لقناة السويس ، وبذلك استبق بنحو ثلاث عشرة سنـــــة عودة امتياز الشركة إلى مصر والذى كان موعدها عام ١٩٦٩ .

كان رد الفعل من جانب بريطانيا وفرنسا عنيفاً ، فوصم تصرف ناصر بأنه قرصنة وعدوان[١] . وتجمعت فى البحر المتوسط قوة مشتركة كبيرة من الوحدات البرية والبحرية والجوية . وشكلت الدول البحرية جمعية من المنتفعين بقناة السويس وأرسلت وفداً إلى القاهرة برئاسة المستر روبرت منزيس رئيس وزراء إستراليا ، للضغط على ناصر حتى يوافق على وضع القناة تحت إشراف هيئة دولية . فقد زعمت فرنسا وبريطانيا أن مصر ليست مسئولة سياسياً ولا قادرة فنيا على إدارة القناة بنفسها ـ وهذه حجة سرعان ما ثبت بطلانها إذ زادت حركة المرور فى قناة السويس لتسجل أرقاماً قياسية فى ظل الإدارة المصرية . فى أول الأمر رفض ناصر بعناد قبول ما هو أقل من

(١) هذه دائما نظرة المصالح الإمبريالية إلى استرداد الشعوب لحقوقها وسيطرتها على مواردها — المترجم .

الإشراف المصرى الكامل . ولكن بسبب الضغط المتزايد من جانب الدول العربية المنتجة للنفط ـ وخاصة العراق والمملكة العربية السعودية ، التى كانت تشعر بالخوف بشأن سلامة مرور صادراتها عبر قناة السويس إلى الأسواق الغربية ، أقنع فى النهاية بتعديل موقفه بناء على تدخل داج همرشولد سكرتير عام الأمم المتحدة . وفى أوائل أكتوبر تم الوصول إلى اتفاق بين وزراء خارجية بريطانيا وفرنسا ومصر فى مقر الأمم المتحدة فى نيويورك ، وافقت فيه مصر على أن تقوم جمعية المنتفعين بقناة السويس بتحصيل رسوم المرور بالقناة من جميع المنتفعين بها وتخصيص الإيراد لهيئة القناة المصرية الجديدة بالاتفاق مع رئيسها محمود يونس ، من أجل الإدارة والتطوير والتطهير ورفع أجور المرشدين .

ولكن أى أمل فى أن هذا الاتفاق يمكن أن يسوى المشكلة ، كان أملا عقيما . فى امكان وزير خارجية فرنسا أن يوقع على ما يشاء فى نيويورك ولكن الحكومة الفرنسية كانت مصممة على الدخول فى مواجهة مع الرجل الذى ألقت عليه اللوم عن كافة متاعبها فى شمال أفريقية . وكان من رأيها أنه بمجرد قلب ناصر فسوف تهدأ الجزائر وتقبل الحكم الفرنسى إلى الأبد . وهكذا بينما تتقدم المباحثات فى نيويورك ، كان الممثلون الفرنسيون والإسرائيليون يعملون بنشاط من أجل إعداد خطة لقيام إسرائيل بغزو سيناء على أن تتدخل فرنسا للاستيلاء على قناة السويس بحجة حمايتها من الخسائر التى تسببها الحرب . ومن المفجع بالنسبة إلى سمعة بريطانيا فى العالم العربى أنها تمشت هى أيضاً مع المشروع الفرنسى عندما غزا الإسرائيليون الأرض المصرية فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، وهى إذ ألقت القنابل على المطارات المصرية وأنزلت القوات فى بورسعيد وفى منطقة القناة ، مزقت اتفاقية عام ١٩٥٤ مع مصر

ومزقت التصريح الثلاثي الذى التزمت فيه هى وفرنسا بمساعدة ضحية العدوان وليس بمساعدة المعتدى .

بعمل جنونى واحد أكدت بريطانيا وفرنسا أعمق شكوك العرب فى أن إسرائيل أنشئت لتكون رأس جسر لهم كى يعودوا إلى العالم العربى ويغزوه من جديد وأكثر من هذا أنهم أخفقوا تماما فى تحقيق غرضهم الأصلى وهو القضاء على ناصر . ذلك أنه عندما فرض الثقل الساحق للرأى العالمى فى الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة ، انسحاب القوات الإنجليزية والفرنسية والإسرائيلية التى استولت على منطقة القناة وشبه جزيرة سيناء ، أصبح ناصر فى وقت واحد شهيداً وبطلا فى أعين العالم العربى بأسره . فمن مسقط إلى عمان كان كل صاحب متجر ومقهى يعرض صورته، وأصبح اسمه مرادفا للانتصار على « الإمبريالية » .

مثل هذه المكانة والشعبية كان أكثر من أن يقاومه رجل من طراز ناصر . فبدأ الآن يؤكد نفسه بوصفه زعيم الثورة العربية الجديدة . كان هدفه الأول الأردن ، وفى يناير ١٩٥٧ أعلنت مصر والعربية السعودية أنهما سوف تكونان مسئولتين فى المستقبل عن أن تدفعا إلى الأردن الاعانة السنوية التى أوقفتها بريطانيا بعد طرد الجنرال جلوب. ووافق الأردن على وضع جيشه تحت القيادة المصرية/ السورية المشتركة التى كان ناصر قد شكلها قبل الغزو الاسرائيلى ، وألغى المعاهدة المعقودة فى عام ١٩٤٦ بين إنجلترا والأردن. ولما أعلن الرئيس أيزنهاور « مذهبه » المشهور عن تقديم المعونة إلى الشرق الأوسط لمقاومة الشيوعية ، أوضح ناصر لدول الجامعة العربية أن المتوقع منهم أن يسيروا وراءه فى رفض أية مساعدة أمريكية تحمل معها الالتزام بالاشتراك فى حروب الكتلة الغربية.

كانت العلاقة الجديدة مع الأردن قصيرة الأمد جـــداً . فسرعان ما اكتشف الملك حسين أن ثمة مؤامرة لقلبه كان يدبرها رئيس الأركان الذى سبق أن عينه ليحل محل جلوب . وإذ ألقى مسئولية المؤامرة على عاتق ناصر ، قمع بسرعة المجموعات الموالية لناصر فى البرلمان والجيش . ألغيت جميع الأحزاب السياسية فى الأردن ، فى محاولة لسحق الساسة الموالين لناصر ممن اتهموا بالتآمر لـكى تستولى مصر على الأردن . حكم حسين الآن كعاهل مطلق ، تحميه قواته من البدو ، وكشخصية مستعدة للقتال تتحدى كل قوة ناصر ومكانته ودعوته ، وخاصة فى صفوف الأغلبية الفلسطينية الساخطة من رعاياه .

بنهاية عام ١٩٥٧ كان نفوذ ناصر قد بلغ أبعاداً هائلة ، وكان فى سوريا أكثر منه فى أى مكان آخر . كانت سوريا تهزها منذ عام ١٩٤٩ سلسلة من الانتفاضات السياسية . ففى مارس ١٩٤٩ قام الجيش بانقلاب أدى إلى اعتقال الرئيس شكرى القوتلى وحل جميع الأحزاب السياسية أعقب ذلك انقلاب مضـــاد فى أغسطس ثم نشبت ثورة ثالثة فى ديسمبر بقيادة أديب الشيشكلى طردت قادة ثورة أغسطس على أساس أنهم كانوا يتآمرون مع نورى السعيد على إدخال سوريا فى اتحاد الهلال الخصيب مع العراق . أقام الشيشكلى دكتاتورية عسكرية تضم شخصيات مدنية صورية . وكان أسلوبه فى الزعامة يتـكون إلى حد كبير من الإدعاء بأنه يقضى على ما تتعرض له سوريا من تهديدات هو نفسه اخترعها . وعلى رأس القائمة عراق نورى وهو البلد الذى سبق أن وقع عليه اختيار الفرنسيين أثناء احتلالهم عندما بدأوا يشوهون سمعة الهلال الخصيب باعتباره مؤامرة بريطانية وعرافية للاستيلاء على سوريا .

بعد خمس سنوات من الحـكم سقط الشيشكلى نتيجة ثورة عسكرية قام

بها الجيش . وعاد شكرى القوتلى رئيساً للجمهورية ، وظل الجيش يشغل مقعداً خلفياً طيلة أربع سنوات . ولكن كان فى صفوف العسكريين شخصية يزداد نفوذها وهى العقيد عبد الحميد السراج . كضابط شاب طموح غير هياب ، وكمعجب متحمس بناصر ، أصبح السراج رئيس المكتب الثانى ، وجمع فى يده بصفته هذه سلطة تفوق كثيراً الوظائف المعتادة التى يضطلع بها رئيس للمخابرات . وبفضله من جهة ، وبسبب قصة نجاح ناصر من جهة أخرى ، أصبحت الغلبة فى الجيش للعنصر الموالى لمصر .

فى هذه الأثناء وفى الميدان السياسى ، لم تجد سوريا الاستقرار الذى كان متوقعاً بعد سقوط الشيشكلى وعودة حكم مدنى . فحزب البعث الذى أنشأه ميشيل عفلق فى عام ١٩٤٠ لنشر المثل الأعلى عن وحدة عربية تضم سوريا ولبنان والعراق والأردن ، والذى كان من قبل أقوى قوة سياسية فى سوريا ، هذا الحزب راح يفقد بسرعة الأرض التى يقف عليها برغم اندماجه مع الاشتراكيين الذين يتزعمهم أكرم الحورانى . ومما زاد من الخلط أن البعثيين انقسموا الآن إلى مجموعات ثلاث : واحدة تحبذ الاتحاد مع مصر ، وواحدة تحبذه مع العراق ، والثالثة وهى جماعة الحورانى تريد الاستقلال عن الاثنين .

استفادت الشيوعية من هذه الانقسامات ، وعندما ساءت سمعة الغرب بعد الهجوم الذى اشتركت فيه إسرائيل وانجلترا وفرنسا على مصر فى عام ١٩٥٦ ، وقع اختيار الروس على سوريا لتكون هدفهم الأول فى حملتهم من أجل التغلغل . فعجلوا بعروضهم بتقديم الأسلحة والمعونة الفنية ، وإذ تولى عدة من الشيوعيين المعروفين مناصب عالية فى الحكومة ، بدأ ناصر وأنصاره فى دمشق يدركون أن سوريا فى خطر من أن تصبح تابعا روسيا . وفى الوقت نفسه كانت مكانة ناصر تقترب من أعلى مستوى لها وخاصة فى صفوف

الجيش السورى . خرج السراج الآن إلى العلانية ، وبمهارة وجرأة كبيرتين، انقض على الشيوعيين البارزين . أما القوتلى الذى أحس الآن بالتعب وتتقدم به السن ، فكان على استعداد كاف للتنازل عن منصبه الصعب ؛ وفى أول فبراير ١٩٥٨ وقع هو وناصر على اتفاق يوحد بين مصر وسوريا باسم الجمهورية العربية المتحدة . وفى الحال انتخب ناصر رئيساً للوحدة ، وأصبح السراج وزيراً للداخلية فى سوريا وحاكم البلد الفعلى، وعين المشير عبد الحكيم عامر أوثق صديق شخصى لناصر ، نائباً للرئيس فى دمشق .

بدا الآن أن زعامة ناصر للعالم العربى فى مناعة ضد أى هجوم عليها ، وعندما أسقط عبد الكريم قاسم فى نفس السنة ،الملكية العراقية وقلب الخصم العربى الرئيسى لمصر ، وهو نورى السعيد ، بدا للحظة أن الجمهورية العربية المتحدة قد تشتمل بعد قليل على منطقة الهلال الخصيب . وكان لبنان فى ذلك الوقت يعانى آلام حرب أهلية ، لولا أن التدخل من جانب بحارة الأسطول السادس الأمريكى فى آخر لحظة ، حال دون حصول خصوم الرئيس شمعون على انتصار تام بتأييد من مصر . وفى الأردن اضطر الملك حسين إلى أن يطلب المظليين البريطانيين لتعزيز مركزه ضد تجدد التهديدات بانقلاب عسكرى .

ولكن الآن جاء دور ناصر ليكون « متسكبرا ومتغطرسا » إزاء بقية العالم العربى . فإذ خدعه التصفيق الشعبى الواسع الانتشار ، أخفق فى أن يدرك أنه بينما كان كل قومى عربى متشوقا لرفع لوائه فان قلة منهم هم الذين يريدون أن يعيشوا تحت هذا اللواء . وأخفق بالمثل فى أن يعمل حسابا للاختلاف الواسع فى الأخلاق بين المصريين وشعوب سوريا والعراق . فعلى خلاف المصريين بما لهم من خلفية تتمثل فى وجود فلاحى مستقر وفى بنيان اجتماعى

مبنى إلى حد كبير على العلاقة التى تربط بين التابع والسيد[1]، فإن السوريين والعراقيين ينبثقون من تقليد طويل من الحياة القبلية، هو مزيج غريب من الإقطاع والديموقراطية، لكل رجل فيه الحق فى أن ينادى الحاكم باسمه الأول ولكل واحد من أهل القبائل الحق فى التعبير عن أفكاره ومظالمه لشيخ قبيلته ويتوقع أن يستشار بصدد القرارات التى تؤثر فى مصالحه، لا أن تملى عليه هذه القرارات. كذلك على خلاف مصر حيث كانت الثروة قد تركزت فى أيدى قلائل نسبياً، تزخر سوريا بالألوف من صغار الرأسماليين الذين يستثمرون مدخراتهم فى الصناعة، بينما نجد فى جميع أرجاء العالم العربى تجاراً وأرباب مهن سوريين يديرون ويملكون إلى جانب اللبنانيين والفلسطينيين مشروعات من كل نوع وحجم.

وهكذا كان فى وسع ناصر أن يخلق دولة اشتراكية فى مصر، تقدم للفلاحين الوديعين والمغلوبين على أمرهم، قدراً من العدالة الإجتماعية ومستويات للاسكان والتغذية والتعليم والرعاية الطبية لم يعرفوها من قبل أبداً. وإذا كانت هذه المنافع تطلبت التأميم الواسع النطاق فقد كان الذين يمكن أن يعترضوا عليها قلة. سوريا كانت قصة أخرى تماما، وعندما أعلن ناصر تأميم الصناعة الواسع النطاق فى جميع أرجاء سوريا كما فى مصر أيضاً، جاءت معارضة عنيفة من دمشق. فلم يقتصر الأمر على عدم استشارة السوريين، ولكن الألوف من صغار الرأسماليين والمدخرين أصبحوا الآن مهددين بضياع مدخراتهم.

لقد اخطأ ناصر الحساب إلى حد كبير إذ ظن أن فى امكانه أن يحرك

---

(١) لعل المؤلف استخلص هذه الفكرة من القرون التى خضعت فيها مصر لحكم المماليك ثم الأتراك العثمانيين عند ما كان أهل الزراعة وهم الغالبية الساحقة لا يملكون حقوقا فى الأرض التى كان يستغلها الحكام من غير أهل البلاد. — المترجم.

نقابات العمال ضد رجال الصناعة وحمله الأسهم فى سوريا على نحو مافعل فى مصر . ذلك أنه فى الكثير من الصناعات والشركات السورية التى شملتها قائمة التأميم ، كان حملة الأسهم يفوقون العمال عدداً بنسبة ٢ : ١ . ومع ذلك لم يتجاهل ناصر هذه الحقائق والمشاعر فحسب ، بل أنه سار خطوة أبعد عندما أعلن فى أغسطس ١٩٦١ أن جميع الوزراء السوريين سوف يسحبون من دمشق إلى القاهرة حيث يدار حكم سوريا فى المستقبل . كان هذا كثيراً جداً بالنسبة إلى البعثيين الموالين لمصر ، بل وبالنسبة إلى السراج الذى قدم استقالته على الفور وبذا أشعل شرارة الثورة التى أسفرت عن انفصال سوريا من الجمهورية العربية المتحدة بعد أسابيع قلائل .

لم تكن سوريا بالبلد الوحيد الذى أخطا فيه ناصر الحساب . فقبل أزمة السويس ارتكب أخطاء خطيرة فى السودان ، إذ عندما ظهر كأنه يضغط على السودانيين كى يتحدوا مع مصر ، حطم الكثير من الخير الذى سبق أن أحدثه تخليه السابق عن مزاعم فاروق . كان السيد عبد الرحمن زعيم حزب الأمة التى يمثل الأغلبية وينادى بالاستقلال ، إبناً جديراً بأبيه المهدى بحيث يقاوم بأقصى مافى وسعه ، أية محاولة مصرية للسيطرة على السودان ، على غرار ماسبق أن فعل أبوه . إن تكتيكات الضغط التى اتبعها ناصر لم تعمل إلا على توحيد الرأى العام السودانى ضد أى شكل من الإتحاد مع مصر . وفى تونس أيضاً جعل ناصر من الحبيب بورقيبة عدواً لدوداً بأن منح الحماية والتأييد لصالح بن يوسف العدو اللدود لبورقيبة . وفى الأردن والعربية السعودية كان راديو القاهرة يشيد بأنشطة أنصاره فى التآمر ضد حسين وسعود دون أن ينسبها اليه .

ولكن من بين جميع الذين جعلهم ناصر أعداء له ، كان أشدهم عنفا عبد الكريم قاسم فى العراق . لم يمض وقت طويل حتى تحولت الأخوة بين

الجمهوريتين العراقية والمصرية إلى تنافس مرير. فبعد الثورة بشهور قليلة بدأ قاسم يشك في أن ساعده الأيمن عبد السلام عارف يتآمر مع ناصر وهنا طرد عارف على الفور. ولكن في أوائل عام ١٩٥٩ نشبت ثورة موالية لمصر في وحدات الجيش العراقي المقيمة في منطقة الموصل، فقمعت بقسوة بعد أن قتل زعيمها في القتال الذي نشب. وبرغم أن ناصر لم يكن مسئولا عن بدء المتاعب كان هناك أدلة بالغة على أنه قدم للثوار ماهو أكثر من التأييد الأدبي، بمجرد أن بدأت الثورة. وعلى أساس هذه الأدلة أعلن قاسم الآن أن ناصر هو العدو رقم (١) في العراق، ومن الآن فصاعداً كرست الصحافة والإذاعة والتليفزيون جميعاً في العراق للتنديد برئيس مصر باعتباره الامبريالي الرئيسي ولاتهامه بالتآمر مع البريطانيين والأمريكيين، بل وأحيانا، مع الاسرائيليين لسلب العراق حريته الجديدة التي ظفربها. كان الأمر كما لو أن كل ما كان مكتوما في صدر العراق من كراهية لمصر وغيرة منها منذ قرون مضت، قد تفجر في سيل جارف من السب لايتوقف. وإذ أجاب ناصر بنفس الأسلوب متهما قاسم بأنه أداة في أيدي الشيوعية، ارتفع العراقيون إلى ذرى جديدة من الهستيريا المعادية لمصر.

من حسن حظ ناصر والعالم العربي أن قاسم خرج عن الطريق ليحفر قبره هو. فهو لم يقف عند حد إثارة ثائرة الجامعة العربية كلها بالتهديد بالاستيلاء على الكويت بالقوة، ولكنه نجح أيضاً في أن يبعد عنه كل قطاع من الرأي العام العراقي باستثناء الشيوعيين، بأن قمع كل نشاط سياسي في العراق عدا النشاط الذي يقوم به اليسار المتطرف. ومن حسن الحظ أيضاً أن الروس ارتكبوا الآن غلطتهم الكبيرة عندما سمحوا للشيوعيين العراقيين بالاندفاع بعد ثورة الموصل والعمل على أن يجعلوا من أنفسهم القوة السياسية الوحيدة التي تقف وراء قاسم. كان هذا أكثر ممايستطيع الجيش أن يبتلعه،

وفى فبراير ١٩٦٣ حدث انقلاب فى العراق أزال حكم قاسم وأقام حكومة يرأسها عارف وتضم عنصراً بعثياً قوياً .

بعد ذلك بشهر اقتفى الجيش السورى حذو العراق وأخرج «الانفصاليين» . وهكذا مع الإنقلاب الموالى لمصر فى اليمن والذى قضى فى سبتمبر ١٩٦٢ على الإمامة التى عفا عليها الزمن ، ومع تنصيب أحمد بن بيلا رئيساً جديداً للوزارة بالجزائر فى السنة ذاتها ، عاد ناصر فبدا أنه يتمتع بتهليل شعبى واسع الانتشار فى صفوف العرب . ولإكمال العملية ، وافقت مصر وسوريا والعراق فى ابريل ١٩٦٣ على اقتراح بإنشاء مايدعى اتحاد فيدرالى بين البلاد الثلاثة ، تكون له سياسة خارجية مشتركة ونظام موحد للدفاع .

وبرغم أن نوع الإتحاد الذى تصوروه كان من نوع الكومنولث أكثر من أن يكون إتحاداً فيدرالياً ، يحتفظ فيه لكل عضو بقدر واسع من الاستقلال الذاتى ، كان المأمول فى ذلك الوقت أنه قد يسجل خطوة هامة نحو إنهاء المنازعات التى ظلت طويلا تقسم العالم العربى . ولكن فى غضون شهرين كانت الحكومة البعثية الجديدة فى سوريا تشتبك فى نزاع مع ناصر بنفس العنف الذى أبداه « الانفصاليون » الذين حلت محلهم ، وتتهمه بمحاولة إعادة فرض الوحدة القديمة التى رفضتها سوريا فى عام ١٩٦١ . وفى الوقت نفسه بدأت تبرد العلاقات بين مصر والبعثيين فى العراق . وأصبح واضحا جداً أنه طالما يمسك البعث بالسلطة فى سوريا والعراق فلن يكون فى الامكان تحقيق أى إتحاد جدير بالاسم مع مصر . أولا لأن صلاح البيطار رئيس وزراء سوريا البعثى بعد ثورة مارس ١٩٦٣ كان من بين الذين وقعوا على قرار انفصال سوريا فى عام ١٩٦١ ، ولأن إدراج العراق فى مشروع الاتحاد الفيدرالى الذى تبناه البيطار ، كان واضحاً أن الغرض منه ادخال العراق كقوة توازن مصر ، وضمان استقلال سوريا الذاتى عن طريق الإيقاع بين بغداد والقاهرة وادامة

أهمية شد الحبل القديمة بين العراق ومصر . ومن جهة أخرى شاهت سمعة الجناح الموالى لمصر فى صفوف البعثيين السوريين بعد أن حاول ناصر فرض طرازه من الاشتراكية على سوريا بالرغم منها ، وكانت مكانته عند الجيوش السورية والعراقية تفوقها المخاوف الشعبية من سيطرة مصر وهو ما كان البعث يستغله باستمرار .

أما إلى أى حد سوف يقنع ناصر فلا يحرك شعبيته عند العسكريين ويجدد الضغط على دمشق وبغداد ، فيتوقف على مبلغ ما تعلمه من الماضى ومدى اعترافه تماما بأن السوريين والعراقيين الأباة لن يخضعوا فى استكانة للسيطرة المصرية . من المؤكد أنه كان حريصاً عن تفكير وروية على ألا يعارض إدخال العراق فى المشروع السورى أو يحاول ويرغم السوريين على قبول اتحاد أوثق . بل أنه وقع على بيان مشترك يؤكد أهمية تجنب أى تكرار (للاخطاء الماضية) ؛ وأن رد الفعل الهادئ نسبياً من جانبه إزاء تشويه البعثيين لاسمه ، يوحى بأن التجربة حولته إلى رجل دولة وليس ديماجوجيا فحسب .

ويبدو أيضا أن موقف ناصر الحالى من الملك حسين يأخذ فى الحسبان اعتبارات استراتيجية أوسع اعتاد أن يتجاهلها من قبـــل . بالطبع تبقى إمكانية أنه إذا قدر لمصر وسوريا والعراق أن يتحدوا حقيقة فإن مايترتب على هذا من عزلة الأردن قد يثير ثورة فيه تؤدى إلى الإطاحة بحسين . هذا العنصر المتفجر لم يخفف منه تماماً ارتياب الملك المستمر فى الفلسطينيين فى بلده الذين يفوقون البدو عدداً بنسبة ٢ : ١ . إن الفلسطينيين الذين كانو يعاملون كأنهم مواطنون من الدرجة الثانية وكادوا لا يعينون أبداً فى مراكز المسئولية ، تقول إنهم — وخاصة اللاجئين فى الأردن — وعـــددهم يزيد الآن على ٧٠٠٫٠٠٠ ، قد يقلبون ظهر المجن إذا أحسوا أن الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة قد يوفر لهم مكانة أفضل ودوراً ووظائف لائقة . ويرغم هذا توحى

جميع الدلائل منذ عام ١٩٦٢ بأن ناصر لم يعد يحرض أتباعه على مهاجمة حسين ، لا بسبب أى حب مفاجيء للملكية الهاشمية ، ولكن الأحرى بسبب الخوف من أن يتخذ الإسرائيليون من انقلاب فى عمان اصالح مصر ، ذريعة لاحتلال بقية فلسطين العربية حتى الضفة الغربية من الأردن . هذه الهدنة أكدها بعد ذلك قرار مؤتمر القمة من دول الجامعة العربية فى يناير ١٩٦٤ ، بانهاء الخلافات ، ووقف جميع الحملات التى تشنها وسائل الإعلام ، وتدعيم العلاقات بين الدول العربية الشقيقة .

أما عن الخطوة التالية التى يمكن أن يتخذها ناصر ، فهذا من العناصر المجهولة التى تجعل كل تنبؤ بصدد مستقبل الشرق الأوسط ، لعبة لا يمارسها سوى الحمقى . فبغض النظر عن أى شيء آخر ، فإن طبيعة ناصر نفسه تحتوى على مزيج لا يمكن التنبؤ به من الجلد والتخوف . فما من شيء كان يمكن أن يكون أشد تصميما من الطريقة التى سحق بها الإخوان المسلمين بعد المعاهدة الإنجليزية — المصرية ؛ إلا أنه فى أكثر من مناسبة خلال المفاوضات التى دارت بيننا فى عام ١٩٥٤ ، كان يظهر خوفاً مفرطا من أن أى تنازل من جانبه قد يثير المظاهرات على أيدى أنصار نجيب من طلبة جامعة القاهرة . وخلال أزمة السويس كلها فى عام ١٩٥٦ قاد سياسة مصر بالجرأة الثابتة التى يتصف بها لاعب بوكر فى يده الأوراق الرابحة ، لكنه عندما بلغت مكانته الذروة بعد ذلك فسر اتجاهه المتزايد إلى التغيب عن القاهرة على أنه لازم كى يحافظ على طريقته فى التفكير بعيداً عن الآراء السرية والشلل السرية . مثل هذا الازدواج فى الخلق يجعل من العسير الآن وأكثر من أى وقت مضى ، التنبؤ بردود فعل زعيم مصر إزاء التطورات المستقبلة . إن المراقبين الذين لم يتذكروا سوى حملاته العنيفة على نورى لأنه خرج على صفوف الجامعة العربية فى وقت ميثاق بغداد ، أولئك المراقبين ثبت أنهم مخطئون تماما عندما تنبأوا بعنف رد

الفعل من جانبه عندما انفصلت سوريا من الجمهورية العربية المتحدة فى عام ١٩٦١ . فى هذه المرة كان العامل الحاسم هو الجانب الحذر من طبيعته . وعلى ذلك ربما تعلم ناصر مما أصابه من خيبة أمل فى الماضى أن أسلم سياسة هى سياسة الصبر ومقاومة الإغراء بتحقيق مكاسب سريعة يدوى صداها لأن الرأى العام العربى ليس مهيأ بعد لقبول مصر باعتبارها القوة الغالبة .

شىء واحد يمكن أن نكون منه على يقين تماما هو أن ناصر سوف يمارس تأثيره ومكانته بصورة متزايدة بوصفه زعيم العرب الأعلى ونبى الثورة العربية الثانية لكى يلعب دوراً كزعيم للملايين غير الملتزمين بمعسكر معين ، فى أفريقيا وآسيا ، ويسير بسياسة مصر الخارجية فى طريق الحياد ، متجنبا أى التزام نحو أى من كتلتى القوتين الأعظم . فمنذ قرر رأى ناصر على تخليص مصر من جميع القوات البريطانية ، كان على اقتناع بأنه مهما كانت الصعاب التى قد يسببها هذا الموقف له من ناحية الحصول على الأسلحة من الغرب ، فإن على مصر أن تنتهج سياسة حياد. ولكنه لم يتعلم الدرس الهام جداً وهو أن الحياد يمكن استغلاله لتحقيق مكاسب ، إلا بعد لقائه الأول مع الماريشال تيتو الذى اتخذ ناصر من تجربته الاشتراكية فى يوغوسلافيا نموذجا ينسج على منواله النظام الاقتصادى لمصر . إذا كان تيتو قد استطاع أن يستغل الغرب ضد الشرق دون أن يصبح متورطا فى أى من الكتلتين الشيوعية أو الغربية ، كذلك تستطيع مصر بالمثل . فباستغلال التهديد الشيوعى لسوريا والعراق منذ عام ١٩٥٨ ، وبهجماته المليئة بالحقد والغل على قاسم استطاع ناصر أن يقنع الولايات المتحدة بمساعدته كدرع ضد التسرب السوفيتى فى الشرق الأوسط ، وأن يحصل فى الوقت نفسه على معونة عسكرية وفنية بمقادير كبيرة من الاتحاد السوفيتى لتقوية جيشه وسلاح طيرانه وبناء السد العالى فى أسوان .

وعلاوة على هذا ، فمنذ مؤتمر الشعوب الأفرو ـ أسيوية الذى انعقد فى باندونج عام ١٩٥٥ ، تمثل دور مصر فى الشئون العالمية على أنه دور زعيمة لا للدول العربية فحسب ولـكن أيضا للعالم المحايد وغير الملتزم بكامله فى أفريقيا وآسيا . ولـكن حقيقة مثل هذا الدور لم تبدأ تتبلور فى ذهنه إلا بعد زيارته الأمم المتحدة فى عام ١٩٦٠ حيث وجد نفسه على المسرح العالمى إلى جانب الشخصيات الدولية من قبيل نيـكيتا خروشوف والرئيس أيزنهاور وهارولد مـكميلان وفيدل كاسترو وكوامى نـكروما ، تهلل له المجموعة الأفرو ـ أسيوية . وعلى ذلك ، فإنه منذ ذلك الوقت وجه اهتماماته بصورة متزايدة إلى قارة أفريقيا الآخذة فى اليقظة ، حيث أتاحت مهزلة الـكنغو فى عام ١٩٦٠ واحداً من المنافذ الـكثيرة التى يعظم منها التأثير المصرى . لقد انعـكس ما أعلنه الخديو اسماعيل فى ذروة النفوذ الأوربى ، من أن « مصر لم تعد قطعة من أفريقيا » . ففتحت جامعة القاهرة الأبواب على مصاريعها أمام الطلاب الأفريقيين ، وتـكونت جماعة اسلامية جديدة باسم المجلس الأعلى للشئون الاسلامية للعمل على نشر الاسلام فى الدول الأفريقية حديثة العهد بالاستقلال والدول شبه المستقلة . للنجاح فى مثل هذه المهمة ، فما من بلد هو أحسن من مصر موقعا من الناحيتين السياسة والجغرافية ، فهى الجسر البرى بين أفريقيا وآسيا ، ولها تقليد روحى ومركز للتقدم الثقافى والتعليم يجب أن يعمل كمغناطيس قوى يجتذب الملايين غير المتعلمة فى القارة السوداء . بعد ماحدث فى الـكنغو فى عام ١٩٦٠ فإننا نـكون شاكرين إذا كانت مصر قادرة وراغبة فى توفير هذا العصر من الارشاد والاستقرار وسط مثل هذه الفوضى المعرضة للتهديد .

(٣٢)

الورطة العربية

إننا إذ نختم تاريخاً للعرب يكاد يكون من المستحيل أن نتنبأ بمستقبلهم ، إذ يقع دائماً تغيير أو جيشان يناقض ما حدث من قبل ، ويثبت بالمثل بطلان أحكم النبوءات بشأن ما يمكن أن يحدث فيما بعد. هذه الحالة الشبيهة بالبركان ترجع من جهة إلى أن العرب ربما على خلاف أى شعب آخر فى العالم باستثناء الإرلنديين ، لامعقوليون وعاطفيون إلى درجة أنهم لا يفكرون إلا بقلوبهم ولا يفكرون أبداً بعقولهم . الحقيقة أن نواحى التشابه بين خلق الارلنديين والعرب عجيبة تلفت النظر . فلا يقتصر الأمر على أن العرب يتسمون بنفس الدرجة الساحقة من الجاذبية وروح الدعاية مثل الأرلنديين ، ولكنهم أيضاً سريعو الانفعال وغير مستقرين ، وعاجزون بالمثل عن النظر إلى الناس أو المشكلات فى أى لون خلا اللون الأسود القاتم والأبيض الناصع . فما من عربى ينسى أبداً اساءة تنم عن الصداقة ، وهو بالمثل يؤكد دائما أى عمل من أعمال العداء . وما من شعب على وجه الأرض — أكثر استعداداً وبهجة لجدع أنفه ويشوه وجهه . فإذا تعرضت كرامة العرب للاساءة أو قوبلت ثقتهم بالغدر فانهم يردون أو يثأرون دون تفكير فى العواقب فتخريب السوريين لخطوط أنابيب البترول الممتدة من العراق فى أثناء أزمة السويس ، واغراق ناصر السفن فى قناة السويس لوقف الملاحة ، هذان العملان ليسا سوى مثلين قريبى العهد عن كيف يستطيع العرب أن يدمروا وسائل معاشهم إحتجاجاً على ظلم يقع عليهم ، ومن ثم فطريقهم السياسى هو دائماً تقريبا اندفاع متعجل من رد

فعل عاطفى إلى آخر؛ وحتى المصالح المحتملة للأمة العربية لا يمكن استخدامها بأى قدر من التأكد كبارومتر لقياس رد الفعل العربى .

ليس هذا مسألة طبع ومزاج فحسب . فنظام التعليم الأدبى العربى يساعد أيضا على توليد هذه الخصائص المميزة. لا يزال الأدب العربى يدرس فى المدارس منذ أكثر من ألف سنة ، ولما كان مثل هذا الأدب يمجد المفاهيم القبلية عن الفردية والطقوس القديمة عن المنازعات الداخلية ، فإن من الانصاف أن نقول إنه منذ أقدم العصور تربى على غذاء أدبى يتضمن من الفوضى أكثر مما يتضمن من التحليل . فبينما كان العرب على ما لاحظ ابن خلدون ، من الفاتحين الناجحين فانهم سرعان ما دمروا الأماكن التى فتحوها لأنهم بطبيعتهم ينزعون جداً إلى الفوضى والتخريب وهم سلبيون جداً بحيث لا يصلحون للادارة الجيدة[١] . فكثيراً جداً ما ركزوا على الثورة لغرض الثورة وأغفلوا أن يخططوا مقدما ماسوف يحل محل الذى تدمره الثورة . ومن الأمثلة على هذا رد فعل العرب المصحوب بالفرحة ، عند ما قام رجال تركيا الفتاة بالثورة ضد عبد الحميد . وفى وسط الحرب الأهلية فى لبنان عام ١٩٥٨ راح صائب سلام زعيم الثوار المسلمين ثم رئيس الوزراء فيما بعد ، يلقى علىّ خطبة لمدة نصف ساعة عن شرور نظام حكم شمعون . ولما طلبت منه أن يحدثنى عما يريده وعما يعارضه حدق فى وجهى بدهشة وأجاب « لقد أخبرتك. انى أطالب بالخلاص من شمعون » .

لكن برغم التأكيد على الفردية فى الأدب العربى ، فإن من الخطايا

---

(١) لم يسجل التاريخ الجديد بالثقة ، أن العرب خربوا الأماكن التى فتحوها . ففى العراق ومصر وشمال أفريقية والأندلس ، مما نذكره على سبيل المثال لا الحصر ، أقاموا المدن ، ومدوا الطرق ، وشقوا الترع ، فازدهرت الزراعة ونشطت التجارة . واهتموا بالعلوم على اختلافها ، وأصبحت أمثال بغداد والقاهرة مراكز إشعاع ثقافى وحضارى فى عصور كان الغرب فيها يعيش فى ظلمات الجهل والتأخر . — المترجم .

التى تحيط بالجنس العربى تراخيه وافتقاره إلى الأصالة . ليس العرب شعبا كسولا . بالعكس فإن تراخيهم ناشىء من احساس غريزى بالتفوق راجع إلى حضاراتهم وفتوحاتهم القديمة ، وهو احساس امتزج بمركب نقص وبخوف من الاستغلال نتيجة قرون تسلط فيها الأجانب . فمنذ قيام المؤثرات الفارسية والتركية على عهد الخلافة العباسية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية كان الأجانب هم الذين يحدثون العرب فعلا بما يتعين أن يعملوه ومن ثم يميلون إلى الظن بأن العالم الخارجى مدين لهم بعيشه وأنه يجب مساعدتهم باعتبار أن هذه المساعدة حق لهم ، وأن أية محاولة لجعل مثل هذه المساعدة مشروطة ، هى إهانة لكرامتهم .

وكما عبر ت . ا . لورنس عن الأمر ذات مرة ؛ فهم « أذكى من أن يشتغلوا « للغير » . أذكى وأشد كبرياء — إلا أنهم كثيراً ما يفتقرون إلى الأصالة إلى الحد الذى يجعلهم لا يعرفون كيف يعملون لأنفسهم . فبخلاف العقيدة الإسلامية والشعر ولغتهم التى لاتقبل المقارنة ، فإن جميع الثقافة العربية والعلم العربى مستعاران ومنقولان بالفعل من شعوب أخرى(١) . وحتى اللغة العربية اليوم تظهر فى نثرها الرشيق ، آثار مؤثرات فارسية لم تكن موجودة فى لغة عرب الصحراء الأصليين المحكمة السبك والبسيطة. ولقد استعار الإسلام أيضا الكثير من أعرافه من المسيحية ومن الطقوس الوثنية التى كانت موجودة من قبله(٢) . ان الافتقار إلى فن عربى أصيل ليس غلطتهم تماما ، نظراً لأن

(١) ألم تستعر أوربا فى العصور الوسطى الثقافة والعلم من العالم العربى الاسلامى ؟ أن الحضارات والثقافات تتلاقى وتتفاعل وهذا من عوامل التقدم الذى يحققه الجنس البشرى على امتداد التاريخ . واذن ليس العرب استثناء ؛ فإذا كانوا قد استعاروا كغيرهم من كانوا قبلهم أو جاءوا بعضهم ، فقد أضافوا الكثير من عندهم وبذا أسهموا فى مجرى الحضارة الإنسانية . وهذه الحقائق سوف يشير إليها المؤلف فيما بعد . — المترجم .

(٢) سبق أن ناقشنا هذه الناحية فلا داعى للرجوع إليها — المترجم .

الشرع كان يحرم التصوير على هيئة الإنسان باعتبار أن هذا نوع من عبادة الأوثان. ونظراً لأن رسم المناظر الطبيعية والحياة الساكنة لم ينتشر إلا بعد الفتح العثمانى افتقد العرب هذا الفن الذى ظهر فى عصر متأخر. ولكن فى العصور الأخرى من الثقافة والتى لم ينـه عنهما القرآن، قنع العرب حتى فى ذروة تفوقهم الفعلى، بالاستعارة بدلا من الخلق. لقد قيل بحق إن الشعب المغلوب يأخذ بعادات وأساليب الفاتحين. ولكن العرب أخذوا أساليب الشعوب التى فتحوها، بمثل ما أخذوا من الشعوب التى حكمتهم. ففى عصر الخلافتين الأموية والعباسية كانت الثقافة الغالبة مستوردة من بيزنطه أو من فارس، والآثار العظيمة التى خلفها الإسلام فى الشام وأسبانيا كانت من عمل المهندسين وأرباب الحرف البيزنطيين، وحتى فى العصر البراق الذى جاء بعد هارون الرشيد، فليس مما يقلل من اسهام العباسيين، القول بأنه كان يكمن بوجه خاص فى شرح وترجمة أعمال أرسطو وأفلاطون ومن ثم توفير الجسر الذى يربط بين تعاليم اليونان القديمة وبين الثورة العلمية الأوربية فى السابع عشر، بدلا من أن كان يكمن فى خلق تراث من ثقافة عربية لها طابعها الخاص.

وبالمثل ففى إدارة شئون الحكم كان خلفاء بنى أمية يعتمدون اعتمادا شديدا على الجاليات النصرانية واليهودية لإدارة الدولة(١) بينما كانت الجيوش العربية تتقدم إلى منغوليا فى الشرق وإلى أسبانيا فى الغرب. واعتمد العباسيون على وزراء من الفرس وعلى فرق الحرس البريتورى ممن اختيروا من التركمان والمماليك، للمحافظة على النظام فى العاصمة والأقاليم وأصبحوا فى النهاية أسارى عبيدهم. ولم يظهروا إلى حد كبير أنهم ساخطون على ضروب الإذلال هذه إلا إذا تحركوا بفعل شخصية متفوقة مثل صلاح الدين وبيبرس ولم يكن أى

(١) كان هذا فى بداية عصر الفتوح العربية الكبرى ثم مالبث أن تغير الوضع. — المترجم.

منهما عربياً . بل وتقبلوا الاحتلال العثمانى فى استسلام إلى أن رفع محمد على راية الاستقلال فى مصر وراح اليازجى والبستانى يعملان على إحياء قوة وعظمة اللغة العربية . لم يسخط العرب على الأتراك بمثل ما سخطوا على البريطانيين والفرنسيين إذ برغم أن الأتراك كانوا أجانب إلا أنهم مسلمون وعلى ذلك فهو أقرباء العرب من حيث الدين .

لم يعمل رد الفعل العربى الأول على أن يكون موضع الإحساس به إلا فى منتصف القرن التاسع عشر بعد أن قمع الأتراك عن عمد محاولات إبراهيم لإحياء تعليم اللغة العربية . وإذ انتقلت سلسلة رد الفعل إلى مصر بدأت تتكون فى مصر مدارس جديدة من الفكر الليبرالى . أما مبلغ ما كان سيبدأ من هذا التفكير الجديد لو لم تكن الليبرالية الغربية قد أبانت الطريق ، فأمر فيه نظر . لقد مهد محمد على الطريق إلى تطبيق الأفكار الغربية على الأحوال السائدة فى الشرق ، ولكن حل رد فعل شرقى على عهد خلفائه المباشرين . ثم عندما أخذ كرومر بوصفه ممثل قوة أوربية رئيسية ، زمام المبادرة فى الحد من سلطان خديو شرقى ، عاد قادة الفكر المصرى فبدأوا يستعيرون أفكارهم من الغرب . وفى سوريا الكبرى أيضاً اعتنقت القومية العربية مبادىء النزعة العلمانية الليبرالية بالقرن التاسع عشر ، التى كانت سائدة فى بريطانيا وفرنسا . وبعد ذلك بسنوات كثيرة أعلن المربى المصرى الكبير طه حسين (أن علينا أن نتبع طريق الأوربيين حتى نكون لهم أنداداً وشركاء فى الحضارة) . وهكذا خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر وحتى الثلاثينات من القرن العشرين كانت حركة الاستقلال العربية تستمد فلسفتها من أوربا . وهذا يفسر كيف أنه عندما حلت الدول الأوربية محل الإمبراطورية العثمانية كان القادة العرب فى تلك الأيام يردعهم فى نضالهم من أجل الاستقلال ليس فقط حقائق القوة بل ويردعهم أيضا حقيقـــة أنهم كانوا فى تفكيرهم

يحاكون حكامهم الجدد ويتطلعون إليهم ليستمدوا منهم أفكاراً حديثة للحكم . فبقدر ما كانوا يسخطون على معلميهم لم يكن فى وسعهم التخلص منهم .

هذه العوامل الرادعة أزالتها الحرب العالمية الثانية . فبعد عام ١٩٤٥ خسرت بريطانيا وفرنسا تفوقهما الأدبى وشهرتهما بالعصمة عن الخطأ فى التفكير السياسى الحديث . فالهزيمة المذلة التى أصابت فرنسا فى عام ١٩٤٠ حطمت مكانتها عند العرب وشجعت القوميين على الإعتقاد بأن فى الإمكان الآن طرد الفرنسيين وهم آمنون ، وبرغم أن بريطانيا برزت منتصرة كان واضحاً أن طاقاتها ومواردها قد استنفدت بحيث لم تعد قادرة على أن تواصل حكم العالم العربى وقتاً أطول وفضلا عن هـــذا كان أعظم قوتين فى العالم هما الآن الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتى وكلاهما يعارض نظام الإستعمار جهاراً وعلانية . كان فى إمكان العرب الآن أن يتحدوا فى الحرية دون أن يصطدموا بقوات تفوقهم بدرجة ساحقة أو دون أن يخسروا مصدرهم الوحيد الذى يحصلون منه على المعرفة السياسية والفنية والعلمية . أصبح الاستقلال مرادفا للحياد ، إذ استيقظ العرب على حقيقة أنهم كى يكونوا جزءاً من العالم الحديث لم يعد يتعين عليهم الخضوع لأية قوة أوربية . وأعطتهم الأمم المتحدة وضعاً جديداً من المساواة مع أعظم وأغنى الشعوب ، وكان هناك وكالاتها لتقدم لهم المال والمعونة الفنية والتدريب لتطوير صناعاتهم وزراعتهم دون أن تربط بها أى قيود أو تتطلب أية مظاهر عبودية بالمقابل ، وإذ تحول نضال الحرب الباردة بين القوتين الكبيرتين المتنافستين إلى مباراة بين الكتلتين الغربية والسوفييتية حول أيهما يستطيع أن يقدم معظم المال والمساعدة للعالم المحايد ، أصبح فى إمكان القوميين العرب من أمثال جمال عبد الناصر أن يصروا على أن ينسحب النفوذ والاحتلال الأوربى انسحابا كاملا دون خوف من تأثير هذا على تطوير

مصر . بل وكان فى إمكان أحد أصحاب الميول الفرنسية مثل الحبيب بورقيبة أن يقول « ما كان فى امكانى أبداً أن أحارب فرنسا مثل هذا الوقت الطويل لولا أنى أحببتها وتعلمت منها مثل هذا القدر الكبير ».

وكما يعبر حورانى عن الأمر فيقول :

نسخ الماضى سواء أكان ماضى « التغريب » أم كان ماضى المجتمعات التقليدية ، الأبعد عهداً . كان مجتمع جديد آخذا فى الظهور الى عالم الوجود بسرعة . . . من الناحية الاقتصادية كان هذا المجتمع الجديد يتميز بنمو الصناعة الكبيرة ، والتنظيم العقلى للزراعة ، وتدخل الحكومة الايجابى فى كليهما . ونتيجة لهذه العمليات برزت ثلاث طبقات جديدة : طبقة وسطى وطنية من المنظمين والمديرين والتجار ؛ طبقة مثقفة من الفنيين والضباط وأرباب المهن من الرجال والنساء ؛ بروليتاريا حضرية يتضخم عددها بفعل الفائض من أهل الريف ، وبدأت تنظم انفسها فى نقابات عمالية . واذ نمت هذه الطبقات تضاءل شأن طبقتين أخريين : البورجوازية التجارية بالمدن وهى بورجوازية من الأوربيين وأهل المشرق ، وملاك الأراضى فى الريف . لم تعد حياة المجتمع العامة مسألة مجموعة صغيرة من أصحاب الامتيازات ، وكبرت هذه الحياة العامة بفعل تحرير النساء وقيام وسائل جديدة للاتصال — الصحافة ، السينما ، والراديو والتليفزيون — ونمو أدب جديد يتلاءم معها ، كانت المشكلات التى أثارها ظهور هذا المجتمع الجديد ، من الجدة والتعقيد والغرابة بحيث لم يعد لدى الماضى دروس يلقنها . ربما كانت أذهان الناس وأخيلتهم ماتزال تتطلع الى الماضى تلتمس منه الإلهام وتستمد منه الدرس (سواء كان لذلك مايبرره أم لا) الذى يعلم أن العرب كانوا عظاما من قبل ويمكن أن يكونوا عظاما مرة ثانية . . . ولكنهم لم يعودوا فى الغالب يؤمنون أنهم استمدوا من الماضى معياراً لايتغير للحكمة ، ومجموعة من مبادىء سبق أن ضبطت ويجب أن تضبط دائما تنظيم المجتمع وأنشطة الدولة ، سواء كان هذا المعيار مستمداً من تقاليد السلف أو من الشرع » .

فى أماكن مثل شرق الأردن والعربية السعودية والإمارات الصغيرة بالخليج الفارسى تسير الأساليب القديمة فى طريق الزوال بطريقة أصعب منها فى أى مكان آخر . ولكن حتى هناك فان نهاية النظام الإقطاعى القبلى لم تعد مجرد حلم يراود داعية ثوريا نظرياً . والسبب هو الظمأ الذى لايرتوى للعلم فى عالم أكثر من نصف سكانه دون سن الحادية والعشرين . وحتى فى الظهير الصحراوى بالأردن يتحول البدو بسرعة ليصبحوا جيلا مستقراً من الفلاحين وسكان القرى تغريهم على التخلى عن هجراتهم الرعوية ، الفرص

لتعليم أطفالهم فى المستوطنات القروية التى أنشأتها السلطات الأردنية. والحقيقة أن قوة البوليس التى تحافظ على الأمن فى الصحراء ، والتى تضطلع بمسئولية توفير هذه التسهيلات للقبائل ، هذه القوة تقدر أن بدو الأردن الرحل لن يصبحوا فى ظرف خمسين عاما سوى ذكرى رومانسية من ذكريات الماضى .

كان حتما أن تعمل هذه التغييرات ونمو المجتمع العربى بعد الحرب العالمية الثانية على إنهاء الاحتلال الأوربى ، إذ راحت الدول العربية ، الواحدة تلو الأخرى تجبر القوات الأجنبية على الانسحاب . وأعقب هذا أن فقدت أوربا سيطرتها المالية ونفوذها عندما أقامت مصر أولا ثم العراق وغيره بعد ذلك ، نظاما من الإشتراكية التعاونية مبنيا على الإصلاح الزراعى وإعادة التوزيع وتأميم الصناعة والمصارف .

لم يتمكن الغرب من الاحتفاظ بمركز إلا فى عالم البترول ، من جهة لأن الدول العربية كانت تعتمد على الفنيين الغربيين لتشغيل آبار النفط ومعامل التكرير ، ومن جهة أخرى لأنه بعد الحرب بقليل بدأ إنتاج النفط يفوق الإستهلاك إلا أنه حتى فى هذا المجال ، وبعد أن أمم مصدق رئيس وزراء ايران ، شركة الزيت الإنجليزية — الإيرانية احتجاجا على النسبة الضئيلة من ايرادات النفط وهى النسبة التى كانت تؤول إلى ايران من أرباح الشركة ، تمكن العرب من اجبار المصالح البترولية الغربية على زيادة نصيبهم من الحصيلة إلى ٥٠ فى المائة .

لقد مات الماضى الآن وظفر العرب بحريتهم . ولكن لايزالون غير متأكدين من مصيرهم ، ولايزالون تفصلهم عن بعضهم البعض حواجز خلقها فى أول الأمر المحتلون الغربيون ثم أبقت عليها عناصر الغيرة من بعضهم بعضا . لقد فشلت بصورة محزنة أول تجربة فى الوحدة العربية ، وذلك عندما أخفقت الجامعة العربية فى إنقاذ فلسطين من أن يبتلعها الاسرائيليون عندئذ بدا أن

« عصبية » الشعب العربى العنصرية قد دفنت مع الماضى الذى مات . بل وراح الناس يتحاجون بصدد ما كان يشكل حدود الشعب العربى ، وخل عنك أى من البلاد التى يتكون منها يجب أن تكون له الزعامة . لو أن سوريا وفلسطين ولبنان بقيت كلاً مستقلا ومتحداً ، لجاز أن يتركز التفكير العربى على « سوريا الكبرى » لتكون مركز اتحاد جديد. ولكن « سوريا الكبرى » كانت مقسمة ، واليوم لن تعود الأغلبية المسيحية فى لبنان تقبل الاتحاد مع سوريا التى يشكل المسلمون الأغلبية الساحقة فيها ، بأكثر مما يتقبل الاسرائيليون فك قبضتهم على فلسطين(١) . وبالاضافة إلى هذا ، فمنذ أيام صلاح الدين كانت مصر لها النفوذ الغالب فى العالم العربى ، وبسبب موقعها الجغرافى على مفارق الطرق بشمال أفريقية والشرق الأوسط ، وزعامتها الثقافية وثروتها المتفوقة وتطورها السياسى — نقول إنها بسبب كل هذا ، هى الزعيم الطبيعى فى قضية الوحدة العربية . وعلاوة على هذا فإن دعوة جمال عبد الناصر المغناطيسية أسرت خيال المجتمع العربى الجديد وأشعلت حماسا ثوريا جديداً فى نفوس طبقة الضباط الشبان ، وأيقظت البروليتاريا العربية . أصبح ناصر رمز عصر جديد من التحرر من الظلم ورمز وحدة جديدة عن طريق الثورة ضد الأمراء والباشوات ومن يساندهم من « الامبرياليين » .

ولكن الوحدة العربية لا يمكن الظفر بها بالرغبة فيها أو باطلاق الشعارات. فبرغم أن كلا من الدول العربية حققت نتائج باهرة فى التنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعى ، إلا أنها أخفقت بصفتها الجماعية فى إحياء « العصبية » القديمة إلا بالمعنى السلبى البحت وهو كونها تعارض التهديد الممثل فى التوسع الإسرائيلى . فهل تستطيع أية قضية أخرى أكثر إيجابية من هذه ، أن توحد العرب كما توحدوا من قديم ؟

---

(١) قياس مع كل فارق . كما ان الاسرائيليين ان يقبلوا وإنما سيرغمون على هذا . — المترجم .

كان ثمة إيحاء أحياناً بأن الإسلام يمكن أن ينجح حيث أخفقت محاولات أخرى. إلا أن دراسة التاريخ العربى تجبرنا على أن نستنتج أن ابن خلدون كان على حق فى تأكيده أن الدين لا يستطيع بنفسه أن يخلق مجتمعاً سياسياً ولكنه إنما يدعم مجتمعا خلق نفسه على أساس صلب وطبيعى. حقيقة عاش الدين الإسلامى والشقاقات فيه أقل منها فى المسيحية، لأن العربية أصبحت اللغة المشتركة التى يتحدث بها أتباعه. ولقد لاحظ المفكر السورى الحديث رشيد رضا أن الدين حافظ على اللغة وحافظت اللغة على الدين. وصحيح أيضاً أن الانقسامات والفرق التى ظهرت فى داخل الحظيرة الإسلامية كانت من خلق غير العرب. فالشيعة والدروز والإسماعيلية مثلا، استمدوا الإلهام من مؤثرات فارسية تعارض مذهب أهل السنة والجماعة الذى كان يأخذ به العرب. إلا أنه يكاد أن لا يكون اتحاد إسلامى بحت ترتيباً عملياً فى العالم العربى الحديث[1]. فمن جهة، سوف ينطوى على إحياء الخلافة فى صورة أو أخرى. ولقد ناقشت مؤتمرات إسلامية عدة فى العشرينات من القرن الحالى هذه الفكرة ولكن دون الوصول إلى أى اتفاق. ذلك أنه منذ بدأت الخلافة كانت فى جوهرها نظاما سياسيا كان فيه الرئيس الدينى هو رئيس الدولة وجمع فى يده السلطتين الروحية والزمنية. واحياؤها يعنى التخلى عن النظام العلمانى للحكم فيحصل انفصال بين الدين والدولة، وهو الانفصال الذى كان خلال الأربعين سنة الماضية، علامة التقدم والتجديد بالنسبة إلى القومية العربية الجديدة.

---

(١) يظهر أن المؤلف استند فى هذا إلى الدعوة التى ترددت بشأن ما عرف باسم «الجامعة الإسلامية»، ولكن الذى يتضح من اللقاءات والمؤتمرات التى ضمت قادة المسلمين فى البلاد المختلفة من الرسميين وآخرها المؤتمر الاسلامى بلاهور فى أوائل عام ١٩٧٤، أنهم يهدفون أولا وقبل كل شىء إلى الاتفاق على خطوط مشتركة للتعاون فى المجالات المختلفة من أجل التنمية والتقدم، ولم يبحثوا فكرة إنشاء تنظيم سياسى أو اتحاد بعبارة أخرى. — المترجم.

ومن المستحيل أيضاً كيف يمكن للثيوقراطية فى المملكة العربية السعودية حيث لامكان للنساء فى المجتمع وحيث لا يزال ترك الصيام أو تعاطى الخمر يعاقب بالجلد أو بقطع اليد ، تقول كيف يمكن لها أن تتعايش فى اتحاد دينى مع مصر حيث تحررت المرأة وحيث ينظر ناصر إلى الحج إلى مكة على أنه إلى حد كبير فرصة لمؤتمر دورى تناقش فيه المشكلات السياسية ، أو مع الدولة العلمانية فى تونس حيث عارض بورقيبة علنا الصيام فى رمضان(١) وصب الازدراء على الحجاب باعتباره علامة للفضيلة . وفضلا عن هذا ، فإن تجربة العرب فى الاتحادات الإسلامية الماضية ، تكاد لا تشجع على تكرارها ، ذلك أنه عن طريق اعتناق العقيدة الإسلامية تمكن الفرس والمماليك من فرض مشيئتهم وفى النهاية فرض سلطانهم على العالم العربى . ونظراً لأنه يكاد لا يمكن لاتحاد إسلامى أن يستبعد المسلمين من غير العرب ، فسوف يبدو كأنه إحياء لضروب السيطرة القديمة هذه وبذا يشكل تهديداً للاستقلال العربى.

ويكاد قيام اتحاد سياسى ألا يكون جواباً عملياً بدرجة أكثر ، إلا فى صورة مفككة جداً تتيح أكمل الاستقلال الذاتى فى المسائل المالية والداخلية. ذلك أن أية محاولة من جانب دولة عربية أو زعيم عربى لفرض التجانس السياسى على العالم العربى ، هذه المحاولة سوف تلقى المقاومة فى كل مكان ما من بيت بنى باقامة السقف أولا ؛ ومن المؤكد تقريباً أن أية محاولة للعودة إلى ذلك الطراز من الاتحاد الذى كان قائما بين مصر وسوريا فيما بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٦١ ، سوف تنتهى بنكبة أخرى وتترك العرب أبعد عن ذى قبل من الوحدة التى يسعون إليها . وبالمثل، ففكرة الملك حسين عن تكوين أربعة اتحادات عربية مختلفة : وحدة مغربية تضم مراكش والجزائر وتونس ؛

---

(١) يبدو أن ثمة لبساً بهذا الشأن ، فبورقيبة لم يعارض الصيام وإنما عارض محاولة البعض اتخاذ هذه الفريضة ذريعة للتكاسل فى العمل . — المترجم .

اتحاد فى وادى النيل بين مصر والسودان ؛ اتحاد الهلال الخصيب ويشتمل على العراق وسوريا ولبنان والأردن ؛ واتحاد شبه الجزيرة العربية — هذه الفكرة قد تكون معقولة من الناحية الجغرافية ، إلا أن من الصعب أن ترضى ناصر ان لم يكن لشىء إلا لأنها تجعل لمصر دوراً صغيراً[١] . كذلك لا تأخذ الفكرة فى الحساب حقائق قوة مصر وعلو شأنها فى العالم العربى . وأخيراً ، حتى إذا أمكن إنقاذ وتنفيذ مشروع عام ١٩٦٣ باتحاد مصر وسوريا والعراق ، فهناك الخطر من أن يسبب استبعاد الأردن وعزلته انفجاراً فى صفوف الأغلبية الفلسطينية قد يستفز إسرائيل إلى شن حرب وقائية .

وعلى ذلك ليس هناك طريق آمن وخل عنك طريق سهل ، إلى الوحدة السياسية فى داخل العالم العربى . ولكن هناك طريق واحد لدعم وتوحيد الدول العربية التى لن تقبل أن تواجه الفخاخ التى ترتبط حتما ببناء اتحاد سياسى ، ويكون هذا بتكوين مجتمع اقتصادى وفق الخطوط التى قامت عليها السوق الأوربية المشتركة . مثل هذه المحاولة لن تكون مثيرة للأنظار بمثل ما يثيرها إنشاء اتحاد سياسى ، ولكنها يمكن أن تكون أشد صلابة بكثير . وبوجه خاص يمكن أن تصنع أشياء ثلاثة . تستطيع أن تقوى العالم العربى كله عن طريق توفير سوق محلية موسعية لمنتجاته ، وعن طريق تجميع موارده وترشيد قدراته الإنتاجية تستطيع أن تساعد على حل مشكلاته المتعلقة بالتسويق فيما وراء البحار ، وتستطيع أن تنشىء الجهاز اللازم الذى يوزع على نطاق إقليمى وليس قومياً بحتاً ، المساعدة التى يمكن أن تجعلها الأمم المتحدة والبلاد الفردية متاحة للتنمية الاقتصادية والتعليم والتدريب الفنى .

(١) شهدت السنوات الأخيرة قيام اتحاد الجمهوريات العربية (مصر وسوريا وليبيا ، واتحاد الامارات العربية) كما تجرى محاولة وحدة بين الدولتين اليمنيتين . — المترجم .

عندئذ يستطيع المالكون أن يساعدوا المحرومين ، لا فى صورة إحسان وهو ما لا تريد الدول العربية الغنية أن تقدمه بمثل ما ترفض الدول العربية الفقيرة أن تتلقاه ، ولكن كاستثمار فى استقرار وتطوير الشعب العربى كله .

بالطبع سوف تكون هناك مشكلات يجب التغلب عليها من قبيل الاختلافات بين النظم الإقتصادية فى مصر ولبنان مثلا ، أو فى العراق ومشيخات الخليج الفارسى[1]. ولكن كما أظهرت التجربة الأوربية يستطيع مجتمع اقتصادى أن يربط على نحو فعال ، الجهود والقدرات الإنتاجية لكل من المشروع الخاص والصناعات والخدمات المؤممة . وعلاوة على هذا هناك الآن جهاز للتعاون الإقتصادى فى ظل ميثاق الجامعة العربية واتفاق الوحدة الإقتصادية الذى وقعت عليه مصر وسوريا والأردن والكويت ومراكش فى عام ١٩٦٢ . وبهذا لا توجد عقبة لا يمكن تخطيها ، فى طريق قيام سوق مشتركة عربية ، وسوف يتحقق بالتأكيد مكسب ضخم إذا أمكن انشاء سوق كهذه[2].وكما حدثنى ذلك الفلسطينى العظيم موسى العلمى الذى عملت جمعية التنمية العربية التى أنشأها ، على تعليم اللاجئين الفلسطينيين حرفة طيبة ، بأكثر مما علمتهم أية حكومة عربية ، أقول إنه أخبرنى بأنه لا خير فى صب المال لتنمية الصناعة والتجارة إذا لم يمكن بيع المنتجات . إن اهتماما أكثر مما ينبغى ، يوجه اليوم إلى بناء المصانع الجديدة وتدريب العاملين الجدد فى العالم المتخلف ، ويوجه اهتمام أقل مما يجب إلى ايجاد سوق لما ينتجونه . هذه المشكلة يمكن لمجتمع اقتصادى عربى وبالمساندة

(١) استقلت قطر والبحرين ، كما تكونت دولة الامارات العربية من المشيخات التى كان يضمها ما كان يعرف باسم ساحل الهدنة . — المترجم .

(٢) أنشئت فى عام ١٩٦٤ بموجب قرار أصدره مجلس الوحدة الاقتصادية العربية (أنظر الفصل الأول من كتابنا « اقتصاديات العالم العربى من الخليج إلى المحيط » ، الطبعة الثالثة) . — المترجم .

من الأمم المتحدة ، أن يقطع شوطاً بعيداً فى طريق حلها .

قد يلغى الماضى بالنسبة إلى المدرسة الجديدة من القومية العربية ، ولكن يحسن بالعرب وهم يفكرون فى مشكلات الوحدة العربية أو يرددون صدى شعاراتها ، أن يذكروا أن الحاجة الاقتصادية أكثر من حماس العقيدة الاسلامية الجديدة فى كسب الناس إليها ، هى التى أخرجت الجيوش العربية بقيادة خالد بن الوليد لتصنع أول وأعظم اتحاد فى التاريخ العربى . إن الحاجة الاقتصادية تعود الآن فتشير اليهم ، وإذا استطاع المعلمون والفنيون ببلاد العرب الحديثة أن يسيروا الآن فى الطريق الذى سلكه خالد بن الوليد ويصنعوا اتحاداً جديداً من الثروة والصناعة العربية لكان الكسب الذى يتحقق للأمن العربى والقوة العربية مما لا يمكن تخيله . كذلك سوف يكون الكسب الذى يعود على العالم بوجه عام . ذلك أنه عن طريق وحدة متزايدة يمكن للعرب أن يبلغوا يوما من الأيام من القوة والثقة بالنفس ما يجعلهم يعيشون فى سلام مع إسرائيل(١) والعالم الخارجى .

وسط جميع الانتفاضات والتحولات التى تعرض لها العالم العربى فى السنوات الخمس عشرة الأخيرة ،والتى سوف يتعرض لها بغير شك فى المستقبل، بقى عنصر واحد ثابتاً ، هو الخوف من اسرائيل باعتبارها الطرف الرفيع لاسفين غربى دق فى الشرق الأوسط كى يسهل عودة «القوى الامبريالية» من جديد . إن التصرف من جانب انجلترا وفرنسا فى وقت أزمة السويس بدأ يؤكد هذه المخاوف ، ولن يزيلها اليوم أى حديث أو إنكارات أو تأكيدات . إن الجراح التى أصيب بها العالم العربى منذ عام ١٩٤٨ ـ وخاصة مأساة مئات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين مضافا إليها ضروب الخلط

(١) هذا حلم فالصراع مع إسرائيل صراع مصيرى . — المترجم .

والاضطراب التى سببتها خمسائة سنة من الاحتلال الأجنبى ، هذه الجراح هى من العمق بحيث لا يمكن أن تلتئم بالكلمات الناعمة أو الحجج المنطقية . إلا أنه لا يمكن أن يكون هناك سلام حقيقى أو تفاهم بين الدول العربية وإسرائيل ، كما لا يمكن أن يكون هناك أى شعور بالطمأنينة والثقة بين العرب والغرب ، إلا إذا أزيلت هذه المخاوف والتأمت هذه الجروح .

إن بعض الحل يقع على عاتق الغرب ويقع البعض الآخر على العرب أنفسهم. من ناحية الولايات المتحدة وبريطانيا يجب أن يمتنعا عن عمل أى شىء يوحى بأنهما يحاولان فرض إرادتهما على العالم العربى ، وأن يفعلا كل شىء لمساعدة وتشجيع الوحدة العربية. إن رفض الحكومات الأمريكية والبريطانية المتعاقبة المدروس حتى للاعلان بأنها تقف إلى جانب الوحدة العربية ، هذا الرفض فسر حتما على أنه دلالة على أنها فى الحقيقة تعارضه وأن سياستها على ذلك هى سياسة « فرق تسد » كما كانت السياسة القديمة . كذلك يجب أن تتجنب الولايات المتحدة وبريطانيا محاباة المشيخات والممالك ذات الأوضاع البالية فى بلاد العرب ، لمجرد أنها مستعدة للتعاون مع الغرب ومستعدة للسماح بوجود قواعد عسكرية فى أراضيها [1] . هذا ينفر جمهرة الرأى الحيادى فى الدول العربية الكبرى مثل مصر وسوريا والعراق ؛ بل وأسوا من هذا أنه ينتهى بأن تصبح بريطانيا والولايات المتحدة خاضعتين لڤيتو « أتباعهما » — كما حدث عندما امتنعت بريطانيا عن الاعتراف بالحكومة الجمهورية فى اليمن بعد ثورة ١٩٦٢ ، لأن شيوخ حضر موت فى محمية عدن اعترضوا بأن هذا سوف يشجع الثورة فى بلادهم .

إن تجنب هذه الأخطاء والاستفزازات الماضية سوف يساعد على تحسين جو العلاقات العربية مع الغرب . ولكن لا يمكن إزالة الخوف العربى

(١) هذا الوضع تغير أخيراً وزالت القواعد المشار إليها . — المترجم .

الرئيسى من اسرائيل إلا إذا كان العرب أقوياء معنويا وكذلك ماديا بحيث يشعرون أنهم متعادلون مع اسرائيل وعلى ذلك قادرون على مقاومة أية محاولة يمكن أن تفكر فيها اسرائيل للتوسع على حسابهم . سوف يستغرق تحقيق هذا وقتا طويلا وقدراً كبيراً من الصبر . ولكنه سوف يتطلب أكثر من أى شيء ، أن يبذل العرب جهداً ضخما وبناءاً كى يخلقوا وحدة حقيقية تسير فى طريق النمو ، ولها أسس راسخة وايمان حي بمصيرها وبما تستهدفه من غرض . ذلك أنه بغير الواحدة لن تكون هناك قوة ، وبغير القوة سوف يكون هناك دائما ذلك الخوف الذى يقسم بين العرب واليهود وينكر أخوة الجنس السامى القديمة .

الزمن وحده هو الذى يمكن أن يحدثنا عما إذا كان العرب يستطيعون أن يستجمعوا القدر الكافى من الصبر والتصميم ويبتدعوا موارد كافية من الفكر الأصيل والعملى البناء لكى يحققوا فى النهاية هذه الوحدة والقوة . لقد فعلوا هذا منذ ثلاثة عشر قرنا خلت ؛ وفعلوه فى ظل صلاح الدين وبيبرس؛ وبرغم جميع المعوقات والنقائص الحالية فهم من الغموض بحيث يستطيعون أن يفعلوه مرة ثانية .

الفهرست

القسم الرابع

المحنة والنصر

القسم الخامس

التفوق التركى

القسم السادس

ريح التغيير

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٢٧١ لسنة ١٩٧٤